تُراثُ فارِس

كتب فصوله أساتذة من المستشرقين

اشترك فى كتابته وأشرف على نشره

ا . ج . أربرى

نقله إلى العربية من أساتذة كلية الآداب
جامعة القاهرة

محمد كفافى — السيد يعقوب بكر

أحمد الساداتى — محمد صقر خفاجه

أحمـــد عيسى

اشترك فى كتابته وراجع ترجمته

يحيي الخشاب



دار إحياء الكتب العربية
عيسى البابى الحلبى وشركاه

١٩٥٩

تقديم *

الفرس أمة قديمة ذات تاريخ مجيد . لهم فى الفكر أصالة يشهد بها تراثهم قبل الإسلام وبعده . وهم منذ إسلامهم يعتزون بدينهم ويذودون عن الحضارة التى انبثقت عنه . إن إسلامهم متين وقد كانت لهم مواقف مشهودة فى الذود عنه . حسبهم فخراً أن يكون « الطوسيان » فارسيين : أبو على حسن الطوسى (نظام الملك) الذى فتح المدارس النظامية فى إيران وفى العراق لكى يدفع عن الإسلام شر خصومه ؛ وناصر الدين الطوسى الذى وقف بجانب الإسلام فى ساعة العسرة حين اجتاحت جحافل هولاكو بلاد المسلمين وكادت تحرق الأخضر واليابس .

وكان الطوسى الأول سنيا وكان الثانى شيعيا ، وهكذا كان للفرس سُنةً وشيعة فضل مشكور من المسلمين جميعاً .

* * *

يعرف الذين يعنون بالحضارة الإسلامية أن روائع الأدب الفارسى لم تكن قاصرة على الفرس وحدهم ، بل إن كثيرا منها كان يتغنى بها فى مصر وفى تركيا وفى الهند وغيرها من الدول الإسلامية . إن سعدى وحافظ وغيرهما من أدباء الفرس قد شغلا فى الأدب التركى مكانة تشهد بها المجلدات الضخمة التى كتبها سودى وقنوى وشمعى . وإذا كان الخيام قد لقى فى السنوات الأخيرة عناية من الفرس فإن العناية به فى تركيا ليست أقل منها فى إيران .

وفى مصر عرفت الشاهنامة بالعربية للبُندارى منذ القرن السابع الهجرى . وازدادت بعد ذلك عناية المصريين بالتراث الفارسى ، يشهد بذلك الطبعة الأنيقة لكلستان سعدى وشرح هذا الكتاب لسودى وغير هذين الكتابين مما أخرجت المطبعة الأميرية (بولاق) منذ أكثر من مائة سنة . ثم إن المثنوى ظفر بترجمة عربية

قديمة وكذلك الـگلستان . وبلغت العناية بالآداب الفارسية إلى حد أن بعض شعراء العرب نظموا بالفارسية .

وفى العصر الحاضر ظفرت الدراسات الفارسية بجهود ضخم يشهد بما للفرس من أثر قيم فى توجيه ناحية هامة من نواحى النشاط الثقافى فى بلادنا . فكتب كثيرة أغنت المكتبة العربية بتراث الفرس . ومنذ أنشئت الجامعة المصرية الحديثة واللغة الفارسية تدرس جنباً إلى جنب مع اللغة العربية فى قسم اللغة العربية واللغات الشرقية حتى يكون السبيل لدراسة الحضارة الإسلامية ممهداً بمعرفة اللغتين اللتين قامت عليهما هذه الحضارة : العربية والفارسية . ونجح القسم فى أداء رسالته خير نجاح إذ نقلت إلى العربية كتب فارسية تعبر عن نواح مختلفة فى التراث الفارسى منها : كتاب تنسر ، والشاهنامة ، وتاريخ البيهقى ، ورحلة ناصر خسرو ، وچهار مقاله ، وبستان سعدى ، والگلستان ، وديوان حافظ ، ومقتطفات من المثنوى ورباعيات الخيام وغير ذلك .

وتُعنى حكومة الجمهورية العربية المتحدة أشد العناية بأن نتم ما بدأنا من نقل روائع التراث الفارسى إلى اللغة العربية وبأن ننقل إلى لغتنا كتب التاريخ الإسلامى التى كتبت بالفارسية وخاصة منذ القرن الثامن الهجرى حين حرص الفرس على تدوين هذا التاريخ بطريقة فذة وعناية لم يسبق لها مثيل .

وتزخر المتاحف فى شتى البلدان الإسلامية بروائع الفن الفارسى ، هـذا الفن الذى لا يزال حيًّا يتطور إلى ما هو أحسن بفضل ما جبلت عليه الأمة الفارسية من ذكاء العقل ورقة الذوق ودقة التعبير .

* * *

وهذا الكتاب الذى نقدمه اليوم كتبه أساتذة من الغرب بالإنجليزية وعلى رأسهم الأستاذ ا . ج . أربرى A. G. Arberry ، وتشهد كتاباتهم بما لهم من المكانة فى الدراسات الفارسية . وإنهم ليستحقون أصدق التقدير على ما بذلوا من الجهد الموفق المشكور .

وقد ساهم فى الترجمة العربية للكتاب أصدقاء من أساتذة كلية الآداب ، عكف كل منهم على ما اختار من مقالات ينقلها إلى العربية ويعلّق عليها فى دقة العالم وحرصه وأمانته .

* * *

وقد رأينا أن نحذف فقرات من مقال الدين . لأننا فى البلاد الإسلامية نحرص أشد الحرص على ألا تثار فتنة بسبب المذهب . وهناك قضايا نرى ـ كمسلمين ـ أنها لا تستحق أن تثار لتعلقها بفروع لا تنال من الأصل ، ويراها بعض المستشرقين جسيمة ذات خطر . وقد رأيتَ أن أحد الطوسيَّيْن كان سُنيًّا وأن الآخر كان شيعيا وكلاهما من الفرس الذين يدين لهم كافة المسلمين بالمحافظة على الدين نفسه .

* * *

وإنى إذ أقدم هذا الكتاب باللغة العربية يسعدنى أن يكون برهانا ساطعا على ما بين الشعبين العربى والفارسى من صلات ثقافية مكينة أساسها واحد متين هو هذا الدين الإسلامى الذى اجتمعت عليه الأمتان ، والذى عنه تفرّعت الحضارة الإسلامية بشقيها : العربى والفارسى .

يحيى الخشاب

يناير ١٩٥٩

موضوعات الكتاب

هذه ترجمة كتاب

THE LEGACY OF PERSIA

Edited by

A. J. ARBERRY

فصلٌ

فى إسلام الفرس

مقدمة بقلم يحيى الخشاب

« . . . فلما وقع ذلك فى نفسى اشتبه علىّ أمر الدين ؛ أما كتب الطب فلم أجد فيها لشىء من الأديان ذكراً يدلنى على أهداها وأصوبها ؛ وأما الملل فكثيرة مختلفة ليس منها شىء إلا وهو على ثلاثة أصناف : قوم ورثوا دينهم عن آبائهم ، وآخرون أكرهوا عليه حتى ولجوا فيه ، وآخرون يبتغون به الدنيا . وكلهم يزعم أنه على صواب وهدى ، وأن من خالفه على خطأ وضلالة . والاختلاف بينهم كثير فى أمر الخالق والخلق ، ومبتدأ الأمر ومنتهاه ، وما سوى ذلك . وكل على كل زار ، وله عدو ، وعليه عاتب . فرأيت أن أراجع علماء أهل كل ملة ، وأناظرهم فأنظر فيما يصفون، لعلّى أعرف بذلك الحق من الباطل فأختاره وألزمه على ثقة ويقين ، غير مصدق بما لا أعرف ، ولا تابع ما لا يبلغه عقلى . ففعلت ذلك وسألت ونظرت فلم أجد أحداً من الأوائل يزيد على مدح دينه ، وذم ما يخالفه من الأديان . فاستبان لى أنهم بالهوى يحتجون ويتكلمون ، لا بالعدل ، ولم أجد عند أحد منهم صفة تكون عدلا يعرفها ذو العقل ويرضى بها .

فلما رأيت ذلك لم أجد إلى متابعة أحد منهم سبيلا . . . فلما تحرزت من التصديق بما لم آمن أن يوقعنى فى مهلكة ، عدت إلى البحث عن الأديان والتماس العدل منها ؛ فلم أجد عند أحد ممن كلمته ، فى جواب ما سألته عنه ، ولا فيما ابتدأنى به ، شيئاً يحق علىّ فى عقلى أن أوقن به وأتبعه ، فقلت : أما إذ لم أصب ثقة آخذ منه فإن الرأى

أن ألزم دين آبائى . وهممت بذلك فلم أر لى فيه مخرجا ، ولا وجدت الثبوت على دين الآباء سبيلا ، ولا لى فيــه حجة ولا عذرا . فأردت التفرغ للعود إلى البحث عن الأديان والمسألة عنها ، فعرض لى تخوف قرب الأجل وسرعته . . . فلما خفت التردد رأيت ألا أتعرض لها ، وأن أقتصر على كل شىء تشهد العقول أنه برّ ، ويتفق عليه كل أهل الأديان . . . فإنا نرى الزمان مدبراً بكل مكان ، حتى كأنّ الفضل قد وُدِّع . وأصبح مفقوداً من كان عزيزاً فقده ، موجوداً ما هو ضار لمن ظفر به . وكأن الخير أصبح ذابلًا والشر نضيراً . وكأن الغىّ أقبل ضاحكا ، وأدبر الرشد باكياً. وكأن العدل أصبح غابراً ، وأصبح الجور غالباً . وكأن العلم أصبح مستوراً ، وأصبح الجهل منشوراً . وكأن اللؤم أصبح آمراً ، وأصبح الـكرم موطوءًا . وكأن الود أصبح مقطوعاً ، وأصبح الحقد موصولًا . وكأن الـكرامة قد سلبت من الصالحين وتُوُخِّىَ بها الأشرار . وكأن الغدر أصبح مستيقظاً ، وأصبح الوفاء نائماً . وكأن الـكذب أصبح غضًّا ، والصدق قاحلًا . وكأن الحق ولّى عاثراً ، وأصبح العـدوان قد جرى سبيله ، والإنصاف بائساً والباطل مستعلياً ، والهوى بالحـكام موكلًا ، والمظلوم بالخسف مقرًّا ، والظالم لنفسه فيــه مستطيلًا ، والحرص فاغراً فاه يتلقف من كل جهة ما قرب منه وما بعد عنه ، والرضا مجهوداً مفقوداً ، والأشرار يسامون السماء ، والأبرار يريدون بطن الأرض . وأصبحت المروءة مقذوفاً بها من أعلى شرف إلى أسفل مَهواة ، والدناءة مكرمة ، والرفعة مجفوّة ، والسلطان متنقلًا من أهل الفضل إلى أهل النقص، والدنيا جذلة مسرورة تقول : قد غيبت الحسنات ، وأظهرت السيئات » .

هـذا هو ما كتبه برزويه يصف حيرة نفسه أمام الأوضاع الفاسدة فى العهد الساسانى فى جميع نواحى الحياة ، دينية وسياسية واجتماعية ، وكان ذلك قبيل ظهور الإسلام .

وإذا كان برزويه ، فى كليلة ودمنة ، قد صرح بأنه لم يصل إلى الحقيقة وأنه آثر

الزهد والنسك ، فإن زميله بزرجمهر لم يتردد مثله ، بل هو ، كما يقول البيهقى ، قد ترك دين زردشت لما رأى فيه من خلل واعتنق المسيحية وخاطب أهله بما قرأ من أن نبيًّا، هو خاتم الأنبياء ، سيظهر واسمه محمد المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وأنه سيكون أول من يؤمن به إذا كتبت له السعادة بإدراكه .

ماذا كان وضع دين زردشت إذًا فى ذلك الوقت ؟ وماذا كانت عليه الحياة الاجتماعية من الفساد ؟ وما أمر السياسة التى سارت عليها الدولة الساسانية ؟ الإجابة على هذه الأسئلة تكشف عن الأسباب التى جعلت الفرس ، بعد الفتح العربى لبلادهم ، يدخلون فى دين الله أفواجا تاركين المذاهب التى دان بها آباؤهم .

أولا — وضع دين زردشت

ألف الإيرانيون حرية العقيدة منذ القدم . وفى عهد الأكمينيين كان لكل فرد أن يعتقد ما يشاء ، فكان الملك يدين بما يرى من الدين ، وله أن يغيره إذا اعتقد أن غيره أولى بالاتباع ، وكان للشعب الإيرانى مذاهبه الدينية القائمة على الخرافات التى تختلف حسب البيئات ، وهى متغيرة فى إيران ؛ وكان بجانب هذا كله جماعة المجوس، أتباع زردشت . سكن هؤلاء قمم الجبال فى آزربيجان ، وكانوا بحكم سكنهم فى أماكن نائية بعيدين عن الاختلاط بسكان الأودية ، فانكبوا على دينهم ، يحفظون كتابه ويجتهدون فى تفسير شريعته ، ويحاولون قدر طاقتهم أن ينشروا هذا الدين كلما وجدوا إلى ذلك سبيلا . ورويداً رويداً شاع دين زردشت فى إيران ، فقد انساح المجوس فى الأودية يبشرون به ، فكان الشعب يرحب بهم ويستمع إليهم . وراق لأحد الملوك دين زردشت فاعتنقه ، وكان وزيره قد اعتنقه من قبل ، فعزّ هذا الدين ، وأخذت مبادؤه تغزو نفوس الإيرانيين فدخلوا فيه بنفس السرعة التى دخلوا بها فى الإسلام فيما بعد .

دين زردشت دين عملي ، يدعو إلى الدفاع عن الوطن ، وإلى التعمير ، وإلى حفظ البدن سليما ، وإلى الكد المثمر ، وهو يحارب المرض ويعمل على الإكثار من المؤمنين. فقد كان زردشت مصلحا اجتماعيا هدف بالقواعد التي أتى بها إلى بعث الشعب الإيراني لكي ينهض ويعز ، ولم يتخذ من الدين وسيلة إلى التصوف أو الانقطاع إلى العبادة وترك العمل كما فعل بوذا في الهند ، إنما كان يقول إن العبادة هي العمل والعمل المثمر ، في حدود الطبقة التي ينتمي إليها الفرد ، وكان يحث على مكارم الأخلاق ، فهو يطلب من الفرد أن يعمل عملا طيبا ، وأن يقول قولا طيبا ، وأن يفكر إذا خلا إلى نفسه فكرا طيبا . وهو يجعل « الكذب » شر الرذائل . ولكنه بجانب ذلك أقام نظام الطبقات كما أقام الأسرة على أسس كانت مستساغة في وقته ، ولكنها في التطبيق الإجباري أفسدت فساداً شديداً ، ولم يكن في الوسع التخلص منها لأنها عدت جزءاً من الدين .

وسطر الكتاب الذي أملاه زردشت ومن حوله ، وأودعت نسخة منه في قصر الملك ، والتف الإيرانيون حول مبادئه ، حتى إذا جاء الإسكندر غازيا لإيران فهزم دارا الثالث وقضى على الأسرة الأكمينية ، رأى أن يقضي على مبادئ دين زردشت البنّاءة كي يقضي على الروح المعنوي للإيرانيين كما قضى على قوتهم المادية ، فأحرق كتابهم الأوستا أو كما يقول تنسر والمسعودي أحرق بعضه . وأدى اضطهاد دين زردشت في عهد السلوكيين إلى حماس رجاله في محاولة الاحتفاظ به ولو في صدورهم ، واستمر هؤلاء في كفاحهم ما يزيد عن خمسة قرون (٣٢٣ ق م إلى ٢٠٨ م) حين صحا ونخش ، أحد ملوك الطوائف ، وفكر في أن دين زردشت هو الوسيلة الوحيدة لإحياء إيران فعمل على جمع الأوستا . « أحرق الإسكندر من كتابنا اثني عشر ألف جلد بقرة بإصطخر ، وبقي ثلث هذا القدر محفوظا في الصدور ، وجملة هذا القدر قصص وأحاديث ، ولم تحفظ الشرائع والأحكام ، بل إن جملة هذه القصص والأحاديث

قد ذهبت أيضاً من ذاكرة الناس بسبب فساد أهل الزمان وذهاب الملك والحرص على البدع والتمويه والغرور بحيث لم يبق منها حرف واحد من الصدق . فلا مندوحة من أن يكون الرأى الصائب هو إحياء الدين » . هـذا ما قاله تنسر (ص٣١ ـ ٣٢ من الترجمة العربية) . وفى هـذه الفترة كان ساسان ، سادن بيت نار إصطخر ، يفكر فى هذا السبيل نفسه ، ونجح حفيد ساسان فى أن يوحد بسيفه وبسياسته إيران ، وأن يجعل منها أمة واحدة ، ولم يكد ينجح فى هذا حتى أمر تنسر ، كبير هرابذته ، بأن يرتب ماتفرق من أشتات الأوستا . ثم جعل هذا الكتاب الجديد أساسا لدين زردشت الذى أصبح دينا رسميا للدولة يدين به الملك والشعب والمجوس جميعا .

ولم يكد أردشير يوارى فى التراب حتى ظهر من ينادى بتعديل دين زردشت ، محاولا أن يقرب بين هـذا الدين وبين المسيحية . وكان مانى متشبعا بروح النصرانية فأخذ يبشر بمذهبه الجديد فى بلاط سابور الأول ، حتى اعتنق هـذا الملك مذهبه . فكان لهذا التفريط فى قدسية دين زردشت سواء باعتناق الملك لمذهب مانى أو بإتاحة المجال له ، أثر فى توهين أمر الدين . ومن بعد سابور اعتنق المانوية هرمز وبهرام ثم إن رجال دين زردشت حاربوا المانوية وحملوا الملك بهرام على الكفر بها وعلى أن يعود إلى ملتهم وعلى أن يقتل مانى .

ولكن مقتل مانى لم يقض على المانوية ، فقد كثر أتباع مانى ، وكانت له كتب كثيرة فذاعت بين الناس . واضطهد أتباعه فمنهم من فرّ إلى حيث لا تستطيع الدولة أن تدركه ، ومنهم من أظهر الزردشتية وأبطن المانوية . وكانت هذه أول طعنة طعن بها دين زردشت . ولاحظ سابور ذو الأكتاف الذى ولى عرش إيران بعد قرابة خمس وثلاثين سنة من مقتل مانى أن الناس يختلفون فى أمر الأوستا ، وأن منهم من يتشكك فى أحكامها فأمر بتدوينها من جديد وبجعلها كتابا رسميا لايجوز الخلاف فيه . وحوالى سنة ٤٩٠ قامت فتنة مزدك فهدمت نظام الطبقات وأهدرت بهذا ركنا من أركان دين زردشت ونادت بالشيوعية فى الأموال والنساء ، وأحرقت الأنساب . وقتل

أنو شروان مزدك وأنصاره ، وشتت أتباع هذا المذهب فى الجهات النائية ، وكثر التحدث عن مزدك ومقتله ، كما ذكر مقتل مانى ، وكيف كان رفع مزدك ومانى إلى السماء عند المزدكية والمانوية، وكيف يعود كل من الرجلين إلى الأرض من جديد ليسعد الناس بمبادئه وليملأ الأرض عدلا بعد أن ملئت جورا . فكان فى هذا ضربة ثانية لدين زردشت . وظهر لفيف آخر من الإيرانيين يظهر الزردشتية ويبطن المزدكية أو المانوية . وكانت « التقية » عند المزدكية كما كانت عند المانوية وسيلة لاتقاء أذى الدولة التى كانت تحمى دين زردشت .

وانقسمت المانوية كما انقسمت المزدكية إلى فرق متعددة . ولم تكن الزردشتيه أقل من هاتين الفرقتين انقساما ، فقد كانت هناك : المجوس الأصلية ، وكانت تصدق نبوة زردشت وتكذب نبوة موسى وغيره من الأنبياء ، وكانت تقول بحدوث الظلمة ؛ والمجوس الذين يزعمون أن النور والظلمة أزليان؛ والمجوس الكينونية ؛ والمجوس التناسخية ؛ والمجوس المسخية ؛ ثم كانت الزروانية وغيرها من النحل الكثيرة التى تشعبت عن دين زردشت .

ومع هذه الفرق الإيرانية الخالصة وجدت النصرانية من النساطرة واليعاقبة وغيرها ووجدت اليهود بفرقها ووجد ملوك متسامحون مع أصحاب الديانات كما وجد آخرون متعصبون لدين زردشت فى الثوب الذى يرتضونه . ومهما يكن فإن تنسر يحدثنا عن عقوبة من يجرؤ على تأويل الدين تأويلا مخالفا بأنه قد أعدت له : « الفيلة والأبقار والحمير والأشجار » ، وهى أدوات التعذيب التى أعدها أردشير لحماية فكرة الدين التى جعلها العماد الأول لقيام الدولة الساسانية . وكان أردشير ، كما يقول تنسر « قد وجد أحكام الدين ضائعة ومختلة ، وإن البدع والمحدثات قد قويت وسيطرت على الناس » .

ثانيا — الحيـاة الاجتماعية

١ — نظام الطبقات الملزم

قام المجتمع الإيرانى على نظام ملزم للطبقات ، ونصت الأوستا على ثلاث طبقات : ١ ـ رجال الدين ٢ ـ رجال الحرب ٣ ـ الحراثين . وتحدث الـكتاب مرات عن هذه الطبقات وهو يجمل الطبقة الثالثة أحيانا باسم الحراثين والمهنة ، ولعل إدخال المهنة كطبقة يرجع إلى تأثير الإغريق وإدخالهم الصناعة والفن فى إيران .

وطبقة رجال الدين هى الطبقة الأولى ورجالها أفضل من رجال الطبقتين التاليتين . قالوا : أنجب زردشت ولداً من زوج سيدة (زن پادشائيها) وأنجب ولدين من زوج خادمة (زن چكاريها) فأسند رياسة طبقة رجال الدين إلى ابنـــه من الزوج الأولى وأسند رياسة طبقتى المحاربين والحراثين إلى ولديه من الزوج الثانية .

وحين خلق أهورامزدا الدنيا بدأ بخلق النيران الثلاث المقدسة لحمايتها وهى : خرداد ، كشنا سپ ، بُرزين مهر . وخصّ رجال الدين بالأولى « فهى التى تعينهم ليكونوا فقهاء قادرين » ؛ وخص رجال الحرب بالثانية « فهى التى تجعل المحاربين أكثر إقداما وأشد قوة » ؛ وخص الحراثين بالثالثة « فهى ترشدهم إلى إتقان فلاحة الأرض » .

وأطلقت الأوستا على زردشت « الموبد الأول » و« الفارس الأول » و« الحراث الأول » . وحين قامت الدولة الساسانية أعيد تنظيم المجتمع على أساس الطبقات الملزم ، مع التعديل الذى اقتضاه التطور ، فأضيفت طبقة جديدة هى طبقة الـكتاب وجعلت تالية لطبقة المحاربين ، وأدمجت طبقتا الحراثين والمهنة فى طبقة واحدة .

وكان نظام الطبقات ملزماً ، فالانتقال من الطبقة الأخيرة إلى طبقة أعلى يكاد يكون

مستحيلا . يقول تنسر : « وإذ ضل الناس فى زمن الفساد ، ولم يكن من سلطان يضبط الأمن ، طمعوا فيما ليس لهم ، وضاعت الآداب وأهملت السنن وأغفل الرأى ، وأقحم الخلق أنفسهم فى مسالك لا تعرف نهايتها ، وصرّحت الغلبة ، وحمل بعضهم على بعض برغم تفاوت المراتب والأقدار ، حتى يقضى على الدنيا والدين جميعا . . فإذا حجاب الحفاظ والأدب قد ارتفع ، ويظهر قوم لا يتحلون بشرف الفن أو العمل، قوم لا ضياع لهم موروثة ، ولا حسب ولا نسب ، ولا حرفة ولا صناعة ، عاطلون ، مستعدون للغمز واللمز وبث الكذب والافتراء ، بل هم من ذلك يحيون فى رغد من العيش وسعة من المـــال . فتبين الملك ألا مناص من أن يعيد سبك هذه الأعضاء بعد اختلاطها ، فرتب لكل مرتبته ، ومنع الناس من أن يشتغلوا بغير الصناعة التى خلقوا لها » . ولكن أردشير جعل لهذه القاعدة استثناء بالنسبة للطبقة الدنيا ، فأمر رؤساء الطبقات الأربع إذا هم توسموا فى امرئ من أبناء المهنة أمارات الرشد والخير أو ألفوه مأموناً على الدين ، أو رأوه ذا بطش وقوة وشجاعة ، أو ذا فضل وحفظ وفطنة ، أن يعرضوا عليه أمره . وكان الملك يحيل هذا «المختار» على الموابذة والهرابذة لإبداء رأيهم فيه بعد اختبارهم إياه وطول مشاهدتهم له ، فإذا رأوه مستحقا أمر الملك بإلحاقه بغير طبقته . و « البندهش » ينص على أن هـذا الاستثناء لا يجوز بالنسبة لطبقة رجال الدين ، فالموبد يجب أن يكون ابن موبد ، فهذه الطبقة تعتقد أنها أسرة واحدة لا يجوز لأجنبي أن ينتسب إليها .

وقصة أنوشروان والخفّاف تبين إلى أى حد كان تذمر الناس من نظام الطبقات وإلى أى حد كان تمسك الملك بهذا النظام . وأبصر الإيرانى نفسه فإذا هو لا يستطيع أن يلبس مما يلبس أهل الطبقات الثلاث الأولى ولا هو يستطيع أن يركب مركبهم . ويتاح لصاحب الحرفة أن يثرى وأن يجمع من الثروة ما يشاء ولكن ماله لا يغنى عنه شيئاً ، فهو ملزم بأن يظل فى طبقته . وضاق الإيرانى بهـذا الدين الذى يلزمه باحترام

هذا النظام . فهو يربى أبناءه ويرعاهم حتى إذا شبوا وبدءوا يعاونونه على تحمل أعباء الحياة جمعهم الأشراف جمعاً ليقدموهم للملك ليقذف بهم فى أتون الحرب مع الروم أو مع الهياطلة ، تلك الحرب التى لم تكن ذياداً عن الوطن أو سعياً وراء الفتح ، ولكنها كانت مزاجاً أسود أصاب الملوك ، وليس من ورائها مجد يستحق أن يسعى إليه وأن تراق فى سبيله الدماء . وكان الجند من الطبقة الرابعة وهم المشاة (پياده) يخدمون الفرسان (الأساورة) ، وكان يزج بهم فى الحرب وعليهم دروع خفيفة ليست مما يستعمله الأساورة وكان معظمهم يتخذ من جلود الماشية دروعا .

واستهان الإيرانى برؤساء الطبقات الرفيعة . فالملك لا يرعى حق الدين ولا يرعى حق الوطن ، وقد يلجأ إلى عدو إيران ليجلسه على العرش . ورجال الدين ليسوا من الدين فى شىء ، بهرتهم المظاهر وألهاهم الغنى وأذلهم الطمع وأفسد رسالتهم الحرص على الدنيا . والأشراف ورجال الدين فى عداء ظاهر يكيد بعضهم لبعض وكل طائفة تسعى لمصلحتها دون نظر لخير المجموع . ولهذا كله ضاعت المثل العليا التى آمن الشعب الإيرانى من قبل بأن رجال الطبقات الثلاث أمناء عليها . فتزعزع إيمان الإيرانى بهذا النظام ، ومن هنا كان إحراق كتب الأنساب أول ما أحرق فى فتنة مزدك . وإذا كان أنوشروان قد قتل مزدك وأخمد فتنته فإنه لم يقض على ما فى نفوس الناس من الإحساس بالظلم والتطلع إلى من يتحدث عن تكافؤ الفرص بين الناس ليرقى بعضهم فوق بعض درجات بفضل كفايته وجدّه ، لا فرق بين ابن رجل الدين وبين ابن الخفاف أو الزجاج بل إن لكل منهم ماسعى .

٢ — نظام الأسرة

وإذا كان النظام الاجتماعى الذى رسمه زردشت للمجتمع فاسدا فإن نظام الأسرة عنده أشد فسادا . ذلك أن الزواج خلا من فكرة حرمة الأسرة كما أن النسب اتخذ صورة شكلية بحتة ولم يبن على صلة الدم بين الأب والابن .

١ ـ الزواج : يقوم الزواج عند الإيرانيين الزردشتيين على أساس تعدد الزوجات بقدر ماللزوج من يسار . ويفرق بين نوعين من الزوجات ، زوج سيدة (زن پادشائيها) وزوج خادمة (زن چكاريها) . واتبع الإيرانيون ، قبل الإسلام ، نظام الزواج من الأقارب الأدنين (خويذ وكدس) ، فإن المغالاة فى الاحتفاظ بدم الأسرة فيهـا ، قد جعل زردشت يبيح لهم أن يتزوج الأب ابنته والابن أمه والأخ أخته وهكذا . وكان زواج المحارم هـذا شائعاً بنوع خاص فى الطبقات الحاكمة والمثقفة . وفى « دينـكرد » قيل إن الزواج بين الأخ وأخته منوّر بمجد إلهى وله فضيلة طرد الشيطان. وقال أحد شراح الأوستا ـ نرسى برزمهر ـ إن زواج المحارم يمحو الـكبائر. والحـكيم الإيرانى ارداك ويراز اتخذ من إخوته السبع سبع زوجات له . وبهرام چوبين تزوج من أخته كردية التى حيك حولها قصص كثير . وإذا كان البرسيون المحدثون يرون فى هـذا النظام عيباً قبيحاً ويحاولون أن ينفوا وجوده كنظام اجتماعى دينى عند الزردشتيين قبل الإسلام ، وينسبونه إلى المزدكية ، فإن الواقع أن هذا النوع كان شائعاً لدى أمم أخرى غير الإيرانيين وأن الإيرانيين الزردشتيين كانوا يعدونه عملا صالحا يثاب عليه صاحبه .

والزوجة ، سواء كانت سيدة أو خادمة ، كانت أقرب ما تـكون إلى الرقيق . فقد أجاز دين زردشت عقداً بمقتضاه ينزل الرجل عن زوجه أو إحدى زوجاته ، ولو كانت سيدة (ممتازة) إلى رجل آخر قد وقع فى الفاقة بغير تقصير منه وذلك لـكى تعينه بعملها على الحياة . وهـذا العقد محمود عند زردشت لأنه : إحسان على أخ فى الدين معوز .

٢ ـ النسب : لم تقم نسبة الابن إلى أبيه على أساس الدم عند الإيرانيين ولـكنهم، كى يكثروا من المؤمنين بدين زردشت فى الأسرة ، قد أجاز لهم دينهم القديم ألواناً من البنوة الصناعية التى لا رباط فيهـا بين الولد ومن يُدعى أبوه . ثم إن صلة الدم

لم تكن ذات وزن فى النسب . فالزوج السيدة وحدها هى التى ينسب ما تنجبهم من بنين وبنات إلى الأب ، أما الزوج الخادمة فأبناؤها الذكور وحدهم يلحقون بأبيهم أما البنات فيعتبرن رقيقاً لا يعرف له نسب . وقد كان زواج الأبدال شائعاً عندهم وهو كما يقول تنسر الذى نقل عنه البيرونى « عليهم إذا مات الرجل ولم يخلف ولداً أن ينظروا فإن كانت له امرأة زوجوها من أقرب عصبة له باسمه ، وإن لم تكن له امرأة فابنة المتوفى أو ذات قرابته ، فإن لم توجد خطبوا على العصبية من مال المتوفى . فما كان من ولد فهو له » . وكانت عقوبة من يغفل هذا العقد صارمة لأنه « قتل ما لا يحصى من الأنفس بقطع نسل المتوفى وذكره إلى آخر الدهر » . وفى العقد الذى أشرنا إليه فى الفقرة السابقة والذى يتنازل بمقتضاه الرجل عن زوج له إلى أخ له فى الدين ، كان الأطفال الذين يولدون من هذه « المعاشرة » ينسبون للزوج الأول ويعتبرون أولاده . وعلى هذا فقد ضمت الأسرة خليطاً من الأبناء ، أكثرهم لا يربطه بالأب غير حمل اسمه . وأدى هذا إلى تفكك الروابط بين أفراد الأسرة التى تكونت على هذا النحو من سلالات مختلفة .

ثالثاً — سياسة الدولة الساسانية

حين أقام اردشير الدولة الساسانية على أساس وحدة الإقليم ، لم يكن فى وسعه أن يقضى قضاء تاما على العروش الكثيرة التى تربع عليها ملوك الطوائف من غير بذل الدماء أو دفع الثمن لمن يبايع له بالحسنى . وقد رسم سياسته على أساس ماهو عليه من قوة وعلى ما كان له من هيبة لدى ملوك الإقطاع ، ولم يلتفت إلى الملوك الذين سيخلفونه والذين قد يكونون على العروش دمى لا حول لهم ولا قوة . فاته أن من يرسم سياسة أمة ينظر إلى المستقبل مثل نظرته إلى الحاضر ، ويقدر حال من يخلفونه قبل أن يفكر فى حال نفسه . بنى أردشير سياسته فى إنشاء الدولة على أن شخصه باق على ماهو

عليه قوة ومهابة ولذا أبقى لمن يدين له بالولاء طوعا من ملوك الإقطاع عرشه ولقبه . وإذاً فقد عمـد أردشير إلى توحيد الدولة المقطعة ولـكنه فى الوقت نفسه أقامها على أساس واضح من الإقطاع الذى يرأسه ملوك يحملون اللقب ويجلسون على العرش ، وقنع أو خيل إليه ، بأن هؤلاء الملوك سيدينون إلى الأبد بالولاء لملك الملوك (شاهنشاه) . وعلاوة على هذا فإن الأشراف الذين سموا إليه حين استشعروا قوته وأدركوا إقبال الدنيا عليـه قد كوفئوا على ولائهم له بهذه الإقطاعات الواسعة التى كانوا فيها ملوكا غـير متوجين . وفوق ذلك كله كان لرجال الدين ، وأردشير حفيد رجل منهم ، شأن كبير فى امتلاك الأراضى الواسعة التى لا تحدها الأسوار ، فقـد كانت مشاركتهم فى الحـكم وسيلة للإثراء ومجاراة الأشراف فى ألوان الترف والاقتناء ، فـكانوا بدورهم من أصحاب الإقطاع . واضطر الملوك ، بعد أردشير ، أن يتعاونوا مع ملوك الإقطاع والأشراف ورجال الدين الذين أصبح لهم خطرهم بعد أن ملـكوا الأراضى الشاسعة . وكان الإقطاع به الحراثون والمهنة وكانت الجباية التى تمد خزينة الملك بالمال متوقفة عليـه . فهو مصدر الرجال للحرب ومصدر المال أيضاً . أما الملك فـكان أقرب المخلوقات ، عند الإيرانيين القدماء ، من الله ، وحين يتحدثون إليه لا يذكرون اسمه بل يقولون : أنتم الآلهة (شماك بغان) أو قداستكم . والملك هو : العظيم الأول (مردان پهلم) . وكان له امتيازات يميزه بها الشعب ، فإذا احتجم فليس لأحد أن يحتجم يوم حجامته ، بل على الخاصة والعامة الفحص عن أمر الملك والتشاغل بطلب سلامته وظهور عافيته وكيف وجد عاقبة ما يعالج به . وكان إذا زار وزيرا أو عظيما للتعظيم لا لغيره أرخت الفرس تلك الزيارة وخرجت بذلك التاريخ كتبهم إلى الآفاق والأطراف . ويترتب على هذه الزيارة الملـكية امتيازات خاصة للمضيف العظيم :

١ ـ توغر ضياعه أى تعفى من بعض الخراج .

٢ ـ توسم خيله ودوابه لئلا تسخر وتمتهن .

٣ ـ يأتيه صاحب الشرطة كل يوم مع ثلاثمائة راكب ومائة راجل ويكون ببابه إلى غروب الشمس ، ليسيروا فى موكبه إذا ركب .

٤ ـ لا يحبس أحد من عامته أو خاصته لجناية جناها ، ولا يحكم على أحد من عبيده بحكم ، وإن وجب على أحد من بطانته حد وجه به إليه ليرى فيه رأيه .

٥ ـ يؤخر وظيفة ما عليه من خراج أرضه حتى يكون هو الحامل له .

٦ ـ تقدم هداياه فى النوروز والمهرجان على كل هدية وتعرض على الملك .

٧ ـ يكون أول من يأذن له الحاجب ، ويكون من الملك إذا ركب عن يمينه منزويا ، وتكون مرتبته إذا قعد عن يمينه ، وإذا خرج من دار المملكة لم يقعد بعده أحد .

وكان الإيرانيون القدماء يرتضون للملك هذه المنزلة ، لأن أردشير كان المثل الأعلى للراعى عندهم ، فى عدله ، ومشاركة الشعب فى آماله وآلامه ، والعمل على أن يغلب أعداء الدولة .

ولكن هذه الصورة التى تقرب الملك من أن يكون إلها لم تدم فترات طويلة فى عصر الساسانيين ، فإن أردشير لم يقض على نفوذ الأشراف الذين ترك لهم التاج والعرش بل ساعد على وجود طبقة جديدة من هؤلاء من بين أعوانه ومن رجال الدين . وقد ظل ملوك الإقطاع والأشراف على ولائهم لملك الملوك طالما كان قويا ، فلما استضعفوه خرجوا عليه ومنعوه الأسباب التى تهيئ له الحكم المستقر الظافر . كانت تعبئة الجند وجمع الخراج وتيسير الطرق للجيش ، كان هذا كله فى سلطتهم ، فكان منعه أو التلاعب به يؤدى إلى إضعاف الملك وسقوط هيبته .

وكما ترك أردشير للأشراف سلطانهم فإنه أعلى شأن رجال الدين كثيرا ، ظنا منه أنه بهذا قد يحد من نفوذ الأشراف ، ولكنه فى الواقع خلق جماعة جديدة كانت

إذا اتحدت مصالحها ، وكثيرا ما كانت ، مع مصالح الأشراف ، وتكاتفتا ، ساء مركز الملك كثيرا . وقد ترك أردشير للأشراف ورجال الدين حق اختيار خلفه . ولم تكن هذه القاعدة ملزمة للملوك جميعا ، ولكنها كانت السنة التى استنها أردشير ، والتى أتاحت للأشراف ورجال الدين أن يتمسكوا بحقهم فى إبداء الرأى فى الملك الجديد .

وكان الملك القوى هو الذى يرسم لسياسته خطة الإيقاع بين الأشراف ورجال الدين ، ولكن القاعدة العامة كانت وجود السلطان فى أيدى هؤلاء . وفى الفترة التى حكمت فيها الدولة الساسانية (٢١٢ ـ ٦٣٦) عزل من ملوكها اثنان : آذرنرسى وأردشير الثانى وقتل منهم خمسة : سابور الثالث وبهرام الرابع ويزدگرد الأول وهرمزد الرابع ويزدگرد الثالث .

واستعان ملوك بأعداء الدولة وبأصدقائها كى يرقوا عروشهم غير عابئين بالنتائج التى تترتب على إذلال إيران وسقوط هيبة الحكم فى نظر شعبها . استعان بهرام گور بالمناذرة ليجلسوه على عرش أبيه الذى قتله الأشراف ورجال الدين ، وهكذا قدم المدائن فى ظل الرماح العربية فأجلسه النعمان على عرش الأكاسرة . وأراد قباد الأول أن يوقع بالأشراف ورجال الدين جميعا فأيد مزاعم مزدك فى شيوعية الأموال والنساء وفى تأويل دين زردشت ومحو الفوارق بين الناس ، فاتحد أولئك وهولاء عليه وحملوه على الفرار من المدائن ونصبوا بدله جاماسب ، ولكن قباد لم يستكن إلى هذا القرار ولجأ إلى ملك الهياطلة ، عدو الدولة ، فأمده هذا بجند من عنده عادوا به إلى المدائن وأجلسوه تحت حمايتهم ، على عرش الأكاسرة . ولما خرج بهرام چوبين على كسرى پرويز وحمله على الفرار من عاصمة ملكه ، لجأ إلى عاصمة الروم حيث استعان بالامبراطور فأرسله هذا مع جيش رومانى يحميه ليجلسه فى المدائن على عرش الأكاسرة . وهكذا أصبح ارتقاء العرش بمعونة أعداء الدولة أمرا هينا وأصبح التاج

يشترى ولو على حساب كرامة إيران مما أضاع فكرة القداسة التى كان الملك محاطا بها من قبل الشعب .

وولى العرش كثيرون من غير الأسرة الساسانية ، منهم خسرو الذى عزله العرب ليمكنوا لبهرام گوز ، ومنهم بهرام جوبين الذى عزله الروم ليمكنوا لكسرى پرويز ، ومنهم بيستام الذى استقل فى ميديا ، وشهر براز الذى أعلن نفسه بعض الوقت ملكا .

ولجأ الأشراف ورجال الدين إلى تعيين النساء ملكات ، فعينوا : بوران دخت وآزر ميدخت .

وثار بعض الأمراء على الملوك ليخلعوهم ويلوا العرش بدلهم ، كما فعل أخو بهرام الثانى وابن أنو شروان ، وقتل بعض الأمراء آباءهم الملوك ليخلفوهم ، كأدوات للأشراف ، على العرش كما فعل شيرويه بكسرى پرويز .

وفى سنة واحدة ولى عرش إيران ستة ملوك منهم سيدة (٦٣١) ، ثم أخذ رجال الدين والأشراف يبحثون عن شاب من سلالة الساسانيين علّه يوحد صفوف الأمة ويجمع كلمتها ويعيد الثقة إلى نفوس الناس ليقابل الجيش العربى الذى كان فى طريقه إلى إيران فاختاروا يزدگرد الثالث آخر ملوكهم ، فلم يقو على شىء . كانت إيران قد فقدت احترامها للملك كما فقدت احترامها لدين زردشت .

ثم إن فكرة الحرب مع الروم والهياطلة والعرب قد استولت على عقول ملوك آل ساسان فلم يستريحوا منها ولم يريحوا الشعب . لقد بدأ أردشير يحارب الروم ولما يفرغ من قتال أردوان الخامس آخر الأشكانيين . واستمرت الحرب سُنَّةً من بعده حتى إن الملك الواحد كان يحارب الروم سنوات ثم تعلن الهدنة ريثما يستجمع قواه ويَعِدُّ لها وقودا جديدا وحينئذ يستأنف الحرب بغير طائل .

كانت الحرب بين الفرس والروم سجالا ، ولم يكن الغالب فيها منهم منتصرا بالمعنى الصحيح ولكنه كان أقل ضعفا من خصمه . وفى هذه الحروب المتواصلة كان أبناء الحراثين يساقون إلى الموت فى غير مبالاة بدمائهم التى تراق فى غير هدف يستدعيه فداء الوطن . وقد أنهكت هـذه الحروب الدولتين ، الفارسية والرومانية جميعا . وبجانب حرب الروم حارب الفرس الهياطلة والعرب . ولم يكن العرب حديثى عهد بحرب الفرس أيام يزدگرد الثالث ، فمن قبل هاجم الملك أذينة ملك تدمر جيش سابور الأول وكان عائدا منتصرا من حربه للروم فأوقع به هزيمة نكراء ظلت ماثلة فى أذهان الساسانيين . وإذا كان عصر كسرى أنو شروان قد امتاز بنهضة فى النواحى الاجتماعية والأدبية والعلمية لما كان فى أنو شروان من ميل إلى نقل بعض كتب الثقافة الهندية مثل كليلة ودمنة ، وإلى تشجيع فلاسفة اليونان الذين لجأوا إليه ، وإلى تأييد رجال من أهل الحكمة مثل بزرجمهر وبرزويه ، فإن هذا العصر يمثل فى إيران الساسانية فترة « صحوة الموت » أكثر مما يمثل نهضة ثابتة الأركان قابلة للتطور والتقدم . والملوك الذين خلفوه كانوا غاية فى الضعف . وإذا كان القائدان شاهين وشهر براز قد أكسبا عصر كسرى پرويز شيئا من مجد الفتح ، فإن فتوحاتهما لم تكن فى الواقع غير مغامرات شخصية ، وقد حاول شهر براز أن يستقل بالأمر فلم يفلح .

والواقع أن كسرى پرويز قد أغرق نفسه فى اللهو والملذات شأن الأسر المالكة حين تدبر الدنيا عنها .

وكانت فكرة التعصب للزردشتية واضطهاد النصرانية عاملا قويا فى اضطهاد نصارى إيران الذين لقوا من هول التعصب ماتشهد به كتب الشهداء التى ذاعت فى ذلك العصر وقد أدى هـذا التعصب المرير إلى أن حمل نصارى إيران أشد البغض لحكامها . وهكذا كان الشعب الإيرانى كله حاقدا على حكامه متطلعا إلى من يخلصه من هذا الشر الذى لا يستطيع أن يدفعه عن نفسه .

هذه هى الأوضاع الاجتماعية والسياسية التى حملت برزويه وبزرجمهر على التذمر من الحياة فى إيران قبل الإسلام ، وهما يعبران عما يحسه الرجل العادى حين يتفكر فى أمر دينه الذى انقسم إلى أهواء وملل والذى يملى عليه التقيد بالتزام نوع من الطبقية لا تتيح للناس تكافؤ الفرص ونوع من الحياة العائلية لا يشعر العاقل فيها بما تمليه الإنسانية من حرص على العرض ومن نقاء النسب . فقد أغفل واضع دين زردشت حقيقة هامة تقوم عليها الأمة وهى أنها مجموعة الأسرات . فإذا تكونت أمة من أسرات لا يقيم الزوج لعرضه فيها وزناً ولا يُعرف فيها نسب صحيح للأبناء فإن الأمة لا تلبث أن تقع فى التفكك الاجتماعى الذى يشاهده المؤرخ واضحا فى إيران قبل الفتح الإسلامى . وكذلك الحال فى هذا النظام الطبقى الملزم الذى يجعل وظائف الدولة متوارثة فى أسر أو طبقات بعينها مهما يكن مدى صلاحية أفرادها ، مع إغفال طبقة العامة وحبسها فى إطار خاص لا يستطيع فرد منها أن يتخطاه مهما أوتى من الذكاء والمواهب. مثل هذا النظام كان كفيلا بأن يضع طبقة الشعب فى ناحية والطبقة الحاكمة فى ناحية أخرى . وهذا ما كان فى آخر العهد الساسانى . وبينما برزويه وبزرجمهر يفكران على هذا النحو أيام أنوشروان كان الإسلام قد بدأ فى الانتشار أيام كسرى پرويز .

رابعا — ظهور الإسلام

وظهر الإسلام فى زمن كسرى پرويز ، آخر الساسانيين الأقوياء ، وكانت الصلة بين الفرس والعرب قد ازدادت عن ذى قبل . فاليمن أصبحت ولاية فارسية وحاكمها باذان مجوسى تابع لملك الفرس ، وكانت المجوسية فى اليمن وفى تميم أيضا ، وكانت الزندقة فى قريش أخذوها من الحيرة ، والحيرة نفسها كانت نصارى ومجوسا . وحديث الإسلام يجرى على كل لسان ويشيع فى فارس . وتضطرب نفس كسرى

پرويز وتشيع بين الفرس قصة انفصام طاق ملكه من وسطها وكيف انخرقت عليه دجلة العوراء . ويشيع بين الفرس أن حزاته قد اضطربوا ، وأنهم خشوا أن يقولوا للملك إنه حيل بينهم وبين علمهم فهم لا يقدرون على شيء . وذاع بين الفرس أن « السائب » ، أحد حزاة الملك ، وهو عربي يعتاف اعتياف العرب ، قلّ ما يخطئ ، بعث به باذان لكسرى ، قد بات في ليلة ظلماء على ربوة من الأرض يرمق برقا نشأ من قبل الحجاز ثم استطار حتى بلغ المشرق ، فلما أصبح ذهب ينظر إلى ما تحت قدميه فإذا روضة خضراء ؛ فقال فيما يعتاف : لئن صدق ما أرى ليخرجن من الحجاز سلطان يبلغ المشرق تخصب عنه الأرض كأفضل ما أخصبت عن ملك كان قبله . ويعيد كسرى بناء الطاق ويعيد سكر دجلة ، فقد أفهموه أن حسّابه وضعوها على النحوس ، فلما اختلف عليهما الليل والنهار وقعت النحوس على مواقعها فزال كل ماوضع عليها . وعمل كسرى في دجلة ثمانية أشهر وأنفق فيها مالا يحصى من الأموال ، حتى إذا فرغ سألهم أيجلس على سورها ؟ قالوا نعم . فأمر بالبسط والفرش والرياحين فوضعت عليها ، وأمر بالمرازبة فجمعوا له .. ثم خرج حتى جلس عليها ، فبينا هو هنالك انتسفت دجلة البنيان من تحته فلم يستخرج إلا بآخر رمق . ويشيع بين الفرس أن كسرى قد اضطربت أعصابه وأن زائرا قد ألمّ به في الهاجرة التي كان يقيل فيها ، وأمره أن يسْلم ؛ وأن زيارة هذا الطيف قد تكررت ثلاث مرات في السنوات الثلاث الأخيرة من حياته ؛ وكان الزائر ممسكا بيده عصا ويقول لكسرى : إنك قد أبيت عليّ والله ليكسرنك الله كما أكسر عصاي هذه . وكان كسرى يقول له بِهِل بِهِل أي انصرف انصرف .

كان الفرس يتحدثون عما ذاع في قريش والجزيرة العربية من جدل حول قوله تعالى : « غُلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين ، لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنين » .

فقد كان المسلمون يميلون إلى النصارى عملًا بقوله تعالى : « ولا تجادلوا أهل الكتاب

إلا بالتى هى أحسن » ، وبقوله : « وإلهنا وإلهكم واحد » ؛ وهذا الميل للنصارى قد أحنق كفار قريش عليهم فتركوا مراجعتهم فى الأمور.

وحدث فى أيام كسرى پرويز ، فترة صحوة الموت بالنسبة للفرس والروم جميعا ، أن أرسل كسرى جيشا بقيادة شهر براز لمقاتلة الروم فغُلب هؤلاء فشمت بهم كفار قريش . ولما نزلت الآية قال أبو بكر للمشركين إن الروم سيظهرون على الفرس بعد بضع سنين ؛ فكذبه أبي بن خلف وقال اجعل بيننا أجلا أناحبك عليه فخاطره على عشر قلائص من كل واحد منهما وجعل الأجل ثلاث سنين ؛ ثم جعلاها مائة قلوص إلى تسع سنين .

وذاع حديث هذه المناحبة عند الفرس ، وكان فيهم نصارى وعلى حدودهم نصارى كذلك ، فقرّت عيون هؤلاء بحب المسلمين لهم وتأييدهم لدينهم الذى طالما عذبهم المجوس من أجله ، والذى استهان به كسرى فاستولى على أهم رمزٍ له وهو خشبة الصليب ببيت المقدس وأتى بها إلى المدائن .

وتمضى الأيام وتدور الدائرة على الفرس ويعرف الفرس أن كسرى قد حقد على قائديه الأخوين شهربراز وفرّخان ، وأنه أراد أن يقتل أولهما الثانى فأبى ، فطلب من فرخان أن يقتل أخاه فأبى كذلك . وعرف الفرس أن ما كتب لكسرى من نصر كان بفضل هذين الأخوين ، وأنهما قد اتفقا ، بعد أن شقا عصا الطاعة عليه ، مع إمبراطور الروم وحاربا فى صفوفه مما أدى إلى انتصاره وغلبة كسرى . وجاء الخبر إلى النبي صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية ففرح ومن معه .

يتحدث الفرس فى هذا كله ويتأكد لديهم أن دولتهم قد أدبرت وأن دولة جديدة ودينا جديداً قد لاح فجرها . ويترامى إلى الفرس أن النبي صلى الله عليه وسلم يقرب منه فارسيا اسمه سلمان ، وأنه يقرب كذلك عبدا حبشيا اسمه بلال ، وأنه يكثر من الحديث عن العتق وأن كتابه يتحدث عن العتق دون الرق ، وأن الدين الجديد

يعتبر المسلمين جميعاً إخوة ، وأنهم سواسية لا فضل لأحدهم على الآخر إلا بالتقوى ، فأمرهم شورى بينهم ، وليس فى مجتمعهم طبقات فالحراثون لن يكونوا مغلقين فى دائرة لايتعدونها مهما كانت مواهبهم ، ثم إن الدين الجديد ينهى عن البخل ويحث الأغنياء على الإنفاق فى الصالح العام مما آتاهم الله من فضله ، وسمع الفرس عن بذل السيدة خديجة زوج النبى صلى الله عليه وسلم فى سبيل الله ، وسمعوا صنيع عثمان فى بذل ماله . ثم علم الفرس أن الزكاة وخمس الغنائم والفىء والجزية وما يتصدق به الأغنياء بعد الزكاة، كان كل هذا ينفق على الصالح العام للدولة الجديدة لتمكينها من القيام بالواجبات العامة ورعاية الطبقة الفقيرة من شرور الفقر وويلاته . وعرف الفرس أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قد أعفى من الجزية الفقراء من أهل الكتاب ، كما عمم توزيع العون المالى على المحتاجين من المجتمع كله مهما تكن دياناتهم .

ثم إن الإسلام قد ثبت دعائم الأسرة ، فقضى على النظام الفاسد الذى أقامه دين زردشت والذى جعل الزوجة فى حكم الرقيق ، والذى فرق بين نوعين من الزوجات ، واستهان بفكرة العرض ، وأقام الأسرة على أسس واهية من انتماء المولود إلى رجل لا صلة تربطه به . وذلك أن الإسلام جعل الزواج على سبيل التأبيد ، وأباح الطلاق فى حالات يتعذر فيها استمرار الزوجية ، والطلاق هو أبغض الحلال إلى الله ؛ وحدّد عدد الزوجات بأربع ولكنه اشترط العدل فى حالة التعدد ونصّ على تعذره . وجعل صلة الدم أساساً للصلة بين الأب والولد ، وألغى نظام زواج الأبدال وغيره من أنواع الزواج البغيضة التى شاعت فى عصر الجاهلية عند الفرس وعند العرب على السواء . وهكذا أقام المجتمع ، وهو مجموعة الأسرات ، على أسس سليمة من النسب الصحيح .

وعرف الفرس أن القرآن سيعفيهم من هذه الحرب التى لم تنقطع أكثر من أربعة قرون ، فإنه يأمر بالسلم « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها » ؛ وهو يأمر بالقتال ضد الذين « قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم » فالسلم أمر محبب فى هذا الدين ،

والحرب غير جائزة إلا ضد الذين يبدءون بالعدوان . وإذا فسوف تستريح الأسر من هذا الهم الذى يستولى على الآباء والأمهات كلما رأوا أبناءهم قد شبوا وأصبحوا فى سن القتال . وتساءل الفرس كيف يعاملهم المسلمون ؟ أيتركونهم أحرارا كما تركوا النصارى أم أنهم سيقاتلونهم كما يقاتلون الكفار ولم تبق لهم من قوة يحاربون بها بعد أن أنهكتهم الحروب المتواصلة مع الروم والهياطلة ؟ وتأتيهم الأخبار بأن النبى (صلى الله عليه وسلم) قد مات وأن القوم قد اختاروا خليفة من بعده هو أصلحهم وأتقاهم ، ثم تسامعوا باختيار عمر بعد أبى بكر وسمعوا الكثير عن عدله وحزمه ، وعن عمر عرف الفرس أنهم سيعاملون معاملة أهل الكتاب ، فلهم الحرية الكاملة فى الاحتفاظ بدينهم أو فى الدخول فى الدين الجديد . فآثروا الإسلام ودخلوا فيه أفواجا، بعد هزيمة ملكهم فى القادسية وجلولاء ، ولم يكن إسلامهم عن بطش العرب بهم ولكنه كان للاقتناع بمبادىء هذا الدين الذى قوّم مجتمعهم وأصلح حال أسراتهم والذى كان مخلصا لهم مما فرضه عليهم دين زردشت من القواعد الهدامة للأسرة والمجتمع .

خامسا — الإسلام والثقافة

إن التراث الإيرانى قبل الإسلام ، الذى يمثله بوجه عام كتاب الأوستا لذى هو بأيدينا اليوم ، يشمل النواحى الإصلاحية التى تدفع عن المجتمع الكسل والقعود وتحفزه إلى اليقظة والعمل المثمر ، فزردشت ، كما قلنا ، مصلح اجتماعى قصد إلى دفع أمة إلى الأمام . ولكن النواحى الثقافية فى الأوستا لا تكاد تذكر . والأجزاء المتعلقة بالطب مأخوذة بغير شك من الطب اليونانى ومن الطب الهندى . ويرجع تعليم الطب فى إيران إلى النساطرة الذين هاجروا من الإمبراطورية البيزنطية ولجأوا إلى إيران فافتتحوا بها المدارس وعلموا الطب بها ، ومن هذه مدرسة جنديسابور التى ظلت تعلم الطب إلى ما بعد الفتح الإسلامى .

وإذا كانت المدنية الإغريقية ، التى نهل منها الرومان أنفسهم من قبل ، قد أثرت فى إيران بعد الغزو المقدونى فعدلت نظام الطبقات وأدخلت طبقة المهنة، كما كان لها أثر قوى فى العهدين السلوكى والأشكانى، فإن هذه المدنية قد ازدهرت أيام كسرى أنوشروان . ذلك أن هذا الملك كان شغوفا بالتعلم وقد اختار لنفسه أساتذة يثقفونه ومنهم الفيلسوف الطبيب اليونانى أو رانيوس الذى كان يقرأ له كتبا فى الفلسفة . وكان كسرى يجمع لأستاذه هذا الموابذة من العلماء لكى يناقشوه فى الفلسفة . ثم إن هذا الأستاذ قد أقنع كسرى بأن يحمى حرية العقيدة وأن يجعل من بلاطه موئلا لمن يفرون من الدولة البيزنطية لتعصب حكامها ، ولهذا فقد آوى كسرى الفلاسفة السبعة الذين لجأوا إليه بعد إغلاق مدرسة أثينا سنة ٥٢٩ . وكذلك بذل أنوشروان عناية بالثقافة الهندية تتمثل فى رحلة برزويه وكتاب كليلة ودمنة .

وأما الناحية الأدبية فقد شاع لدى الفرس قبل الإسلام أدب النصائح وهو الأدب بعينه الذى شاع عند العرب فى تلك الفترة . وكما تحدث الفرس عن بزرجمهر تحدث العرب عن لقمان . وأشعار النصائح والحكمة لدى الشعراء العرب أبين وأقوى وقد يرجع ذلك إلى أن أشعار الحكمة عند زهير بن أبى سلمى وأصحابه قد حفظت فى لغتها الأصلية .

لقد استسلم هرقل بعد واقعة اليرموك سنة ١٣ هـ وتم للعرب فتح بلاد الشام ، كما هُزم رستم فى القادسية سنة ١٥ هـ وتم بعد ذلك الفتح العربى لبلاد الفرس . ومنذ اللحظة التى ولى فيها معاوية الشام وهو يفكر بعقلية الحاكم المستنير فى الإفادة من علوم اليونان. ومن قبل رغب الرومان أنفسهم فى اكتساب علوم اليونان بعد أن فتحوا بلادهم. فالرومان قبل دخول بلاد اليونان لم يكونوا أهل ثقافة بل كانوا رجال حرب فلما دخلوا اليونان اشتغلوا بالعلوم ودرسوا الفسلفة اليونانية وشجعوا الشعراء وأهل الفن وشيدوا العمارات الكبيرة . وعلى هذا النحو سار العرب . فمعاوية أراد أن ينقل بدوره

عن الرومان كما نقل هؤلاء عن اليونان من قبل. وإذا كانت الدولة الأموية قد نجحت فى أن توسع بلادها وأن تنقل الدولة الإسلامية من دولة برية إلى دولة بحرية ذات أسطول قادرة على أن تحارب فى البر والبحر جميعاً فكذلك نجحت هذه الدولة فى أن تنقل من الآثار العلمية الرومية الشيء الكثير . وفى منتصف القرن الأول للهجرة كان حكيم بنى أمية ، خالد بن يزيد بن معاوية ، الذى كان عالما بالكيمياء والطب ، يجمع حوله جماعة من المشتغلين بالعلم والبارعين فى اللغة اليونانية لكى ينقلوا الكتب اليونانية إلى العربية ، وكان هذا أول نقل من لغة أجنبية إلى العربية . ومن بعد الأمويين أصبح الرسم عند الخلفاء عامة أن ينقلوا عن اليونان أكبر قدر من ثقافتهم . وكان للمنصور وهرون الرشيد ثم للمأمون باع فى هذا الميدان ، ويحكى أن المأمون رأى فى منامه أرسطو فحضه على طلب العلم. وهذه رواية مهما تكن حقيقتها تبين الروح السائد للعناية بالتراث اليونانى . والثابت أن المأمون كان شغوفا بالعلم وأنه راسل ملك الروم يستأذنه فى إنفاذ من يجمع الذخائر العلمية من خزائن الروم فأذن له ، فأنفذ الحجاج بن مطر ويحيى بن البطريق ويوحنا وغيرهم فجمعوا ماجمعوا من الكتب النفيسة ثم شرعوا فى تفسيرها ونقلها إلى اللغة العربية . والمأمون هو الذى شجع العلماء فى دار الحكمة . وإذا كان المسلمون ، أيام هرون الرشيد ، قد انشأوا دار الحكمة فى بغداد فإن الروم قد أنشأوا داراً مماثلة لها فى القسطنطينية . ويذكر الأستاذ نللينو أن الروم والعرب كانوا يتسابقون فى نشر العلم وإحيائه فى ذلك الزمان . وأهم مانقل إلى العربية فى الفترة الأولى من حياة الدولة الإسلامية المجسطى فى علم الفلك لبطليموس وقد ترجم مرات عدة للعربية وكتاب المنطق لأرسطاطاليس . كما نقلوا كتباً أخرى لبطليموس منها كتاب فى علم النجوم وكتاب فى الزيج وكتاب فى الجغرافية .

وقد بين ابن أبى أصيبعة مدى عناية الخلفاء المسلمين بعلوم الطب وماقام به الأطباء النصارى من جهد فى التأليف بالعربية فى هذا العلم نقلا عن اليونان .

وأما النقل عن الفارسية فكان قليلا وكان ميدانه ضيقا فقد انحصر في هذه الكتب الأدبية التي نقلها علماء مثل ابن المقفع إلى العربية كما فعل في كتاب تنسر . وكانت ترجمات ابن المقفع فاتحة لظهور اللغة الفارسية الإسلامية التي اشتملت على كثير من الألفاظ العربية مع استشهادات كثيرة بآيات من القرآن وبأحاديث نبوية وبالحكم والأمثال العربية . وقد صنفت بهذه اللغة كتب كثيرة فيما بعد ، وكان الكاتب لا يعبأ بكونه عربيا أو فارسيا أو تركيا، فكان يكتب باللغتين العربية والفارسية حسب ما يقتضيه الحال . ولم يكن العرب ينظرون إلى العلماء من حيث جنسيتهم أو دينهم حين يكافئونهم بأعمال علمية بل كان العلم هدفا يقصد إليه وكان العالم بذاته مبجلًا يُسعى إليه ، سواء كان مسلما أو نصرانيا ، عربيا أو فارسيا أو تركيا أو روميا . وكذلك كان النظر إلى الثقافة . كانوا ينشدونها حيثما تكون : « اطلبوا العلم ولو في الصين » . وقد قامت الثقافة الفارسية ، باللغة الفارسية الإسلامية ، على أسس واضحة بيّنها نظامي عروضي في چهار مقاله . واستطاع الفرس، كما استطاع العرب وكما استطاع الأفغان والترك والهنود ، أن يحملوا لواء الحضارة الإسلامية وأن يكون لهم نصيب كبير في هذه الحضارة. وكان للغة العربية أثر كبير في الأدب الفارسي، والصلة بين منوچهري وسعدي وغيرهما بالشعراء العرب كالمتنبي وغيره واضحة كل الوضوح . ويرجع تأثر الأدب الفارسي باللغة العربية وآدابها إلى أنها لغة الدين الذي نقل العرب والفرس جميعاً من الجاهلية إلى الإسلام ، والتراث الفارسي الإسلامي الذي يتحدث عنه هذا الكتاب خير دليل على ذلك .

الفصل الأول

٭٭٭٭

فارس والعالم القديم

ترجمة محمد صفر خفاجة

إذا فكرنا في الدور العظيم الذي لعبه الرجل الآرى في تاريخ العالم ، نجد أننا ـ نحن أحفاده ـ نكاد نجهل أصله ولا نعرف شيئاً عن الأرض التي كانت مهداً لجنسه ، ومع أن الغربي منذ نشأته الأولى يتشبع بالحضارة اليهودية واليونانية والرومانية إلا أن الآفاق الإيرانية الواسعة تبدو لعدد كبير منا بعيدة بعد القمر ، فنحن لا نعرف من تاريخها القديم إلا ما يتصل بإسرائيل واليونان ، وإننا نهتم جداً بطرد اليهود ومأساة ماراثون وموقعة ترموپولاى وسير العشرة آلاف وحياة الإسكندر المتألقة أما بقايا مملكة اجزرسس Ahasuerus وحكم قورش ملك الفرس ولباقة دارا عندما اعتلى العرش أو ظهور مذهب زردشت فهذه كلها تبدو لنا بجانب الأحداث السابقة عرضية لا أهمية لها ، ولا شك أن السبب في ذلك هو أن فارس لم تجد من يسجل تاريخها الخاص ولم يظهر من بين أبنائها مؤرخ مثل هيرودوت أو كسنيفون ، بل إن كل المؤرخين يؤيدون اليونان ويدافعون عنهم . فنحن نستمد معلوماتنا ـ مع ضآلتها ـ من كتاب أجانب ، من يهود ويونان ، أي من شعوب معادية للفرس ، وهذه عقبة كئود ، فتصوير الجانب الفارسى يتطلب القيام بدور

« المدعى الكاذب » لأن هـذا الجانب قد اندثر تماما لاختفاء معالمه ، ومع ذلك فالتفكير التاريخى يفرض علينا أن نبحث وجهة النظر المقابلة وهـذا ما سنحاول عرضه فى إيجاز ... ...

وما دامت تعوزنا المصادر والسجلات ففى مقدورنا أن نختار من الحقائق العديدة ما يصور هذه الفترة ويدحض روايات هيرودوت الساحرة أو يغنى عن الصمت التام، ولكن يجب علينا قبل الكلام عن هـذه الأحداث التاريخية أن نبحث فى بطون الماضى البعيد عن الفترة التى أصبحت فيها لهذه البلاد دلالتها الخاصة .

ففى أوائل القرن العاشر قبل الميلاد وبعد انقضاء حقبة طويلة من تاريخ العالم الشرقى غزت الشعوب الآرية الهضبة الإيرانية وتوغلت فيهـا إلى شرق وشمال بحر قزوين ، عندئذ اتخذت كلمة « فارس » صورتها النهائية ، وكانت تطلق بادئ الأمر على المنطقة التى تقع فى جنوب غرب إيران الحديثة على ضفة الخليج الفارسى وتتضمن قلب الإمبراطورية الفارسية التى تكونت فيما بعد بما فيها مدينة پاسارگاد وپرسپوليس وقد سماها اليونان پارسا وپرسس ثم أطلق عليها الغرب اسم فارس . وكانت تتكون فى عهد دارا من ولاية واحدة ولكن اسمها كان يطلق عادة على الإمبراطورية كلها تمجيداً لهـا باعتبارها موطناً لأسرة الأكمينيين الحاكمة . وفى العصر الحديث أيام رضا شاه استعمل اسم إيران من جديد وأصبح الاسم الرسمى وذلك تمشياً مع السياسة التى تدعو إلى تمجيد أسرة الأكمينيين بمعناها الواسع أو بعث التراث الآرى .

ومنذ ثلاثين عاماً كان يبدو للناس أن الإمبراطورية الفارسية انبثقت إلى الوجود بمعجزة من المعجزات كما انبثقت الإلاهة أثينا بأسلحتها ودروعها من رأس زيوس ، لأن قصة فارس قبـل حكم قورش كانت خليطاً من الأساطير والخرافات . ولكن الحفريات التى تمت فى الأعوام الثلاثين الحالية كشفت عن معالم هذه الدولة ، ومع أن هذه المعالم موجزة فى تفاصيلها إلا أنها مكنتنا من معرفة الخطوط المميزة لتاريخ هذه

البلاد الثقافى ، وكانت الأدلة نوعين رئيسيين : الأوانى الخزفية والنقوش المسمارية على ألواح الفخار والطين ، فأما الأوانى فأمدتنا بلمحات سريعة عن الحضارة القديمة فى مدينة پرسپوليس نفسها ، وترجع إلى ما قبل ٤٠٠٠ ق م . وهى تشبه فى مراحلها الأولى حضارة العصر الحجرى الحديث فى صفاتها ثم تطورت إلى مايشبه العصر البرونزى فى تمام ازدهاره وقد انتشرت فى المنطقة الواقعة بين ساحل سوريا وحوض السند . وعرفنا من النقوش الشىء الكثير عن أصل الناس الذين عاشوا فى هذه الفترة وعن ثقافتهم وأحوالهم السياسية فى المنطقة الجبلية الشمالية التى تمتد فى الأناضول عبر الهضبة الإيرانية الطميية الجنوبية التى تكسوها المراعى والأعشاب فى صحراء سوريا والعراق ولاشك أن الجزء الأكبر من فارس يدخل فى حدود المنطقة الجبلية بالرغم من صلاته القوية مع الأراضى المنخفضة ، فعيلام وعاصمتها شوش تكون فى مجموعها خليجاً فى العراق بارزاً متجهاً نحو المنطقة الجبلية . ومعروف أن الأجناس الآرية أو الهندية ـ الأوروبية لم تسكن المناطق الجبلية فى العصور الأولى ، وعلى ذلك فالحضارة التى انتشرت فى المنطقة والتى وقفنا على معالمها من أعمال الحفر فى شوش منذ ثلاثين عاما لم تكن من أصل هندى ـ أوروبى ، ومن العبث أن نبحث عن الصلات الجنسية بين الشعوب التى أوجدت هذه الحضارة ما دمنا نفتقر إلى دليل كافٍ نعتمد عليه ، ولقد حاول البعض تسميتها بالقبائل القوقازية أو القزوينية .

ويجب ألا نعجب من وجود تشابه بين ثقافة المناطق الجبلية وبين سهول سومر المنخفضة ، ففى الأولى وجدت الخامات والمعادن التى حاولت الثانية الحصول عليها واستخدامها فى ظروف اجتماعية أرقى . وتبعد عيلام عن سومر مائة ميل أو تزيد قليلا وهى فى الواقع جزء من أجزائها . وأماعن التشابه بين الأوانى الخزفية فى تينوس وسامرا وتل حلف والأبيض ومروك وجمدت نصر وبين الأشياء التى وجدت فى كثير من المناطق على ساحل سوريا عبر السهول السورية الشمالية وما بين النهرين

وداخل الهضبة الإيرانية وحتى ضفاف السند ، فإن هـذا التشابه هو ما نتوقع حدوثه نتيجة للصلات الحيوية التى تربط منطقة الهلال الخصيب بالمنطقة الإيرانية فى آسيا . ومهما يكن من أمر العلاقات البشرية بين المناطق المتعددة ، فإن التبادل الثقافى بينها كان قائما عن طريق المواصلات الطبيعية ، ولقد امتدت طرق النقل إلى أبعد من ذلك إلى الهند جنوبا وإلى الصين شرقا والتقت كلها فى إيران . ومن أهم وأشهر ما أنتجته الحضارة الإيرانية فى الفترة ما بين ٤٠٠٠ ــ ١٠٠٠ ق . م الأوانى المحـلّاة الجميلة التى يعرف أغلبها باسم أوانى شوش لأنها وجدت هناك أولا . وهـذه الأوانى تضاهى فى صناعتها أجمـل المواد التى صنعت من الخزف على الإطلاق إن لم تتفوق عليها ؛ يزيد فى متانتها قطع من الشمع وأختام لا حصر لها تشبه الأختام المستديرة المعروفة ، وفى سنة ٢٠٠٠ يبدأ ظهور التماثيل البرونزية التى تصور الحيوانات أو الأشخاص البدائيين وتعرف بتماثيل « بورستان » ولقد وجدت علامة الصليب المعقوف على بعض تماثيل العصر الحجرى الحديث ، فى قرية پرسيپوليس التى بنيت فى ذلك الوقت ، ولعل هـذا أقدم أثر وجدت عليه هذه الإشارة التى قدر أن يساء استعمالها فيما بعد ، وفى عصور ما قبل التاريخ فى المناطق الجبلية بإيران « رأس الثور » التى انتشر استعمالها كعنصر من عناصر الزخرفة فى اليونان القديمة وكتابة « عيلام » المصورة التى لا تقل عنها ذيوعا وانتشارا . ويظهر أن سكان الهضبة اتخذوا من الفن الزخرفى أداة للتعبير عما بأنفسهم من أقدم العصور ، ويحتمل أيضا أن زراعة القمح عرفت أول الأمر فى إحدى البقاع على حدود الهضبة الغربية وفى منخفضات عيلام ، فأمدت الرجل الغربى أو الآرى ــ ونحن بوجه خاص ــ بأساس من الأسس الهامة للحياة .

وعند ما أشار سلمانسر الثالث إلى الميـديين لأول مرة وذكرهم بين أعـداء آشور فى نقش يرجع إلى سـنة ٨٣٦ ق . م . لم يعتقد إلا قليلون أن هذه « السحابة التى لا تزيد عن حجم اليد » سيقدر لهـا بعد قرنين من

الزمان أن تقلب الامبراطورية الآشورية وتدمر عاصمتها ، نينوى ، وتنذر بزوال الامبراطورية السامية فى العالم القديم وتبشر بسيادة الشعوب الآرية ، ولقد سقطت نينوى فى يد الميديين عام ٦١٢ ق.م ووقعت بابل فى يد قورش « الفارسى » عام ٥٣٨ ق.م . والربط بين الشعبين له دلالته فهما اللذان ظهرا ليخلقا قوة جديدة فى تاريخ العالم ألا وهى الامبراطورية الفارسية . فلقد تجمع الشعبان فى منطقة المراعى الشمالية عند بزوغ عصر ما قبل التاريخ كجزء من غزوات « الرجل الآرى » التى غمرت الهضبة الإيرانية وسهول الهند الشمالية ، ومضت بضعة قرون كانوا فيها رعايا مغمورين فى آشور وبابل وشربوا خلالها جرعات من فيض الحضارات السامية العظيمة وقدر لهم أن يطبعوا العالم بصفات البساطة والرجولة التى جاءوا بها معهم من موطنهم القديم الذى كانت جنات واحاته صورة لجنات عدن ، ولقد أثرت طبيعة البلاد الساحرة تأثيرا طفيفا على تلك الصفات النقية التى خلقت فى أقل من ثلاثين سنة أعظم امبراطورية . ولقد أدى تدمير نينوى (٦١٢ ق.م) يد الميديين فى عهد ملكهم هووخ شتر Cyarxares إلى هذه النتائج . أقام الميديون فى جزء من الهضبة يقع جنوب غرب بحر قزوين ، أى آذربيجان الحديثة وعاصمتها اكبتانا (همدان) ، ومن بين الاساطير التى تملأ تاريخهم تبزغ حقيقة جوهرية تؤكد أنهم كانوا أقارب الفرس ، وفى عام ٥٥٠ق.م . خلع قورش ملكهم إيخ توويگو Astyages من على عرشه واستولى على امبراطوريتهم فضم إلى إمارته المغمورة الواقعة على الخليج الفارسى شعبا من نفس الجنس الذى ينتمى إليه وطالب بغير حق أن يحكم آشور ومابين النهرين وأرمينية وكبدوكية (بلادالقباذق)، وظل الميديون يحتلون مكانةمشرفة فى امبراطورية قورش التى عرفت بإمبراطورية الميديين والفرس ، أما قورش نفسه الذى كان فى أول الأمرملكا لأنزان ــ المنطقة التى تقع حول شوش ــ فقد فضّل ، لما اتسعت فتوحه ، أن يؤكد أنه من سلالة هخامنش الذى كان يقيم فى مدينة پاسارگاد بمنطقة فارس الأصلية، والذى سميت أسرة الهخامنشيين باسمه ، ولعل قورش ــ فى رأى المحدثين ــ

أشهر شخصية فى تاريخ الشرق القديم ، وتعزى شهرته من جهة إلى عظمته الحقيقية كفاتح ومصلح ومن جهة أخرى إلى علاقاته مع اليهود الذين لم ينسوا له أبداً سياسته التحررية وسماحه برجوع المطرودين فى بابل ومساعدتهم ، ولقد أكسبه هــذا العمل شهادة بحسن تصرفاته وردت فى الفصل الأول من سفر عزرا الذى لم ينجح مؤلفه فى معرفة الأسباب الحقيقية للتسامح الفارسى مع عبيـدهم الذى شُبه بتسامح جاليو(١) .

وبعــد غزو بابل قلب قورش رأساً على عقب سياسة نابونيدس Nabonidus الدينية التى حملته على جمع كل تماثيل الآلهة فى بابل فأثار سخط الـكهنة والناس ، وجاء قورش واتبع سياسة اللامركزية فوزع الآثار المقــدسة وأعادها إلى أماكنها الأصلية فى أنحاء الأمبراطورية كلها ، فلما قام بتنفيذ هذه السياسة سمح لليهود المنفيين من بابل بالعودة إلى بيت المقدس والاستقرار هناك تحت إشراف زروبابل سنة ٥٣٧ ق.م. وبإنشاء مركز دينى ومعبد زاهر لهم ، وهذه السياسة مع قصة دانيل وقصة إستر المذكورتين فى التوراة قد أدت إلى تعريف العــالم الغربى بقوانين الميديين والفرس وأدخلت الأمبراطورية الفارسية فى نطاق معارفنا الحديثة .

ولـكن الإهمال الذى طوى فارس وتاريخها فى عالم النسيان يتضح بجلاء عند ما ننظر إلى الأعمال الرائعة التى أتمها ، فلقد تم لقورش فتح ميديا عام ٥٤٩ ق . م ثم غزا ليديا وهزم أميرها كرويسوس عام ٥٤٦ وغزا بابل فى ٥٣٨ . وفى عام ٥٢٥ غزا قمبيز مصر ، وبذلك تـكونت فى سنوات معدودة امبراطورية ضمت بين أرجائهــا الجزء الأكبر من العالم القديم المعروف وامتدت من الهند إلى بحر إيجه تقريبا ومن البحر الأسود إلى البحر العربى . ولقد سقطت هذه الممالك القديمة فى يد الفاتح الفارسى

---

(١) الذى رفض محاكمة سان بول حين اتهمه اليهود . (قاموس وبستر) .

كتفاحات ناجحة . وعقد عمل دارا الثالث على اتساع هذه الامبراطورية حتى بلغت بحر إيجه ، ومع أنه أخفق عند ما حاول ضم الولايات الأوربية اليونانية ، إلا أنه قوى دعائم مملكته الضخمة ، وكانت أوسع امبراطورية عرفت حتى ذلك التاريخ ، ونجح فى تنظيمها تنظيماً سياسيا ممتازا لم يكن له نظير فى العالم القديم إلا فى الامبراطورية الرومانية .

وقد قامت الامبراطورية الفارسية على دعائم وطيدة جداً لدرجة أنها بقيت قوية متماسكة قرنين من الزمان فى يد الأسرة التى أسستها والتى كان أفرادها حتى ذلك الحين، حكاماً متواضعين لإحدى المقاطعات النائية .

ويجدر بنا فى هـــذا الصدد أن نقارنها بامبراطورية الإسكندر الأكبر التى تفككت بعد موته ، هذا والسرعة التى تمت بها فتوحاته ونتائجها الفعالة فى الميدان الثقافى يرجع الفضل الأكبر منهـا إلى الأسرة الأكمينية التى مهدت الطريق والتى اتخذ الإسكندر من امبراطوريتهم نموذجا يحذو حذوه . فالطابع الشرقى فى بلاط سليوكس يعزى إلى حد ما إلى تلك الأسرة ، فقد كانت أسرته نصف إيرانية « لأن سليوكس تزوج أياما ابنة سبيتامنيس أحد الزعماء المناوئين للاسكندر فى بلخ » . ومنذ ذلك الحين أصبح تاريخ الإسكندر جزءًا من التاريخ الفارسى الذى كان العصر الهلينى استمراراً طبيعيا له ، لأن خلفاء الإسكندر الذى ورثوا امبراطوريته أصبحوا بدورهم أمثلة لقياصرة الرومان يحذون حذوهم ، وعن هؤلاء عرف العالم الأوربى فكرة « الملك » أو « الامبراطور الأعلى » التى اشتقت من لقب « ملك فارس الأعظم » .

وكان يسيطر على هذه الامبراطورية غير المتجانسة جيش صغير نسبيا من المواطنين الفرس تتزعمه قوات من الولايات الأخرى . وتعزى سيطرة الجيش على الحكم إلى سرعة المواصلات ، « فالطريق الملكى الفارسى » عرف قبل الطرق الرومانية بعدة قرون . فكانت الطرق التى تتشعب من العاصمة الإدارية شوش وتمتد إلى أقصى أرجاء

الامبراطورية تساعد على نقل البريد الملكي الذى يحمل التعليمات إلى الحكام والقواد وترجع بتقارير عن أحوال البلاد ، وأينما ذهب رسل الملك تبعهم أناس آخرون ولو بسرعة أقل وبذلك انتشرت التجارة حيث رفرف العلم الفارسى . ومع أن الفكرة السائدة عند اليونان صورت حاكم الفرس على أنه Basileùs أى « الملك العظيم » أو « الحاكم المطلق » لكن سلطته كانت فى الواقع مقيدة جدا بعادات وتقاليد كثيرة ، فالأوامر التى كانت تعطى لتنظيم هذه المناطق الشاسعة المتباينة كانت تعتمد من « مجلس الملك » لا من طاغية غير مسئول . وكان التسامح طابع الحكومة المميز لها . وكان الملوك يراعون بدقة عادات وأديان الشعوب العديدة الخاضعة لهم بل ويعملون على إنعاشها فى البلاد التى تسود فيها ، فقورش ودارا وقمبيز حكموا بابل كما حكمها ملوك بابل وحكموا مصر كما حكمها الفراعنة ، فشتّان بينهم وبين انتيوخوس إبيفانيس الذى حاول بحماقته أن يفرض العبادات اليونانية على اليهود المتمردين !! ومع أن الفرس كانوا قساة فى بعض الأحيان إلا أنهم كانوا متسامحين بوجه عام مع أعدائهم الخاضعين ، ولكنهم كانوا دائما لا يرحمون الخونة ؛ فلم يتصف الفرس بالوحشية المطلقة ولم يجدوا لذة فى استخدام القسوة وعمليات القتل على نطاق واسع كما فعل الآشوريون ، ولو أن طابع الحكم الشرقى يظهر أحيانا فى بعض أعمالهم مثل إعدام بارديای الكاذب الذى قتله قمبيز قبل حملته على مصر ، ومع أن هيرودوت جعل فارس فى كتابه تقوم بدور الشرير وعبر عن ذلك بقوله فى قالب روائى : « إن الشرير سيشقى من أجل هذا كله » ، مشيرا إلى مثل هذه الحوادث والتصرفات ، إلا أنه لم يستخلص منها نتيجة عامة ولم يعتبرها ذات دلالة معينة .

ولقد أمدتنا الإمبراطورية الفارسية بأول نظام إدارى نعرفه ، وكان الوالى (السترب) يعتبر حلقة اتصال هامة فى نظامها الحكومى ولقد أصبحت لفظة Satrap (والى) كلمة مألوفة فى الإنجليزية ، وكان الولاة عادة من النبلاء أو الأمراء وكانوا



منظر شـــوش من الجو .





قــدحان مزخـــرفان

غالبا مايعينون لمدى الحياة ، وكانوا يشبهون الملوك تماما فى الولايات ، لهم فيها سلطة مطلقة على الفنون العسكرية والمدنية ، كما كانوا يقومون فيها ببعض الاتصالات السياسية مع الدول المجاورة . ولا أدل على مقدرة دارا فى تنظيم الإمبراطورية من أنه استطاع أن يسيطر على مايقرب من عشرين من هؤلاء الولاة الأقوياء (والثوار القادرين) ولقد تمكن من ذلك بفضل الطرق المعبدة التى عُنى بإنشائها ومراكز البريد التى أوجدها بين عواصم الأقاليم وبفضل النظام الدقيق الخاص بالمفتشين الذين كان يلقب بعضهم « بعين الملك » أو « أذنه » ؛ فمع أن الوالى كان هو رسميا صاحب الكلمة العليا فى ولايته إلا أنه كان دائما معرضا لتجسس عيون من أتباعه أو من غيرهم . وكان الملك أيضا يعين قائد القوات الحربية وكان الأشراف يمنحون الأراضى فى الولاية ويلون المناصب الهامة فيها ولهم حق الاتصال المباشر بالملك ، وكانت الطوائف المحلية ، مثل كهنوت اليهود فى بيت المقدس ، تشجع على تأسيس هيئات مستقلة لها . وهكذا ظهرت سياسة « فرق تسد » بوضوح وطبقت لأول مرة فى التاريخ .

وكان جمع الضرائب ، نقدا أو عينا ، من بين مهام الوالى ، وكانت هذه الضرائب تفرض على جميع الولايات ولا يعفى منها إلا ولاية فارس مسقط رأس أسرة الأكمينيين . وكانت هذه الضرائب تجمع بدقة فى الإمبراطورية كلها تحت إشرافٍ من دارا ، وكان هذا من بين خصائصه المميزة التى أكسبته شهرة إدارية . وكانت الإمبراطورية الفارسية تؤدى خدمات جليلة لسكانها مقابل هذه الضرائب . وكان من بين هذه الخدمات نشر السلم ، باستثناء الحرب اليونانية ، والتقدم بطرق منها استخدام نظام سك العملة ، والقيام بالمشروعات العامة الضخمة ، مثل إتمام القناة التى تصل النيل بالبحر الأحمر ، وإرسال البعوث الاستكشافية ، مثل بعثة سيلاكس Scylax الذى اكتشف المناطق بين السند والسويس تحقيقاً لسياسة دارا الذى كان يريد أن يجعل فارس قوة بحرية .

كل هذه المشروعات تستطيع أى دولة حديثة أن تفخر بها . ويحتمل أن استخدام سكة مختومة رسميا فى التبادل كان من ابتكار الصيارفة والتجار فى مدن آسيا الأيونية حوالى ٧٠٠ ق . م . ثم ارتقى استعمالها فى عهد كرويسوس على يد تجار ليديا الذين كانوا يتجرون مع الأوروبيين إذ كانت بلادهم تمتاز بموقعها عند نهاية خطوط القوافل الأسيوية. ولقد أدرك دارا الفائدة العظيمة لهذه السكة فأخذها عنهم وصقلها حتى أن مجموعة «رماة السهام» الفرس، التى صور على ظهرها الملك العظيم جاثياً على ركبته وممسكا بقوسه، تعد من أشهر قطع السكة فى العالم القديم .

ولقد أصبحت الآرامية لغة الأمبراطورية الرسمية فى أجزائها الغربية، ويبدو أنها كانت تستخدم أيضاً فى الأجزاء الشرقية ما دامت قد تركت أثراً فى بعض الخطوط الهندية. أما الكتابة المسمارية القديمة فأخذ يصعب فهمها تدريجيا حتى انقرضت بالفعل فى القرن الرابع ق . م . ، ولما ظهرت الآرامية أصبحت أرق أداة لكتابة الحروف الأبجدية وكتب لها الدوام . واهتم دارا أيضا بتشجيع العلوم وإنمائها مثل علم الفلك (الذى كان يمكن الاستفادة منه فى الملاحة) ، وأنشأ فى مصر أيضاً أول مدرسة عرفناها فى الطب . ويحتمل أن يكون تحسين التجارة وطرق المواصلات الذى ساد العالم المعروف فى أيام الإمبراطورية هو الذى ساعد على جلب الدجاج الهندى المتوحش من غابات الهند إلى منطقة البحر المتوسط ليصبح عندنا طيراً مستأنساً . وكانت ولاية فلسطين النائية على اتصال وثيق بفارس كما تشهد بذلك أنقاض إحدى الوكالات الفارسية الحكومية بتل دوير وأنقاض قبر بتل فرح (بيت پلّتْ) الذى وجدت به نماذج جميلة من الصحاف الفضية التى تنسب لأسرة الأكمينيين . وهكذا اتصل الشرق البعيد لأول مرة اتصالا وثيقاً بالحضارة اليونانية القديمة كما يتضح من تاريخ هيرودوت . ولم يتم الاتصال عن طريق واحد ، لأن ساسة اليونان (فى أواخر القرن الخامس والقرن الرابع ق . م) كانت لهم علاقات منتظمة بفارس، إذ كان يتحتم على إحدى الولايتين اليونانيتين المتنازعتين

أن تتحالف معها . ولقد استطاع خلفاء دارا بواسطة الأصفر الرنان أن يجتثوا جذور المقاومة اليونانية ويكسروا شوكتها ، تلك المقاومة التى لم يستطع « أبطاله الخالدون » الصمود أمامها فى القرن الماضى وذلك فى مواقع ماراثون وپلاتيا وسلاميس . ولكن كان من سخريات التاريخ أن هذا النجاح نفسه قد جر على الفرس غضب إلاهة الانتقام Nemesis التى تخفت لهم فى صورة الإسكندر . ففى نهاية القرن الخامس يلقى المؤرخ كسينفون أضواء قوية ، فى روايته الحية ، على حدث من أهم أحداث التاريخ ألا وهو « مسيرة العشرة الآف » ويكشف عن الضعف الذى لازم هذه الإمبراطورية المتعثرة منذ نشأتها ويبين حاجتها إلى شخص يوجه دفة أمورها . ولدينا إناء يونانى مشهور يرجع إلى ذلك العصر صور عليه دارا وبلاطه تصويرا متقنا ، وأوان يونانية من القرن الرابع تدل على تطلع الفنانين المتزايد للتأثيرات الشرقية . وطوال القرن الرابع ق.م. كان المثالون والمهندسون اليونانيون منهمكين فى إنشاء المعابد بآسيا الصغرى وتزيينها ، وأشهرها وأعظمها معبد أرتميس فى أفسوس بينما كان الفنان سكوپاس وزملاؤه يبدعون فى زخرفة قبر الأمير الكارى موصولس Mausolus . وهكذا ظهر امتزاج الثقافة اليونانيـة بالفارسية فى جزء من ممتلكات «الملك العظيم» قبل غزو الإسكندر بوقت طويل .

ولعل اعتدال الحكم الفارسى كان إلى حد ما عنصرا من عناصر السمو الخلقى الذى تميزت به إمبراطوريتهم على الإمبراطوريات السابقة ، والغالب أنه كان من أهم الخصائص التى جعلتها موضع احترام الأجيال المتعاقبة . فبعض عقائد الفرس الدينية كانت تمنعهم كغزاة من قتل الشعوب المغلوبة حبا فى القتل، بل كانت تدفعهم عادة إلى اتباع المبدأ القديم ، مبدأ النور ضد الظلام ، مبدأ أهورا مزدا ضد أنجرا ماينو «أهرِمَنْ». ولقد استطاع الدين الفارسى أن يتمثل كثيرا من الأديان ويمهد للنظم العالمية التى ستظهر فيما بعد وذلك بفضل ظهوره فى وسط العالم وبفضل تسامحه واحترامه للشعوب الأجنبية ومعتقداتها .

ولقد أنكر الدين الفارسي بالفعل فى عهد دارا تعدد الآلهة الذى عرفته العصور الخوالى وأخذ بمبدأ التوحيد وبذلك أصبح فى منزلة اليهودية والمسيحية والإسلام أى فى عداد الأديان المهمة التى تؤمن بالتوحيد ، واختلف اختلافا بينا عن الفرع الآرى الآخر الذى تسلل إلى شبه جزيرة الهند وابتكر مجموعة متزايدة من الآلهة والإلاهات العظيمة والصغيرة .

وفى العصور الأولى كان للإيرانيين ، قبل أن يصبحوا قوة عالمية ، عبادات متعددة ، فكانوا يقدسون قوى الطبيعة : النار والماء ، والريح والعاصفة ، والشمس والقمر وكانوا يحيون حياة قاسية كبقية الآريين القدماء ، يقضونها فى التنقل بين جبال آسيا وسهولها الواسعة .

أما المراحل التى مر بهـا الفرس حتى تخلوا عن آلهتهم المتعددة فهى مجهولة ، ويحتمل أن تدرج هذه المراحل كان معقداً تعقيد المراحل اليهودية الأولى التى ذكرت فى التوراة ووصفت ارتدادهم المتكرر فى عكوفهم على عبادة العجل الذهبى وآلهة كنعان .

إن وجود النبى العظيم زردشت نفسه موضع جدل ، فالرأى السائد بين الذين يسلمون بوجوده هو أنه وجد فى القرن السابع ق.م، ولكن من الغريب أن هيرودوت و كسنيفون لم يذكراه ، ومهما يكن من أمر ، فإن زردشت كمنشئ للدين الفارسى كان له دلالة عظيمة فى تاريخ الفكر . والمفروض إنه ولد فى آذربيجان شمال غرب إيران ، بعيدا عن فارس ، موطن الأكمينيين فكأن الدين والحكم الفارسيين قد ظهرا من مكانين بعيدين كل البعد بإيران ثم اتحدا معا ، وكان دارا أول ملك اعترف بعبادة زردشت ، أما قورش وقمبيز فيبدو أنهما اكتفيا بالموافقة على المذاهب المسلم بها أو اعتناق أديان الشعوب التى خضعت لهما .

قلنا إن الدين الفارسى ، قبل ظهور زردشت ، كان يقوم ، إلى حد ما ، على عبادة الطبيعة كبقية الشعوب الآرية وكان خاضعا لنفوذ المجوس العظيم ، وهم فئة من رجال

الدين تشبه جماعة اللاويين فى التوراة الذين كانوا يحتكرون الإشراف على الطقوس والحفلاف الدينية وكانت لهم عادات خاصة بهم منها تعريض جثث الموتى للطير وذبح معظم الحيوانات ماعدا الإنسان والكلب . وظلت المادة الأولى مألوفه فى فارس وبين الپارسيين فى الهند ، ويقابلها فى العصر الحديث « أبراج السكون » ، ولقد ظهر نفوذ المجوس الواسع وعلمهم بالفلك فى الرحلة المشهورة التى قام بها «حكماء ثلاثة من الشرق» إلى بيت لحم يوم ميلاد المسيح ، وفى غيرها من المراجع الأدبيــة التى أشارت إليهم بعد ذلك . ولقد بلغ نفوذهم الذروة فيما بعد أيام الساسانيين . وصلة زردشت بالمجوس غير مؤكدة ، فأتباع زردشت الأول كانوا يدفنون الموتى ؛ ولقد بقيت لنا سبعة قبور ملكية لأسرة الأكمينيين ، منحوتة فى جانب الجبل فى پرسيپوليس ، ومع ذلك يقال إن زردشت كان مجوسيًّا ، ظهر فى الفرس نبيًّا وهاجم الدين الموجود كله وأكد وجود اهورا مزدا ، الإله الأوحد ، خالق الكون وسيده . ثم هدى ويشتاسپ الذى أكد البعض أنه هيشتاسپيس الذى كان فى سابق الأزمان ، أباً لدارا ، ولكن ذلك أمر يشك فى صحته ؛ ولقــد اعتنق دارا الدين الجديد وتحمس له ونصب نفسه نصيراً ومؤيداً له طوال حكمه . فجميع النقوش تفيض بعبارات الحمد والولاء لأهورا مزدا الذى يُعزى إليــه الفضل فى إنجاز مشاريع دارا كلها . ولقد وصف هيرودوت دين الفرس بعد ذلك بقرن وذكر أنهم لا يستخدمون التماثيل والمعابد والمذابح فى عباداتهم ولا يؤمنون كاليونان بأن الآلهة لهم شكل البشر ، وكانوا ينحرون الضحايا للإله على قلل الجبال ، وأن هذا الإله عندهم هو قبو السماء بأكمله ، وأضاف المؤرخ قائلًا : « ويضحون أيضاً للشمس والقمر ، للأرض والنار ، للماء والهواء . . . لهؤلاء فقط كانو يقدمون الضحايا منذ أقدم العصور ثم تعلموا عن الآشوريين والعرب أن يضحوا للثريا Ourania كذلك ... ويطلق الفرس على افروديتا اسم ميترا » ، ورواية هيرودوت غريبة جدًّا حتى إنه هو نفسه لا يستطيع فهمها لأنها مليئة بالتناقض الذى

ظهر فيها كما ظهر فى دين اليهود من قبل . وفى الآوستا ، كتاب الفرس المقدس، كانت «الـگاثات» تتضمن تعاليم زردشت نفسه ، فالفرس أيضاً كانوا من أهل الـكتاب .
أما إن بعض الأفـكار السامية فى الدين اليهودى ، مثل فـكرة ياهو فى سفر أشعيا ، قد دخلته فى عهد الإمبراطورية الفارسية وفى ظـــل زردشت ، فهذا فيما يبدو ليس بمجرد صدفة ، ولقد ذكر العلماء أن بعض اليهود كانوا على الأقل حتى أيام المسيح يشكون فى خلود الروح ، وهى عقيدة أساسية من عقائد زردشت ، ولقد أشرنا من قبل إلى اتصال اليهود بقورش ، ومن الممـكن استخلاص أمثلة أخرى عديدة تشير إلى المودة بين اليهود والفرس الذين لم تـكتب عليهم اللعنة الأبدية مع غيرهم من عباد الأوثان . وقد نعجب إذا عرفنا مدى ما أصاب الدين اليهودى من رقى وتهذيب فى مراحل تطوره الأخيرة أيام الإمبراطورية الفارسية ، وما لقيه من تشجيع فى ظل التوحيدالزردشتى. وفى أواخر أيام الأكمينيين تظهر أيضاً شخصية ميتراس من الصورة المهوشة لدين الفرس ، وذلك ابتداء من نهاية القرن الخامس والقرون التالية . وكان ميتراس أول الأمر من أتباع اهورا مزدا وبعـد ذلك اتحد مع الشمس وأصبح الإله القدير ، ثم نزح من مركز عبادته الرئيسى فى آسيا الصغرى وتسرب إلى مملـكة الأكمينيين بأوروبا تصحبه دعوة مهمة خطيرة ستنتشر فى المستقبل وتنافس المسيحية، وفى نفس الوقت نزحت اناهيتا Anahita ، الإلاهة الأم العظمى ، التى تمثل أحياناً افروديتا ، نزحت من مركز عبادات الأخصاب الـكبير فى بابل إلى فارس وانضمت إلى آلهتها .. وكان ظهور هذين المعبودين النازحين من أقصى الإمبراطورية أول تحد بالغ لسيادة أهورا مزدا .

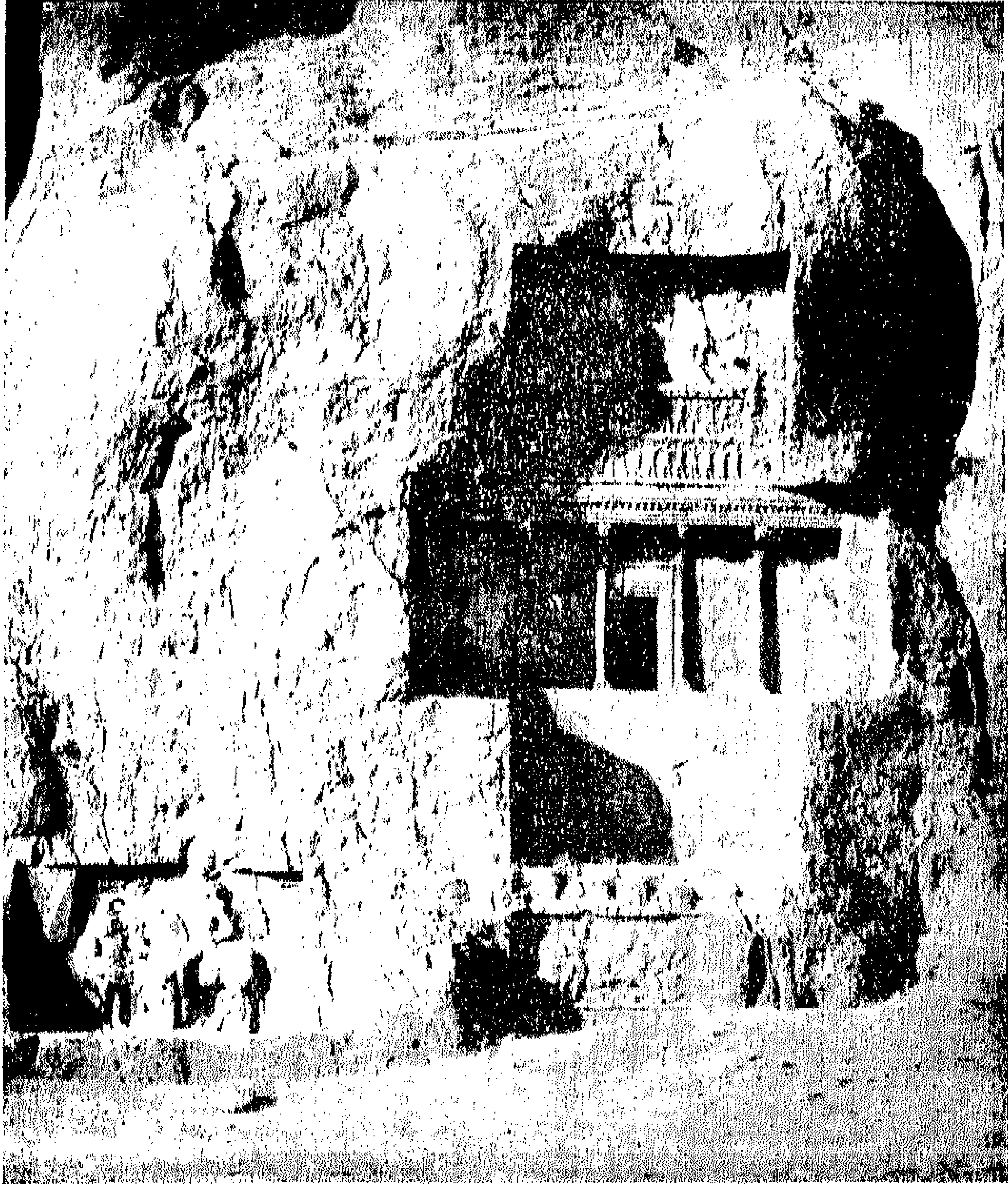
وكان الفرس متصوفين دائما ، متشـكـكين فرديين ، يهتمون بمضمون الحيـــاة وما فيها من حقائق ظاهرية ، وما زالت هـذه صفاتهم مع أن عالم الآلة من حولهم يدفعهم دفعا نحو تنظيم وإنتاج أوفر . فـكل الغزاة ، حتى البدو الرحل الذين جاء بهم

چنگيزخان ، كانوا يستسلمون آخر الأمر أمام السحر الفارسي ولا يستطيعون مقاومته ، وكانوا يمتزجون امتزاجا تاما بروح الشعب التي تحملهم على الإذعان ، فهم قوم مرحون يسبحون في عالم الخيال ، ويفيضون بهجة وحيوية عبرت عنها أعمالهم الخزفية وكثير من التماثيل البرونزية التي صنعت في عصر الأكمينيين ، وتركت آثارها في حكم العرب الإسلامي الذي دام ألف عام ثم انبثقت من جديد في القرن السادس عشر في عهد الصفويين ؛ ومن بين تقاليدهم التي ذكرها هيرودوت عادات لطيفة ترجع إلى الأيام التي كان يجوب فيها أجدادهم الآريون السهول الشمالية على ظهور الخيـــل ؛ منها : أن الرضيع يبقى خمسة أعوام بعيداً عن أبيه لا يراه وتتولى النساء تربيته ، وأن الأبناء من سن الخامسة إلى سن العشرين يتعلمون ثلاثة أشياء فقط : ركوب الخيل ، والصيد بالقوس ، قول الحق . أما القتال في المعركة فكان يعد أسمى صفات الرجل وكان يليـه في الأهمية بناء أسرة كبيرة من الأبناء ، ثم يأتي بعد ذلك مثلهم الأعلى وهو تكوين الجنـدي الباسل . إن استهجانهم للكذب وكرههم للاستدانة يشيران إلى وجود قوانين صارمة في المدرسة ، ويؤيدها تصرف مشابه هو احتقارهم للتجارة ؛ ولهم كثير من عادات الرحل الأقوياء الجسورين . ولـكنهم بدأوا عنـــد ظهور الإمبراطورية أيام هيرودوت يتذوقون حياة الترف . ومن عادات الفرس ما هو مألوف بيننا نحن معشر الأوروبيين ، ولعل ذلك نتيجة لجنسنا الآري المشترك ، مثال ذلك حفلات أعياد الميلاد ، وحبهم لضيافة الغريب . ولعل هـذا الاستعداد قد قوي عندهم حتى دفعهم إلى الإسراف والبذخ في كثير من نواحي الحياة فأصبحوا مثلًا لذلك في العالم القديم .

ويقول هيرودوت : إنهم تعلموا « غزل الغلمان » عن اليـونان ويتخذ من ذلك دليلًا على ميلهم لتقليد جيرانهم ؛ ولـكن مرحهم كان مشوباً بالرقة وسلامة الذوق ، فمع أنهم كانوا يحبون الطعام والشراب لـكنهم كانوا يتجنبون التخمة ، ويتحاشون

ممارسة شئونهم الخاصة جهراً أمام الغير لأنهم لم يكونوا أجلافا ؛ لقد كانوا فى طباعهم أكثر شبهاً بالفرنسيين منهم بالانجليز فى العصور الوسطى أو بالرومان النهمين . فالإكثار من الشراب كان لا يقلل من وضوح أحكامهم كما يستدل من إحدى عاداتهم المعروفة وكانت تقضى ببحث قراراتهم التى اتخذوها وهم سكارى والنظر فيها من جديد فى صبيحة اليوم التالى بعد أن يعودوا إلى وقارهم ورزانتهم . وكانوا يحيون الصديق بقبلة يطبعونها على وجنته، وما زالت هذه العادة مألوفة عند البدو من العرب، أما التذلل الذى كان يبدو فى سجودهم عند أقدام من هو أعلى منزلة فلم يعد له وجود. وعرفوا تعدد الزوجات واعتزال النساء وهذا أمر طبيعى عند الشرقيين ماعدا البدو الرحل منهم الذين منعتهم ، وما زالت تمنعهم من ذلك طبيعة حياتهم . ولقد قام الحريم والحشد من الخصيان بدور كبير فى حياة الامبراطورية أضعف قوة البلاط، وبالتالى صير حكام الأكمينيين والمتأخرين مجرد ظل شاحب لأسلافهم العظام سرعان ماسار إلى الزوال فمهد لبزوغ شمس الإسكندر . وعلى أية حال لم يكن الفرس أبدا عدوا مشتركا استحق مدح هيرودوت وأثار إعجاب اخليوس وأمد هذين الآريين الممتازين بموضوع لأعمالهما التى تعد من أروع ماخلفه لنا العالم القديم .

ولكن الأكمينيين كانوا أقل أصالة وابتكارا فى الفنون منهم فى الآداب والعلوم ، ولقد أثبت الفن وجوده عندهم فى صورتين رئيسيتين : العمارة وصناعة أدوات الزينة مثل الأقداح والكئوس والأحجار الكريمة وقطع السروج المرصعة بها لأن اقتناءها كان محببا عند شعب لم يخرج من طور البداوة إلا منذ عهد قريب ، وأهم النماذج المعمارية التى بقيت هى السقف والقصور العظيمة فى پرسپوليس وشوش ، وظاهر أنها من وحى العمارة الآشورية والبابلية فمنهما نقلوا فكرة العُمد الضخمة التى تصل بينها ممرات مدرجة تزينها أفاريز منقوشة ، ومع ذلك فقد أدخل الفرس من عندهم خصائص متميزة على ما نقلوه من الخارج .



نقش رستم ، مقبرة دارا . القرن الخامس قبل الميلاد .



رأس رجل من البرونز . من عصر ما قبل الأكمينيين

فقصور دارا وخشيارشاى الهائلة وأبهاء الاستقبالات الملكية لم تكن على شكل حصون أو معابد ، فتلك المعابد ، كما يقول هيرودوت ، لم توجد بفارس فى عصر الأكمينيين ، بينما كانت تبنى الأبهاء على شكل مظلة تتكون من سقف خفيف فوق مجموعة من الأعمدة ، حيث يقابل الملك السفراء الأجانب وغيرهم من علية القوم . وواضح أن فكرة الأعمدة المعمارية من هذا الطراز كانت مأخوذة عن مصر ، ومع ذلك فقد اتخذت لها طابعا مغايرا فى فارس ، فكانت الأعمدة هناك أطول وبالتالى أقل ضخامة . أما استعمال جذوع الشجر كأعمدة يظلها سقف خفيف ، خاصة عند المدخل ، فما زال موجوداً فى أجزاء من بلاد فارس وحول شاطئ بحر قزوين بالذات . وكان هـــذا الطراز من الأبهاء الملكية فقيرا من الناحية الفنية ويعوزه الخيال . « فبهو المائة عمود » لابد وأنه كاد يكون مظلما من الداخل وأن أعمدته كانت متقاربة جدا حتى أن العين كانت لا تستطيع أن ترى منه فى وقت واحد إلا جانبا واحدا من جوانبه، وكانت الأعمدة تنتهى بتاج من طراز جديد أو بالأحرى بقاعدة تصور الجزءين الأماميين لحيوانين (ثورين فى الغالب التصق ظهر أحدهما بظهر الآخر) . وهذا الطراز الفارسىّ لتاج العمود قد عثر عليه بعيدا عن هذه المنطقة فى بناء غريب، يحتمل أنه قصر من أوائل العصر الهلليني ، ويقع فى واد قصى بالأردن ، يعرف « بعراق الأمير » وهى نفس البقعة التى تسمى عادة « صور يوصف » وكانت من بين التفاصيل الفنية لهذه الأبهاء أفاريز طويلة منقوشة نقشا بارزا يصور صفا من حملة الخراج فى الولايات التابعة أو من نبلاء الفرس الذين يعملون فى حرس الملك العظيم . وفى قصور شوش كانت تصنع مثل هذه الزخارف من القرميد اللامع متأثرة بالفن البابلى وهذه النقوش البارزة التى كانت تلازم العمارة ملازمة وثيقة تفوق فى رقتها النماذج الآشورية التى نقلت عنها وإن كانت لا تضاهيها تماما فى واقعيتها ، ويظهر أنها أثرت على أعمال النقش اليونانى المعاصرة أو المتأخرة قليلا ، خاصة أفاريز المعبد

وما ينقش عليها من مناظر عديدة للمواكب (قارن أفاريز البارثنون = معبد العذراء أثينا) .

وبعد الحروب الميدية فى القرن الخامس ، زار كثير من اليونان البلاط الفارسى فى شوش (لأنهم كانوا لا يعرفون پرسپوليس إلا بالسماع) ولا بد أن أعمال النقش المعمارية الهائلة قد تركت فى نفوسهم أثرا ولكن المحتمل أن التأثير كان متبادلا إلى حدما لأن اليونان كانوا أكثر منهم أصالة وابتكارا فيما يتعلق بالفكرة الفنية وإخراجها إلى حيز الوجود . ويحتمل أن تكون هذه الأفاريز الفارسية قد أثرت ، عن طريق الساسانيين فى الفن الكهنوتى البيزنطى الذى كان يكثر فى مثل هذه المواكب وخاصة فى أعمال الفسيفساء. وكانت بوابات هذه القصور ومداخلها تزين عادة بتماثيل لها رأس أنسان وأجسام ثيران ذات أجنحة أو وحوش خيالية أخرى من الواضح أنهم عرفوها عن الآشوريين ، ويظهر أن تصميم مجموعة المبانى وضع ككل وأن جزءا كثيراً منها بنى فى عهد خشيارشاى « كمدير للمنشئات العامة » ولكنها لم تكمل أبدا، ويحتمل أنها كانت تستخدم لقيام الحفلات فى مناسبات معينة بمقر الأسرة المالكة مثل ريمس ، ووستمنستر . وعندما كانت عملية البناء مستمرة فى پرسيپوليس فى الستين عاما ما بين ٥٢٠ـ٤٦٠ ق.م. كان التطور معدوما أوضئيلا غير ملحوظ فى العمارة والنقش. يضاف إلى ذلك أنه كان تطورا جامدا مملا لا حياة فيه إذا قورن بالتطور السريع للفن اليونانى المعاصر . وكان طراز الامبراطورية آخر فصل فى حياة الفن فى الشرق القديم وذلك الفن الذى لم يولد ويزدهر فى أرضه بل كان من عمل صناع جىء بهم بوجه خاص من مصر وآشور ليضيفوا مجداً جديداً إلى حكم الملك المستبد .

وكان الفن فى عصر الأكمينيين خليطاً كالآرامية ، لغة الإمبراطورية الرسمية، فبيوت العامة قد اندثرت تماماً لأنها بلا شك كانت تبنى من اللبن ، وبما أن الفن فى عصر الأكمينيين لم يعرف المعابد أو أى نوع من الأبنية أو التماثيل الدينية إلا تمثال

واحد لأهورا مزدا مقاما على قرص ذى أجنحة ـ لذا كان فناً شعبيا صرفا فى طابعه ، وهذا ينطبق أيضا على الإنتاج الفنى الثانى فى الأهمية الا وهو القطع المعدنية والأحجار الكريمة . لا شك مطلقا فى أن هــذه الأشياء تأثرت تأثرا بالغا بالفن اليونانى ، وكذلك بموضوعات ونماذج أملاها ذوق الشعب وهو فرع من الشعوب الآرية التى كانت تسكن مراعى سيث جنوب روسيا والتى كانت على اتصال وثيق بالمستعمرات اليونانية على شواطىء البحر الأسود ولكنها لم تترك مايخلف ذكراها . وأحسن نماذج للأحجار الكريمة المعروفة من الأكمينيين كنز جيحون الشهير الموجود بالمتحف البريطانى ، وتشتمل على مجموعة من القطع اليونانية الجميلة وهناك مجموعة أخرى من بين قطعها قدح فضىّ ومغرفة اكتشفها سير فلندز بترى Sir Flinders Petrie فى مقبرة « تل فارة » بجنوب فلسطين .

وقلما نجد بين الأعمال التى تميط اللثام عن العالم القديم فصولا تبلغ فى أهميتها وقيمتها ماقام به السير هنرى رولنسن. S. H. Rawlinson (١٨٣٧ـ١٨٤٣) عند ما نقل رحل رموز نقش دارا الذى حفر بثلاث لغات على صخور بيستون (بهيتون) ، وبغض النظر عن المخاطر ، والمشقات التى نصادفها فى دراسة النقوش البارزة والمحفورة فى أماكن يتعذر الوصول إليها فإن تفسير هــذه النقوش يهدينا إلى نتائج خطيرة ربما فاقت فى أهميتها البالغة اكتشاف حجر رشيد نفسه . فلقد أهدتنا قراءة هذه النقوش إلى معرفة مفتاح الخط المسمارى فى بابل ومكنتنا من الاهتداء إلى سر هــذه الكتابة المنقوشة فى عــدد كبير من الوثائق التاريخية والاقتصادية أو الخيالية نقش معظمها بست لغات على ألواح من الطين . وما زال اكتشاف الآلاف منهــا مستمرا فى مناطق مختلفــة من الشرق القــديم سيقضى العلماء فى دراستها أعواما طويلة ، ولقد أحدث هــذا السيل الجارف من الوثائق ثورة فى أرائنا الخاصة ببعض معالم العــالم القــديم ، فعرفنا منهــا مثلا أدب كنعان الضخم ،

شـــعره ونثره ومعظمه مستمد من بقاع سورية مثل أجاريت Ugarit وهو يلقى أضواء قوية على العهـد القديم. ولولا أن داراكان قد أمر بتسجيل تاريخ حياته فى مكان من الصعب بلوغه، ولولا مشروع رولنسن Rawlinson ومن تبعوه من نقل وتفسير النقش لولا هذا لما استطعنا أن نفهم شيئاً من ذلك الأدب المسطور على الألواح الطينية أما عن اللغات الثلاث التى كتب بها النقش ـ البابلية والآرمية والفارسية القديمة ـ فقـد استخدمت الخط المسمارى، والأخـيرة منهـا، بحروفها الأبجدية المـكونة من ثلاثة وأربعين علامة، هى التى كانت من الممكن إلى حد ما حل رموزها منذ بداية القرن التاسع عشر، وعلى ذلك فقـد زودتنا الرواية المـكتوبة بالفارسية القديمة بمفتاح لحل رموز الخط المسمارى القديم فوضعت أساساً يمـكن بالتالى الاعتماد عليه فى تفسير هذا الخط. لذلك فنحن مدينون لأسرة الأكمينيين ولدارا بالذات بهذه الخدمة الفريدة التى لا تقدر. أما أننا أفدنا منها عن طريق الصدفة فهذا لا يقلل من فضلهم علينا لأن النقش يعتـبر من أهم القطوعات الأدبية التى وصلتنا مكتوبة بلغة الأكمينيين ويتضمن وثيقة تاريخية أصلية على قدر كبير من الأهمية.

ومن المسلم به أن اكتساح أسرة الأكمينيين المتداعية على يد الإسكندر كـان بداية لفترة تزيد على خمسة قرون طبعت بلاد فارس بطابع غربى. ذلك لأن غزوه الخاطف لحوض السند الذى كان مصحوباً فى كل مرحلة من مراحله بإنشاء دولة هللينية يحميها مستعمرون من مقدونيا والذى رسخت أقدامه طيلة قرن من الزمان أيام حكم السلوكيين، قرر مصير الحضارة فى تلك المنطقة كلها ووجهها وجهة الغرب. ومع أن هذا الرأى يبدو سليما لأول وهلة لـكنه يحتاج إلى تغيير جوهرى فى ضوء الحقائق كلها. فلاشك أن فتوحات الإسكندر وخلفائه أدت إلى تغلغل النفوذ اليونانى وقدر من الثقافة الهللينية فى حوض السند وأن مملـكة يونانية تأسست وازدهرت طويلا فى إقليم بقطريا، وإن البارثيين اقتبسوا عن اليونان لغتهم وبعضاً من مسكوكاتهم، وأن الثقافة الهللينية

قد أثرت فى كثير من مظاهر الفن (مثل قندهار) والحياة فى منطقة مترامية الأطراف، إلا أن طبيعة الأشياء قد فرضت على هذه « الهلينية » أن تكون سطحية . لقد عمل الإسكندر منذ البداية على مزج الحضارتين الغربيـــة والشرقية وأفصح عن ذلك مثلا بتزوجه من امرأة فارسية وبإجباره سليوكوس وآلاف من المقدونيين أن يحذوا حذوه، ففكرة الإسكندر عن طبيعة الإمبراطورية التى كان يزعم إنشاءها هى الجمع بين الحضارتين الهلينية والشرقية فى دولة واحدة عالمية ، فكان عليـه أن يفتح بوابات الفيضان التى كانت تفصلهما حتى ذلك الوقت ليسمح بأن تفيض كل منهما على الأخرى ، صحيح أن دولة يونانية ظهرت خلال فترة من الزمن فى تركستان أو بجوار السند لتترك أثراً دائماً على منطقة البارثيين فى إيران أو على الهند (فى عهد چندرا گُبتا) وأن صناعات فنية من العصر الهلينى الرومانى اتخذت سبيلها إلى أفغانستان، لكن لاشك فى أن تجارة الشرق الأقصى أخذت من عصر الإسكندر وما تلاه تشق طريقها نحو منطقة البحر المتوسط وأن عبادة ميترا الإيرانية بدأت تتجه غرباً نحو الأناضول وإيطاليا لتصبح فى عهد الإمبراطورية الرومانية منافساً خطيراً للمسيحية وتصطرع معها صراعاً عنيفاً من أجل الحياة . . . ولقد أصبح هـــذا التبادل المزدوج ممكنا عند ما حطم الإسكندر الحدود التى كانت تفصل حتى ذاك الوقت الشرق عن الغرب وأوجد فكرة العـــالم الموحد oikouméné .

وكان هذا جوهر الأصالة فى عمله المجيد الذى لن يمحى أثره محواً تاماً فى أى وقت من الأوقات . ولقد أحدث هـذا التبادل ، خاصة فى ميدان الفنون ، صخباً بين زعماء الفنانين فى الشرق والغرب ولكن النزاع بينهم فى هـذا المجال يمد فى الواقع تفصيلًا فى الموضوع . أما من الناحية الاقتصادية فإن تبديد مبالغ الذهب الباهظة التى كانت تحتويها خزائن الأكمينيين ودفعها أجراً لجنود الإسكندر قد أثر فى بلاد اليونان تأثيراً متصلًا فأحدث تضخماً ماليًّا شديداً كانت نتيجته أن ارتفعت الأسعار وفرضت على

عدد كبير من الزراع والصناع المشتغلين النزول إلى مستوى العامة واضطرتهم إلى كسب عيشهم ، ابتداء من ذلك الوقت ، عن طريق الارتزاق لدى قائد من قواد الحرب العظام.

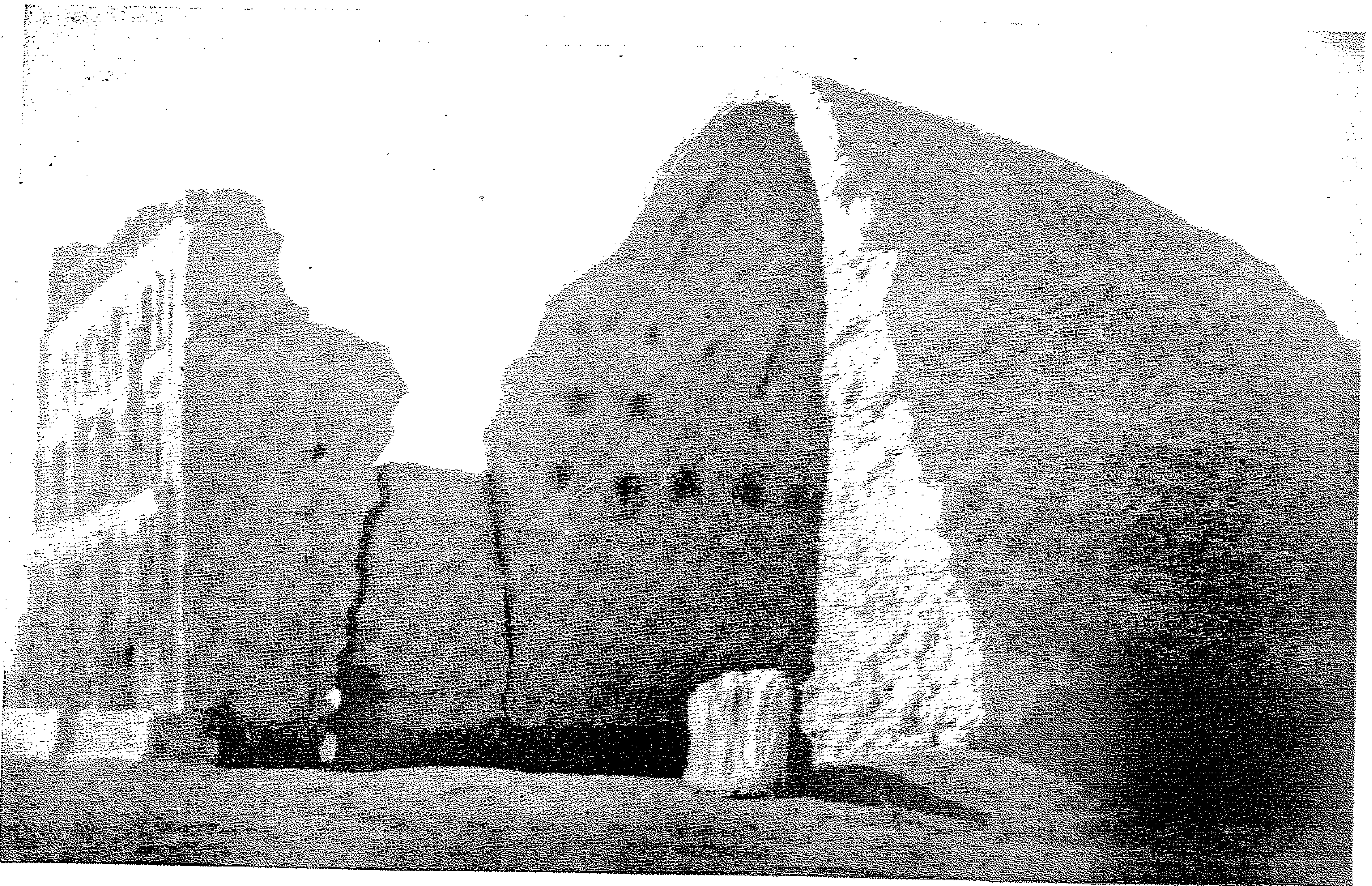
ولم ينته نفوذ الإسكندر فى آسيا من الهند إلى الصين إلى نشر الحضارة اليونانية فحسب بل تعداها إلى الفارسية. بل يعزى إليه أيضا كثير مما خلفه الفرس. فبعد انسحاب الاسكندر من الهند قامت فى شمالها امبراطورية الموريا التى أسسها چندرا گُبتا وعمرت ما يقرب من قرن ونصف قرن، وكانت تضم فى أرجائها ولايتى اراخوزى وجدروسيا (أفغانستان وبلوخستان) وهما جغرافيا جزء من الهضبة الإيرانية يجعل حدود الهند متاخمة لحدود إيران وملاصقة لها وبعدئذ أصبحتا جزءاً من امبراطورية السلوكيين . ومن ثمة كان لابد من تشجيع الاتصال الذى كان يتم عادة عبر الطريق المنحدرة من الشمال الغربى إلى وادى السند. فليس من الغريب إذن أن نجد دلائل تشير إلى تأثير فارس فى مملكة چندرا گُبتا، ففى باتاليپوترا، عاصمة موريا ، شيد فى أوائل القرن الثالث ق. م بهو من الطراز الأكمينى يحتوى على ما يقرب من ثمانين عمودا صنعت من حجر واحد وبلغت من الإتقان والصقل ما بلغته أعمال البناء فى مدينة پرسپوليس ، وكانت هذه الأعمدة تنتهى بتاج مستمد من الفن الأكمينى كما كانت تعبر عن مظاهر أخرى من مظاهر الفن الفارسى ، ويوجد أيضا فى متحف سارناث Sarnath طراز آخر لتاج العمود ، فى منطقة مجاورة ، يصور فارسا ، وهو شبيه بالطراز المعروف الذى ينتهى بأربعة أسود تلاصقت ظهورها واستقرت على تاج يشبه الناقوس (ولقد بقى هذا الطراز فى الهند حتى العصر الإسلامى) . وهناك أيضا كثير من القوائم التى يقام عليها العرش ، وقد اتخذت شكل حيوان خرافى نصفه أسد ونصفه نسر ، وكانت على درجة كبيرة من الإتقان ويحتمل أنها اقتبست عن نموذج أكمينى عرف من قبل ، وكذلك تشييد الأعمدة فى عهد آشوكا خليفة چندرا گُبتا وكتابة النصائح الدينية عليها يذكرنا بنقش دارا المهم وبقبور الأكمينيين التى كانت تنحت فى الصخر. يتضح لنا من ذلك كله أنه عندما أدى

غزو الإسكندر وتدمير مدينة برسيبوليس إلى تشتيت الفنانين والصناع وانتشارهم فى كل مكان لجأ كثير منهم إلى عاصمة الموريا حيث أنشأوا مدرسة جديدة للفن تتصل اتصالا وثيقا بالفن الفارسى. وتنطق التفاصيل المختلفة فى عهد چندرا گپتا بتأثير إيران عليها ، مثال ذلك نظام المواصلات ، فمنذ القرن الخامس كانت الهند مدينة لحضارة الأكمينيين المزدهرة على حدودها الشمالية الغربية كما ضربت السكة الهندية الفضية المثقوبة على طراز العملة الفارسية ، واشتقت الكتابة الخروشتية من الآراميين ، ووجدت آثار لمذهب زردشت فى تاكسيلا ، كما وجدت بهـا أيضاً أشياء جميلة ، منها جوهرتان رائعتان فى بادئ الأمر كان يظن أنهما من أيونيا ولكن قيل بعد ذلك إنهما من فارس .

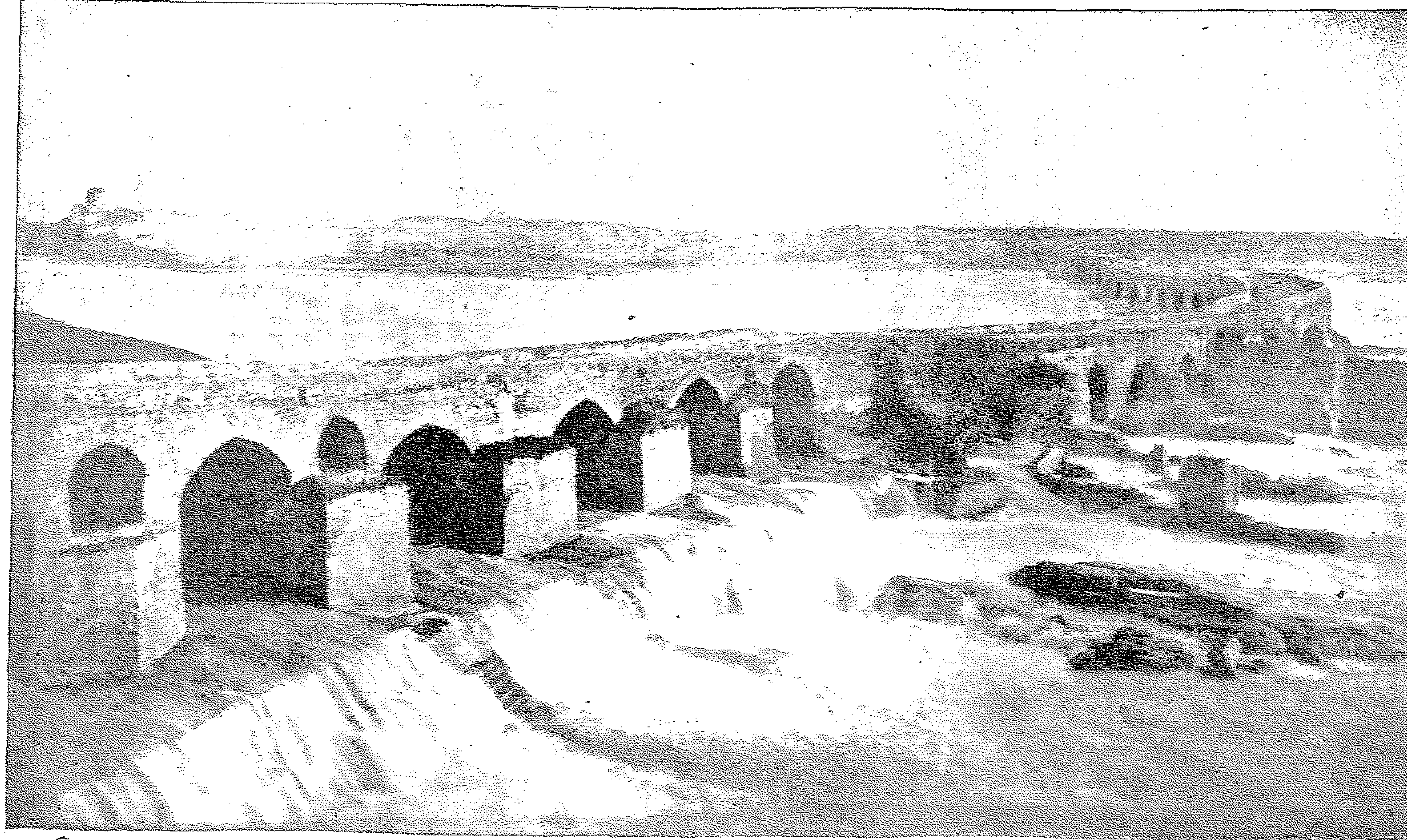
ولقد زال نفوذ السلوكيين ، خلفاء الإسكندر ، من معظم أجزاء امبراطوريته فى إيران نفسها فى فترة تقل عن قرن بعد وفاته ، وصار حكم إيران فى القرون الأربعة أو الخمسة التالية فى يد شعب أصله من بدو السيث ، وهم جماعة من الرحل الذين كانوا يتنقلون فى مراعى روسيا وأطراف الصين ، وكانت من بينهم قبائل المساجيت ، وكانوا يعرفون عند اليونان باسم الساج ، ومع أنهم كانوا من أصل قريب من الفرس ، لكن حضارتهم لم تكن فى مستوى الحضارة الفارسية ، بل إنهم خلال حكمهم الطويل لم يرتقوا كثيراً عن أسلافهم من الرحل . وعندما غادروا وطنهم فى شرق بحر قزوين احتلوا أولا ولاية پارثيا الفارسية التى تقع جنوب غرب هذا البحر واختلطوا مع أهلها « الپارثيين » الذين نعرفهم ، كما عرفهم الرومان ، باسم البرت ، وهذه التسمية تطلق على الشعبين الأصليين وعلى الجماعات التى أغارت عليهم فيما بعد من مناطق بعيـدة بعد الصين . ويحتمل أن هـذه الجماعات كانت من سلالة « الترك » Turki ، ويسمون أيضاً الأرسيسيد نسبة إلى أسرة الأرسيسيد التى كان ينتمى إليها ملوكهم الأوائل .

ولقد أصبح من سقط المتاع القول بأن تاريخ پارثيا ، كما ورد عند الكتاب

القدماء ، ليس إلا رواية خيالية مهذبة ؛ فلم يترك البارثيون وثائق مدونة مع أنهم عرفوا الكتابة على الجلد ، ويحتمل أن حكامهم كانوا أميين مثلهم فى ذلك مثل البدو الحقيقيين . ومع ذلك فمن المستطاع أن نرسم خطوطاً عريضة لتاريخهم من المصادر المختلفة لأنه على درجة كبيرة من الأهمية بالنسبة لصلات أوروبا بالشرق الأقصى . فبعد ما يقرب من ثمانين عاما انقضت فى زعزعة أركان حكم السلوكيين ومقاومة المحاولات التى بذلوها لاسترجاع الحكم ، عمل ميترادات الأول على توسيع مملكة البارثيين فضم إليها بلخ وبابل والأهواز وميديا وفارس، ولاية الأكمينيين وموطنهم الأول . وبذلك أصبحت بارثيا إمبراطورية تمتد من بحر قزوين إلى الخليج الفارسى ، ويجب أن يحتل ميترادات الأول « العظيم » مكانة سامية بين الشخصيات التاريخية البارزة، ذلك الحاكم الذى قام بهذا التوسع السريع ـ والذى لا نعرف عنه شيئاً مؤكدا ذا بال . وفى نهاية القرن الثانى قام ميثرادات الثانى بسلسلة من الحروب ضد قبائل الرحل فى الشمال والشرق وعمل على توسيع حدود الامبراطورية البارثية وضم إليها أرمينيا من جهة ، وسيستان (أفغانستان) من جهة أخرى وجزءا كبيرا من شمال السهل الهندى . فالعالم الغربى كله مدين لبارثيا لما قامت به فى هذه الحروب ، لأن إغارات الرحل التى قاومتها كانت نهاية لحركة واسعة قامت بها قبائل الرحل فى آسيا الوسطى، مبتدئة من الشمال الغربى للصين حيث طرد « التركى هنس » فى أوائل القرن الثانى جماعة يوه تشى yueh chi ومعظمهم من الجنس الهندى الأوربى ؛ ولقد استقرت هذه الجماعات بدورها فى إقليم التركستان الروسية حاليا بعد أن طردوا السكان الأصليين منها الذين كانوا قد قضوا على مملكة بقطريا اليونانية ، طردوهم مع قبائل عديدة أخرى قابلتهم فى الطريق ، ثم تقدموا إلى بارثيا واجتاحوا جزءا كبيراً من الولاية الأصلية متجهين نحو الغرب ونحو سيستان أيضا فى الشرق، أى نحو جزء من شمال الهند . وكانت هذه إحدى غزوات الرحل الكبرى فى التاريخ. وهى تشبه إغارة الإيرانيين الأول



طاق كسرى . منظر جانبي للإيوان وبقايا قطاع واجهة البناء .



شوشتر . القناطر والخزان . الجزء الأدنى ساسانى ، والأعلى إسلامى متقدم وسلجوقى .

على الهضبة فى أعقاب عام ١٠٠٠ ق م أو فتح العرب المسلمين لها فى القرن السابع الميلادى ، ولقد امتد هذا الغزو حتى شمل منطقة مراعى الستپس فى آسيا ، وهكذا يكون ميترادات قد أرجع إمبراطوريته إلى وضعها باسترداده سيستان وولاية پارثيا الأصلية حتى مرو ، وبذلك أسدت پارثيا الجديدة خدمة لا يستهان بها للحضارة الغربية عند ما خاضت حربا ضروسا وردت قبائل البدو هذه التى لولا پارثيا لقدر لها أن تجتاح الشرق الأوسط وتبيده بل وتقضى على أوروبا أيضا قبل هولاكو سليل هذه القبائل الذى سيقوم بهذا العمل فعلا بعد ذلك بما يزيد على ألف سنة .

وفى عهد ميترادات الثانى الذى دام طويلا (١٢٣ ـ ٨٧ ق . م) اتصلت پارثيا بالصين وروما . فوصلت إليها إحدى البعثات التى أرسلها الأباطرة من أسرة الهان Han إلى مختلف البقاع النائية لوضع التقارير عنها . وكانت هذه البعثة تحت إشراف شخص يدعى شانج كين Chang-K'ien ، وما زال تقريره موجوداً ، أشار فيه إلى محصول پارثيا الزراعى وذكر فيه « أنهم يكتبون علامات على الجلد تتجه من جانب إلى آخر » وبذلك يخالفون الطريقة الصينية فى الكتابة من أعلى إلى أسفل . وكان من نتائج هذه البعثة سير القوافل التجارية بين الصين وپارثيا عن طريق التركستان الصينية ، ولقد قوى هذا الاتصال التجارى فيما بعد بواسطة الطريق المشهور « طريق الحرير » . وفى عام ٩٢ ق . م . عنـد ما كان سلا Sulla فى منطقة الفرات يراقب الأمور التى تجرى فى البحر الأسود وأرمينية ، وكان يهتم أيضا اهتماما بالغا بهـــذه الشئون نفسها ، عندئذ جاءه رسـل يقترحون عليـه الدخول فى حلف مع ميترادات الذى بعث بهم لأنه هو الآخر كان يهتم اهتماما بالغا بنفس هـذه الشئون . وهذا الاتصال الأول بين روما وفارس كان حدثا تاريخيا زاد من أهميته أنه ، فى ضوء علاقاتهم المستقبلة ، سيبقى اتصالاً وديًّا . ولقد اتسع نطاق التبادل التجارى بسرعة عن طريق پارثيا ، ويبدو أن المرور فيه كان مباحا بدون قيد ، ولـكننا سنسمع بعد

ذلك عن شكاوى ضد بارثيا لأنها تعرقل السير فيه رغبة منها فى الاحتفاظ بأسراره فى يدها . وكان الطريق يخترق الصين عبر التركستان الصينية (سنكيانج) وبقطريا إلى مروأى عبر حوض طارم ، ثم يتجه إلى دامغان وهمدان إلى سلوكيا ـ كايسفون عاصمة الإمبراطورية البارثية . وكان يخرج من العاصمة خطان يتجهان غربا نحو سوريا، أحدهما عن طريق آشور ـ الحضر ـ نصيبين ، والثانى عن طريق دورا Doura حيث كان من الممكن السير بحذاء ضفة الفرات اليمنى إلى نهر الخابور أو اتباع سكة مختصرة عبر الصحراء عن طريق تدمر . وكان التبادل يشمل أنواعا عديدة من السلع إلى جانب الحرير المشهور الذى سُمّى الطريق باسمه فيما بعد . ويظهر أن كلا من البلدين كانت تحب فاكهة البلد الآخر ، فكانت بارثيا مثلا تستورد من الصين الخوخ والمشمش وتصدر إليها الرمان « الفاكهة البارثية » ، كما أرسلت بارثيا الجمل العربى إلى إقليم بقطريا ، وإلى الصين أيضا خيول نسا ، وإلى بابل النعام الذى كان يعرف « بطيور بارثيا » ، ولقد استرعت هذه الخيول انتباه الإسكندر فغير طريقه ليراها فى موطنها فى جبال زاجروس . وكانت بارثيا تستورد من الصين الحديد إلى جانب الحرير . ولا أدل على قيمة البضائع التى كانت تنقل عن طريق القوافل من ثراء بعض المدن مثل الحضر ودورا وتدمر التى كانت تعتمد على هذا المورد وتعيش منه .

ولكن قبائل الأرسكيين من البارثيين لم يتحضروا مطلقا، وبالرغم من اختلاطهم بالفلاحين الذين كانوا يملكون الأراضى فإن الصيد والقتال كانا عملهما المفضل الوحيد ، وكانوا لا يجلون أى ملك منهم ما لم يمارس هاتين الهوايتين . وكانت طيسفون عاصمتهم فى الشتاء ، وهمدان ودامغان فى الصيف . وكان ملوك البارثيين يتبعون تقاليد البدو ، ويرجعون إلى الصحراء إذا ما خُلعوا أو أصبحوا لا يتمتعون بتأييد الشعب ، ويبقون بها حتى يعودوا إلى عروشهم عند ما يتجه إليهم الرأى العام ويؤيدهم من جديد . وكانوا يتصفون ، إلى جانب هذا ، بعدم الاكتراث الذى سبق

أن لاحظناه عند أسلافهم من الأكمينيين ، ولم يألفوا الحياة المنظمة بل ظلوا فى مجموعهم جماعة مفككة من الأتباع يحكمهم الملك العظيم حكماً هيناً ضعيفاً إلى حد ما ، ولا يحقق لهم أى ميزة على أعدائهم الرومان . ومن هؤلاء البدو كانت تتكون أسر كبار الملاك ومجلس الشورى الملكى (مثل سورن) ، وفى الحرب كانوا يشجعون كثيراً استخدام الفرسان من ذوى الأسلحة الخفيفة ، فالقوس أهم أسلحتهم . ولقد أحرزت هـذه الفرق أغلب الانتصارات البارثية على الجيوش الرومانية ، وقد كانوا لا يشتبكون معهم فى المعركة ولكنهم كانوا يرسلون عليهم سهامهم المميتة عن بُعد . أما عن مهارتهم فى رمى السهم إلى الوراء من فوق ظهر الجواد ، وهو يعدو بعيداً عن العدو ، فقد أكسبتنا هذه العبارة « رمية بارثية » ، وكانت الطبقات الحاكمة تحارب فى صفوف الفرسان المسلحين بالسيف والرمح وهم يمتطون خيول نسا المشهورة التى كانت تحميها الدروع أيضاً وكانوا يعرفون بـ« المدرعين » Cataphractarii . وجاءت هاتان الطبقتان إلى الوجود قبل فرسان العصور الوسطى ورماة السهام الذين انتصروا عليهم فى كريسى Crécy ، وفيما بعد كان الفرسان ذوو الأسلحة الخفيفة يحلون محل الفرسان المدرعين . ولقد تعلم البارثيون عن سكان إيران الذين اختلطوا بهم بعض الأشياء منها مذهب زردشت واللغة الفارسية القديمة الوسطى فى أيام الأكمينيين ، ونقلوا عنهم أيضاً طريقة تصوير الملوك على المسكوكات بشعورهم ولحاهم الطويلة ابتداء من ميترادات الأول ومن خلفوه .

ولم يبق من الفن البارثى إلا آثار نادرة جدًّا ليست من عمل طبقة البدو الحاكمة ، ولكنها من عمل الشعوب المختلفة التى كانوا يحكمونها ، أو من وحى الفن الإغريقى . وكانت المسكوكات أهم القطع الفنية ، وقد نقلت هذه بأكملها على أنها إحدى النظم اليونانية الأساسية لحكم الإمبراطورية ، وهى تشير بوضوح واضح إلى اختلاط إمبراطورية البارثيين بالشرق وامتزاجها التدريجى به كما أشرنا إلى ذلك من قبل .

فصور الملك كانت فى بادئ الأمر تظهره حليقا ، ثم باللحية الإيرانية من بعد ذلك . ثم عرفوا الأساطير اليونانية وفسروها تفسيراً خاطئاً ، وكذلك أصبحت النقوش لا تكتب باللغة اليونانية بل بالخط البهلوى . وتقع معظم المبانى الستة الباقية أو الأماكن التى كشفت عنها الحفريات فى الأجزاء الغربية من الامبراطورية ، وما زال الجدل مستمرًّا حول ما يتصل منها بالفن البارثى وما يتصل بالفن الهلينى ، ومن بين هذه الآثار « قصر » عجيب هو كل ما بقى من مدينة الحضر بأكملها ، وكانت تقع فى الصحراء على بعد خمسين ميلًا غرب الموصل ، وقد وضعت على جدرانه رءوس أو أقنعة لها ملامح « وجه القمر » الشرقى مع أن التأثير الهلينى مازال واضحاً جدًّا : مثال ذلك البناء بالحجر المنحوت وفكرة المدخل الثلاثى ؛ والجزء المكتشف من مدينة دورايوروبوس ، مركز القوافل ، على الفرات شمال « أبو كمال » وما بها من نقوش ملونة دينية ودنيوية ، ومعابد للعبادات الشرقية ولكن ليس هناك أثر ظاهر لأى بناء من الطراز البارثى ، ومنازل أخرى وهياكل ومقابر فى سلوكية وآشور وورقة ونيبور ، وكلها مبنية من الحجر أو قوالب الآجر . وكان البهو الطويل المقوس أو الإيوان المفتوح من الأمام والمسدود من الخلف علامة مميزة لفن العمارة الجديد ظهر بوضوح فى تلك الأبنية واستمر وقتاً طويلًا فى عهد الساسانيين والعرب المسلمين ، وأشهر نماذجه بقايا « قوس إيوان كسرى » فى طيسيفون . ونفس هذا النظام مازال موجوداً الآن فى طراز البيت العربى السورى حيث يستخدم مدخله كبهو للاستقبال أو « ديوان » ، وظهرت أيضاً الزخرفة فى الجصّ المحفور ، فى ورقه مثلا وكوه‌خواجه ، وقدر لها أن تنتشر انتشاراً عظيما فى عهد الساسانيين والدول العربية الأولى . ولما استُخدم الآجر فى العمارة بدلا من الحجر مع ملاط من الجص سريع الجفاف ساعد على بناء القباب الضخمة بدون تحديب . ومن بين أعمالهم المعمارية أيضاً إقامة القبة فوق بناء مربع ، وقد تم هذا التغيير بأن تحايلوا على تدعيمها بواسطة أعمدة تبنى عند

الأركان . وهذه طريقة تختلف عن فكرة المثلث المعلق أو الدائرى السائدة فى الغرب، أما عن تخطيط المدن فيقال إن البلدتين المستديرتين ـ الحضر وطيسيفون ـ كانتا فيما يبدو نموذجا لمدينة المنصور المستديرة ـ بغداد ، ويحتمل أن نفس المدينتين كانتا تقليداً للمعسكرات الآشورية الحربية كما يظهر من النقوش الآشورية البارزة. وكل ما يتقن من فن النحت البارثى وعرفناه حتى عهد قريب رسمان بارزان مشوهان جدا على قاعدة الصخرة الشاهقة فى بيستون : أحدهما ، الذى يمكن تكملته بمساعدة وصف عُمل له عام ١٦٧٣ ، يصور أربعة من النبلاء يقدمون فروض الولاء لميترادات الثانى ، ويشير إلى كل منهم اسمه الذى نقش فوقه، أما الطراز الذى يرسم الوجوه فى خط مستقيم فهو أكمينى ؛ والرسم الثانى يصور گودارز (٤٠ ـ ٥١ م) منتصراً على خصم فى إحدى المبارزات ، فنراهما وقد امتطى كل منهما جواده بينما يطعن گودارز خصمه وقد توجت هامته « بشارة النصر » . ودليل على ممارسة البارثيين للنحت فى الأجسام الصلبة ، حتى ولو كان مصدر الإلهام يونانيا ، هيكل صغير اكتشفه السير أورل شتين Aurel Stein فى شامى فى فارس ، وجدت فيه قطع من تماثيل نحاسية ورخامية تشهد بوجود صلات هللينية ، خاصة تمثال نحاسى ، يكاد يكون كاملا ، لرجل فى زىّ بارثىّ يرتدى معطفاً وسراويل هندية واسعة . ولكن التمثال الذى يشاهد حقا مهما كان عصره وأصله هو الذى يؤثر فى النفس تأثيراً شديداً ويصور أميراً يجرى فى عروقه دم البارثيين . ولقد وجد سير أورل شتين فى مكان بارثى آخر بنفس المنطقة رأساً لأفروديتا من الرخام ترجع إلى القرن الثالث ق . م. تقريباً .

وفى عصر الساسانيين عادت الروح القومية الإيرانية لتثبت وجودها ، فبعد أن كان الحكام البارثيون من البدو الذين يزول حكمهم بسهولة أصبحت مقاليد الأمور فى أيد قوية، وأقيمت حكومة مركزية تهدف إلى تمجيد وبعث امبراطورية الأكمينيين القديمة . وأصبح مصير إيران أكثر استقرارًا فى أيادٍ من الجنس الآرى، بعد أن كان

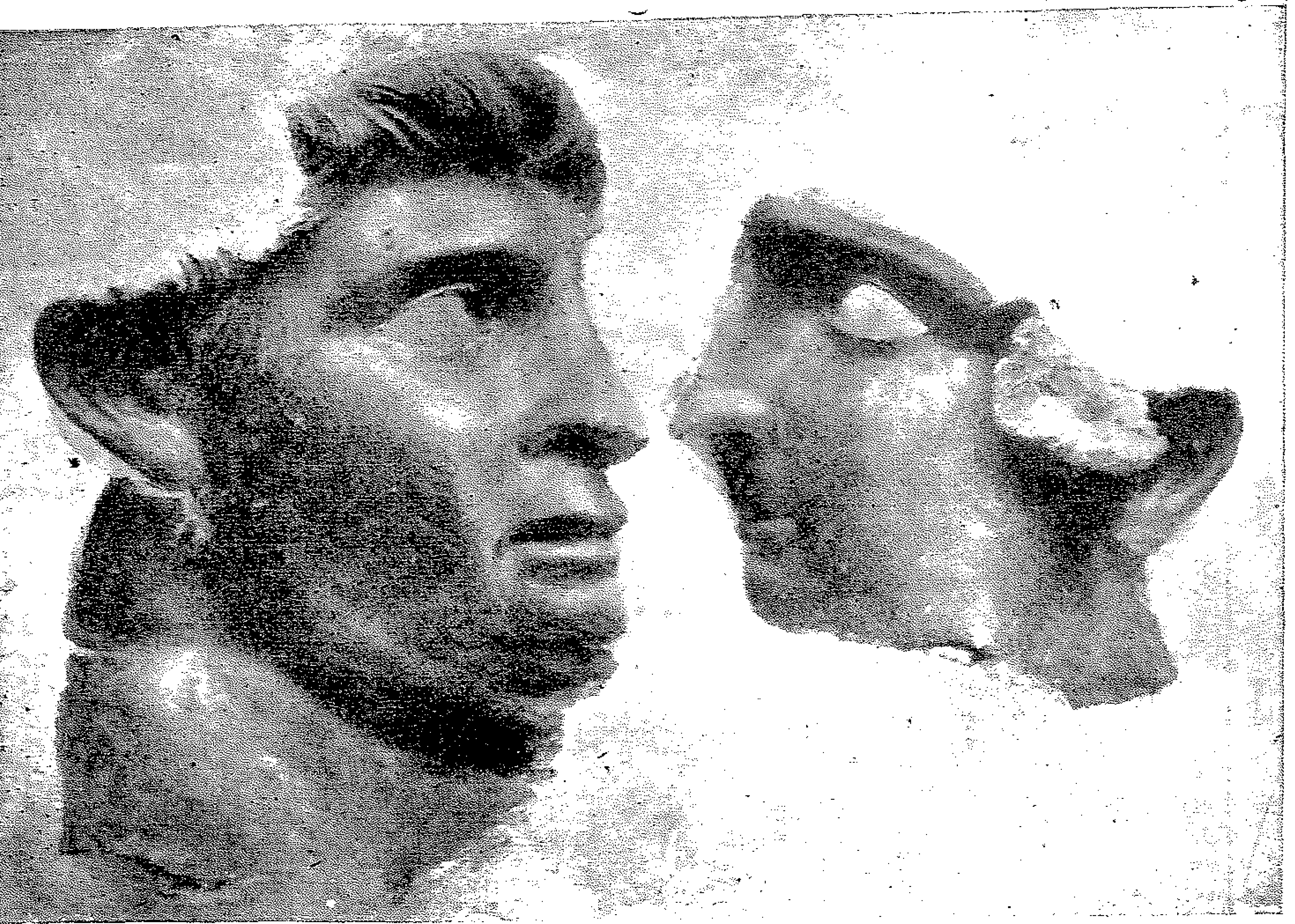
خاضعا لما يشبه الحكم التوراني ، ولقد حدث تغيير فى الأسرة الحاكمة عند ما ثار أردشير حاكم فارس وأحد أتباع ملك پارتيا المظيم ارتابان ضد الأخير وهزمه فى معركة قتل فيها عام ٢٢٤م تقريبا ، واعتلى أردشير العرش وأسرع بفتح الولايات الغربية أولا ثم الشرقية فى الامبراطورية البارثية فى الخليج الفارسى حتى إقليم بقطريا ، وأصبح حكام مُكران وكوشان أتباعا له . ولم تسطع أهمية الحكم الجديد فى العالم الخارجى . فكل ما حدث هو أن روما بدأت تفهم أن هناك روحا قويا جديدا سار فى فارس عندما هاجم أردشير أرمينية وما بين النهرين ، وكانت الأولى خليفة لروما والثانية جزءا من الامبراطورية نفسها . وبعد محاولة صبيانية من جانب روما لإلقاء الرعب فى نفس أردشير وتذكيره بفتوحات الجيوش الرومانية السابقة وكان ذلك من جانب روما سوء تقدير للدولة الجديدة ، ذهب الامبراطور سيفيرس الاسكندر Severus Alexander إلى المعركة بنفسه عام ٢٣١ — ٢٣٢ م وهكذا بدأت ثانية المعركة القديمة بين پارثيا وروما واتخذت صورة صراع متقطع بين الدولتين استمر أربعة قرون أخرى امتلأت بأحداث عديدة تخلت روما أثناءها عن مكانتها كبطلة للغرب وخلفتها القسطنطينية ، وقضى آخر الأمر على الاستقلال السياسى لفارس لألف عام على يد العرب المسلمين .

ومع أن الدولة الساسانية الحديثة اقتبست الخطوط العريضة المهمة عن الامبراطورية البارثية إلا أنها صبغتها بصبغة جديدة ، فتخلصت من التجمع المائع للشعوب الخاضعة واستبدلته بإدارة قوية مركزية تشبه الإدارة التى كانت تسود بيزنطة وقتئذ . فالشاهنشاه (ملك الملوك) كان لقباً للملك العظيم الذى كان يتعالى على رعيته ويبقى بعيدا عنها ، كان عليهم أن يتقيدوا فى حضرته بالقواعد الصارمة فى التصرفات ومراعاة سموه وعلو منزلته ، ولقد بقى النظام الاقطاعى كما كان فى عهد البارثيين ، إلا أن طبقة الفرسان ذوى الأسلحة الثقيلة أصبحت أهم الفرق الحربية ،

وكانت تتكون من النبلاء المتواضعين وتعتمد على الملك مباشرة وبذلك لا يمكن لأحد الحكام الثائرين في الولايات أن يستخدمهم ضد مولاه ، وثاني الأعمال الهامة التي حققتها امبراطورية الساسانيين هو إنشاء ديانة قوية في الدولة ، هي المزدية ، وهي إحياء لدين زردشت القديم في عصر الأكمينيين الذي بقي دائمـا دين إيران التقليدي ولو أنه فقد كثيرا من نفوده في عهد البارثيين الغنوصيين ، ولكنه في صورته الجديدة لم يعد دين توحيد ينادي بعبادة « أهورامزدا » كإله واحد ، لأن كثيراً من الآلهة الآخرين ، الذين ظهروا في العصور الأولى ، ومن بينهم ميترا وأناهيثا ، بدءوا يحتلون مكانا واضحا جدا في هذه العبادة . وكان لدين الدولة هذا رئيس أعلى يشرف عليه ومعه هيئة من رجال الدين المجوس ، وكانت كلمتهم قانونا ، وكانت النار المقدسة هي الركن الأساسي في هذا الدين ، وكانت تشعل في مركز كل طائفة وفي كل دار وفي ثلاثة من الهيا كل المكرمة في أجزاء الامبراطورية المترامية . ولقد نشر الكتاب المقدس « الأوستا » وروجع في عهد أردشير وسابور الأول ثم صدر آخر الأمر في عهد سابور الثاني. وفي عهد سابور وهرمز كانت الأديان الأخرى لا تلقى أي تعصب بل كانت تشجع مثل الدين الإسرائيلي ، ودين بوذا والمزدكية والمانوية أول الأمر والمسيحية ، ولكن المسيحيين والمانويين يضطهدون بعدذلك ، وفي عام ٢٧٣ م شنق ماني ، في عهد بهرام الأول الذي سلمه للمجوس ، أعدائه الألداء . وبدأ اضطهاد المسيحيين في عهد سابور الثاني ولقد أدى إلى انتشاره على نطاق واسع إعلان المسيحية دينا رسميا للامبراطورية الرومانية في عهد قسطنطين فمنذ ذلك التاريخ أصبح المسيحيون يعتبرون رعايا لدولة أجنبية ، كما أن اضطهاد المانوية كان يعزى إلى دوافع سياسية فالمجوس كانوا يحسدونهم على قوتهم . وعندما انفصلت الكنيسة النسطورية في فارس عن بيزنطة واتخذت لهـا في القرن السادس رئيسا في إيران وقف الاضطهاد بل واستطاع أحد ملوك الساسانيين (كسرى الثاني) أن يتزوج مسيحية (شيرين) .

إن انتشار مذهب ميترا في الامبراطورية الرومانيـة ابتداء من عصر فلافيس ، واقترابه من الانتصار على المسيحية في القرنين الثالث والرابع في عهد جاليريس Galerius وديوكليتيانس ، يشيران إلى أن الامبراطورية الساسانيـة كانت قاب قوسين أو أدنى من إخضاع الامبراطورية الرومانية في ميدان واسع . فالكتائب المقيمة في آسيا الصغرى وأرمينية كانت تعتنق هـذه الديانة وتنقلها إلى جميع الأراضي وإلى روما نفسها ، وكانت تنتشر في كل مكان كما تندلع النيران في الغاب ، فمنـذ ما أقام ديوكليتيانس وجاليريس وليكينيوس سـنة ٣٠٧ هيكلا في الدانوب لميترا « حامي امبراطوريتهم » ، يبدو أن ذلك حدث عشية أحد الانتصارات ، ويبدو أن جماله ومقدرته على جذب القلوب كانت تنحصر بالذات في السمو الخلقي الذي يقوم عليه ألا وهو التعارض الثنائي بين الخير والشر الذي فيه كانت تستمر الروح النقية في صراع دائم لتأييد الخير لكي يسود ، فكان يتحتم على كل فرد أن يبذل أقصى جهده في هذا الصراع وأن يكون إيجابيا في جميع مواقفه . ولا يهمنا هنا أن نتناول بالتفصيل تاريخ دين ميترا لكي نقف على أهميته وندلل على حيوية الدين والأحلاف الفارسية والقوة المتجددة منهما ، فعقيدة زردشت التي أشرنا إليها من قبل في عصر الأكمينيين اصطدمت مع الأفكار الهللينية وعاشت بعـد ذلك ، واصطرعت مع المسيحية وكادت تتغلب عليها في معركة حامية من أجل الحياة والموت؛ ثم إنها لم تستسلم بعد للإسلام ، بل على النقيض من ذلك يبدو أن الإسلام يتفق مع بعض العقائد المانوية مثال ذلك القول بأن الذي صلب كان شخصا غير المسيح .

«وطالما بقيت صفحات التـاريخ مطوية ، لا يمكن القول بأن في الشرق شعبا ، ما عدا اليهود ، اهتم بالغرب اهتماما بالغا وقام بدور كبير في تشكيل الحضارة والفكر الإنساني كما فعل الشعب الفارسي »



قطع من تمثال برونزى لرأس رجل وجدت فى شمى .



صحفة تمثل نقوشها كسرى الثانى فى الصيد ،
ساسانية ، وهى من الفضة المذهبة فى بعض أجزائها .

إن تأثير إيران الواسع فى جميع العصور باعتبارها حلقة اتصال بين الشرق والغرب سواء كمانحة أو متقبلة أو وسيطة بفضل موقعها عبر الطرق المهمة للتجارة الأسيوية ، إن هذا التأثير يبدو جليا فى العصر الساسانى من اكتشاف الرسوم البوذية على جدران باميان بأفغانستان ومن شذرات الكتب المانوية والمخطوطات المصنوعة من الحرير والورق التى تحتوى على رسوم رائعة مصغرة من عمل رجال الدين والموسيقيين ومن الرسوم على جدران خوچو تركستان الصينية ، ومع أن هذه ترجع إلى العصر الإسلامى إلا أنها تشهد بأن الرسم أيام الساسانيين ظل موجودا فى إيران بين أتباع مانى الذين يبدو أنهم نقلوا فنهم إلى أواسط آسيا حيث عمر طويلا بمدزوال دينهم ، وحتى أثناء كتابة هذه الكلمات وصلنا تقرير عن اكتشاف تصوير بالألوان المائية على نمط الرسوم الساسانية وذلك فى قصر من قصور القرن الحادى عشر بمدينة لشكر بازار على نهر هيلماند فى أفغانستان ، وهو من قصور محمود الغزنوى ، فاتح الهند . ولقد دام تأثير إيران طويلا فى أواسط آسيا ، ولا يستدل عليه هناك من وجود الفن المانوى فقط بل من انتشار آثار الدين الفارسى أو النسطورى انتشارا قويا نشيطا فى القرن السادس ومن وجود اسقفياف فى هراة وسمرقند . وأكثر من ذلك لقد حاول رجال هذا الدين تحويل الصين إليهم . وكانت الكنائس النسطورية تعرف بالمعابد الفارسية ولقد أحضر كهنة الفرس دودة القزمن خطان إلى جستنيان كما نقلت لعبة الشطرنج عن الهند وصبغت صبغة محلية ، كما حدث فى قصص الحيوان فى كتاب كليلة ودمنة الذى أصبح فيما بعد كتابا عربيا مشهورا .

ومما يؤكد اتصال فارس بالغرب فى الميدان الفنى أن شاهبورا استخدم الأسرى الرومان ، بعد أسر الامبراطور ڤاليريان ، فى بناء الخزان الكبير فى شوشتر وما زال يعرف بسد الإمبراطور ، بينما نجد على قوس جاليريوس فى سالونيكانقشا بارزا يصور الإمبراطور محاطا بحراسه وقد وقفوا بجانب خيلهم ولبسوا دروعا وخوذات مخروطية مثل فرسان الساسانيين المدرعين .

وقد يكون من المصادفة ، بل قد يكون نتيجة الصلات المتبادلة ، أن تصوير وجه الإنسان في النحت حدث في نفس الوقت في إيران وفي الغرب أي في القرن الثالث . وأعمال النحت في العصر الساساني عبارة عن ثلاثين رسما بارزا منحوتا في الحجر تصور انتصار ملوك الساسانيين ، وهذه الرسوم تختلف فيما بينها اختلافا عظيما ولكنها كمجموعة لا تشير بصورة عامة إلى أى نوع من التطور ونحن مدينون بمعرفة الباعث إليها ومعرفة أصلها المشتق من رسوم البرثيين القديمة لنقوش عديدة حفرت على أبنية في عصر الأكمينيين في مدينة برسيبوليس . منها اثنتان تصوران والدأردشير الأول وأخاه ، ومجموعة تشبهها محفورة على أبنية برثية من مدينة دورايوروبوس كذلك الرسوم البارزة التي نقشت في عصر متأخر أيام كسرى الثاني بطاق البستان يبدو بوضوح أن لها أصلا في الرسوم القديمة . ولقد حل الرسم أو الحفر على مستوى ضحل محل النقش البارز في أعمال النحت التي ترجع إلى القرن الثالث والتي كانت فيما يبدو ظاهرة مؤقتة في هـذا الفن . ويتضح من تصوير الجسم بأكمله في مواجهة الرائي وخاصة إظهار الساقين مفتوحتين ومقوستين عند الركبتين ـ هذا الوضع المضحك الذي انتشر تصويره بعد القرن الثالث ـ يدل على الرجوع من جديد إلى الطراز الشرقي القديم الذي ساد استعماله دائما مع مسحه من الصقل اليوناني . فالروح القومية الجديدة في إمبراطورية الساسانيين كانت تقليداً صادقاً لكل ما وجد في عصر الأكمينيين في الميـدان الفني والميادين الأخرى على حد سواء . ومع ذلك فلم تكن هذه حركة إيجابية تماما ولكنها كانت مجرد رد فعل لأحداث العصر الهلليني ، وكانت سياسة فرضها البيت المالك على شعب يحتمل أنه كان يهتم كثيراً بمثل هذه الأمور ، ولم تظهر أهمية هذه الحركة إلا بعد ذلك . فلما انتقلت عاصمة العالم الإسلامي من دمشق في سوريا إلى بغداد عنـد قيام الدولة العباسية عام ٧٥٠ م ، كان ذلك بشيراً حقيقيًّا ببعث الروح والثقافة الشرقيتين ، وحينئذ قامت إيران بالدور الأول

فى هذا المجال ويعزى إلى الساسانيين الفضل فى تمهيد الطريق لتحقيق هـذه الرسالة الخطيرة .

ويحتل الساسانيون مركزا رئيسيا فى ميدان العمارة الإيرانية ، تخلصوا من النماذج الهللينية ورجعوا إلى طراز الأبنية فى عصر الأكمينيين مع الفروق التى نتجت عن الانتقال من طراز « جـذع الشجرة » فى عمارة پرسيپوليس التى كانت تتميز بالعمود القائم والعمود العرضى إلى طراز القباب المرتفعه التى فرضها استعمال الآجر فى البناء . ومدخل البهو فى پرسيپوليس ـ الذى كان يقابله فى المنزل البدائى فى إيران (ويقابله اليوم أيضا) صف من الأعمدة الخشبية على شكل عوارض متقاطعة أو شرفة، هذا المدخل صار إيوانا مفتوحا على شكل قبة فى القصر الساسانى مثل إيوان كسرى وفيروزاباد ، أما القـاعة المسقوفة فأصبحت تقابلها غرفة العرش المربعة فى الداخل تعلو هافية قائمة على أعمدة ، ولقد أصبح طراز هذه القاعة ذات القبة المفتوحة خاصية مميزة للعمارة الساسانية مادمنا قد ألفناه فى الإيوان بمدينـة طيسيفون ، فهو مثله مع بعض الزيادات إذا أحاطت به على كل جانب غرفة مسدودة كان ذلك أبسط أنواع المنزل الفردى ، وإذا تعددت هذه الغرف فصارت أربع أو ثمان مبنية حول فناء غير مسقوف ، كان ذلك سكنا أكثر أناقة أو قصرا ملـكيا ، وهـذا الطراز استمر حتى العصر الإسلامى وأصبح تعميما يتبع فى بنـاء المسجد والمدرسة والـكروانسراى . ويتمثل اندثار خصائص التراث الهللينى فى واجهة إيوان كسرى لأنها كانت محاولة سقيمة لتقليد زخرفة أحـد المبانى العامة الضخمة فى العصر الهللينى الذى شوه جوهره وأسىء فهمه . ويظهر الأثر الرومانى والبيزنطى فى بعض تيجان الأعمدة وفى « أشكال » « النصر » الموجودة فى طاق البستان وما عليه من مناظر بارزه تصور كسرى الثانى سابق الذكر وهو يصطاد، وهذا القصر يقع بالقرب من كرمانشاه ويوجد أمامه بركة صناعية مترامية الأطراف، وهى جزء من الفردوس، كان ملوك

الساسانيين مغرمين بتشييدها أمام قصورهم . ومثل آخر من أمثلة هـذا الفردوس قصر شيرين ويقع أسفل جبال زاجروس من جهة الغرب حيث يترك طريق طيسفون سهل العراق متجهاً نحو همدان، هناك يوجد قصر كسرى الثانى فى حديقة تبلغ مساحتها ثلثمائة فدان ، وبالرغم من ضخامة البناء فإنه كان مبنيا من أحجار غير مشذبة ، وغطيت واجهته بطبقة من الملاط كما يتبين من بقاياه . إن هذا البناء والأعمدة المبنية من القرميد والمغطاة بالملاط تنبىء بأن استخدام الملاط فى طلاء المواد غير المصقولة كان على وشك الانتشار وأنه سيصبح من خصائص العمارة فى العصر الإسلامى ، وهذا تطور شبيه باستخدام الجبس المنقوش فى النحت . وقد اكتشفت حديثا آثار «بستان» من هذه مع قصرين فى الصحراء لإقامة خلفاء الأمويين أحدها فى قصر الحـــير الغربى من صحراء سوريا غرب تدمر والثانى فى خربة مفجر قرب حرش فى فلسطين وفى الحالتين قد بذل مجهود ضخم فى بناء كظائم على الطريقة الفارسية ، لتمد الحديقة بما تحتاجه من ماء وفير وما تحمله إليها من منابع بعيدة عنها . وهذه الـكظائم أو القنوات الأرضية عبارة عن تجويف أرضى على شكل أنبوبة تمتد فى الطبقات المائية السفلى تحت الأرض تتخلله على أبعاد اسطوانات عمودية تظهر على سطح الأرض حتى يمـكن استغلاله ، وهـذه المسالك كانت طريقة معروفة للرى فى فارس ذكرها المؤرخ بوليبيوس ويرجع إليها اليوم الفضل فى خصوبة كثير من السهول التى تحيط بها الجبال العالية ولقد انتشر استعمالها فى الشرق الأوسط وما زالت تستخدم فى الأردن . وفى السنوات الأخيرة اكتشفت فى إيران معابد كثيرة للنار وتتكون فى مجموعها من قبة تقوم على أعمدة تدعمها أربعة أقواس ، واحد فى كل جانب ، وغالبا ما تحاط المساحة المسقوفة بممر أو ممشى تؤدى إليه عن طريق الأقواس أما بيت النار المقدسة فيوجد عادة فى أى مكان تحت القبة . ومن أهم الآثار الفنية صغيرة الحجم التى بقيت من العصر الساسانى : المنسوجات ومجموعة الأقداح الفضية الرائعة التى تزينها فى الوسط حلية مطروقة بارزة ، وهـذه الأقداح

عادة ماتصور الملك فى وضع من أوضاع التبجيل أو منظر معركة أو زوجا من الحيوانات، ويوجد الآن كثير منها فى متحف هرميتاج فى لننجراد Hermitage Museum ولقد اكتشفت فى مازاندران بولاية فارس على ساحل بحر قزوين أخيرا مجموعة فريدة قيمة جدا وضعت كلها فى صندوق معدنى صنعت للمناسبات التاريخية وقد عرضت فى معهد آسيا بنيويورك فى أوائل عام ١٩٥٠ بمناسبة زيارة الشاه للولايات المتحدة ، وهى تتكون من ست قطع وكانت فى الأصل تسعا ، وقطعتين مزخرفتين بالحرير ، مثل الأوانى الفضية ، رسمت عليهما مناظر للصيد أو مناظر لحياة الحيوان والطير .. وصور على هذه المجموعة ملكان من ملوك الساسانيين . لذلك يمكن إرجاع تاريخها إلى الفترة ما بين ٣٨٨–٥٣٢ م (من حكم بهرام الرابع إلى حكم قباد الأول) وكانت زينة الأوانى الفضية من النوع البارز المطروق ، إلى جانب أساليب فنية عديدة للربط بين الرسوم والظهير التى رسمت عليه . وجميع القطع من نوع رائع وهى تكون المجموعة الوحيدة فى الأوانى الفضية الفخمة التى وجدت مع بعضها . أما فيما يتعلق بالمنسوجات ومجموعة من الأوانى البرونزية فإن تعيين تاريخها أو مكانها ليس محددا ، بل إن كثيراً من القطع التى صنعت بعد سقوط دولة الساسانيين ينسب إلى هذه الفترة، وفى ذلك ما ينهض دليلًا يؤكد قوة واستمرار المؤثرات التى أوجدها فنانو وصناع العصر الساسانى .

الفصل الثانى

*****

فارس وبيزنطة
ترجمة محمد كفافى

---

١ — العصر الساسانى

إن النظرة العجلى إلى تاريخ العلاقات بين بيزنطة وفارس خلال القرون الستة أو السبعة الأولى للمسيحية تلقى فى روعنا أن هذه القرون قد اتسمت بالقليل من التبادل الثقافى وأن طابعها الغالب سلسلة من الحروب المستمرة أو من معارك الحدود كانت تتخللها فترات قصيرة من سلام لا ضمان له حين كان أحد الفريقين يصبح نهباً لانقسام داخلى أو يصل إلى درجة من الإعياء تعجزه عن القيام بالحرب، أو حين كان الحرص على السلام يبلغ بأحد الفريقين — وكان هذا الفريق بيزنطة فى غالب الأمر — أن يذهب فى التساهل إلى أى مدى يقتضيه تحقيق السلام. لقد استمرت العداوة التى قامت من قبل بين فارس واليونان، ولم يُنس الصراع المرير الذى احتدم بين الحكام الرومان والحكام الساسانيين. ومن الأمور التى كانت ذات أثر فى دفع قسطنطين لنقل عاصمته من روما إلى ضفاف البسفور عام ٣٣٠ أنه أراد أن يقاوم الخطر الفارسى من مكان أقرب إلى مصدره. وفى الحق أن حروب قسطنطين مع فارس — كما سجلها أميانوس ماركللينوس Ammianus Marcellinus — كانت من أهم الأحداث التى وقعت فى عهده. وكان من عوامل إثارة هذه الحروب، وإثارة غيرها من بعد، حوادث أرمينية حيث كان هناك حزب تغلب عليه المحافظة أراد أن تبقى بلاده على صلات

وثيقة بفارس ، تلك الجارة القديمة القوية ، بينما أراد حزب آخر ، نتيجة لاعتناق بلاده المسيحية ، أن ينشئ اتحاداً بينه وبين إخوانه المسيحيين فى الغرب . وهناك حقيقة كانت تعمل على إذكاء لهيب العداء بوجه عام هى أن الامبراطورية البيزنطية كانت مسيحية وأما فارس فكانت دولة وثنية .

وقد شهد القسم الأخير من القرن الرابع هدوءاً فى العلاقات بين الدولتين أكثر مما ساد فى أيام قسطنطين . وعلى أى حال ففى عام ٤٢١ فر إلى الغرب بعض المسيحيين الذين اضطهدوا فى فارس ولما رفضت بيزنطة تسليمهم وقعت الحرب من جديد ولم يفز أحد الفريقين منها بفائدة تذكر . وقد أعقبتها فترة من السلام جاءت نتيجة لانشغال كل من الفريقين بمشاكل خارجية أكثر أهمية دامت مدة تقرب من مائة عام . ولكن الفرس اعتدوا وهاجموا الأقاليم الشرقية للامبراطورية البيزنطية فى عام ٥٢٧ . وقد هزمهم بليساريوس فى دارا سنة ٥٣٢ وعقد سلم بين جستنيان وكسرى الأول ولكن هذا السلم لم يدم طويلا .

ففى عام ٥٤٠ هجم الفرس من جديد وزحفوا إلى أنطاكية ونهبوا المدينة . وعقد الصلح من جديد عام ٥٤٥ ، ولكن كلا من الدولتين سعت للحصول على ولاء الحكومات الصغيرة فى إقليم القوقاز فبدأت الاصطدامات من جديد ، وهزمت القوات البيزنطية فى عام ٥٧٥ والفارسية فى عام ٥٧٦ وتلت ذلك سلسلة من الوقائع غير الحاسمة دامت حتى عام ٥٩١ ، حين عقد صلح جديد .

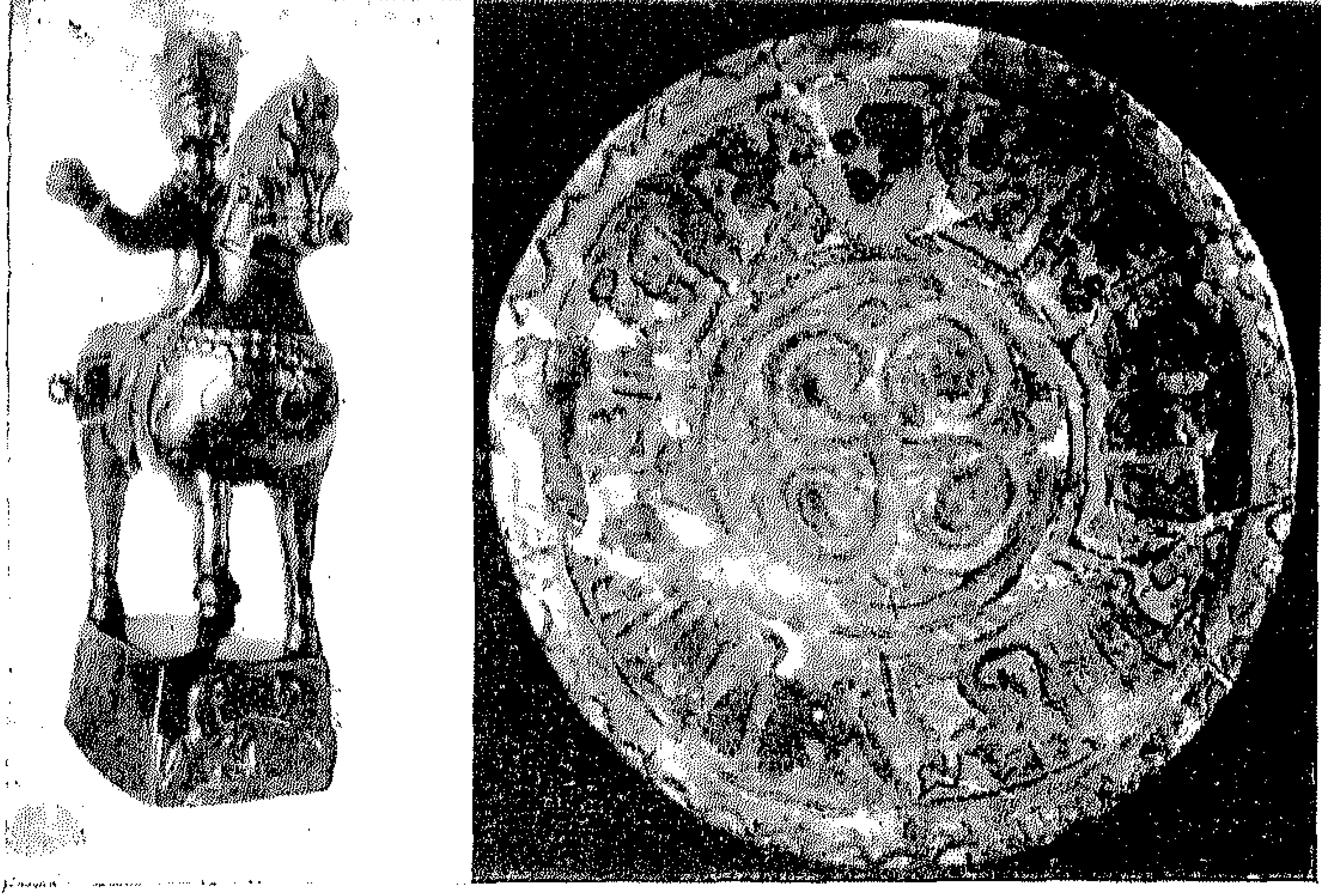
وفى عام ٦٠٢ استغل كسرى الثانى مصرع الامبراطور البيزنطى موريس على يد فوكاس وهجم من جديد فاستولى على أنطاكية عام ٦١١ ودمشق عام ٦١٢ . وفى عام ٦١٤ والت القوات الفارسية تقدمها داخل مصر فقطعت الدولة البيزنطية عن أهم مصدر لتوريد الغلال إليها ، وفى الوقت نفسه تقدمت قوة فارسية أخرى فى آسيا الصغرى حتى وصلت إلى سكوتارى (اسكدار) الواقعة على الساحل الأسيوى فى مواجهة



ا ــ فسيفساء بيزنطي . سان ڤيتالي . راڤنا . تيودورا وحاشيتها .

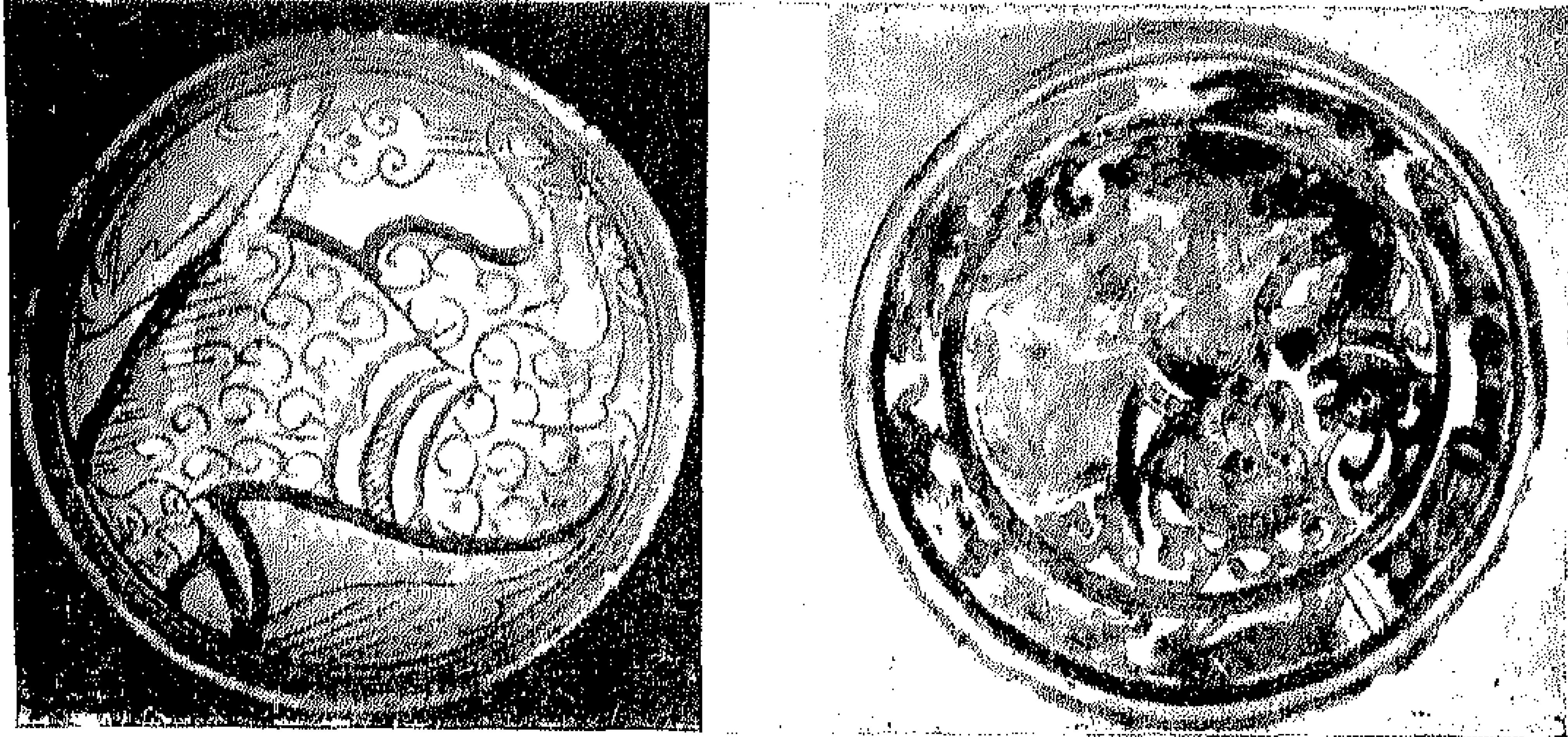


ب ــ فسيفساء بيزنطي . سان ڤيتالي ، راڤنا . جستنيان وحاشيته .



ب ا

ا ـ طبق محلى بالخط الكوفى . من الآنية ذات الألوان المتعددة .
بيزنطى بين القرنين التاسع والعاشر .
ب ـ تمثال برنزى لراكب على ظهر جواد . من الفن الساسانى المتأخر .
متحف Hermitage Museum بلننجراد



د حـ

حـ ـ قصعة من سالونيكا . بيزنطية ترجع إلى القرن الثالث عشر .
كانت من قبل ضمن مجموعة مالون بپاريس .
د ـ قصعة من الرى . فارسية . القرن الحادى عشر .
كانت من قبل ضمن مجموعة فيجنييه بپاريس .

القسطنطينية . ولقد كانت خطورة هذا التهديد الجديد الذى قطع خطا حيويا من خطوط التموين وانصب فى الوقت ذاته على العاصمة البيزنطية ، كانت هذه الخطورة هى التى عاونت على قلب ميزان القوى وأقنعت أهل بيزنطة بالحاجة إلى الاتحاد . وكم ظهر فى التاريخ قبل ذلك من مواقف مشابهة . وكم من تلك المواقف ما قدر له الظهور من بعد . وكما كان الشأن مع بريطانيا عام ١٩٤٠ اتضح فى الحال حينذاك — فى القرن السابع — أن الأعداء أخطأوا تقدير حال البلاد فكان تهديد فارس لبيزنطة بالغزو عاملا فى الوقت نفسه على بعث العزم الأكيد فى أهل بيزنطة وإظهار زعيم قادر على مواجهة الموقف فى شخص هرقل ، فنهض للحرب فى عام ٦٢٢ وهزم القوات الفارسية فى سلسلة من المعارك الصغيرة ثم شتت شملهم فى نهاية الأمر بالقرب من نينوى فى عام ٦٢٧ .

وقد كان مقدراً أن يكون لنتائج هذه الموقعة أثر فاق كل ما كان البيزنطيون أو الساسانيون يستطيعون تصوره ، إذ أنه بعد سنوات قليلة ظهرت قوة جديدة فى الشرق الأدنى هى دولة العرب دفعها الإسلام بروحه العسكرى فهاجمت بجيوشها جيرانها فى الشرق والغرب . وسرعان ما فقدت بيزنطة إلى الأبد القسم الأكبر من إمبراطوريتها . أما فارس الساسانية التى كانت قد أضعفتها حروبها مع بيزنطة كما كانت فى الوقت نفسه تعانى لوناً من الإفراط فى الثقة بالنفس جعلها تقف جامدة أمام الخطر العربى فقد سقطت فريسة سهلة فى قبضة جحافل الخليفة عمر التى تملكها الحماس العنيف . لقد أحرزت هذه الجيوش نصراً كاملًا فى الميدان السياسى . أما فى الميدان الثقافى فلم يعش هذا النصر طويلا ، إذ أن ثقافة الفرس القدماء ما كانت لتندثر فى يوم واحد وخاصة أن العرب لم يكن لديهم إلا القليل من الثقافة يقدمونه بديلا من ثقافة الفرس . ولهذا فقد قدر للانتصار السياسى العاجل الذى أحرزه العرب أن يصبح فى

مدة تزيد قليلًا على المائة عام نصراً ثقافيًّا لفارس . فقد عاش تراث الفرس فى ميادين الفن والفكر والثقافة ، وازدهرت من جديد عناصر هذا التراث فى خدمة الإسلام واندفعت بقوة جديدة عنيفة ، فأصبح تأثيرها محسوساً فى مجال واسع المدى منذ القرن الثامن الميلادى . لقد جعل الأمويون — وهم الأسرة الأولى التى حكمت العالم الإسلامى — عاصمتهم فى سوريا ، وهم لهذا السبب قد اقتبسوا من تراث بيزنطة لا من تراث الفرس . ولكن حين نقلت العاصمة من دمشق إلى بغداد بعد قيام الدولة العباسية عام ٧٥٠ م أعيدت من جديد سيادة الثقافة الفارسية .

إن الصورة التى يرسمها هذا التلخيص الموجز للحوادث التى وقعت على الحدود المشتركة بين فارس وبيزنطة فى آسيا الصغرى تبدو — حين ننظر إليها من وجهة نظر أعم — بعيدة عن الكمال إن لم تكن على التحقيق مضللة . ففى الجنوب تلقى الحوادث ضوءاً آخر على حال العلاقات بين هاتين القوتين العظيمتين من جهة ، ومن جهة أخرى يروى لنا التاريخ الاقتصادى والثقافى قصة أخرى غير تلك التى سجلتها المعارك والمعاهدات . إن الحروب فى تلك الأيام — مهما اشتد أوارها فى بقعة محدودة من الأرض — كانت أبعد من أن تكون ذات تأثير شامل . فلقد استمرت التجارة على الرغم من هذه الحروب ولم يلعب العداء العنصرى سوى دور صغير فى العلاقات بين بيزنطة وفارس . ففى الجنوب حيث كانت صحراء العرب حاجزاً أكيداً بين أملاك كل من الدولتين ، كانت العلاقات بين فارس وبيزنطة يسودها الود ، وكانت الاشتباكات الحربية نادرة الوقوع . لقد سمح الفرس بقيام حكومات تدور فى فلك بيزنطة مثل الغسانيين على حدودهم الشمالية التى تفصلهم عن سوريا وإن لم يبدوا موافقتهم على ذلك . أما البيزنطيون فعلى الرغم من أنهم أقاموا صلات بينهم وبين المسيحيين النساطرة الذين كانوا يقيمون شرقى الصحراء فإنهم لم يبذلوا أية محاولة للتدخل إزاء سيطرة الفرس على حكومات مسيحية مثل الحيرة التى كانت تقع فى مكان قريب من مدينة الكوفة

الحالية فى العراق . وعلى الرغم من أن الدولتين قد تنازعتا على اليمن فى بعض الأوقات فإنهما لم تسمحا للحروب أن تعوق الاتجار المربح بالتوابل والبخور وما شابههما من البضائع الثمينة . وقد جاء وقت ذهب فيــه الفرس إلى حد إرسال قوة احتلت اليمن فأصبحت منذ عام ٥٧٠ جزءًا من ممتلــكاتهم ولــكن البيزنطيين حافظوا على صلاتهم بها عن طريق البحر الأحمر ثم الطريق البرى عبر بلاد الحبشة المسيحية، وكانت هذه الصلات كافية لتحقيق كل مآربهم من هذه المنطقة .

ومهما كان مدى العنف الذى بلغته كل حرب من الحروب التى وقعت على الحدود الشمالية فإن هــذه الحروب كانت تعقبها فترة من السلام ، والمفاوضات التى أدت إلى عقد معاهدات الصلح ليست قليلة الأهميــة بالنسبة لبحث يقصد به الإبانة بوجه خاص عن الصلات بين الدولتين ، فقد كانت الدولتان تتبادلان السفراء، وعهد إلى هؤلاء السفراء إعداد المعاهدات ، وكان سفراء كل من الدولتين يتوغلون فى قلب أراضى العدو . وكانت عمليات التبادل الثقافى التى تنشأ عن هــــذه السفارات تدوم وتصبح ذات أهمية حتى ولو عادت كل من الحــكومتين بسرعة إلى الحرب من جديد. وقد وصلتنا تواريخ بعض هذه السفارات . ففى عام ٣٥٦ أوفد شابور الأول بعثات إلى القسطنطينية للمفاوضة على الصلح . وحوالى عام ٤١٥ أيام حكم يزدجرد الأول أرسل جاب اللاها أسقف طيسيفون (المدائن) إلى القسطنطينية ليعلن ولش Valash وليًّا لعهد إيران ، وفى عام ٥٧٢ ذهب سفير فارسىّ آخر إلى القسطنطينية للإشراف على دفع البيزنطيين الجزية لفارس . ولابد أنه كانت هناك سفارات عديدة أخرى تم تبادلها على هذا النحو ولم يسجلها التاريخ . ولقد رجع جاب اللاها بهدايا كثيرة، وهنــاك من الأسباب ما يدعونا إلى الاعتقاد أن معظم السفراء عادوا مثله محملين بالهدايا . وعلى أى حال فقد أبان « كتاب الآيين » Book of Ceremonies عن مجموعة كاملة من القواعد لاستقبال السفراء القادمين من العالم الإسلامى وإكرامهم

بدأت تراعى من بعد فى البلاط البيزنطى . ومن الجائز أيضا أن سفراء من بيزنطة ذهبوا إلى فارس فى ذلك الوقت وأنه قد صحبهم عدد من رجال الأدب وربما من الفنانين أيضا فى بعض الأحوال . وقد سجل ميرخواند قصة تستحق الرواية هنا وإن كانت لا أصل لها . فقد روى أن أحد الفنانين جاء من القسطنطينية إلى البلاط الفارسى أيام حكم الملك شابور الثانى ليرسم صورة لشابور ، وأن هذه الصورة قد حملت إلى الإمبراطور البيزنطى الذى أمر باستنساخها على عدد من الصحاف الذهبية التى كانت تستخدم فى ولائم القصر . وبعـد ذلك بقليل ذهب شابور نفسه إلى القسطنطينة متنكرا ودخل القصر أثناء إحدى الولائم ، ولقد لاحظ أحد الضيوف ذلك الشبه بين الغريب وبين الصورة المرسومة على الصحاف فثارت الشبهات وقبض على شابور واقتيد إلى حضرة الامبراطور . وقد أقر بحقيقة أمره فألقى فى السجن ولكنه نجح بعد ذلك فى الفرار أثناء قيام بيزنطة بحملة على فارس(١) . وهـذه القصة خرافية من غير شك ولكن علاقتها بالأحوال التى اتسمت بها العلاقات بين فارس وبيزنطة أثناء العصر الساسانى أمر له مغزاه . إن الحروب فى تلك الأيام لم تعن القضاء التام على كل الصلات التى تشيع فى ظل السلام . ولعل الفنانين كانوا دائمى التنقل بين الأقاليم المختلفة .

ومما يدخل فى حيز الإمكان إلى حد بعيد أن عددا من الأفكار الفارسية وجدت سبيلها إلى الفكر البيزنطى نتيجة لمثل هذا التبادل بين الدولتين . بل إنه قبل العهد البيزنطى انتقلت من روما إلى فارس فكرة الاعتقاد بألوهية الإمبراطور أثناء حياته لا بعد مماته فحسب . وعلى الرغم من أن المسيحية قد قضت على هـذا الاعتقاد فإن الامبراطور البيزنطى كان على رأس الكنيسة فى كل مكان ، وقد ظـل يحق شخصا

---

(١) A. de Longpérier, Observation sur le coupes sassanides (Paris, 1868), P. 3.

نصف إله حتى بعد المحنة التى انبعثت من محاربة عبادة التماثيل Iconoclasm[١] أما فى الأمور الدنيوية فكانت تغلب عليه صفة الحاكم الشرقى لا الحاكم الغربى الصميم . ففى أوائل عهد أباطرة بيزنطة تحولت فكرة الإمارة الرومانية Principatus إلى فكرة حاكم شرقى مستبد كان لابدّ يصطحب جمعا من الأتباع الذين يرتدون الملابس الزاهية ويجلس وسط صف من الفُرُش الفاخرة ويملك عددا من القصور الفخمة . وقد اقتبس ديوكلتيان Diocletian من بلاد فارس الرداء الإمبراطورى البيزنطى الذى كان محلى بالكثير من الجواهر والأحجار الكريمة، وكان ذلك قبل اعتناق المسيحية كدين رسمى للدولة . وقد وجدت اتّجاهات فكرية وفنية عديدة من فارس طريقها إلى بيزنطة فى هذا الوقت نفسه . وكان من أهم هذه الاتّجاهات الولع بالكنوز الوافرة وبالجدران المحلّاة بالنقوش الباهرة ، تلك التى أصبحت بعد قليل إحدى الخصائص التى تمتاز بها جميع المنشآت الدينية البيزنطية .

وإلى جانب انتشار الأفكار الشرقية الذى نشأ عن السفارات والصلات الودية كانت التجارة بين فارس وبيزنطة على أعظم جانب من الأهمية ، فلم تكن التوابل والأحجار الكريمة والعاج وغيرها من بضائع الترف تستحضر من بلاد العرب عن طريق سوريا فحسب وإنما كانت أيضاً تنقل عبر الطرق التجارية الكبيرة بالقارة الأسيوية تلك التى كانت تمر بفارس وتنتهى فى أرض بيزنطة عند طرابزون فى الشمال وعند مدن مثل أنطاكية فى الجنوب . بل إن الطريق الجنوبى الذى كان يمر بالبحر الأحمر كان يعتبر فى تلك الأيام التى لم تتجاوز فيها الملاحة حالتها البدائية أقل صلاحية

---

(١) Iconoclasm كلمة يونانية الأصل ومعناها باليونانية تحطيم الأوثان ، وقد استخدمت للدلالة على محاربة عبادة التماثيل (كتمثال مريم العذراء والقديسين) على الوجه الذى شاع فى الكنائس المسيحية القديمة . وقد ثار على هذا الوضع (محطموا الأوثان) Iconoclasts الذى خافوا أن تغتصب هذه الأوثان مكان المسيح وحوارييه فى قلوب المؤمنين : المترجم .

من طريق برى . أما الطريق الشمالى الذى كان يمر بجنوبى روسيا فكان قد أغلق منذ أوائل عصر المسيحية بسبب اضطراب الحال فى هذه المنطقة التى كانت مقرًّا لعدد من القبائل البدوية المتبربرة وعلى هذا فكل تجارة الشرق كادت تتركز فى الطريق الذى كان يمر بوسط فارس .

ولقد كان الإقبال عظيما على بضائع الترف فى العالم البيزنطى ، فقد كانت هناك حاجة إلى التوابل التى كانت تستخدم فى بيوت الأغنياء لإعداد الطعام وتعطير الغرف كما كانت تستخدم بخوراً فى الكنائس . وكانت الأحجار الكريمة لازمة لجمع الكنوز الفاخرة التى كانت ملكا للبلاط أو الكنيسة ، أما العاج فربما يكون البيزنطيون قد استخدموه فى أغراض دينية أو دنيوية أكثر مما استُخدم فى أية حقبة أخرى من تاريخ العالم . ولكن الحرير كان أهم كنوز الشرق، وقد كانت طريقة إنتاجه فى العصور القديمة سرًّا لا يعرفه إلا الصينيون، ولهذا كان من المحتم أن يستورد العالم البيزنطى من الصين كل حاجاته من الحرير الخام . وكانت احتياجات هذا العالم من الحرير تبلغ حدًّا يثير الدهشة فقد كانت الطبقة الحاكمة تستخدمه فى صنع ثيابها. ويحدثنا أحد السجلات عن رجل كان لا يلبس سوى الحرير الخالص ولا يرتدى الثوب أكثر من مرة واحدة . ويذكر اميانوس (٢٣ : ٦) أنه قد شاع استخدام الحرير فى القرن الرابع حتى بين الطبقات الفقيرة . أما أهمية هذه المادة بالنسبة لرجال الدين فكانت مضرب الأمثال . وقد استغل الفرس — كما كان يتوقع منهم — هذه المادة التى كادوا يحتكرونها أحسن استغلال ، ولم يقتصروا على رفع سعر الحرير إلى مستوى عال بل اتخذوا من تجارته محوراً يرتكزون عليه لتحقيق أغراض أخرى، فكان من الطبيعى أن تقوم بين الدولتين سلسلة من المنازعات نتيجة لذلك . وكانت فارس فى حقيقة الأمر تكاد تقدر على خنق بيزنطة عن طريق تجارة كانت قد أصبحت ذات أهمية حيوية للبيزنطيين لا مجرد ترف . بل إنه على الرغم من أن راهبين نقلا إلى

جستنيان Justinian سر دودة الحرير فى عام ٥٥٢ فبدأ بذلك إنتاج الحرير فى أقاليم بيزنطة ، يبدو أن ذلك لم ينه دور فارس كوسيط فى تجارة الحرير، فإذا كان استيراد الحرير الخام قد توقف فإن استيراد المصنوعات الحريرية قد استمر على كل حال حتى استطاع النساجون البيزنطيون إتقان هــذه الصناعة . ومهما يكن الأمر فقد ظلت التعابير الزخرفية الفارسية شائعة فى المنسوجات البيزنطية قروناً عديدة بعد هــذا التاريخ .

ولعل انتقال عدد من التعابير الزخرفية إلى العالم البيزنطى فى ذلك الوقت جاء عن طريق الحرير أو غيره من المنسوجات . فالتعبير الزخرفى المقتبس من ريش الطاووس وهو الذى يبدو فى الفسيفساء التى تخلفت عن القرن السادس فى باناجيا انجيلوكتستا Panaghia Angeloktista بقبرص وفى غيرها كان شائع الاستعمال فى زخرفة منسوجات فارس، وعلى الرغم من أن أقدم مثل له نراه فى تاج عمود ساسانى بطاق بستان فإن هــذا التعبير أقرب للنسج منه للنحت ، ولا شك أنه تـكامل أول الأمر على يد النساجين . ويبدو فى منحوتات فارس التى تنتمى إلى هــذا التاريخ أثر المنسوجات، ويمكن ذكر أمثلة أخرى عديدة لظهور التعابير الزخرفية المقتبسة من منسوجات الساسانيين فى العالم البيزنطى . أما الصور التى يظهر فيها الأشخاص وقد واجه كل منهم الآخر أو ولاه ظهره فهى فى حقيقتها ساسانية، وكذلك الهوما أو الشجرة المقدسة التى تظهر فى كثير من الأحيان ماثلة بين كل اثنين منهم . ويرجع إلى فارس أيضا ذيوع التعبيرات الزخرفية التى تمثل الأصص وقد انبثقت منها النباتات وانثنت بأقواس متماثلة متبادلة على الجانبين المتجاورين أو المتباعدين لـكل أصيصين . ويمكننا أن نستشهد هنا بقطعة من النسيج تعرف بنسيج موزاك Mozac stuff . فهذه القطعة تعتــبر اليوم بوجه عام من صناعة البيزنطيين وهى مع ذلك تنقل نقلاً أميناً عن مثال فارسى . وتعتبر هذه القطعة فى العادة نفس قطعة النسيج التى قدمها قسطنطين الخامس Constantine V

(٧٤١ ـ ٧٥) إلى دير موزاك Mozac Abbey فملابس الفرسان الذين يظهرون على النسيج بيزنطيـــة فى غالب الأمر ، ولـكن وضع الفرسان والحيوانات وكذلك الأشرطة تتطاير خلف عدة الخيل ، كل هذه العناصر ساسانية فى جوهرها . وهناك تعبير زخرفى آخر له أهميته يمثل رجلا واقفا بين وحشين وهو فى كفاح معهما . هـذا التعبير وإن كان ينتمى فى أصله الأول إلى أرض الجزيرة فإنه قد تطور فى العالم الساسانى إلى درجة تجعلنا نعتبره أثرا من آثار الفن الفـــارسى فى الفن البيزنطى . ويمكننا أن نذكرهنا قماش المحفوظ فى خزانة كاتدرائية سنس Sens وهوالذى يعرف بكفن القديس فيـكتور St. Victor كمثال بيزنطى يظهر فيه هـــذا التعبير الشرقى القديم . ومما يظهر لنا أيضا أهمية الدور الذى لعبه الساسانيون فى إلهام غيرهم فنون الأنسجة وكذلك فى إنتاجها صعوبة التعرف على مصدر كثير فى الأنسجة التى وصلت إلينا . فهناك عدد كبير من قطع المنسوجات نسبت مرة إلى فارس وأخرى إلى هـذا المركز أو ذاك من مراكز العالم البيزنطى وذلك وفقا لأهواء الإخصائيين المتباينين ، ولايزال مصدرها الحقيقى فى كثير من الأحيان غيرمحقق . ولعل هذه الأقمشةالمشهورة التى تتقاسمها برلين ونورمبرج أو تلك التى عثر عليهـا فى كنيسة القديسة أرسولا st . Ursula بكولونيا وأصبحت الآن فى برلين وهى التى يظهر فيها رسم الفارس ، لعل هذه الأقمشة هى أهم ما وصلنا من تلك المجموعة الـكبيرة التى لم نعرف أصلها على وجه التحقيق . فقد جاء وقت اعتُبرت فيه هذه المنسوجات فارسية الأصل دون شك ولـكنها فيما بعد نسبت إلى المنطقة الوسطى من العالم البيزنطى أو إلى شمال سوريا . وبالطريقة نفسها نسب الإخصائيون المختلفون عددا من المنسوجات التى تحمل نماذج أخرى من الزخارف الحيوانية إلى فارس وإلى العالم البيزنطى فى الوقت نفسه ، بل وإن هناك من ذهب إلى أن العالم البيزنطى نقل عن الفرس أيضا ذلك التعبير الزخرفى الذى يتـكون من أسد مجنح تحيط به دائرة ، وهو تعبير ساسانى فى جوهره وقد ذاع استخدامه فى الفن الساسانى . وعلى الرغم من هذا فإن الحرير الجميل المحفوظ بمتحف

فيكتوريا والبرت Victoria and Albert Museum ويحمل هـذا التعبير الزخرفى – هو فى واقع الأمر فارسى . وقد حفرت فى الصخر صورة نسيج يكاد يكون مطابقا للحرير المحفوظ بمتحف فيكتوريا والبرت، ويبدو هذا النسيج مكوّنا قسما من حُلة الملك كسرى على النقش الصخرى البارز بطاق بستان .

وعلى الرغم من أن أثر الفرس يتجلى بأوضح صورة فى فن المنسوجات فإن هذا الأثر أكثر أهمية من بعض الوجوه فى ميدان المعمار . وهناك مدرسة من الإخصائيين وعلى رأسها سترزيجوفسكى strzygowski (١) تذهب إلى حد التأكيد أن أهم خصائص المنشآت ذات القباب أو ذات السقوف المقببة وكذلك تصميم المبانى على هيئة الصليب ظهرت فى أول أمرها بإيران وكلها تكوّن جوهر الأسلوب البيزنطى . وعلى الرغم من أن هذا الرأى يعتبر من قبيل المبالغة فهناك من الأسباب ما يجعلنا نعتقد أن فارس لعبت دورا هامًّا فى نمو المعمار البيزنطى فالعقود البيضاوية الشكل واستخدام الطاقات لتجميل المبانى من الخارج العقد الذى يحمل القبة وهو الذى يهيئ الانتقال من القاعدة المربعة إلى القبة الدائرية ، ومد البناء من كل جانب من الجوانب الأربع بطريقة تجعله على الصورة المعمارية اليونانية التى تتخذ شكل الصليب، كل هذه الفنون كانت موضع التفكير فى أرض فارس قبل أن تتخذ شكلها المكتمل فى غيرها من البقاع . وقد تم قدر كبير من اكتمال هـذه الفنون بأرمينيا فى تاريخ مبكر، وأثرت أرمينية بدورها فى العالم البيزنطى . وقد كان بعض المهندسين الملتحقين بخدمة جستنيان Justinian من الأرمن، وكانت الروح العظيمة وراء حركة البناء التى اتسم بها عصر هذا الإمبراطور مدينة بالشىء الكثير لعبقرية الآسيويين وابتكارهم . وفى تاريخ متأخر أيضاً أثّرت أرمينية تأثيراً كبيراً فى تطور المعمار اليونانى . ومنـذ القرن التاسع

---

(١) انظر كتابة : (Origin of Christian Church Art, Oxford 1923). ففيه تلخيص مفيد لآرائه .

أصبحت الروابط التى تربط كلا من أرمينية واليونان فى فن المعمار تبلغ فى متانتها، تلك الروابط التى تربط بين اليونان وفارس فى زخرفة المنسوجات ونحت الأحجار .

ولقد ورث البيزنطيون من غير شك كثيراً من عبقرية الرومان فى الهندسة والبناء وانتقلت إليهم أساليب وأفكار أخرى من سوريا وكذلك من فارس . وإن التقدير الدقيق لمدى كل من الآثار السورية والآثار الفارسية هو على أى حال مشكلة لا تزال تثير أشد ألوان الجدال العلمى . ويمكننا مع ذلك أن نقول بحق أن روائع المعمار البيزنطى العظيمة جاءت ثمرة للمزج بين مقدرة الرومان وأساليب الشرق التى كانت أكثر خصوبة فى خيالها من أساليب الرومان وإن كانت دونها متانة ، وهذه الروائع هى سانت صوفيا، وكنيسة الرسل القديسين أو كنيسة القديسين سرجيوس وباخوس Sergius and Bacchus وكلها قد أقيمت فى القسطنطينية تحت رعاية جستنيان. وإلى جانب هذه كان هناك كثير من المبانى العظيمة التى أقيمت فى شرق العالم المسيحى وغربه ، ولولا العناصر الفارسية لما كان لها الطابع العام الذى يجمعها معا ويقدمها كأمثلة للطراز البيزنطى .

أما الأثر الفارسى فى الفنون الأخرى فهو وإن كان أقل أهمية منه فى الفنون التى تقدم ذكرها إلا أنه مع ذلك يمكن تتبعه . ففى النحت كثيراً ما نقل الغرب عن الفرس التعابير الفنية المشتقة من أشكال الحيوانات، وفى المتحف العثمانى بعض الألواح الحجرية التى تحمل تصميمات ترجع إلى أصل شرقى، ويبين أحد هـذه التصميمات التعبير الفنى الذى يمثل صراع الأسد والثور وهو تعبير فارسى مفرط فى القدم . أما التحف المعدنية فيمكننا أن نذكر منها صحناً من قرطاجنة يرجع إلى القرن السادس . وقد عُرض هذا الصحن فى المعرض البيزنطى بباريس فى عام ١٩٣١ (رقم ٣٨٨) ، ففى وسط هـذا الصحن حلية بارزة وهذه الحلية ساسانية فى أسلوبها وطريقة إعدادها . وهناك تحف معدنية أخرى ترجع إلى أوائل العصر البيزنطى وهى تظهر لنا بالطريقة عينها صلات

وثيقة بالفرس . أما ما كان من هـذه التحف يرجع إلى البلقان فهو فى العادة أوثق صلة بالشرق منـــه بالغرب . ومن أمثلة ذلك الـكنز الشهير الذى وجد فى ناجى سزنت ميكلوس Nagy Szent Miklos بشرق المجر ففيـه تتجلى خصائص ساسانية واضحة ، أما القصور البلغارية القـــديمة فى أبوبا بليسكا Aboba Pliska فهى وثيقة الصلة فى تصميمها بالقصور الساسانية فى سروستان وفيروزآباد . أما التمثال البلغارى المنحوت عند مادابا Madaba فيكاد يكون أثراً ساسانيا . لقد كانت الصلات بين البلغار والساسانيين على درجة كبيرة من القوة، ومن الممكن أن تكون قد وصلت إلى القسطنطينية عن طريق بلغاريا بعض العناصر الساسانية فى التصميم الفنى، وقد يصح هذا إلى حد بعيد بالنسبة للآثار الخزفية فقد وجدت فى بلغاريا والقسطنطينية لوحات من الخزف الأبيض النقى أعدت لتوضع فى الحيطان ، وهـــذه اللوحات محلاة برسوم ترجع إلى أصول ساسانية فى كثير من الحالات وإن كانت اللوحات نفسها ترجع إلى القرن التاسع أو العاشر . وليست لدينا أية أفـكار محددة واضحة عن الهيئة التى كان عليها الخزف الساسانى .

ويمكننا أن نذكر أمثلة قليلة أخرى تدل على وجود عناصر ساسانية فى العـــالم البيزنطى ، فالحذاء المرتفع الناعم الذى يبدو جستنيان مرتديا إياه فى فسيفسا سان ڤيتالى برافنّا San Vitale of Ravenna من طراز فارسى وكذلك تاج تيودورا ، كما يبدو على النقود فهو منقول عن أصل فارسى ، إذ أن به نقطتين صغيرتين تظهران على جانبى الصليب الذى يعلو التاج . هاتان النقطتان هما فى الواقع تعبـــير محور عن الجناحين اللذين يكوّنان تعـبيرا زخرفيا شائعا فى الفن الساسانى ويظهران دائما كجزء من أغطية الرأس الساسانيـة التى كان يرتديها العظماء ومن أمثلتها غطاء الرأس الذى ارتداه كسرى الثانى . أما التيجان التى لبسها غير هؤلاء من أباطرة بيزنطة القدماء وبنوع خاص تاج تيود وسيوس الثانى Theodosius II كما يبدو فى تقويم باسيل

الثـانى Basil II فهى أيضا من طراز ساسانى[١] وهكذا الحال أيضا بالنسبة للتاج البيضاوى الذى ارتداه الـكثيرون من الأباطرة المتأخرين ومن أمثلتها تاج تيودور المسترائى Theodore of Mistra (١٣٨٣ ـ ١٤٠١) فقدانتقل هذا التاج إليهم عن طريق إمبراطورية طرابزون الشرقية .

وهناك مثال آخر للصلة بين فارس والعـالم البيزنطى يتجلى فى استخدام كل منها لطراز واحد من المشابك ، فهذا المشبك الذى يضم العباءة فوق أكتاف التماثيل المنحوتة على قاعدة مسلة ثيودوسيوس Theodosius بالقسطنطينية أو تمثال هذا الإمبراطور على عاج بربرينى Barberini ivory بمتحف اللوفر يشبه تماما ذلك المشبك الذى يظهر فى بعض النقوش الساسانية البـارزة المنحوتة فى الصخر وبخاصة نقوش أردشير فى نقش رستم وشابور الأول فى نقش رجب ونقش ملك آخر لم يكن يعرف فى دارابجرد[٢] . وما حل عصر جستنيان حتى كان هـذا النوع من المشابك قد أصبح لا يستعمل، ومع هذا فقد ظل عقد من طراز فارس يستخدم بعد هذا التاريخ وقد دام استخدامه فى العالم البيزنطى حتى وقت متأخر[٣] .

وقد يبدو مما سبق أن حركة التعبيرات الفنية كانت فى غالب الأمر ذات اتجاه واحد ، من الشرق إلى الغرب ، وأنهـا قد استمرت دون تعثر طوال العصر البيزنطى المبـكر والعصر الساسانى ، وبعبـارة أخرى من القرن الرابع إلى القرن السابع . ولـكن ليس أى من هذين الفرضين صحيحا . فعلى الرغم من أن الصلات بين فارس

---

(1) J, Ebersolt, Les Arts somptuaires de Byzance fig.5.

(2) F. Sarre, Kunst des alten Persien (Berlin, 1922), pls. 70 and 73; Flandin et Coste, Voyage en Perse (Paris, 1843-54), pls. 33, 182, 191.

(3) J. Ebersolt, op. cit, p. 34.

وبيزنطة لم تكن بأى حال قصيرة مؤقتة، كما يوحى بذلك سجل الحروب التى وقعت بينهما، فإن هذه الصلات أيضا لم تكن تدوم طويلا دون انقطاع . ومع أن البحث لم يتكشف حتى الآن عن عدد كبير من الأمثلة الملموسة التى يتجلى فيها أثر العالم البيزنطى على العالم الساسانى فإن السجلات تحدثنا كثيرا عن مدى الاحترام الذى كان يتمتع به الصُّناع البيزنطيون فى فارس وكذلك عن براعة المهندسين البيزنطيين. ولاشك أن الصناع البيزنطيين كثيرا ما وجدوا سبيلهم إلى الشرق . وقد روى أن جستنيان أعار كسرى الأول بعض العمال ، كما ذكر الفردوسى أن الجسر العظيم الذى بناه سابور الأول عندششتر قام بإنشائه مهندس معمارى من بيزنطة أُمر بأن يستخدم كل حكمة الروم فى إنشائه . وإن ميدان المعمار لهو بحق الميدان الذى يمكن أن يتوقع المرء أن يلمس فيه الأثر البيزنطى فى فارس أكثر مما يلمسه فى أى فن آخر لأن البيزنطيين كانوا أكثر تقدما من الفرس فى طرق البناء وإن كانوا ـ كما يرى ستريزيجوفسكى Strzygowski ـ قد تخلفوا عن الفرس فى الابتكار وقوة التصور .

٢ — العصر الإسلامى

إن المداوة التى كانت طابع العلاقات البيزنطية الفارسية فى العصر الساسانى دامت بعد الفتح الإسلامى مع فارق هو أن الأعمال الحربية وإن كانت أقل وقوعاً فى العصر الإسلامى إلا أنها كانت أوسع مدى ، وكانت كل الحدود الممتدة من القوقاز إلى البحر الأبيض المتوسط مصدر خطر من وجهة النظر البيزنطية ، ولم يقتصر الأمر حينذاك على هذا القسم من الحدود الذى كان يفصل أراضى بيزنطة عن أراضى الفرس . ففى القرن الأول للإسلام وقعت سلسلة من المعارك كانت تنتهى بانتصار المسلمين إلى حد أن قوات العرب وصلت فى تقدمها إلى أسوار القسطنطينية ، ولكن

قوات بيزنطة بدأت بالهجوم حوالى منتصف القرن الثامن وتقدمت إلى سوريا فى عام ٧٤٥ وإلى أرمينية فى عام ٧٥١ . ولكن تقدم البيزنطيين بعد هذا لم يكن ذا شأن يذكر إذ أن الإمبراطورية الإسلامية الجديدة كانت أقوى من الساسانية القديمة ، ولم يستطع البيزنطيون أن يشعروا بشيء من الأمان إلا بعد أن بدأت الخلافات الداخلية تمزق عالم الإسلام . وعند ما حل عام ٨٣٧ كانت الأمور فى الشرق قد وصلت إلى درجة مكنت الأمبراطور ثيوفيلوس Theophilus من أن يحارب وهو مطمئن إلى النجاح، وأتاحت له المعاهدة التى عقدت بعد الحرب قدراً من السيطرة على منطقة الحدود السورية . ولكن الإسلام لم يدع آسيا الصغرى فى سلام إذ أن الخلفاء ساندوا فى عام ٨٧٦ فرقة تعرف بالبوليشية[1] Paulicians، وذلك فى كفاحها ضد سيطرة القسطنطينية، وأرسلوا قوات لتحتل قلاعاً معينة فى جنوب آسيا الصغرى . وعندما حل عام ٩٣٤ كان البيزنطيون قد استعادوا علوّ الكلمة فى المفاوضات كما قوى مركزهم على طول الحدود . ولكن تفوقهم لم يدم طويلا إذ أن ظهور الترك حوالى عام ١٠٤٠ بثّ فى قوى الإسلام نشاطاً جديداً . ولم يمض غير قليل حتى أصبح الخطر الذى يهدد البيزنطيين من الغزاة الجدد أشد بكثير من خطر الساسانيين أو العرب فى أية فترة سابقة . ففى خلال قرن واحد كان القسم الأكبر من مرتفعات الأناضول فى أيدى السلاجقة .

وعلى الرغم من أن السلاجقة كانوا من الجنس التركى الذى جاء فى الأصل من وسط آسيا فقد تم فى فارس أول اتصالهم بحضارة مستقرة ، وقد استطاعوا بسرعة أن يتمثلوا عناصر كثيرة جدا من ثقافة هذه البلاد وفنّها . وعلى هذا فإن استقرار السلاجقة فى الأناضول يمثل لنا إضافة حلقة جديدة لصلات هذا

(١) فرقة من المانوية ظهرت فى القرن السابع الميلادى .

الإقليم بفارس أكثر بكثير من تمثيله إنشاء علائق جديدة مع منطقة آسيا الوسطى التى لم تكن معروفة . وهناك حقيقة تقف شاهدا على هذا هى أنه كان فى ذلك الوقت قسم من القصر الكبير فى القسطنطينية يدعى بالمنزل الفارسى Persikos domos وكان البيزنطيون قد تأثروا فى بنائه بالسلاجقة . وقد ذُكر أن هذا القسم كله كان فارسيا فى مظهره . لقد أخرج السلاجقة الفن الفارسى والثقافة الفارسية فى شكل جديد ولكنهم لم يستبدلوا بهما أى شىء غريب أو جديد . وعلى الرغم من أن غزو السلاجقة لآسيا الصغرى أنقص إلى حد بعيد قوة البيزنطيين الزمنية فإن الوضع من الناحية الثقافية لم يكن يبلغ من الخطورة ذلك القدر الذى توحى به نظرة عاجلة إلى خريطة تمثل ممتلكات البيزنطيين وممتلكات السلاجقة فى كل من عامى ١٠٤٠ و ١١٤٠ . وعلى هذا فإن الدولتين رغم عدواتهما النظرية كانتا تتمتعان فى الواقع بعلاقات يغلب عليها الود، وكانت الصلات الفكرية وتبادل الأفكار بين الحكام الجدد لشرق الأناضول وحكامه القدامى مستمرة واسعة النطاق، وكانت السفارات والاتصالات الودية كثيرة . ونقرأ فى السجلات أن عددا من ذوى الشأن من السلجوقيين قد ذهبوا لتلقى العلم فى القسطنطينية ثم عادوا بعد ذلك إلى بلاد السلاجقة ليحتلوا مناصب رفيعة فى الدولة ، بل إنه فى بعض الأحيان تلقى العلم فى القسطنطينية بعض سلاطين المستقبل . وبهذه الطريقة أصبح الكثير من عناصر الفكر البيزنطى والثقافة البيزنطية يكوّن قسما جوهريا من الحضارة السلجوقية .

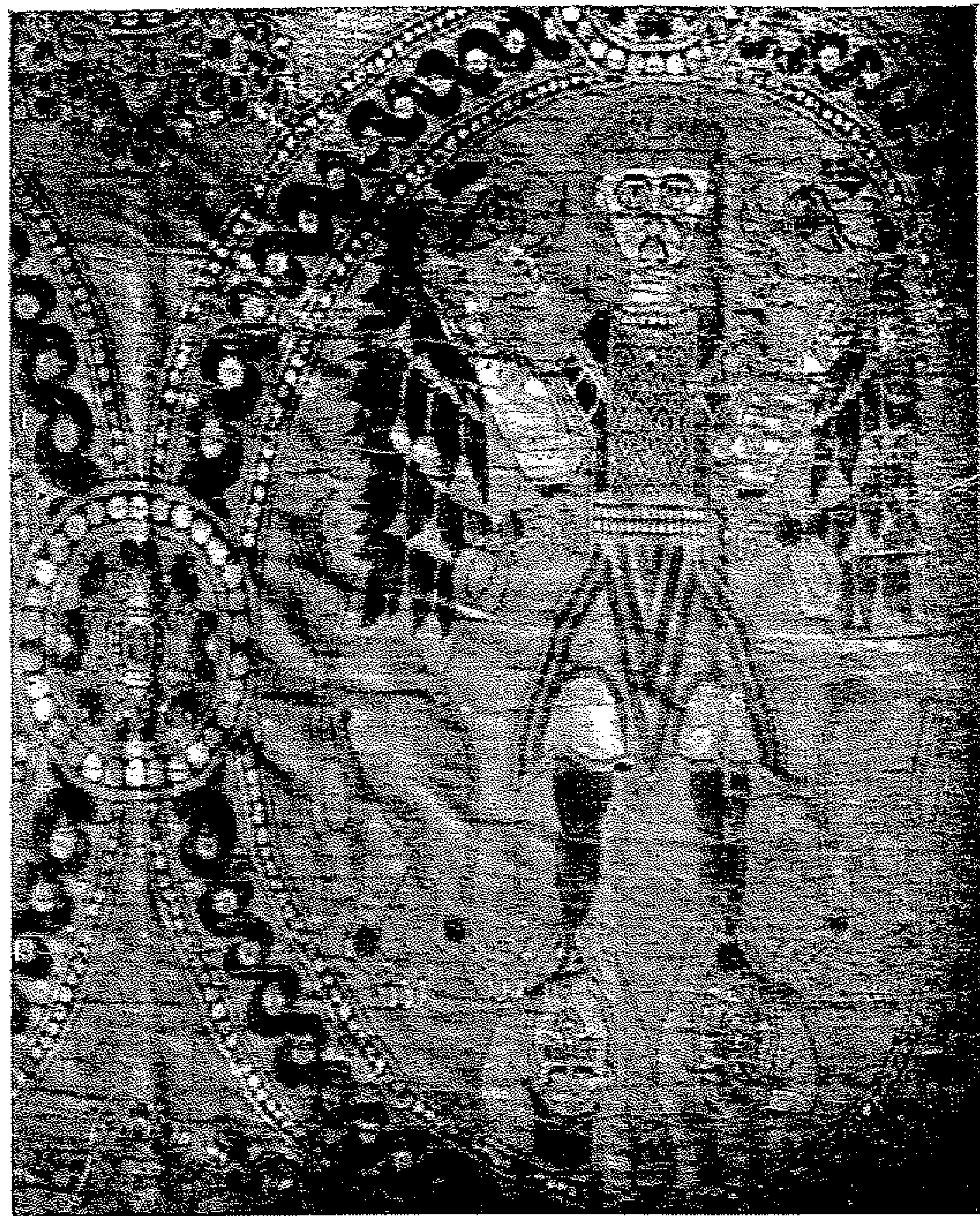
ولم تصبح الأمور على هذا الوجه إلا فى القرن الثانى عشر . وقبل هذا التاريخ كانت حركة التعبيرات الزخرفية والأفكار تأتى فى غالب الأمر من الاتجاه الآخر (أى من الشرق إلى الغرب)، وقد اتضحت لنا فى الفترة الواقعة بين القرنين الثامن والحادى عشر بعض النتائج الهامة لأثر الفرس فى تطور الفن البيزنطى . ففى

ميدان الفن كان تأثير الفرس حينذاك يحدث بطرق عديدة . ويمكننا فى الواقع أن نميز بين درجات ثلاث من التأثير . ففى المرحلة الأولى نجـد أن البيزنطيين يستوردون مصنوعات من فارس . وكانت هـذه المصنوعات فى حالات كثيرة تُحاكَى فى العالم البيزنطى وفى حالات أكثر كانت المحاكاة تقتصر على الرسوم التى تحملها هـذه المصنوعات . وكان تَمَثُّل الأفكار الفارسية يبدو على أى حال قليلا أو منعدما فى هذه النسخ المقلدة . لقد كانت مجرد نُسخ بسيطة لم تترك وراءها إلا القليـل من الأثر . ويمكننا أن نضرب مثـلا على ذلك القطعة البرنزية البيزنطية التى يملـكها المستر ه . بيرس H. Peirce ويرجع تاريخها إلى القرن الحادى عشر ، وقد عرضت هـذه القطعة فى المعـرض البيزنطى بباريس عام ١٩٣١ (رقم ٤٤٢) ، وهى تمثل نسرين بينهما دبوس، ويبدو أنها تقليد لطراز شائع من المصنوعات البرنزية التى ترجع إلى لورستان. ونماذج لورستان البرنزية ترجع إلى تاريخ أسبق بكثير. ويبدو أن هذه النسخة البيزنطيـة قد صنعت بطريق الصدفة ، فلم تؤد إلى ظهور مجموعة تشبهها أو طراز على هيئتهما فى الغرب كما أنه لم ينشأ عنها ظهور أسلوب فنى جديد . وقد قلّدت تعبيرات زخرفيـة فارسية من آن لآخر بالطريقة نفسها ، وكان هذا التقليد يحدث فى أوقات متفرقة ولهذا لم تصبح هذه التعبيرات قسما من ذخيرة البيزنطيين الفنية لا فى وقت ظهورها ولا الأوقات التى تلته .

وفى المرحلة الثانية نرى العالم البيزنطى يتمثل أسلوب الفن الشرقى والمعنى الذى ينطوى عليه هذا الفن على الرغم من أنه لا يقلد عملا فنيا أو تعبيرا ، وقد انتقل تأثير الشرق إلى الغرب أكثر من مرة بهذه الطريقة فنشأ عنه تغيير فى الاتجاهات الفكرية للفن البيزنطى وكذلك فى أسس مقاييسه الجمالية . ومثل هـذا التغيير كان أعمق بكثير من ذلك الذى نشأ عن مجرد محاكاة أحد التعابير الزخرفية أو الأعمال الفنية وقد كان له فى كثير من الحالات نتائج دائمة الأثر فى الفن البيزنطى . وعلى كل حال



ا ـ نسيج من الحرير . بيزنطى . القرن الثامن .
من موزاك . متحف النسيج بليون.



ب ـ نسيج من الحرير (كفن القديس ڤيكتور)
بيزنطى . القرن الثامن . خزانة كاتدرائية سنس .



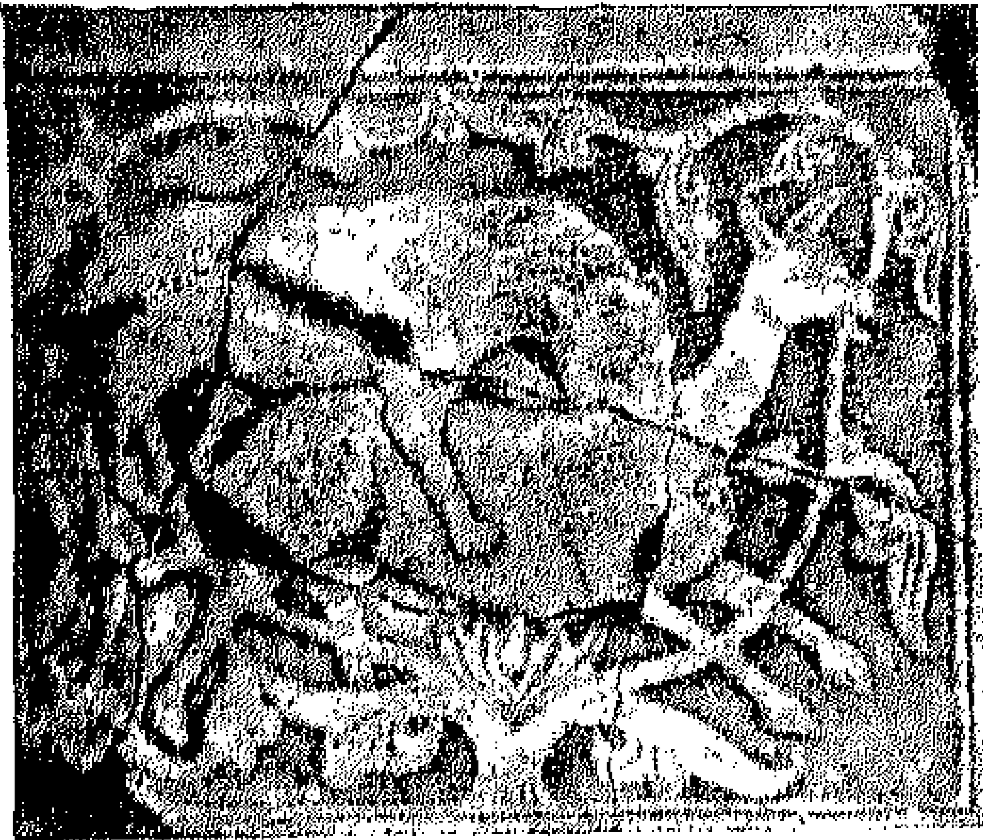


ا　　　　　　　　　　　　ب

ا ـ رجل بين أسدين مجنحين فى چيلاندرى بماونت آتس . القرن الثانى عشر .

ب ـ حيوانان يصطرعان. محفوظ فى Little Metopolis بأثينا . القرن الحادى عشر.





حـ　　　　　　　　　　　　د

حـ ـ صورة محورة لأسدين متواجهين . متحف كانديا . القرن الحادى عشر.

د ـ أسد مهاجم غزالا . المتحف العثمانى . استانبول . القرن الحادى عشر.

ألواح حجرية بيزنطية لإغلاق الفتحات ترجع إلى القرنين الحادى عشر والثانى عشر وتحمل تعابير زخرفية فارسية الأصل .

فليس تتبع هـذه النتائج بالأمر اليسير إذ أنها نتائج سيـكولوجية أكثر منها مادية وهى فى المادة تبلغ درجة من الصعوبة تجمل من العسير وَصْفَها بعبارات محـددة . ولـكن تسرب أفـكار الفرس إلى الفن الدينى البيزنطى على هذا النحو الخفى ـ وقد سبق أن لفتنا النظر إليه وبينا علاقته بمفهوم الإمبراطورية عنـد البيزنطيين ذلك الذى كان يناقض مفهومها عنـد الرومان ـ هذا التسرب كان فى الواقع أحد العوامل الـكبرى التى أثرت فى أسس الثقافة البيزنطية . فالولع بالألوان الزاهية والمنسوجات الفاخرة والثياب المزركشة والمغالاة فى تجميل المبـانى من الداخل بالأثاث والرياش ، كل هذه الأمور ليست إلا ناحية من الحضارة البيزنطية لا يمكن أن تنسب إلى روما بأى حال ولـكنها جميعا ترجع إلى تأثير الفرس . ومع هـذا يجب ألا ننسى أن هناك عناصر أخرى من الفـكر البيزنطى ظهرت فى عصر متأخر نسبيا وكان مصدرها الشرق، ولم تـكن هذه العناصر فارسية فى حقيقة الأمر وإنما كانت فى الغالب ترجع إلى بلاد الساميين . هـذه العناصر هى كره نحت التماثيل ذلك الـكره الذى سيطر على جانب من الفـكر البيزنطى أثناء القرنين الثامن والتاسع وأدى بحق إلى تحريم التماثيل وذلك أثناء فترة تحطيم الأوثان (٧١٧ ـ ٨٤٣) ثم هى أيضاً الميـــــل العام إلى التعبير عن اللامحدود فى الفن وهو الميل الذى شاع بوجه خاص فى النقش وصناعة الفسيفساء أثناء العصر الذهبى الثانى . ويمـكننا أن نذكر مثلا لهذا الاتجاه تمثال المسيح الجبار الذى تشعّ منه رهبة قلما تشع من تمثال آخر وهو يبدو من القبة مسيطراً على كـنيسة دافنى Daphni بجوار أثينا . فهذا التمثال يهدف إلى تصوير معنى باطنى لا صورة ظاهرية ويشيع فى طابعه الفنى تصوف الساميين .

وإن أهم طريق انتقل خلاله تأثير الشرق على بيزنطة يتجلى فيـه الجمع بين هاتين الحالتين اللتين تحدثنا عنهما بإيجاز . فقد انتقلت إلى العـالم البيزنطى القطع الفنية

والتعبيرات الزخرفية وكذلك الروح التى انطوت عليها هذه التعبيرات، وهناك تم تمثلها إلى حد أنه أصبح من المستطاع أن يصنع فى العالم البيزنطى عمل فنى فارسى المظهر والشعور، ولكن هذا العمل كان يبدو بيزنطيا أيضا نتيجة لتأثير المقاييس الجمالية عند البيزنطيين فمثل هذا العمل يمكن أن يوصف بأنه بيزنطى تغلب عليه الفارسية وهو اتجاه مضاد لغلبة التأثير الهلينى . هـذا التمثل الكامل للنماذج والأساليب الفارسية لم يكن قليل الحدوث منذ القرن الثامن ويمكننا أن نذكر أمثلة عديدة له فى جميع الفنون تقريبا .

وإن مشكلة تعقب الأثر الفارسى فى هذه الحقبة أعقد بكثير من تتبعه أيام الساسانيين إذ أنه ليس من اليسير تمييز العناصر الفارسية الخالصة من العناصر التى كانت إسلامية ذات طابع أعم . فعند ما حل القرن التاسع كانت أفكار الفرس وأفكار العرب قد امتزجت كل منها بالأخرى امتزاجاً لطيفاً وذلك بتأثير الإسلام فأصبح من الصعب أن نعرف ما إذا كان عمل من الأعمال الفنية أو الفكرية يمكن أن ينسب إلى قسم معين من العالم الإسلامى أم أن الأجدر أن نعتبره جزءاً من الثقافة العامة الجامعة . وإن استخدام الخط الكوفى كتعبير فنى يقدم لنا مثلا لهذه الحالة . فقد كان العرب أول من استخدم هذا الخط كما أن اسمه مشتق من مدينة الكوفة العربية بالعراق ولكن صناع الفرس هم الذين يرجع إليهم الفضل الأكبر فى تطور هذا الخط كتعبير زخرفى لم يقتصر استخدامه على تجميل الكتب بل تعداه إلى تجميل القدور والأوعية المعدنية والمنسوجات والمبانى . فنحن لا نكاد نجد عملا فنيا يرجع إلى القرن التاسع وينتمى إلى أية بقعة من أرض فارس دون أن نجد عليه نقشا كوفيا . ولعل العدل يقتضينا أن ننسب إلى الفرس لا إلى العرب إضافة الزخرفة بالخط الكوفى إلى ذخيرة الفنون .

إن الخط الكوفى المستخدم فى الزخرفة سرعان ما وجد سبيله إلى العالم البيزنطى وهناك زخرفت به المنسوجات والآنية الخزفية والمنحوتات الحجرية وكذلك الأبنية .

وقد ذاع استخدامه فى أثينا بوجه خاص فى القرن العاشر . وعلى الرغم من أنه ظل شائع الاستخدام هناك حتى القرن الرابع عشر فإنه كان أقل ذيوعا بعد عام ١٠٥٠ على وجه التقريب منه قبل هذا التاريخ . وتكاد تقتصر النماذج المتأخرة من الزخرفة الكوفية هناك على تجميل واجهات المبانى عندما تكون هذه الواجهات مبنية بالطوب. ويمكننا أن نذكر مثالا لذلك واجهة كنيسة دير هوسيوس لوكاس Hosios Lukas بفوكيس Phocis التى تقع غير بعيد من دلفى Delphi وترجع هذه الكنيسة إلى القرن الحادى عشر . ولعل هذه الزخارف الكوفية قد جاءت إلى العالم البيزنطى عن طريق المنسوجات الفارسية التى كان النساجون فى أثينا وطيبه Thebes[١] وغيرها يتخذون منها نماذج يحتذونها[٢] وكذلك نرى الفسيفساء التى تزدان بها القاعة النورمندية Sala Normana فى قصر باليرمو Palermo بصقلية أقرب فى تصميمها وأسلوبها إلى الفارسية منها إلى العربية . هذا على الرغم من أن الفضل فى انتقال طريقة الزخرفة تلك إلى العالم البيزنطى يرجع فى هذه الحالة بالذات للعرب وليس للفرس .

وهناك فن آخر لعب تأثير الفرس دوراً جوهرياً فى تطوره عند البيزنطيين ذلك هو صناعة الخزف ومع هذا فليس من اليسير دائما أن نفرق بين أثر العرب وأثر الفرس فى هذا الميدان. فهناك مجموعة أو مجموعتان من الخزف البيزنطى تبدو أوثق صلة بالفرس منها بالعرب. وأهم ما لدينا من هذا الخزف البيزنطى تلك المجموعة التى تعرف فى العادة بمجموعة الخزف المتعدد الألوان وقد وجدت نماذج منها فى برسلاف Preslav

---

(١) مدينة باليونان هى اليوم مدينة تيڤا Thiva

(2) E. Wiegand, 'Die helladische Schule in der mittelbyzantinschen Seidenweberei', in IIIe. Congrès Byzantin à Athènes (1930), P. 222

وبتلينا Patleina وهما من بلاد بلغاريا وفى كييف وغيرها من المواقع البيزنطية فى روسيا وكذلك فى القسطنطينية نفسها . ويرجع تاريخ هذه النماذج إلى قرون ثلاثة هى التاسع والعاشر والحادى عشر وكثير من هذه النماذج يظهر لنا أثر الفرس واضحا فى التعبيرات الزخرفية المنقوشة على الآنية وكذلك فى الأسلوب والتلوين كما يظهر شيئا من التأثير الفارسى فى طريقة الصناعة أيضا . وهناك مجموعة كبيرة من الخزف الملون فى العالم البيزنطى استخدم فيها الطلاء اللامع بالألوان البنى والأخضر والأزرق والأصفر والأحمر الباهت فوق أجسام حمراء وهذه ذات صلة بطراز معين من الخزف الفارسى الذى ظهرت نماذج منه فى العالم الفارسى قبل ظهورها فى العالم البيزنطى . وإن أهم مالدينا من المصنوعات الخزفية هو ذلك الخزف ذو الزخارف المحفورة فى الطلاء الخارجى وتعتمد الزخرفة فيه على المزج بين لون الطلاء الخارجى ولون الوعاء الذى يعلوه هذا الطلاء ويظهر من خلال الزخارف المحفورة . من هذا الخزف مجموعات بيزنطية تبدو قريبة الشبه بما احتذته من نماذج فارسية إلى درجة تجعلنا نميل إلى القول بأن الأمر لم يقتصر على تقليد النماذج الفارسية فى التصميمات والأشكال وطرق الصناعة بل تعدى ذلك فى قليل من الحالات إلى ارتحال بعض الخزافين من فارس إلى الغرب(١) .

ويمكننا أن نذكر أمثلة للتحف المعدنية وطلاء المعادن بالميناء ونحت العاج من القسطنطينية ومن أماكن أخرى من العالم البيزنطى يبدو فيها تأثير الفرس واضحا على الرغم من أنها أقل من الخزف مراعاة لاتباع الأسلوب الفارسى. وهناك عدد كبير من اللوحات العاجية تحمل تعابير زخرفية محوّرة عن أصول من ذخيرة الفرس الفنية.

---

(١) عالج المؤلف بإيجاز الروابط التى تربط الخزف البيزنطى بالخزف الفارسى فى كتابه : (Byzantine Glazed Pottery, Oxford, 1930) ويأمل المؤلف أن يتوسع فى بحث هذه الروابط فى مقال سوف يظهر قريبا .

فالفتيات الراقصات المحفورات على قطع من تاج قسطنطين مونوماكوس (١٠٤٢ ـ ١٠٥٥) Constantine Monomachos ببودابست تذكرنا بصور ظهرت ضمن نقوش الفرس فى العصر الإسلامى . ومما يلفت النظر أيضاً مجموعة من الأوانى الفضية وجدت فى بلغاريا ترجع إلى القرنين التاسع والعاشر . فهذه الآنية ترتبط بنماذج بيزنطية من جهة وترتبط بنماذج فارسية من جهة أخرى[1] ويمكننا أن نذكر مثلا أوسع نطاقا من ذلك ألا وهو مجموعة الألواح الرخامية التى تحمل صورا منحوتة ونرى نماذج منها منتشرة فى جميع أنحاء العالم البيزنطى من أثينا إلى القسطنطينية ومن غرب آسيا الصغرى إلى البندقية ، فهذه الألواح الرخامية تظهر عليها تعابير زخرفية مشتقة من هيئة الحيوان ترجع دون شك إلى أصول فارسية . ولعل هذه التعابير قد انتقلت إلى البيزنطيين عن طريق المنسوجات شأنها فى ذلك شأن الخط الكوفى . ويحمل أحد هذه الألواح الرخامية تعبيرا فنيا لا نصادفه كثيرا فى آثار الفرس وهو مع ذلك تعبير فنى رائع يصور صعود كيكاوس إلى السماء فى عربته . وهذا اللوح مبنى فى أحد جدران كنيسة سان مارك بالبندقية .

وفى خلال الفترة الممتدة من القرن التاسع إلى القرن الثالث عشر رأينا من جديد أن التأثير الفنى لم يعد كله ينبعث من جانب واحد . فمن الممكن ذكر تحف فنية من الشرق يظهر فيها أثر بيزنطى واضح كما أن السجلات تحدثنا عن وصول مبعوثين وصناع بيزنطيين إلى العراق . ومما لا شك فيه أن هؤلاء قد ذهبوا إلى فارس أيضا . ويمكننا أن نذكر من بين الآثار الشرقية التى يظهر فيها تأثير البيزنطيين إناء من النحاس يوجد اليوم فى أينزبروك Insbruck وهو إناء مزخرف بالميناء ويحمل اسم أميرارتكى من آمد . ففى وسط هذا الإناء من الداخل ميدالية تظهر فيها صورة

(1) G. Migeon, Orfèvrerie d'argent de style oriental trouvée en Bulgarie', Syria, III (1922). 141.

رجل جالس ، ومن الواضح أن هذه الصورة منقولة عن قطعة نقود بيزنطية . ولكن الآثار الفنية التى يظهر فيها أثر الغرب فى الشرق تبدو على أية حال قليلة متفرقة إذا قورنت بالآثار الفنية البيزنطية التى يظهر فيها أثر الشرق .

وإذا تركنا ميدان الفن ازدادت مشاهدتنا لمظاهر تأثير البيزنطيين فى الشرق . فقد كان الجيش فى أوائل عهد الدولة العباسية منظما على الطريقة البيزنطية إلى حد أنه كان فى هذا الجيش فرقة من رماة النفط يرتدون زيا عسكريا غير قابل للاحتراق[١] . ويروى اليعقوبى أن أحد الصناع البيزنطيين بنى طاحونة شهيرة فى بغداد[٢] . ولا شك أنه كانت هناك صلات من هذا النوع بين بيزنطة وفارس واتسعت التجارة بين الشرق والغرب أيضاً وقد وردت إشارات كثيرة إليها فيما وصلنا من كتابات . لقد ظلت مقادير كبيرة من البضائع الشرقية تصل إلى العالم البيزنطى حتى حين أصبح التجار اللاتينيون يقومون بدور أكثر أهمية من دور البيزنطيين فى التبادل التجارى بين الشرق والغرب . وكانت بيزنطة أيضا تصدر البضائع إلى الشرق ، فهناك إشارة إلى البضائع البيزنطية أيام الخليفة المنصور ، كما أن التاريخ يحدثنا أن ابن طولون أنقذ من قطاع الطريق قافلة كانت تحمل تحفا فنية من القسطنطينية إلى سامرا وذلك فى عام ٨٦٠م ولابد أنه كانت هناك قوافل من هذا النوع اتجهت إلى فارس .

---

(١) كانت الألبسة التى لا تحترق معروفة أيام الساسانيين وقد ذكر البلعمى أن من بين نفائس كسرى منشفة كان الملك يمسح فيها يديه فكانت إذا اتسخت وألقيت فى النار لا تحترق ، فلا تعمل بها النار شيئاً غير إزالة ما اعتراها من وسخ (الخشاب) .

(2) G. Le Strange, Baghdad during the Abbasid Caliphate (Oxford, 1900), P. 142.

٣ — خاتمة

لقد كان تراث الفرس ذا أهمية عظيمة للعالم البيزنطى من وجهه نظر التاريخ الفنى . ولقد يثار بحق السؤال الآتى : هل كان من الممكن أن تتطور العمارة البيزنطية على النحو الذى صارت إليه دون أن تتأثر فى أيامها الأولى بالعمارة الفارسية ؟ لقد ظلت المنسوجات البيزنطية ومن بعدها الخزف البيزنطى فترات طويلة من الزمن فارسية المظهر بقدر ما هى بيزنطية ، كذلك تأثر النحت البيزنطى كثيرا بالنحت الفارسى ويظهر فى التحف العاجية البيزنطية فى بعض الأوقات تأثير فارس وهكذا الشأن فى التحف المعدنية . بل إننا لنستطيع أن نعثر عند البيزنطيين على ملامح من الأسلوب الشرقى فى النقش والفسيفساء . أما تاريخ الثقافة فيكشف لنا عن صلات مماثلة بين الفرس والبيزنطيين وكلما ازددنا معرفة بأحوال المجتمع فى كل من فارس وبيزنطة استطعنا دون شك أن ندرك بصورة أكثر وضوحا ذلك الدور العظيم الذى لعبته فارس فى هذا الميدان . وكلما ازداد بحثنا لتاريخ التجارة فى الشرق الأدنى وجدنا أن كل الأسباب تدعونا إلى الاعتقاد بأننا سنرى أن العلاقات بين فارس وبيزنطة فى هـذا الميدان لم تبلغ مدى بعيدا فحسب وإنما كانت مستمرة على الأيام . ولهذا فإنا نجد أن ذلك النوع العتيق من التاريخ الذى لم يهتم إلا بالحروب وما شابهها من الوقائع التى تلفت النظر يقدم لنا صورة فيها الكثير من النقص إذ أن الحروب لم تحدث سوى أثر وقتى أو محدود على العلاقات الثقافية بين البلدين . ولقد ظل التبادل مستمرا فى ميادين التجارة والفن والفكر على الرغم من هذه الحروب ، وليس من المستطاع أن نحصل على صورة دقيقة لما كانت عليه الأمور بوجه عام إلا إذا دققنا فى دراسة هذه النواحى من الحياة ، تلك التى كانت أكثر دواما من الحروب فى سالف الزمن . إن رواية الحوادث على تلك الصور التى كانت تعد منذ أجيال قليلة تتضمن كل ما وعاه التاريخ

ومنتهى ما اشتمل عليه لا تقدم لنا إلا جزءا من كل وإن العناية بهذا الجزء وحده لا تعاوننا على فهم الحوادث بقدر ما تزيدها غموضا أمام أعيننا . وليس هناك مثل تنطبق عليه هذه الحقيقة أكثر من قصة العلاقات بين فارس وبيزنطة .



الفصل الثالث

❋❋❋❋

فارس والعرب

ترجمة محمد كفافى

إن التقدير الدقيق لما يدين به العرب لفارس يحتاج إلى تحليل لكل من الحضارتين العربية والفارسية ، وهذا يؤدى بنا إلى استطرادات قد تقودنا إلى البحث فى أدق مسائل علم الإنسان . ومع هذا فإن فى إحدى هاتين الحضارتين عناصر معينة يمكن أن يقال عنها — بعد بحث يتوخى الحقيقة التاريخية — أنها مقتبسة من الحضارة الأخرى . هذه العناصر بوجه عام ليست إلاسمات ظاهرة يمكن ذكرها فى صورة حقائق ملموسة . أما العناصر الخفية للتبادل بين العرب والفرس فلسنا بحاجة إلى تفصيل الحديث عنها بل إنا لا نستطيع ذلك فقد كانت هـــذه العناصر موضوعا لأبحاث كثيرة .

إن السرعة التى أخضع بها العرب بلاد الفرس كثيرا ما كانت موضوعا للتعليق ومع هذا فإن الأمر ليس بالبساطة التى تتجلى فيما يؤكده بعض المؤرخين من أن العرب اجتاحـوا امبراطورية الملوك الساسانيين ومحوا كيانها . إن فارس حافظت على مقومات ذاتيتها منذ فترة تكاد تبدأ بأوائل عصر التاريخ ولم تفقد شخصيتها لا بعد الغزو الإسلامى ولا فى أى وقت سواه . والخصائص التى هيأت لها هذه القدرة على التحمل ترجع فى غالب الأمر إلى عناصر طبيعية جغرافية ولكنها فى الوقت نفسه نشأت

عن عناصر معينة فى خلق الشعب الفارسى وتقاليده العامة قوامها المرونة والثبات . وقد بقيت هذه العناصر واضحة حتى بعد أن اضطر الفرس إلى أن يعيشوا فى ظل النظم التى فرضها عليهم العرب ، هؤلاء الغزاة الذين تركوا أكبر الأثر فى بلاد الفرس فى عصورها التاريخية .

إن سيل الغزو لم يغمر فارس كلها دفعة واحدة بل تم الغز على النحو على الذى تم به الفتح الإسلامى لأسبانيا .

والعرب لم يكونوا غرباء عن الفرس غربة تامة فقد شاركوا الفرس فى بعض المعتقدات الدينية والروحية القديمة ، وفى هذه الحقيقة يكمن تفسير السرعة والسهولة اللتين اقترن بهما غزو العرب لأهم الأقاليم الفارسية . وتزداد هذه الحقيقة وضوحا عند ما تقاس سهولة غزو العرب لفـــارس بالصعوبات التى لاقوها فى نزاعهم مع الامبراطورية البيزنطية . ولقد كان العراق ـ بابل القديمة ـ إقليما يسكنه النبطيون وهم قوم كانوا يتـكلمون إحدى اللغات الساميـة وذلك على الرغم من أنه كان قسما من الإمبراطورية الساسانية ، ولهذا توثقت فيه بصفة خاصة صلات العرب بالفرس فترة طويلة من الزمان . ومثل هذا الاتصال لم يقم بين العرب واليونان .

وعند ما خرج العرب من شبه جزيرتهـم الصحراوية مدفوعين بتأثير الإسلام كانوا فى حالة بدائية من الناحية العسكرية وذلك فيما عدا براعتهم فى اقتحام الحصون. ولعل استخدامهم آلات الحصار اليونانية كان السبب فى هذه البراعة . أما فى فنون السلام فإن تقدمهم لم يكن يتخطى مقدرتهم على إمداد أنفسهم بحاجات الحيـاة الأولية . فلم يكن معظم سكان الصحراء يحتاجون إلى أكثر مما يحصلون عليه من جمالهم وهى وحدها الدواب التى تطيب لها الحياة فى فيافى الجزيرة العربية . لقد كانوا يعدون الزراعة أمرا لا يليق بالرجال وينظرون إلى من يمارسونها على أنهم من سفلة الناس ومن هنا نشأت قلة اكتراثهم بالأرض نفسها واعتبارها شيئا غـير جدير

بالاهتمام . وعلى الجملة لم يكن لهؤلاء القوم إلا القليل من الاهتمام بمقتضيات الحياة المستقرة وما فيها من ألوان الرق .

ولكن عندما اندفع العرب من جزيرتهم إلى العالم الخارجي أحس قادتهم بالحاجة إلى إدارة هذه الممتلكات التي وقعت في أيديهم ومن هنا بدأ اهتمامهم بفنّ الحكم الذي لم يكن لهم عهد به من قبل . إن الفخري وهو كتاب في السياسة والتاريخ يرجع إلى أوائل القرن الرابع عشر يروى لنا أن الخليفة عمر التمس النصح عند رجل فارسي كان قد عمل بعض الوقت في أحد الدواوين الحكومية وذلك عندما أراد أن يهتدي إلى طريقة يوزع بها غنائم الحرب التي كانت تتدفق على المسلمين . وقد أشار عليه الفارسي أن ينشيء ديوانا يسجل فيه الدخل والمصروفات فكان هذا الديوان هو البذرة التي انبثقت منها الأداة الحكومية التي استندت إليها الخلافة بضع مئات من السنين . إن هذه القصة تنطوي على شيء من الصدق إذ أن المدائن (سلوكيا — طيسفون) — التي كانت تقع على نهر دجلة — ربما كانت أهم مدينة وقعت في يد العرب. لقد كانت هذه المدينة عاصمة الإمبراطورية الساسانية ومركز الإدارة فيها كما كانت في الوقت نفسه مدينة تضارع القسطنطينية في الثراء وأبهة الحضارة . فالكوفة والبصرة — وهما المدينتان العراقيتان اللتان كانتا في أول الأمر معسكرين للجنود — لجأتا إليها للحصول على الموظفين الذين كانوا قادرين على إدارة الممتلكات المفتوحة وذلك في أوائل عهد العرب بامتلاكها ومن هؤلاء تعلم البدو شيئا من إدارة الأعمال الحكومية .

لقد اشتهر الملوك الساسانيون بين قادة العرب طوال فترة مديدة من الزمان بأنهم كانوا ذوي خبرة واسعة بفنون الحكم . ولقد عبر عن ذلك الجاحظ — وهو الكاتب البصري الذي عاش في القرن التاسع — وذلك في رسالته عن صفات الترك حين استطرد على عادته إلى سرد آرائه في غيرهم من الناس . قال الجاحظ إنه وجد بين

أجناس الناس وطبقاتهم أن بعضهم تفوّق فى الفنون العملية وبعضهم فى بلاغة القول وبعضهم فى بناء الممالك وبعضهم فى فنون القتال . ومضى يقول إنه اقتنع بعد البحث أن اليونان برعوا فى الفلسفة والفنون الآلية وأن أهـل الصين كانوا أحذق الناس بالفنون والصناعات ولـكن لم يكن لهم كبير اهتمام بمعرفة العلل الخفية للأشياء وأن الترك كانوا محاربين أشداء . أما عرب الصحراء فلم تـكن لهم معرفة بالتجارة ولا الصناعة ولا الطب كما أنهم لم يكن لهم شىء من الميل إلى الرياضة أو الزراعة ولـكنهم حينما عنوا بالشعر والخطابة وبالخيل والسلاح وعدد القتال وكذلك بتسجيل الأحاديث والأخبار فإنهم فاقوا جميع الناس فى هذه الفنون . ولـكن الجاحظ ـ وقد أراد أن تطابق أقواله الواقع ـ اضطر بعـد ذلك إلى أن يحدد أحكامه العامة فقال إنه بطبيعة الحـال لم يعن بأحكامه أن كل تركى محارب ولا أن كل عربى شاعر . ولـكن حين وصل إلى الفرس فى آخر الأمر ذكر أن الملوك الساسانيين كانوا أقدر الناس على سياسة الممالك .

ولقد كان الجاحظ بأقواله هذه يؤكد آراء الخلفاء . كان فى مكتبة هشام بن عبد الملك الخليفـة الأموى المتوفى عام ٧٤٣ كتاب يروى تاريخ الساسانيين تُرجم من الفارسية إلى العربية فى أيامه ، وكان هـذا الـكتاب يشتمل على صور لهؤلاء الملوك بالألوان النادرة ويتضمن فصولا عن أساليبهم السياسية وعن علوم الفرس وأهم آثارهم القومية فى فن المعمار . والمعتقد أن هشاما كان يستعين بهذا الـكتاب فى دراسة نظام الحـكومة الفارسية . وليس من شك فى أن الخلفاء العباسيين قد ساروا بدقة على هذا النظام فإنه كان غريبا على العرب وربما غير مقبول لديهم . فمن خصائص هذا النظام التى كانت غريبة على العرب أنه كان يقوم على ملـكية وراثية مطلقة وحكومة مركزية تتركز فى يدها السلطة على الأقل من الناحيـة النظرية . لقد كان العرب منقسمين إلى قبائل متنازعة تنتخب كل منها رئيسا لها ولم يكن يستثنى من هذا النظام

العرب الذين كانوا يسكنون مدنا مثل مكة والمدينة . وربما كانت القبائل تنقسم إلى بطون والبطون إلى أفخاذ ولكن الرياسة لم تكن وراثية إلا فى أصغر الوحدات التى تنقسم إليها القبيلة ، ومع هذا فقد جرى العرف على أن تبقى زعامة القبائل فى أسر معينة. والواقع أن العرب فى أوائل عهدهم بالإسلام ـ كانوا يعتبرون المُلك شيئا لا يدخل ضمن الأشياء التى تعارف الناس على توارثها .

وعندما جاء الوقت الذى نظم فيه الخليفة عمر دولة الإسلام قضى بأن يكون على رأس المسلمين حاكم تتركز فيه السلطات ولكنه مع ذلك أبقى مبدأ الانتخاب وإن كان قد قصر الحق فى الخلافة على قريش قبيلة النبى . وكان للعرب الفاتحين مكان ممتاز فى دولة الإسلام يشبه ذلك الذى كان لأسر النبلاء فى الدولة الساسانية . وقد انتخب عمر للخلافة وكذلك الخلفاء الثلاثة الذين جاءوا من بعده ، ولكن معاوية الذى حكم بعد هؤلاء وكان أول الخلفاء الأمويين قد استطاع أن ينشىء أسرة حاكمة كان الابن فيها يرث الملك عن أبيه وإن كان قد حدث فى بعض الأحيان أن انتقلت الخلافة إلى أخ أو ابن عم .

لقد كان النظام الذى وضعه عمر يحمل طابع النظام الفارسى إلا فيما يتعلق برأس الدولة فى كل من النظامين . وكان عمر يولى على الأقاليم التى يتم فتحها ولاة من قبله ويمنحهم سلطات محدودة ولكنه يحتفظ بالسلطة العليا فى يديه . ولقد قضى على كبار ملاك الأراضى الذين اقتصر خضوعهم للملوك الساسانيين المتأخرين على دفع الضرائب ، أما الدهاقين ـ وهم الفلاحون الأغنياء الذين كان الساسانيون يتخذون منهم عمالا صغارا لجمع الضرائب ـ فقد احتفظت بهم الحكومة الإسلامية ليعاونوها فى تقدير الضرائب وجبايتها . ولقد كان موقف الدولة الإسلامية من هؤلاء شبيها إلى حد بعيد بموقف القوات البريطانية من رجالات العرب البارزين فى مختلف أنحاء العراق حين غزت هذه القوت فى عام ١٩١٤ ذلك الإقليم الذى كان قسما من الدولة

العثمانية . فقد عهد إلى هؤلاء الدهاقين بأعمال خاصة تتعلق بجباية الضرائب فى المناطق التى كانوا يقيمون بها وذلك لأنهـم كانوا ذوى خبرة بتلك المسألة . فالدهاقين هم الذين كانوا يحتفظون بسجلات الضرائب وهم الذين كان لهم من الخبرة ما يمكنهم من تقدير الضرائب التى ينبغى أن يدفعها المنتجون المختلفون . وقد ظل العرب معتمدين على سجلات الضرائب القديمة مدة لا تقل عن خمسين عـاما بعد غزو فارس . وفى خراسان وغيرها من مناطق فارس التى يصعب الوصول إليها ظلت سجلات الضرائب الرسمية تـكتب بالفارسية مدة تقرب من مائة عام بعد الفتح الإسلامى . بل إن الواقع أنها ظلت كذلك حتى زمن أبى مسلم وهو القائد الذى كان ذا أثر فعال فى تسليم زمام الأمور إلى بنى العباس .

وقد ورثت اللغة العربية عن تلك الحقبة ألفاظا فارسية تتعلق بالنقد وغيره من المصطلحات المـالية وظلت كلها تـكون جزءا من مصطلحات الإيراد العام ومن المعروف أن « ديوان » نفسها مشتقة من الفارسية . وقد ظل الإيرانيون قروناً عديدة مشهورين ببراعتهم فى الأمور المالية بل إن اللغات الأوربية أخذت عنهم مصطلحات تتعلق بأعمال البنوك ومن الأمثلة المعروفة من ذلك كلمة « شيك » Cheque .

وقد استعين بأكثر من واحد مِن الخلفاء الأمويين (الذين كانوا يفخرون بعروبتهم) وذلك للدفاع عن استخدام هؤلاء الموظفين الأجانب الذين كانوا مكروهين بسبب جنسيتهم ووظيفتهم ودقتهم المتناهية إذ أنهم اتهموا بأنهم كانوا لا يضربون صفحا عن دانق يمكن فرضه وأنهم كانوا ينتبهون إلى فرض الضرائب على كل شىء حتى قشر الأرز . وحين اضطر أحد عمال بنى أمية على البصرة إلى الفرار من هــذه المدينة بعد أن ثار عليه أهلها برر احتفاظه بالدهاقين فى خدمته بأن الدخل كان ينخفض حين يُستخدم العرب جباة للضرائب وبأن الفرس كانوا أقدر من العرب على ملاحظة الأشياء

التى تستحق أن تفرض عليهــا الضرائب وأكثر منهم استحقاقا للثقة وأقل ظلما فى تحصيل الخراج .

إن النظام الفارسى لجباية الضرائب كما نراه أيام كسرى الأول أنوشروان العادل كان نظاما بسيطا ، فقد كان كل زراع الأرض يدفعون نسبة معينة من محاصيلهم أو قيمة هذه النسبة نقدا، وكان جميع الذكور البالغين يدفعون ضريبة الرأس التى كان يعفى من دفعها أبناء الأسر النبيلة المعترف بها وكبار ملاك الأراضى والفرسان والكتاب وخدم الملك . وقد والى عمر العمل بهذا النظام بصفة عامة مع فارق هو أن العرب كانوا هم الطبقة المميَّزة فى ظل حكومته .

وكانت العملة التى تستخدم فى دفع الضرائب نقداً هى الدراهم وهى نقود فضية كانت أيام الساسانيين تحمل على وجهها صورة الملك وعلى ظهرها صورة لهيكل نار زردشتى يقف على كل جانبيه موبد يقوم بشعائر الدين . وعلى الرغم من أن مثل هذه الرسوم لم تكن متفقة مع تعاليم الإسلام فإن العرب الغزاة أبقوا على هــذه النقود واستخدموا الصناع الفرس ليصنعوا منهــا ما يستطيعون صنعه . وعندما قلت النقود القديمة أمر عمال الأمويين والعباسيين فى الأقاليم الشرقية بصك مقادير جديدة منها ، وكانت النقود التى صكت لهؤلاء مشابهة للنقود القديمة إلا أنها كانت تحمل بالإضافة إلى الصور التى كانت على النقود القديمــة عبارة بالبهلوية أو بالعربية أو بكلتيهما . وقد ظل هذا الطراز من النقود بعد أن عدل فيــه عن صورة هيكل النار والموبدين ورمز إليها بثلاثة خطوط متوازية يستخدم فى الدول الإسلامية بشمالى إفريقية وكذلك فى أسبانيا أيام حكم المسلمين كما أن الدرهم الإسلامى المحض الذى ضربه الخليفة الأموى المصلح عبد الملك (بن مروان) ليستخدم فى جميع أنحاء الخلافة الإسلامية كان وزنه مساويا لوزن الدرهم الفارسى . وقد ظل درهم عبد الملك هذا العملة الأساسية فى الأقاليم

الشرقية من بلاد الإسلام حتى وقت متأخر فى القرن الرابع الهجرى والعاشر الميلادى كما ظل فى العراق فترة تكاد تكون مماثلة لتلك التى لبثها فى الأقاليم الشرقية .

وكان الخراج (ضريبة الأرض) يدفع بطبيعة الحال عند ما يتم جمع محصول الحنطة والشعير . وكان الاحتفال بعيد الحصاد قديما يوافق اليوم الأول (نوروز) من السنة الشمسية الإيرانية التى كانت تبدأ إذ ذاك وسط الصيف فى ٢١ يونيو . ولما كان يوم النوروز قد قدم فى العصر الإكمينى إلى ٢١ مارس وهو يوم الربيع الذى يتعادل فيه الليل والنهار أصبحت الإمبراطورية تحتفل بكل من اليومين وقد استمر الاحتفال باليوم الجديد (٢١ مارس) فى فارس بينما استمر الاحتفال باليوم القديم (٢١ يونيو) فى مصر وبعض الأقاليم الغربية ، ولكن هذين اليومين اعتبرا أيضا الوقت الذى يحق فيه دفع الخراج . وقد سجل لنا المؤرخون فى أوقات مختلفة أن ما جرى عليه الفرس من تبادل الهدايا يوم النوروز ظل سائدا أيام المسلمين كما بقى من مظاهر احتفال الساسانيين أيضا ذلك اللعب الخشن بالخيول الذى ظل يمارس فى شوارع مدن العراق ومصر . وفى أثناء هذه الاحتفالات الصيفية الصاخبة لم يكن يجرؤ رجل أنيق الهندام على أن يخرج إلى الشوارع العامة دون أن يخاطر بوقاره . ولا يزال الأقباط فى مصر يحتفلون بالنيروز على أنه مطلع العام الجديد وإن كان هذا اليوم قد أصبح الآن يوافق اليوم العاشر أو الحادى عشر من سبتمبر نتيجة لما حل بالتقويم من اضطراب .

ولقد حلت الاستقراطية العربية محل الفارسية فى المجتمع الذى كان يحكمه الخلفاء الأمويون ، ولكن الأمر قد تغير عند ما أخذ العباسيون مكان الأمويين فقد أوضح العباسيون بنقلهم عاصمة الخلافة من دمشق بسوريا إلى بغداد بالعراق عزمهم على أن يصبحوا أمراء للمؤمنين عامة لا للمسلمين من العرب وحدهم كما بينوا عزمهم على معاملة غير العرب بنفس التقدير الذى ظل حتى ذلك الوقت وقفا على العرب دون سواهم.

ولما كان الخلفاء الجدد أنفسهم يجرى فى عروقهم دم فارسى فقد أصبح تطبيق هذا المبدأ يعنى فى الواقع شيئاً من التميز للفرس . ولقد سخوا فى تعيين حدود فارس فاعتبروا من أهلها قبائل تتكلم التركية كانت تقطن فيما وراء نهر جيحون ، وكذلك رجالا من العرب الذين استقروا فى خراسان أثناء الفتح الإسلامى وبعــده . وهم فى اتجاههم هــذا كانوا يسيرون مع الرأى السائد الذى حدده الفقيه الماوردى فى القرن الحادى عشر وهو أن الرابطة بين العرب كانت تقوم على قرابة الدم بينما كانت الرابطة بين غير العرب تقوم على التقارب فى الوطن أو المصلحة الجنسية .

وكان من الطبيعى أن العباسيين ـ نظراً للأصول التى كانوا ينتمون إليها ـ اعتبروا امبراطوريتهم استمراراً لإمبراطورية الساسانيين كما اعتبروا مكانهم منها مطابقاً تمام المطابقة لمكان الساسانيين من أمبراطوريتهم . وكان الفارق الرئيسى بين العباسيين والساسانيين أن الإســلام أصبح دين الدولة بدلا من الزردشتية وأن العباسيين كانوا على رأس الإسلام كما كان ملوك الفرس رؤساء للدين الزردشتى من قبل، وكان خليفة بغداد يدعى بحامى المؤمنين الغيور وحارس السنة وذلك على العكس من الأمويين الذين يصورهم مؤرخو العصر العباسى بصورة رجال ماديين متعلقين بالدنيا غير متدينين . ولم يتوان أحــد من العباسيين عن التذكير بأنه من آل النبى وأنه يلبس بردة النبى التى ورثها عنه . وقد صيغت قوانين الإسلام لتلائم حاجات الدولة وتم الجمع بين العقيدة والمُلك ووضعا على نفس القاعدة التى كانا عليها فى إيران أيام الساسانيين وهى التى كثر ثناء الفردوسى عليها فى كتابه الشاهنامه .

وهناك مثال ثابت للربط الوثيق بين أمور الدين وأمور الدنيا يتجلى فى تصور المسلمين للقاضى، فهو أولا رجل عالم بالقرآن والحديث ولــكن وظيفته هى أن يحكم بين

الناس فى دور القضاء حتى ولو كانت هذه الدور تنظر فى قضايا مدنية، وإن وجه الشبه لواضح بينه وبين الموبد الذى كان يمارس القضاء فى ظل الدين الزردشتى .

واقد كان من بين الساسانيين من جعلوا من أنفسهم أشباها لله GodIike فى صورهم المنقوشة على نقودهم . كذلك كان من بين العباسيين من ادعى أمجادا إلهيـــة أو من اعتُرف له بمثل هذه الأمجاد، وقد حاول هؤلاء أن يحيطوا أنفسهم بجو تشيع فيه الرهبة المنبعثة عن الإكبار تلك التى يقول عنها جيبون Gibbon « إن البعد والغموض هما اللذان يستطيعان الإبقاء عليها فى نفوس الناس أمام قوة وهمية لا حقيقة لها إلا فى خيالهم »، وقد توصلوا إلى ذلك باتّباع الوسائل التى لجأ إليها الساسانيون من قبل فأخفوا أنفسهم عن أعين الناس مستخدمين إلى جانب الأستار وغيرها من الأدوات عددا كبيرا من الحراس ورجال البلاط ليحولوا بين الناس وبين الوصول إلى رؤسائهم وهو أمر كان العرب يعتبرونه حقا لهم . وكان أشد من يبعث الرعب من بين أتباع الخليفة حرسه الخاص الذى كان يضم بينه رجـــلا أو بضعة رجال ينفذون أوامره فى الحال وبدون مناقشة مهما كانت قسوة هذه الأوامر . ولا يستطيع أحد قرأ كتاب ألف ليلة أن ينسى الشخصية الأثيمة التى تتمثل فى مسرور الخادم الذى لم يكن الرشيد يظهر فى مكان عام بدونه . ولعل مما تجدر ملاحظته هنا أن مسرورا هذا كان تركمانيا من فرغانه وليس — كما شاع القول عنه — زنجيا .

وقد كان الجـلاد رمز السلطة المطلقة التى كان يشهرها الملك الإيرانى على أرواح رعاياه وقد ادعى العباسيون أيضا الحق لأنفسهم فى ممارسة هذه السلطة المطلقة . وقد اعترف الناس لهم بهذا الحق على أى حال وكان الحـكم بالإعدام ينفذ بالقرب من دار القضاء ولـكن كان هناك أفراد لم يؤمنـوا بحق العباسيين فى السلطان المطلق وإن كانوا لم يعلنوا رأيهم هذا ويتجلى لنا ذلك فى حوار رواه الطبرى . لقد أرسل المنصور

أحد مواليه لاغتيال رجل يدعى فضيلاً[1] ـ وكان المنصور يحتفظ بهـذا المولى لمثل هذه المهمة ـ وذلك لأن المنصور كان قد اتهم فضيلا هذا ـ دون أى دليـل ـ بأنه يعبث بابنه الصغير جعفر . وعند ما علم جعفر بهذه الجريمة ـ ولم يكن يدرى أنهـا ارتـكبت بأمر أبيه ـ قال لأحد رفقائه : «ما يقول أمير المؤمنين فى قتل رجل دين عفيف بلا جرم ولا جناية » فـكان الجواب : « هو أمير المؤمنين يفعل ما يشاء وهو أعلم بما يصنع » فقال جعفر « يا . . . . .[2] أكلمك بكلام الخاصة وتـكلمنى بكلام العامة »[3] ومن المحقق أن المنصور كان قوى الإدراك لحقوقه ومكانته وقد قال فى وصية له إلى ابنه وخليفته المهدى : « إياك والدم الحرام فإنه حوب عنـد الله عظيم ودافع عن حقك فى الخلافة ولا تدع على الأرض أحداً لا يقر بحقك فيها أو يخلع عن نفسه طاعتك » .

وقد ذكر المنصور أنه يحتاج إلى أربعـة رجال عدول لتصريف الشئون المدنية للخلافة ، أولهم قاض لا يستطيع أحـد أن يوجه إليه أى لوم ، وثانيهم محتسب يأخذ للضعيف حقه من القوى، وثالثهم صاحب خراج (جابى للضرائب) يأخذ من النـاس ما عليهم دون أن يظلمهم ثم صاحب بريد ينبئ الخليفة بصدق عما يفعله كل من هؤلاء. ونحن إذا صرفنا النظر عن المؤهلات التى كان ينبغى توفرها فى هؤلاء العمال وجدنا أنهم يشبهون بعض الموظفين الذين كانت تتألف منهم الإدارة المدنية عند ملوك الفرس وقد سبق أن ذكرنا شيئاً عن القاضى والمحتسب وصاحب الخراج . أما صاحب البريد فيمثل نظام البريد الذى أخذ عن النظام الذى كان معمولا به فى كل من الدولتين البيزنطية والإيرانية وكان هـذا النظام ييسر نقل التقارير عما يحدث فى الأقاليم إلى

---

(١) هو فضيل بن عمران من أهل الـكوفة وكان المنصور قد ضمه إلى ابنـه جعفر وجعله كاتبه وولاه أمره . المترجم .

(٢) فى النص عبارة لا يليق ذكرها هنا .

(٣) القصة فى الطبرى (جزء ٣ ، قسم ١ ، ص ٤٣٩ ، حوادث عام ١٥٨) المترجم .

العاصمة عن طريق رسل عاجلين كانوا يستبدلون فى المنازل التى كانت قائمة على الطرق الممتدة من الأقاليم إلى العاصمة ، وكان هؤلاء الرسل يرجعون ومعهم أوامر الخليفة أو زائر من ذوى الشأن . ولقد قبست اللغة العربيـة من اللغة الفارسية مصطلحات تتعلق بنظام البريد دخلت محورة فى لغة العرب فأصبح فى هـذه اللغة ألفاظ فارسية « للرسول » و « الرسول المترجل » و « الدليـل » و « حصان البريد » و « سجل الرحلة »[١] . وفى أوائل العصر العباسى ألفت باللغـة العربية مجموعة كاملة من كتب المسالك والممالك ليسترشد بها موظفو البريد فى أداء عملهم، ولهذه الـكتب أهميتها اليوم إذ أنها تمدنا بمعلومات عن الأحوال الجغرافية والاقتصادية للأقاليم التى كانت تقع على جوانب الطرق والبلدان التى كانت هذه الطرق تمر خلالها .

وهناك موظف آخر لم يسبق لنا ذكره على الرغم من أنه كان الساعد الأيمن للخليفة فى إدارة الحـكومة المركزية ، وذلك هو الوزير . وليس من المتفق عليـه إن كان الوزير فى العصر العباسى يماثل فى وظيفته ذلك الموظف الذى كان يعمل فى الحـكومة الساسانية والذى اصطلح الأدب الفارسى الإسلامى على تسميته بالوزير أم لا . فهذا الأدب تـكثر فيه الإشارة إلى بزرجمهر العظيم ، وزير أنوشروان العادل ، ذلك الوزير الذى يمثل شخصية تبعث الإعجاب إلى درجة تجعلنا نعدها بحق صورة مشخصة للفضائل لا مخلوقاً من لحم ودم . وسواء أكان هـذا الرجل إنساناً خيالياً أم لا فإن من المحقق أن الهالة القدسية التى أحاط بهـا ملوك الفرس أنفسهم خلقت الحاجة إلى وسيط بين هؤلاء الملوك وبين العالم الخارجى . وقد كان هـذا الوسيط قديماً هو « كبير المنفذين » (وزرك فرماندار) الذى كان ينفذ أوامر الملك وهو موظف ذو كفاءات متعددة يستطيع أن يوجه أية إدارة من إدارات الدولة سواء أكانت

(١) السجل الذى تسجل فيه أسماء المسافرين « والطرود » المنقولة .

مدنية أو عسكرية . ويبـدو أن كبير الـكتاب قد جمع اختصاصات هذا الموظف فى أواخر عهد الساسانيين .

وكان ينفذ سياسة الأمويين فى إدارة دفة الحـكم كاتب يشبه فى وظيفته رئيس البلاط فى دول أوروبا أثناء القرون الوسطى. ولقد أحلّ العباسيون الوزير محل الـكاتب ويكاد يكون من المحقق أن كلمة « وزير » هذه فارسية الأصل وقد وردت فى القرآن بمعنى « المساعد » فى الآية التى جاءت على لسان موسى وهى قوله تعالى : « واجعل لى وزيراً من أهلى هارون أخى » ويشبه فى الواقع المساعد الحـكومى عند بولونيوس Polonius . وقد عُين يحيى بن خالد البرمكى كاتباً ووزيراً لهارون فى شبابه قبل أن يصبح خليفة ويلقب بالرشيد . ويبدو أن المهام التى عهد بهـا إلى يحيى فى وظيفته كانت مهام مدنية .وذلك على الرغم من أنه كان أحد المحاربين الذين نقلوا التاج إلى العباسيين .

إن أسرة الوزراء البرامكة التى بدأها يحيى جاءت فى الأصل من بلخ (بقتريا) حيث كان أبناؤها يعملون سدنة لمعبد النوبهار البوذى[١] . وكانت هذه السدانة وراثية فيهم . ولـكن على الرغم من أنهم لم يكونوا زردشتيين فإن عواطفهم وتقاليدهم كانت إيرانية ويتجلى ذلك فى موقفهم من مواطنيهم واهتمامهم بالاحتفاء بأعياد إيران القومية. ويرجع إليهم الفضل فى ابتداع عدد من الدواوين الحـكومية أو النهوض بها وقد ظلت هذه الدواوين تسيطر على الإدارة المركزية فى بغداد مدة مائة وخمسين عاما بعد زوال سلطانهم . ولم يختف النظام الذى وضعوه إلا حينما تلاشت قوة الخلفاء وأصبح أمير المؤمنين بوقاً يردد ما يمليه عليه أمراء البويهيين اللصوص الذين جاءوا من منطقة

---

(١) ليس من البعيد أن تـكون السبحة البوذية قد جاءت إلى العرب عن طريق فارس ومنهم انتقلت إلى أوروبا .

بحر قزوين وأعلنوا لهم نسباً يرجع بهم إلى آدم عن طريق ملوك الفرس القدماء .

كانت الخلافة العباسية فى ذلك الوقت قد هوت إلى الحضيض ولكنها قبل ذلك بكثير وقعت فى قبضة الحراس التركمان الذين لا يستطيع المرء أن يقول إن الخلفاء استأجروهم فإن هؤلاء الخلفاء كانوا يدفعون للحراس الثمن لحمايتهم . ولقد كان هؤلاء التركمان عبيدا أحضرهم الخليفة المعتصم أول الأمر إلى فارس ليكونوا حرسه الخاص . ولكن سرعان ما أصبح خلفاء المعتصم مضطرين إلى الخضوع لتهديد حراسهم الذين دأبوا على تجنيد بنى جنسهم حتى أصبحوا يكونون قسما هاما من الجيش العامل الذى كانت الدولة تحتفظ به .

كان هؤلاء البدو الخشنون يتوقفون بعض الوقت فى أراض إيرانية وهم فى طريقهم من موطنهم بآسيا الوسطى إلى العراق وهناك كانوا يتأثرون تأثرا كبيرا بتقاليد الفرس الحربية ويأخذون عنهم الخطط والاصطلاحات العسكرية فأصبحوا نتيجة لذلك يلبسون القباء ويحملون الرمح الفارسى بين أسلحتهم ويستخدمون جعبة فارسية فى حمل رماحهم (والفرس يسمونها « تركش » ولعل هذه الكلمة أصل للكلمة الفرنسية Carquois) . وكان الضباط والجنود يتلقون جامكيات (رواتب للثياب مأخوذة من « جامه » وهى كلمة فارسية معناها ثوب) يدفعها لهم ديوان الجاكرية (ديوان العبيد ، « جاكر » كلمة فارسية معناها عبد) وكان هذا الديوان فى بغداد ومهمته الإشراف على العبيد .

وقد والى الفاطميون وغيرهم من الأمراء الذين انفصلوا عن الخلافة العباسية الاحتفاظ بجيش عامل من العبيد وظهر بين هؤلاء من آن لآخر أشخاص أقوياء أصبحوا سادة للدول التى كانوا يخدمونها . ومن أبرز من ظهر من هؤلاء أحمد بن طولون الذى أثر فى مجرى التاريخ الإسلامى، فقد أرسل إلى مصر ليكون عاملا عليها

من قبل العباسيين ولكنه استطاع أن يجعل من نفسه حاكما مستقلا لمصر والشام وأن ينشىء الدولة الطولونية .

إن سلطنة المماليك فى مصر والشام تمثل لنا دولة العبيد فى أكثر صورها نموا واكتمالا فقد كان سلاطين المماليك الذين ولدوا عبيدا يستخدمون جموعا غفيرة من العبيد الذين دربوا على أعمال القتال أو الخدمة المدنية المنظمة وذلك لإحكام السيطرة على رعاياهم . لقد كان نظام الحكم عند المماليك يتسم بملامح فارسية الأصل أهمها نظام البريد كما ان عددا كبيرا من موظفى الدولة كانوا يحملون ألقابا فارسية . واتبع المماليك فى بيوتهم بعاصمة السلطنة تقاليد الفرس التى كانت تقوم على المحافظة على مظاهر الترف والإسراف فى مراعاة المراسم وقواعد السلوك . كما كان هناك إصرار من جانب هذه الدولة على المبالغة فى إعظام السلاطين فكان السلطان إذا ظهر يركع الحاضرون كما يفعلون حين يؤدون الصلاة .

وكانت الحاشية السلطانية مقسمة إلى أقسام دقيقة التنظيم يطلق على كل منها اسم فارسى كما كان يطلق على رؤساء هذه الأقسام أيضا أسماء فارسية . والمفهوم أن الفاطميين اقتبسوا تنظيم الحاشية على هذا النحو من النظام الذى شاع فى البلاط الفارسى فترة من الزمان . وكان كثير من الموظفين — وبخاصة من كان منهم قائما على خدمة السلطان — يحملون شارات تدل على وظائفهم ، فكان الدوادار (الكاتب) يحمل صندوق أقلام وكان مرافق السلطان الخاص يحمل قوسا وخازن ثيابه يحمل حقيبة صغيرة وقائد جيشه يحمل حدوة حصان وذواقة طعامه يحمل قرصا اسطوانيا يرمز إلى المائدة والمشرف على لعبة الكرة والصولجان يحمل صولجانا . وبمرور الزمن عدل عن هذه الأشياء المحددة وأصبح هؤلاء الموظفون يرتدون شارات أو دروعا تدل على هذه الوظائف ، وقد حمل الصليبيون معهم بعض هذه الشارات والدروع إلى أوروبا وهناك أخذ عنها الأوروبيون أسس ما اجتمع لهم من ذلك فى العصر الحديث . ومما

هو أكثر أهمية لبحثنا هـذا أن الشارات كانت تسمى بأسماء فارسية وكذلك المماليك الذين كانوا يلبسونها وإن الـكلمة العربية (رنـك) بمعنى (شارة) وهى التى اقتبست من الـكلمة الفارسية (رنـك) بمعنى (لون) ربمـا تـكون أصلا للـكلمة الإنجليزية rank وللألوان الخاصة بالواحدت العسكرية وغيرها .

وقد روى أنه كانت تقام احتفالات نخمة عند مايذهب هؤلاء السلاطين ليمارسوا لعبة الـكرة والصولجان وهى اللعبة الفارسية التى أولعوا بها . فمن أمثلة ذلك أن بيبرس ــ وهو السلطان الذى صدّت جيوشه تيار الغزو المغولى وحالت دون وصوله إلى مصر ــ اعتاد أن يلعب ثلاثة أشواط من هذه اللعبة يوم السبت من كل أسبوع من الموسم الذى يتلو فيضان النيل، فـكان يخرج عند الفجر من الإصطبلات الملـكية يتبعه موكب من الركبان يلبسون الثياب الزاهية ويمضى موكب السلطان بين الجموع الهاتفة إلى الأرض التى أنشأها أحد خلفاء صلاح الدين بالقرب من منطقة باب اللوق الحالية بمدينة القاهرة . ولم يكن فى مثل هذه الأوقات يصطحب معه الظلة الملـكية (چتر) التى كان يستظل بها عند ما يخرج فى مواكب طابعها الجد .

إن دراستنا قد اقتصرت حتى الآن على الأمراء وغـيرهم من الشخصيات الهامة الذين كان الاتصال الدولى بينهم ميسورا على الدوام سواء فى وقت السلم أو الحرب. لقد تم التعارف على وجه من الوجوه بين العرب والفرس من جميع الطبقات وذلك عن طريق البضائع التى كانوا يتبادلونها على أقل تقدير . لقد كان التجار منذ زمن سحيق ينقلون منتجات الأقطار البعيدة والقريبة إلى بلاد العرب التى كانت فى قديم الزمن تقوم بها أسواق عالمية رائجة أو إلى الموانى القريبة منها مثل البصرة التى تقع على الخليج الفارسى وفى مقابل ذلك كانت القوافل تذهب كل عام من قلب الجزيرة العربية إلى إيران وغيرها من البلاد حاملة العطور التى كانت تستخدم فى البخور وهو «عطر بلاد العرب»

(الذى ما كان ليعطر يدى ليدى ما كبث)(١) وكذلك المنسوجات الكتانية وغيرها من بضائع الترف. وقد استطاع أبو سفيان — وهو رجل من قبيلة النبى محمد حاربه بلا هوادة عندما أعلن نبوته ودعا الناس إلى الإيمان به — أن يجمع ثروة لنفسه ولغيره من رؤساء قريش وذلك بتقديمه المال الذى كان يستخدم فى تمويل صفقات تجارية مع بلاد الفرس .

وقبل بعثة النبى بقرنين أو أكثر ، كانت هناك سوق معروفة فى الحيرة التى كانت عاصمة لمملكة عربية صغيرة أنشأتها أسرة اللخميين على شاطىء الفرات فى منطقة غير بعيدة من بابل القديمة . ولقد سلك ملوك هذه الأسرة — الذين كانوا يدورون فى فلك الملوك الساسانيين — نهجا فى معيشتهم يشبه نظام الحياة فى البلاط الفارسى وعنهم أخذ التجار والحجاج والشعراء وغيرهم من الراحلين أفكارا حملوها معهم إلى مدن الجزيرة العربية وإلى أماكن أخرى ، كما حمل هؤلاء أيضا أشياء أعجبتهم من صنع فارس ونحن نرى الأسماء الفارسية لهذه الأشياء متغلغلة حتى فى أقدم ما وصل إلينا من الأدب العربى .

وعندما جاء الإسلام كثرت الاتصالات وازدادت توثقا . لقد كان أكثر سكان الجزيرة العربية حتى ذلك الوقت بدوا ينقسمون إلى قبائل مفككة كان أبناء كل منها يتمتعون بقدر وافر من الحرية فى أداء واجباتهم القبلية واختيار معبوداتهم. ولم تكن حاجاتهم المادية تكاد تعدو ذلك القدر الضرورى لحياة الناس، وكان القسط الرئيسى من نشاطهم يصرف فى موالاة الحروب الموروثة . وعند ما تملكهم الإسلام وبث فيهم حياة جديدة فاندفعوا عبر الحدود التى كانت تحيط بكل من الدولتين الفارسية والبيزنطية وجدوا أنفسهم بين أقوام اعتادوا حياة الاستقرار بشتى صورها منذ أزمنة

---

(١) إشارة لما ورد على لسان ليدى ما كبث فى رواية ما كبث لشاكسبير .

بعيدة ورأوا لدى هؤلاء الناس من ألوان الرقى والعادات ورغد العيش ما بدا لهم مرغوبا فيه من وجوه عديدة .

ولقد كان العرب الغزاة ــ كغيرهم من بناة الدول ــ على استعداد لتقبل أفكار رعاياهم الجدد فحرص الكثيرون منهم على أن يستخدموا الأدوات التى كان يستخدمها الفرس وأن يعيشوا بنفس الطريقة التى كان يعيش بها هؤلاء. وقد كان أبناء الأسر الكبيرة ــ وهم الذين أتيح لهم دخول بيوت الفرس الأغنياء ــ أسرع الناس إلى التعلق بما وجدوه فى تلك البيوت من وسائل الترف. ولم يكن قد مضى على الغزو إلا سنون قليلة نسبيا حين انصرف الشبان الذين كانوا ملحقين بالبلاط الأموى عن لبس الثياب التى كانت تغزل فى بيوتهم واستبدلوا بها ثيابا من الحرير المحلى الثمين صنعت على طراز فارسى وأقبلوا على أطايب الطعام الفارسى واتبعوا آداب الفرس على المائدة التى كانت هى أيضاً من بين ما اقتبسوه عن الفرس من متاع .

أما رجال الجيوش الغازية الذين وصلوا إلى شرقى خراسان فقد استقروا بين أبناء تلك المنطقة وسرعان ما قلدوهم فلبسوا السروال بدلا من ثيابهم التى كانت تشبه الجلابيب واعتادوا شرب النبيذ والاحتفال بالأعياد الفارسية . ولم يمنعهم هذا من موالاة اتصالهم بمدينتى العسكر بالعراق وهما المدينتان اللتان بدأ منهما هجوم هؤلاء الغزاة وأصبح من الأمور المعتادة أن يجرى الحديث باللغة الفارسية فى أسواق الكوفة والبصرة وما حل زمن الوقائع الأولى التى التحم فيها العباسيون مع الأمويين حتى كان جنود العرب فى خراسان يتكلمون الفارسية بقدر ما يتكلمون العربية .

لقد أراد المنصور بإنشاء بغداد أن يقرب بين شرقى دولته وغربيها . كما أصرّ ــ فوق ذلك ــ على أن يهيىء لعاصمته وسائل الراحة التى تليق بمدينة كبيرة . وعلى الرغم من أننا لا نستطيع أن نعرف إلى أى حد انتفع الفقراء من الأهالى بتلك الوسائل فإن لدينا من الشواهد ما يدل على أنه حتى الموظفين الحكوميين الذين لم يكونوا

من ذوى الأهمية كانوا يعدون هذه الوسائل المستحدثة من لوازم الحياة . ومما عده الطبرى أمراً يستحق التعليق أن أحد موظفى الأقاليم أُمر بالذهاب إلى الخليفة فأحضره البريد ، وكان متاع هـذا الموظف يشتمل على سجادة صلاة فارسية وحشيّة ووسائد وإبريقا وطستا وفوق ذلك كله من وسائل الترف اشنانداناة[1] ويبدو أصلها الفارسى واضحاً فى اسمها[2] ولعل المنصور ما كان ليوافق على أن ينعم تابع بمثـل هذا الترف لو أنه علم به إذ أنه كان مشهوراً بالبخل . وقد أمر ذات مرة أن يُجلد أحد كتابه فى حضرته لأنه كان يلبس سروالا صنع من قماش عدّه المنصور غالى الثمن ، كما أنه طبق سياسته الاقتصادية على نفسه وتمسك بما ينهى عن الإسراف من شرائع الإسلام ، دينه الذى كان يعد نفسه رئيسا له بوصفه خليفة المسلمين . وعندما ذهب الطبيب النصرانى الشهير بختيشوع من مدرسة جنديسابور بجنوب غربى فارس لزيارة قصر المنصور طلب نبيذاً ليشربه مع عشائه ولـكنه أخبر أن النبيذ لايشرب على مائدة الخليفة فاكتفى بشرب ماء دجلة وأعلن بعد ذلك فى لباقة أنه فضل هذا الماء على النبيذ[3] .

ولقد اقتفى المنصور تقاليد الساسانيين فى الناحية الدنيوية . فـكان يصر على ألا يظهر خواص أتباعه أو رجال بلاطه فى مكان عام إلا إذا لبسوا أثمن أنواع الحرير المطرز وتعطروا بأجمل المطور[4] . وكانت مبانيه الجديدة من طراز فارسىّ ويظهر لنا من

---

(١) أُشْنَانْدَانه : أُشْنَان ، إِشْنَان كلمة فارسية تطلق على نوع قلوى من الحشائش وكذلك على الرماد الذى يتخلف من إحراق هذه الحشائش وكان هذا الرماد يستخدم فى غسل الأيدى والثياب « دانه » معناها وعاء فالكلمة كلها معناها الوعاء الذى كانت تحفظ فيه هذه المادة. المترجم.

(٢) هذه القصة مذكورة فى الطبرى ــ ج ٣ ، قسم ١ ص ٤١٦ . المترجم .

(٣) هذه القصة مروية فى المصدر نفسه ص ٤٢٣ . المترجم .

(٤) روى الطبرى أن المنصور كان يأمر أهل بيته بحسن الهيئة وإظهار النعمة وبلزوم الوشى والطيب فإن رأى أحداً منهم أخل بذلك أوأقل منـه قال : يا فلان ما أرى وبيص الغالية فى لحيتك (طبرى ج ٣ ، قسم ١ ، ص ٤٣٨) . المترجم .

الاصطلاحات المعمارية التى كانت تستخدم فى اللغة العربية أنه يرجع إلى البنائين الفرس الفضل فى إدخال خصائص معمارية جديدة فى العمارة الإسلامية مثل العقود والقباب والأروقة والدرابزين والشبابيك وطاقات التهوية وميازيب الماء . كما أنهم أضافوا إلى ما يتوفر للمنازل الكبيرة من وسائل الراحة الخارجية البساتين التى كانوا ينشئونها على طريقة بلادهم والأكشاك والنافورات. أما فى داخل المنازل فإنا نرى أشياء كثيرة أخذت عن إيران مثل الموائد والمقاعد والحشايا والوسائد والكلل وكذلك المنسوجات التى تعلق على الحوائط والبسط . ونال المطبخ أيضا قسطه من العناية فأدخل فيه الفرن والمقلاة والصحاف والقصاع والهاون والمدقة . هذا إلى جانب طرق إعداد الأطعمة الشهية التى كانت من قبل سرًّا مقصوراً على نساء الفرس ولكنها وجدت سبيلها فى ذلك الوقت إلى كتب الطهى العربية .

وعندما ظهرت أمثال هذه السلع فى الأسواق كثر الإقبال عليها واستحث ظهورها الصناع المحليين لمنافستها . وعلى هذا فقد لقيت صناعات الغزل والنسيج والصباغة والأشغال المعدنية تشجيعا عاجلا كما لقيت الفنون الزخرفية وما تستلزمه من كيمياء وتعدين مثل هذا التشجيع . وشاعت التصميمات الفارسية فيما كانت تنتجه أنوال العرب ومصانعهم . وكان كثير من المواد الخام التى تحتاج إليها هذه الصناعات يُنتج محليا دون شك ولكن الحديد المطاوع والصلب وأنواع معينة من البرنز كانت تستورد من إيران ، كذلك كان يستورد من هناك اللازورد الجميل والفيروز اللذان أضفيا لونهما البديع على ما أنتجه الشرق الأوسط من أدوات مكسوة بالميناء أو خزف مغطى بالطلاء الزجاجى . والكهرمان أيضا هو أحد الأشياء التى تستحق الذكر من واردات فارس ، واسمه بالفارسية الكهربا (جاذب القش) وقد دخل هذا الاسم فى اللغة العربية التى يتحدثها المصريون المحدثون وصار معناه فى هذه اللغة الكهرباء electriciry وكذلك الترام الكهربائى .

وقد عرف العرب من الفرس الكثير من العقاقير والأدوية ، ذلك لأنه على الرغم من أن كثيرا من مصطلحات علم التشريح فى كتب الطب العربى ترجع إلى أصول يونانية أو لاتينية فإن ما ذكرته هذه الكتب فى علم الأدوية تشيع فيه الأسماء الفارسية . وليس يبدو هذا الأمر غريبا على الإطلاق إذا تذكرنا أنه قامت فى جنديسابور مدرسة من أهم مدارس الطب فى الشرق الأوسط وظلت تمارس عملها أكثر من أربعة قرون . وجنديسابور هذه كانت بإقليم خوزستان وعاصمته الأهواز . وكانت أسرة بختيشوع ـ الطبيب النصرانى الذى سبق ذكره ـ مستقرة هناك وقد عمل فى هذه المدرسة ستة أجيال من أسرة بختيشوع حافظوا على مكانتها . ولم يقف تسلسل الطب الفارسى عند هؤلاء فإن من بين الفرس الذين ساهموا فى إذاعة شهرة علوم العرب بأوروبا أثناء القرون الوسطى الرازى (نسبة إلى الرىّ)Rhazes وعلىّ ابن عباس المجوسى Haly Abbas وابن سينا Avicenna الذى كان من أهل همدان .

ولعل الورق المصنوع من القماش هو أهم سلعة تلقاها العرب عن طريق إيران . كان هذا الورق بطبيعة الحال من اختراع الصين وقد دخل إيران حوالى عام ٧٥١ حين أسرت قوات المسلمين رجلا أو رجلين من صناع الورق فى اشتباك لها مع قوات الصين . وقد تعلم الفرس منهما هذه الصناعة بعد أن ظلوا حتى ذلك الوقت يستخدمون الرق مادة يسجلون عليها وثائقهم . ومما يتصل بهذا الأمر قصة تروى عن الخليفة المنصور جاء فيها أنه أمر خزنته أن يبيعوا ما كان مختزنا لديه من الورق المصرى وأعلن أنه منذ ذلك الحين سوف يقتفى أثر الفرس فلا يستخدم من المواد إلا ما تنتجه بلاده .

ومما يتصل بصناعة الكتب فن التجليد الذى تقدم كثيرا بفضل طرق الفرس فى دباغة الجلود ، تلك التى زادت من لينها وجعلتها أطوع فى يد الصانع وأكثر

قابلية للزخرفة . فنحن نسمع عن كتب كان يمتزبها أصحابها كتبت بمداد الذهب على الورق الصيني وجلدت بجلد جميل مزركش ومحلى بالأحجار الثمينة وقطع الذهب .

وبينما كانت أدوات الترف المستوردة والعادات الأجنبية تزداد انتشارا كان الدين الإسلامي يتخذ شكلا سلفيا محافظا ، وقدأدى هذا إلى أن الطبقة الفقيرة ـ التي كانت بوجه عام أكثر الطبقات تمسكا بقوميتها العربية ودينها ـ مالت إلى كره الترف والعادات الأجنبية وطالبت بالعودة إلى التقشف الذي كان عليه العرب في سالف العهد . ويتجلى لنا شعور هذه الطبقة في خطب القادة الدينيين ووصايا الوعاظ الذين عاشوا حينذاك ويمكننا أن نستقى من هذه الخطب والوصايا قدرا كبيرا من التاريخ الاجتماعي لهؤلاء الناس . إن كتب الدين الإسلامي تكاد تجمع على ذم الموسيقى والألعاب لأنها ـ على مايفهم من هذا الذم ـ تصرف الناس عن غيرها من الأمور الهامة . وعلى الإيرانيين كانت تلقى ـ في غالب الأمر ـ تبعة إدخال هذه الأمور إلى المدن العربية . ومن المحقق أن هؤلاء الذين ذُكروا عند الحديث عن الموسيقى كانوا رجالا جاءوا ليحترفوا فنونا أخرى أو ليعملوا موسيقيين محترفين .

وعندما رأى عبد الله بن الزبير ـ الذي كان ينازع الأمويين الخلافة ـ أن الكعبة في حاجة إلى الترميم استأجر بنائين من الفرس واليونان للقيام بهذا العمل . ولقد كان هؤلاء كغيرهم من الصناع يتغنون أثناء قيامهم بالعمل ، ويبدو أن أنغامهم قد أعجبت السكان المحليين . ولقد نسيت الأغاني التي أنشدها اليونانيون ولكننا نجد كتب الأدب العربي تشير على الدوام إلى موسيقى الفرس الذين كان البعض منهم قد أحضروا معهم آلاتهم الموسيقية وعلموا أهل مكة كيف يعزفون عليها . ولم يكتف المكيون بمجرد العزف فتعلموا كيف يصنعون آلات خاصة بهم وينشئون لأنفسهم مذهبا في الموسيقى . ومع هذا فإن أحد البغداديين اخترع آلة موسيقية في عام ٣٠٠ بعد الهجرة (٩١٢م) وأسماها باسم فارسي .

وفى عهد الأمويين كان أبناء الأسر الغنية حريصين على رعاية الموسيقى والرقص يذهبون فى تحمسهم لهذين الفنين إلى حد إحضار المغنين والراقصين من الرجال والنساء من فارس إلى دمشق وغيرها من المدن الواقعة تحت سلطانهم . وقد لازمهم هـذا التحمس عند ما أقاموا ملـكهم فى الأندلس بعد أن أخذ العباسيون مكانهم فى المشرق وأخرجوهم من بلاد الشام . وفى بلاط عبد الرحمن الثانى بقرطبة (٨٢٢ ـ ٨٥٢م) قوى تأثير مغن فارس يدعى زرياب (واجد الذهب) كان فى وقت من الأوقات أحد موالى الخليفة المهدى العباسى فأصبح هذا المغنى « نجما » فى ذلك البلاط وصارت ثيابه وسلوكه مثلا يحتذى كما أن ذوقه كان يعد حجة حتى فى فن الطهى .

أما فى الخلافة الشرقية فقد راجت سوق الموسيقى الفارسية إلى حد أن كثيرين من متعهدى الحفلات الموسيقية جمعوا ثروات طائلة . وفى كتاب الأغانى الذى ألفه أبو الفرج الأصفهانى إشارات كثيرة إلى الأجور العالية التى كانت تدفع للمغنين والعازفين المجيدين أو التى كان هؤلاء يتوقعونها . كما يحدثنا هذا الـكتاب أيضاً عن متعهد للحفلات الموسيقية ، كان أبوه فارسيا يدعى بسياردرم (كثير الدراهم) فيذكر أن هذا المتعهد أنفق قدرا كبيرا من المال فى بناء ملحق لداره لـكى تقام فيه حفلات موسيقية عامة .

وإلى جانب الموسيقى ذكر العرب أن لعبة الـكرة والصولجان والشطرنج والنرد كانت من بين وسائل الترفيه الأخرى التى أخذوها عن الفرس . وقد كان هارون الرشيد أول خليفة مارس لعبة الـكرة والصولجان ولـكن هذه اللعبة كانت قد أصبحت جزءا من ثقافة نبلاء الفرس قبل عصر هارون بزمن طويل . وقد نقل ابن قتيبة الـكاتب عن كتاب فارسى يسرد التقاليد الملـكية وكان هذا الـكتاب يتضمن قسما عن قواعد لعبة الـكرة والصولجان وأصولها وإشارات إلى طريقة لعبها وفى هذا القسم إرشاد اللاعب عن طريقة الضرب بالصولجان والسيطرة على الدابة كما أن فيه اهتماما

خاصا بقواعد السلوك التى ينبغى أن تراعى فى الميدان . (قال) «وقرأت فى الآيين : من إجادة الضرب بالصولجان أن يضرب الكرة قدما ضرب خلسة يدير فيه يده إلى أذنه ويميل صولجانه إلى أسفل من صدره ويكون ضربه متشازرا مترفقا مترسلا ولا يغفل الضرب ويرسل السنان خاصة وهو الحامية لمجاز الكرة إلى غاية الأرض ثم الجر للكرة من موقعها ، والتوخى للضرب لها تحت محزم الدابة ومن قبل لبتها فى رفق ، وشدة المزاولة والمجاشة على تلك الحال ، والترك للاستعانة فى ضرب الكرة بسوط والتأثير فى الأرض بصولجان والكسر له جهلا باستعماله أو عقر قوائم الدابة، والاحتراس من إيذاء من جرى معه فى ميدانه وحسن الكف للدابة فى شدة جريه ، والتوقى من الصرعة والصدمة على تلك الحال ، والمجانبة للغضب والسب ، والاحتمال والملاهاة، والتحفظ من إلقاء كرة على ظهر بيت وإن كان ست كرين بدرهم وترك طرد النظارة والجلوس على حيطان الميدان فإن عرض الميدان إنما جعل ستين ذراعا لئلا يحال ولا يضار من جلس على حائطة» (١).

وقد ذكرنا من قبل ولع السلطان بيبرس بهذه اللعبة، كما كان من بين المولعين أيضا رجل أكثر شهرة من بيبرس هو صلاح الدين. ومن الأشخاص الخرافيين الذين نسبت إليهم ممارسة هذه اللعبة الملك يونان الذى ورد ذكره فى كتاب ألف ليلة ، فقد لعب هذا الملك لعبة الكرة والصولجان وهو على ظهر الحصان وذلك حين نصحه بذلك الحكيم دوبان فكان أن شفاه من مرضه الدواء الذى كانت تشتمل عليه يد الصولجان .

أما عن لعبة الشطرنج فإنها ــ مهما يكن مصدرها ــ قد وصلت إلى العرب

---

(١) ابن قتيبة : عيون الأخبار . المجلد الأول ص١٣٣و١٣٤ . مطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٢٥ . المترجم .

عن طريق الفرس وقد أدى هـذا إلى أن تشكلت اللعبة بالشكل الذى ورثه العرب وورثوا معه بعض المصطلحات الفارسية . فقد بقيت كلة « شطرنج » اسما لهذه اللعبة (شاه وهى بالألمانية Schach) كما بقيت كلة شاه بمعنى الملك وبقى اصطلاح «الشاه مات» كما بقى الوزير اسما للقطعة التى يطلق عليها الانجليز اسم « الملكة »(فرزان أو فرزين، وهى بالفرنسية vierge) وكذلك بقى الفيل اسما للقطعة التى يطلق عليها الانجليز « الأسقف » (وازن بين كلمة فيل وكلمة fou الفرنسية) كما بقيت الطابية أوالعربة مسماة باسمها الفارسى « رخ » أما لعبة النرد التى كانت أكثر ذيوعا ـ وهى التى تسمى بالفرنسية tricrac ولعل هـذا الاسم يمثل صوت الزهر وهو يقرع الطاولة ـ فقد احتفظت بالأرقام الفارسية زمنا طويلا وقد عرفنا ذلك من عدة حكايات رواها كتاب الأغانى .

وكان الإصغاء إلى القصص إحدى وسائل التسلية التى ذاعت فى هـــذا المجتمع الذى ندرت فيه الكتب وقل عدد القراء . لقد كان القصص وغيره من الروايات من الأمور التى هاجمها علماء المسلمين الذين كانوا يعبرون عن رأى الدين ؛ وعدوها غـــير جديرة بانتباه الجادين من الرجال شأنها فى ذلك شأن الموسيقى فقد كان الجد يعد من أكبر الفضائل عند العرب . ومع هذا فإن فنّ رواية القصص كان من الأعمال التى لقيت على الدوام تقديرا عظيما كما كان هناك اهتمام كبير بالبحث عن مادة جديدة للقصص . بل إن جلساء النبى محمد تناقصوا لأن الكثيرين منهم ذهبوا ليستمعوا إلى خصمه النضر بن الحارث وهو يروى قصة رستم واسفنديار الفارسية.وقد قال النضر ـ عند ما علم بغضب النبى ـ « والله مايستطيع النبي أن يقص على الناس قصصا يفوق ماأرويه لهم». ولقد تبادل الرحالون من العرب والفرس الأخبار والأفكار والحكايات وذلك عندما كانوا يتلاقون للتجارة أو تجمعهم مناسبات أخرى ، ولعـل العرب قد

أخذوا عن الفرس قدرا كبيرا من الحكايات . ونحن لانستطيع أن ندعى أن جميع القصص التى وردت فى ألف ليلة قد أخذت عن فارس ولكن القصة التى يدور حولها الكتاب وما لها من أبطال فرس مثل شهريار وشهر زاد وغيرهم وكذلك بعض القصص التى وردت ضمن مجموعة ألف ليلة تحمل علامات واضحة من أصلها الإيرانى ولاحاجة بنا إلى أن نتوسع فى هذا الموضوع أكثر من ذلك لأنه يدخل ضمن نطاق البحث فيما ساهم به الفرس فى الأدب العربى .

بقى أن نذكر شيئاً عن الأثر الذى تركه فكر الإيرانيين وإدراكهم فى حياة المجتمع العربى . لقد شاعت فى الأيام الأخيرة نظرية تذهب إلى أن النبلاء والأغنياء من بين الفرس المنهزمين هم الذين اعتنقوا بحق دين العرب الفاتحين وأنهم فعلوا ذلك ليؤمّنوا أنفسهم . وتذهب هذه النظرية أيضا إلى أن جمهور الفرس تمسكوا بعقائدهم القديمة وتظاهروا باعتناق الدين الجديد ولكنهم طرحوا هذا الدين جانبا عندما أحسوا بمقدرتهم مما على أن يفعلوا ذلك . وما كانت فارس لتفتقر إلى القادة الذين يقودونها إلى هذا الارتداد فقد كانت على مدى القرون غنية بالرجال الذين ادعوا نزول الوحى الإلهى عليهم وطالبوا البشرية بأن تتجه إليهم . ويكفينا شاهدا على ذلك أن نذكر أسماء مانى والمانوية ومزدك (الثنوى الذى جدد دين زرادشت) وبابك الخرمى والمقنع الخراسانى وعبد الله بن ميمون القداح (الذى ينسب إليه إنشاء فرقة الإسماعيلية) من بين الأدعياء القدماء وأن نذكر اسم الباب من بين الأدعياء المحدثين .

هـــذه النظرية التى ذكرناها تحتاج فى إثباتها إلى مزيد من البحث . ولكننا نرى فى الوقت نفسه أن بحث السلطات الدينية عن الزنادقة فى وقت لم يكن فيه مفهوم الإسلام السنى قد اتضح دليل على بقاء العقائد الإيرانية وانتشارها فى المجتمعات العربية . فالزنادقة (وهـذه هى الكلمة الإيرانية التى كانت تطلق على الخارجين عن الدين) كانوا يظهرون فى أية طبقة من طبقات المجتمع . وقد ذكرت إحدى الروايات

أن الخليفة المأمون نفسه كان زنديقا. ولم يكن الاتهام الذى يوجه إلى الزنادقة ذا طبيعة ثابتة . ففى أيام الأمويين لم تكن تهمة الزندقة دينية بقدر ما كانت سياسية، فقد كانوا يتهمون إذ ذاك بأنهم كانوا معادين للخليفة رأس الإسلام ومن ثم لدولة الإسلام لأنهم لم يكونوا مقتنعين بالإسلام . أما العباسيون الذين اهتموا أكثر من أسلافهم الأمويين بالجانب الدينى للخلافة فقد كانت العقيدة محور الاتهام عندهم فالعباسيون ـ بتحريهم الدقيق للعقائد ـ استطاعوا أن يقضوا على أى إمكان للثورة السياسية بين هؤلاء الفرس الذين ربما أدى بلوغهم أرفع المناصب فى الدولة إلى بعث الشعور القومى .

وقد أنشئت إدارة ثابتة للتحريات بعد وصول العباسيين إلى الحكم بقليل . فقد عين الخليفة المهدى موظفين للإشراف على هذه الإدارة وحث ابنه وخليفته فى وصيته الأخيرة على أن يقضى على الثنويه ، الذين كانوا دعاة القومية الإيرانية . أما نسبة المأمون إلى الزندقة فلا يمكن أن يكون لها أساس سوى تحرره وتسامحه مع من كان الأتقياء من المسلمين يعدونهم منحلين . ومما يلقى الضوء على هذه المسئلة عبارة وردت على لسان أحد الزردشتيين عند ما نصحه الخليفة المأمون باعتناق الإسلام فقد قال الرجل للمأمون : «نصيحتك ياأمير المؤمنين مسموعة وقولك مقبول ولكنك ممن لا يجبر الناس على ترك مذاهبهم »[1] .

ويبدو أن اتباع العقائد الإيرانية كان فى عصر المأمون لونا من التظاهر فقد

(١) المقصود هنا هو يزدانبخت أحد رؤساء المانوية أيام المأمون وكان المأمون قد أحضره من الرى بعد أن أمنه فقطعه المتكلمون فقال له المأمون : « اسلم يا يزدانبخت فلولا ما أعطيناك من الأمان لكان لنا ولك شأن » فأجاب يزدانبخت بالعبارة المذكورة فى النص . (الفهرست : ص ٣٣٨ . طبعة أوروبا) المترجم .

كان من بين رجال الفكر فى بغداد رجل يدعى ابن زياد اتهم بالزندقة وقد سخر منه صديق شاعر بالأبيات الآتية :

يا ابن زياد يا أبا جعفر أظهرت دينا غير ما تخفى
مزندق الظاهر باللفظ فى باطن إسلام فتى عفّ
لست بزنديق ولكنما أردت أن توسم بالظرف(١)

ولقد تجلى تعلق الفرس بعقيدة آبائهم فى محيط يغلب عليه الإسلام وذلك فى محاكمة الأفشين القائد الفارسى الشهير . فإن المعتصم كان قد ندبه للقضاء على الزنديق بابك الخرمى ، ونجح الأفشين فى ذلك . ولكنه كان قد أثار غيرة منافسيه وعداوتهم فعملوا على إسقاطه باتهامه بالزندقة . فقبض عليه وحوكم على الرغم من خدماته للخليفة وكان أول الشهود الذين واجهوه مؤذن أحد المساجد ثم إمام المسجد فقد اتهماه بأنه كان قد ضربهما حتى عريت عظامهما من اللحم . وقد دافع الأفشين عن نفسه بقوله إن هذين الرجلين « بنيا مسجدا بأشروسنة فضربت كل واحد منهما ألف سوط وذلك أن بينى وبين ملوك السغد عهدا وشرطا أن أترك كل قوم على دينهم وما هم عليه فوثب هذان على بيت كان فيه أصنامهم يعنى أهل أشروسنة فأخرجا الأصنام واتخذاه مسجدا فضربتهما على هذا ألفا ألفا لتعديهما ومنعهما القوم من بيعتهم(٢) » .

فقيل للأفشين بعد ذلك : « ما كتاب عندك قد زينته بالذهب والجوهر والديباج فيه الكفر بالله » فأجاب بقوله : « هذا كتاب ورثته عن أبى فيه آداب العجم وما

---

(١) ومما ورد فى هذا المعنى قول أحد الشعراء :

تزندق معلنا ليقول قوم إذا ذكروه زنديق ظريف
فقد بقى التزندق فيه وصفا وما قيل الظريف ولا اللطيف

المترجم .

(٢) الطبرى ج ٣ — ص ١٣٠٩ . المترجم .

ذكرت من الكفر فكنت أستمتع منه بالأدب وأترك ما سوى ذلك ووجدته محلى فلم تضطرنى الحاجة إلى أخذ الحلية منه فتركته على حاله ككتاب كليلة ودمنة وكتاب مزدك فى منزلك فما ظننت أن هذا يخرج من الإسلام»[١] .

ونودى بعد ذلك موبد زردشتى كان قد أسلم وكان حديث عهد بالإسلام فقال : « إن هذا يأكل المخنوقة ويحملنى على أكلها ويزعم أنها أرطب لحما من المذبوحة . . . وقال لى يوما إنى قد دخلت لهؤلاء القوم فى كل شىء أكرهه (حتى أكلت لهم الزيت وركبت الجمل ولبست النعل غير أنى إلى هذه الغاية لم تسقط عنى شعرة) يعنى لم يطل ولم يختتن »[٢] فثار الأفشين على هذا الرجل الذى خان سره وقال : « أفليس كنت أدخلك إلىّ وأبثك سري وأخبرك بالأعجمية وميلى إليها وإلى أصلها »[٣] .

وبعد ذلك ووجه الأفشين بأحد القادة الذين كان يعهد إليهم بحراسة الحدود فقال القائد إن أهل مملكة الأفشين كانوا يخاطبون الأفشين بقولهم : «إلى إله الآلهة» وذلك عندما يكتبون إليه فقال الأفشين : « إن هـذه كانت عادة القوم لأبى وجدى ولى قبل أن أدخل فى الإسلام فكرهت أن أضع نفسى دونهم فتفسد علىّ طاعتهم»[٤] وعندما سئل مرة أخرى عن السبب الذى دعاه إلى ترك الاختتان قال : « أوليس فى دين الإسلام استعمال التقية . لقد خفت أن أقطع ذلك العضو من جسدى فأموت » ففنّدت هذه الحجة بأن الأفشين ما كان يتردد فى أن يعرض نفسه للرمح والسيف فى ميدان القتال « فكيف يجزع من قطع قلفة » . وفى النهاية أدين الأفشين وأعدم.

---

(١) المصدر نفسه . ويلاحظ أن ترجمة المؤلف لهذا النص فيها شىء من التصرف .
(٢) المصدر نفسه ص ١٣١٠ .
(٣) المصدر نفسه .
(٤) المصدر نفسه ص ١٣١١ .

. ويبدو أن اعترافات الأفشين هـذه تدحض النظرية التى تذهب إلى أن الطبقة الفقيرة من الفرس كانت وحدها التى ظلت على ولائها لعقائدها القديمة . حقاً لقد كان بعض حديثى الإسلام فقراء إلى درجة كانت تعجزهم عن تأدية الواجبات المفروضة عليهم وكان بعضهم منحلين وآخرون منهم كانوا شكاكين إلى حد أنهم كانوا يتفكهون بملح يقولون فيها إن الأغنياء عندهم من الدوافع مايحملهم يعملون على نشر الاعتقاد بالله بينما ليست لدى المفلسين مثل هذه الدوافع ومن المحقق أيضاً أن كثيرين من الفقراء كانوا متمسكين بأداء شعائر دينهم إلى حد أنهم كانوا يقومون بالحج إلى مكة وهو فريضة أعفتهم الشريعة من أدائها .

ومهما يكن الأمر فقد قامت فى فارس من آن لآخر ثورات على الحكومة القائمة وكانت هذه الثورات تمتد إلى بلاد العرب حيث كانت تلقى تأييداً كبيراً . ويرى الوزير الشهير نظام الملك الذى جمعته إحدى القصص بعمر الخيام والحسن الصباح (شيخ الحشاشين الأكبر) أن رجلا يدعى عبد الله بن ميمون القداح من مدينة الأهواز هو الذى بدأ حركة الإسماعيلية . والمبدأ الأساسى لهذه الحركة هو نفس المبدأ الأساسى للتشيع المعترف به[1] ألا وهو الحق الإلهى لآل البيت فى أن يلوا الخلافة وهـذا المبدأ يناقض ما ذهب إليه أهل السنة من أنه يجب اختيار الخلفاء بطريق الانتخاب. ولقد آمن الاسماعيلية ومن قبلهم الشيعة بأن الإمام الأخير (صاحب الزمان) وآخر خلفاء النبى على الأرض هو المهدى الذى يملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا[2]. ولقد نشأ الخلاف بين الاسماعيلية والشيعة حول عدد الأئمة بين المهدى وبين الخليفة علىّ أول هؤلاء الأئمة .

---

(١) المؤلف يقصد هنا مذهب الشيعة الاثنا عشرية . المترجم .

(٢) الترجمة الحرفية هى : الذى يبشر بإعادة مملكة العدالة على الأرض .

ولقد انتشرت الحركة الإسماعيلية فى العالم الإسلامية بسرعة عجيبة . يقول نظام الملك : «إن هؤلاء الملاعين ظهروا فى سوريا واليمن والأندلس وإذا أردنا أن نعرف كل ما قاموا به من أعمال فلابد من الرجوع إلى كتب التاريخ وبخاصة تاريخ اصفهان » . ولقد اختلفت الحجج التى كان الإسماعيلية يستخدمونها فى الإقناع باختلاف الأفراد الذين كانوا يحاولون أن يدخلوهم فى مذهبهم كما اختلفت الأسماء التى كانوا يطلقونها على أنفسهم باختلاف الزمان والمكان . ففى مصر وحلب كانوا يتسمون بالإسماعيلية وفيما وراء النهر وغزنه كانوا يتسمون بالقرامطة وفى الكوفة كانوا يتسمون بالمباركية وفى الرى بالباطنية وهكذا. ولكنهم جميعا ـ كما يقول نظام الملك «كانوا يهدفون إلى غرض واحد ألا وهو القضاء على الإسلام » .

وقد أدى نشاط الإسماعيلية إلى ظهور آثار سياسية واجتماعية عديدة بعيدة المدى فى العالم العربى . فقد كانت هذه الفرقة تكسب الأتباع بطريقة ليست غريبة على السياسة فى العصر الحديث وذلك بأن ترسل الدعاة لينشئوا الخلايا من الأتباع الجدد . وكان هؤلاء الأتباع يضمون إلى الخلايا بعد أن يخضعوا لتعليم دقيق فى أول الأمر ، ولما كان على الدعاة أن يبثوا دعايتهم بين الناس من مختلف الطوائف والطبقات فقد صار لزاما عليهم أن يكونوا على استعداد للجدل والمناقشة . وقد نشأ عن هذه الضرورة قدر كبير من النشاط الفكرى ورغبة شديدة فى تحصيل معارف ذلك الزمان وفلسفاته .

ولكى ننظر إلى هذا الأمر فى وضعه الحقيقى بالنسبة إلى ما يحيط به لابد أن نذكر شيئا عن التطور السياسى لفرقة الإسماعيلية بين المجتمعات العربية : ففى أواخر القرن الثالث للهجرة (أوائل القرن العاشر الميلادى) ظهر بين البربر فى شمال إفريقية حفيد لعبدالله بن ميمون القداح ـ الذى سبق أن ذكرنا أنه منشىء فرقة الإسماعيلية ـ وتسمى بعبيد الله وادعى أنه من سلالة فاطمة بنت النبى . ولقد مهد له السبيل دعاة

استخدموا وسائل الاسماعيلية وآراءهم وجعلوا منها ستارا يخفون به ما كان من أطماع سياسية لقائدهم الذى أعلن حينذاك أنه المهدى . وفى غضون فترة قصيرة نسبيا جعل عبيد الله من نفسه سيدا للمغرب وأصبح أول خليفة من الأسرة الفاطمية . وقد استطاع رابع خلفاء هذه الأسرة أن يبسط سلطانها على مصر وبقيت هذه فى أيديهم حتى أخذها منهم صلاح الدين .

أما سادس الخلفاء الفاطميين وهو الذى حكم مصر والشام واتخذ « الحاكم » لقبا فقد كان شخصا غريبا تبلغ به القسوة أحيانا حد سفك الدماء ولكنه كان فى الوقت نفسه راعيا كريما للفنون . ولقد جرى المؤرخون المسلمون على وصفه بالجنون ولكنه كان يسير على منهج محدد فى بسط سلطانه . وعند ما نادى رجلان من إسماعيلية فارس بأن الله تجسد فيه على الأرض شجع هذه الفكرة التى أساءت بطبيعة الحال إلى أهل القاهرة الذين كانت تغلب عليهم التقوى . وقد فر أحد هذين الداعيين ويدعى الدرزى إلى الشام وهناك والى دعايته بين فريق من أهل لبنان وفلسطين ويعرفون اليوم بالدروز نسبة إليه ولا يزالون يعتقدون بألوهية الحاكم .

ولقد تجلى لدى هذا الفريق من الإسماعيلية ـ الذى ذاعت سمعته السيئة فى تواريخ الحروب الصليبية وعرف فيها باسم الحشاشين ـ أروع مظاهر العبقرية الفارسية فى التآمر ونشر المذهب الباطنى فى الخفاء . إن الاغتيال كان بالنسبة لهؤلاء ـ كالحرب عند رجال الحكومات الحديثة ـ ليس إلا امتدادا للجدل السياسى ولكنه لم يكن وحده وسيلة الإقناع ولا العامل الرئيسى الذى اعتمدوا عليه فى تحقيقه . فمن المحقق أن نظرتنا إلى الإسماعيلية الحشاشين على أنهم مجرد قطاع طرق متوحشين سفاكين للدماء تنطوى على خطأ فى فهم هدف هؤلاء الناس ، فقد كانوا يرمون إلى إدخال نظام الإمامة وما يتحقق معه من حكومة وطيدة الأركان لأنهم كانوا يرون أن هذا النظام يبعث على الاستقرار فى عالم شاعت فيه الخلافات السياسية .

كان حسن الصباح ، مؤسس هذه الفرقة ، داعيا من دعاة الفاطميين وكان موطنه فارس ، وكان أبوه قد هاجر من اليمن إلى تلك البلاد . والظاهر أنه كان يهدف من وراء دعوته الجديدة إلى أن يصرف الإسماعيلية عن ولائهم لقادتهم القدامى ويضمن هذا الولاء لنفسه . وفى عام ١٠٩٠ م استولى على قلعة أَلَموت التى كانت تقع بالقرب من قزوين ومن هناك مضى فى كفاحه السرى حتى استطاع أن يوجد جموعا متماسكة من الأتباع المنظمين فى كل من فارس والعراق والشام . ولقد حدث هذا فى الوقت الذى تمكن فيه الصليبيون من أن يقوموا بحملاتهم نتيجة للتنافس الذى قام بين سلاطين السلاجقة (وكانوا من السنة المتعصبين) وبين الخلفاء الفاطميين فى مصر ، وكان « شيخ الجبل » الذى أثار الذعر بين الأوربيين الغزاة هو رئيس الإسماعيلية فى الشام . إن حركة الاسماعيلية ـ كما سبق أن ذكرنا ـ كانت ذات أهداف ثقافية إلى جانب أهدافها السياسية . فقد أُنشئ الجامع الأزهر بعد الغزو الفاطمى بعام واحد وقد تطور هذا المسجد ـ حين ظهرت الحاجة إلى تزويد الدعاة بالمعرفة ـ إلى أن أصبح جامعة الإسلام الكبرى . ولقد تغيرت طبيعة الأزهر إبان العصور التى مرت عليه ولكنه حين أصبح داراً للعلم أيام الفاطميين كانت الصلة وثيقة بين معلمى المذهب الفاطمى وبين فلاسفة الدعوة الإسماعيلية ، وكان الكثيرون من هؤلاء الفلاسفة فرساً نذكر منهم على سبيل المثال أبا يعقوب السجزى وأبا حاتم الرازى وناصر خسرو («فاوست» فارس) وحسن الصباح نفسه . وقد وجد المؤرخ الجوينى ـ الذى صحب جحافل المغول التى اقتحمت قلعة أَلموت ـ كثيراً من الكتب فى هذه القلعة وأدوات فلكية وكيميائية .

ولقد تحققت اليوم الصلة التى كانت بين الحركة الفكرية التى تنطوى عليها مثل هذه الرواية وبين العمل الذى قام به جماعة من كتاب الموسوعات عرفوا بإخوان الصفا . ففى الوقت الذى كان فيه الفاطميون يوطدون ملكهم فى مصر والإسماعيليون يعملون

بنشاط فى نشر تعاليمهم بخراسان كان إخوان الصفاء فى مقرهم بالبصرة يفصلون ديناً ليتبعه المتعلمون من الناس فى الخفاء . ولقد شرحوا هذا الدين فى سلسلة من الرسائل العربية تناولت ما فى الكون من محسوسات ومعان مجردة ومزجت فى هذا التناول فلسفة اليونان بآراء الغنوصيين وثنوية الدين الإيرانى . ولقد كان أتباع الدعوة الاسماعيلية يعدون هذه الرسائل منابع رفيعة للمعرفة ، ومثل هذا النعت الذى خلعوه عليها يبين ما كان لها من مكانة عند هذه الفرقة التى كان يعدها الإسلام المحافظ فرقة ضالة خارجة على الدين .

ومن الغريب أنه قد ارتبط بنظام الفاطميين السياسى بل بالنظام السياسى للإسماعيلية بوجه عام اجتماع الرجال الذين كانوا يعملون فى إحدى الصناعات أو الحرف حول شيخ أو رئيس يتكلم باسمهم ويكون مسئولاً عنهم — إلى حد ما — أمام الهيئة الحاكمة . ومثل هذه الاتحادات لم تكن مماثلة تمام المماثلة للاتحادات التى عرفتها أوروبا فى القرون الوسطى إذ أن شروط الالتحاق بها كانت تتضمن عناصر دينية بل وعناصر صوفية . ولكننا نعلم أن فرقة نصف دينية هى القرامطة كانت قد انضمت إلى الإسماعيلية وأن هذه الفرقة كانت غالبيتها من الفلاحين وأرباب الحرف . وقد توسع الفاطميون فى تنظيم هذه الاتحادات إلى حد بعيد وفى أيامهم شاع فى العالم الإسلامى تخصيص أسواق بأكملها لبيع سلع معينة .

وكانت طبيعة هذه الاتحادات تقضى عليها بأن تدعى أن مؤسسها هو النبى محمد وكان الإمام علىّ خليفته فى رئاسة هذه الاتحادات ، وجاء بعده راعى الاتحادات كلها سلمان پاك (سلمان الطاهر) الفارسى الذى كان حلاق الرسول ويليه شيوخ الحرف الكبار (پير) وكل منهم كان يعتبر جدا للفريق الذى يمارس حرفته . وهم يعدون سلمان پاك هذا راعياً لنظام من نظم الفروسية أيضاً ويعرف هذا النظام بالفتوة، وكان أشهر المنتمين إليه الخليفة العباسى الناصر (١١٨٠ — ١٢٢٥ م) . وكان

أهل الفتوة يلبسون زيًّا خاصًّا أظهر ما فيه سراويل قصيرة وكانت هـذه السراويل فى العادة لباس الفرس وتختلف تماماً عن الجلباب العربى . ويبدو أن تسلم هذه الملابس كان يمثل ذروة الاحتفال بإدخال أعضاء جدد فى نظام الفتوة .

ويمكننا أن نعرف شيئاً عن مدى انتشار هذا النظام من يوميات ابن جبير الشاعر الرحالة الأندلسى الذى اغتنم فرصة ذهابه إلى مكة للحج فزار بعض مدن مصر والشام. وقد وجد أن أهل السنة فى دمشق وغيرها من مدن الشام كانوا أقلية بالنسبة للشيعة « الضالين » كما وجد أن الشيعة كانوا مكونين من فرق عدة هى الرافضة والإمامية والزيدية والإسماعيلية والنصيرية (وهؤلاء ملاحدة ينسبون الألوهية إلى علىّ) وغيرهم. وكانت النَّبُوِيّة أهم الفرق هناك وكانوا من أهل السنة الذين يشايعون الفتوة ، وكان زىّ الفتوة يمنح لمن يعلو شأنه فى هذا النظام . ولعل المؤرخ ابن قتيبة (٨٨٥م)ـ وهو من أهل مرو ـ كان يشير إلى فترة مُبَـكِّرة من تطور النظام حين استشهد فى حديثه عن آداب الفروسية بخبر مروى عن عمر جاء فيه أنه قال : « ائتزروا وارتدوا وانتعلوا وألقوا الخفاف وارموا الأغراض والقوا الرّكب وانزوا نزواً على الخيـل . . . . ودعوا التنعم وزىّ العجم ولا تلبسوا الحرير فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عنه »[1] .

وقد ربط اسم سلمان الفارسى بفريق آخر من المجتمع العربى الإسلامى هو فريق الدراويش . ومع أن كلة درويش فارسية الأصل فإن حدود هذا البحث لا تسمح لنا بأن نتتبع الدور الذى لعبته إيران فى تاريخ نظام الدراويش، وعلى هذا فنحن مضطرون إلى الاكتفاء بالإشارة إلى أن أشهر طرق الدراويش (كالقادرية والمولوية مثلا) قام بإنشائها رجال كانوا ذوى صلات وثيقة بإيران .

---

(١) ابن قتيبة : عيون الأخبار ، ج ١ ، ص ١٣٢ . المترجم .

الفصل الرابع

✲✲✲✲

فارس والهند بعد فتح محمود

ترجمة أحمد الساداتى

إن أثر فارس فى الهند قد غدا على كر العصور أبعد مدى وأشد عمقا من أثر الهند فى الأقاليم الإيرانية . فجبال الأفغان ومعها نطاق صحراء الثار الذى يفصل وادى السند عن الهند الأصلية ، قد كوّنت جميعا شقة حرام سكنتها قبائل محاربة كانت تعتمد فى حياتها الثقافية على الدوام ، فى قليل أو كثير ، على الحضارات الراقية عند جيرانها من أصحاب الغلبة ، وكانوا ما بين هنود وإغريق وفرس ومسلمين . ولقد قامت هذه الشقة فى الوقت نفسه حاجزا فى وجه هاتيك الحضارات واتصالها بعضها بالبعض الآخر عموما، فلم يتهيأ قيام الروابط الثقافية بينها إلّا فى ظروف سياسية مواتية معينة .

وإذ كان التاريخ السياسى لهذا الجزء من آسيا قد قام ابتداء على الغزوات الدورية التى كان يقتحم بها البدو الآسيويون إيران والهند ، وكان هؤلاء لا يبلغون الهند بطبيعة الحال إلا بعد أن تطويهم البيئة الفارسية ، فقد حمل هؤلاء الغزاة معهم إلى هذا البلد ، حين دخلوه ظافرين ، أمواجا عدة من النفوذ الفارسى . وأدى فرض هـذا الطابع الجديد على الهنود قسرا إلى أن طفقوا يقاومونه مقاومة فعّالة فنبذته الحضارة الهندوكية الوطنية عند الشرق من هذه المنطقة حينا ما وانصهر فيها حينا آخر. هذا فى حين كانت قبائل آسيا الوسطى والسيث وسكان إقليم بلخ (بقطر) والترك

والتاجيك[١] فى مقاومتها للسيادة الفارسية تتيح بدورها بعض الفرصة لانتشار الثقافة الهندية عبر أفغانستان[٢] إلى حوض جيحون وطارم ، حيث اختلطت الآراء والمعتقدات والمذاهب الهندية بالتقاليد الإيرانية المحلية حتى استوعبتها حضارة فارس الراقية .

إن الفخّار الذى يرد إلى عصر ما قبل التاريخ ، والذى عثر عليه فى شمال غربى الهند وعند الجنوب الشرقى لإيران ليتشابه فى نمطه تشابها قويا ، وإن كانت هذه هى أقدم من عصور الحضارة الهندية والإيرانية التى نتحدث عنها . فأولى موجات النفوذ الإيرانى التى انفلتت إلى هذه البلاد فى التاريخ كانت على أيدى الهجرات الآرية (١٢٠٠ ـ ١٠٠٠ق . م)، وتلك لاندرى على وجه اليقين من أمر تأثيرها على الفن الهندى شيئا . والغالب أن نُصُب هذه الفترة كانت تقام من خشب وطين فلم يُكتب لها البقاء ، وما يُحتمل نسبته إلى هذه الحقبة من الآثار القليلة التى عثر عليها (ما بين سيوف وفؤوس وحراب وما شابهها) يعوزه التثبت من عصره على الوجه الدقيق الذى يتوفر لحفريات لاحقة كتلك التى قام بها . الدكتور هويلر Wheeler عند بالا ـ حصار بإقليم چارسدا .

أما الموجة الثانية فتوافق قيام دولة الموريا[٣] التى استوحت فى كثير من شئونها مثال الممالك الأكمينية والمقدونية . وأغلب الظن أن أثر الفن الأكمينى الواضح فى فن بلاط الموريا ، قد وفد إليه على أيدى المعماريين والمثّالين الأكمينيين الذين لاذوا ببلاط

---

(١) التاجيك : هم سلالة شعوب أواسط آسيا مع العرب . المترجم

(٢) لم يطلق هذا الاسم على البلاد التى تعرف به الآن إلا فى العصور الحديثة ، وتعرف هذه البلاد منذ القدم باسم بقطريا ثم بأرض كابل وغزنه . المترجم

(٣) أو دولة الطاووس وهى أول دولة هندية قامت بعد غزو الإسكندر . المترجم

بتاليبُتر Patalipotra فارين من أطلال الحضارة الأكمينية، فاستُخدِم موافى إقامة المنشآت الكبيرة والتماثيل الحجرية التى غدت الهند إذ ذاك تستحدثها على نطاق واسع . ومهما يكن فإن الأنماط الأكمينية الأصلية لم تطبق بحالتها الخالصة إذ عُدّلت إلى صور هندية راسخة يمكن أن تفهم على ضوء التقاليد الهندية فحسب . وبانحلال دولة الموريا هذه كانت هذه العناصر الأكمينية قد تفاعلت تفاعلا تاما مع الفن الشعبى الذى ازدهر فى عهد أسرتى سنگا وآندهَرا . أما الفن الهلينى فقد أخذ إبان الاحتلال البارتى يتحول إلى نمط گندهارا التى لا تميل كثرة من صفوة العلماء إلى اعتبارها إغريقيه بوذية بقدر ما يرون فيها شبه تطور لفن من فنون إيران الشرقية ازدهر على الخصوص أيام حكم كوشانه[1] والسيث. وأيًّا ما كان الأمر فقد شهدت كشمير حتى أوائل عهد گُبتا (فى القرن الثالث والرابع الميلاديين) فنا بارثيا قامت عليه خرائب هرفان شاهدا ودليلا .

ثم وفدت الغزوات السيثية، التى طوت بقطر الإغريقية وإمارات الهند الإغريقية، وفى جعبتها مجموعات من عناصر أجنبية أخرى تنتسب إلى أصول إيران الشمالية أكثر مما ترد إلى التقاليد الأكمينية . ولم يتخلف عن هذه إلا آثار قليلة ، فعثر عند الحدود الشمالية الغربية على إناء مشغول بالميناء من صنع سيبريا ، كما عُثر عند سالاد بمنطقة بارودا بالگجرات على شاهدقبر يحمل إشارات أكمينيةمتحللة (القرن الأول ق .م.). كذلك عثر على حجر مسن من طراز مشابه عند كروَن على بعد بضعة أميال صوب الجنوب . أما الخلاخيل الفضية التى تنتهى برأس تنين أو أسد أو ثور على غرار ما يضمه « كنز جيحون » فلا تزال تروج حتى اليوم بالگجرات وبقسم كبير من

(١) هى من القبائل السيثيةالتى غزت الهند، وكانت ممالكتها تضم البنجاب والراجبوتانا وبلاد الأفغان الحالية . المترجم .

الراجپوتانا . وإلى جانب ذلك فقد عثر عنـد متهورا وبهيرغات وأماكن أخرى على تماثيل لملوك وأمراء من كشاترايا وكوشانة فى ألبسة سيثية وقلانس مدببة أو دروع . هذا كما اكتشفت نظائر لهـا من البرونز المـكفت بالفضة منذ زمن ليس بالبعيد . أما الشخوص ذات الأردية السيثية التى تظهر على عملة الشكا وكوشانة والتى حليت بها سكة كشمير الباكرة فأمرها معروف مشهور . وثمة شخوص أخرى تظهر فى نقوش كندهارا كشخوص الآلهة بانسيكا وفرو أو مهيرا ؛ إلا أن تماثيل النساء المصاحبة لها تظهر على الدوام فى ثياب هلينية إغريقية أو هندية .

وبلغ امتزاج الثقافتين الهندية والإيرانية غايته فى عصر كُبتا ذلك أن الساسانيين امتد سلطانهم فى القرن الثالث الميلادى حتى مالوَه فى وسط الهند وهو الإقليم الذى صار فيما بعد إحدى دعائم كُبتا ، وهنالك أخذت الاتجاهات والفنون الساسانية تعاون معاونة فعالة فى إبداع الفن الهندى التقليدى ، فمعابد ماكا للشمس كانت معروفة منتشرة من القرن السادس إلى القرن الثامن ، وأيقونة سوريا [إله الشمس] فى شمبة (القرن الثامن) هى نصف ساسانية ؛ وقد لازمت النعال الساسانية هـذه الأيقونة حتى حين صارت إلى الطراز الهندى الخالص .

وفى مقابل هذه الثقافة الإيرانية التى نفذت إلى الهند، سرى فى العالم الإيرانى بدوره مؤثرات ثقافية هندية . ذلك أنه منذ حكم آزوكا (١) أخذت البوذية تغزو أواسط آسيا حتى طفت ونفوذ أربابها على الزردشتية الرسمية، عقيدة وفنا، فى إمارات كوشانة التابعة للدولة الساسانية . فالتعابير الفنية المستحدثة فى الفن الساسانى كالطاووس مثلا

---

(١) أو آشوك وهو أول ملك واضح الشخصية فى تاريخ الهند القديم وبه بدىء تاريخ العمارة الهندية كذلك ، وتنتشر بالهند كثير من آثاره ؛ وقد اتخذت جمهورية الهند الحديثة من عجلته شعارا لها . هذا ويعد هذا الملك من أكبر دعاة البوذية حتى بلغ مبشروها فى عهده اليونان ومصر المترجم



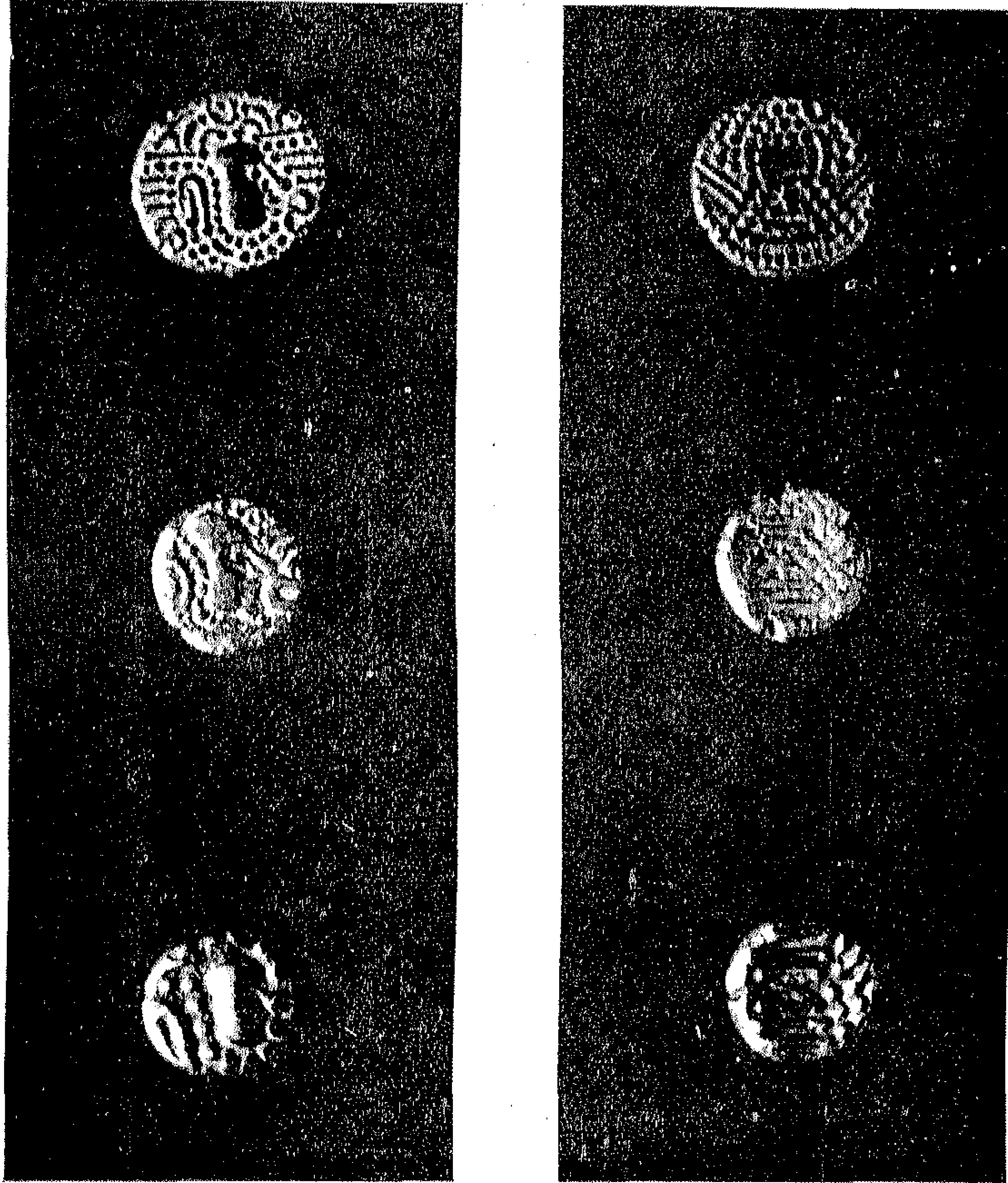
شاهد قبر من العصر الهندى السيثى المتقدم. وبه اتجاهات أكمينية ردیئة . عثر عليه فى سلاد بدائرة بارودا بالكجرات . متحف بارودا .



تمثال الملك الكشانى كنشكا الأكبر. القرن الثانى الميلادى ـ متحف ماتهورا.



صورة أنثى من هرفان بكشمير . مستهل القرن الرابع الميلادى .
وهو نقش بارز من الطين على أرضية من القرميد . آثار الفن البارتى المحلية .



سكة جدهايا، وهى تقليد ردىء للسكة الساسانية ، الراجپوتانا .
من القرن الثامن إلى الحادى عشر. متحف بارودا (وجها السكة) .

والتنين والديكة والنباتات المتسلقة هي جميعها هندية أصيلة،هذا كما دل استقراء أحدث ما عثر عليه من عملة كُبتا على الأصل الهندى لبعض صورها ، ومن ذلك تسلم الملك خاتما من أورمزد أوتعبير « مارْجرجس » .

وجاءت غزوات الهون والكورجارا والعرب والترك فتصرم حبل هذا الاتصال المثمر . وعلى أي فقدلبثت أصداء فنون الساسانيين وأواسط آسيا ملحوظة بالراجپوتانا حتى القرن السادس عشر، وكانت السكة الساسانية بدورها شائعة في أفغانستان ووادي السند وظل الحال كذلك حتى القرن الحادى عشر ومن ثم أخذشأنها يضؤل تدريجيا بكشمير والراجپوتانا والكجرات وإن ظلت عملة كدهايا المتأخرة تحمل عددا من النقاط إشارة إلى الرأس الملكية والمذبح وهما ماتتميز بهما عملة الهون في يسر . وكذلك نفذت عبادة الشمس إلى العقيدة الوشنوية ، وما لبثت بانتهاء عهد أسرة پراتيهارا أن استغرقتها (أواخر القرن العاشر) . على أن فن الهند الشمالية الغربية الرسمى ما لبث منذ القرن العاشر أن عاد على الأقل فنا هنديا خالصا ، في حين بدا في الفن الشعبي معالم فنية أخرى مردها إلى أواسط آسيا وإيران، من ذلك شاهد الفارس (پاليا) والزخارف المجدولة وزخارف النباتات المتسلقة تتخللها الشخوص ، وشجرة النسب والعصبة في الطراز الساساني وزخارف ورد الكلاب (hip) على شخوص الحيوان وغيرها .

ولئن بدا الفن الراجپوتي بآخر مراحله هندوكيًّا في موضوعاته الوحدانية إلا أنه من ناحية طرازه لا معدى من اعتباره إيرانيًّا ، فكتله الهندسية البسيطة ومسطحاته المنبسطة وبناء التماثيل الراجپوتية بالخطوط القطعية التى تتمثل في نُصب الفيلة بالقصور المغولية[1] في القرنين السادس عشر والسابع عشر هذه جميعها تطابق في ذلك كله

(١) عند ما يشير المؤلف إلى المغول في الهند ابتداء من القرن السادس عشر فيكون المقصود بذلك الدولة المغولية التى أسسها ظهير الدين بابر في بداية ذلك القرن فظلت تحكم الهند قرابة قرون ثلاثة . أما فيما قبل ذلك فتنصب إشاراته إلى رجال جنكيزخان وأبنائه . المترجم .

مقومات تماثيل كوشانه وتماثيل المغول الفارسية . كذلك كان فن النقش الراجپوتى بدوره ، فى تركيبه الهندسى ومظهره الشامل واستوائه مع تباين ألوانه البسيط وجوه التخيلى الرائق ، يحمل من مقومات الفن الإيرانى وخصائصه أكثر مما يحمل من الفن الهندوكى . هـذا كما احتفظ الفن التطبيقى الراجپوتى بالنمط المستمدة من عملة السكا الباكرة حتى أواخر القرن السادس عشر .

ويفسر هـذا النسب الإيرانى القوىّ فى الفن الراجپوتى ، حقيقة : هى إخراج كثرة من العشائر الراجپوتية[1] من أرض الأفغان إلى الهنـد وذلك على أيدى أتراك أواسط آسيا عنـد زحفهم نحو الهندكوش فى القرن السادس ثم على أيدى المسلمين من بعدُ فى فتوحاتهم ببلاد الأفغان فيما بين القرنين السابع والعاشر الميلادى .

وعلى ضوء ما توحى به حفريات المنصورة ـ برهمن آباد والمحفوظة[2] يمكننا أن نقول بأن الفتح العربى للسند قد أدخل الطراز العباسى إلى الهند . فهذا عرش راجوات بُـكال (بيكنير) ، الذى قيل إن راجوات بهاتى قد استخلصوه من غزنه ، يكشف كذلك عن مزيج من الزخارف السندية وزخارف العصر العباسى المتأخر . أما عن الفن الغزنوى بالهند فنحن لا ندرى من أمره شيئاً ، فمقام حكام الغزنويين المتأخرين لم يُكشف بعد ، وخرائب منشآتهم ، إن وجدت ، لا تعدو مجرد قوالب من لَبِن مجفف وملاط وخشب . وأما أبراج النصر التى أقامها الغازى الكبير محمود (٩٩٨ ـ ١٠٣٠) ومن بعـده مسعود الثالث (١٠٨٩ ـ ١١١٤) بغزنه فهى من

---

(١) الرأى الغالب أن الراجپوتيين هم من أصلاب أبطال الآريين الذين سبقوا قبائل الهون إلى أرض الهند فحكموها ، ثم احتموا من الغزاة الوافدين عليهم من بعـد ذلك فى المنطقة التى اشتهرت باسمهم بين البنجاب والدوآب والتى تعرف فى العصر الحديث باسم راجستان أى أرض العنصر الملكى، ومن طريف القول أن ترد أساطير الهند نشأة الراجپوتيين إلى تزاوج الشمس والقمر . المترجم.

(٢) المنصورة والمحفوظة هما من مدن الحكم العربى بالسند . المترجم .

الطراز الذى يعرف عموماً بالسلجوقى . وكان هذا الطراز قد طفق يتطور منذ وقت باكر أيام الساسانيين ثم دخلت عليه تغييرات بارزة أيام السلاجقة . فهذه الأبراج بقطاعها المثمن فى اسطونها الأوسط وقبابها المصليّة الشكل إنما تحاكى نمط « الخيمة » الذى يتسم به كثير من مبانى العصر نفسه فيما بين قبة قابوس فى جرجان (٩٨٥) وأبراج مقابر راسكات ومراغة وردكان ودمغان والرى ودماوند وفرمين وضريح مؤمنه خاتون الجميل فى نختشوان وأخيراً بوستان (أواخر القرن الثالث عشر) مع رجعها الذى يبدو ظاهراً فى منارة جامع صاحب عطا المستديرة الهيفاء فى قونيه (أواخر القرن الثالث عشر) وغيرها . على أن الزخرفة ، لاسيما ما كان منها رواق أو ما هو قائم على زخرفة الزهر العربية ، إنما يتجلى طابعها الهندى (سولنكى ــ كجراتى) أولا فى تابوت محمود ثم فى تابوت مسعود الأول (١٠٣٠ ــ ٤٠) ونُصب آخر الحكام الغزنويين من بعد ذلك ؛ وإن كان هذا الطابع يختفى تماماً فى ضُلفتى الباب الشهير لمقبرة محمود ، وهو الباب الذى أشيع عنه فى وقت ما أنه كان فى الأصل لمعبد سومنات[1] باتن الشهير بالكجرات .

هذا ويمكن تقصى تعبيرات إسلامية أخرى باكرة فى تجاوبها مع الفن الراجپوتى بالپنجاب والهملايا، لاسيما فى شعار الآساد وزخارف ورد الكلاب والنباتات المتسلقة التى تشابه غاية التشابه الفن الرومانطيقى الأوروبى .

وآخر آثار هذا الطراز « السلجوقى » هو منارة القطب الشهيرة بدهلى وهى التى بدأ بناءها السلطان محمد معز الدين الغورى عام ١١٩٩ وأكملها السلطان التمش (١٢١٠ ــ ٣٦) ، كما أجرى ترميمها كل من السلاطين علاء الدين الخلجى

(١) هو من أعظم معابد الهنادكة ، وقد أعادت حكومة الجمهورية الهندية بناءه من جديد بعد مضى قرابة ألف عام على تخريب محمود له .

(١٢٩٦ ـ ١٦١٣) وفيروز شاه (١٣٥١ ـ ٨٨) وإسكندر لودهى (١٥٠٣) . وأدى استخدام كتل من معبد قديم فى بنائهـا ، حوى بعضها نقوشاً ورد فيها ذكر البطل الأمير برتوى راجا الثالث (١١٧٠ ـ ٩١) ، إلى أن سلكها البعض فى زمرة النُّصب الهندوكية . على أن النقوش الأخرى والرسوم ذات القاعدة المثمنة والارتفاعات المخروطية ، هذه جميعاً تجعل من ذلك البناء ، عموما ، آخر وأكبر وأجمل ما وصل إليه كمال الأبراج الغزنوية الباكرة والأضرحة الفارسية السلجوقية والمآذن الشامخة . وحين نقارن شرفاتها المقرنصة وأفاريز نقوشها بنظائرها فى جامع الأقمر بالقاهرة (١١٥٥) أو منارة خواجه علم (أواخر القرن الثـالث عشر) فإننا ندرك على الفور مدى الإبداع الذى بلغه الفن الهنـدى الإسلامى . وإلى جانب ذلك ، فإن المعالم الهندوكية لتبـدو فى الواقع بارزة جلية فى أقدم الإضافات التى ألحقت بمسجد قوّة الإسلام (بنى هـــذا المسجد عام ١١٩١ ثم أدخلت عليه إضافات وتوسيعات فى أعوام ١١٩٨ ، ١٢٢٩ ، ١٣١٥) . ولقد بدئ فى بناء هذا المسجد لوقت سابق على زمن إقامة المنارة سالفة الذكر حين لم يكن من اليسير العثور على رجال معمار وبنائين ذوى دربة وحنكة من المسلمين . لذا نراهم قد استخدموا فى إقامة صحنه جدار معبد جَيْنى دون أن يُعنوا عناية كافية بإزالة ما عليـه من رسوم الأوثان ، اكتفاءً بإقامة مقصورة من العقود إسلامية الطراز (وإن كانت قد صممت وفق قاعدة الدعائم الهندوكية على كل حال) تصدرت الصحن الرئيسى للمسجد . أما النقوش الكتابية ، ورداءتها ظاهرة ، فقد قامت على التعبير الهندى كذلك إلى حدّ ما . وقد لبثت العناصر الهندية تـكوّن جانباً من الفن الهندى الإسلامى حتى القرن السادس عشر ، وإن كانت هى بدورها تُرد أساسا إلى أصول آسيا الوسطى المشتركة التى خرج عنها تعبيرات زخرفية إسلامية فارسية كثيرة وكذلك هندوكية .

ولم ينتج عن غزوات السلاجقة ثم المغول من بعدهم للهند توهين الاتصال المباشر

القائم بين سلطنة دهلى وبقية العالم الإسلامى فحسب ، بل أدى كذلك إلى دفع عدد كبير من اللاجئين إلى دهلى . وكان من جراء ذلك كله أن اتسمت الشقة الزمنية بين فن سلطنة دهلى الباكر ومسايرته للفن الإيرانى. وأدى ضغط المغول عند الحدود الغربية والهنادكة عنـــد الجنوب آخر الأمر إلى خلق روح عسكرية انطلقت إلى أغلب شبه القارة الهندية تخضعها لسلطانها، وبهذه النزعة العسكرية أتيح لفن العمارة الحربية أن ينفذ أثره البالغ إلى كل من الفنين المدنى والدينى . هـــذا كما خلقت الفتوحات بدورها عقلية استعمارية طفقت تنظر باستعلاء إلى كل ما هو هندى فأقامت بذلك حاجزا قويا فى وجه أدنى تسرب جديد للنمط والأخيلة المستمدة من الفن الهندى.

واحتفظت المدرسة الغزنوية بمكانتها المتفوقة فى الهند حتى نهاية أسرة الخلجيين ، برغم ما توالى دخـوله عليها من الإبداع السلجوقى المتأخر . فمسجد آراى دين كاجهمبرا فى أجمير الذى بناه قطب الدين أيبك عام ١٢٠٠م يختلف فى تصميمه اختلافا جوهريا إلى حد كبير عن مسجد قوة الإسلام . ولئن كانت أروقته ذات الأعمـدة تحاكى معبد چوهان الچينى(١)، إلا أن مقصورته الوسطى لها عقود ثلاثية أو مثلثة لها طرفا هلال كتلك التى استخدمت فى القرن الحادى عشرة بالمسجد الجامع بأصفهان أو تلك التى عرفتها ، مع تنوع كبير ، آسيا الصغرى السلجوقية ومصر الأيوبية . هذا كما أن الأساس المثمن لدعائم الأركان (التى لا تستدق) وللأسافين الخشبية يتكرر بقونية السلجوقية كما فى منارة مسجد صاحب عطا مثلا . كذلك نرى مسجد القمش ، ومعه المقصورة التى تقع بمسجد قوة الإسلام الذى يعد امتدادا له بدهلى (١٢٢٩) ، كلاهما يدنو بمظهره أغلب الدنو من مسجد المستنصرية ببغداد (١٢٣٢) ذلك المسجد الذى يعد آخر نمط المساجد السلجوقية . ولا يزال مسجد بداون ، يحتفظ بجناحين من

(١) الچينية هى عقيدة مهابير الذى عاصر بوذا بالهند . المترجم.

قباب صغيرة كثيرة محمولة على أساطين مربعة ، شأن مساجد إيران الباكرة، إلى جانب خصائص أخرى مشتركة كالعقود المريضة الفارسية ، والزخارف النباتية التى على هيئة طرفى الهلال على طول عقد المحراب . والتعبير الأول يتيسر تتبعه مثلا فى گلبيگان بفارس أو قازان ، أما الثانى ففى صفد بولا بالتركستان وفى قونية (١١٥٥).

هذا وقد بلغ الفن الزخرفى غايته من البذخ فى بوابة علاء (علائى دروازه) وهى المدخل الجنوبى الشرقى للملحق الذى أضافه علاء الدين[1] لمسجد قوة الإسلام ، وفى جماعت خانه (الصحن الأوسط فقط) وهو الذى قصد به أصلا أن يكون مثوى لولى الله نظام الدين أوليا . وقد بناه خضر خان بن علاء الدين عام (١٣٢٥) . وينتمى كلا الأثرين أساسا إلى نموذج الأضرحة السامانية البسيط الذى يتمثل فى بناء مسدس الشكل له قبة مركزية قصيرة ومدخل عال بين نوافذ دانية . وزخارف هذين الأثرين ، إلى جانب بذخها الغالب ، قد تضمنت أجمل ما فى الفنين الإسلامى والهندى من لمسات وتعبيرات طبقت لأول مرة فى حجارة رملية حمراء ترصعها رقائق من الرخام . وقد استعيض هنا عن العقود الحادة بعقود مستديرة رصعت بزخارف نباتية على هيئة طرفى الهلال مزدوجة فى الغالب وارتكزت على عمد صغيرة محصورة، قواعدها وتيجانها نصف هندوكية . كما أن العقود الصغيرة التى تقوم عليها طبلة القبة هى بدورها على هيئة طرفى الهلال (من ابتكارات القرن الحادى عشر) . وهنا نرى نمط الدرج الآشورى « Kanguras » قد تحول إلى نوع من الزخارف الزهور يساير التطور الفنى الإيرانى . وتنفتح بوابة علاء الدين من ناحية الصحن على عقد مزدوج منقوش أعلاه ومحمول على أعمدة صغيرة من طراز «باريتهارا» الهندوكى فى حين حمل السقف

---

(١) وهو أشهر حكام أسرة الخلجيين وفى عهده بلغ جند المسلمين أقصى جنوب شبه القارة الهندية لأول مرة. المترجم.

المقفول على دعائم هندوكية معقدة . ولعل هـــذا الغزو الزخرفى الهندوكى قد جاء فى الغالب نتيجة لموجة التعمير القوية التى أوحت بها فتوحات الهند والتى اضطر معها القائمون بها إلى استخدام البنائين الهنود من جديد .

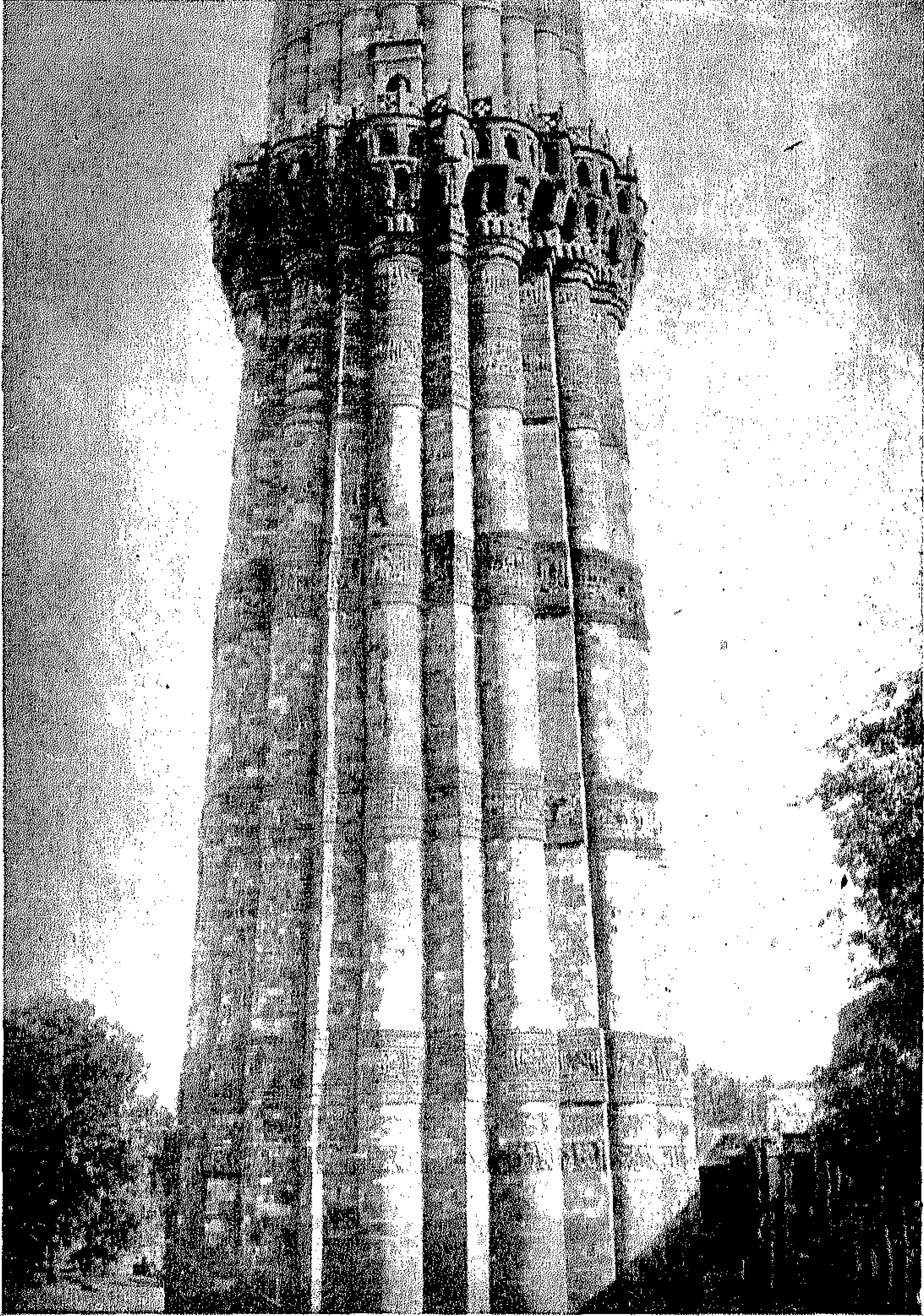
أما طراز المقـبرة فقد كان فى واقع الأمر بطيئا فى تطوره ، فهذا ضريح السلطان ناصر الدين محمود بن السلطان التمش حاكم البنغال (١٢٣١) قد بُنى ، إلى درجة كبيرة، من المخلفات الهندوكية . فحجرة الدفن فيه ، وهى تقع تحت سطح الأرض ، سقفها مبطن برقائق البلاط الهندوكى ومحمول على عمـــد هندوكية الطراز ساذجة ، فى حين يقوم المحراب تحت قبة كجراتية الطراز قصيرة . على أنه فى مظهره الخارجى وفى عقوده على الخصوص تغلب عليه الصورة الفارسية المعاصرة له . هذا وكان الضريح الذى ينسب إلى التمش (١٢١٠ ـ ٣٥)هو أول ضريح يحاكى الطرازالسامانى الذى سلف ذكره . وبرغم عـــدم وجود نقش يشير إلى اسم صاحبه فإن مظهره ونقوشه تأتلف ائتلافا قويا مع توسيعات هذا السلطان لجامع قوة الإسلام حتى لا يقوم أدنى شك فى نسبته إليه . كذلك لا تزال زخارف هذه المقبرة تحتفظ بمعالم غزنوية كثيرة ، منها الزخارف الـكوفية المزينة برسوم الأزهار التى كانت قد أخذت فى الاضمحلال (بدأ ذلك أولا بغزنة فى عهد السلطان إبراهيم ١٠٥٩ ـ ٩٩) والعقود الجَينيَّة التورانية ، وزخارف طرفى الهلال من طراز غـــير تام التطور والنقوش الآشورية « كانجورا » على طول السقف .

أماقبته التى درست، والتى لابد أنها خرّت(وقد كان باطنهاعلى النمط الجينى الهندوكى كماتدل عليه القطع المتخلفة عنه) كماحدث لمقام السلطان سنجر بمرو وبوابة علاء الدين(علائى دروازه)، فإنها لم تـكن على هيئة مخروط السكر (كما أعاد تصميمها Y. A. Page) وهو الطراز الذى ظهر بادىء ذى بدء بعد قرن من الزمان فى ضريح الجايتو خُدابند بسلطانية. هذاوقدبقيت مقبرةعلاء الدين الخلجى بمدرسته القريبة على حالهامن النقصان،

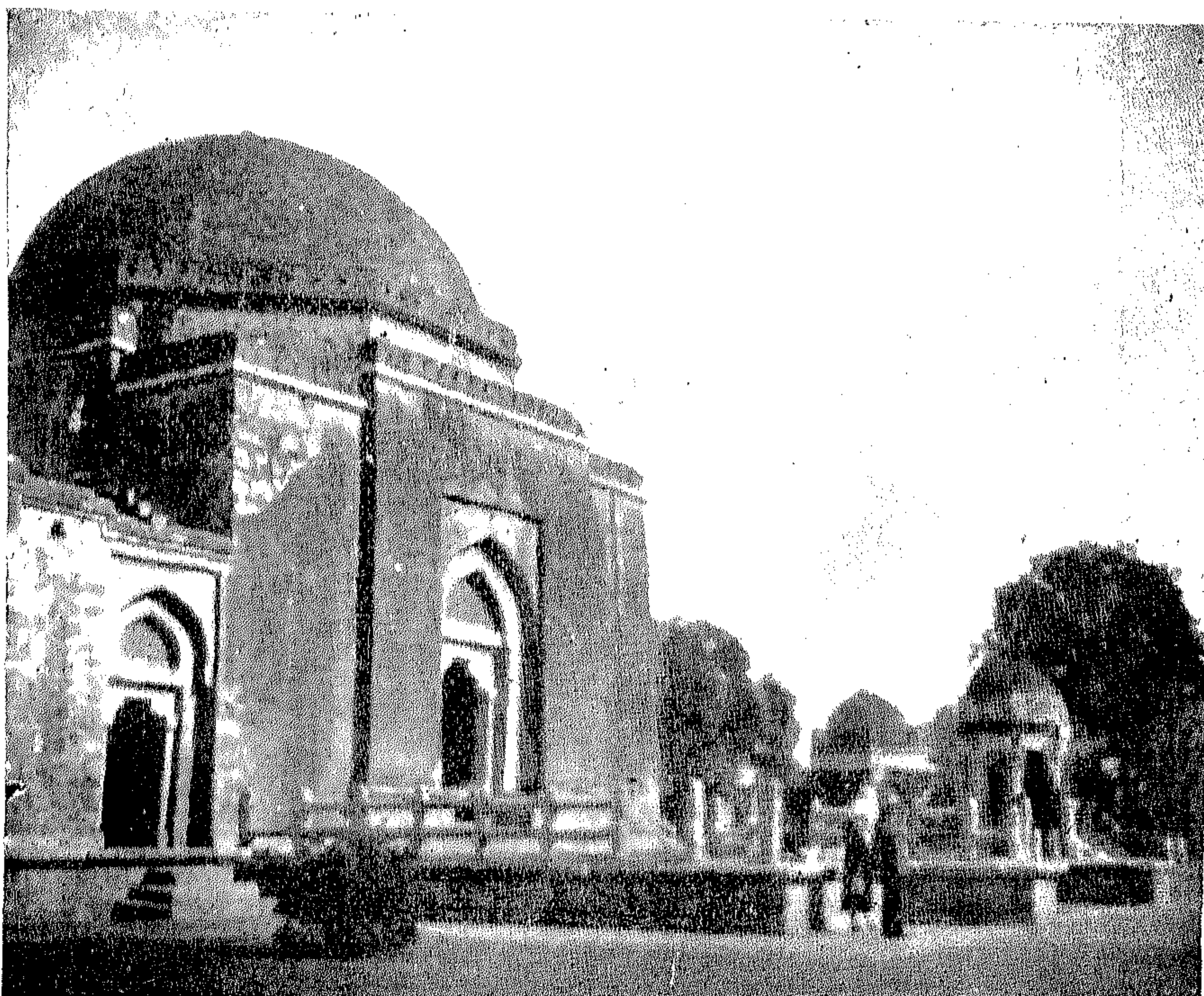
ولعلها كانت قد صممت لتتمشى مع مدخل مسجده . ويعد ضريح جام نظام الدين من أسرة سمّا فى تتا بالسند (١٥٠٨) كآخر صدى لهذا الطراز نفسه .

وبقيام أسرة تُغْلُق (١٣٢٠) تغير طراز العمارة تغيرا تاما . ذلك أن بناء الحصون ما غدا ، منذ هجوم المغول الخطير على سلطنة دهلى فى أوائل حكم علاء الدين ، يتطور تطورا قويا ، فقد كبرت العاصمة باتساع رقعة الدولة وتكدس كنوز الهند بها ، كما ألحق بها بلدان صغيرة ، مثل سِرى وجهانپناه وتغلق آباد ، قام إلى جانبها فيما بعد قلعة فيروز وديناپناه وشاهجهان آباد وغيرها ، وكانت جميعاً محصنة . وأوحى غرور العظمة بتصميمات لمنشآت ضخمة ، فى حين أدّت العجلة فى التنفيذ مع نقصان الموارد ، التى تضاءلت آخر الأمر تضاؤلًا شديداً ، إلى التوقف عن السير على نهج البذخ الزخرفى البالغ الذى كان علاء الدين يشجعه بدوره . وكان مظهر هذا الطراز الجديد هو جدران مستدقة ، هى بمثابة التحصينات والاستحكامات ، من حجارة منحوتة غير منتظمة أو مصقولة ، يتخللها الملاط . وأما زخارفها فكان أساسها شرائح حجرية متعددة الألوان تتخللها ، ويغلب عليها اللونان الأبيض والأسود . هذا وأطلال تُغْلُق آباد وعادل آباد وبجايا وماندل الخ ليس فيهـا ما يلفت النظر . كذلك لم يبق من ردهة قصر ماندل ذات الألف عمود فيما عدا الأساس إلا القليل .

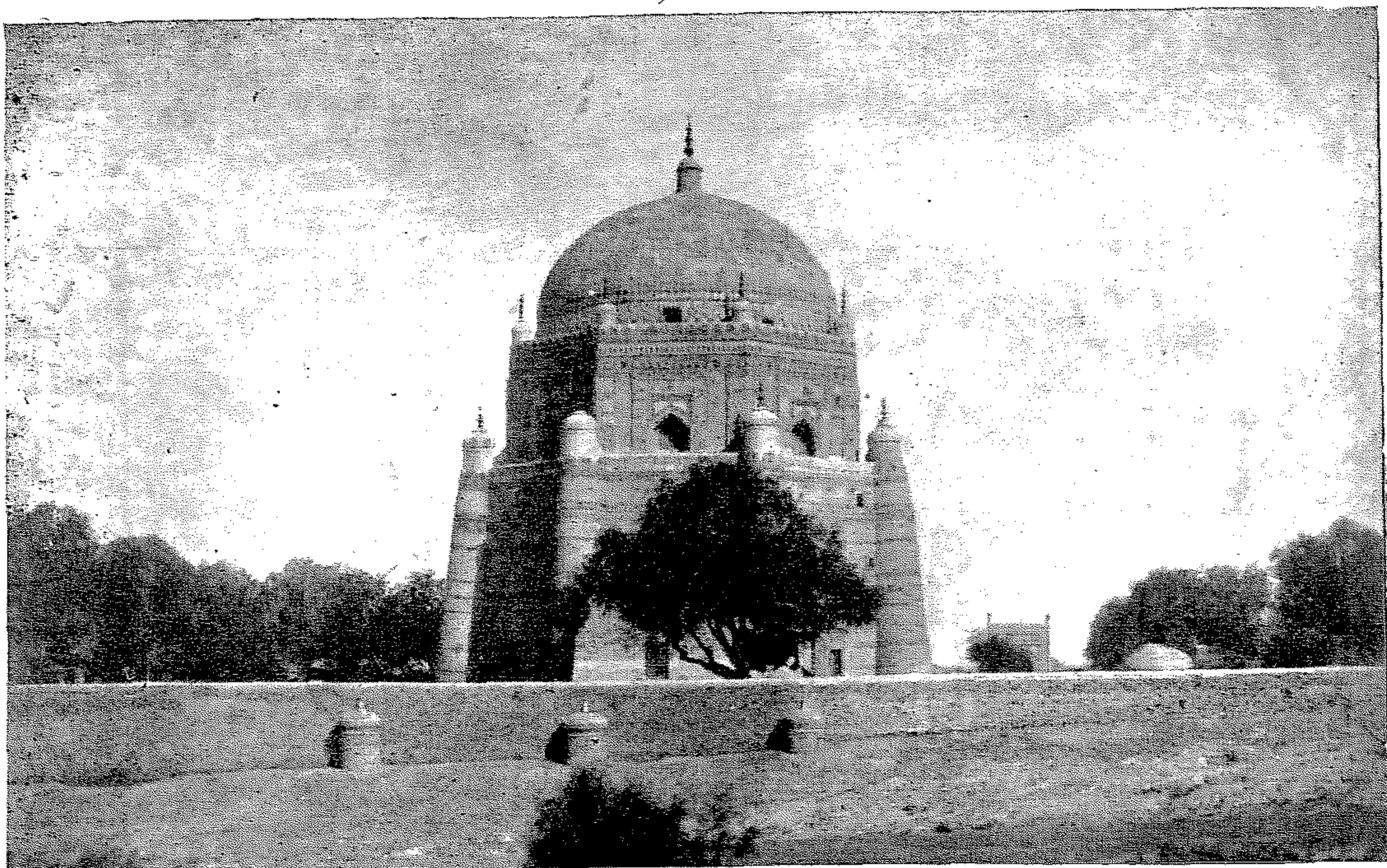
أما مقبرة غياث الدين [تُغْلُق] وهى التى كانت تقع فى السابق على جزيرة محصنة فى حوض كبير بحدود عادل آباد ، فلا تزال تحتفظ بالطراز التكعيبى برغم حوائطها المستدقّة . وقد قُوّى فيها مركز كل واجهة ، كما اتكأت القبة على طبلة مثمنة واطئة نظير ما بمسجد كُلپيگان أو جبل سنگ بكرمان . وهى فى مظهرها العام الشامخ غير الدقيق تحاكى مسجد الجايتو خدابند الذى قام بسلطانية قبل ذلك بأعوام قليلة . ويشاهد بالداخل كذلك ابتكارات ، منها العقود المتقاطعة ، وهى التى شُرِع فى إقامتها بفارس فى القرن الحادى عشر فبلغت غايتها من الإتقان فى بداية القرن الرابع عشر :



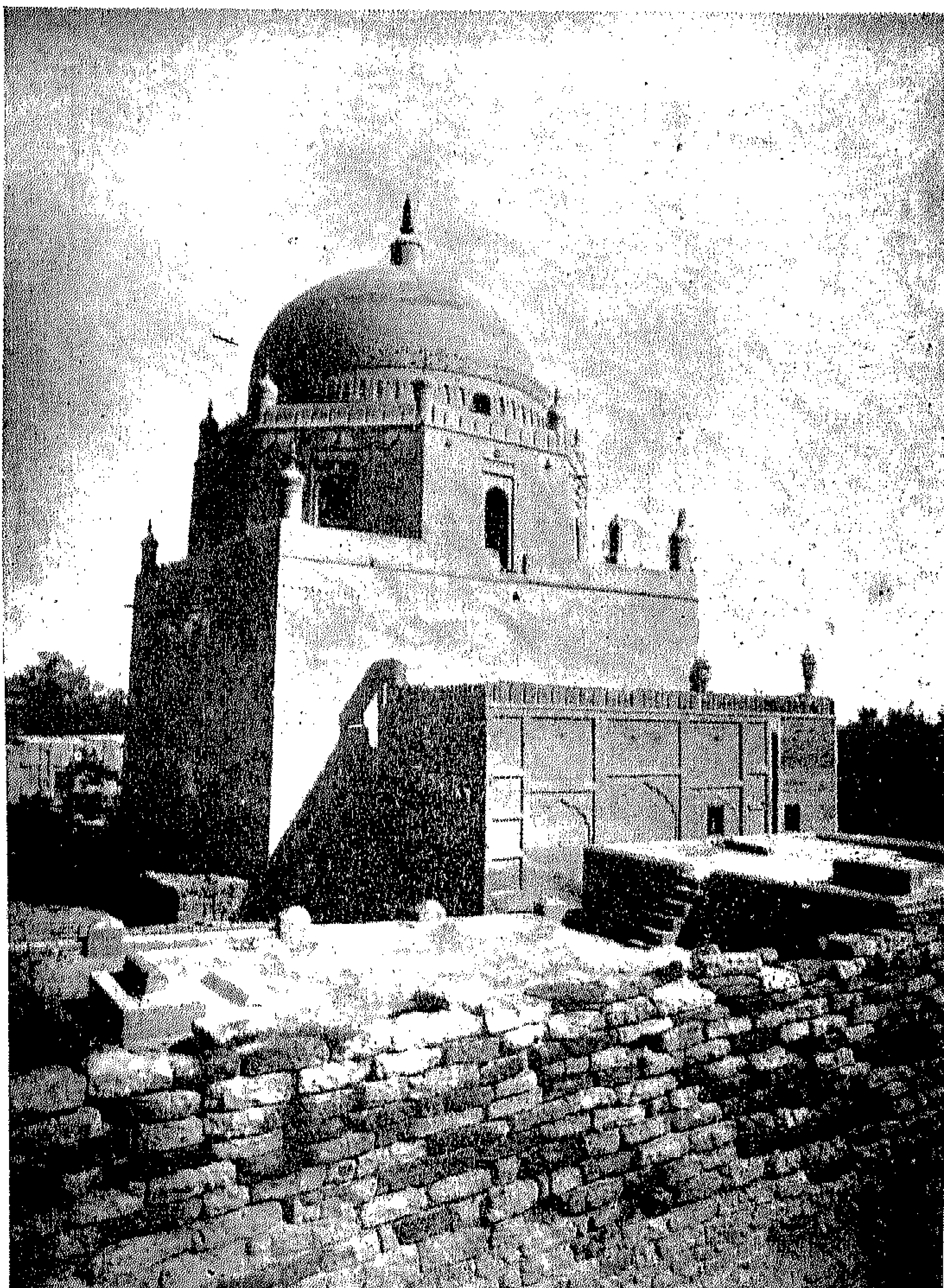
منارة القطب . منارة مسجد قوة الإسلام ، لال كوت ، دهلى القديمة ،
١١٩٣-٩٩م؛ أجرى إصلاحها فى عامى ١٣٦٨ و١٥٠٣م ثم فى القرن الماضى.



ضريح السلطان فيروزشاه تغلق . ١٣٨٩ م بحوض خاص ، بدهلى القديمة .



مدفن شاه ركن عالم بالملتان ١٣٢٠ – ١٣٢٤ م .



مدفن شاه بهاء الحق زكريا بالملتان . بنى فى عهد السلطان بلبن (١٦٢٤-٨٦م).

فأقيمت هنا . هذا كما تحولت العقود من تلك المستديرة المدببة إلى تلك الفارسية الطراز .

كذلك لا ندرى عن الفنون الأخرى لذلك العصر فى الغالب شيئا مذكورا. ولكن على ضوء المعالم التى ظهرت فيما بعد يستبين لنا أن فن النقش كان يجرى عموما على نهج «مدرسة بغداد» فى القرن الثالث عشر . ويشتبه الأستاذ نورمان براون فى تسرب هذا الطابع إلى زخارف مخطوطات كلباسوترا الجَيْنية . أما الفنون التطبيقية ، فإننا نستطيع أن نتتبع بعض أصداء لها باهتة فى الفن الراجپوتى ، وإن كان من المحتمل أن تنتهى دراسة آثار معينة ، دُرجت حتى الآن تحت الفن الفارسى ، بردّها إلى الفن الهندى الإسلامى .

وأدى انهيار هذا « الاستعمار » فى عهد السلطان محمد تُغْلق (١٣٢٤ ـ ٥١) كذلك إلى بداية تحرر فجائى من فن العهد المقيت ، وإن لم يتخذ هذا التحول لنفسه على كل حال خصائص متجانسة .

ولقد أرسخ بالبنغال والگجرات طابع جديد فى طراز يوائم بين الفن الهندوكى والأغراض والمثل الإسلامية . فبدت صورة الغرفة والعقود الحادة والقباب الإسلامية خالصة . وفيما خلا ذلك فقد كان جميعه اقتباسا من الفن الهندوكى بعد تجريده بطبيعة الحال من العناصر الوثنية . وفى حين كان يغلب على العمائر البنغالية استخدام حجارة ثقيلة مع سقف من الطراز البنغالى ذى الانحناء البسيط ، فقد كانوا بالپنجاب يتخذون أساساً من الحجر المصقول الرشيق الذى ينسب إلى سولنكى واغلا Solankis, Vaghelas وخلفائهم من جَيْنيى الطبقة الوسطى . ويبدو اختلاف هاتين الطريقتين عن بعضهما واضحا وإن اتحدت فيهما كثير من التفصيلات الزخرفية . هـذا ويتحقق بالپنجاب تفوق العناصر الفارسية . ولئن كان من المسلم به أن أغلب القباب هى فى مظهرها الخارجى إسلامية فحسب ، إلا أنها من الداخل قد بنى سقفها المجوف على طراز سولنكى واغلا

الخالص القصير ذى الدوائر الحجرية المنقوشة الجميلة . وعلى كل فهناك على الأقل عدد يسير من الأضرحه ذات الطراز السامانى التُّغلقى، منهاضريح أعظم ومعظم خان (١٤٥٧؟) بين أحمد آباد وسرخيج، وضريح دريا خان (١٤٥٣) عند أحمد آباد، ثم ضريح آخر مجهول النسب يقع عند الشرق من شمبنار (وقد نُقل عنه مشوى مكائى كُثار فى باواجده) . ولقد تابع نقاشو أحمد آباد بدورهم السير على نهج « مدرسةبغداد » الذى كان رائجا بدهلى تُغلق، مع مزجه ببعض عناصر هندوكية وگجراتيه وچِينِيَّة .

أما عن فن النقش فى البنغال فلا ندرى عنـــه إلا إنهم قد غدوا ينهجون نهج بهزاد العظيم[1] ابتداء من مستهل القرن السادس عشر .

هذا وقد عثر بمصر على منسوجات قطنية مطبوعة گجراتية التصميم وهندوكيته، كما عُـثر حديثا بعادل آباد والـگجرات على فخار مصقول فيه من المؤثرات التيمورية والفارسية ، وفيما خلا ذلك فلانعلم، على وجه اليقين، عن الفنون الزخرفية لذلك الإقليم شيئا .

ولم يتأت للدكن أن تصيب قدرا من تطور مماثل ، فقد قامت سلطنة بَهْمَنى حاجزا إسلاميا قويا فى وجه التوسع الاستعمارى الهندوكى لإمارة ڤيايانـگر . وإذ لم يكن هناك سبيل للتعارض أو الخلاف المباشر مع فارس حيث كان المهاجرون من التركستان وإيران يلاقون هذه السلطنة على الدوام ترحيبا جما، فقد ولى الفن البَهْمَنى وجهته شطر الفن الفارسى المعاصر له فاستلهمه ، حتى ليُعد دون حرج بمثابة تـكامل استعمارى له . ولم يشذ عن ذلك إلّا المقبرة الصغيرة الخاصة بحسن ظفرخان مؤسس هـذه السلطنة التى أقيمت على الطراز التُّغْلُقى ، فمقابر الأمراء والأعيان التى أقيمت من بعد ذلك

---

(١) هو أعظم نقاشى الفـرس على الإطلاق . وتزدان جـلة من متاحف العـالم بلوحاته الفارسية والهندية . المترجم .

فى گُلبرگه واشتور بالقرب من بيدر هى جميعا من الطراز الفارسى ، أواخر القرن الرابع عشر ، الذى يتمثل فى تكعيب له فى العادة طابقان من الطاقات الصماء مع قبة بصليّه نصف كروية تقوم على طبلة مثمنة وترتكز من الداخل على مجموعات من العقود تختلف عن العقود الفارسية بأنهـا تركيب منها ومن العقود الحادة ، أو هى عقود على هيئة ورق الشجر المثلث أو حذاء الفرس، وأبدع هذه القبور قبرا فيروز شاه (١٤٢٢) عند گلبرگه وأحمد شاه والى (١٤٣٦) باشتور ، ويمتاز الأخير بسقف ذى نقوش بديعة .

ولقد قيل أن المسجد الجامع فى گُلبرگه قد أقيم على نمط المسجد الأموى الكبير بقرطبة . والواقع إن طرازه يتصل بالمسجد الجامع فى أصفهان عن طريق حلقة دهلوية مفقودة على الأرجح . ويمثل المدرسة التيمورية تلك المدرسة التى أقامها الوزير الحازم چوان (١٤٧١) ببيدر وقد جُمِّلت كلها بخزف منقوش بألوان متعددة . هذا وتتمثل المئذنة الفارسية الهيفاء فى چندمِنارة بدولت آباد (أقامها علاء الدين شاه أحمد عام ١٤٣٦) وبوابة يوسف عادل شاه ومنارة شاه رضا بگلبرگه . أما القصور الفارسية بإيواناتها الفسيحة فتشاهد فى خرائب تخت محل وگگن محل وتركش محل وچينى محل وقصر السلطانة التركية بحصن بيدر (وأغلبها يرجع إلى عهد السلطان محمد الثالث ١٤٦٣ ـ ٨٢) ، ولا تبدو المعالم الهندوكية إلا فى الأخيرة منها وبدرجة ثانوية جدا .

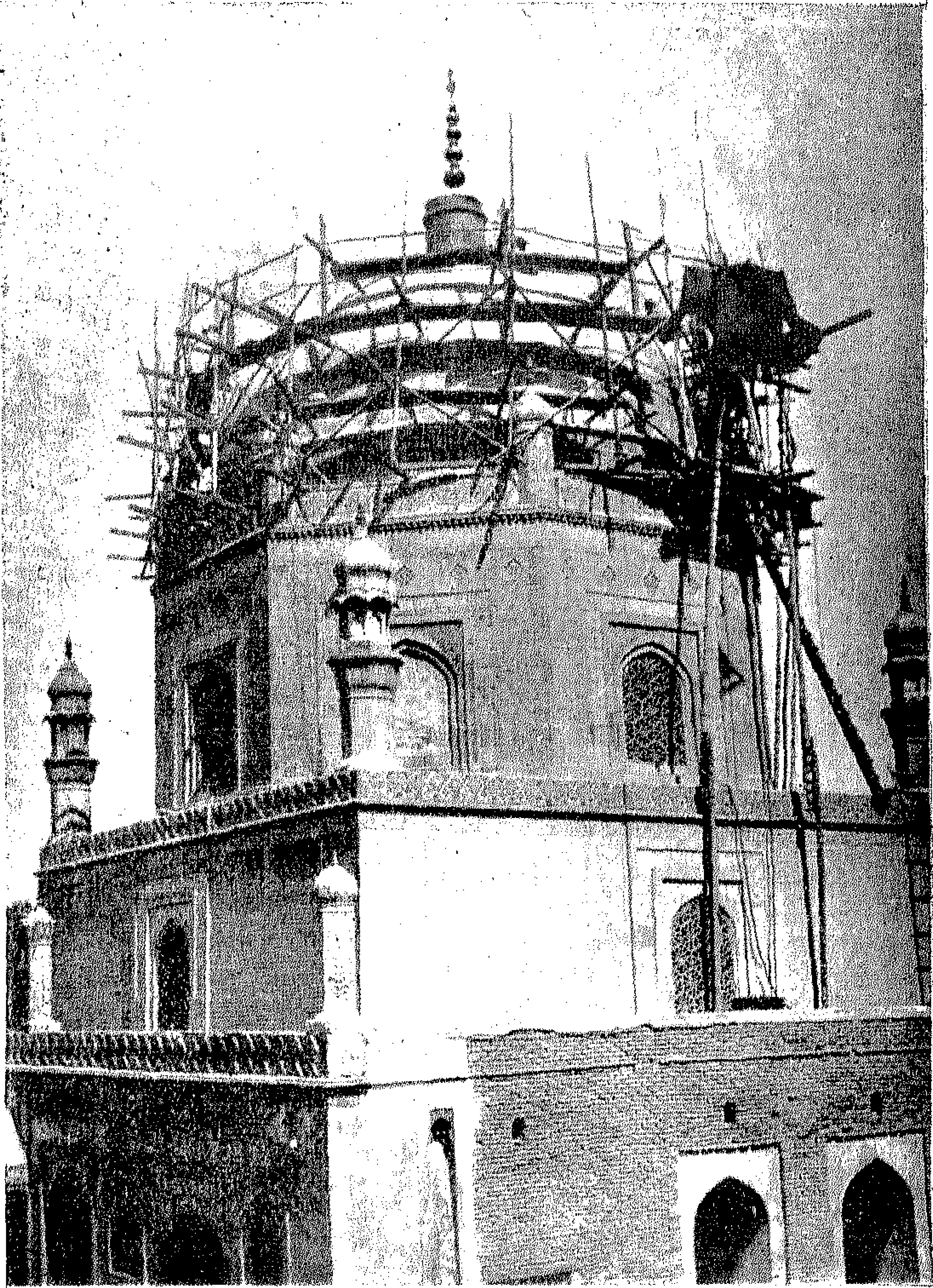
ولم يستدل على النقش البَهْمَنى إلا فى عدد قليل من المخطوطات التى لم تنشر بعد، وهى تقليد دقيق للنهج الإيلخانى التيمورى الباكر ، حتى عُدّت خطأً بين المخطوطات الفارسية الأصيلة برغم ما بها من معالم هندوكية معينة وتركيبات هندسية تماثل تلك الرسوم الراجپوتية وتُفْصح عن أصلها الهندى .

وانتشر بمالوه (وسط الهند) طراز وسط ازدهر فى القرنين الخامس عشر

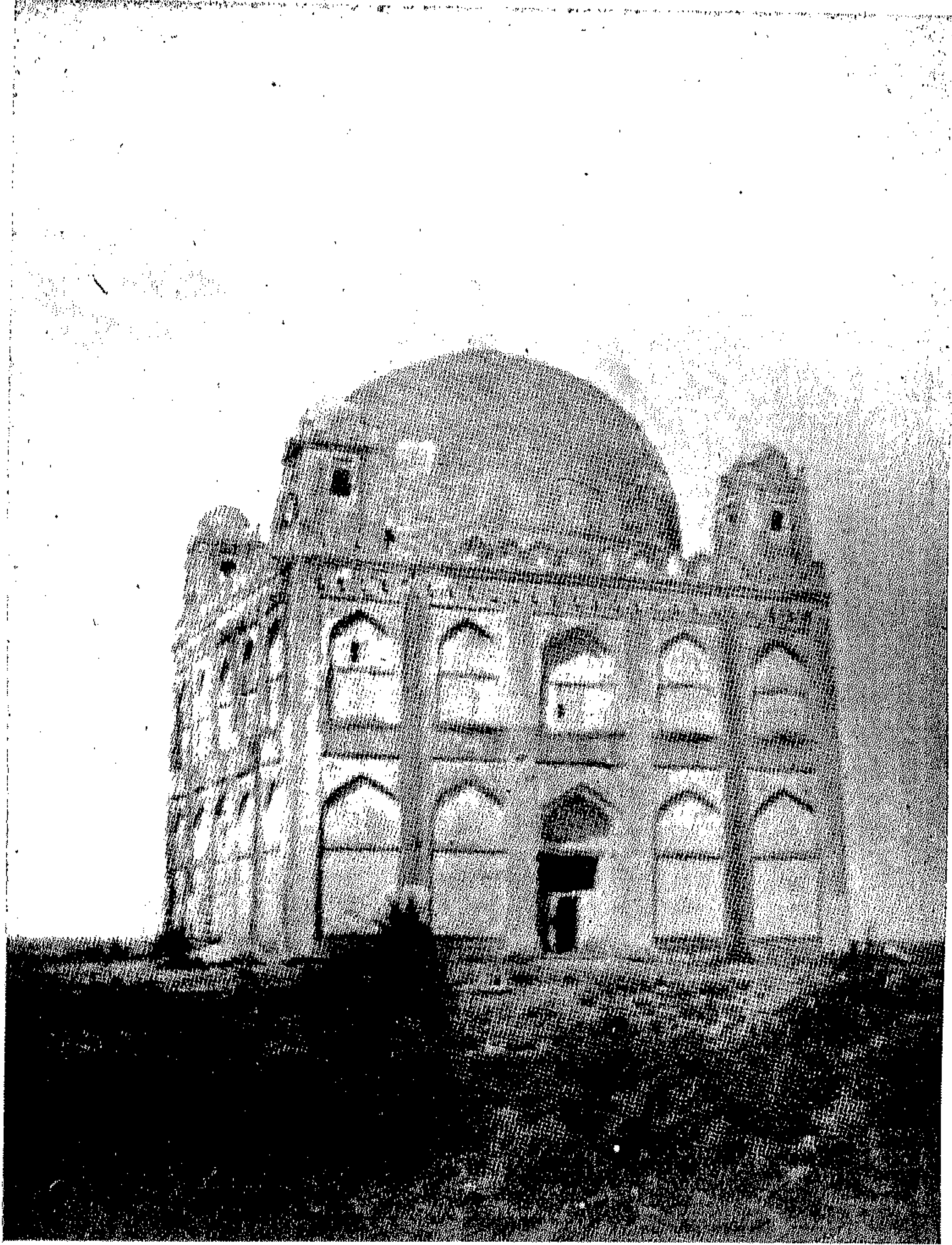
والسادس عشر . هـذا فى حين كانت إمارة ماندو أوثق اتصالا بشمال الهند منها بالدكن ، فنهجت نهج اتجاهات دهلى سالفة الذكر ، وإن بلغتها المؤثرات الفارسية الجديدة من بعد ذلك فى صورة مائعة خفيفة .

وهكذا احتفظت مالوه ببعض التقاليد الباكرة ، فمحرابا جامع لات بدهر (١٤٠٥) والمسجد الجامع بماندو (١٤٥٤) لا يزالان يحتفظان بزخارف الزهور الخلجية طراز طرفى الهلال . هذا كما تابع هندولا محل بماندو (مستهل القرن الخامس عشر) التقاليد التُّغْلُقية بحوائطها المستدقة الثقيلة وأعمدتها ، وهو ماجرى عليه الحال كذلك فى بهو الاستقبال الخاص بشتاب خان . ولقد ظل المسجد الجامع ينسب تارة إلى طرز عربية وطوراً إلى سورية بل وإلى طرز من شمال إفريقية كذلك ، حتى قطع الأستاذ Upham Pope بإمكان نسبتها إلى طرز فارسية معاصرة لها . ولئن كانت قبور هوشنگ ومحمود الخلجى ودريا خان تمد من ناحيةٍ آخر انعكاسات الطراز الذى يمثله ضريح إسماعيل السامانى ببخارى ، إلا أنها فى ناحية أخرى قد استمارت طراز القباب العالية الذى ينسب إلى عصر لاحق . هذا وتطول بمسجد الملك مغيث قبة بصلية على طبلة مثمنة عالية كما يُرى بمقابر المُلتان التى سنتحدث عنها فيما بعد . كذلك يُعد من الفن الفارسى نظام العقود المتقاطعة الغالب فى ماندو هو والطاقات الصغيرة المهيئة كالأصداف البحرية وغيرها .

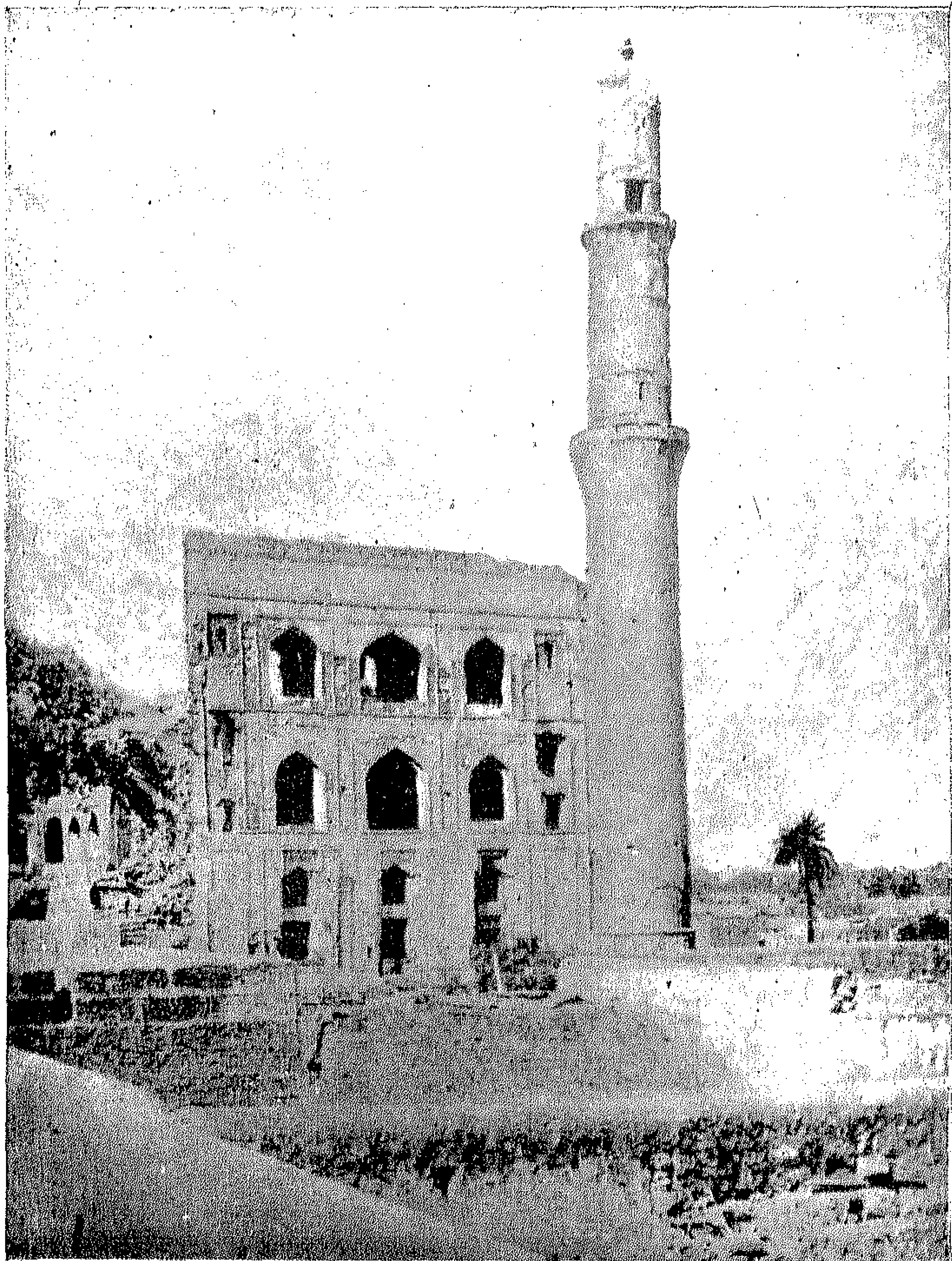
أما الإيوانات الفارسية الضخمة فتتمثل فى بهو الاستقبال الكبير الخاص بالطاغية مدينى راى (محلّ گداشاه ـ مستهل القرن السادس عشر) . وأما مايظهر فى بعض المنشآت من مؤثرات مصرية أو فلسطينية معاصرة لها فلعله قد وصل إليها بطريق سفارة أمير المؤمنين المستعيذ بالله يوسف بن الخليفة محمد العباسى إلى السلطان محمود الخلجى (١٤٣٦ ـ ٦٩) . فحزم الأعمدة والعقود الحادة الخفيفة والنوافذ المستديرة طراز طرفى الهلال هـذه جميعاً هى فى مظهرها كما تُرى فى العمارة الصليبية .



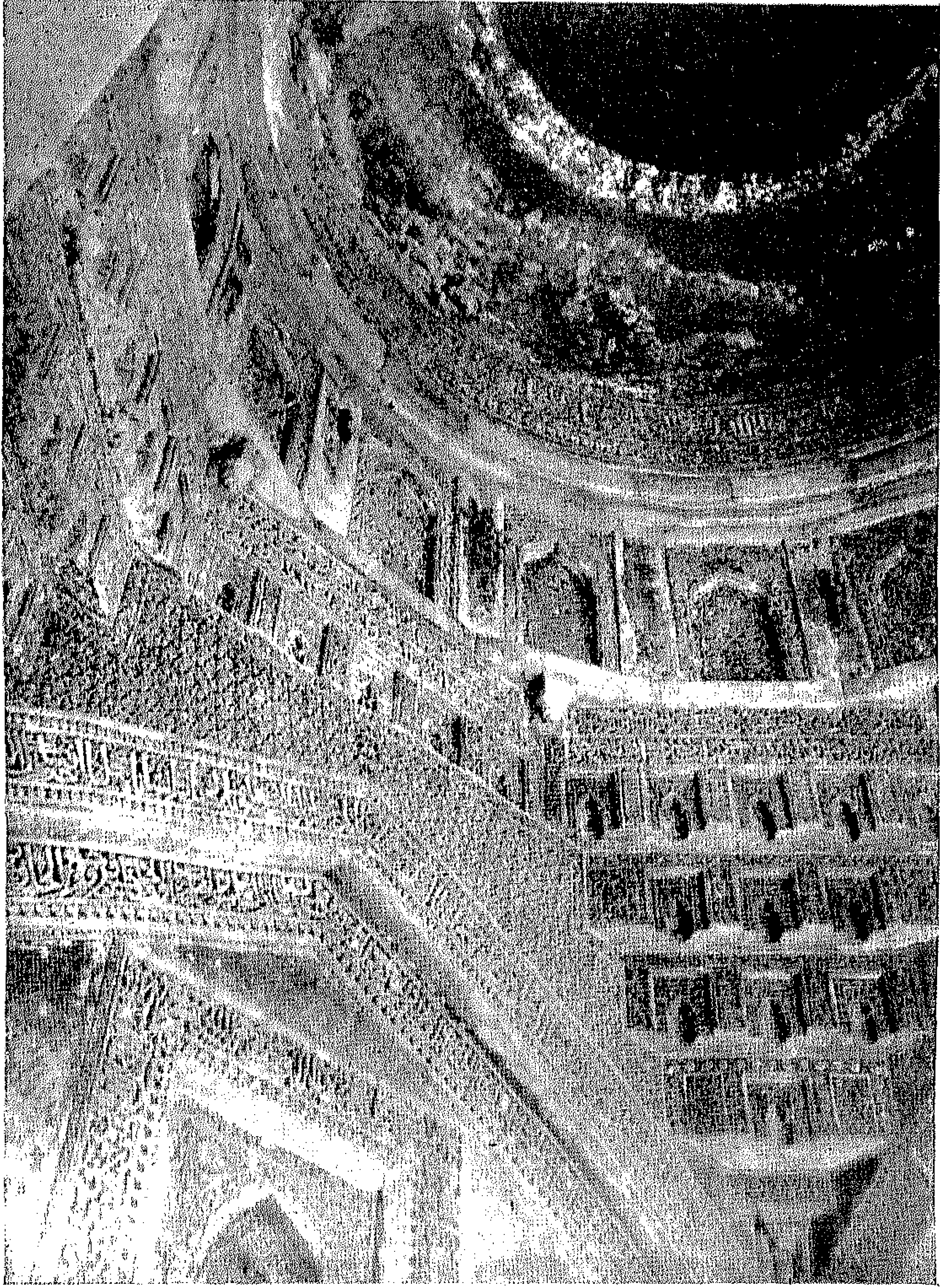
مدفن شاه شمس تبريزى بالملتان . بنى حوالى عام ١٣٠٠ م
وأعيد زخرفته مستهل القرن التاسع عشر الميلادى .



مدفن مجهول صاحبه، من منشآت آخر القرن الرابع عشر الميلادى ، بكلبركه .



مدرسة خواجه محمود جوان . وزير سلطنة بهمنى، بيدر ١٤٧١ م .



القطاعات والقبة فى مسجد قلعة كوهرا ، فى قلعة پورانا بدهلى .
أقامه شيرشاه سورى حوالى عام ١٥٤٠ ـ ٤٥ م .

وبرغم أن العناصر الهندوكية هنا تأتى بالمحل الثانى إلا أنهـا تبدو أشد وضوحاً منها بالدكن أو فى الشمال ، لاسيما فى المبانى « الزنانية »[١] (حيث تبدو غالبة على الدوام) ويبرز أمثلها فى ما يعرف بجهاز محل . هذا وقد احتفظت دار گداشاه (أواخر القرن السادس عشر) ببعض رسوم الأسوار التى تدنو من فن التصوير التيمورى المتأخر دنواً شديداً .

وكان التحوّل فى الهندستان[٢] الأصلية بطيئاً . ذلك أنهـا بوصفها قلب سلطنة تغلق لم يكن لديها من الأسباب ما يجملها تمقت العهد الاستعمارى القديم . فالاتجاهات الفنية الجديدة التى ظهرت بها لم تـكن نتيجة ثورة وإنمـا هى ثمار عمل مستمر متطور بطىء . ولقد كان فيروز شاه السلطان الـكريم (١٣٥١ ـ ٨٨) خليفة محمد تُغلق ، من كبار المعمرين برغم شحه ، فرحب بتجديدات جمة فى الطراز ، ولـكنه أمر باستخدام أرخص المواد فى تنفيذها سواء فى البناية والملاط أو فى نقوش الحوائط . أما النقوش فقد ضاعت ، وأما الفن المعمارى فيبدو على منوال واحد ممل ، فهو قد تجنب الطراز المستدق إلا فى دعائم المئذنة عند الزوايا ؛ هـذا فى حين نسقت الواجهات ببذل أكثر وغطيت الأسطح بقباب كثيرة مع اقتباس العقود الهندوكية القائمة على العمد وكذلك إطارات الأبواب. أما مقبرته فهى محاكاة لمقبرة جبل سنگ بكرمان .

هذا ونذكر من مبانيه الأخرى قصره ومسجده فى فيروزآباد ، وكشك الصيد والحوض الخاص وقلعته وخِركى وتيمور پورا وبكامبورا ، ومساجد مهراولى فى دهلى ، وإصلاحه لمنارة القطب ، ومسجد خان جهان فى نظام الدين وجملة من المنشآت الأخرى فى سرهند وبداون وأماكن متفرقة بالأقاليم .

---

(١) أى الخاصة بالحرم فى منزل هندى . المترجم

(٢) يطلق اسم الهندستان اصطلاحا على شمال شبه القارة الهندية بأكمله . المترجم .

أما السلطان ناصر الدين محمود الثانى فقد بقى من منشآته قبـة لال . وأدى تحلل هذه الأسرة من بعد ذلك وتدهورها المطرد مع الغزو التيمورى إلى القضاء على كل نشاط إنشائى .

واتجاهات هذا النمط نفسه تبدو بشكل أوضح فى عمارة سلطنة شرقى[1] (١٢٩٤ ـ ١٥٠٠) خصوصا بحاضرتها جَوْنپُور . وأخص المعالم المميزة فى مساجد شرقى هى مقاصير الواجهات الضخمة عند محور المحراب الرئيسى ، لاسيما فى المسجد الجامع ومسجد عطا لله . وبرغم أن دعائمها المائلة تمثل ميراثا تُغلقيا فإن طرازها العام لابد وأن يرد إلى التركستان التيمورية خصوصا مدرسة أُلغ بك ومسجد تيلا قارى بسمرقند ؛ كما أن عقود الأروقة الجانبية الواسعة كتلك التى بالمسجد الجامع لابد أن تكون كذلك نتيجة إيحاءات فارسية تركستانية .

هذا ونجد امتداد آخر لطراز جَوْنپُور فى ناگورَ حاضرة سلطنة خانزادة الصغيرة بالراجپوتانا ، حيث تظهر محاكاة المقصورة المرتفعة جلية مع استغراق المعالم الهندوكية فى تركين كا دروازة ، التى تحاكى فى الغالب مسجد أرهائى كنُجدا ببنارس .

ولئن كانت سلطنة دهلى قد بلغت فى عهد أسرتى السادات واللودهيين (١٤١٤ ـ ٥١ ، ١٤٥١ ـ ١٥٢٦) غاية الضعف ، إلا إن عدد منشآتها فى هـذه الفترة هو مع ذلك لم يكن غير ملفت للنظر . ولعل ذلك كان مرده إلى قلة تعرضها للتخريب الشامل . وأظهر ما فيها هى المجموعة التى تعرف بمقابر اللودهيين عند دهلى الجديدة (خيرپور) ، ثم ضريح بهلول اللودهى عنـد روشن چراغ ومقابر سبحان سلطانه وفريق من الأمراء عند سرهند ، ثم شوْراسى گنبذ بكالپى .

---

(١) هى إمارة جونبور وقد لقب حكامها منـذ عهـد تغلق بلقب شاه شرقى أى ملوك الشرق . المترجم .

هـــذا وقوام الضريح ، عندهم ، مكعب تغطيه طبقتان من العقود الصماء ، وهو الطراز الذي سبق أن رأيناه في كُلبرگه وبيدر، أو أن يكون له مدخل بارز رئيسي عال، كما في مقبرة فيروز شاه ، تتوّجه قبـــة عالية بصاليّة كتلك التي ظهرت لأول مرة في ضريح الجايتو خُدابند في سلطانية (١٣٠٧) ، أو كتلك التي بمسجد السلطان حسن بالقاهرة . ولم يكن من النادر ألّا يكون لها بأعلاها برج مكشوف كما يُرى بالمسجد الجامع في الرضائية (١٢٧٧) .

ويكشف قبر إسكندر لودهي بدهلي عن طراز جديد ، هو مثمن خفيض تحيط به عقود هي دعائم لقبة عظيمة الاتساع. ولئن كان المثمن المحاط بالأروقة قد ظهر من قبل بمقبرة الجايتو خُدابند إلّا إن هـذا الشكل يبدو وكأنه صورة هندية خالصة ؛ ذلك أن الترابط الوثيق الفني الخالص لم يظهر فيما وراء البنجاب باديء ذي بدء إلّا على أيدي المغول . وقام هذا الشـكل الجديد ، استحسانًا له ، على عقود غليظة قصيرة فارسية كتلك التي تظهر بفارس في مسجد جوهر شاه بمشهد (١٤١٨) مثلا ، وإلى جانبها إطارات أبواب راجپوتية وسنادات وشرفات بالسقف مقتبسة من العمارة الهندوكية المعاصرة لها بالراجپوتانا .

أما الزخرفة ، فقـد راج منها زخارف الجص التيموري الذي بدا في أجمل منظر بمسجد موث بدهلي ؛ كما استخدمت كذلك الزخارف التيمورية في الخزف المشغول بالميناء . ولم يستخدم هذا الأخير بدهلي إلا في وقت متأخر (١٥١٧) وعلى تفرّق ، وإن كان الخزف الملوّن قد عُرف من قبل ببلاد الأفغان ، منذ عهد سابق، أيام مسعود الثالث الغزنوي (١١٠٠) ، في حين عرفته البنجاب ابتداء من القرن السادس عشر .

وتضم الملتان أربعـــة أضرحة فارسية باكرة مهمة هي التي تحوي رفات شاه بهاء الحق وشمس الدين وشدنه شهيد وشاه ركن عالم، وجميعها مغطاة بالخزف المشغول بالميناء ، ويرجع تاريخها إلى القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، وقد أجريت فيها

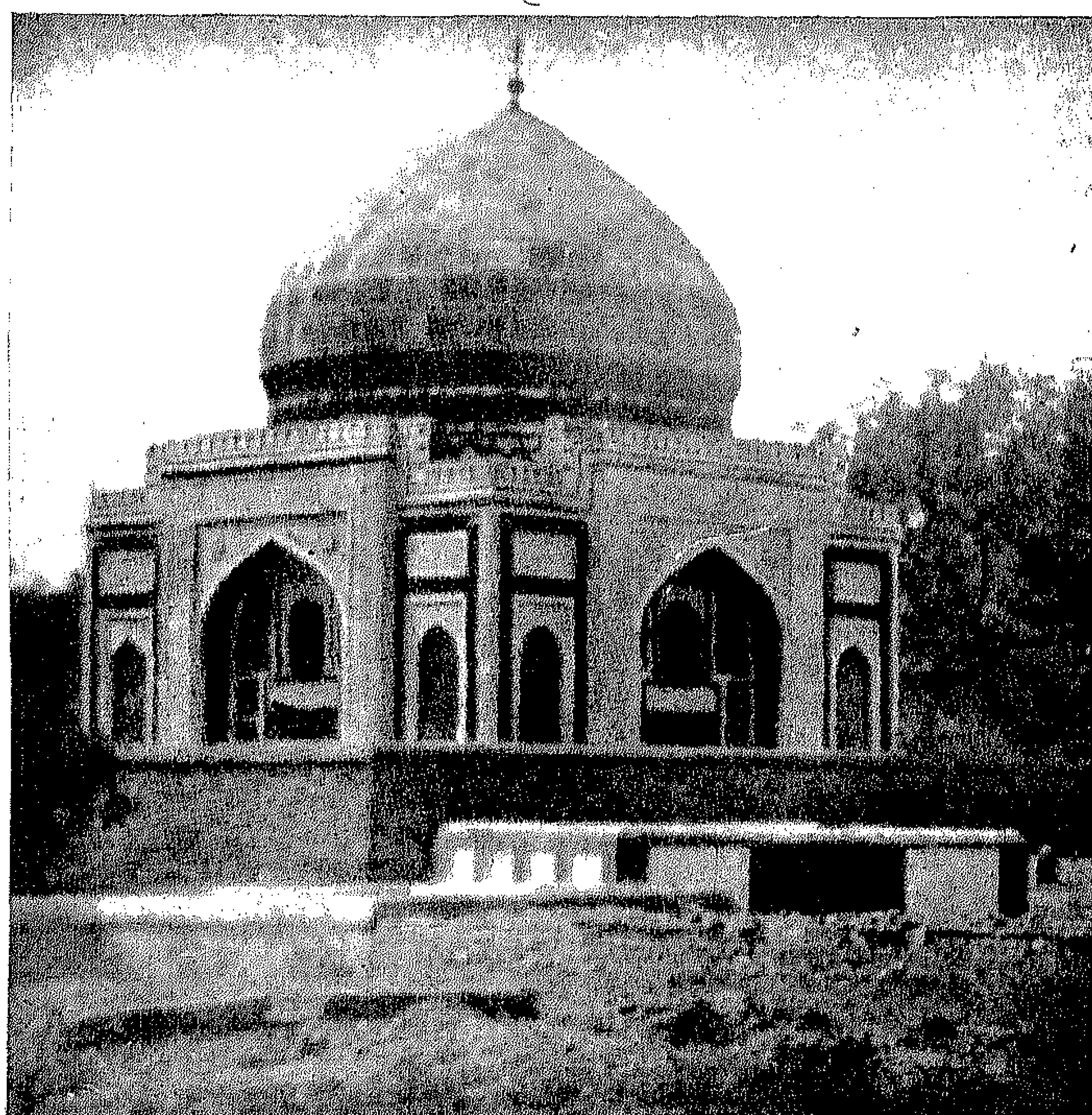
ترميات كثيرة فى العصور المتأخرة . وهناك أضرحة أخرى من الطراز الفارسى نفسه يكسوها الخزف كذلك ولكنها أصغر من سابقتها وهى ضريح آل نَهَر فى ستپور بالبنچاب الغربية وضريح الشيخ موسى آهنگر (نيلا گُنبذ) بلاهور وجميعها من العهد اللودهى .

ولا يفوتنا أن نذكر بالسند ضريح أسرة ترخان فى تتا . هـذا كما يعد ضريحا نواب أمير خليل خان (١٥٨٤) وديوان شرفا خان (١٦٣٨) صورة مصغيرة لـگور مير بسمرقند . أما ضريح جانى بگ (١٥٩٩) فهو مثمّن له قبة واطئة ، فى حين نستبين التأثير السورى[١] واضحاً بمسجد دبگير فى كل من قبّته وعقوده الفارسية.

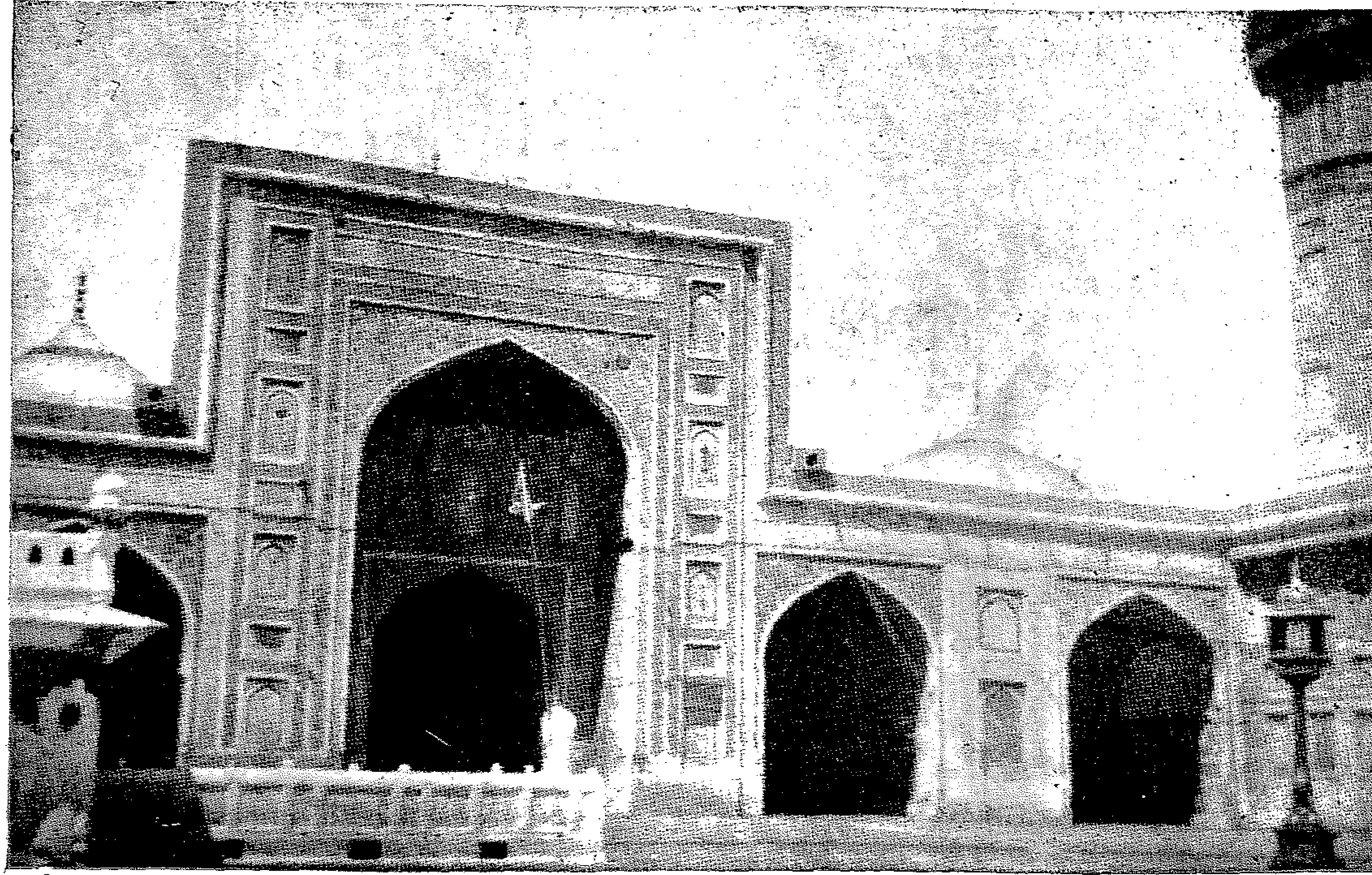
ويولى الطراز الكشميرى وجهته نحو الغرب إلا إنه يحتفظ فى عزلته الجبلية بعالم ممعنة فى القدم . فمقبرة ومسجد السلطان زين العابدين (١٤٢٠ـ٧٠) فى مدنى ومقبرة أمّه فى سرنـگر ، برغم قيامهما على أسس معابد هندوكية ، تنتسب فى نهاياتها إلى التقاليد الفارسية التى تتمثل فى ضريح إسماعيل السامانى ببخارى . أما المساجد الخشبية (المسجد الجامع الذى بناه سكندر بوتشكان (١٣٩٠ ـ ١٤١٤) ومسجد شاه همدان (١٣٨٤) ومسجد بامپور (١٣٨٤) وجميعها قد شملها التجديد مرات عـدة) ذات الصحون المسدسة الواسعة والسقف الهرمية التى تعلوها منائر ونواقيس فذّة ، فلم يحقق أحدٌ بعدُ نسبتها على وجه اليقين ، وإن تـكن على ، ما يبدو ، تمثل ، احتمالا ، اقتباسا من نمط شَيْتِىّ بوذى قديم (بريها سپورا مثلا) لايزال يقوم فى هياكل بجودا بالشرق الأقصى . أما الخزف الفارسى المشغول فلم يظهر بادى الأمر إلّا فى ضريح مادنى ، ويبدو أنه من جلب الدولة المغولية فى أول عهدها .

---

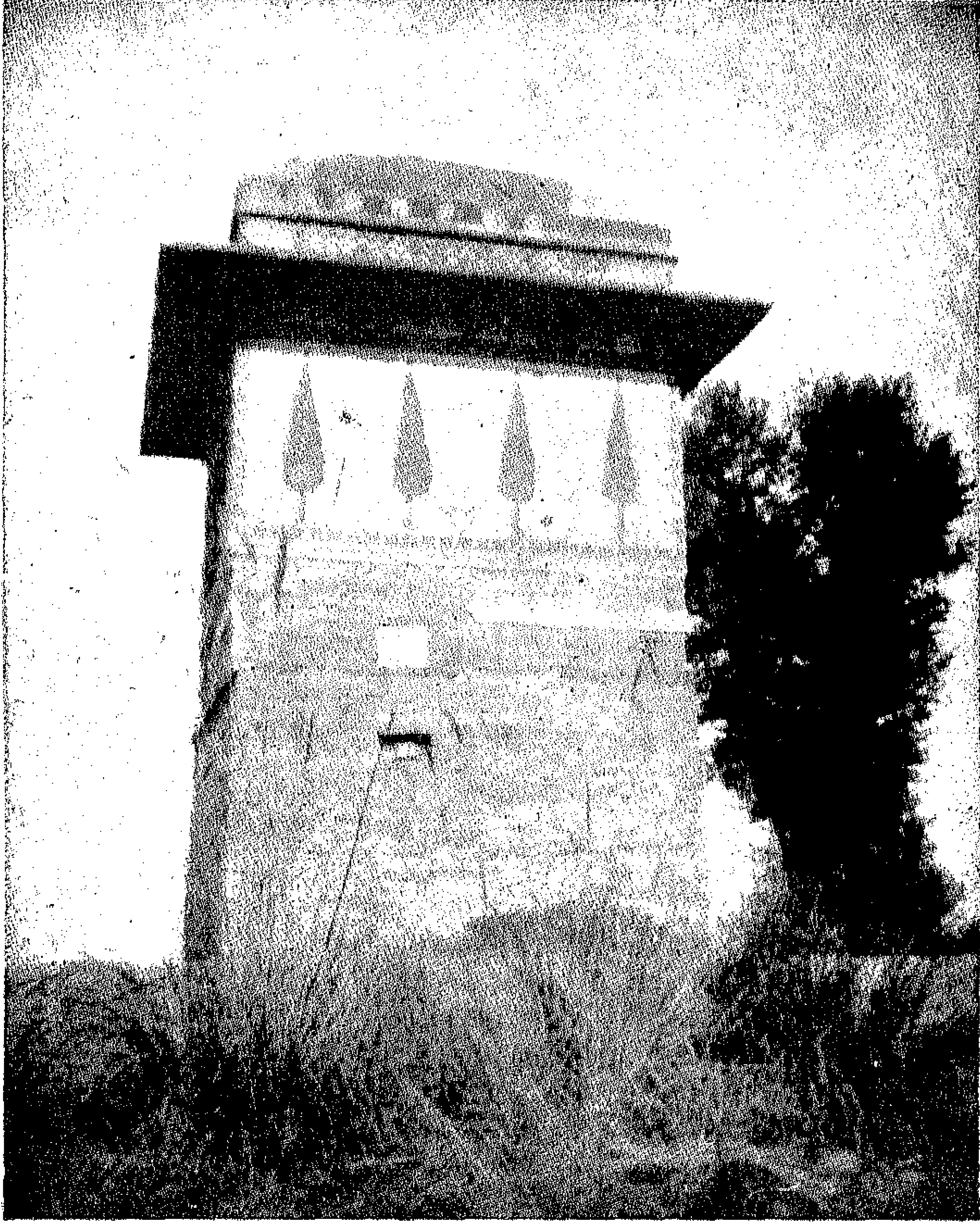
(١) نسبة إلى أسرة شيرشاه سورى الأمير الأفغانى الذى استطاع إخراج همايون ثانى سلاطين الدولة المغولية من الهند ، وظل وأسرته يحكمون أكثر من خمسة عشر عاما استطاع من بعـدها السلطان المغولى أن يسترد عرشه ثانية بمعاونة طهماسب بن إسماعيل الصفوى شاه الفرس . المترجم



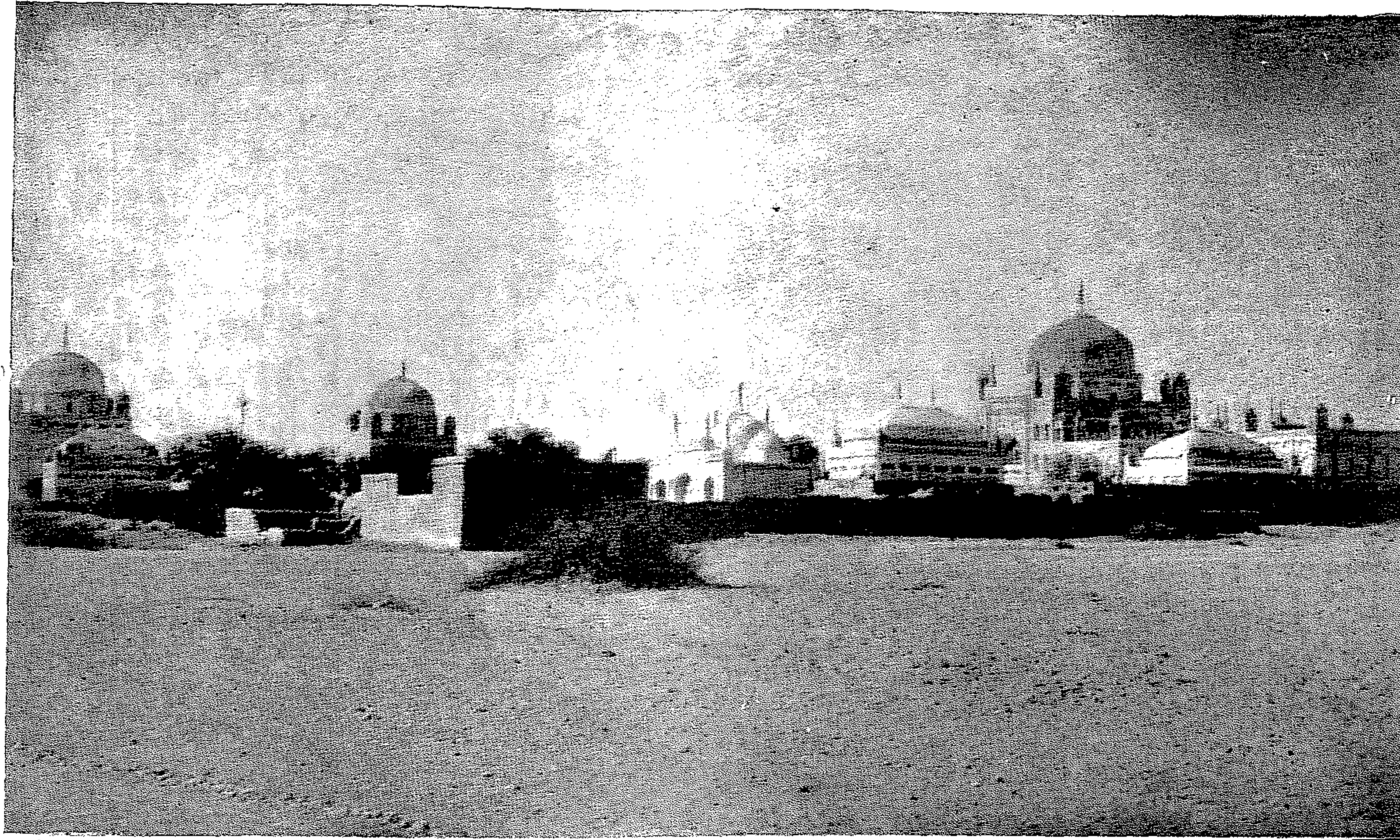
مدفن أتكه خان ، أخى السلطان المغولى أكبر بالرضاع .
عام ١٥٦٧ م . نظام الدين بدهلى .



مسجد حكيم علاء الدين چينيوتى (وزير خان) حاكم البنجاب فى عهد السلطان شاهجهان. لاهور ١٦٣٤م.



مدفن شرف النساء بيكم ، أخت زكريا خان حاكم البنجاب
(١٧١٩ - ١٧٤٨ م) بيكبورا بالقرب من لاهور .



مدفن غلام شاه كالهرا . حوالى عام ١٧٧٢ م – حيدر آباد السند .

وفى ظل أسرة سورى (١٥٤٠ ـ ٥٦ / ٥٨) ، التى أبعدت الأسرة المغولية عن الهند حيناً من الدهر ، بلغ طراز السادات واللودهيين غاية المدى من التطور والإتقان، وقد دعمته نماذج وأشكال زخرفية وصلته فى الغالب من مصر التى كان العثمانيون قد استولوا عليها منذ وقت قريب . وأبدع مُنشآت هـذا الطراز هو مسجد القلعة القديمة (قلعهٔ كهنه) بحصن بُرانا وضريح شيرشاه فى ساسرام (بهار) .

ولم يستخدم الأفغان السوريون طراز المقابر ذات الطابقين إلا فى النادر ، فتكون عقوده حينئذ غير صماء كما يشاهد بضريح فاتح خان بألْوَر (١٥٤٧) أو فى أضرحة سرهند ومَتَرَ . وهم كذلك قد آثروا عموماً طراز الأروقة المحيطة الواطئة التى استُخدمت أول ما استُخدمت فى مقبرة إسكندر اللودهى ، ومن نماذج هذا الطراز مقبرتا شيرشاه وحسن سور فى ساسرام ومقبرة عيسى خان بدهلى ، ثم من بعد ذلك مقبرة أدهم خان بمهروالى فى العصر المغولى .

هذا ويعد مسجد سورى الصغير امتداداً لطراز جامع موث ، فى حين يظهر تأثير الدكن جلياً فى القلعة القديمة الكبيرة « قلعهٔ كهنه » خصوصاً بأبراج الأركان ، وإلى جانبه طابع الزخارف المصرية المملوكية التى سبقت الإشارة إليها (نظير ما بضريح السلطان الناصر وأحمد المهمندار أو المؤيد بالقاهرة) .

وإذْ كانت مدة حكم هـذه الأسرة قصيرة ، فإن منشآتها كانت بالتالى محدودة العدد جدا . على أن الطراز السورى قد عمّر حتى عصر السلطان أكبر ، فكان أحد العناصر الهامة فى فن المغول الباكر فى الهند ، وفى الفن الراجپوتى أواخر القرن السادس عشر وأوائل السابع عشر (أورشها ، داتيا ، وآمبر الخ) .

وحدث بالدكن ثورة أخرى فى الطرز ، كان منشؤها أولا تفكك سلطنة بهمنى المتداعية إلى إمارات بيدروبرار وخاندش وأحمد نگر وبيجاپور وغولكونده(١٤٩٠ـ

١٥٢٧)، ثم تداعى مملكة ڤيايانكر من بعد ذلك على أثر معركة رَكْشسا تجيدى (تليكوتا) عام ١٥٠٥ . وقد نتج عن هذين الحادثين أثران مضادان ، فظهور هذه الإمارات الجديدة كان معناه اشتداد قوات المسلمين وتدفق المغامرين الحربيين من جديد من مصر وفارس وبلاد العرب والدولة العثمانية على هذه البلاد، أما سقوط مملكة ڤيايانكر فقد كان إيذانا ببدء هجرة عاطلي الهنادكة، من فنانين وبنائين ونقاشين وجوهريين ونساجين وطرازين ومغنين وراقصين، وسرعان ماظهر تأثير هؤلاء جميعا فى الدكن والراجپوتانا كافة ، فالأولون قد أتوا معهم بأساليب فارس وتركيا، فى حين أدخل الآخرون صورا من الفن الهندوكى إلى الفن البهمنى الفارسى الذى كان قائما .

هكذا نرى العنصر الفارسى قد لعب دورا أقل أهمية فى الفن الدكنى المتأخر ، وإن لبث واضح المعالم فيه أكثر منه فى الفن المغولى المماثل ، وأهم من ذلك فقد كان هذا الدور يتفاوت تفاوتا كبيرا ، لا فى تخيّر الأشكال الفارسية المقبولة فحسب، بل وأيضا فى مزجها وتداخلها مع العناصر الهندوكية .

ولقد بقيت المقبرة البَهمنية عموما محتفظة بطرازها ، لكن عقود الحوائط كان يستعاض عنها فى بعض الأحوال بالعقود الهندية المقامة على عمد . هذا ولم تظهر القبة الفارسية إلا فيما ندر ، فقامت بالمسجد الجامع القديم (الذى بناه إبراهيم الأول ١٥٣٤ـ ٥٧) ومسجد عين المُلك ومقبرته (١٥٥٦)، ثم من بعد ذلك (١٦٣٦) بالمسجد الجامع فى بيجاپور . وفيما عدا ذلك ، كانت القبّة تطبع بالطابع الهندوكى : فقّاعة هائلة تبرز من ثنايا إكليل من أوراق زهر اللوتس وقد توجّتها زهرة لوتس مقلوبة . وهاهى فى گول گنبذ ، ذلك الضريح ذى الطراز الفارسى الهندوكى ، قد انتشرت على هيئة فُقاعة جبارة (قطر القبة ١٢٤ قدم فهو دون قطر قبة كنيسة القديس بطرس فى روما بخمسة عشر قدما لا غير) تحاكى نمط مساجد استانبول الضخمة ، وإن كانت تحتفظ أساسا بالتصميم الأصلى المقتبس عن مقبرة إسماعيل السامانى ببخارى .

وفى ناحية أخرى نرى ضريح إبراهيم الثانى وفيه العقود حول غرفة الدفن المركزية نظيرما بمقابر اللودهيين المتأخرين وأسرة سورى ، فى حين كانت زخارفه مزيجا من العناصر التركية والفارسية .

أماالعقود فكانت أول الأمر من النوع الغليظ القصير الفارسى، المعروف فى الفن اللودهى ثم تطورت من بعـــد ذلك إلى هيئة قوس مزدوج على صورة حرف S عليه زخارف نباتية مرصوصة بهيئة طرفى الهلال، كتلك التى توجد فى صفدبولا بالتركستان. وثمة خاصة تتميز بها العقود التركستانية ، ألا وهى تاج الزهور الذى يمكن أن نتتبّعه ابتداء من القرن السادس فى باميان كرمّانة أناهيتا .

ولئن كانت زخارف ڤيايانگر قد حلت محـل كل أثر فارسى فى الأعمدة والدعائم وأسوار الأسطح، إلا أنها كانت لاتختص على كل حال إلا بالمنزل الهندوكى، والحفرعلى الخشب والأثاث للتـكفيت المدنى فلم تنفذ إلى المعبد الهندوكى . لهذا كان الطابع الهندوكى هو الغالب فى العمارة المدنية ثم ما لبث أن رجحته هنا المثل الفارسية .

أما نقوش الميناء فقد كانت موجودة برغم ندرة استخدامها ، فنراها مثلا فى چينى محل بدولت آباد، الذى تذكرنا مقصورته بمساجد جونپور ، أو فى بادشاه آشورخانة فى غولـكندة (١٥٩٥) . وقد استعيض عن هذه المقصورة فى رنـگين محل ، ببيدر ، ذى الأعمدة والسنادات الهندوكية الخالصة ، بحاجز من خشب الأبنوس المطعم بالأصداف .

أما الإيوان الفارسى الواسع، الذى اشتهر فى طاق خسرو، ثم راج من بعد ذلك فى المساجد والمدارس التيمورية ، وبهو الأعمـــدة الفارسى المعروف بطراز چهل ستون (الأربعين عمودا) هذه جميعها قد ذاعت هنا ذيوعا شديدا ، ومثال الأول ، ببيچابور فى گـگن محل (١٥٦١) وآنند محل (١٥٨٩) وسنجيت محـل (١٥٨٩) وقصور غولـكندنده لا سيما گوشه محل ، فى حين يمثل الثانى آثار محل (١٦٤٦) ببيچابور

ويادشاه آشور خانه، والقصور المتأخرة فى حيدر آباد . ويجب أن يلاحظ هنا على كل حال ، أن الطـــراز الأول لم يقم على الأقبية ، وإنما كان على قناطر عقود ضخمة تحمل سقفا خشبيا، (كما فى ساندو على ما سبق ذكره) . وأول مثال بالدكن أجرى على هذا النسق هو ممشى المعقود فى دركاه شاه بندنواز بكُلبركه،وهو من منشآت فيروز شاه بهمنى عام ١٤١٣ . كذلك يمكننا أن نعد من بين الصور الفارسية أساسا « سات منزل »، وهو أحـد أبراج الحراسة بقصر بيجاپور الذى بناه إبراهيم الثانى للملـكة رمبها عام ١٥٨٣ .

كذلك يلاحظ فى النقش الدكنى تنازع بين الميول والاتجاهات الفنية شبيه ماسبق. ذلك أنه على أثر موقعة ركشسا تجيدى طغى على فن التصوير الدكنى موجة من أسلوب ڤيايانـكر، استمرت لمدة تتراوح بين عشر سنين وعشرين . ويبدو أثرها بارزا فى صور النساء بسفر « تاريخ حسين شاهى » و « نجوم العلوم » وكثير من الأغانى المصورة أجملها ما فى بكنير . وقد أدى من العجز عن تنفيذ زخرفة التذهيب الباذخة فيما بعد ، إلى استمرار الأشكال الزخرفية الهندوكية، والتعبيرات الغنائية الهندوكية، هذا كما ظلت صور أهـل الرقص والغناء، والخطايا المناداكة ، رائجة حتى القرن الثامن عشر . على أن طريقة النقش التركى والفارسى فى القرن السادس عشر ، قد استُخدمت فى نفس الوقت فى رسم صـور الذكور ، بنفس المخطوطات ، وعلى جدران الجوشق المائى فى كومتكى بالقرب من بيجابور (حيث التعبيرات النسائية هى أيضاً هندوكية) .

هـذا وقد غلب على نقوش بيجابور فى القرن السابع عشر، إجمالا ، أسلوب عصر الشاه عباس الأكبر ، حتى حل محـله الأسلوب المغولى ، أيام جهانكير وشاهجهان.

أما أبسطة Masulipatam الرخيصة المنقوشة ، فـكانت مزيجا من العناصر الفارسية والهندوكية ، وهو المزيج الذى يبدو واضحاً كذلك فى زخرفة الأسلحة والمعادن الأخرى وتطعيم الأخشاب الثمينة بالعاج وهذا كله وقف على هذه الفترة بالدكن ، فى حين يلوح أن الصناديق المزخرفة « باللاكيه » كانت تجلب من فارس .

وجاء الغزو المغولى[1] إلى الهند بموجة أخرى جديدة من موجات المؤثرات الفارسية كانت أقوى وأشد ، وهى فى دورها الأول فى عهد السلطان بابر (١٥٢٦ـ ٣٢) ذات خصائص تيمورية تركستانية . على أن قصر هذه الحقبة ، مع امتلائها بالحروب وشئونها ، قد أعاق تتبع آثارها . ومهما يكن فإنه لم يبق من آثار بابر بعاصمته آگرا إلا منشآت راماباغ دون أى أثر لمبانيه الأصلية. هذا كما أننا لا نجد بمسجد همايون هناك (١٥٣٢) ما يثير الاهتمام أو يلفت النظر ، ومن هنا ألا يمكننا أن نحقق الخصائص العامة لهذه الحقبة الأولى إلا على هدى نقوش أول عهد أكبر وصداها فيها فحسب .

وتعد دينپناه ، مقر همايون، أجدر بالاهتمام مما سبق كله (وهو يقع بين مقبرته ومقبرة نظام الدين وقلعة پورانا بدهلى، وقد أقيم بين عامى ١٥٣٠ـ ٤٠ ، ١٥٥٥ـ ٧٠)؛ وكان غريمه شيرشاه قد هدمه ، وما بقى من منشآته حتى اليوم هو ما أقيم بعد أوبته من المنفى أو فى أول حكم ابنه اكبر مما أنشأه أرملة همايون ورجال بلاط خليفته الصغير . وإذ كان همايون قد اصطحب معه ، عند أوبته من بلاط طهماسب ، جملة من فنانى الفرس ، فقد غلب على طراز ثانى سلاطين المغول الطابع الفارسى الأصيل باستثناء استخدام البلاط الملوّن الذى كان رائجا بالهند منذ أيام الخلجيين ، مكان نقوش الميناء الفارسية فى أحوال غير قليلة .

وأبرز آثار دينپناه سالفة الذكر ضريح همايون الضخم (فى حجارة رملية بيضاء وحمراء) مع حديقته الفسيحة المعروفة بچارباغ وحديقة بوحليمة التى تصغرها (مع بوابتها ذات القرميد الملون المصقول) ، ثم عرب سراى مع جملة مقابر صغيرة خاصة

---

(١) يقصد بهذا الغزو هنا فتح ظهير الدين محمد بابر للهند وتأسيسه الدولة المغولية بها فى أوائل القرن السادس عشر . المترجم .

بأفراد أسرة همايون ، ومدرسة خير المنازل التى أسستها ماهوم انكه (ذات البلاط المموّه بالميناء والجامات الجصية المفرغة) ثم مقبرة الوصى بيرم خان[1] خانان .

أما أبرز آثار ضاحية نظام الدين فهى قبر آتكاه خان (١٥٦٦ / ٧) ومسجد الشيخ عبد النبى (١٥٨٤ على مقربة من بوابة شاهجهان آباد الجنوبية) الذى يقع على مبعدة منه .

وأما فى خارج دهلى فيذكر من بين مساجد أكبر على الأخص (ما هو بالخزف المموه بالميناء) مساجد آچمير وناكور ، ودركاهِ حضرت إسلام بلاهور ، وقبر قطب الدين بيارودا (١٥٨٣) ، ثم البرج التذكارى لهمايون عند سرنات (١٥٨٨) وجملة من القبور عند سرهند .

هــذا ولا يزال الطابع التركستانى واضحاً جلياً فى بعض نقوش عصر همايون ، وفى حمزه نامه أول إبداع تصويرى فى عصر أكبر .

ولكن فن النقش المغولى سرعان ما انطوى تحت أسلوب بلاط الشاه طهماسب وذلك بتوجيه اثنين من رجال الفنون الفرس هما مير سيد على التبريزى وخواجه عبدالصمد شيرين قلم . ومالبث هذا الطابع الأخير أن غلب بدوره على رسوم المنسوجات ونسج السجاد كذلك ، ثم على المعدن المشغول ، كما بدت السكة المغولية ابتداء من عهد أكبر وما تلاه صورة مطابقة للسكة الصفوية .

وسرعان ما عاد فن أسرة سورى المغلوبة إلى الظهور من جديد جزئياً تارة وكلياً تارة أخرى . فمقبرة أدهم خان فى مهراولى هى على سبيل المثال تقليد لمقبرة حسن سور ، فى ساسرام ، ومقبرة عيسى خان بدهلى مع إضافات بسيطة للتعبيرات الفارسية الزخرفية

---

(١) إلى هذا القائد يرد الفضل فى استرداد همايون ملكه ، كما يعرف له فضل آخر ألا وهو تنشئة أكبر أعظم سلطان عرفته الهند . المترجم .

الجديدة ؛ ومهما يكن فإن الطراز السوري قد استمر يلعب دوراً هامًّا قرابة نصف قرن ثم طفق يمتزج بالتدريج مع عناصر الطراز الجديد الذى استُحدث منذ عام ١٥٧٠ إبان نهضة فتوحات أكبر الواسعة وسياسته المتسامحة(١) حتى انتهى أمره فى النهاية إلى الانصهار التام فى طراز أكبر وجهانگير. وأدى ائتلاف اكبر مع الأمراء الراجپوتيين وحرصه على خطب ودهم إلى ازدياد إقباله على الطرز والفنون الهندية التى ظهرت متطورة فى چتورگاه ثم فى چُدهپور وأورشها، وأخيرا فى أمبر وبوندى .

هـذا كما نرى الطراز الراجپوتى إلى جوار الطراز السورى والـگجراتى وطراز مالوه جنباً إلى جنب مع بعض المعالم الفارسية ، تسود جميعها منشآت اكبر فى سنواته المتأخرة (١٥٧٠ ـ ٨٠) ومنشآت أوائل عهد جهانـگير (حتى عام ١٦٢٠) فى فاتحپور سِكَرى وفى القصر الأحمر بحِصن آگرا وحصن لاهـور وسكندرى والله آباد وأجمير وغيرها . وتغلب النمـط الفارسية على المداخل والعقود وعقود الأساس وأروقة الدواوين والأسواق وواجهات المساجد والمحاريب ، والبوابات (كما فى بُلَند دروازه وفاتحپور سكرى) وفى تجاويف الجدران الصماء الحشوات الخشبية وما شابه ذلك . أما الابتكارات الفارسية فكانت الأعمدة الهيفاء المستديرة ذات التيجان المقرنصة والأفنية المضلعة (كما فى ناتنز ومسجد على بأصفهان) وجملة من التعبيرات الزخرفية (فى ناتنز كذلك) خصوصاً زخارف السرو ، وأما البلاط المغطى بالميناء فلم يستخدم إلا قليلًا فى سكندرة ولاهور ثم كاد ينعدم استخدامه من بعد ذلك .

---

(١) كان اكبر أول من نادى بأن الهنـد للهنود مسلمين وهنادكة ، وإليه يرد الفضـل فى تشجيع الهنادكة على إحياء تراثهم القـديم ، وقد أمر بنقل كثير منه إلى العربية . وأشاد أغلب المؤرخين الأوروبيين بهذا السلطان وفيهم العلامة الفرنسى جوستاف لوبون الذى امتدح سعة أفقه وعبقريته وتسامحه حتى بز حكام عصره جميعا ، هذا فضلا عن النهضة الشاملة التى شهدتها الهند فى عصره .

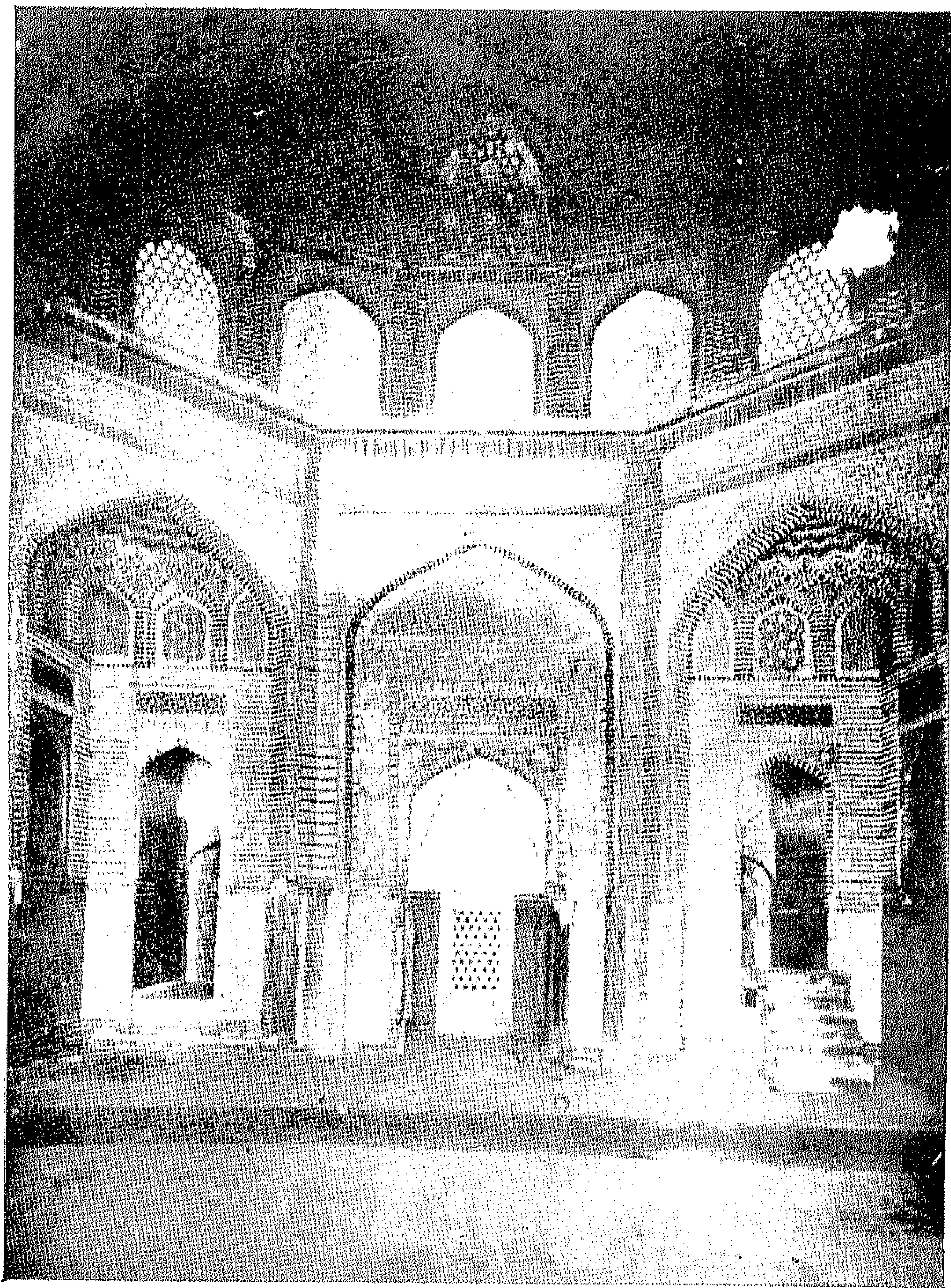
واتسم بالطابع الفارسى كذلك منازل المسافرين (كرَوان سراى) وما هو على نمطها من القصور كتلك التى بآچمير والله آباد . على أن العمارة المنزلية كالردهات وغرف النوم والأبنية المعروفة باسم پنج محل وشرفات الأسطح فقد كانت هذه جميعاً راجپوتية هى وأغلب زخارفها ؛ فى حين غلبت العناصر السورية والـكجراتية على الفن الدينى . ولا نتعرض هنا إلى مدى تأثير فنون الشرق الأقصى والتبت والفنون المسيحية. كذلك تطرق إلى فن النقش تغيير مماثل ، إذ أخذ تأثير الفنانين الهنادكة مع النمط الأوربية يزداد متجهاً نحو المذهب الطبيعى، حتى إذا مابدا حكم جهانـكير كانت العناصر الفارسية جميعها قد اختفت .

وأتيحت الفرصة للفن الفارسى للظهور من جديد ، وإن أقبل هذه المدة فى صورة من صور تطوّر الفن المغولى التقليدى بالبلاط السلطانى . ذلك أن السلطان سالم (السلطـان جهانـكير فيما بعد) كان قد احتضن نهضة فارسية صغيرة فى فترة خروجه على طاعة أبيه الشيخ . وإذ كان انعطاف أكبر نحو الهنادكة قد صار بمثابة شوكة تقض مضاجع رجال الدين من المسلمين، فإن الأمير الثائر سرعان ماوجد التأييد والعون عندهم، فاصطنع أزياء العهد الصفوى المتأخر ورسومه وراح يفيض من تشجيعه على فنانى الفرس من أمثال اقارضا .

وإلى هـــذه الفترة تُنسب طائفة من أجمل نماذج النسيج الفارسى المطرز بالحرير المحفوظة بالهند، ومنها نسيج فوكان الجميل ببكانير .

هذا وكان ذلك الأمير قد ائتلف فى نفس الوقت مع الحزب المعـارض من بين الأمراء الراجپوتيين الأقوياء (فى أمبر وبيكانير وأورشها) . وقد عمد بعد ارتقائه العرش إلى الاستمرار فى سياسة أبيه الودية نحو الهنادكة على كل حال .

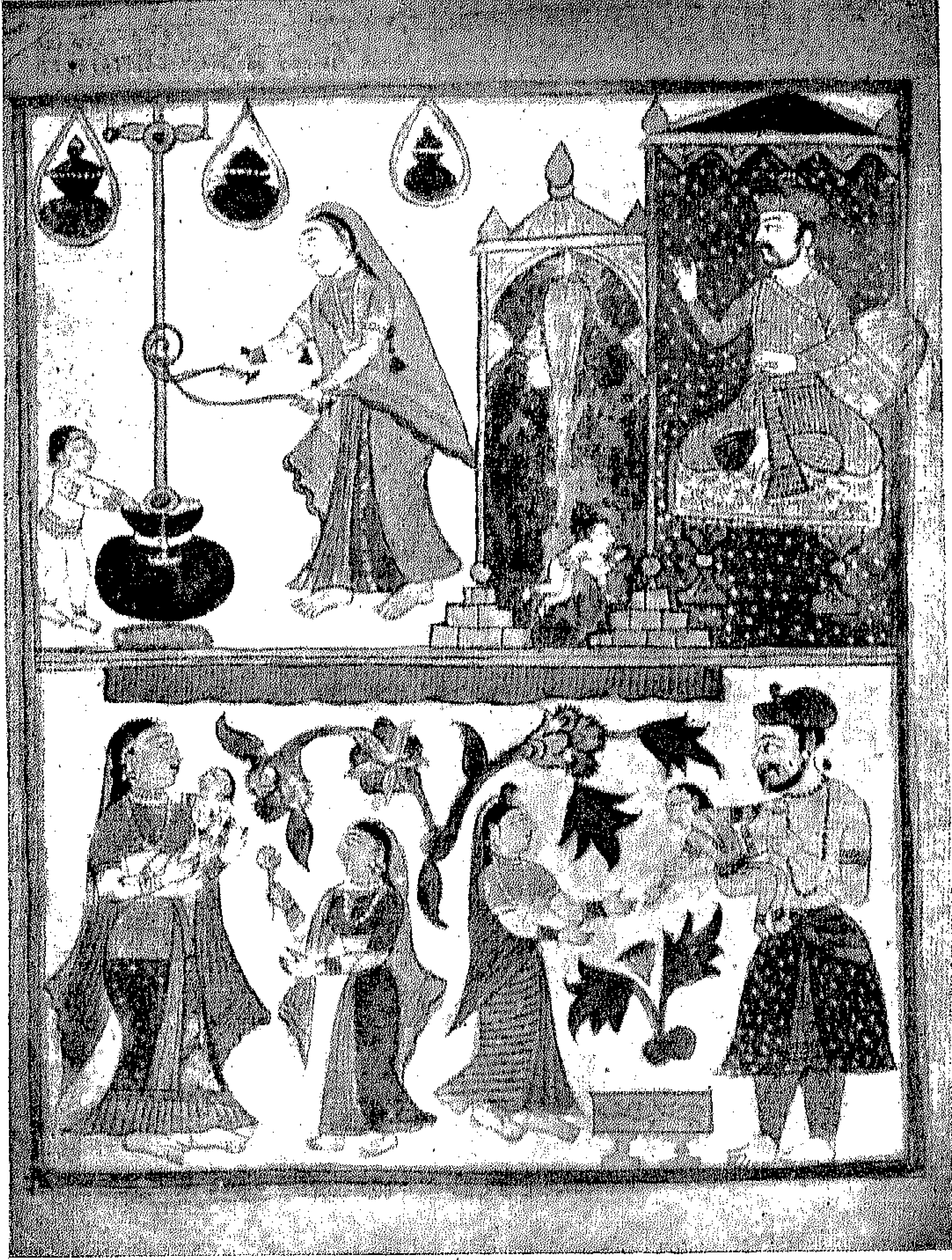
على أن السلطانة نورجهان زوجته ، وكانت فارسية ، مالبثت هى وأسرتها أن سيطرت على البلاط المغولى على أثر الثورة الدينية عام ١٦٢٣ ، وامتد نفوذها إلى عهد



محراب المسجد الجامع فى تته . السند ١٦٤٤ - ٤٧ م .



حشوة من القاشانى بالمسجد الجامع فى خداباد بالسند .
صنعت فى عهد يار محمد كلهرا المتوفى فى عام ١٧١٨ م .



كرشنا فى طفولته . آثار مدرسة أحمد آباد. للنقش (على نهج « مدرسة بغداد »)
فى الفن الراجپوتى المتقدم (مارور). الربع الثانى من القرن السابع عشر الميلادى التبادل الفنى بدهلى

خليفته جهانگير . وهنا لا نستطيع في يسر أن نضبط مدى مساهمة أنماط عصر عباس الأكبر في احـــداث الطرز المعمارية الجديدة ذات الرخام الأبيض المحلّى بالأحجار الكريمة . هذا كما يجب أن لا نسقط من حسابنا هنا ذوق السلطانة الخاص ونماذج عمارة الرخام الأبيض بالكجرات ومالوَه وكذلك التأثير الأوروبي بدوره ؛ إذ يتمثل ذلك كله يقينا في أول المنشآت التجريبية لهذا الطراز الجديد وهو چونست خمباه (ضريح ميرزا عزيز بن أتكه خان ١٦٢٣/٤) في نظام الدين ، حيث استخدم فيه الأعمدة الفارسية ذات التيجان المقرنصة والأقبية المضلّعة . هذا كما يمكن تتبع تعبيرات زخرفية أخرى ، ظهرت في العشرين سنة الأخيرة من القرن السابع عشر ، بمقبرة الشيخ شافي باردبيل ، وبمشهد ، وبمسجد الشاه بأصفهان .

كذلك شاعت من جـــديد المباني المغطاة بالخزف بالپنجاب ودهلي وآگرا . ونرى أروع أمثلتها مساجد وزير خان (١٦٣٤) وداي آنگه (١٦٣٥) ومحمد صالح كوملة (مسجد چينيان والي ١٦٥٩) ونواب سر فراز خان (١٦٧١) وعبد الله خان (مسجد تكسل والي ـ عصر أورنگزيب) ومسجد سد هورا (١٦٦٩) بلاهور ، ومسجد شاهي في چينيوت ومسجد چينيو الي في تنيسر ، والمسجد الجامع في متـرا (١٦٦٠ ـ ١) وواجهة حصن لاهور (١٦٣٠ ـ ٤٠) وضريح فهيم خان (نيلا گُنبذ بالقرب من مقبرة همايون ١٦٢٥) بدهلي ومسجد آصاف خان (١٦٤١) وزيب النسا (نوانكُوت ١٦٦٩) ومساجد علي مردان (١٦٥٧) وداي أنگه (١٦٧١) بلاهور ، وروضة چيني (١٦٣٩ لغلام أفضل خان شيرازي) بآگرا ، وگلابي باغ (١٦٥٥) وحدائق شاهدارا ومدخل حديقة شالمار (١٦٣٧) وحدائق زبيندا بيگم (شاوبورچي ١٦٤٦) بلاهور ، ودا كهيني سراي في جالندهار (١١٤٠).

وهناك آثار أخرى تنتمي لنفس الطراز وإنما لا يحليها البلاط الملون ؛ من ذلك

السرايات المغولية العديدة والقصور الإقليمية في بهيمبار وراجوري وشنجاس وسيد آباد وسرهند وباري محل (كشمير) وأحمد آباد (أعظم خان ١٦٣٦) وغيرها ، ثم الحدائق المغولية في كشمير (چشماى شاهى ، وشالمار باغ ونشات باغ واشها بال وفرناگ وراجوري) ولاهور (شالمار وگلابى وغيرها) وآگرا (انگوري باغ) ، والكثير غيرها مما عفى أثره ، ولكن أفصح عنه ماورثه الحدائق الجميلة التي قامت حديثا في ديج وجايبور وأديبور وامبر وغيرها . أما التأثير الفارسي في المساجد فلم يكن قويا ، لا نستثني من ذلك إلا المسجد الجامع بآگرا (١٦٤٨) ومسجد شجاعت خان في أحمد آباد (١٦٨٩) .

وأشهر أثر يمثّل هذا الذوق الفارسي هو على كل حال تاج محل (روضة ممتاز محل) بآگرا ، وهو ضريح ارجمند بانو بيگم ، ابنة أخت نورجهان ، وزوجها شاهجان . وفيه تتجلى أرفع درجات الذوق الصفوي . وقد قام على تنفيذه معماريان من البنجاب من أصل فارسي هما نادرة العصر الأستاذ أحمد معمار لاهوري وأخوه الأستاذ حامد لاهوري . وبجانب هذا الصرح مسجد وردهة مماثلة مع مدخل من الطراز الفارسي ، كما يتصل به في خارجه ضريحان صغيران من نفس الطراز ثوى بهما وصيفات السلطانة .

وفيما خلا استخدام رخام مُكران البالغ الشفافية ، وهو الذي نقل الذوق الفارسي المرح كثير الزخرف إلى خيال الفن المغولي المتأخر الحالم الرقيق ، فإننا لا نجد بتاج محل إلّا اقتباسات قليلة أخرى من الفن الصفوي الأصيل ، فالشرفات الأربعة الراجپوتية حول القبة ، ومقاييس القبة ورقبتها التي تغاير المقاييس المعروفة إلى حدما (وهو أمر شائع بالدكن على كل حال) ، وكذلك المآذن ، هذه جميعا يحتمل أن تكون من وحي طراز مقبرة محمود الخلجي بماندو . والحق أنها لَفَلْتة من فلتات التاريخ أن يغدو عجيبة الدنيا هذا ، على مابه من ضآلة مقومات الفن المغولي ، الأنموذج التقليدي للحضارة المغولية وممثلها .

ولتاج محل ظل باهت فى ذلك الضريح الذى أقامه أورنـكزيب بن شاهجهان عام ١٦٧٨ لزوجه بيبى رابعة دورانى فى أورنـكك آباد بالدكن . فلم يكن لهـذا الأثر بطبيعة الحال دقة تاج محل أو روعته . ذلك أن مقاييسه وأبعاده كانت معقدة ؛ كما شُوّهت صورته بخليط من عناصر طرز جديدة مأخوذة عن فنون الدكن وبيجاپور وغولـكوندة . على أن هذا لا يمنعنا من أن نشير إلى ما نلمسه من طلاوة معينة وأُنس فى هذا الأثر الذى يُعدّ بحق آخر نموذج للتقاليد الـكبرى للأضرحة الفارسية .

ولئن كان هناك بناءان آخران من هـذا الطراز قد أقيما فيما بعد ، وهما المقبرة الضخمة التى بناها بدهلى نواب صفدار جنگك حاكم أوده (١٧٥٤) والتاج فى حسين آباد بلـكنو ، إلا أن الأول لا يعدو أن يكون محاكاة نظرية بالغة الجمود غير متجانسة ، فهو لا يمتاز بجمال إلّا فى تلك التفاصيل الزخرفية التى تابع فيها ذوق عصره ، فى حين لا ترى فى الثـانى إلّا صورة مصغرة مطابقة لمفخرة آكرا .

وظل الطراز الفارسى سائداً فى البنجاب والسند . فمنشآت وحدائق عصر أورنگك زيب بلاهور التى سبق ذكرها يغلب عليهـا الطابع الفارسى حيث زخارف البلاط الأخضر هي الأساس ، وإن كانت هناك ثمة تفاصيل صغيرة أخرى تفصح عن تداخل بعض ملامح مغولية وراجپوتية أخري . هـــذا كما أن مسجد بيگمپورا الذى أسسه زكريا خان آخر حكام البنجاب من المغول الأكفاء (١٧٢٦ ـ ٤٥) مازال يحمل بدوره نفس الزخارف وإن كانت عقوده من طراز « بنغالدار » وأسطحه مقفلة (صماء) وتعابيره يغلب عليها البذخ . أما مقبرة أخته شرف النسا (زرورواه مقبرة) فهى على نمط البرج الراجپوتى ولها سقف واطئ ، ولـكن الزخارف الخزفية فيها تمثل نوعاً فارسيًّا غير معروف تصور شريطا من السرو الـكبير (نظير ما وقفنا عليه فى زخارف البلاط الخزفى التركية والفارسية) . ثم كانت الفوضى التى ابتُلى بها البنجاب من جراء

الغزو الأفغانى وما تبعه من قيام السِّك(١) ، فقضى ذلك كله على هذا التقليد .

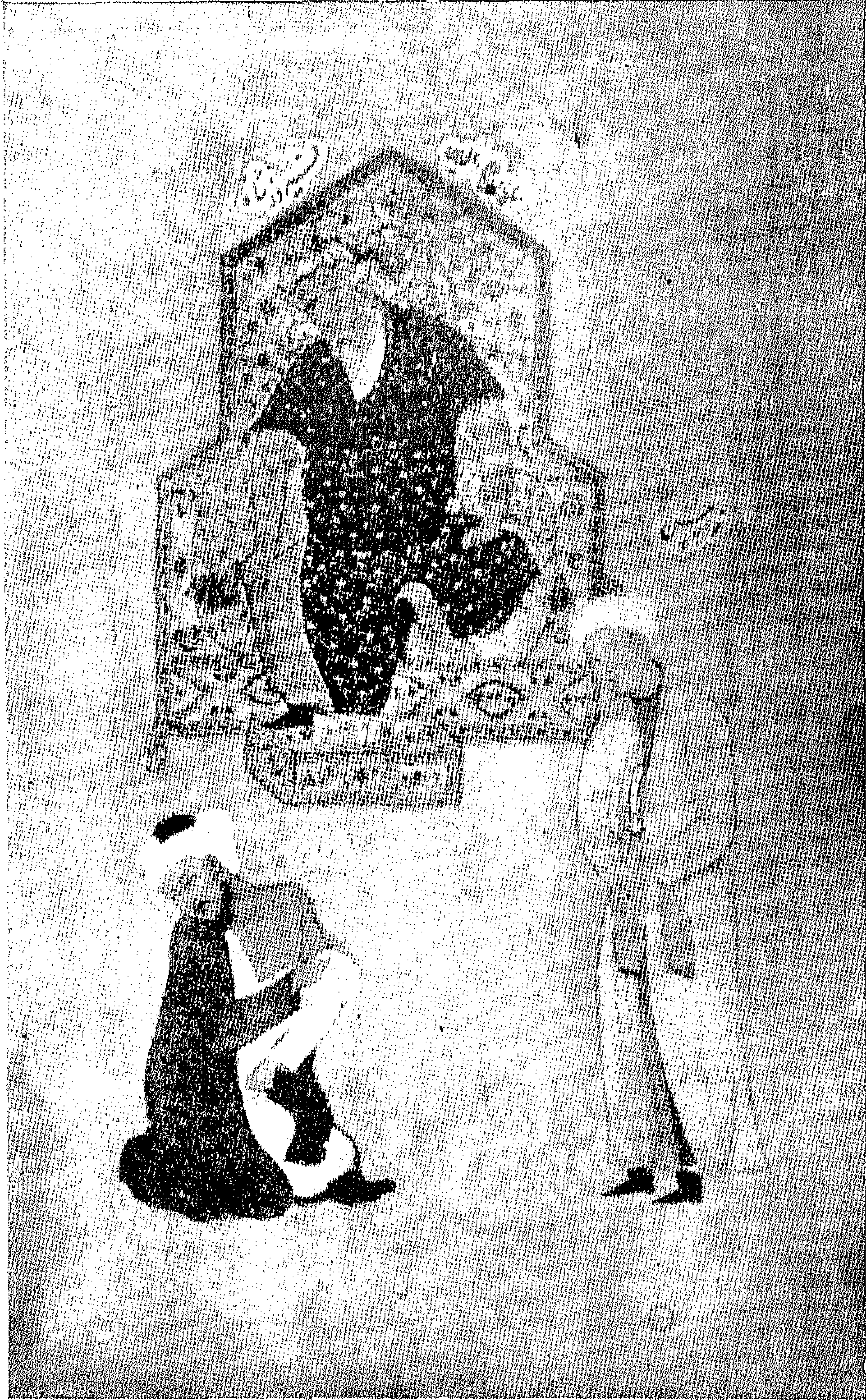
وبرغم أن السِّك والراجپوتيين قد عزلوا السند عن العالم الإسلامى ، فإن الفن الفارسى قد مارس بهـا نهضة أخيرة . فضريح تتا الخاص بآخر الترخانيين (الذين استمروا هناك كحكام مغول) هو من الطراز المختلط الذى ظهر فى آخر عهد أكبر (كطراز مقبرة ميرمعصوم ١٥٤٩ ومقبرة ميرعيسى خان ١٦٤٤ ومقبرة ميرزا طغرل بگ ١٦٨٨) هذا كما أن الطراز الفارسى للبلاط الخزفى المغطى بالمينا الذى كان قد دخل السند من جديد وافداً من البنجاب أيام جهانگير وشاهجهان (ويظهر بمسجد بالقرب من مقبرة بورانى فى سكهر ١٦١٠ ، والمسجد الجامع فى تتا ١٦٤٤ ـ ٧ والذى وُسّع فى عام ١٦٥٨ ـ ٩) ازدهر كرّة أخرى فى خدا آباد وحيدر آباد(٢) ولركهانا وسكهر ومتيارى ودركهان وذلك فى أيام أسرتى كاهورا وتالپور . كما قام مسجد تتا على طراز مسجد وزير خان بلاهور ، فى حين حاكى المسجد الجامع فى خدا آباد نظيره فى داى انگه بلاهور .

كذلك نرى أن أغلب مقابر السند إن هى إلا تكرار للطراز اللودهى المكعب بگلبرگه وأشتور ودهلى مع ضآلة ملحوظة فى الحجم وزهو فى الألوان شديد . وقليل منها مايقوم على أساس مثمن (مثل قبر نبى خان بحيدر آباد ١٧٨٧ أو قبر شاه بهارو فى لركهانا ١٧٣٥ـ٧) ، أو له هيئة مناره بأعلا قبته اللودهية النمط (لركهانا وسكهر).

وأدى إرساخ الحكم الأفغانى لقدمه نوعاً ما بالپنجاب الغربية وكشمير حتى نهاية القرن الثامن عشر إلى أن وجدت آخر موجة من موجات النمط الفارسية منفذاً لها إلى العمارة والنقش والنسيج والأزياء هناك . وإن أثرها ليبدو جلياً فى نمط أبنية المنازل والمخطوطات العديدة والمطرزات والأقمشة المصبوغة التى كانت تنتجها هــذه البلاد

---

(١) وهى بالسند ، خلاف الأخرى الدكنية .



السلطان علاء الدين فيروز البنغالى وحاجبه خواجه حسن .
مدرسة بهزاد . ١٣٥٢ م . المتحف البريطانى بلندن .



سيدة ووليدها. لميرزا محمد الحسنى . المتنوعات الفارسية
من نقوش بجاپور، فى مستهل القرن السابع عشر الميلادى .
متحف بوسطن للفنون الجميلة .

فى عهد الحكم الناجح الذى مارسه بها مهراجا كلاب ورانبير سنغ فى القرن التاسع عشر .

هذا كما دخلت الأزياء الأفغانية الفارسية بلاط شجاع الدولة صاحب أوده عام ١٧٦٠ على وجه التقريب ثم مالبثت كذلك أن ظهرت بالبلاط السلطانى بدهلى حوالى عام ١٨٣٠ ، وكان صاحبه قد بات إذ ذاك مجرد تابع لشركة الهند الشرقية البريطانية .

وحين شاع الزى المغولى فى القرنين السابع عشر والثامن عشر بين الهنادكة ، لجأ المغول المتأخرون عندئذ إلى ارتداء الزى الأفغانى الفارسى تمييزاً لأنفسهم عن الهنادكة . وسرعان ما تهند هذا الزى بدوره فى لكنو وبهوبال وحيدر آباد الدكن مع البذخ الشديد فى مظهره حتى تحوّل غطاء الرأس الفارسى المخطط بالفراء إلى ماهو أشبه بنصف تاج أوروبى .

أما العمارة الفارسية فقد لقيت بعض العناية والرواج فقط بحيدر آباد الدكن التى كانت تمد نفسها إلى وقت قريب حامية الإسلام بالهند . وقد ظلت أبهاء الأعمدة لاسيما نمط الأربعين عمودا (چهل ستون) رائجة هناك حتى بداية القرن التاسع عشر .

وفيما عدا ذلك فقد طفق تيار نماذج الجمال الدكنية المهندة والهندوكية الخالصة يكتسح أمامه التقاليد الفارسية بالتدريج ؛ وكانت قوة هذا التيار قد أخذت تطرد منذ أن ضُمت سلطنات الدكن وإماراته إلى الدولة المغولية لاسيا فى عهد شاهجهان (١٦٢٩ ـ ٥٨) وأورنگ زيب (١٦٥٩ـ١٧٠٧)؛ وعلا شأن إمارة حيدر آباد؛ وازداد نفوذ الراجپوتيين بالهند ثم اجتاح المراتها[1] آخر الأمر أراضى الدولة المغولية

(١) يعد الهنادكة هذه الفئة من زمرة الشودرا أحط طوائف الهند . وهم رجال عصابات يجيدون حرب الأدغال وقد أفلحوا فى إقامة دولة لهم بالدكن ثم اجتاحوا البنجاب ، ولولا مسير أحمد إبدالى شاه الأفغان إليهم عام ١٧٦١م . حيث أنزل بهم هزيمة قاصمة لوقعت الهند كلها فى أيديهم أما السك الذين سبق ذكرهم فهم الزط الهنادكة بالسند وهم أتباع مذهب قائم على التوحيد يمجد الهندوكية والإسلام ، وقد نظمهم أحد زعمائهم تنظيماً عسكريا فكانوا هم والمراتها نذير سوء على المسلمين ثم البريطانيين بالهند من بعد ذلك زمنا طويلا . المترجم .

كلها حتى ممر خيبر. ثم بسطت الثقافة والسياسة الغربية نفوذها وسيطرتها من بعد ذلك، فلم يبد الاهتمام من جديد بالأقاليم الإيرانية وحضارتها القديمة إلّا فى السنين القليلة الأخيرة وعلى نطاق ضيق.



الفصل الخامس

✲✲✲✲

الفن الإسلامي ببلاد فارس

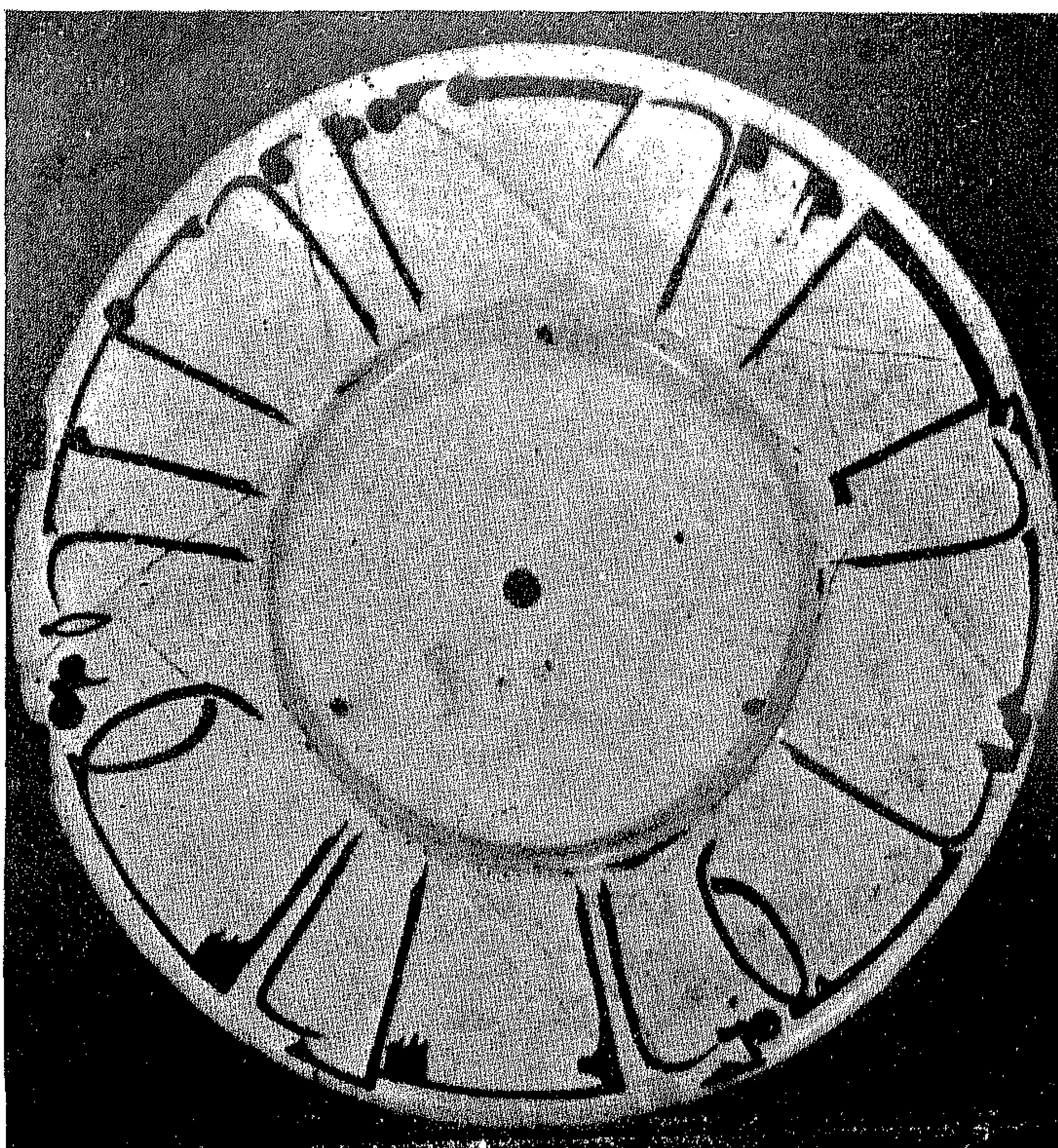
ترجمة أحمد عيسى

إذا تركنا فن المعمار جانبا ، أمكننا القول أن الجهد الحقيقي للعبقرية الفارسية انحصر طوال العصر الإسلامي ، في ميدان الفنون الصغرى ، كما يسمونها ؛ وهي صناعة الأبسطة ، وحبك المنسوجات ، وعمل الأواني الخزفية ، والتحف المعدنية ، وإجادة الخط ، وتجليد الكتب وتذهيبها وتحليتها بالصور . ولم يكن الدين الإسلامي بحاجة إلى أيقونات أو صور ، ولم تكن المساجد لتتقبل كذلك منحوتات أو تماثيل مجسمة كما لم تألفها المنشآت المعمارية الأخرى . والذي ارتاح إليه الفنان المسلم هو أن يغطي جدران عمائره بتربيعات القيشاني أو أن يزينها بالجص المحفور أو الطوب المنضود مع تعبيرات مفرطة من الزخرفة النباتية أو المجردة . أما التمثال المستقل بذاته — وهو الابتكار الطريف لدى هواة الرومان في أوربا — فإنه لم يلفت نظر الفارسي إلا قليلا ، بل تحول الفارسي ، حين أراد أن يباشر هواياته ، إلى جمع الكتب واقتنائها . وقد أخذ التحول نحو استخدام أدوات الحياة اليومية يزداد قوة بسبب تفضيل العرب الفاتحين اقتناء ما خف وزنه وغلا ثمنه . ولم تكن اللوحات الكبيرة الموضوعة داخل إطارات ، وهي التي كانت من مألوفات أوروبا منذ عصر النهضة ، لتعرف طريقها إلى أي بيت أو خيمة ببلاد فارس . حقاً أنهم مارسوا عمل الرسوم الحائطية على نطاق واسع ، ولكن لو جاز لنا أن نحكم على تلك الرسوم من القليل الذي بقي

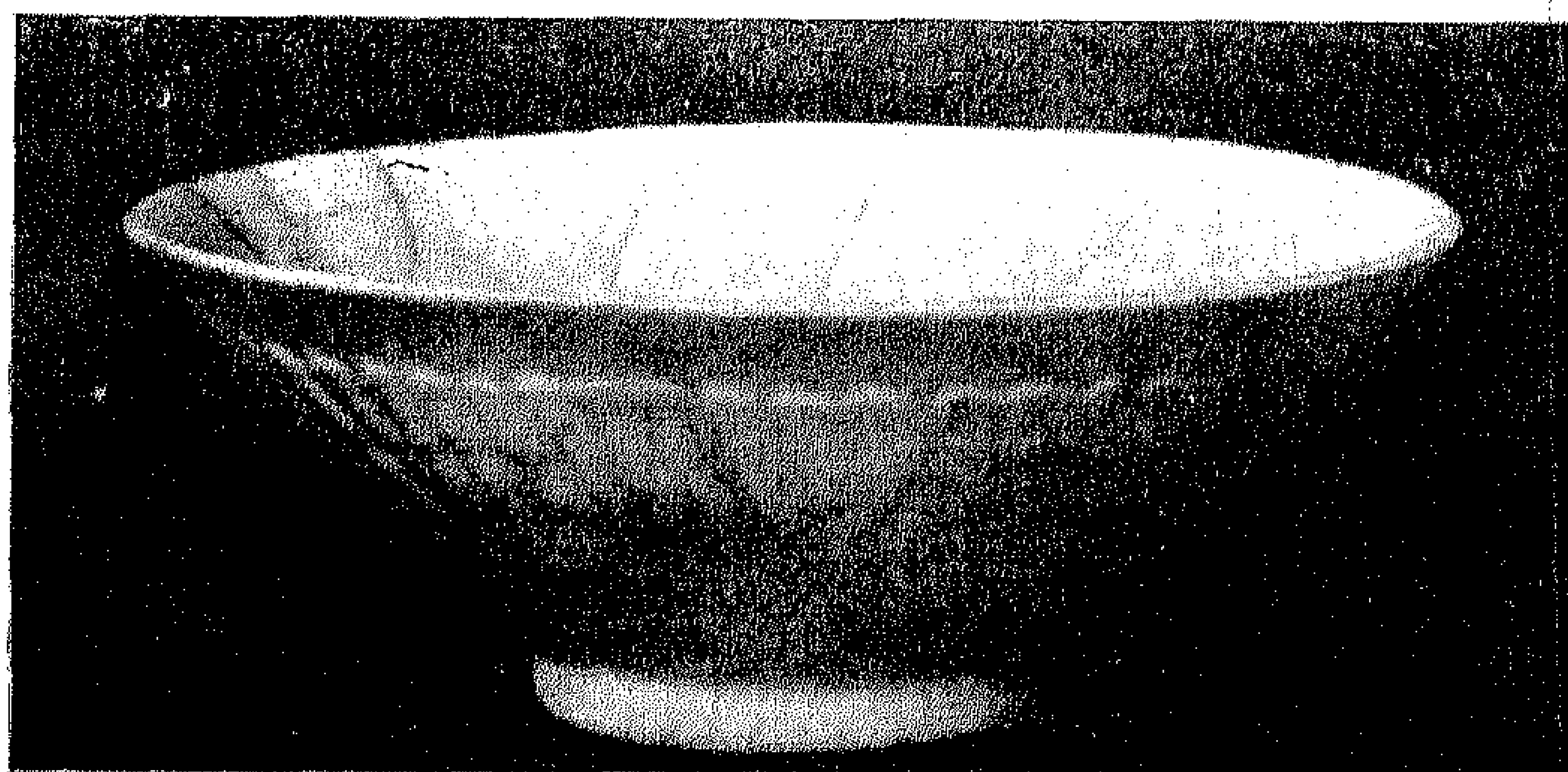
لنا منها ، لعرفنا أنها سارت على نمط تزاويق الكتب وصورها الدقيقة ، ولم يحفل الفنانون كثيرا بالضخامة التى نراها فى الرسوم الحائطية فى أوربا أو الشرق الأقصى. ومما لا شك فيه أن الفرس ، بعد أن تحولوا إلى الإسلام وخضعوا لسلطان الحكومة الإسلامية الجديدة ، انصرفوا عن حب الضخامة التى كانوا يميلون إليها فى العصرين الأكمينى والساسانى .

وكانت مادة الموضوع فى الفن الفارسى أبسط منها فى مثيلتها فى الفن الأوربى وفن الشرق الأقصى . والمعروف أن الإسلام لم يواجه مشكلة كمشكلة الأيقونات ، وإذا كان تحريم تصوير المخلوقات الحية له سند من الفقه الإسلامى، فإن الفرس استطاعوا أن يتغلبوا على ذلك . ومن المؤكد أن تغلبهم هذا حوّل الفنان عن إنتاج الصور الشخصية التى قد يُعتبر عملها دليلا على الكفر والإلحاد . وجرّه ذلك التحول ، إلى الانغماس والتمادى فى استخدام الخطوط والألوان فى زخارف حالمة . ومكنه هذا الأسلوب من التسلط على عناصر التعبير، فاعتمد عليها أكثر من اعتماده على تنوع الموضوع أو حيويته ، وذلك واضح فيما صوره من أعمال شعرائه وهى التى تصف مناظر الصيد أو القتال أو حفلات الموسيقى ، أو رسوم الحدائق والأزهار والمياه . ويبدو أن هذه الموضوعات الوطنية المحدودة كانت كافية لإشباع وتحقيق أحلامه وأن التنوع الذى أصاب تلك الموضوعات على يديه كان بالغ الحذق والمهارة .

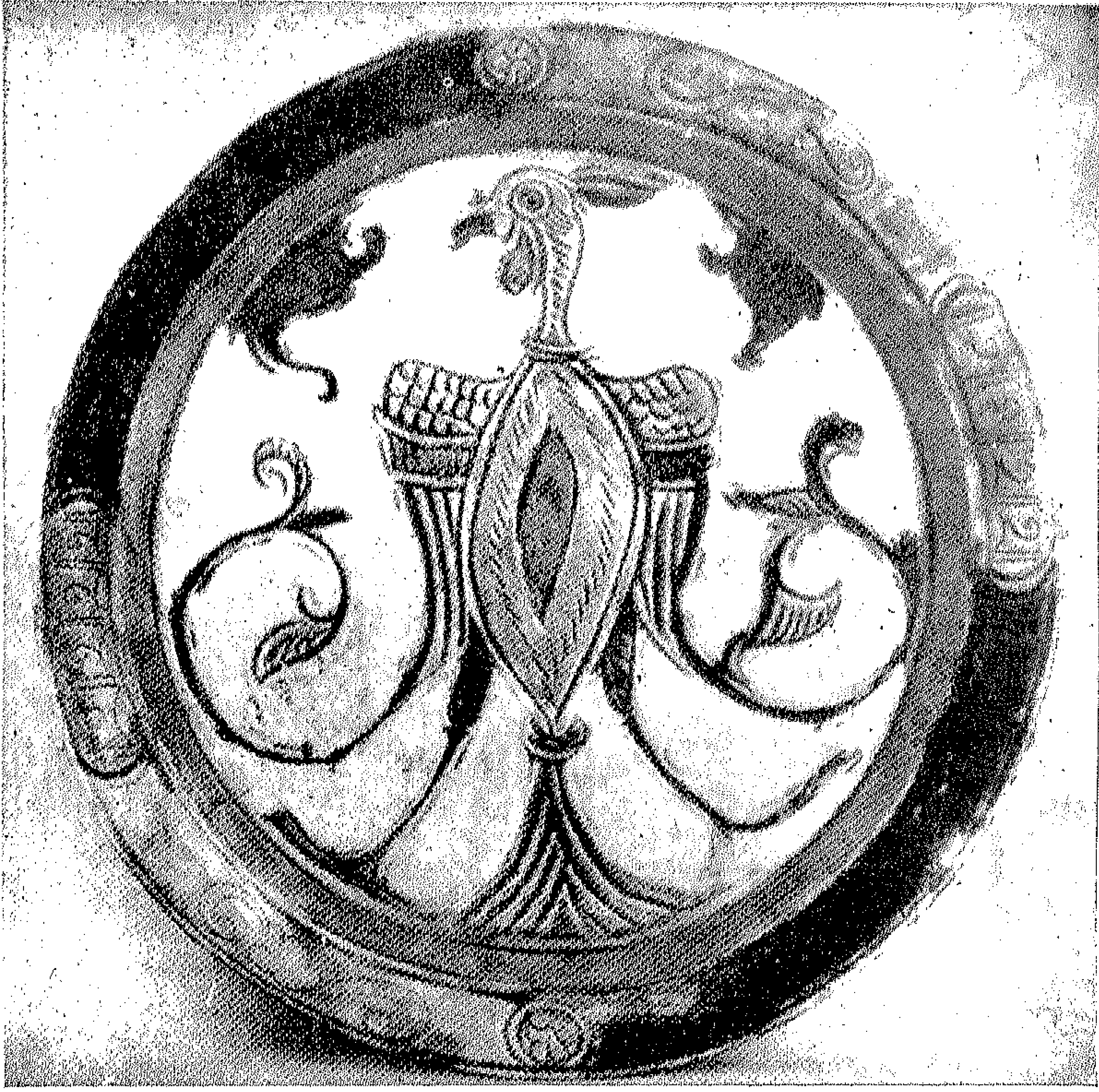
وكان الفن الفارسى أرستقراطيا ، أوهو هكذا فيما يبدو ، ونقول ذلك إلى أن تتجلى لنا الحقيقة بعد أن تتم كتابة التاريخ الاجتماعى لتلك البلاد. وكانت الحاجة إليه تنبت عادة من مراكز الحكم الرئيسية ومن كبار رجال الدولة ، وهؤلاء الأخيرون لم يكن لهم فنانون خاصون بهم ، ولذا استطاعوا فرض أذواقهم على أصحاب المصانع الأهلية . على أنه من العسير أن نلمح فى الفن الفارسى عناصر مستمدة من أذواق العامة أو أعيان الأقاليم ، على الرغم من وجود طبقة من التجار الأغنياء ذوى النفوذ . وقد



ا ـ صحن عليه طبقة من الدهان الأبيض وكتابة بالأسود ؛
من القرن العاشر . متحف اللوفر .



ب ـ سلطانية بيضاء ذات زخارف محفورة ؛
من القرن الثاني عشر ـ مجموعة سير ألين بارلو .



ا ـ طبق متعدد الألوان ، ذو زخارف محفورة ؛ من القرن الثانى عشر
متاحف الدولة ببرلين .



ب ـ سلطانية مدهونة بطلاء فيروزى على طبقة سوداء ؛ القرن الثانى عشر .
متحف ڤكتوريا والبرت بلندن .

قلد الرعاة فى شمال إيران ، أسلوب الفخار المستخدم فى قصور البلاط فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين ، وهذه الأوانى ذات صبغة ريفية وليست بدائية. وعلى أية حال فإن التحف المعدنية المكفتة التى صنعت للتجار ، أو لعامة الناس فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، لم تختلف فى شىء عما صنع للبلاط حينذاك . ويتمثل النوع الذى يقال عنه إنه « بدائى » فى الخزف غير المدهون المصنوعة زخارفه بطريقة القمع (أوالقرطاس) . أماالأساليبالشائعة الاستخدام فىأنحاء الشرق الأدنى، فلم تتخذ سبيلها إلى مصانع البلاط الفارسى على الإطلاق . ولم يتبدل الكيان الاجتماعى لبلاد فارس إبان الحكم الإسلامى ، ومن هنا ظل فنها قويا ومتميزاً . وأصبح من اليسير المحافظة على التقاليد الفنية وصيانتها ، ولا سيما فى أوقات الحرج والاضطراب،إذ أعتبر الفنانون أعز ما يحرص عليه الأمير من بين مخصصاته ونفائسه وأخفوهم حتىلايقعوافى أيدى الغزاةفيستبقونهمللعمل عندهم . ولا جدالفىوجود تأثيرات فنية خارجية فقد كانت بلادفارس جزءا من الامبراطورية الإسلامية، وكانمن اليسيرأن يتبادل ذلكالجزءمع غيرهفىحرية تامة، كلالأفكارالجديدةالعقليةوالفنيةسواء. بل وجد أكثر من هذا ، إلهام فنى قوى ومستمر ، قادم من الشرق الأقصى . ومع أن الفنان الفارسى كان بادى الأستعداد للتأثر بالأفكار الجديدة ؛ فإنه استطاع فى الوقت ذاته أن يتشرب تلك الأفكار وأن يطوعها للاستخدام فى أسلوب وطنىخلال سنوات معدودات . وعلى الرغم من هذا كله فلم تسكن ببلاد فارس « نهضة » ذات حواشىاجتماعيةوفنيةمعقدة. ومنالعسير فهمقيمة الفنان وذاتيته ، أوبمعنىآخرفهم قيمة الفنان كقوة فردية خالقة . لقد كانهناك فنانون عظماء ، ولكن لم يكن لهؤلاء مثلما كان لميشيل أنجلو ورمبرانت من الجهود الفريدة ما يهدف إلى إعادة توجيه التراث القديم واستخلاص أسلوب شخصى جديد منه . حقيقة هناك تنوع كاف فى الفن

الفارسى ولكن تذوق الأساليب الجمالية ظل كما هو . وعلى أية حال فمن حسن حظ بلاد فارس أنها احتفظت ، بخصائص فنها الأرستقراطى الرفيع ، منذ نشأتها إلى نهاية عهدها الطويل ، الذى نادرا ما كان يحدث فيه تبديل أوتغيير فى مادة الفن ذاته ؛ ومع ذلك فلم يفقد فنها رقته وكماله .

وكان طبيعيا ، بالنسبة للعرب الذين كونوا أمبراطورية فى أقل من قرن من الزمان (٦٣٣–٧١٣م) ، امتدت من أسبانيا إلى السند ووسط آسيا ، ألا يحملوا معهم إلى هذه البلاد ذات الحضارة القديمة والرفيعة ، سوى الدين واللغة وطريقة الكتابة . ويتضح فهم العرب لهذه الحقيقة من نقل الأمويين (٦٦١ – ٧٤٩ م) مركز الخلافة الإسلامية إلى دمشق ببلاد سورية ؛ ومن أن الفن الأموى ذاته خليط من عدة عناصر مستمدة من الفن الهللينستى الشرقى والسورى ثم من الفن القبطى ثم من الفنين البيزنطى والساسانى . وكانت السيادة للفن البيزنطى ؛ على أنه يجب أن نذكر أن ثمت تبادلا كبيرا بين الحضارتين الساسانيـة والبيزنطية . وفى عام ٧٤٩ م قامت ثورة فى شرق فارس ساعدت على إحلال العباسيين فى الخلافة محل الأمويين . وانتقلت العاصمة شرقا إلى مدينة أنشئت حديثا هى بغداد . وفى هذه البقعة ، توافد الفنانون من مصر وسورية وإيران وبلاد مابين النهرين ؛ وفى هذا الجو الشعوبى أوالدولى الباعث على الحياة ، ولد الفن الإسلامى الخالص وازدهر لأول مرة . وتتجلى جهود تلك الحقبة فى نتائج حفريات سامراء، المدينة التى نقل إليها الخلفاء بلاطهم لأمد قصير إمتد من سنة ٨٣٦ حتى ٨٨٣ م . ووجدت فى هـذه المدينة أمثلة من الرسوم الحائطية وزخارف الجص والخزف والزجاج والفخار .

وتعتبر الجهود التى أداها الخزافون الفرس للفن الإسلامى على جانب عظيم من الأهمية ، سواء من ناحية الأسلوب العام أو من ناحية التعبيرات الزخرفية المستقلة . ولكن ثمة ابتكارات عديدة أو اقتباسات جـديدة لا ترجع إلى شعب بذاته من

شعوب العالم الإسلامى ، بقدر ما ترجع إلى الجو الذى ساد تلك الفترة ؛ بل إنها ترجع ، أكثر من هذا ، إلى الشعور بالإعجاب نحو البورسلين الأبيض الصلب والأوانى الفخارية التى تنسب إلى أسرة تانج الصينية . ويضاف هذا الذى وجد فى حفريات سامرا إلى ماوجد من أوانى السيلادون والأوانى المدهونة ذات البقع أو المرقشة . وقد قُلدت الأوانى الصينية سـواء فى الشكل أو فى طريقـة الدهان ذى البقع . ولـكى يتوصلوا إلى تقليد البورسلين ذى السطح الأبيض الناصع ، عمدوا إلى أسلوب صناعى أُستخدم قبل ذلك بعدة قرون على يد البارثيين بمدينة سلوقية المجاورة ، وذلك هو إضافة أوكسيد الرصاص إلى الدهان المستخدم وهذا يكسب الدهان نعومة وبياضا غير شفاف . أما الجهود الفنية الأخرى فهى أصيلة فى بلاد العالم الإسلامى ؛ فالبريق المعدنى الراجح استخدامه على الزجاج عند المصريين منذ عدة قرون ، قد استخدم بألوان متعددة على طلاء محروق قصديرى اللوّن . وكان معروفا كذلك ، الرسم بالألوان الأرجوانية والزرقاء والصفراء ، والخضراء ، ويحتاج هـذا الأسلوب إلى براعة يدوية فائقة كما أنه يؤدى إلى تشرب الألوان وامتصاصها بطريقة عجيبة .

الواقع أننا تناولنا تطور صناعة الخزف بشىء من التفصيل ، لما لذلك من أهمية فى مستقبل صناعة الخزف الإيرانى خاصة . على أنه لا يزال من المسير أن نحدد الأماكن التى صنعت بها أحسن أمثلة الخزف العباسى بغرب إيران . وإذا اتجهنا ببصرنا صوب الشرق حيث إقليم خراسان لوجدنا جهوداً أخرى رائعـة لا تقل عن السابقة ، وإن اختلفت عنها تماماً فى أسلوب الصناعة .

وفى القرن التاسع الميـلادى ، خرجت إيران عن سيطرة الخلافة وحكمتها أسر وطنية مختلفة لم تعمر طويلًا . وفى القرن العاشر سيطر البويهيون (٩٣٢ ـ ١٠٥٥م) على غرب فارس وبلاد مابين النهرين ، وشغلوا مناصب الوزارة والحجابة فى دار الخلافة. وحكم السامانيون خراسان وما وراء النهر (٨١٩ ـ ١٠٠٤م) ؛ واسترجعوا علاقاتهم

بماضى بلادهم ، مع بقائهم على الإسلام ، مؤكدين أنهم من سلالة البطل الساسانى بهرام . وبدأ الفردوسى ، صاحب الشاهنامه ، حياته وأعماله زمن السامانيين كما ازدهرت نهضة أدبية وفنية رائعة فى سمرقند وبلخ ونيساپور وبخارى . وخزف هذه الفترة معروف من حفائر افراسياب (سمرقند القديمة) ونيساپور ؛ حيث شاع استخدام الأوانى الريفية والأوانى ذات الطلاء المبقع التى عملت تقليداً لخزف أسرة تانج . أما أهم تلك الأنواع من الناحية الجمالية فهو ما سيأتى عنه الكلام فيما بعد . وقد تغلب الخزافون السامانيون على مشكلة دهان الأوانى الخزفية ، ولكن بطريقة تختلف عما وصل إليه إخوانهم فى بلاد ما بين النهرين ، إذ غطوا سطح الفخار الأحمر بطبقة من الطفل الأبيض — أو الأرجوانى القاتم أو الأصفر أحيانا . فطريقة الدهان العادية تحت الطلاء الرصاصى كانت تنتهى بسيحان الألوان عند حرقها . ولذا عمد الخزافون إلى استخدام طبقات ذات ألوان ثابتة . وهناك أمثلة كثيرة على ذلك ؛ وربما كان أدق مثل لتلك الأنواع الخشنة ، الصحن المحفوظ بمتحف اللوفر (لوحة ١٣٤) ، والمصنوع وفق الأسلوب المستخدم عند السامانيين حسبما أنتجه خزافو بلاد ما بين النهرين ، واستخدموا فيه اللون الأزرق على الطلاء القصديرى . وربما كان من الصعب أن نتخيل إنتاجاً خزفيًّا أقرب إلى الكمال من هذه القطعة الجميلة التى لا تزينها سوى كتابات كوفية على طبقة أرجوانية قاتمة . وهناك أنواع أخرى أقل جودا ، وهى مزينة بطبقة من اللون الأحمر الفاتح ، والأرجوانى ، والأخضر المائل إلى الصفرة ، وربما كان هذا اللون الأخير محاولة للوصول إلى تقليد للبريق المعدنى . وتشتمل رسوم تلك الأنواع على كتابات ومراوح نخيلية وجدائل وطيور ، وهذه غالباً ما تكون مقتبسة من الزخارف الساسانية . ويبدو أنه على أثر زوال مُلك السامانيين ، انعدمت العناية بإنتاج هذا النوع الفاخر من الأوانى الخزفية .

هذه هى الجهود العظيمة التى أضافها الخزافون الفرس إلى صناعة الفخار فى العصر

العباسي ، بالإضافة إلى وجود أوانٍ فى غرب إيران ترجع إلى القرنين العاشر والحادى عشر ويطلق عليها الـ Graffiato وهو الفخار الأحمر الذى تزينه زخارف محزوزة فى الدهان الأبيض ، والمطلى بعد ذلك بطلاء رصاصى اللون . وتذكرنا معظم رسوم هذه الأوانى بزخارف المصنوعات المعدنية المعاصرة لها .

ثم حل الأتراك السلاجقة فى الحكم محل الأسر الفارسية ، فى القرن الحادى عشر . والسلاجقة قوم رحّل وفدوا من سهوب القرغيز ولم يكونوا همجاً كلية . وقد تسلل هؤلاء إلى العالم الإسلامى منذ القرن التاسع فى شكل جند مرتزقة ، وسرعان ما أشربوا الحضارة الإسلامية ، بل سرعان ما أضافوا إليها من عندهم . وفى عام ١٠٥٥ اعترف الخليفة بطغرلبك نائباً عنه فى السلطنة الزمنية ومنحه لقب « السلطان شاهنشاه » . وقد استهل السلاطين الثلاثة العظام طغرلبك (١٠٣٧ ـ ١٠٦٣) ، وألب أرسلان (١٠٦٣ ـ ١٠٧٢) ، وملكشاه (١٠٧٢ ـ ١٠٩٢) عهداً يعتبر من أزهى عهود التاريخ الفارسى . وكان ساعد الأخيرين الوزير الفارسى العظيم نظام الملك الذى هدف بنجاح إلى تحويل أولئك الأتراك الرحّل إلى إيرانيين يألفون سكنى المدن والاستقرار فيها . ولم تلبث أقاليم الدولة السلجوقية خارج حدود بلاد فارس ، والممتدة غرباً فى آسيا الصغرى وسورية ، أن ضاعت بعد وفاة ملكشاه . وآخر من يمثل كبار حكام ذلك الفرع السلجوقى هو السلطان سنجر الذى مات عام ١١٥٧ م ، وهو يدافع عن شرق إيران ضد قبائل أخرى من الرحّل رغبت أن تقتفى أثر أجداده . وقرب نهاية القرن الثانى عشر غزا ملوك خوارزم (وعاصمتهم خيوة) المقيمون فى حوض نهر أموداريا الأدنى ، معظم شرق إيران . ثم قضى هجوم المغول عليهم عام ١٢٢٠ ـ ٢١ م .

وعلى الرغم من انقسام دولة السلاجقة فى القرن الثانى عشر ، إلا أنه يمكن أن ننظر إلى حكمهم على أنه وحدة واحدة . فقد ساد بلاد إيران ، فى أول عهدهم ، أسلوب فنى واضح ؛ وازدهرت سائر الفنون وبقى لنا منها ما يكفى للحكم على مدى كفايتهم وجهودهم .

وجدت على أيديهم ابتكارات صناعية هامة غيرت من اتجاه صناعة الخزف الإيرانى . فنحن نعرف من المراجع المكتوبة مدى إعجاب الفرس بالبورسلين الصينى، الذى بلغ فى عهد أسرة سنج ، درجة كبيرة من الرقة والشفافية . واستطاع الخزاف الإيرانى أن ينتج أنواعا تتوفر فيها تلك الصفات . وقد عرفنا تلك الطرق بالتفصيل من بحث فنى كتبه عام ١٣٠١ م ، أبو القاسم القاشانى أحد أفراد أسرة عريقة فى صناعة الخزف . فهذا الخزف الأبيض الرقيق الصلب يتكون من عجينة من الطفل الأبيض؛ يضاف إليها مسحوق حبيبات الكوارتز والبوتاس ثم تحرق الآنية بعد تغطيتها بطلاء قلوى مصنوع من حبيبات الكوارتز والبوتاس أيضاً . ولا حاجة بهم فى هــذه الحال لأن يضعوا طبقة بيضاء فوق الأوانى الخزفية ؛ كما أنه غدا من الأيسر الرسم تحت الطلاء القلوى ، أكثر مما كان ذلك تحت الدهان الرصاصى اللون . وأمكن كذلك أن يكون الطلاء المشار إليه لا لون له ، أو أن يكون ذا لون بذاته أو معتما ليستقبل فوقه رسما آخر . واستمر هذا النوع ، سواء فى مادته أو فى طريقة طلائه، مستخدما حتى أواخر القرن الثالث عشر .

ويبدو من أشكال بعض أمثلة هذا النوع وهى التى ترجع إلى أوائل القرن الثانى عشر (شكل ٣٤ ب) ، تأثرها بأنواع من السلاطين الصينية من عهد أسرة تنج وينج تشنج ، التى وجدت قطع منها بمنطقة الشرق الأدنى . وقد تركت تلك الأوانى بيضاء وزينت ببساطة وانحصرت الزخرفة فى كتابات كوفية أو تفريعات نباتية تتشابك فى جمود . كما لون البعض الآخر ببقع من اللون الأزرق الزهرى أو الأزرق الفيروزى أو البنى أو الأخضر أو الأصفر أو الأرجوانى . وكانت الزخارف المحفورة السائدة ، هى رسوم الحيوانات والطيور التى تمرح بين الأفرع والأوراق النباتية . وتشتمل مجموعة هذه الأوانى على صحون وسلطانيات وأباريق وجرار كبيرة؛ وجاءت كلها على أشكال غاية فى البساطة والكمال ، تتلاءم والمادة التى صنعت منها . ورقة صناعة

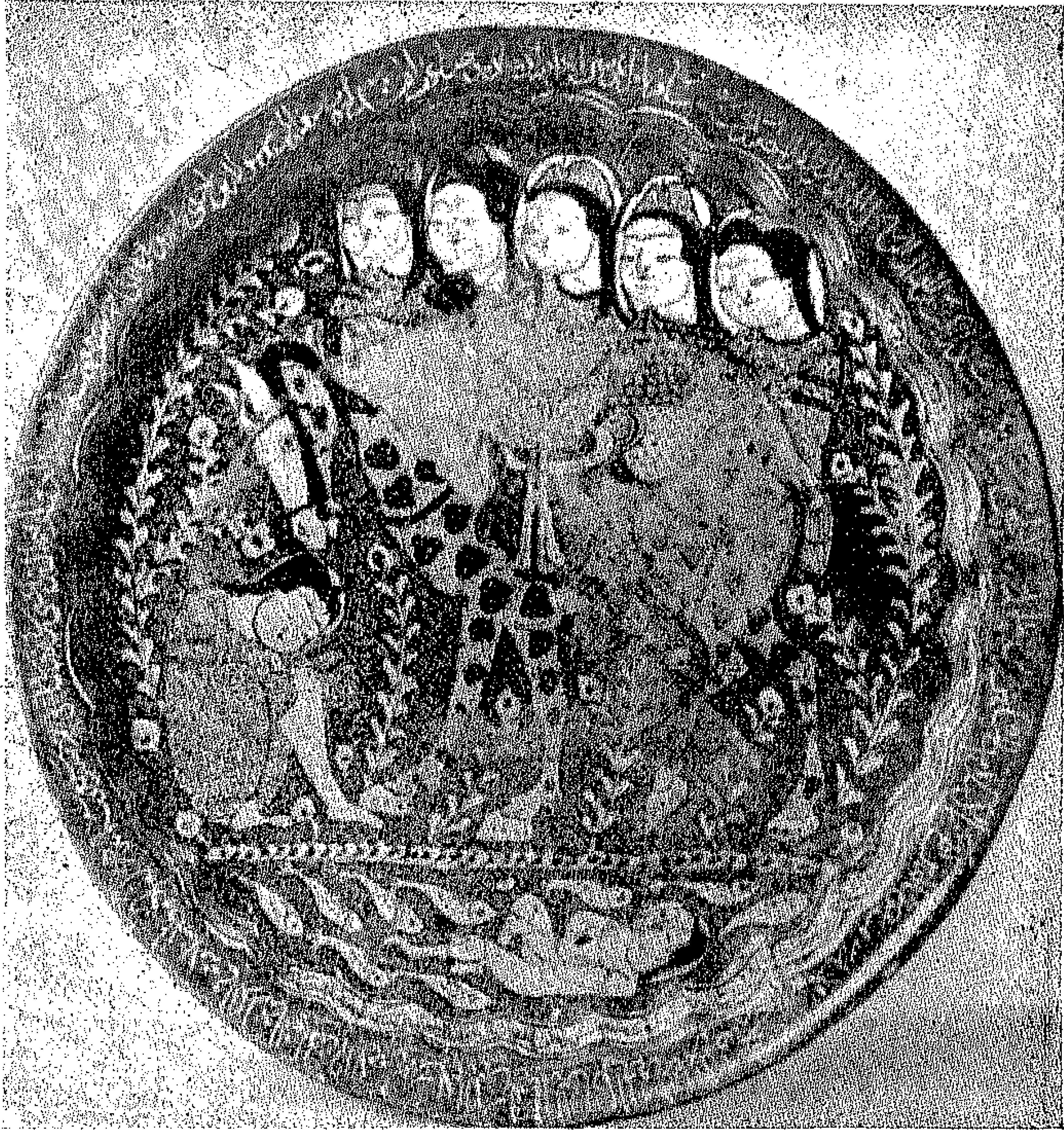
الخزف حينذاك ، جعلت هـــذه الفترة من العهود القليلة التى عظم فيها الإقبال على استخدام الخزف الإيرانى ، إذ أن ألوانه الزاهية كانت تلفت إليه الأنظار دائما على أن إنتاج الأوانى ذات اللون الواحد استمر فى القرن الثالث عشر وكانت زخارفها تصنع بواسطة القالب الأمر الذى يجعلها أكثر اتقانا. أما زخارفها فإنها اشتملت على مناظر آدمية ذات طابع ساسانى .

وهناك نوع آخر من خزف القرن الثانى عشر استخدمت فى صناعته طلاءات مختلفة الألوان فوق الأوانى ذاتها . ويسمى هـذا النوع بخزف « لقبى » وهو عبارة عن الأوانى التى حددت رسومها بالحزوز حتى لا يسيح طلاؤها . ولهذا الأسلوب الصناعى تأثير عجيب يبدو واضحا فى صحن برلين ذى النسر الفخم الباسط جناحيه (لوحة ٣٥ ا). ومن الأنواع السائدة كذلك ، أوان تزينها زخارف عربية وصور راقصات وعازفين ، محزوزة فى طبقة سوداء من الدهان ، ويغطيها طلاء شفاف أو فيروزى اللون . وهناك بعض من القدور والأباريق الصغيرة غاية فى الحسن ، تزينها تضليعات ذات لون أسود صقيل (لوحة ٣٥ب) .

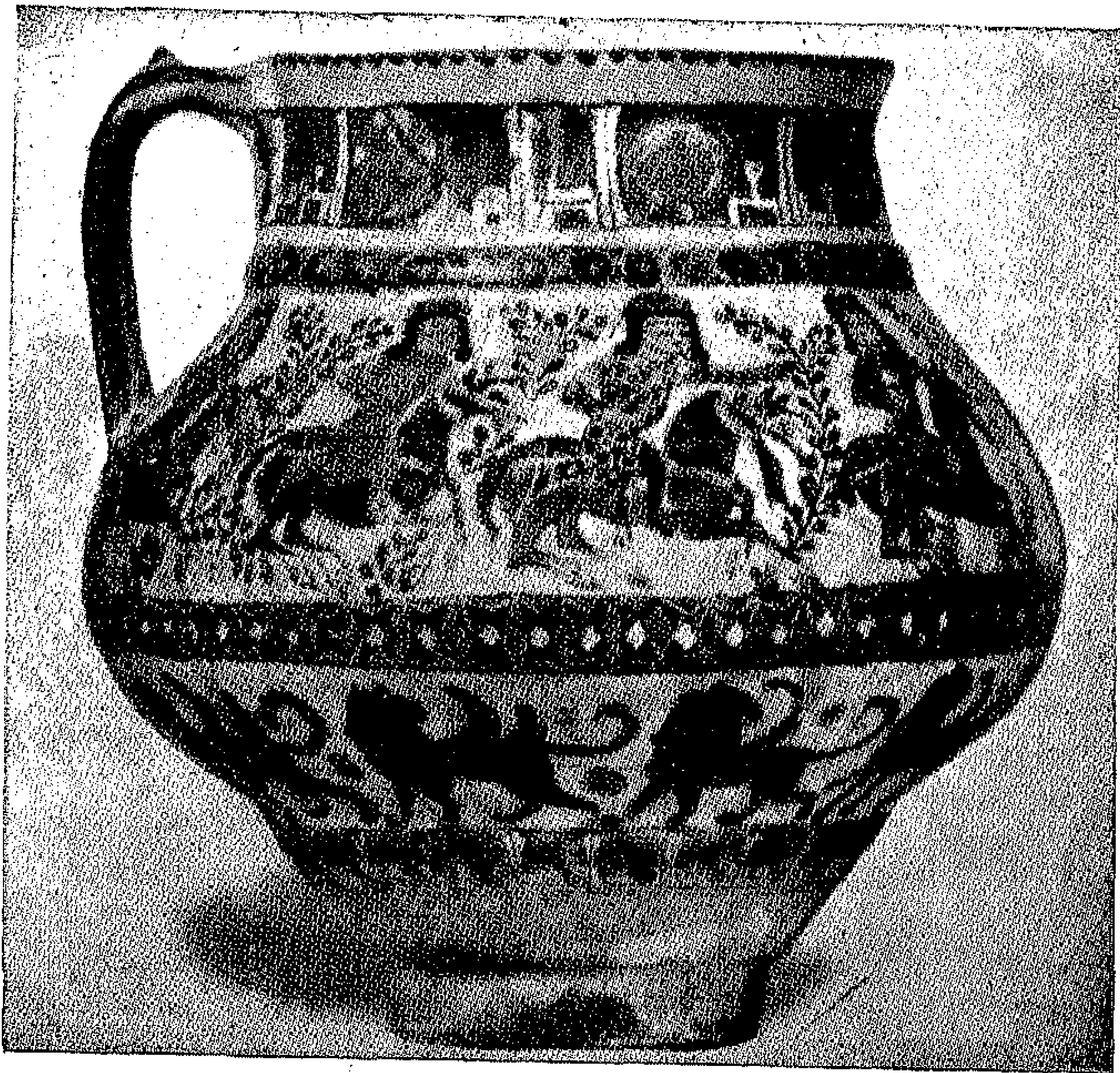
وسواء أسهمت إيران أم لم تسهم فى إنتاج الخزف الرائع ذى البريق المعدنى والمتعدد الألوان فى مدرسة ما بين النهرين فى القرنين التاسع والعاشر ، فإن نوعا من الخزف ذى اللون الواحد هو الأصفر الداكن ، ظهر فى إيران عام ١١٧٩م . ومن هذا النوع إناء محفوظ فى المتحف البريطانى ، مما صنع حينذاك. ومادة هذا النوع صلبة مائلة إلى البياض ثم أضيف إلى طلائه بعض القصدير فصار أبيض غير معتم تماما . وأحيانا ما جاءت رسوم البريق المعدنى فوق طلاء أزرق ، وأحيانا ما جاءت فوق مساحات متبادلة من الأزرق والأبيض. وهناك أمثلة مؤرخة ترجع إلى زمن مبكر وتتمثل فيها حقيقة صفات الأسلوبين الصناعى والفنى ، ويحتمل أن يكون سبب ظهور رسوم البريق المعدنى هكذا فجأة ، راجع إلى تأثير أجنبى هو ، على ما يقال : من مصر حيث ازدهرت

صناعة الخزف بها زمن الخلافة الفاطمية (٩٦٩ ـ ١١٧١م) . وأنتجت إيران أسلوبين رئيسيين ارتبطا ببلدين هامين هما مدينة الرّىّ (قرب طهران) ومدينة قاشان. وكانت تزين الأمثلة الأولى لصناعة الرّىّ أشكال كبيرة لفرسان وموسيقيين وطيور وحيوانات داخل إطارات جامدة من التفريعات النباتية على أرضية ذات طلاء معدنى. أما الإنتاج المتأخر نوعاً فقد مالت رسومه إلى الازدحام وعدم الدقة وتوزيع الأشكال الآدمية والتعبيرات الزخرفية توزيعاً لا ضابط له فوق سطح الإناء . وتعتبر قاشان من المدن المشهورة بصناعة الخزف . وقد أظهر إنتاج أفرانها أسلوباً واضحاً عن غيره ، توارثته أجيال عديدة متعاقبة من الخزافين الذين نعرف أسماء الكثيرين منهم . ومن أصدق الأمثلة التى تحمل طابع أسلوب قاشان ، الصحن المحفوظ بمتحف فرير بواشنطون (لوحة ١٣٦) . ويرجع تاريخ هذا الصحن إلى عام ١٢١٠م ، وهو يصور قصة خسرو وشيرين ، وكيف أبصرت عيونه جمالها لأول مرة وهى تسبح فى الماء . وخزافو قاشان من خيرة أصحاب التصميمات الفنية ، وقد أغرموا بعمل طبقة سميكة من البريق المعدنى ذى الرسوم البارزة من الحبيبات والتفريعات الدقيقة . وكذلك شاعت بين خزافى قاشان الموضوعات التالية : الأوجه الجميلة المستديرة ذات الحواجب المقوسة والعيون اللّوزية الشكل ، وكذا رسوم الموسيقيين والفتيان والفتيات الجالسين للحديث إلى جوار الجداول المائية .

ومن الأساليب الصناعية الأكثر روعة ، أسلوب تزينه مناظر من قصص الملاحم والبطولة ، ويسمى بخزف « مينائى » وهو الخزف المغطى بالمينا . وتحتاج ألوان هذا النوع إلى درجة حرارة عالية ، وتنحصر فى الأزرق والأخضر والأصفر والأرجوانى ، وترسم فوق طبقة من الطلاء القصديرى قبل حرق الأوانى فى الفرن . أما الألوان الأقل ثباتا وهى الأسود والأحمر والأبيض والذهبى ، فإنها تثبّت بحرق الأوانى مرة ثانية فى قمائن مغطاة . وقد توصلوا إلى عدة أطياف لونية جميلة سواء فى خزف



ا ـ طبق ذو بريق معدني من قاشان ؛ مؤرخ ٦٠٧هـ (١٢١٠م) متحف فرير للفنون بواشنطون.



ب ـ إبريق مموه بالمينا المتعددة الألوان ؛ أوائل القرن الثالث عشر .
متحف المترو بوليتان بنيويورك .



ا ــ سلطانية رمادية اللون وعليها زخارف بيضاء ؛
أوائل القرن الرابع عشر ــ متحف فتزويليام .



ب ــ سلطانية مرسومة بالأسود تحت طلاء فيروزى ، قاشان ؛
أوائل القرن الثالث عشر ــ متحف ڤكتوريا والبرت بلندن .

أفران الحرارة العالية أو فى الخزف المغطى بالمينا . وأحيانا ما رسمت الزخرفة فوق طبقة معتمة فيروزية اللون فيبلغ جمالها حد الرّوعة . وخزف « مينائى » من صناعة الرّىّ وقاشان ، ويحتمل أن يكون من صناعة ساوة أيضا . وأشكاله الزخرفية تشبه تلك التى على الخزف ذى البريق المعدنى ؛ هذا فضلًا عن أنها اشتملت على صور بعض ملاحم الشاهنامه . وتلك الصور ذات أهمية خاصة لما نفيده منها فيما يتصل بتصوير الكتب المعاصرة ، التى لم يصلنا شىء منها من إيران (لوحة ٣٦ ب) . ومن الراجح استمرار إنتاج هذا النوع من الأوانى بعد الغزو المغولى وتخريب الرّىّ (١٢٢٠ — ٢١ م) ، وهو من الناحية الصناعية أحسن ما أنتجته إيران من الخزف . ويوجد نوع آخر من الخزف الرائع الجمال ، وهو من صناعة قاشان وتزينه رسوم سوداء وزرقاء تحت طلاء زجاجى لا لون له أو طلاء فيروزى اللون . وترجع أبدع أمثلة هذا النوع إلى العشرين سنة الأولى من القرن الثالث عشر . ومن غير المألوف وقتذاك صورة ذلك الفرع الطويل من النباتات المائية وهو الذى نراه فى اللوحة (٣٧ ب) .

أما بواكير إنتاج التحف المعدنية ببلاد إيران فيتجلى فيها بوضوح ، أكثر مما يتجلى فى الخزف ، التأثر والاقتداء بالفن الساسانى . ومرجع ذلك أن الخزف الإيرانى فى العصر الساسانى لم يكن ، على قدر ماوصل إلينامنه ، من نوع ممتاز ؛ بينما تعتبر الأوانى الذهبية والفضية والبرونزية من أرقى ماصنع منها . وكانت الأطباق والأباريق الفاخرة ، التى نقشت عليها مناظر الصيد وصور الآلهة والحيوانات الخرافية ، مما تستورده القبائل الرحل الضاربة على حدود إيران ، إذ كانت موضع إعجابهم العظيم ؛ كما خلقت فيهم إحساسا بحب مثل هذه الأشياء قبل أن يدخلوا فى الإسلام بزمن طويل . وكانت الأوانى المعدنية المصنوعة من البرونز والمطلية بالفضة مما صنع فى إيران ذاتها فى القرن التاسع الميلادى ، تشبه تمام الشبه الأوانى الساسانية ، وخاصة ما صنع فى الأقاليم شبه المستقلة فى جنوب بحر قزوين . وقد وصلت إلينا أمثلة قليلة من المعادن النفيسة مما

صنع فى إيران إبان فترة الحكم الذاتى فى القرنين العاشر والحادى عشر . ومن تلك الأوانى ، إبريقان من الذهب نقشت عليهما كتابات كوفية تتضمن بعض أسماء الأسرة البويهية . ويمكن إرجاع هــذين الإبريقين ، إذا لم يكونا غير مقلدين ، إلى النصف الثانى من القرن العاشر . وتزين الإبريقين نقوش غائرة ؛ وعلى أولها رسوم حملان ومخلوقات مجنحة، وأما الثانى فعليه طواويس ساسانية داخل جامات مستديرة. وسوف نعلم الكثير عن التحف المعدنية فى عهد الأسرة السامانية عند ما يتم نشر ما كشفت عنه حفريات مدينة نيسابور ؛ غير أنه من اليسير أن نأخذ فكرة واضحة عن جودة تلك التحف من إبريقين فاخرين مصنوعين من الفضة فى مجموعة متحف الهرميتاج . وأحد هذين الإبريقين تزينه مراوح وأنصاف مراوح نخيلية محفورة حفرا غائرا ، وكذا أشكال طيور مجسمة تمام التجسيم . وبلغت هذه الظاهرة الفنية تمام إتقانها فى تحف عصر السلجوقى . وهذه الأوانى جميلة فى شكلها وتمثلها تحفة فضية بمتحف گلستان بطهران . أما أباريق تلك المجموعة فتشبه مثيلاتها فى العصر الساسانى .

والتحف المعدنيــة النفيسة من العصر السلجوقى نادرة ، ومعظم الموجود منها ضمن المجموعات الروسية ، وأشكاله بسيطة وزخارفه جافة وكتاباته باللون الأسود . ومن أبدع أمثلة التحف المعدنية السلجوقية المتأخرة ، إبريق وسلطانيــة من الفضة بمتاحف الدولة ببرلين . وتزين الإبريق زخارف بارزة ومحفورة من الطيور المتدابرة ؛ وأشرطة من حيوانات تعدو فوق أرضية من الزخارف النباتية . أما السلطانية فتزينها جامات ، ونقوش دقيقة من المينا السوداء ، كما يزينها شكل عازف مصنوع بطريقة الضغط (en repoussé) .

والعصر السلجوقى غنى بتحفه المعدنية المصنوعة من المواد الرخيصة مثل البرونز الذى كان يزين بالزخارف البارزة أو المحفورة أو المخرمة أحيانا . ولا يمكن تمييز معظم هذه التحف بعضها عن بعض . ورسومها حرة الحركة وزخارفها خشنة وقوية

في الوقت ذاته (لوحة ١٣٨) . وظل مألوفاً صنع الأباريق الساسانية الكمثرية الشكل بمقابضها ذات الرمانة أو المروحة النخيلية مما يساعد على تناولها . أما الزخرفة فتشتمل على مناطق وأشرطة تضم حيوانات وطيورا وعقبانا وحيوانات ذات رءوس آدمية وعبارات دعائية بالخطين الكوفي والنسخي . ومن أشهر التحف المعدنية ، مجموعة دقيقة من المباخر المخرمة مصنوعة على أشكال الأسود (لوحة ٣٨ ب) . وقد صنع الكثير من هذه التحف في أواسط إيران وغربها وإن كان يبدوا أن معظمها جاء من شرق إيران وإقليم خراسان حيث قامت صناعات معدنية راقية .

وأبدع ما يلفت النظر في العصر السلجوقي ، ما أنتجه صانعو التحف المعدنية من أوان برونزية أو نحاسية صفراء مكفتة بالفضة والنحاس الأحمر . وهذا الأسلوب الصناعي مجهول الأصل ، ومع ذلك فهناك مجموعة من الأباريق البرونزية ترجع إلى عصر ما بعد الساسانيين وهي مكفتة برسوم مستطيلات صغيرة ودواير من النحاس الأحمر . ومن خير أمثلة هذه المجموعة إبريق محفوظ بمتحف الهرميتاج وتزينه أشكال طواويس تقوم على جانبي شجرة نخيل . ولكن ما أبعد الزمن بين هذه المجموعة وبين مقلمة برونزية ، بالهرميتاج أيضا ، تزينها كتابات مكفتة من الفضة والنحاس الأحمر وأشكال صغيرة محفورة من الطير وورق الشجر . ويحتمل أن تكون هذه المقلمة من صناعة خراسان وهي من أقدم القطع المؤرخة المعروفة ، فتاريخها هو ١١٤٨م ؛ ولا نفهم أن تطوى بسهولة هذه الحقبة التي تبلغ أربعة قرون أو تزيد .

وأهم قطعة سلجوقية مكفتة ، سطل أو دلو محفوظ ضمن مجموعة بوبرينسكي بمتحف الهرميتاج . وهذا السطل ، كما تدل الكتابة التي عليه ، من صناعة هراة بإقليم خراسان عام ١١٦٣م ؛ ومن عمل محمد بن الواحد السباك ومسعود بن أحمد المكفت ؛ وقد صنعاه لأحد تجار مدينة زنجان بشمال غرب إيران . وتؤيد هذه التحفة النصوص التاريخية القائلة باستقرار صناعات معدنية هناك ، وبأن هراة كانت مركزاً لصناعة

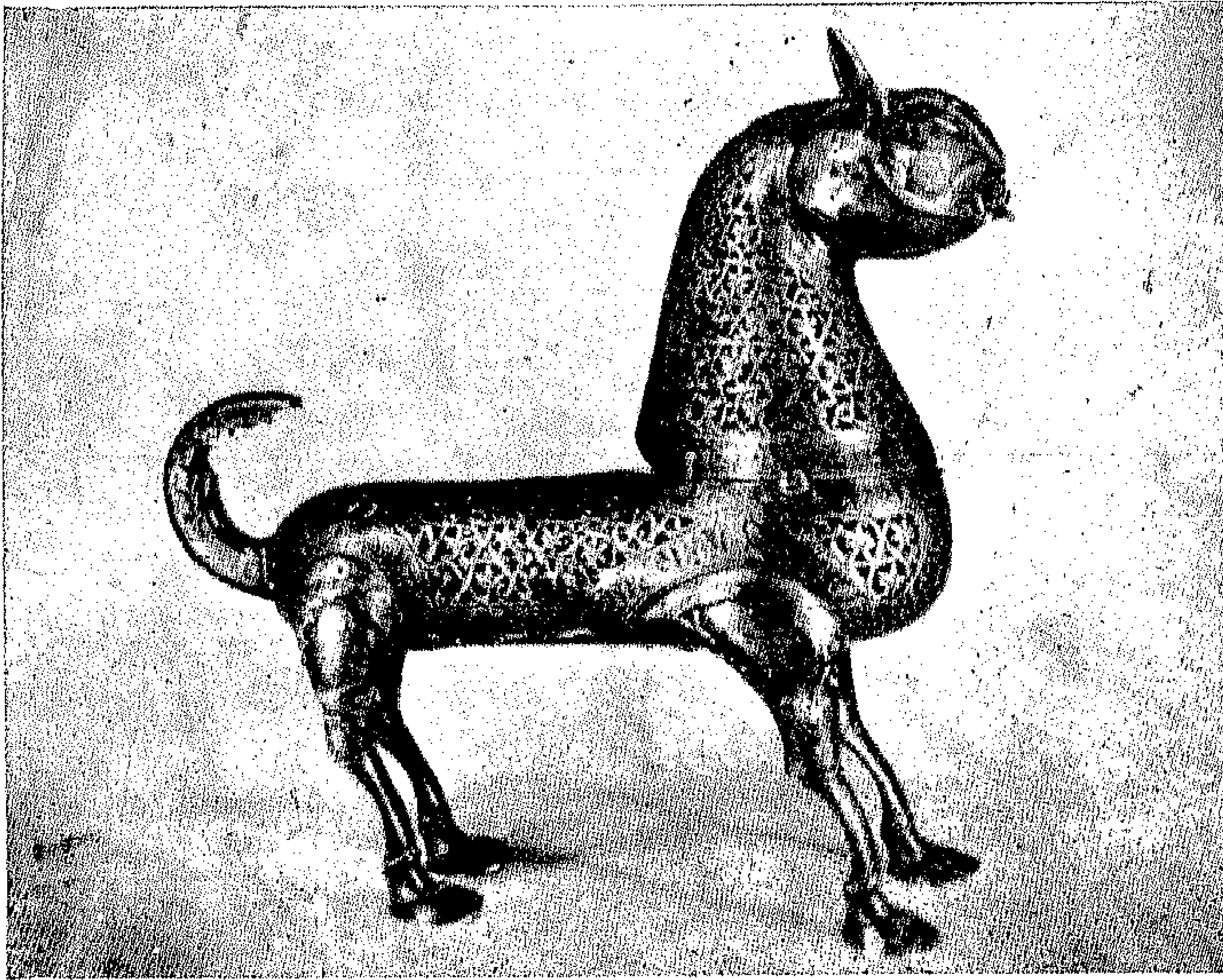
وتصدير الأوانى المكفتة بالفضة . وتزين سطح السطل السالف الذكر خمسة أشرطة مكفتة بالفضة والنحاس الأحمر : اثنان منها عليها رسوم تمثل الأعياد وحفلات البلاط ومناظر الصيد ؛ أما الأشرطة الثلاثة الأخرى فعليها كتابات بالخطين الكوفى والنسخ. وتنتهى مدّات الحروف النسخية برءوس آدمية . وهذا الأسلوب من الابتكارات الطريفة التى غالباً ما جاءت على نحو بالغ التعقيد [لوحة ٣٩] .

وهناك قطع عديدة عليهـا إمضاءات صانعيها من أهل خراسان ؛ ومن أهم تلك القطع إبريق مكفت محفوظ بمتحف تفليس وهو من صناعة مدينة هراة عام ١١٨١م . وبدن الإبريق مُقنّى أما كتفه فعليه علامات البروج الاثنى عشر ، وهذا الأسلوب من الزخرفة شائع ومعروف فى خزف قاشان ذى البريق المعدنى . ونعرف الكثير من هذا النوع من الأباريق الإيرانية وفى طليعتها إبريق جميل بالمتحف البريطانى ، مصنوع من النحاس الأصفر الذى نلاحظ حلوله محل البرونز أواخر القرن الثانى عشر. وتزين ذلك الإبريق أشكال طيور وأسود بارزة تدور حول كتف الإبريق وعنقه ، وأسد رابض فوق صنبوره المتجه إلى أعلا . أما قنوات البدن فتزينها كتابات من أسلوبين متنوعين وتنتهى مدّات حروفهما برءوس آدمية ، وتزينه كذلك أشكال البروج الاثنى عشر ، كل ذلك مكفت بالفضة ومحاط بتفريعات نباتية غنية . ويشتمل إنتاج هـذه المدرسة على محابر ومقلمات وشماعد كبيرة تزينها طيور واقفة فوق أعلا أبدان الشماعد وأسود بارزة على قاعداتها ؛ كما يشتمل على أباريق كمثرية الشكل ذات صنابير تشبه المسارج ومقابض على هيئـة أسود تشرب . واحتفظت المدرسة الإيرانية بمستواها الرفيع فى التكفيت وبمميزاتها الأخرى الواضحة حتى أيام الغزو المغولى .

وإذا نحن تحولنا إلى فنون النسيج وجدنا أن ذلك الفن . ازدهر بإيران منذ أيام الأكمينيين الذين اشتهروا بملابسهم الأنيقة وأصوافهم السخية . ثم دخلت صناعة



ا ـ صينية من البرونز ، ذات زخارف محفورة ؛
القرن الثانى عشر ـ متحف ڤكتوريا والبرت بلندن



ب ـ مبخرة من البرونز ذات زخارف محفورة ومكفتة بالنحاس الأحمر ؛



سطل من البرونز ذو زخارف محفورة ومكفتة بالفضة والنحاس الأحمر ، هراة ؛
مؤرخة ٥٥٩ (١١٦٣ م) ـ متحف الهرميتاج بلينينجراد .

المنسوجات الحريرية إلى إيران من بلاد الصين زمن البارثيين . ومن الراجح أن يكون إنتاج الحرير قد استقر ببلاد إيران قبل سقوط الأسرة الساسانية . ولم يصلنا غير قليل من المنسوجات الحريرية التى ترجع إلى عصر الساسانيين ، وأقل منها ما وصلنا من المنسوجات الصوفية . وتعطينا الرسوم المنقوشة على الأحجار والتحف المدنية فكرة عامة عن مظهر تلك الأقمشة المنسوجة خلال قرون عدة فى إقليم خوزستان بذاته ، حيث أقام سابور الأول - فيما يقال - أسراه الأنطاكيين من أهل تلك الصناعة. وثمة نوع آخر من تلك المنسوجات الحريرية الملكية تزينه جامات مستديرة أو ذات فصوص تضم داخلها خيولا مجنحة وحملانا وطيورا وصورة الأسد العجيب الطائر وهو السنمور(Senmuro) . ولهذه الموضوعات الزخرفية أثرها العميق على صناع النسيج من السوريين والبيزنطيين. أما أنواع النسيج الأخرى فتكسوها بغزارة رسوم بتلات مفصصة وأشرطة من التعبيرات الزخرفية النباتية والهندسية . وهناك نوع من الأقمشة نسجت زخارفه بالورب وهو ذو تأثير قوى وعنيف فضلا عن غناه وتعدد ألوانه .

وتدلنا النصوص التاريخية على أن النسيج ، أوائل العصر الإسلامي ، كان يصنع ببلاد إيران ولا سيما فى إقليم خوزستان وخراسان وفارس . وتشبه بعض المنسوجات الحريرية إلى حد كبير ما وصلنا من منسوجات العصر الساسانى من حيث الألوان وأسلوب الزخرفة ؛ ويرجح أن يكون من صناعة غرب إيران. ومن أمثلة ذلك منديل مشهور باسم سان فكتور بكتدرائية سنز. وتوجد مجموعة أخرى من الأقمشة تزينها رسوم ذات خطوط مزواة تتضمن أشكال حيوانات وطيور متقابلة ويحتمل أن تكون من صناعة ما وراء النهر أو أوسط آسيا . وتشبه تلك المجموعة فى أسلوبها الزخرفى ، قطعة حريرية ، أرق من حيث النوع ، هى القطعة ذات الفيلة التى كانت ضمن مجموعة كنيسة سان چوس ونقلت إلى متحف اللوفر . وتحمل الكتابة الكوفية التى على تلك القطعة اسم أحد أمراء خراسان المتوفى عام ٩٦٠م . وتتجلى فى هذه القطعة المهارة

الفنية العالية ؛ وهى منسوجة بطريقة الورب (Twill) كالقطع الساسانية . وقد استخدم فى لحمتها ما لا يقل من سبعة خيوط فى وقت واحد وأ كسبت ألوانها الفنية الحياة لثمار البرقوق الذى يزين الأرضية، أما الفيلة ذاتها فنسجت باللون الأصفر ومثلها الـكتابات الـكوفية . واستخدم اللون الأبيض والأزرق وأطياف ثلاثة من اللون البنى (Tan) فى رسم قافلة الجمال .

والمنسوجات السلجوقية ليست عظيمة المقدار وإن كان المعروف منها يكفى للبرهنة على المستوى الرائع الذى بلغــه النساجون حينذاك من حيث المهارة فى الصناعة والأسلوب الفنى سواء . ويتجلى جمال الأقمشة السلجوقية فى نوعها الذى يفوق نوع أقمشة ما قبل العصر السلجوقى ؛ ذلك أن نساجى العصر السلجوقى لم يحفلوا كثيراً بالأقمشة الزاهية الألوان كتلك القطعة الحريرية ذات الأفيـال المعروفة باسم قطعة سان چوس . وكل ما أحبه النساج السلجوقى هو التباين البسيط بين أطياف عدد قليل من الألوان . وغالباً ما قصر النساج استخدامه على اثنين منها هما : الأطياف الزاهية أو الداكنة للأزرق والبنفسجى والأسود أو الأخضر مع البيج (لون وبر الجمل) والأبيض أو الأحمر . وازدانت منسوجات أوائل العصر السلجوقى برسوم بسيطة وكبيرة الحجم إلا أن نساجى أواخر القرن الثانى عشر والقرن الثالث عشر كانوا على جانب كبير من الاطمئنان إلى كفايتهم فى عمل التصميمات حتى صار فى إمكانهم إنتاج أرق الرسوم وأعقدها . وكانت أحب الأقمشة لديهم هى ذات النسيج الموروب أو المتعدد اللحمة ، وإن كانوا صنعوا فى الوقت ذاته الأقمشة ذات الوجهين وأنواعاً أخرى جميلة من السّتان (الأطلس) . وكانت الزخارف المستخدمة إما رموزاً أو شارات وإما رسوماً تقليدية كالنسور ذات الرأسين والطواويس والأســود والعنقاوات الواقفة على جانبى شجرة الحياة . وهــذه التعبيرات الزخرفية توضع عادة على هيئة دوائر أو أشرطة أو معينات أو مثمنات ، كما استعمل الفنانون الـكثير من

الموضوعات الغرامية وقصص الرعاة التى جاءت فى رسوم الخزف المعاصر . وتعتبر القطعة الحريرية التى تزينها رسوم البط (لوحة ٤٧ ا) ، مثلا رائعاً للأقمشة المصنوعة فى بداية القرن الثالث عشر . فالكتابة الكوفية ذات اللون الأزرق تدور حول أشكال بيضاوية مملوءة برسوم متقاربة صفراء على أرضية زرقاء . أما المساحات المتخلفة بين الأشكال البيضاوية فتزينها أوراق أشجار منسوجة نسجاً غير محبوك ، باللون الأزرق على أرضية صفراء .

يقدس المسلمون القرآن باعتباره كلام الله ، الذى جاءهم عن طريق رسوله ؛ ولذا استحق منذ البداية أن تطلب أو تكتب النسخ الدقيقة الفاخرة منه . ويختلف القرآن عن الإنجيل فى أن الأول لم يصور ولم يسمح بتزويقه بزخارف تعتمد على أشكال آدمية أو حيوانية . ونتج عن ذلك أن تركزت ابتكارات الفنان وإحساساته الفنية فى تجويد الكتابة وفى التذهيب الفنى المجرد من الموضوعات والذى كان بمثابة أرضية للكلمات . وبلغ فن الخط أسمى مراتبه فى بلاد فارس وفى بلاد الصين . ولم يجد الأمراء غضاضة فى أن يتتلمذوا على مشاهير الخطاطين . وهؤلاء فى أصل نشأتهم مذهبون كذلك ، بل والبعض منهم مصورون صوروا فقط الكتب غير الدينية . ولم يتحدد التخصص فى العمل بين أكثر هؤلاء الفنانين قبل القرن الخامس عشر .

كتبت نسخ القرآن فى القرنين التاسع والعاشر بالخط الكوفى على الرّق ، وزوقت بماء الذهب مع الأصباغ الأرجوانية ، وترجع هذه المخطوطات الجميلة ــ كمعظم نسخ القرآن المكتوبة على الورق فى القرن الحادى عشر ــ إلى الأسلوب الكتابى الذى عرفته مصر وعرفته مدرسة بغداد فى العصر العباسى . على أنه لم يصلنا سوى القليل عن فنون الكتاب وصناعته فى فارس حتى القرن الثانى عشر ؛ وذلك عندما استقر شكل الكتاب على الصورة التى نعرفها له الآن فى الكتاب الأوربى ، وعندما استبدل الرّق بالورق ، الذى يقال إن العرب تعلموا صناعته بعد استيلائهم على سمرقند . وكان النص

يكتب بخط النسخ ، واقتصر الخط الكوفى على كتابة رءوس الموضوعات عادة . وابتكرت أشكال كثيرة من كلا الخطين وقصد بهذا التنوع توكيد بعض الحروف أو تعقيد أشكالها . والخط الكوفى المزوّى وسيلة رائعة للتعبير الذهنى ، ففيه قوة وفيه دفع للخطوط الأفقية فى الحروف مع وضوح قوى فى التقائها بالمدّات المتعامدة عليها ، الأمر الذى يجعل لهذا الأسلوب من الخط قيمة أثرية باقية . ويمتاز خط النسخ بأنه أكثر رقة فى انحناءآته وأكثر انسيابية أيضا ؛ ومع ذلك فهو لا يقل عن الكوفى عظمة وقوة . وإن الخطاط ليتحكم فى الأحرف التى يكتبها تماما ، كما يتحكم الموسيقى فى أحاسيسه ، وهو يصوغ نغما بذاته . والحقيقة إننا نستطيع أن نقول إن نظرة إلى صحيفة من القرآن من العصر السلجوقى تعطى من السرور النفسى ما تعطيه تلك النظرة إلى صحيفة من موسيقى باخ (لوحة ١٤١).

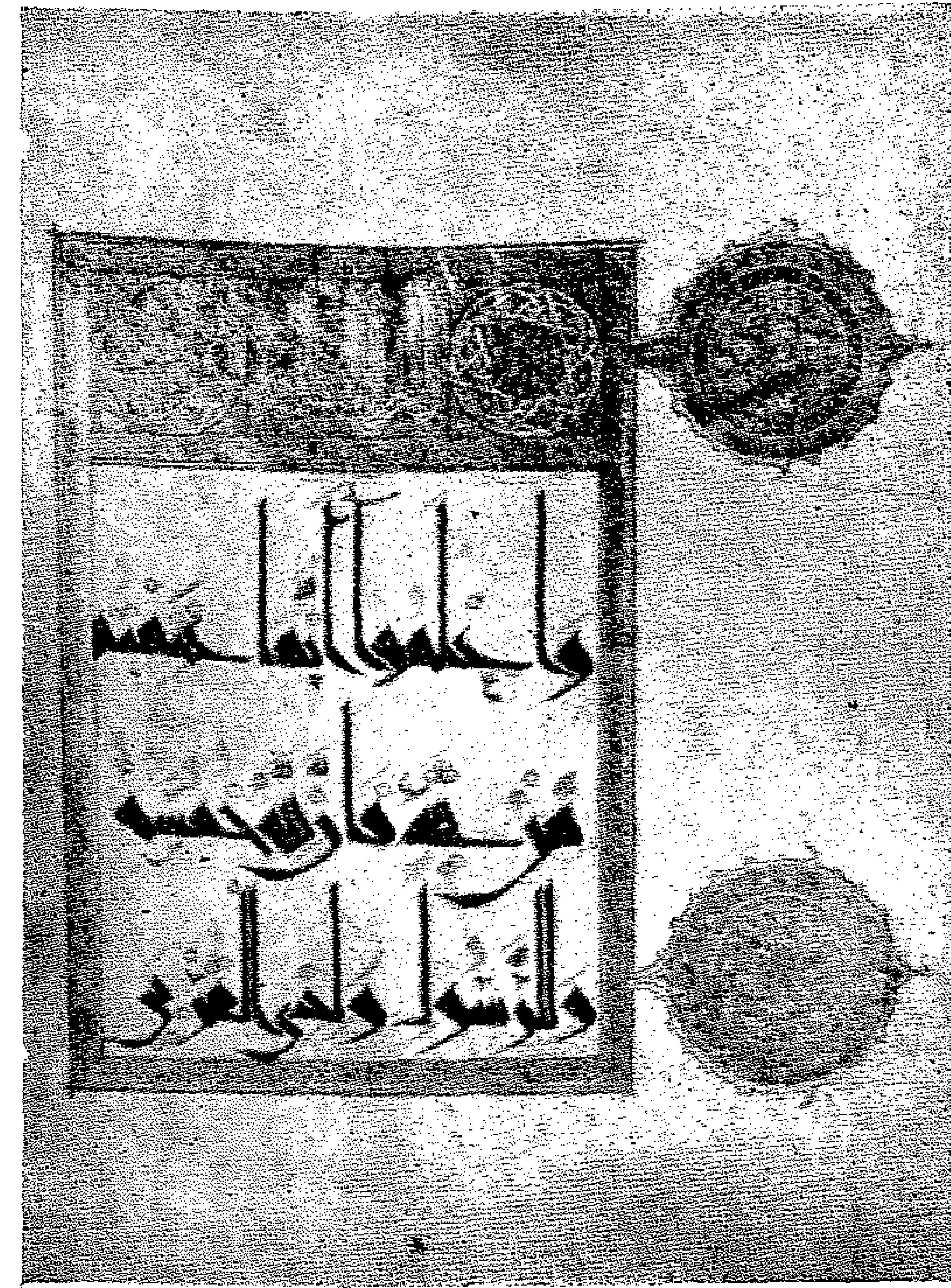
واستخدم التذهيب فى نقط الخط وشكله . أما الزخارف فكانت فى أول أمرها عبارة عن أشرطة تحدد نهاية سورة وبداية أخرى . وزين رأس كل سورة بمروحة نخيلية فى الهامش . وانبسطت الكتابة فوق أرضيـة مرسومة بزخارف نباتية جميلة باللون البنى . كذلك فصلت الآيات بعضها عن بعض برسوم وريدات ، بينما زينت الهوامش بالخرطوشات للدلالة على أوائل الأحزاب . وقد توجـد فى أول كل كتاب صحيفة أو أكثر من الزخرفة البحتة . ويبدو من نسخة القرآن المحفوظة فى المتحف البريطانى والمؤرخة ١٠٣٦ أن المذهِّب مارس ابتكاراته الرائعـة فى خمس صفحات . أما الصحيفة الأولى وهى صحيفة العنوان، فعادة ما تكون لها زخرفة بديعة . والألوان المستخدمة غنية جدا وبسيطة فى الوقت ذاته . والتذهيب عادة بالذهب المائل إلى الاحمرار عنـــد ما تتكوّن منه الأرضية تمييزا له عن الرسم الموجود . أما تفاصيل الرسم فقد استخدمت فيهــا الألوان : الأزرق والأسود والأحمر والأبيض . واقتصر استخدام الأسود على كتابة الحروف التى ميزت هى الأخرى بنقط زرقاء أو حمراء أو خضراء . ثم استمر هذا الأسلوب السلجوقى سائدا فى العصر المغولى .



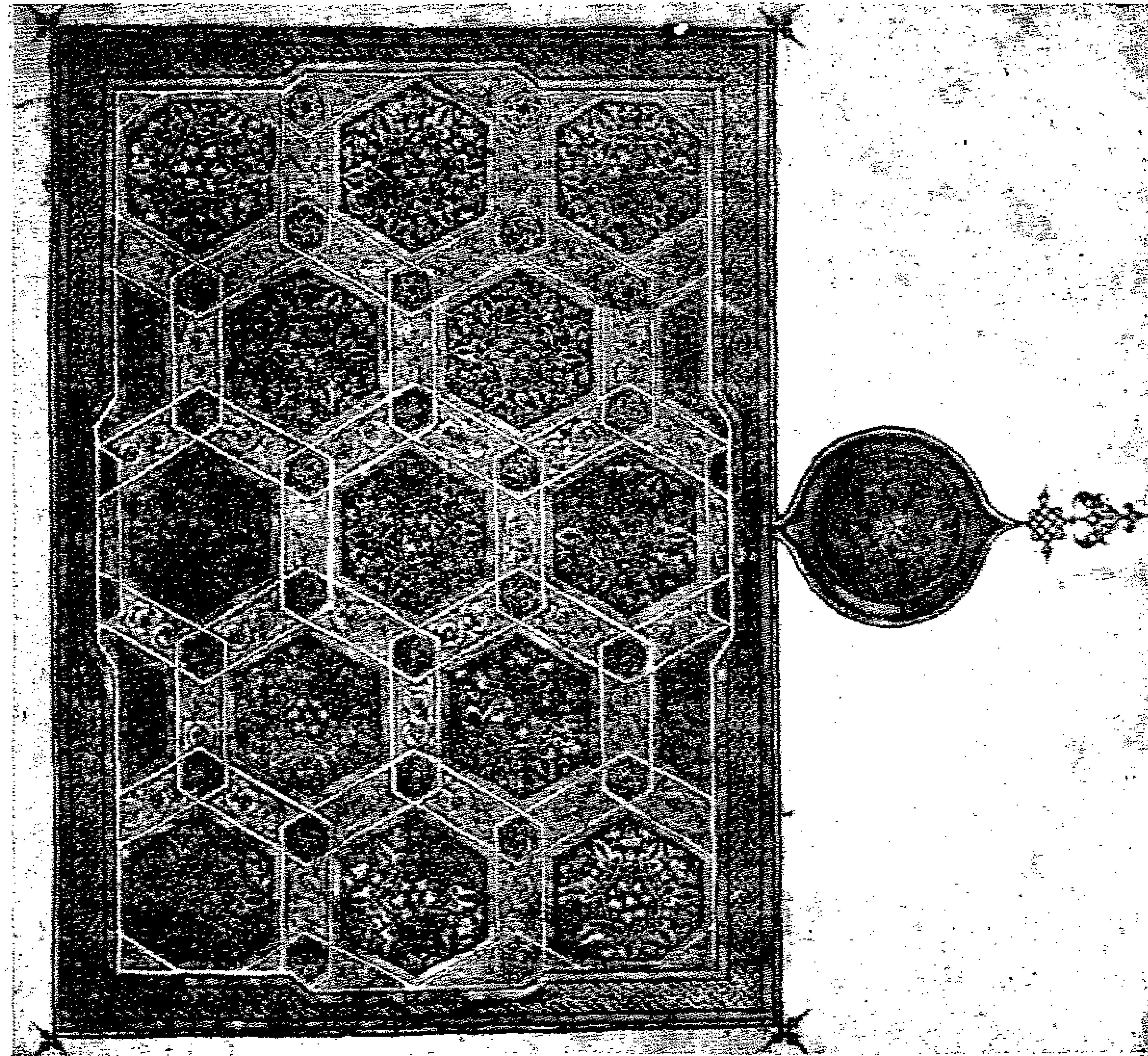
ا ـ شمعدان من النحاس الأصفر ذو زخارف محفورة ومكفتة بالفضة ؛
مؤرخة ٧٠٨ هـ (١٥٠٨ م) ـ مجموعة ستورا



ب ـ طست من النحاس الأصفر ذو زخارف محفورة ومكفتة بالفضة ؛
أواخر القرن الرابع عشر ـ متحف والتر للفنون ببلتيمور .



ا ــ صحيفة من القرآن ؛ القرن ١١-١٢ م المتحف الأهلي بطهران .



ب ــ صحيفة من القرآن ؛ كتبت في الموصل عام ١٣١٠ للسلطان أولجيتو ــ المتحف البريطاني بلندن .

أقتصر التخريب الشنيع الذى أحدثه الغزو المغولى عام ١٢٢٠ ـ ٢١ م على إقليمى خراسان وماوراء النهر ؛ ذلك عدا غارة مخربة عبر شمال فارس ، يقال إنهـا دمّرت مدينة الرى ؛ بينما لم يصب وسط بلادفارس وغربها بشىء . غيرأنه حدث عام١٢٣١م أن اكتسحت البلادغارةشاملة أخضعت فيهاالبلادبأسرها . وفى المدةمابين عام ١٢٣١ ـ ١٢٥٦ م ، روّعت إيران بجيشين مغوليين أشاعا فيها البؤس والشقاء : ففى سنة١٢٥٦م وفد هولاكو ، الأخ الأصغر لجنكيز خان ، على البلاد ليقيم سلطان الأمبراطورية المغولية . وفى عام ١٢٥٨ م سقطت بغداد . وانتهت الخلافة العباسية وامتد الحكم المغولى إلى حدود سورية . ثم حدث استقرار فى بلاد فارس حين تأسست أسرة الإيلخانيين ، التى استمرت حتى ١٣٣٥ م واتخذت مراكز حكمها فى مراغة وتبريز وسلطانية فى شمال غرب إيران . وبعض هؤلاء الإيلخانات الأول كانوا على الإسلام، كإخوانهم فى جنوب روسيا ، أما بعضهم الأخر فكان بوذيا وعلى علاقة طيبة مع المسيحيين ـ كان ذلك حين تبودلت السفارات بين البلاط المغولى وبين بلاط الدول الأوربية فى المحاولة الفاشلة لتكوين جبهة ضد مصر المملوكية ـ غير أنه عند ماارتقى غازان العرش عام١٢٩٥م، مستعينا فى ذلك بمساعدة العناصر الفارسية ، تحول هو والمغول إلى الإسلام بصفة رسمية .

شاهد ذلك العصر امتزاجا بين العناصر الإيرانية وعناصر بلاد ما بين النهرين فيما أنتج من التحف المعدنية وفى التذهيب والتصوير أيضا . كما شاهد زحف العناصر والتعبيرات الصينية على كافة الفنون القائمة . وكان الاندماج الذى حدث وقتذاك بين الصين وغرب آسيا أيسر وأقرب مما حدث فى أى وقت مضى . فقد ظل إيلخانات فارس على صلاة مباشرة مع الفرع الأكبر من أسرتهم ، وهو الذى أسس الحكم باسم أسرة يوان Yuan فى بلاد الصين المفتوحة . وانتقلت المتاجر عبر أواسط آسيا

وبحارها تحمل الكتب المصورة والپورسلين والأقمشة ؛ وتأثر الفن الفارسى أو بالأصح الفن الإسلامى تأثرا عميقا بفيض من الزخرفة . ذلك بالإضافة إلى أن الإيلخانات جمعوا حولهم ، فى عواصمهم ، رجال الفن من بلاد ما بين النهرين ومن غرب إيران ووسطها !، ولكن خراسان لم تستعد انتعاشها إلا فى القرن الخامس عشر .

و يبدو — كما هو متوقع — أن تأثر الخزفيين بأحداث فترة الانتقال كان أقل من غيرهم، بدليل استمرار صنع الأوانى من الخزف المينائى ذى الرسوم المتقنة . ويحتفظ متحف ڤكتوريا والبرت بسلطانية مؤرخة ١٢٤٢م عليها صورة أمير جالس على عرشه وحوله تابعوه ومرسومة بالمينا فوق الطلاء فحسب . واستجد نوع كثيب حينذاك أطلق عليه اسم الخزف اللازوردى . وتزين هذه الأوانى ورقة ذهبية وألوان محدودة على طلاء أزرق داكن (لازوردى) أو فيروزى . وتميز هذه الزخرفة الجديدة قطع القرن الرابع عشر الخزفية . ومن المحتمل أن يكون إقليم سلطان اباد قد استمر ينتج الأوانى الخزفية المرسومة تحت الدهان وذات البريق المعدنى وفق أساليب مدينة قاشان . أما زخارف هذا النوع فأخاذة للغاية وإن كانت قليلة نادرة .

وهناك نوع آخر تزينه رسوم تخطيطية ذات بقع تحت الطلاء باللون الأزرق والأخضر والأرجوانى والأخضر الداكن المائل إلى السواد . وخير أمثلة هذا النوع سلطانية ذات قاعدة مرتفعة تاريخها ١٢٧٤م وهى ضمن مجموعة كيليكيان بمتحف ڤكتوريا والبرت .

وشاهد القرن الرابع عشر عودة صنع الأوانى الخزفية ذات الأنواع الفاخرة . وتحتوى زخارفها على أشكال العنقاوات والغزلان والطيور السابحة فى الفضاء وصور آدميين عليهم ملابس مغولية تحيط بها أوراق الأشجار والزهور الطبيعية ، ومن بين هذه الزهور وأهمها زهرة اللوتس الصينية (Nelumbo) .وتسود الروح الصينية موضوع الزخرفة وهى مستعارة من رسوم الپورسلين والمنسوجات الصينية ، أما رسومها التى

تحت الطلاء فقد نفذت باللّون الأسود مع طيفين من أطياف اللون الأزرق؛ وجاءت فارسية أصيلة. وكانت الألوان في القطع التي احتفظت بجدتها غاية في البهجة. ورأينا في بعض الأواني رسوما جمعت بين لونين متضاربين وجميلين وإن كانت من نفس الأسلوب السائد، ونفذت هذه الرسوم بدهان أبيض فوق طبقة أخرى من الدهان الرمادى اللون. وترتفع منتجات العصر الإيلخانى من الخزف إلى مستوى أروع ما أنتجته إيران من الخزف خلال تاريخها الطويل (لوحة ١٣٧). واستمرت هذه الأوانى تصنع، ولكن بحالة غير جيدة، خلال النصف الثانى من القرن الرابع عشر.

من الصعب تتبع مراحل التطور التي مرت بها التحف المعدنية عقب الغزو المغولى في القرن الثالث عشر. على أنه يبدو أن السيادة كانت للمدرسة التي نشأت بشرق إيران، وهى المدرسة التي بلغت أعظم مراحل الازدهار في العصر السلجوقى. وقد حمل الفنانون، الهاربون أمام الغزو المغولى، بعضاً من أساليب الشرق إلى الغرب. أما المدرسة الثانية الكبرى من مدارس الصناعات المعدنية الإسلامية فهى مدرسة الموصل بشمال العراق، وهذه أفلتت من هجمات الغزو المغولى فلم يصبها أى شر، ولاشك أنهم أولوها رعايتهم ومع أنه وصلت إلينا بعض القطع التي يتجلى فيها الجمع بين عناصر أسلوب المدرستين، إلا أن أسلوب مدرسة الموصل كانت له السيادة في غرب إيران خلال النصف الأخير من ذلك القرن. فهناك مثلا، ثلاث كرات من البرونز مكفتة بالفضة والذهب ـ الذى حل محل النحاس الأحمر في التكفيت ـ وعليها اسم السلطان أولجايتو (١٣٠٤ ـ ١٣١٦م)، وهذه الكرات لا يمكن تمييزها عن القطع الأخرى المهورة والمصنوعة بالموصل في نفس الوقت. ويعاصر هذه الكرات الثلاث، شمعدان بمجموعة شتورا (Stora)، تاريخه ١٣٠٨ م [لوحة ١٤٠]، والشمعدان من النحاس الأصفر ومكفت بالفضة تكفيتاً رائعاً. ونشاهد في هذا الشمعدان وضوح الأسلوب الجديد الذى يتصف بجامات اللوتس وبالحافات ذات الأزهار الزاحفة

المتمانقة . وكانت شيراز أهم مراكز صناعة التحف المعدنية بل أهم المراكز الفنية إطلاقاً فى النصف الأخير من القرن الرابع عشر . وكانت شيراز حينذاك عاصمة للأسرة المظفرية ، وهى أسرة وطنية (١٣٥٣ ـ ١٣٩٣ م) ، حكمت بعد انحلال أسرة الإيلخانات . وفى عام ١٣٦٠ م صنع أحد فنانى شيراز شمعدانا مشهورا مكفتا بالذهب والفضة ؛ ويوجد هذا الشمعدان ضمن مجموعة هرارى ؛ ويتضح منه امتداد الأساليب الفنية التى شاهدناها فى شمعدان شتورا ، وهو فى الوقت ذاته شبيه بمجموعة أخرى مكفتة من السلطانيات [لوحة ٤٠ ب] التى تبلغ فى روعتها خير ما أنتجه العصر السلجوقى . وقد قهرت عظمة الفنان صلابة المادة التى بين يديه واستطاع أن يصور بالتكفيت : الحدائق ومناظر الصيد والبلاط ومباريات الكرة والصولجان وقصص الشاهنامه ، كل ذلك فى إتقان وتفصيل يستوى والصور التى بالمخطوطات . والواقع أننا لا نجد قريبا ولا معادلا لصور هذه المخطوطات غير الصور التى نشاهدها على السلطانيات النفيسة المعاصرة.

وعلى قدر ما كان تأثير المغول غالباً على الخزف والمعادن ، على قدر ما كان ذلك التأثير شاملًا كاملًا على النسيج ؛ إذ غيّر خصائصه كلية سواء من ناحية الصنعة أو من ناحية الأسلوب الزخرفى . واختفى تماماً ما كان يفضله السلاجقة من أقمشة ذات رسوم بسيطة رقيقة وأطياف قليلة محدودة . وتطلب الذوق المغولى ـ ومصدره ولاشك الأقمشة الصينية ـ وجود خيوط براقة من معادن صلبة يطرز بها قماش الساتان الفاخر (وكانت هذه الخيوط إما أشرطة رقيقة من الجلد المذهب وإما أليافاً مفضضة أومذهبة، مجدولة حول بعض المواد) . واشتملت الزخارف المطرّزة على مراوح تخيلية من أزهار اللوتس وصور حيوانات وطيور صينية منسقة داخل أشرطة أو مكررة فى بساطة تامة . وعادة ما كوّنت الكتابة العربية جانباً من الزخرفة . ولكن ما أسرع ما اقتفى النساجون المسلمون أثر سادتهم من أهل الصين ؛ حتى ليمكن القول

بنسبة الكثير من منسوجات هذا العصر الحريرية إلى مصانع إيران أو مصر أو الصين .

يتضح لنا المستوى الذى بلغه فن الكتابة والتذهيب من نُسخ القرآن الرائعة التى طلبها السلطان أولجايتو من فنانى همدان وقاشان وبغداد والموصل . واستمر خط النسخ يكتب برصانة وجمال ؛ أما الخط الكوفى فقد استبدل الأسلوب الضخم الخشن المستخدم أيام السلاجقة بأسلوب حسن أنيق . وكانت الزخارف المجردة فى الصفحات الخالصة التذهيب التى ترجع إلى عبقرية مدرسة ما بين النهرين ، أكثر مما ترجع إلى المدرسة الإيرانية ، كانت تنبع ابتكاراتها من معين لا ينضب . وكانت الفروع النباتية وأشكال التوريق متقنة كثيرة التشابك واضحة التباين على الأرضيات الخضراء والذهبية مع لمسات هنا وهناك من اللون الأخضر الباهت [لوحة ٤١ ب] . وأحياناً ما استخدم الفنان ــ متقدما فى ذلك بقرن عن عصره ــ مجموعة أغنى من الألوان ، إذ كان يكتب ويذهّب فوق أرضية حمراء وبيضاء وخضراء وزرقاء على أرضية مموهة بالذهب .

ومع أن كراهية الإسلام لصور الكائنات الحية لم تكن مطلقة حتى فى الأقطار السّامية ، فإنها كانت أميل إلى التقليل من قيمة المصور إذا ما قورن بزملائه الفنانين الآخرين، كما حالت دون خلق تقاليد حية متطورة. ومسألة رسوخ قدم الفن فى إيران خلال حكم العباسيين والسلاجقة واضحة من المراجع الأدبية والتاريخية العديدة ، ومن الزخارف التى نراها على الخزف ذى البريق المعدنى والخزف الميناَئى ، ومن بعض مخلفات الرسوم الحائطية والتصوير العباسى ، كما يبدو مما وصلنا من سامرا ونيسابور فى القرن التاسع ، خليط من عدة عناصر تبرز السيادة من بينها لعنصرين هما الفن الهلّينستى الذى آثر الشرقيون أن يحيلوه إلى مجرد زخارف ورسوم شكلية تقريبا ؛ ثم الفن الساسانى . ونحن وإن وصلتنا أمثلة من التصوير الساسانى ، إلا أننا نستدل على

أسلوبه وصفاته من تأثيره على وسط آسيا وعلى العالم الإسلامى فى العصر العباسى . يحترم الإيرانيون مانى (٢١٦ / ١٧ ـ ٢٧٦ ق . م) على أنه دائما أول وأعظم مصوريهم . والواقع أن أدق الكتب تزويقا وأحسنها تذهيبا هى الكتب التى كانت تستخدم فى طقوس عقيدته . على أن المانوية التى اضطهدت فى إيران زمن الساسانيين ، غدت الدين الرسمى لقبائل الأويغور بوسط آسيا . ومن العجيب حقيقة أن تكتشف فى عاصمتهم خوچو صفحات مصورة من كتاب يرجع إلى القرن الثامن أو التاسع . ويبدو من صور الأشخاص الأنيقة الدقيقة الجالسة القرفصاء والمصغية إلى الموسيقى ، التشابه القوى بين صور وأسلوب المدرسة الإيرانية على الخزف فى القرن الثالث عشر . ومع هذا فلم يظهر أسلوب التصوير المانوى فى سامرا أو نيسابور حيث رسمت الموضوعات الآدمية ـ الراقصون والموسيقيون وأمثالهم ـ وفق التقاليد الهلّينستية كما تطورت فى سورية على يد الأمويين وكما مارسها العباسيون من بعدهم .

ويعتبر الفاطميون (٩٦٩ ـ ١١٧١م) الورثة الحقيقيون لأساليب العباسيين فى التصوير ، كما كانوا ورثتهم فى سائر الفنون الأخرى . وقد خلّق الفاطميون أسلوبا جديدا متكاملا نشاهده فى صور الخزف ذى البريق المعدنى وفى الملامح البارزة لبطانة سقف الكابلا پلاتينا بمدينة پلرم . وهذه التقاليد التى قضى عليها الأيوبيون فى مصر قضاء مبرما عام ١١٧١ ، ظلّت عنصرا له أهمية فى تصوير كتب الأدب والطب والصناعات التى صورت فى النصف الأول من القرن الثالث عشر بمدرسة بغداد أو مدرسة ما بين النهرين كما يسمونها ، وهى المدرسة التى تكوّن أقدم حلقة فى سلسلة تصوير الكتب الإسلامية التى وصلتنا . وليست لهذه التزاويق أهمية كبرى إذا نظرنا إليها من ناحية الشكل كتصاوير ، فالأشخاص ومناظر الأرضية مرسومة بطريقة توضيحية صرفة ، وموزعة بين أجزاء النص من باب تكملة الحوار . وموضوعات الصور اختيارية محضة وتبدو فيها لمسات جيرانهم من البيزنطيين والسوريين والأرمن الذين

كانوا يفوقون المسلمين خبرة فى هذا الميدان . غير أن الملاحظة القوية الثاقبة تنتج ولا شك عملا جديرا بالتقدير ؛ فالواسطى ، الذى خط وصور نسخة مقامات الحريرى المحفوظة بالمكتبة الأهلية بباريس ، يعتبر مزوقا ذا عبقرية ممتازة .

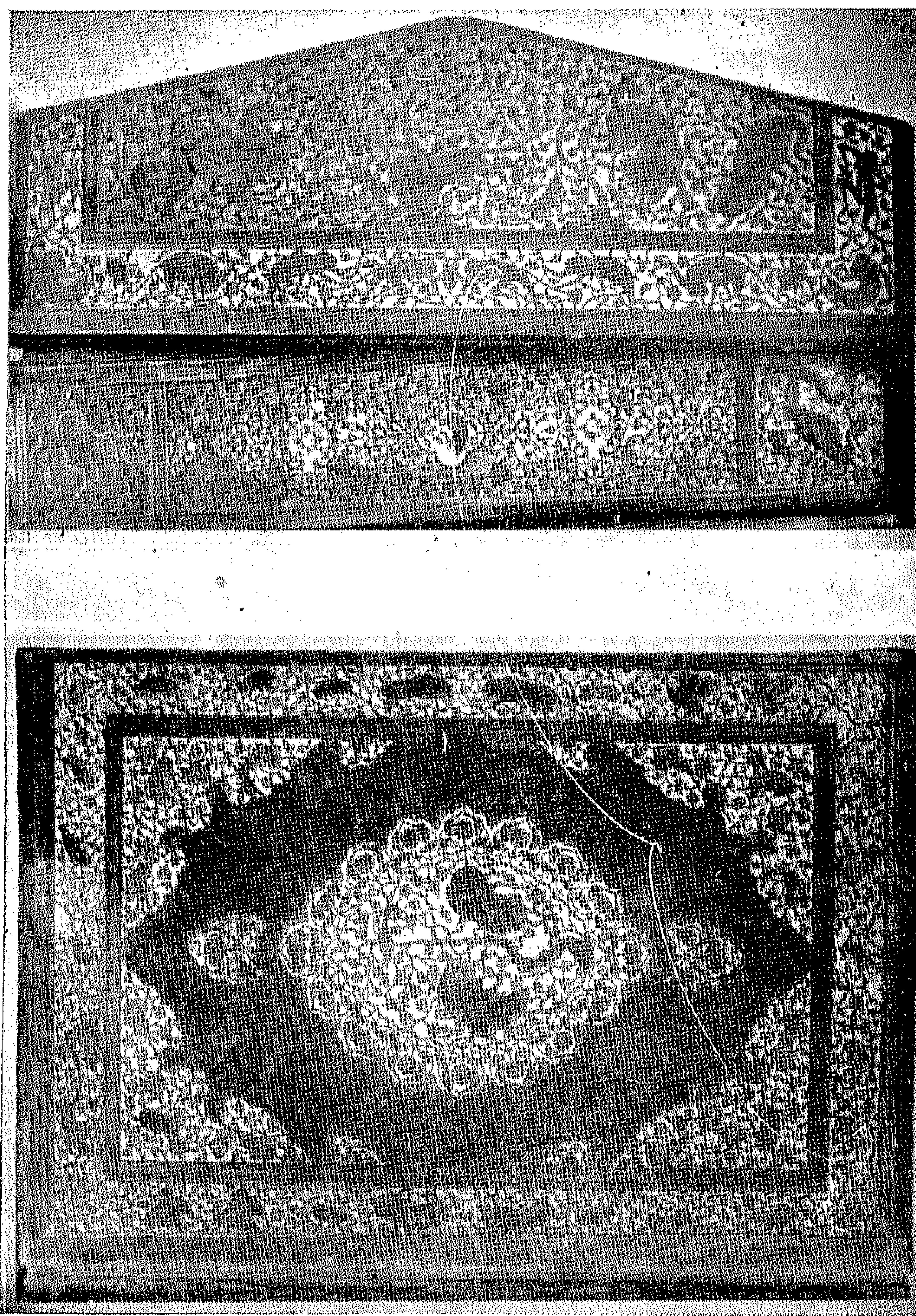
والتصوير الإيرانى المعاصر — كما يستدل على ذلك من الخزف ذى البريق المعدنى والخزف الميناثى المصنوع فى الرّى وقاشان ، وكما يستدل عليه بصفة خاصة من مناظر القتال التى تزين نسخة الشاهنامة المتقنة — هو أكثر تقاربا فى الشبه وأميل إلى الناحية الزخرفية وإن كان فى الوقت ذاته أقرب فى طبيعته من التصوير الصحيح. ويمكن القول — فى شىء من الاطمئنان — أنه فى العصر المغولى فقط ، بدأنا نجد فنا فارسيا لتصوير الكتاب وتزويقه . والموضوع ولاشك من الضخامة بحيث لا يعالج على هذا النحو من اليسر وإن كنا نرى اعتبار التصوير الإيرانى فى القرن الرابع عشر طليعة لذلك الفن فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر . ويعتبر التصوير فى هذا القرن الأخير عنصرا هاما من عناصر فن الكتاب ، ذلك الفن الذى بلغ أرق تعبيراته زمن التيموريين وأوائل عهد الصفويين . وليس هذا الحكم بناقض للقيم الجمالية للتصوير السابق على هذه المرحلة ، وليس بناقض كذلك لقيمته التاريخية فى الكشف عن العصر الزاهر الذى تلاه . وتصوير القرن الرابع عشر على جانب من التألق والابتكار والشخصية والتعدد فى الأساليب التى يصعب إرجاعها إلى أصولها بسبب عدم توفر الوقت الكافى لامتزاجها امتزاجاً كاملًا ضمن مدرسة قومية واحدة قبل أن ينجلى أسلوب المدرسة التيموية فى السنوات الأخيرة من القرن الرابع عشر . ويبدو — من معارفنا الحديثة — أن أسلوب المدرسة التيمورية تكوّن واستكمل خصائصه ، إلا القليل ، بفضل ما تم من جهود على يد المدرسة السابقة عليها .

ضم بلاط إيلخانات ، أوائل القرن الرابع عشر ، كتباً مزوقة يتجلى فيها المزج بين العناصر الإيرانية والعراقية ؛ الأمر الذى ساد سائر الفنون الأخرى ؛ هذا إلى جانب

وجود تأثيرات صينية قوية تتمثل في رسوم بالحبر تحكي أساليب عصر أسرتي سونج ويوان. ومن الأمور الشائعة تعدد أكثر من أسلوب فني واحد في كتاب واحد ، بل وفي صحيفة واحدة أيضاً . وندرك هذا بوضوح في نسخة من كتاب «منافع الحيوان»(١) ضمن مكتبة مورجان بنيويورك ، وكانت قد نسخت في مراغة للسلطان غازان خان (١٢٩٥ ـ ١٣٠٤) . وبعض تصاوير هذه النسخة ـ التسعة والأربعون ـ من أسلوب مدرسة العراق ، الذي يبدو أنه لم يفقد قوته بعد . أما بقية التصاوير فيظهر فيها التأثر الواضح بالأساليب الصينية حتى إننا نجد في أكثر الأحيان اقتباسات صريحة مباشرة من تلك المدرسة ، التي تظهر أساليبها أكثر ما تظهر في نسخة من «جامع التواريخ» موزعة بين مكتبة جامعة أدنبره وبين مكتبة الجمعية الأسيوية الملكية . ويرجع تاريخ هذه النسخة إلى عام ١٣١٤م. ورشيد الدين ـ مؤلف هذا الكتاب ـ وزير إيلخانات فارس

ومن أوائل رعاة الفنون في القرنين الخامس عشر والسادس عشر . شيد رشيد الدين ضاحية قرب تبريز سرعان ما تحولت إلى جامعة والحق بها مكتبة ومعهدا لنسخ المخطوطات . وأقام بهذه الضاحية طلاب العلم وأهل الفن القادمون من جهات مغولية صرفة . وكتاب « جامع التواريخ » الذي نتكلم عنه ، أول المخطوطات الفارسية الضخمة التي زينت بالصور . وليست صوره مجرد تصاوير ملونة إذ أنها أحيك توزيعاً داخل إطاراتها المستطيلة الضيقة ، كما أنها أقوى تعبيرا في خطوطها . وأنتج فنانو إيران، الذين أخذوا معارفهم داخل هذا التنظيم الذي أحدثه رشيد الدين في تبريز بين عامي ١٣٣٠ ـ ١٣٤٠ ، أعظم كتاب فارسي يضم مجموعة من التصاوير التي تحكي الملاحم الفارسية . وهذا الكتاب هو نسخة من الشاهنامة تعرف باسم « شاهنامة ديموت » . ولا مجال هنا لمناقشة تصاوير تلك النسخة الرائعة ، التي تضم صفحات أكثر هدوءا وأميل إلى الحلي ، ولها من غنى الألوان وفخامتها ما لتصاوير القرن التالي ؛ هذا إلى جانب اشتمالها على صور قوية التأثير مرسومة بلون واحد مثل

(١) لابن بختيشوع .



جلدة كتاب ولسان ذات زخارف مفرغة وزخارف مضغوطة ؛ ١٤٣٨ م ،
متحف طوبقا بوسراى بإستانبول .



صحيفة مصورة من الشاهنامة ؛ أواخر القرن الخامس عشر .
بالمتحف البريطانى .

« جنازة اسفنديار » المحفوظة بمتحف المتروپوليتان بنيويورك . ويقف هـذا العمل الفني العظيم وحده جانبا في محيط الفن الفارسي ، ذلك أن إيران لم تخرج أثراً آخر بمثل هذا الحسن ، ولم يحدث أن استهوى فنانيها كثيراً عمل صور، لها من التأثير العاطفي القوي، ما لصور هذه النسخة من الشاهنامة .

وهناك مدرستان أخريان ، في النصف الأول من القرن الرابع عشر ، تحتاجان إلى كلمة ولو عابرة . إننا نعرف الكثير من نسخ الشاهنامة التي تخالف في أساليبها أسلوب نسخة تبريز ولا تبلغ ضخامتها . وهـذه النسخ مرسومة برقة واضحة وغني في الألوان ولها الأسلوب الصحيح الذي لأسلوب الخزف السلجوقي . ووصلتنا من المراكز الفنية القديمة مثل شيراز ، مجموعة من نسخ الشاهنامة ترجع إلى المدة بين ١٣٣٠ ـ ١٣٥٣ م، ورسوم هذه المجموعة جافة ومصورة فوق أرضيات باللون الأحمر أو الأزرق أو الأصفر ، ويرجح أن تكون بعثا لبعض الأساليب السابقة ، ومع ذلك فقد شاعت فيها السحن والمناظر المغولية . ويمكن القول أن صور هـذه المجموعة تمثل بعض المدارس الإقليمية. وعلى أية حال فإن أهميتها وقيمتها من الناحية الجمالية، تأتي دون إنتاج القرن الذي تلاها .

وفي ختام القرن الخامس عشر سقط عدد من الأسرات الحاكمة التي أعقبت الإيلخانات ، أمام فاتح مغولي آخر هو تيمور (١٣٣٥ ـ ١٤٠٥م) الذي حكم من عاصمته سمرقند ، إمبراطورية ضمت بلاد ماوراء النهر وإيران ومابين النهرين وسورية وآسيا الصغرى . على أن فتوحات تيمور كانت أقل بقاء وأقصر عمرا من فتوحات الإيلخانات ، فقد عادت سورية وآسيا الصغرى إلى سادتهما القدامى بعد وفاة تيمور مباشرة . ثم جاء بعد تيمور ابنه ووريثه شاه رخ (١٤٠٧ ـ ١٤٤٧م) ، فحكم إيران كلها بصفة عملية من عاصمته هراة . إلا أنه حدث أثناء النزاع ، الذي قام بين أفراد البيت التيموري ، عقب وفاته ، ما أدى إلى وقوع الغرب في قبضة أسرتين

تركمانيتين تعرفان باسم : أسرة الشاة السوداء وأسرة الشاة البيضاء . وحكمت الأسرة الأخيرة من عاصمتها تبريز واستعادت كل إيران تقريباً ماعدا خراسان . وظلت مدينة هراة فى يد التيموريين ؛ وتولى حكمها ملكان مستنيران هما أبو سعيد (١٤٥٧ — ١٤٦٩م) ، وحسين بيقرا (١٤٦٩ — ١٥٠٦م) . وأخيراً ، وفى أواخر القرن السادس عشر ، استولت أسرة أزبك الشيبانية على بلاد ماوراء النهر وهراة وزحزحوا عنها آخر حكام الأسرة التيمورية ، وهو بابر ، الذى راح يبحث عن مستقبل له فى الهند فنجح فى تأسيس سلسلة طويلة من السلاطين المغول هناك .

ومع أنه يرجع إلى شرقى إيران — خراسان وما وراء النهر بالذات — كل ما كان هناك من نشاط وأهمية ، قد زالتا عنه الآن ، إلا أن أسلوب المدرسة التيمورية استق خصائصه الأولى من غرب إيران والعراق وعلى الأخص من شيراز وبغداد ؛ فمن هذه المراكز استقدم تيمور الفنانين الذين عمّر بهم بلاطه فى سمرقند . على أن التحوّل من أساليب النصف الأول للقرن الرابع عشر إلى أساليب السنوات الأخيرة لهذا القرن كان ضعيفاً جدًّا ، كما يبدو من تزاويق نسختين من الشاهنامة من صناعة شيراز ، تاريخهما ١٣٧٠م — ٧١ ، ١٣٩٣م — ٩٤ . وكلاهما فى مستوى فنى عادى ، ولا تدلان كثيراً على ماسوف يعقبهما من أساليب . ومع هذا فقد وضح الأسلوب الجديد نهائيًّا فى مخطوطة رائعة من إنتاج مدرسة بغداد ، وهى عبارة عن مجموعة أشعار يرجع تاريخها إلى ١٣٩٧ — ١٣٩٨م . ويحتفظ المتحف البريطانى بجانب منهـا ، والجانب الآخر بمجموعة تشستربيتى . ثم يتجلى ذلك الأسلوب أيضاً فى مخطوطة أخرى بالمتحف البريطانى وهى منظومات خواجه كرمانى التى نسخت فى بغداد زمن الأسرة الجلايرية سنة ١٣٩٦م . ففى هاتين المخطوطتين — وفى الثانية منهما بوجه خاص — نجد أن التصوير الفارسى قد تفتح فجأة واكتمل ازدهاره ، بعد أن كانت تسيّره حيناً وتغمضه حيناً آخر تأثيرات مدرستى الصين وما بين النهرين . ولما كانت معلوماتنا قليلة جدًّا عن

التاريخ الاجتماعى لتلك الحقبة ، فإنه يصعب علينا تفسير ذلك الظهور المفاجئ العجيب لأسلوب فنى كامل ، ظلت صفاته الخاصة موضع الاقتباس والذيوع مدة قرن بعد ظهوره . ومع أن الصلات بالصين لم تنقطع فإن التأثر بأساليب التصوير الصينى لم يعد قويًّا كما كان ؛ واقتصر الأمر على اقتباس الفنانين لبعض التعبيرات التقليدية ، ولاسيما فى الزخرفة ، التى مارسها الفنان الفارسى فى أسلوبه الثابت المستقر .

ولكن! ما هى طبيعة التصوير التيمورى ومراميه ، كما يظهر لنا ذلك من نضارته فى مخطوطة خواجه كرمانى ؟.. إنهـا قبل كل شىء زخرفية خالصة . والحقيقة أن الإحساس الذى لا يخطئ بالألوان، والقدرة الفائقة فى عمل الرسوم المعقدة ، جعلتا من الفنان الفارسى مزخرفاً لا يجارى . ولكى يكتمل سرورنا من الصور الفارسية ، علينا أن نشاهدها فى مصادرها الأصلية ، حيث نرى على الورق الصقيل موضوعاً بارع التصوير ، جميل التذهيب ، حسن الخط . ونرى فى مخطوطة خواجه كرمانى التى سطرها مير على التبريزى أنه هو الذى ابتكر — فيما يقال — نوع الخط الرقيق المتراقص المعروف باسم «نستعليق» ومعارف المصور الفنية محدودة وبسيطة ، فلم يُفتن بما فتن به الفنان الأوربى من استخدام للمنظور ليجعل لصوره تأثيراً أعمق ، ولم يلذ له كذلك استخدام الألوان المتضاربة كوسيلة للتأثير السيكولوجى . ورسومه الآدمية أشبه بالعرائس، وألوانها صافية . أما الوضع العام من حولها فيشتمل على أشكال صغيرة دائمة التكرار تدل على السماء ، وخط يمثل الأفق البعيد وأزهار مدروسة بعناية وصخور وأشجار مرسومة بطريقة تقليدية بعيدة عن الطبيعة . ومع ذلك فلم تكن النتيجة مجرد أشكال دقيقة ذات بعدين وكفى أو مجرد تعبيرات أدبية صرفة ؛ بل زَينت هذه التصاوير المتشابهة — بنجاح كبير — دواوين شعراء الفرس . والحقيقة أن مواهب الفنان الفارسى كانت صالحة لا للتعبير الدقيق عن أبهة فن البلاط وعظمته فحسب ، بل صلحت كذلك للتعبير عن أحاسيس أكثر رقة وأوفر بهجة كتلك التى نجدها

فى شعر نظامى وسعدى . ويمكن أن نقول إنه فن نقى للغاية وإن سحره يكمن فى ذاته دون حاجة تذكر إلى أفكار أو انفعالات تكمل تعبيراته .

كان الحكام التيموريون جميعاً من هواة فنون الكتاب ورعاتها ، وكان شاهرخ ابن السلطان بايسنقر ميرزا أعظمهم فى هذا الشأن . وزر شاهرخ لوالده (الذى مات عام ١٤٤٣م) فى بلاط هراة ؛ ويمكن مقارنته بربنيه صاحب آنجو . إذ جمع شاهرخ الفنانين من كافة أنحاء دولته وأقام لهم مجمعاً علميًّا ومكتبة فى هراة ، حيث تعاون الوراق والنساخ والمذهّب وقصاص الورق وصانع الأصباغ والمصور والمجلد ، على إنتاج مجموعة من أروع الكتب التى ظهرت فى العالم . ونرى أسلوب أكاديمية هراة على حقيقته فى نسخة بديعة من الشاهنامة محفوظة بمتحف طهران ، وقد نسخت عام ١٤٢٩ — ٣٠م ، لمكتبة بايسنقر على يد واحد من أعظم خطاطى ذلك العصر هو جعفر البيسنقرى . وتدل هذه المخطوطة على أسمى ما وصل إليه فن صناعة الكتاب . فالنص المكتوب بخط حسن جميل ، مزين برسوم داخل خطوط من ماء الذهب ، وفى أول الكتاب صفحات ثلاث كلها زخرفة خالصة ، وآخره خاتمة مرسومة ببراعة تحف جانبى الفص المثلث الشكل ، الذى يشبه أسنان المفتاح . والصور التى تزين صحيفتى العنوان وكذا الصور العشرون التى يضمها الكتاب تعد من أرق الصور التى زينت بها الأشعار . أما التذهيب ، والابتكارات العجيبة للتفريعات النباتية المزهرة ، وزخارف التوريق ، والتعبيرات الصينية ، فكل ذلك مرسوم بألوان غنية براقة ، تضم الأزرق والذهبى والأخضر والأحمر ، فى أحسن درجات نقاوتها .

ولم يكن الخط والتذهيب والتصوير سوى جزء من صناعة الكتاب ، غير أن المجلدين لم يتخلفوا عن إخوانهم من أصحاب تلك الحرف . وكانت جلود الكتب فى العصر التيمورى تتخذ من الورق المقوّى المغطى بالجلد ، كما كانت تزين واجهتى الغلاف ، واللسان الذى يقى حافة الكتاب العليا . أما مثل تلك الأغلفة من الباطن ، فإننا نرى مثلا



صحيفة مصورة من المنظومات الخمسة بإمضاء بهزاد
ومؤرخة ٨٩٨هـ — ١٤٩٣م؛ بالمتحف البريطانى .



غلاف كتاب مرسوم باللاكيه على الجلد حول عام ١٥٤٠ ؛
بالمتحف البريطاني .

لزخارفها فى اللوحة ٤٢ ؛ وهى عبارة عن غلاف لمخطوطة نسخت فى هراة عام١٤٣٨م باسم مكتبة شاهرخ . وتكون الكتابة المستخدمة عادة على ورق ثقيل ومتعددالألوان. ثم تصور المناظر الطبيعية وترقش بماء الذهب . وقد استخدمت الرسوم المفرغة فىالجلد على أرضية ذات لون أزرق . واشتملت تلك الرسوم على أشكال قردة وعنقاوات وأسود صينية الأسلوب وبعض الحيوانات الغريبة الأخرى؛ وصورت وهى تلعب وسط الزخارف النباتية المورقة . وعمد الفنان إلى استخدام أدق الأساليب الصناعية إتقاناً فى زخرفة تلك الأغلفة من الخارج ، فرأينا المناظر الطبيعية المركبة ، والرسوم الحيوانية العديدة، كل ذلك بطريق الضغط بالقوالب المعدنية . هذا فضلًا عن عديد من الزخارف المجردة المصنوعة بطريق الضغط أيضاً ولكن بالختم أو المنقاش. ومارس الفنان كذلك التذهيب والكبس بالذهب، كما مارس الزخارف البارزة أيضاً . وأثرت هذه الأساليب على الأوربيين ، إذ انتقلت إليهم عن طريق المجلّدين المسلمين الذين أقاموا فى البندقية.

من العسير أن نختار هنا صورة واحدة من بين صور الكتب العديدة الرائعة التى صنعت فى القرن الخامس عشر لمجرد أن نأخذ فكرة عن الجهود التى أضفاها التيموريون على الفن . غير أنه من الممكن أن نقنع بالصورة المنشورة على اللوحة ٤٣ ؛ فهى من صناعة هراة بين عامى ١٤٧٠ــ١٤٨٠ م ، وتوضح حادثا مشهورا من حوادث الشاهنامة، وهو : كيف استطاع حصان رستم واسمه « رخش» أن يقتل الأسد الذى أفزع سيده النائم. ويبدو من هذه الصورة ، المدى الذى بلغه الفنان فى التعبير الفنى داخل حدود التقاليد البسيطة الواضحة التى قيد الفنان نفسه بها فى العصر التيمورى . وتناول الفنان موضوعه بإخلاص : فتوافق الألوان ــ ولا سيما فى الأخضر والأرجوانى ــ جاء رقيقا للغاية ؛ هذا فضلا عما يحسه الإنسان من شعور عجيب أمام ذلك المنظر الساحر ، وهو شعور يملأ الإنسان إحساسا بوجوده أمام فنان له شخصيته الفريدة ، الأمر الذى لم يكن مألوفا فى التصوير الإيرانى .

غير أن الأسلوب التيمورى ، مع نضوجه وكماله ، بدا ملتزما لتكرار أقل حيوية وأقل ابتكارا ، على الرغم من تطوره ، مدة قرن من الزمان تقريبا . ومع هذا فهناك تصاوير رائعة أصيلة استمرت لعشرات السنين بعد لوحة «رستم» المشار إليها. ومردّ ذلك فى الغالب إلى الفنان بهزاد ، الذى أمد الفن فى العشرين سنة الباقية من القرن الخامس عشر بقوة جديدة من عنده وشغل مركزا فريدا فى تاريخ الفن الإيرانى . ومع أن الإيرانيين بجّلوه واعتبروه أعظم مصوريهم ، ورفعوه إلى المرتبة الأسطورية التى بلغها مانى ؛ إلا أنه لم يخلّف تراثا ضخما يسند تلك الشهرة . على أن الصور القليلة التى تنسب إليه ، توضح مدى الجهد الذى أضافه لفن التصوير الفارسى . وفى نسخة « البستان » المؤرخة ١٤٨٨ م ، والمحفوظة بدار الكتب المصرية بالقاهرة ؛ يبدو لنا بهزاد مصورا بارعا راسخ القدم، ولاعبا بالألوان فى غاية من الحذق والابتكار. هذا فضلا عن أن تصاويره تمتاز بتأثير نفسى مريح لم يعهد من قبل . أما مناظر الأشخاص ، وأوضاعها فمرسومة بدقة ، وكل منها مدروس على حدة ، إذ أعطى كل فرد الحال التى تناسبه من حركة خيالية أو وضع جذّاب . وقد يكون خير مثل لهذا الأسلوب الجديد : ثلاث صور يرجع تاريخها إلى عام ١٤٩٣ م ضمن نسخة من المنظومات الخمسة لنظامى، كتبت عام ١٤٤٢ م ومحفوظة بالمتحف البريطانى . ونخص من هذه الصور الثلاث: صورة مجنون ليلى وهو يرقب القبائل التى تتحارب من فوق ظهور الجمال (لوحة ٤٤) . وقد استمرت الأساليب القديمة معمولا بها لعدة سنين إلا أن أسلوب بهزاد وتلاميذه ، فهو الذى ساد مراسم (استديوهات) البلاط فى ختام ذلك القرن .

ويبدو أن صناعة الخزف والتحف المعدنية ضلّتا الطريق السوى زمن التيموريين؛ ويمكن أن نعتمد على هذا الحكم، من القليل النادر الذى وصلنا منهما . ويحتمل أن يكون سبب ذلك ما غمر به غرب إيران أواخر القرن الرابع عشر من خزف البورسلين

الأبيض والأزرق ممـا يرجع إلى أسرة منج ؛ وكان لغرب إيران تأثير تقليدى على صناعة الخزف فى كل من الشرق الأدنى وأوربا لعدة قرون. واستلفت خزف البورسلين أنظار الناس بجماله فضلا عن رخصة النسبى ، الأمر الذى أحلّه، على موائد الأغنياء، محل الأوانى الخزفية والمعدنيـة المصنوعة بإيران . وقلدت كل أقاليم الشرق الأدنى اشكال تلك الأوانى ، غير أن ما وصلنا من صناعة إيران قليل جدا . أما بقية الأوانى الخزفية الأخرى التى ترجع إلى القرن الخامس عشر فتشتمل على مجموعة من السلطانيات والأطباق ، جاءت من كوبجة وداغستان ، ويحتمل ـ فى الوقت ذاته ـ أن تـكون تلك الأوانى من صناعة شمال غرب إيران. وتوجد بعض أوان ضمن مجموعة كيليكيان بمتحف فـكتوريا والبرت مؤرخة من النصف الثانى للقرن الخامس عشر، وزخارفها سوداء تحت طلاء فيروزى أو أخضر ؛ أما أشكال النبات والتوريق فقد رسمت بعناية وبأسلوب وذوق إيرانيين .

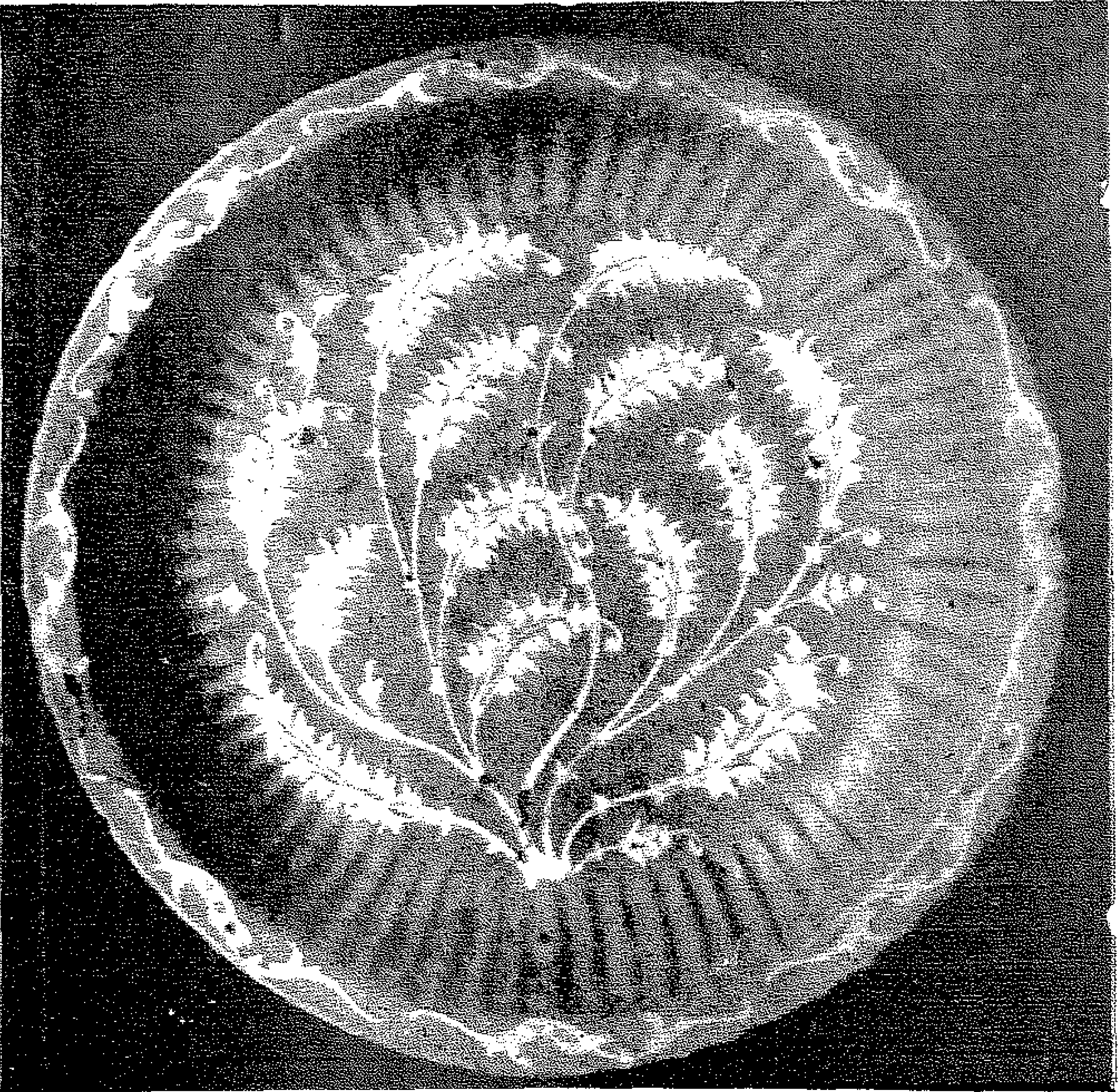
وأعجب التيموريون كذلك بالأوانى المعدنيـة المطلية بالفضة والمنزّلة برقائق الذهب والمرصعة بالأحجار الـكريمة والمموهة بالمينا . ونجى من الصهر، القليل من تلك الأوانى التى غالباً ما ظهرت فى التصاوير ، إلى جانب الأوانى الصينية أو الفارسية البيضاء والزرقاء . ثم استمر إنتاج الأوانى النحاسية المحفورة والمـكفتة على مسافات متباعدة ، ولـكنها فقدت ما كانت تمتاز به من جمال الرسم والشـكل .

ولا نعلم غير القليـــل عن فنون النسيج زمن التيموريين ، لانعدام ما وصلنا من المنسوجات الحريرية على أيامهم . وعلى قدر ما يستطيع أن يستنتج الإنسان من صور ذلك العصر ، فإنه يبـدو أنهم تركوا استخدام الرسوم المزدحمة ذات التأثيرات البراقة التى امتاز بها العصر المغولى ، إلى الرسوم الانسيابية الخطوط القليلة الازدحام. ويستدل من مخلفات العصر الصفوى على أن مهارة النساجين والصباغين الصناعية ظلت فى تحسن مستمر .

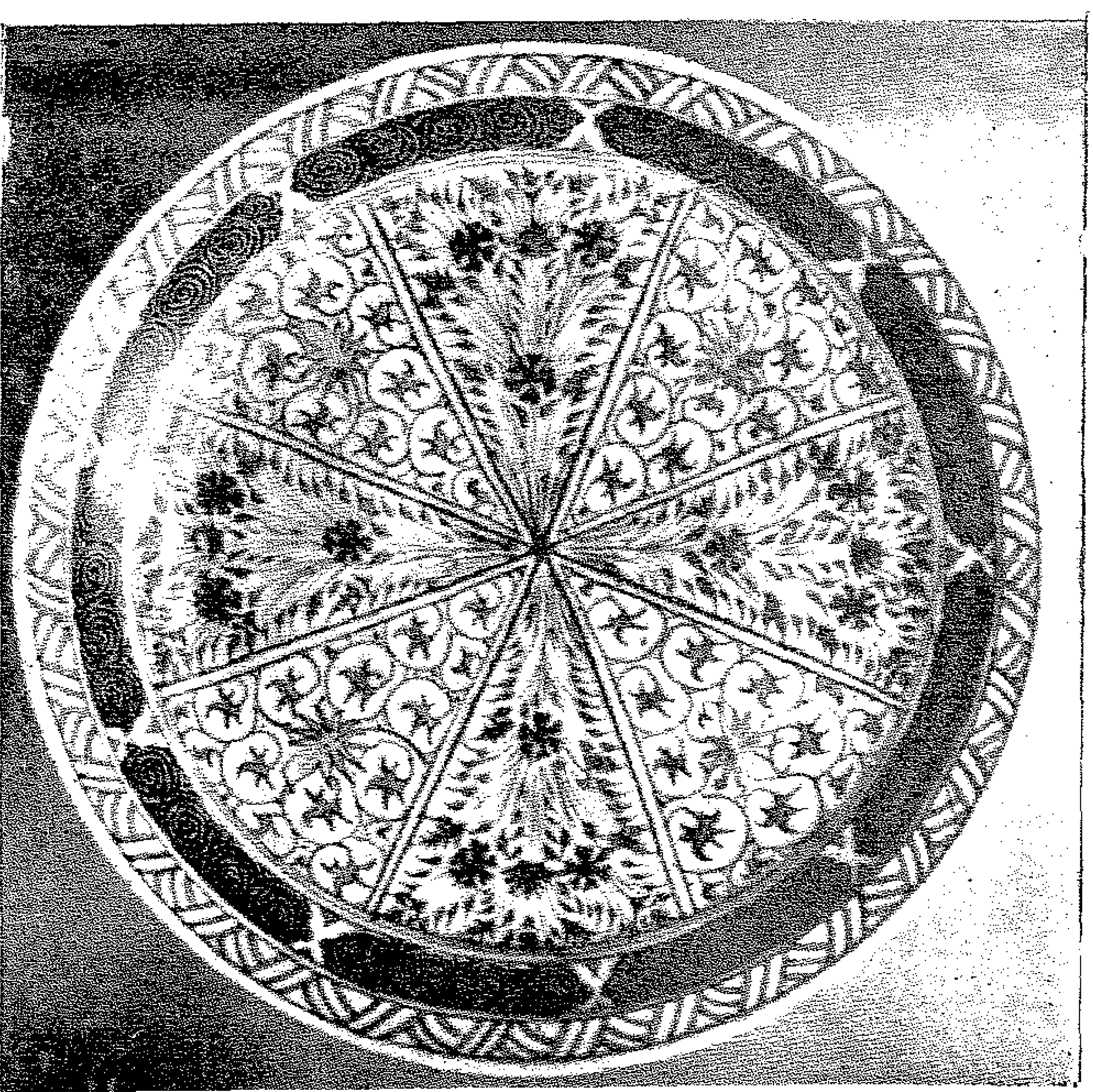
وفى عام ١٥٠٢ م نجح الشاه إسماعيل الصفوى فى القضاء على قبائل الشاة البيضاء التركمانية ، فأصبحت إيران ـ لأول مرة وبعد عدة قرون ـ محكومة بأسرة من أهلها . وكان عصر الصفويين ، حتى عام ١٧٢٢ م، من عصور الرخاء ، على الرغم من اتساع نشاطهم فى حماية حدودهم الشرقية والغربية من هجمات الترك . واتخذ الصفويون عواصمهم الأولى بشمال غرب إيران فى تبريز وقزوين، إلا أن الضغط المتزايد من جانب الأتراك العثمانيين دفع الشاه عباس (١٥٨٧ ـ ١٦٢٨ م) لاتخاذ أصفهان عاصمة له لأنها كانت فى موقع متوسط من الدولة .

استمر أسلوب مدرسة بهزاد وتلاميذه سائداً ومنتظماً خلال القرن السادس عشر . ثم انتقل بهزاد نفسه إلى تبريز عقب استيلاء الشاه إسماعيل على مدينة هراة من قبائل الأزبك عام ١٥١٠ م . وفى عام ١٥٢٢ ، عيِّن هذا الفنان مديراً للمكتبة الملكية التى ألحق بها مرسم ومعهد لفنون الكتاب . وبهذا تحول الاهتمام ثانية إلى غرب إيران على الرغم من بقاء هراة مركزاً فنيًّا إقليميًّا ذا أهمية كبيرة . وكانت لأساليب بهزاد السيادة فى كل من هراة وتبريز العاصمة ، هذا مع وجود مدرسة أخرى كانت فى رعاية التركمان بتبريز .

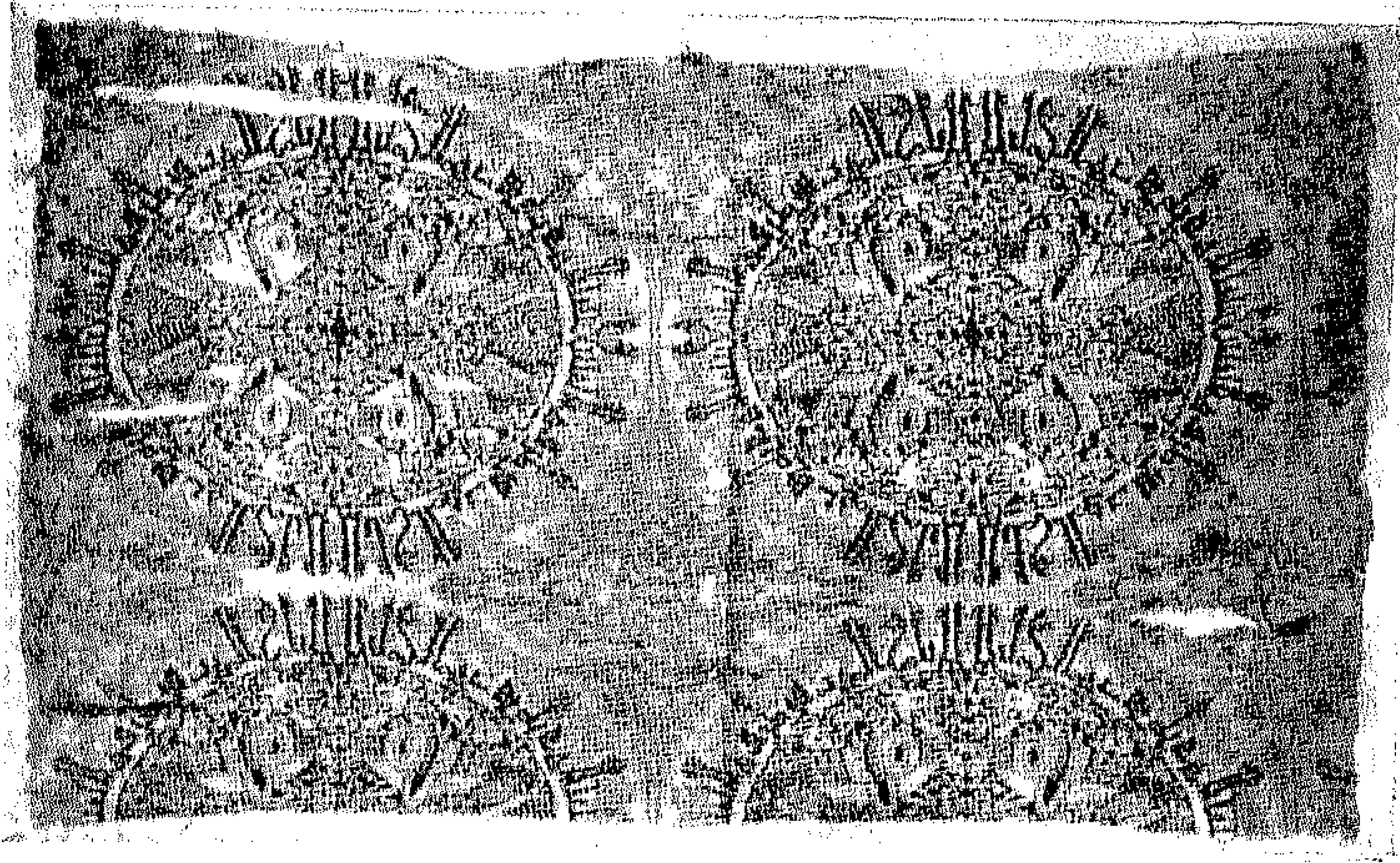
بلغ فن التصوير غاية رونقه زمن الشاه طهماسب (١٥٢٤ ـ ١٥٧٦م) ، وهو ابن الشاه إسماعيل وخليفته . وقد عين طهماسب المصور سلطان محمد مديراً للمرسم الملكى، وهذا الفنان من تلاميذ ميرك الذى كان بدوره تلميذاً لبهزاد . وتعتبر الكتب التى صورت فى تبريز حينذاك من خير أنواع الكتب التى أنتجت على الإطلاق ، وترتفع فى مستواها الفنى إلى أحسن ما أنتجه العصر التيمورى . ومن أروع الأمثلة على ذلك ، نسخة مشهورة من المنظومات الخمسة لنظامى ، محفوظة بالمتحف البريطانى وهى بخط شاه محمود النيسابورى ، أحد الأعلام فى تلك الفترة. وقد عُملت تلك النسخة للشاه طهماسب بين عامى ١٥٣٩ ـ ١٥٤٣م ، واشترك فى تزويقها عدد من كبار



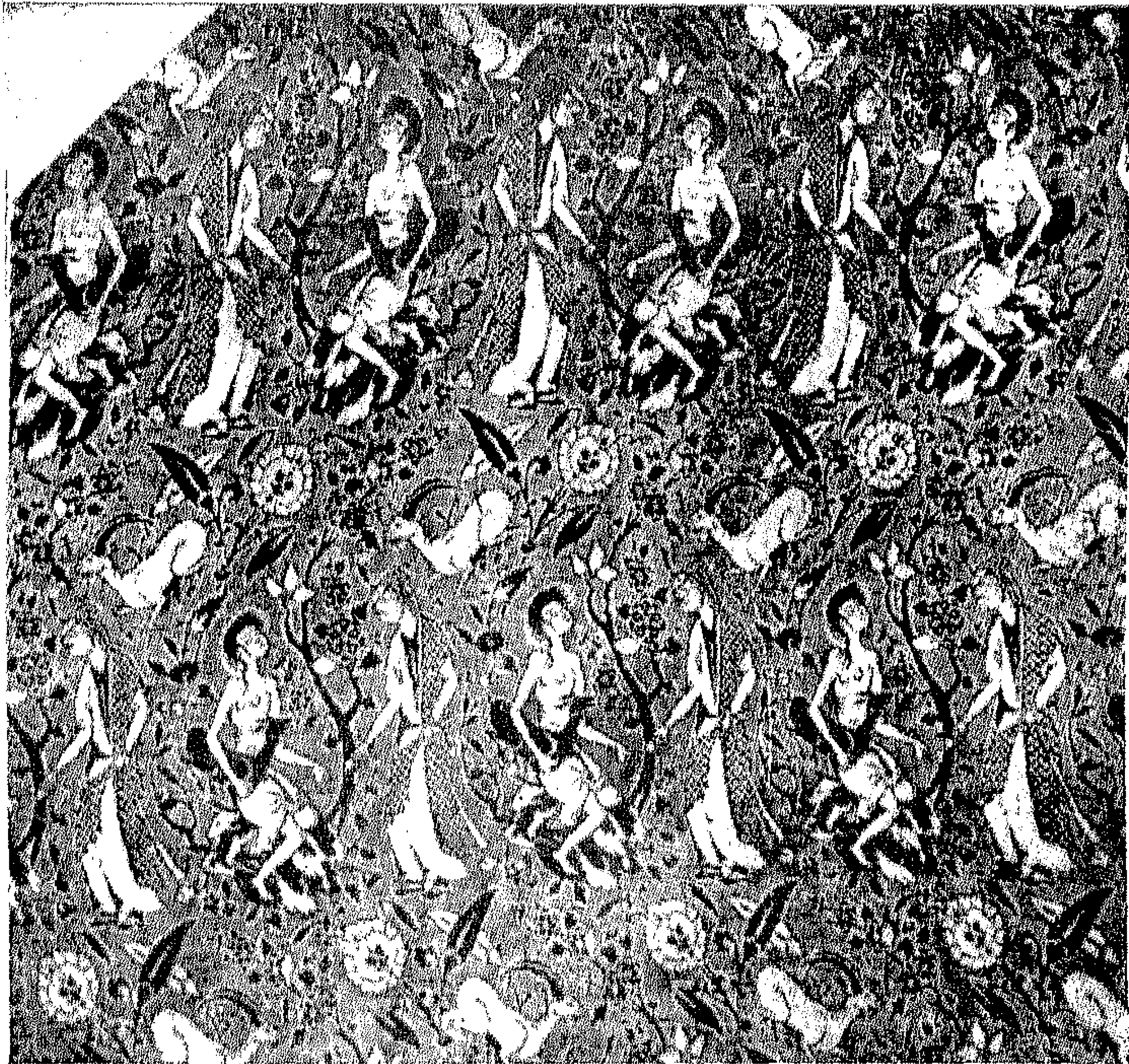
ا ــ طبق مرسوم فوق الدهان (بالأبيض على الأخضر)، حول القرن السابع عشر؛ محفوظ بمتحف الفنون والصناعات بهامبورج .



ب ــ طبق مرسوم تحت الطلاء الأزرق ، كرمان ؛ القرن السابع عشر ــ متحف فكتوريا والبرت بلندن .



ا ــ قطعة من نسيج الحرير عليها زخارف باللونين الأزرق الداكن والأصفر؛ القرن ١٣ ــ متحف المنسوجات فى كولومبيا



ب ــ قطعة من نسيج الحرير باللونين الأحمر والأبيض مع استخدام خيوط من الفضة؛ حول القرن ١٦ ــ متحف فكتوريا والبرت بلندن .

المصورين منهم ميرك وسلطان محمد . وحوت صور هذه المخطوطة كل مافى تلك الحقبة من صنعة بارعة عوضت الكثير مما فقدناه من رقة وشاعرية عند الرعيل الأول من المصورين . وبلغ التذهيب فى العصر الصفوى ما بلغه فى العصر السابق ، فضلًا عن أن هوامش المخطوطات غالباً مارسمت بالألوان الفضية والذهبية، ذات الأطياف الخضراء والصفراء . ومعظم هذه الرسوم من المناظر الطبيعية ومناظر الصيد إلى جانب الموضوعات الأخرى ، كل ذلك فى إسهاب وتفصيل لا يقل عن صور المتن ذاتها .

وجرى المجلدون على استخدام معظم الأساليب التى سار عليها زملاؤهم فى العصر التيمورى ، مع اتجاه إلى استبدال الجلد بالورق الملون فى عمل بواطن الأغلفة ذات الزخارف المفرغة . ومن الابتكارات الهامة، الجلود المرسومة والمدهونة باللاكيه؛ وقد شاع استخدام هذا الأسلوب زمن الشاه طهماسب ، إلا أن ظهوره يرجع إلى عام ١٤٨٣ م . وهذه الأغلفة مصنوعة من الجلد . وفى كثير من الأحيان صنعت من الورق المقوى ثم كسيت بطبقة رقيقة من الجص الذى يغطى بطبقة أخرى من اللاكيه . وميزة هذه الطريقة ، أنها تعطى سطحاً صالحاً لاستخدام رسوم بالألوان المائية ، تحتمى وراء طبقات من اللاكيه الشفاف . وصور معظم هذه الأغلفة من أسلوب صور المخطوطات ذاتها . ومما لاشك فيه أنها من تصميم مصورى المخطوطات أنفسهم. ومن أروع أمثلة هذه الأغلفة : غلافان بالمتحف البريطانى زينت ظواهرها بزخارف غنية من مناظر الحدائق على أرضية سوداء لامعة . أما بواطنها فزينت بمناظر صيد على أرضية ذهبية [لوحة ٤٥] . ويذكرنا أسلوب هذين الغلافين بأسلوب سلطان محمد وأتباعه ، فى اللحظة التى رسمت فيها نسخة المنظومات الخمسة المحفوظة بالمتحف البريطانى .

ثم يظهر التدهور الواضح فى فنون الكتاب فى النصف الأخير من القرن السادس عشر

عشر؛ فرأينا أن تلك الفنون غدت بحاجة إلى ما كان هناك من نشاط وتعاون بين المشتغلين بها زمن التيموريين وأوائل عهد الصفويين . وشاع وقتــذاك عمل التصاوير المفردة وجمعها فى ألبومات ، وانحصرت الموضوعات فى صور شخصية ضعيفة للحظايا ونساء البلاط ومشاهد الحياة اليومية والمناظر الغرامية . وقرب نهاية القرن السادس عشر ، فقد فن التصوير معظم ما كان له من حيوية . وكانت الدّفعة الوحيدة الأصيلة التى دُفعها ذلك الفن حينذاك على يد رضائى عباسى ، أبرز مصورى بلاط الشاه عباس فى أصفهان . وانتشر أسلوب رضائى عباسى ولا سيما فى طريقة ممارسته لخطوط رسمه . وغالبا ما كانت أعماله على جانب كبير من الرقة وقوة التعبير . ويمكن القول جمــلة إن التصوير فى القرن السابع عشر اتصف بالركود والتــكرار ثم فقـد جميع خصائصه بانتهاء القرن الثامن عشر .

أما الخزف الصفوى ، ولا سيما زمن الشاه عباس ، وما بعــده فى القرن السابع عشر ، فإنه يرتفع إلى مستوى خزف العصور السابقة فى تنوعه وجماله . وأحسن ما نراه منه، فى مجموعة متحف فــكتوريا والبرت الفنية . وقد استمر البورسلين الصينى مصدر الإلهــام والاقتباس لمعظم أوانى تلك الفترة . وحول نهــاية القرن السادس عشر ، ابتــكر الخزفيون الإيرانيون نوعا من الأوانى الجميلة الشفافة البيضاء التى تشبه عجينتها عجينة البورسلين الأوربى من حيث النعومة . أما رسومها فمأخوذة مباشرة من رسوم خزف أسرة منج فى أواخر عهدها ، ولــكنها نفّذت بالرقة وبالأسلوب العاطفى المعروفين عن الفرس؛ وهو أسلوب يختلف تماما عن الأسلوب الآلى الصعب المعروف عن الصينيين، كما أنه يفوق فى تحمسه وأسلوب معالجته الطريقة العلمية المعروفة عن فنانى البلاط . والواقع أننا نستطيع مشاهدة أحسن موضوعات القرن السابع عشر على الأوانى التى رسمت بطيفين من أطياف اللون الأزرق ، أو باللون الأزرق داخل تحديدات سوداء . وكانت مدينة يزد ، التى ينسب إليها الإبريق المؤرخ ١٦١٦م والمحفوظ بالمتحف البريطانى،

مركزا لصناعة تلك الأوانى . ثم قُلّد الخزف الصينى ذو اللون الواحد، كما قلد خزف السيلادون الأخضر، ذو الزخارف الحرة القائمة بذاتهـا وذلك على طبقة بيضاء تحت الطلاء [لوحة ٤٦ ا] .

غير أن التأثير الصينى على بقية أنواع الخزف الأخرى كان طفيفا جدا . واستمر استخدام البريق المعدنى فوق الطلاء الأبيض أو الأزرق أو الأصفر ، أو فى مناطق متبادلة من الأزرق والأبيض . واقتصرت الزخرفة فى الغالب على المنـاظر الخلوية الفارسية المزدحمة بالنباتات الطبيعية . وثمة نوع آخر من الخزف الرقيق المرسوم تحت الطلاء باللون الأزرق أو الأحمر أو الأخضر المصفر ، ويحتمل أن يكون هذا النوع من صناعة كرمان [لوحة ٤٦ ب] . وغالبا مازينت النرجيلات والزجاجات الأخرى ذات الرقبات الفارعة ، بالمناظر الشاعرية : كمنظر خسرو وهو يستقبل حبيبته شيرين . ولا يفوتنا أن نذكر كلمة عن نوع من الخزف يسمى خزف كوبچى — وقد سبق أن تـكلمنا عن مجموعة مبـكرة منه . ويمتاز ما يرجع إلى العصر الصفوى من هذا النوع بتعدد ألوان رسومه تحت الطلاء العاجى القاتم ، كما يمتاز بأزهاره وأشجاره البديعة الملتف بعضها حول بعض ، وبالصور النصفية الأنيقة للشباب من الرجال والنساء فى أزياء أوربيـة غالبا . وزخارف هـذه الأوانى على جانب كبير من الفتنة وإن أنبأت بتدهور مقبل . ويحتمل أن تـكون صنعت فيما حول تبريز .

أما التحف المعدنيـة الصفوية فـكانت هى الأخرى نادرة المثال ؛ إذ استمرت صناعة الأوانى من النحاس الأصفر أو الأحمر المطلى بالقصدير ليأخذ مظهر الأوانى الفضية. وغالبا ماجاءت أشـكالها جيدة، وزينت بزخارف متواضعة محزوزة ومكفتة. وأنتج صانعو الأسلحة والأدوات الأخرى، تحفا على جانب عظيم من الإتقان. واتخذوا من الحديد والصلب أشـكالا فاخرة من الأسلحة والدروع وزينوها بالزخارف المحفورة أو المهشرة (ذات الخدوش) أو بالفروع النباتية أو الـكتابات العربية المـكفتة بالذهب . وصنعوا

من الصلب صفائح استخدمت فى تغطية الصناديق والأبواب الخشبية وزينت هذه الصفائح بزخارف تشبه زخارف الدّانتلا . واستمرت تقاليد هـذه الصناعة المعدنية الدقيقة باقيـة طوال العصر الصفوى ، وقد يكون مرجع ذلك إلى الحاجة الملحة إلى الأسلحة والدروع بسبب ما ساد القرن الثامن عشر من أحوال مضطربة .

على أن التفوق الفني فى العصر الصفوى كان لصناعة النسيج . ذلك أن الأقمشة التى صنعت فى تلك الفترة ولاسيما زمن الشاه عباس ، تعتبر ممـا لا نظير له فى تاريخ الفن . ومن العسير أن نتتبع سبب وبداية هــذا الانطلاق العظيم ، لأننا نعرف أنه لم يبق لنا من الأقمشة الحريرية التيمورية سوى القليل . وظهرت لنا ـ لأول مرة ـ بعض القطع المؤرخة فى النصف الأخير من القرن السادس عشر ، وذلك بعد أن كانت الأذواق والأساليب الصناعية للعصر الصفوى قد استقرت بصفة نهائية . ويتضح من صور المخطوطات ومن كثرة عدد القطع التى تضمها المجموعات الأثرية الحديثة ، أن هذه المنسوجات الفاخرة صنعت للمناسبات العديدة ، التى استلزمتها حيـاة البلاط . وأكثر تلك الأقمشة دقة فى الصناعة وأغلاها ثمناً ، هى الأقمشة التى استخدمت فى الثياب والخيام والستائر والأغطية، وكلها مما كان يهدى للأشراف، والحـكام الأجانب، كما استخدم بعضها كحوافظ للرسائل الدبلوماسية .

وتعددت أنواع الزخارف إلى حد كبير، فاشتملت على أشكال حرة رقيقة من الزخارف النباتية المختلطة بالزهور والحيوانات وكلها مرسومة بعناية بالغة وملونة بأزهى الأصباغ. ويتجلى غرام الفرس بالحدائق فى أروع صوره فى أشكال أزهار الورد والزنبق والخشخاش وقرن الغزال المنسوجة المرسومة بدقة وبراعة على أقمشة ذلك العصر الرقيقة. كما زين الـكثير من تلك الأقمشة الرقيقة بمناظر الملاحم الفارسية المنقولة عن الشاهنامة أو عن الأشعار الغرامية الأخرى أو بمناظر الصيد وأشكال الحدائق . ولا شك أن نماذج تلك الرسوم من صناعة مصورى تبريز وأصفهان فى الغالب ؛ وقد امتاز من بينها أسلوب شاه محمد وخلفائه .

واستخدمت سائر الأساليب الصناعية التي يتصورها العقل لإنتاج كل هذه الرسوم. كما استمر صنع أنواع الأقمشة المعروفة في العصور السابقة ـ مثل الأقمشة العادية وذات النسيج الموروب والساتان ـ بعناية وإتقان يفوقان ما كان قبلا . ومن أحسن الأنواع ذات التأثير القوي، نوع زين بزخارف صغيرة مطرزة ومضافة إلى أرضية القماش العادي أو الموروب، ومصنوعة من خيوط متينة من الذهب أو الفضة ؛ وشاع استخدام هـذا النوع من النسيج في أزياء البلاط . وأحيانا ما أنتج نساجو العصر الصفوي أنواعا من الأقمشة المزدوجة أو ذات الثلاث طبقات جريا وراء إنتاج نماذج أكثر اتقانا . ويتكون نسيج هذه الأنواع من طبقات منفصل بعضها عن بعض ومتداخل البعض منها في البعض الآخر ، لإحداث الأشكال المطلوبة والألوان المختلفة . وفي متحف فكتوريا والبرت قطعة على جانب كبير من الدقة ، تصور القصة الغرامية المؤثرة ، قصة ليلى والمجنون [لوحة ٤٧ب] . وهـذه القطعة الحريرية منسوجة من طبقتين وبلونين هما الأبيض والأحمر ؛ واستخدمت فيها كذلك خيوط الفضة بالتبادل مع سداة من اللون الأبيض لعمل الأرضية ، وهذا الأسلوب هو ما يعطي النسيج شكله المضلع البراق . ويحتمل أن تكون تلك القطعة من صناعة يزد ، أهم مراكز صناعة النسيج حوالي عام ١٦٠٠ م وهناك قطع أخرى معروفة تمثل قصة ليلى والمجنون، ويحمل إحداها إمضاء أحد مواطني مدينة يزد وهو غياث الدين علي، أحد أساتذة صناعة النسيج ومنتج الكثير من القطع المفضلة لدى رجال البلاط . وقد اشتد الطلب على منتجات غياث الدين الحريرية في كل من إيران والهند وتركيا .

ويعتبر المخمل أعظم منتجات مصانع النسيج في العصر الصفوي ولا يعدله شيء في جماله وإتقانه . ولم يصنع الإيرانيون المخمل ذا الوبرة المقصوصة، بل أنتجوا نوعا رقيقا من النسيج الذي تختلف أطوال وبرته . ويعطي هذا الأسلوب ما نراه من بريق وعمق في بسطهم وستائرهم، والحشوات التي تزين خيامهم . وبرعوا كذلك في تصوير

الموضوعات القصصية المعقدة عن طريق استخدام مزيد من خيوط اللحمة ؛ وهى الخيوط التى يستخدم كل منها لمسافة بسيطة جدا وذلك فقط لمجرد إظهار جزء من تفاصيل الرسم . ولم تستمر صناعة النسيج الصفوى الفاخر ـ شأن باقى الصناعات الأخرى ـ حتى نهاية حكم الصفويين . ففى عام ١٧٢٢م ، وبعد أن استولى الأفغانيون على مدينة هراة ومشهد ، هزموا الشاه حسين آخر حكام تلك الأسرة واستولوا على عاصمته أصفهان . ووصلت البلاد ، تحت الحكم الجديد ، وغارات الروس والترك المتزايدة، إلى حالة شديد من الفقر الروحى والمادى، وانتهت تماما الجهود والابتكارات الفنية الأصيلة التى عرفناها عن تاريخ إيران الطويل .



الفصل السادس

الدِّينُ

ترجمة يعقوب بكر

تعليق على فصل « الدين »

أهمل الكاتب الحديث عن الدين فى فارس قبل الإسلام ، ولم يُشغل إلا بالإسلام فيها . وقد اعتذر عن إهمال دين زردشت بضيق المقام ، ثم بأسباب أخرى ثلاثة: هى أنه لم يكن إلا « خيطاً فى لفافة » الحياة الفارسية الدينية ، وأنه قد يكون دون بعض الهرطقات الفارسية القديمة كالمانوية والمثروية دلالة على الروح الدينية الفارسية ، وأن فكرتنا عنه لا تزال يشوبها الغموض . وهى أسباب من شأن بعضها فى الواقع أن يدفع إلى الحديث عن الزردشتية لا إلى الصدّ عنها . وإذا كانت المانوية والمثروية أكثر دلالة على الروح الدينية الفارسية كما يقول الكاتب ، فلماذا لم يتحدث عنهما ؟ (انظر عن الدين فى فارس الفصل الذى كتبه الدكتور يحيى الخشاب فى أول هذا الكتاب ، والفصل الذى كتبه جاكسون A. V. Williams Jackson فى Grundriss der iranischen Philologie ، الذى أشرف على إخراجه جايجر Wilhelm Geiger وكُون Ernst Kuhn ، الجزء الثانى ، ستراسبورج ١٨٩٦ ـ ١٩٠٤ ، ص ٦١٢ ـ ٧٠٨ .)

وقد حذفنا بعض ما جاء فى هذا المقال لتعرضه لقضايا من الخير ألا تثار .

المترجم

أولا — مقدمة

لا نريد فى هذه المقالة أن نحاول تقويم التراث الذى تلقاه العالم الغربى عن الدين الإسلامى عامة . ففيما يتعلق بالماضى على أية حال ـ والماضى فى هذا الصدد يعنى قطعا من الناحية العملية العصور الوسطى ـ تولى علماء ثقات فى حلقة سابقة من « سلسلة التراث » استطلاع الإمكانيات المعقولة لمجرد الإلمام بجوانب تلك المهمة الضخمة ، وقد ظهرت هـذه الحلقة منذ عهد جد قريب فلا جدوى إذن من معالجة هذا الموضوع ثانية هنا[1] . ومهما يكن من أمر ، فإن ما يعنينا هنا مسألتان ثانويتان فى الظاهر وقد تكونان أبسط بعض الشىء : ما هى عناصر الحياة الدينية الإسلامية التى يصح اعتبارها عن حق من أصل فارسى خاصة أو من نقل الفرس دون سواهم ؟ وما أهمية تلك العناصر للعالم عامة والغرب خاصة ؟ وإذا كنا نريد علاج هذه المشكلة فى الغالب من حيث مساسها بنا وجدواها لنا ، فلأن العصر الحاضر مناسب خاصة للبحث فيها،

---

(١) انظر Legacy of Islam (أكسفورد ، ١٩٣١) : مقالة « التصوف » للفقيد نيكلسون R. A. Nicholson ، ثم خاصة مقالة « علم الكلام والفلسفة » للأستاذ جيوم A. Guillaume. ويجب أن نشير أيضا إلى كتابين ظهرا فيما بعـد ، وعالجا جوانب هامة من المشكلة كلها فى تفصيل دقيق لم يكن يتيسر فى هاتين المقالتين والكتابان هما : Islam and Christian Theology لمؤلفه سويتمان J. W. Sweetman (مطبعة لتروزث Lutterworth، ١٩٤٥) و Introduction à la théologie musulmane (essai de théologie comparée) لواضعيـه جارديه L. Gardet والأب قنواتى (باريس، ١٩٤٨). ويبدو أن الكتاب الثانى خاصة قد يصبح مرجعا يعول عليه فى هذا الموضوع ، وعنوانه المتواضع يتعارض أبلغ التعارض وضخامة طابعه . (وقد دعانا ضيق المقام فى هذه المقالة إلى أن نفترض فى بعض المواضع أن القارئ على بعض الدراية بالموضوع كما عولج فى مقالتى نيكلسون وجيوم.)

بل هو يتطلب هذا البحث . وقد يظهر ونحن فى خلال البحث أن هذا التراث الخاص لم يقبل عليـه الطالبون بعد ، بغض النظر عن مواقف عارضة من الاعتراف بفضله فى الماضى ، والحق أنه ما كان يتأتى لأى عصر سابق على عصرنا أن يقدره حق قدره ، فقد كاد نصيبنا الروحى يبلغ حد العدم لقصر نظر أجدادنا الأقربين عن ثقة بالنفس ولشغلنا بأمور أخرى ، فاكتسبنا لذلك بعض خصائص العين الفاحصة التى يتحلى بها الشحاذ الحق (ولعلنا اكتسبنا أيضاً شيئاً من تطامنه !) ، وأصبحنا نستطيع النفاذ إلى مكامن الجود والـكرم بين جيراننا . كذلك لا يجب أن يحول بُعد هؤلاء الجيران عنا فى المـكان والزمان دون أن نأخذ حظنا كاملًا من نعمهم ، بل لقد دلت تجارب كثير من المستشرقين على أن الغرابة التى تتبدى من الأشياء الشرقية لأول وهلة وبُعد هــذه الأشياء عن المألوف هما اللذان يدلان قبل كل شىء على الـكنز المدفون فى خرائب دنيانا المألوفة . (وإننى أستعمل هنا دون قصد تقريباً أحد الرموز البعيدة القدم التى عرفتها الحضارات الأولى والتى سنشير إليها فيما بعد (انظر ص ٢١٤) فى الصورة التى انتقلت عليها إلى الشعر الصوفى الفارسى وصاغها فيها أمثال حافظ من الفنانين البارعين .) ويستطيع التراث الذى احتفظ به لنا الإسلام فى فارس مساعدتنا على استرجاع تراثنا نحن المفقود ، فإن تحقق ذلك تضاعف الجزاء الذى هو حق لصاحب العطاء . إذ لا مجال لحساب الديون متى صدرت العطيـة عن كرم وفضل .

وقد لوحظ منذ عهد طويل أن الوظيفة الغالبة للعقل الفارسى فى ميـدان الفن والأدب هى التفاعل[1] والمساعدة على التفاعل[2] معاً . وكذلك الحال تماماً فيما يتعلق

---

(١) solvency ، وهو القدرة على تحليل شىء أو تـكوين محلول كيماوى معه . (المترجم)

(٢) catalysis ، وهو الأثر الذى تنتجه مادة تساعد على إحداث تغير كيماوى فى مواد أخرى دون أن يحدث فيها هى أى تغيير . (المترجم)

بذلك العنصر الأساسى الآخر من عناصر الثقافة وهو الدين . ويمكن وصف فارس فى مدلولها القديم الصحيح (وهو يشمل من الناحية المنطقية إقليم الجزيرة البالغ الأهمية وغيره) بأنها رَقّ palimpsest[١] ثقافى ، وهو لفظ استعمله عالم من أثقب علماء الأجناس فى بلادنا نظراً[٢] . فمنذ أقدم العصور (أو منذ عهد سومر على الأقل) لم يكد يسود فى البلاد التى تحد فارس حتى أقصى الغرب والشرق (مصر وسوريا واليونان فى ناحية والهند والصين فى ناحية أخرى) اعتقاد أو حلم وعبادة أو أمل إلا وأدمج أخيراً فى ذلك الإكسير القوى وهو الثقافة الفارسية ، أو ترك معلقاً فيه إلى حين . وفى الإمبراطورية الساسانية ، التى كانت الجيوش العربية تعمل فيها معول الهدم خلال النصف الثانى من القرن السابع الميلادى ، كانت عملية التفاعل قد تمت مؤقتا ، وأصبح مجال العمل عندئذ للجانب المساعد على التفاعل من هذا المركب البالغ الدقة ، وكان هذا العمل حقيقاً أن يعجل به فى ميدان الدين بساطةُ الإسلام البالغة فى عصوره الأولى من ناحية ، وعطلُه إلى حد خطير من السلطة المذهبية الحقة من ناحية أخرى[٣] . ولكن لا يتسع المقام هنا لأن نحاول أن نصف ولو فى إيجاز

(١) ورق أو رق parchment الخ يعد للكتابة عليه ثم مسح الكتابة ثانية، كلوح الإردواز . والمقصود أن فارس تحمل آثارا من الثقافات المختلفة التى تعاقبت عليها . وقد وصف دوسون أرض الجزيرة بهذه الصفة (ص ١٤٩ من كتابه المذكور فى الهامش التالى) . (المترجم)

(٢) كريستوفر دوسون Christopher Dawson فى كتابه Making of Europe (لندن ، ١٩٣٢) . (المترجم : وفيه فصلان قيمان عن « نشأة الإسلام » و « انتشار الثقافة الإسلامية ») .

(٣) أبرز كثير من الكتاب هذا الضعف طبعا فبين نيكلسون فى ص ٢٢٤ من المرجع المذكور كيف أن غلاة الصوفية أساءوا استغلاله إلى حد خطير . وقارنه دوسون فى المرجع المذكور بالمقاومة العامة التى أظهرتها الكنيسة المسيحية الأولى ضد العبادات الشرقية القديمة ، كما أشار إلى الانحرافات الخطيرة لرجال مثل بَرْدَيْصَان Bardesanes أو مَرْقيون Marcion . وهذا الضعف يعوق الإسلام الآن إلى حد خطير فى مقاومته نخر التيارات المادية الحديثة . =

رد الفعل العنيف الفائر الناشئ عن تلاقى فيضان الحضارة القديمة المُعْتِم الدافق ، الذى

= (المترجم : يقصد بالسلطة الذهبية doctrinal authority السلطة التى يحـق لها الفصل فى المذاهب الدينية ومدى التزامها أو مجافاتها جادة الصواب وطرد الزائغين من حمى الدين . والـكنيسة المسيحية لها هـذا السلطان . وليس فى الإسلام من هذا شيء ، فالمسلم مسئول أمام ربه وحده . وليس هذا ضعفا كما يقول الـكاتب ، بل هو عين العدل .

(وبرديصان ومرقيون كانا فى نظر الـكنيسة المسيحية مارقين . ولد برديصان فى الرها بأرض الجزيرة أو قريبا منها عام ١٥٤ ، وتوفى عام ٢٢٢ . واعتنق المسيحية على يدى أُوشْتَسْب أسقف الرها. ولـكن طرده من الـكنيسة الأم عَقِّى خليفة أوشتسب ، وانتهى به الأمر إلى أن أصبح صاحب مذهب مستقل كان لا يزال قائما فى الرها ذاتها فى القرن الثامن وظل سائدا فى المنطقة الواقعة بين واسط والبصرة حتى القرن العاشر. وقد شغل فى شبابه بعلم الفلك، أهم علوم الساميين الوثنيين، ولم يتركه بعد دخوله فى النصرانية . واشتهر أيضا بنظم الترانيم الدينية . ولـكن لم تبق لنا من كتاباته العلمية أو شعره شيء . انظر بروكلمان C. Brockelmann :

Die syrische und die christlich-arabische Literatur (Die Literaturen des Orients in Einzeldarstellungen, VII. Band, 2 Abt. Leipzig 1907)، ص ١٠–١٢ ، وكذلك باومشتارك Geschichte der syrischen Literatur : A. Baumstark (Bonn,1922) ، ص ١٢–١٤ .

(أما مرقيون فقد كان من أصحاب السفن الأغنياء فى بونتوس Pontus بآسيا الصغرى. وصل إلى روما فى أو حوالى ١٤٠ ، وأصبح من أتباع الـكنيسة المتحمسين ؛ ولـكن لم يلبث أن انحرف عن تعاليمها ، فطرد منها عام ١٤٤ ، وأنشأ فى روما مذهبا مستقلا أساسه أن ثمة إلهين : الإله العادل الذى يتبدى فى العهد القديم ، وهو إله اليهود وهو أيضا خالق الـكون ، والإله الرحيم الذى يتبدى فى العهـد الجديد وهو أبو عيسى المسيح . انظر Encyclopaedia Britannica ، المجلد ١٤ ، ص ٨٦٨ ، و Encyclopedia of Religion and Ethics ، المجلد الثامن ، ص ٤٠٧ – ٤٠٩ .

(وانظر فى الديصانية والمرقيونية الملل والنحل للشهرستانى، ج١، ص ١٩٤–١٩٦ (ط كيورتون William Cureton ، لندن، ١٨٤٢) . انتهى تعليق المترجم .)

بلغ منتهاه فى فارس ، والسيل الصافى للتوحيد فى الإسلام خلال عصوره الأولى فى بلاد العرب ، بل إن مثل هذا الوصف ليس ضرورة لا محيص عنها للمضى فى منهج البحث الذى رسمناه لأنفسنا[1] . على أنه عند ما بدأ الجيشان الشامل فى الهدوء بعد نحو قرنين من الزمان (من ٦٥٠ إلى ٨٥٠ تقريبا) أمكن تمييز التيارات الأساسية التى نشعر الآن بأنها من الخصائص المميزة للإسلام فى فارس — والتى أحس الغرب فى الواقع آماداً طويلة وفى درجات متفاوتة بأنها من الخصائص المميزة للإسلام عامة . ويحسن أن ندرس خصائص الإسلام فى فارس تحت العناوين التالية ، وهى شديدة العموم غير محددة أو متميزة بأية حال من الأحوال : (١) التشيع ، (٢) والتصوف ، (٣) ومذهب القضاء والقدر . ولم يعدم الجانبان الأخيران تقديرا واسع النطاق خارج فارس ، فإن التعبير عنهما يبلغ أروع مراتبه لا فى أقوال مذهبية صريحة ولكن فى شعر هو من أعظم أشعار العالم ؛ ولكن التشيع ، من حيث هو فكرة دينية على أية حال ، أهمل فى الغالب وأسىء فهمه فى كثير من الأحيان . (وكان هذا الإهمال أوضح ما يكون فى بريطانيا رغم اهتمامها البالغ بطائفة الشيعة ، وقد تناول هذا الإهمال على نحو

---

(١) كانت ردود أفعال مماثلة تقع بطبيعة الحال فى شتى أنحاء العالم القديم كسوريا الهلينية الأرامية ، ولكن لما كانت الثقافة القديمة أغنى ما تكون فى فارس وأكثر تركزا كانت العملية أعنف ما تكون فيها وأطول وأبقى أثرا . ولا تزال فارس فريدة فى العالم الإسلامى ، بينما يبدو بعض التشابه بين سائر البلاد الإسلامية ، حتى مصر التى ربما بدت فى الظاهر أول الأمر وحدها أكثر تميزا من فارس ذاتها ولم نقاس قطعا أكثر مما قاست فارس من جراء الغزوات والفتوح .

(المترجم : يريد الكاتب أن يقول إن فارس أكثر تفردا من مصر ، ولكن لا يصح أن يقال إن قصور مصر فى هذه الناحية يرجع إلى كثرة ما تعرضت له من غزوات وفتوح ، فإن هذا يصدق أيضا على فارس . وربما بدت مصر فى أول العصر الإسلامى أكثر تفردا من فارس ، ولكن هذا ليس إلا فى ظاهر الأمر لا حقيقته . هذا معنى كلام الكاتب .)

ما تاريخ الدينورى[1] رغم تقدمه وأهميته، فقد نشره جورجاس Guirgass عام ١٨٨٨ ولكن ظل الكتاب بعد وفاته بدون فهارس أربعة وعشرين عاما. أما سوء الفهم فمنشؤه غالبا استعمال المصادر المعادية للشيعة استعمالا يجانبه القصد.) ولكن يجب أن نضع فى ذهننا دائما، ونحن ننظر إلى الإسلام فى فارس فى هذا النطاق الثلاثى الجوانب، أن النصيب العظيم الذى أسهمته العبقرية الفارسية للإسلام كان يتعلق بالكيف، وقد بلغ من النفاذ والخفاء والإلهام وإثارة المشاعر الإنسانية فى كل ميدان من ميادين الفكر حدا يتحدى عمليا إدراكنا وتحليلنا[2]، إلا إذا تجسم فى شخصية بارزة

---

(١) هو أبو حنيفة أحمد بن داود الدينورى. وتاريخه هو المسمى بكتاب الأخبار الطوال. وقد نشره جورجاس عام ١٨٨٨ كما قال الكاتب، وكان ذلك فى مدينة ليدن، وقدم له وفهرسه كراتشكوفسكى J. Kratchkovsky فى ليدن أيضا عام ١٩١٢، أى بعد أربعة وعشرين عاما كما قال الكاتب. (المترجم)

(٢) يقول هورتن M. Horten فى ص ١٢ من كتابه Philosophie des Islam (ميونيخ، ١٩٢٤) فى غير غموض أو إبهام «إن الفلسفة الإسلامية من صنع الفرس». ومهما يكن من أمر فإنه قد يتفتح لنا ميدان بحث رائع بالغ الأهمية عند ما تأخذ المقدمات الطويلة للإسلام، ولا سيما فى مظاهرها الفارسية، تبدو تدريجا للعيان. والقرابات أوضح ما تكون بالطبع فى الرموز والصور لا فى ميدان الأفكار المجردة؛ ولكن تعقب الأصول على شىء من اليقين، حتى فيما يتعلق بالعناصر الأساسية، سيظل سنين طويلة مهمة صعبة تكاد تكون مستعصية. فثمة بقاع فسيحة لا تزال مجدبة لاقتصار استغلالها على ما يتعلق باللغة، وهى تحتاج أولا إلى أن تتعهدها أيد أرق وألطف حتى تونع وتزهر. وللفقيد فنسنك A. J. Wensinck بحث فى الرمز بالطيور والأشجار فى غربى آسيا، وهو بحث يحفز الهمم والأفكار ويجمع على نحو نادر بين التمكن اللغوى والروح الإنسانية الحقة، ولكننا مع ذلك لا نزال فى الغالب فى حال لا تدعو إلى الغبطة، وهو ما أشار إليه هورتن فى المرجع المذكور. — وانظر خاصة مقدمة كتابه، وهى شديدة القرب من منهجنا فى هذه المقالة رغم ما فيها عن الأجناس من أفكار متسلطة خاصة. وانظر أيضا فرنكفورت H. Frankfort وآخرين فى Intellectual Adventure of Ancient Man (شيكاغو، ١٩٤٦) وطومسون W. Thomson فى Islam and the Early Semitic World، فى مجلة Muslim World، يناير ١٩٤٩، ص ٣٦—٦٣.

كما هى الحال فى الغزالى . ولنمض الآن إلى البحث فى بعض الخصائص البارزة لكل من الجوانب الثلاثة التى يتميز بها الإسلام فى فارس والتى أشرنا إليها من قبل ، وسنتخير دون أى شىء آخر الخصائص التى قد تلقى أعظم الضوء على طبيعة التراث الذى خلفته لنا فارس فى ميدان الدين ، ونعالج شخصية الغزالى الفذة فى قسم منفصل .

ولكن قبل المضى فى أمثال هذه الأبحاث المفصلة قد يحسن هنا أن نشير إلى بعض الأسباب التى لم نتمكن معها فى هذه المقالة ، فضلا عن ضيق المقام ، من أن نفرد بحثا مماثلا لدين زردشت الذى ظهر قبل الإسلام . فهو ، رغم مركزه الرسمى فى الإمبراطورية الساسانية ، لم يكن إلا خيطا فى لفافة الحياة الفارسية الدينية ، وهى غزيرة الخيوط متشابكتها ، ويدلنا على ذلك بعض الهرطقات القديمة كالمانوية والثروية (اللتين لا تتيح لنا المراجع القليلة التى بين أيدينا سوى نظرات قصيرة إليها لاغناء فيها). ثم إن الزردشتية ، فى الصورة التى أمكننا تكوينها عنها وأخذها الناس عامة على غموضها ، تدل دلالة واضحة على سمو الروح الفارسية ، ولكنها قد تكون دون هذه الهرطقات ذاتها من حيث هى مظهر ذو طابع خاص للدافع الدينى الفارسى كما عرفناه خلال نحو ثلاثة عشر قرنا من التاريخ المؤيد بالوثائق منذ الفتح الإسلامى . والسبب الأخير ، وهو قطعا أقوى تلك الأسباب ، هو أنه مما يبعث على الأسف وإن لم يجاوز الواقع أن نحو قرن من الدراسات الإيرانية المستفيضة لم يغن إلا قليلا فى تبديد جو الغموض الذى يحيط بتطور الديانة الزردشتية كله وممارستها « وجوّها » ؛ والحق أن كثيرا من الآراء الخاطئة السابقة قد فندت على وجه يقطع كل شك ، ولكن يبدو أن طبيعة معظم هذه الأبحاث ذاتها تحول إلى حد كبير دون الوصول قريبا إلى نتائج إيجابية تقرب هذا الميدان إلى جمهور المثقفين ؛ فهى لم توفق بعد إلى أن تجعل للنواحى اللغوية التى لم يكن لها فيما مضى مفر من الخضوع لها مكانا أكثر مراعاة للقصد ، ولهذا آذنت

بأن تظل طوع فلسفة أدرك المشتغلون بسائر فروع الدراسات الشرقيـة والعلوم الإنسانية عامة منذ عهد طويل أنها لم تعد تناسب العصر . ومهما يكن من أمر التراث الذى قد يكون كامنا هنا، فإنه لا يصح أن نعول على أن يشهد المستقبـل القريب مجرد تقويمه، بله استعماله فيما يعود بالخير والنفع .

ثانيـا — التشيع

فى نهاية القرن الثانى عشر على الأكثر، كان التشيع محصورا من الناحية الجغرافية فى منطقة من مناطق (فارس ـ العراق) ليست عظيمة الاتساع إن لم تكن ضيقة، وحتى فى هذه المنطقة لم يكن عاما بأية حال من الأحوال (فسعدى مثلا لم يكن شيعيا) ، ولم يقدر له أن يصبح الدين الرسمى إلا بعد ذلك بنحو أربعة قرون ، ولا يزال كذلك إلى اليوم. ولـكن غنى أفـكاره ودقتها بلغا من العظم حدا واصل معـه طويلا إسباغ الخصب والنماء على الفـكر الإسلامى . وكانت عقول جمهرة المتـكلمين من غير الشيعة ذات طابع عملى بحت ، فـكان ذلك نذيرا منذ البداية بفشل علم الـكلام الإسلامى آخر الأمر ؛ وكانت كتاباتهم فى الغالب موسومة بالبلادة عاطلة من الطرافة (تعالج كثيرا موضوعات لا تبدو لنا مما يتصل بعلم الـكلام أو الفلسفة أصلا ، وتهمل أحيانا أمورا هى عندنا من صميم الموضوع)، وهى فضـــلا عن ذلك يعوزها البت على نحو ظاهر . وفى الفـكر الإسلامى عامة اتجاه دائم إلى النظر إلى أية مشـكلة من جانبين أسود وأبيض ثم رفض الجانب الأسود ، وفى هذا عجز عن إدراك هــذه الحقيقة وهى أن كون « الأحسن » خـيرا من « الحسن » لا يجعل « الحسن » سيئا . ومشـكلة الاختيار والجبر هى المحك الأول فى هذه الحالات ؛ ومحاولة الأشعرى الوصول إلى حل[1] ، وإن بدا

(١) يقول أبو الحسن الأشعرى (توفى سنة ٣٢٤هـ = ٩٣٦م) إن أفعال الإنسان من خلق =

أن هذا الحل أعجب بعض العلماء الغربيين ، ليست إلا حيلة يائسة إذا قارناها بالجواب العميق الذى أتى به المتصوفة ، ويمثل هذا الرد غاية تطور الأفكار الشيعية الأصلية ، وقدعبر عنه الغزالى فى كتاباته أسمى تعبير . فهنا فقط نجد شيئا من الإجلال للأسرار ومن إدراك العقل أن الأضداد ليست إلا ظاهر العقل الإلهى وباطنه[1].

كان أمثال هؤلاء المفكرين ، كما قلنا ، يجدون العون آخر الأمر، للخروج من مآزق عدة ، فى المذاهب الشيعية التى تخفف عن الكاهل ، وخاصة وهى وراء ستار من التصوف ، ولكن كان خصومهم والمعركة لا تزال محتدمة متفوقين عليهم تفوقا يقطع حبل الأمل. (ويدل على المستوى العالى الذى كان للمجادلات الشيعية عامة ما ينطوى عليه كتاب كمجالس المؤمنين للشُّشْتَرِى[2] رغم كتابته لجمهرة الناس من ذكاء حاد وخفاء يشوبه التهكم .) وفى آخر المطاف كان من شأن قوة مذهبهم وبعدهم عن التعصب بعداً لا بد أنه يبدو للكثيرين غريبا أن أمدّوا الإسلام كله إلى حـــد ما بنظام عملى متوازن للخلاص وبأساس مقنع للعلاقة بين الإنسان والله . ويكاد يستحيل بطبيعة الحال أن نقدر مدى ماأسهمت به آراء المعتزلة (التى استوعب المذهب الشيعى الكثير منها بعد اضمحلالهم) فى انتصار الأفكار الشيعية ، ولكن مسلك المعتزلة خلال الفترة القصيرة التى بزغ فيها نجمهم إبان عصر المأمون يجعل المرء فى شك من أنه كان يمكن بوجه عام أن يُشغلوا كثيرا بأية معركة من أسلحتها التسامح .

= الله جميعا ، ولكن الإنسان قادر على أن يكتسبها لنفسه . ويعلق على هـــذا هورتن فى المرجع المذكور ص ٢٠١ بقوله « وهنا قد يعترض معترض قائلا : لا يمكن أن يكون هذا الاكتساب سلوكا سلبيا محضا ، وإلا لما أتاح أساسا للمسئولية والاختيار . فلابد إذن من أنه نشاط يقرر فيه الإنسان مختارا تقبل الفعل الصادر من الله . وعلى هذا يكون هذا الاكتساب فعلا إنسانيا ، ولا بد أن الله وحده هو الذى خلق هذا الفعل ككل شىء محدث . فهنا إذن حلقة مفرغة . . . » (المترجم)

(١) جب Mohammedanism: H. A. R. Gibb (أكسفورد، ١٩٤٩)، ص ١٤١.

(٢) المترجم : الكتاب بالفارسية ، طبع فى إيران عام ١٢٦٨ هـ ، ومنه عدة نسخ =

وليس لنا هنا ، كما قلنا ، شأن بالجانب السياسى البحت من التشيع (أى بفشله كحزب يدعى لنفسه الحق فى الخلافة أو باستعماله مبادئه الأساسية واستغلاله إياها على وجه غريب لستر شتى أغراضه السياسية وغالباً ما كانت خبيثة) ، وإن كانت دراسة كهذه ستكشف أيضاً عن كثير من خصائص فارس قديماً أو حديثاً . ولكن ثمة مظهراً سياسيًّا واحداً يثير اهتمامنا لما ينطوى عليه من جوانب شبه دينية . وذلك أن الإسماعيلية أبقوا فى قيد الحياة على وجه غاية فى الغرابة المذاهب الغنوصية القديمة التى حاولت جاهدة دائماً أن تطبع بطابعها ديانات الشرق الكبرى. والحق أنه لا حاجة بنا إلى أن نؤكد أن ادعاءهم الوصول إلى الحقيقة مستعينين بحكمة خفية لا تباح أسرارها إلا للخلصاء وإيمانهم بالأديان جميعا من الأمور التى تهمنا نحن فى أيامنا هــذه التى يسودها التفرد المبنى على التخصص والتسامح القائم على اللاأدرية . ومما يدل دلالة واضحة على سلامة التشيع (وكذلك التصوف) الفارسى الطريقة التى دأب بهـا عامة على رفض معظم هذه التعاليم أو إحالتها شيئا لا ضير فيه كالمبالغة فى الشعر .

= مخطوطة فى المتحف البريطانى (Add. 23,541 و Add. 6606 و Add. 15,715 و Add 16, 716 ؛ انظر ريو Charles Rieu فى Catalogue of the Persian Manuscripts in the British Museum ، الجزء الأول (١٨٧٩) ، ص ٣٣٧ — ٣٣٨) . ويقول شپرنجر A . Sprenger (فى ص ٢ من مقدمة بالإنجليزية كتبها لـكتاب فهرست كتب الشيعة لمحمد بن الحسن الطوسى ، الذى تولى نشره هو ومولوى عبد الحق ومولوى غلام قادر ، كلـكتا ١٨٥٣ ، رقم ٦٠ من مجموعة Bibliotheca Indica) عن كتاب مجالس المؤمنين إنه عمل سطحى .

ويقول ريو (المرجع المذكور ، ص ٣٣٨) إن فى نهاية المخطوطة Add. 23,541 ملاحظة على الهامش ، يظهر أنها منقولة عن نسخة المؤلف نفسه ، جاء فيها أنه بدأ كتابة الـكتاب فى مدينة لاهور فى شهر رجب من عام ٩٩٣ هـ (= ١٥٨٥ م) وأتمه فى الثالث والعشرين من ذى القعدة عام ١٠١٠ هـ (لا عام ١٠١٣ [تصحيح ١٠٧٣ من النسخة الإنجليزية وهو خطأ مطبعى ظاهر] = ١٦٠٤ م كما يقول ماسينيون L. Massignon فى ترجمته للشوشترى بدائرة المعارف الإسلامية) .
=

= ويقول ريو أيضا إن الـكاتب ينص فى فاتحة كتابه وخاتمته على أن الغرض الأول منه هو أن يثبت أن التشيع لم يكن مذهباً جديداً كما يقول أعداؤه ، وإنمـا شمل تحت رايته علماء أجلاء فى جميع عصور الإسلام (منذ ظهور الإسلام حتى قيام الدولة الصفوية فى ٩٠٥هـ = ١٥٠٠م).

والـكتاب ، كما يصفه ريو ، يتألف من فاتحة واثنى عشر باباً يسميها الـكاتب مجالس ، تتناول بعض الأماكن التى ترتبط بتاريخ الأئمة أو الشيعة ، وبعض القبائل أو الأسر الشيعية ، والشيعة من الصحابة ، والتابعين ، ومن تلاهم من العلماء كالمتكلمين والمفسرين والمحدثين والسادة والفقهاء والقراء والنحاة واللغويين ، ثم الصوفية ، والفلاسفة ، والملوك والأمراء ، والقواد ، والوزراء والـكتاب ، وشعراء العرب ، وشعراء العجم .

ويورد السيد إعجاز حسين النيسابورى الـكنتورى فى ص ٤٨٧ من كتابه كشف الحجب والأستار عن أسماء الـكتب والأسفار (ط محمد هدايت حسين ، كلـكتا ١٣٣٠ هـ) وصفاً مماثلا للـكتاب .

والمجلس الأخير ، وهو عن شعراء فارس من الفردوسى إلى لسان الغيب ، هو الذى جعل إتيه Hermann Ethé (فى فصله عن الأدب الفارسى الحديث فى الجزء الثانى من كتابه Grundriss der iranischen Philologie ، الذى أشرف على إخراجه جايجر Wilhelm Geiger وكُون Ernst Kuhn ، ستراسبورج ١٨٩٦ — ١٩٠٤ ، ص ٢١٤) يعدّه من الـكتب التى لا غنى عنها فى دراسة الأدب الفارسى الحديث .

والششترى أو الشوشترى هو القاضى نور الله بن شريف المرعشى الحسينى الشوشترى (نسبة إلى مدينة شوشتر أو شُشْتر بإيران وهى التى يسميها العرب تُسْتَر) . قصد فى صدر شبابه إلى مدينة مشهد لتلقّى العـلم ، ثم هاجر منها إلى الهند ، وأقام فى لاهور ، وعيّنه أَكْبَر قاضياً لها خلفاً للشيخ معين الذى توفى عام ٩٩٥ هـ (= ١٥٨٧ م) . وأقام بعد ذلك فى مدينة أكره ، وفيها نشر فى آخر ربيع الأول عام ١٠١٤ هـ (= ١٦٠٥م) كتابه إحقاق الحق وإزهاق الباطل (وهو بالعربية) ، ومنه عرف تشيّعه رغم أنه كان قاضياً حسب المذهب الحنفى ، فأمر جهانجير ، ابن أكبر وخليفته ، بجلده حتى الموت ، وكان ذلك فى عام١٠١٩هـ (= ١٦١٠م). ومن ثمّ يعدّه الإمامية الشهيد الثالث .

= وقد كتب إحقاق الحق ردًّا على كتاب إبطال نهج الباطل لفضل الله بن روزبهان بن فضل الله ابن محمـــد الخانجى الشيرازى الإصفهانى . انظر جولدتسيهر I. Goldziher فى كتابه :

ثالثا — التصوف*

إن التصوف ، كما يقال عامة مع شيء كثير من الحق ، هو المظهر الأسمى للعقل الفارسي في ميدان الدين . وهنا أيضا لا نريد البحث في دلالته التاريخية وتطوره التاريخي[1] أو في مدلولاته الاجتماعية وما استعمل فيه وسيلة للتخفي والاستتار[2] .

Beiträge zur Literaturgeschichte der Šî‘a und der sunnitischen Polemik; Sitzungsberichte der phil.-hist. Classe der kais. Akademie der Wissenschaften, vol.78 (1874) ، ص ٤٨٦ ومابعدها .

ويذكر بروكلمان (الملحق الثاني من كتابه المعروف عن تاريخ الأدب العربي ، ص ٦٠٧— ٦٠٨) للشوشتري عدا هذين الكتابين الصوارم المحرقة (وقد كتبه ضد أحمد بن محمد بن علي ابن حجر الهيثمي المكي الأزهري الجنيدي السعدي أبي العباس شهاب الدين) ، ومصائب النواصب (وهو رد على نواقض في رد الروافض لأشرف معين ميرزا مخدوم بن عبد الباقي الحسني الشيرازي سبط الشريف الجرجاني) ، وحاشية على تفسير البيضاوي ، ورسالة في مسح الرجلين في الوضوء ، وسراج القلوب وعلاج الذنوب . ويذكر له ريو (المرجع المذكور ، ص ٣٣٧) أيضاً كتابي عشره كامله وكشف العوار .

انتهت ملاحظة المترجم .

* استعنت في ترجمة بعض المصطلحات الصوفية بالأستاذ محمد مصطفى حلمي ، فله الشكر والثناء . (المترجم)

(١) عالج نيكلسون هذه النقط على نحو يدعو إلى الإعجاب في المقال الذي أشرنا إليه فيما مضى وفي سائر كتاباته . وانظر أيضاً أربري A. J. Arberry : Introduction to the History of Sûfism (لندن ، ١٩٤٢) .

(٢) انظر جب ، المرجع المذكور (ص ١٢٧—١٦٤) ، ففيه عرض وجيز بالغ الجودة لبعض هذه الجوانب .

وقد عُدِّلت الآن كثيراً أو قليلًا النظريتان الأساسيتان اللتان سادتا حتى الآن عن المصدر الذى جاءت منـه أهم مذاهب التصوف ونظمه . « فالمدرسة » الهندية لم يكن ينتظر أن تستطيع المرور سالمة من هـذا العصر الذى سادته هواية الاستشراق وعناية الأمم الجرمانية بأبحاث الأجنـاس ، بينما أن النظرية التى تجعل الأفلاطونية الحديثة أصلًا للتصوف ، وهى تنطوى على براعة وجاذبية (ولا تخلو من قوة بالغـة) ، إنما وضعت فى صيغتها الـكلاسيكية قبل أن يتبين مدى تعقد مثل هذه المشاكل من نتائج الأبحاث فى علمى الأجناس والنفس ـ بغض النظر عما يتكشف دائما فى ميدان التصوف ذاته من مواد جديدة . وقد كتب نيكلسون خطاباً فى أخريات حياته ، أصبح الآن مشهوراً ، ضمنه رأيه الذى أنضجته الأيام من أن كثيراً من الخصائص الأساسية للتصوف وليد البيئة المحلية ؛ ويبدو مؤكداً أن هذا الحـكم الناضج الجرىء لن يجد سوى التأييد من الأبحاث الدائرة الآن . ولا يمكن أبداً فى مثل هذه الأمور بطبيعة الحال الوصول إلى دليل نهائى بالمعنى العلمى ، ولـكن اختبار التعبيرات الخارجية ، وهو أمر فى إمكاننا ، يبدد معظم الشكوك فى أن لفارس الحق فى أن تدعى لنفسها التصوف إلى حد كبير . وإن أسماء مثل الغزالى والعطار والرومى وحافظ ترد إلى الذهن فى طواعية لا تتأتى عند ذكر الزهاد العرب القدامى أو حتى عنـــد ذكر شخص كابن عربى على أهميته .

وقد تحدث عالم محدث فى مقال نشره منذ عهد قريب عن البساطة كصفة أساسية فى التصوف[١] . وهـــذه البساطة هى بطبيعة الحال البساطة الجوهرية التى تتحلى بها جميع الحقائق القصوى التى لا يعقدها سوى التعبير بالأفـكار والرموز التى تقيد بها الإنسان (وإن كان هذا التعقيد شائقاً أحيانا ولا مفر منه على أية حال من الأحوال).

---

(١) أربرى: Tendencies in Islamic Mysticism فى مجلة Scientia، مارس ـ أبريل ١٩٤٩ ، ص ٦٥.

ولهذا يجب إذا تأملنا الأدب الصوفى الزاخر وما يتصل به من نقد أدبى وافر أن نعمل جاهدين على ألا ننسى أبداً بساطة فكرته الأساسية ، وهى بساطة لا تكاد تدركها الأبصار ؛ وهذه الفكرة هى بعد النفس عن خالقها وما ركب فيها من شوق إلى العودة والاندماج فيه ، وهو شوق قد يتعهده المرء أو يكبته إذا شغلته شواغل أخرى. وهنا يجب ألا نفرق بين التصوف الفارسى الأصيل(١) وتصوفنا نحن الغربيين . فالاختلاف إنما يبدأ فى الظهور عند التعبير عن مثل هذا الحب أو لفه برداء الصمت — وهو اختلاف هام فى ذاته ولكن فى ذاته فقط .

إن ما فى الأدب الصوفى من إشارات عديدة تؤكد فى وضوح قرب الله قرباً مبعثه الحب مدعاة للدهشة والحيرة . وثمة طبعاً مواضع لا عداد لها تصور الله وردة صامتة تدفع العندليب البائس إلى ذهول يعبر عنه تعبيراً جميلا ، وتصوره أيضاً جمالا ذا أهواء قانعاً بنفسه واثقاً من المحب العاثر (وكثيرين من أمثاله) لا يلقى إليه بالا حتى ليدفعه إلى لوم رخيص :

فى الفجر قال الطائر فى المرج للوردة المتفتحة

« أقصرى عن كبريائك ، فكثيرات مثلك أينعن فى هذه الحديقة »(٢) .

---

(١) لا معنى فى الواقع فى مثل هذا الميدان لاتهام المتصوفة بالافتعال ، ولا لما يتضمنه هذا الاتهام من التحديدات والتعريفات ؛ ولكن يمكن أن نحدد مجال سوء الفهم باستبعاد الحالات المرضية والتنويم المغناطيسى سواء كان بفعل الشخص نفسه أو بوسيلة أخرى .

(٢) انظر النص وترجمة مختلفة بعض الشىء فى أربرى Hâfiz-Fifty Poems (كمبردج ، ١٩٤٧) ، رقم ١١ . ومن الصعب إذا تأملنا لغة الأصل أن نشك فى أن الشاعر أراد هنا أن يضرب على نغمة مبتذلة ، وهذه اللغة لا عيب فيها من الناحيتين الفنية والنفسية فى حدود الصورة التى يعمل فيها . ولكن من الصعب علينا أن نبرر استعمال مثل هذه الوسائل عامة ؛ والأمر هنا ليس مجرد « عمل فى نطاق الصور الخيالية المألوفة فى ذلك العصر » ، إذ ماذا يمكن أن نشعر به إزاء صوفى عبر عن حبه لله بالصور المألوفة فى عصرنا هذا — عصر الإعلان وأفلام السينما ؟ والحب =

ولـكن أين نجد فى غير التصوف من ميادين الإسـلام تعبيراً رقيقاً عن قلق الله قلق المحب على « الروح الضائعة » كهذا التعبير الذى يتضمنه هذان البيتان الشيّقان؟ :

يأيها الباز الملـكى الذى يحدق بناظريه إلى عل ويقوم مسكنه الحق فى شجرة السدر بالجنة : إن عشك ليس فى هذا الركن من مدينة الهموم .

إنهم يصفّرون لك من شرفات عرش الله لتعود ؛ لست أعلم ما دهاك حتى تتباطأ هكذا فى هذا المـكان الملئ بالأشواك(١) .

(فانظر كيف اتفق أن صورة الباز فى ذهابه وإيابه توافق تماما مذهب الصوفية عن رحلة النفس !) وسعدى أروع من حافظ غالبا فى هذا المجال :

« خليلى » أقرب إلىّ منى إلى نفسى ، والأغرب من هذا أننى جد بعيد « عنه » !

ماذا أستطيع أن أفعل ؟ لمن أستطيع أن أقول : « خليلى فى صدرى بينما أنا منفصل عنه » ؟(٢) . فهذا مثال بالغ الدلالة للتوازن الصوفى قائما فى هـــذه الحالة على قاعدتين توأمين من انفصال الله عن الـكون وامتزاجه به ، وهـذا التوازن لا نجده فى الإسلام إلا فى ميدان التصوف . ويصح أن نشير هنا إلى أن هذا الميل فى التصوف

= الإنسانى ذاته جـدير طبعا بأن يعدنا بصور عن الحب الإلهى — بل إن الحب الإنسانى هو المقياس الواضح الوحيد الذى يمتلكه الإنسان وليس من الضرورى أن ينقسم الحب إلى ضربين — ولـكن يجب أن يكون الحب الإنسانى على جانب كبير من العمق والصدق لا تشوبه شائبـة من التزاويق الفارغة والتصنع (انظر ص ٢١٤ فيما بعد).

(١) أربرى : Hâfiz ، رقم ٦ .

(٢) سعدى ، كليات (ط عباس إقبال) ، گلستان ، ص ٥٦ . والآية القرآنية (٥٠ : ١٦) التى يستشهد بها عادة لهذه العاطفة الخاصة بالصوفية هى فى الواقع بعيدة عنها كل البعد بما فيها من نبرة وعيد وبساطة . ولـكن يعبر بيتا سعدى أوفى تعبير عن خطيئة آدم الأولى وعواقبها .

(المترجم : الآية القرآنية الـكريمة المشار إليها هى : « ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد » .)

كان يجعله فى خطر دائم من تغلغل العبادات القائمة على الغنوصية وإن لم يخضع لها أبدا خضوعا تاما ، كما قلنا ، بل ظل بوجه عام خالصا من تأثيرها على نحو يسترعى النظر .

وجمهرة المسلمين يميلون إلى الاعتقاد ، عن شعور أو غير شعور وبدرجات متفاوتة، أن الخليقة خير كلها . بل إن ما يبدو شرا صادرا عن الله أيضاً فلا بد أنه خير . ولكن لم يقنع الصوفية بهذا الموقف وحده ؛ وإنما رأوا الخير والشر مرتبطين ارتباطا وثيقا لا فكاك منه فى المخلوقات الظاهرة ، حيث الشر وسيلة لازمة لإبراز الخير ، يبدو كظل منعكس منه فيكشفه لنا ؛ وتطلعوا إلى خير أسمى ، مطلق ، لا تعكره أية صلة بالشر ويختلف لذلك اختلافا ماعن الخير الذى نعرفه هنا . وإدراك هذا الخير المطلق أو الامتزاج به هو تخليص النفس من كل شر ، ومن كل ماهو أرضى ، ومن النفس ذاتها فوق كل شيء ، فالنفس إنما هى مثوى الشر فى «أنقى» صوره (قارن بذلك النظريات النفسانية الحديثة) . ومن اليسير أن نرى هنا ، حتى مع إغفال جانب المبالغة التى لاضير منها لإبراز موقف من المواقف ، كيف كان الصوفية فى انسياقهم يقتربون من خضم المانوية إلى حد ينذر بالخطر ، ولا سيما لأن المانوية وليدة التربة ذاتها التى كانوا يدبّون عليها . وقد انساق عدد منهم آخر الأمر ، ككثير من المسيحيين ، إلى تلك الهاوية ، فرأوا فى الخليقة ذاتها الشر الأكبر . ولكن واصل أغلبهم السير فى مهارة عظيمة على « الصراط المستقيم » الذى فرض اتباعه على المؤمنين فى جميع الأديان، عدا الأديان « الكافرة » التى جاء بها زماننا .

ولم يعرف الصوفية فكرتى الخطيئة الأولى والحلول، وهما فكرتان توأمان ، مثلهم فى ذلك مثل كبار المفكرين الإغريق الذين كانوا هم ورثتهم من عدة وجوه. وهاتان الفكرتان هما اللتان مالتا فى كثير من الأحايين إلى إنقاذ علماء اللاهوت والفلاسفة المسيحيين مما كانوا يحاولونه حينا بعد حين من هرب أو اندفاع إلى مناطق « المطلق » اللانهائية التى يقيم فيها الله بجوهره ، والتى يمكن القول دون مجانبة للصواب إن الله

وحده هو الذى يستطيع العيش فيهـا .

ولا بد أن نقول هنا كلمة عن القوة المحركة فى الصور الخيالية التى يستعملها الشعر الفارسى الصوفى ، فهى الصفة الوحيدة التى تبعث أمامنا على أقرب وجه الروح الدينية الفارسية ، وإن كانت أكثر صفاته استعصاء على التقدير الحق . فالصور والرموز لهجتان من لغة لا يكاد الإنسان يستعملها الآن إلا فى الرؤى والأحلام ، ولـكنها كانت على عهد كبار الشعراء الصوفيين فى فارس لاتزال فى عنفوان حياتها ، وهى حيـاة قديمة قدم حياة الإنسان نفسه . فصورة التراب الشافى من عتبة المحب مثلا ، وهى ترد كثيرا فى شعر حافظ ، كانت تتفق وعادة مألوفة فى عصره ، بل يمـكن الرجوع بها إلى الوراء ألف سنة أو أكثر دفعة واحدة[1] . والأفكار المعقدة التى لابد أن هذه الصورة كانت تثيرها فى نفوس سامعيه لا يستطيع الإنسان الحديث إدراكها إلا فى غموض من انفعالات لاشعوره . فهذا ميدان تتطلب دراسته الصحيحة كل جهود العلماء وحذقهم فى تمحيص الوثائق ، وفهما أوسع كثيرا وأعمق وأنفذ للروايات غير المـكتوبة ؛ وهنا يجب علينا أن نتزحزح عما يسميه مونتينى Montaigne[2] « وسادة الشك الناعمة »[3] ، فإن رفض الروايات دون تمحيص شوه غالبا نتائج الدراسات الإسلامية فى الماضى .

ويجب أن نورد ملاحظة أخيرة عن النزاع حول ماهو إنسانى وما هو إلٰهى ، وهو نزاع لايزال محتدما حول أشعار حافظ . ويشبهه فى هذا الصدد شبها قويا شاعرنا

---

(١) Syriac Documents in the Anti-Nicene Christian Library ، حـ ٢٠ ، ص ١٢١ .

(٢) Michel de Montaigne (١٥٣٣–١٥٩٢) ، من كتاب المقالة الفرنسيين . (المترجم)

(٣) المترجم : أى أن لا نلزم جانب الشك لسهولته ونقنع به دون أن نعنى أنفسنا بالبحث والتمحيص .

دُنDonne[1] ، ولـكن نقاد دُن لم يُعنّوا أنفسهم كثيرا بالصعاب الحقيقية فى مثل هذه المشـكلة ، رغم أنهم كانوا يستطيعون الإفادة فى ذلك من تواريخ النشر والتصنيف ، ولـكن لاسبيل مع حافظ إلى اجتناب المشـكلات .

رابعا : مذهب القضاء والقدر

يجب أن نوضح أننا لانعنى هنا بتلك الصفة العقلية التى مال الأوربيون (من مثقفين وغير مثقفين) إلى ربطها بالإسلام عامة والإسلام فى فارس خاصة ولا سيما منذ أولعوا بعمر الخيام . ولا ريب فى أن هذه الصورة العقلية على غموضها كانت ترضى غرورهم فى الماضى ، إذ كانوا يعدون أنفسهم رجال عزم وعمل ؛ أما الآن ، بعد أن بدأوا يشكون فى قدرتهم وحدهم على تفسير العالم (بله « تغييره ») ، فقد ذهب من الصورة ما يرضى الغرور ولم يبق منها إلا الوجه السخرية . وإذا كانت زيادة المعرفة بالشرق لم تغن كثيرا فى إزالة هذه الفـكرة الخاطئة ، فإن الخُواء الإنسانى وحده قد يدفعنا إلى اطراحها جانبا .

إن مانعنيه عند الحديث عن « مذهب القضاء والقدر فى فارس » هو ذلك الرثاء الرواقى القديم الصادق الذى لاينبع من انزعاج العقل إذ يقع فريسة شبا كه هو ، أو من شعور الخزى والعار الذى يختلج فى نفس المجدود إذ يلقى المسا كين ومن تعاف النفس رؤيتهم ، ولـكن من عطف تلقائى (بكل معانى الـكلمة) على كل « ما يحيا حياة

---

(١) كم كان يسهل على حافظ أن يقول قول دُن:

مـــا يدنس أفراحنا
أن نحدث العامة عن حبنا

(المترجم : جون دن (١٥٧٣ ــ ١٦٣١) شاعر وعالم لاهوتى عاش فى عهدى جيمس الأول وتشارلز الأول .)

قصيرة وتفعمه ألوان الشقاء» ، عطف ليس طابعه مرارة المعرى أو الاهتمام المجرد بشؤون الغير الذى كان يخالج أحرار الفكر فى القرن التاسع عشر ، وإنما هو صدى ، خافت بالضرورة ، لرحمة الله نفسه . وهو عطف نغدقه على أولئك الذين قاسوا كما قاسينا ونقاسى وسنقاسى ، يجرى تيار قوى منه خلال العقائد والتعابير الفارسية جميعا ولكنه أوضح مايكون فى الفردوسى ، الذى شاء له القدر أن يكون شاعرا .

ومما يبعث على الأسف العميق ، وإن كان لا يدعو ضرورة إلى الدهشة ، أن الفردوسى أقل شعراء الفرس حظوة لدى المستشرقين الغربيين اليوم . بل هو فى بلاده ذاتها يتعلق به المثقفون والعلماء اليوم أقل كثيرا مما يتعلق به غير المثقفين والبسطاء — وهو حظ قد يفعم قلبه برضا تشوبه السخرية . وهو فى هذا ، وفى عدة أشياء أخرى ، يشبه شاعرنا تشوسر Chaucer[1] ، غير أن طبقة غير المثقفين والبسطاء فى الغرب ليس لديها فى الواقع تراث قومى تتعلق به . فهو ينعم بشهرة مماثلة مدارها أنه أبو الشعر الفارسى ، ويتقبله الناس أيضا فى شىء من التسامح على أنه شاعر ممل يحترف الفن الشعرى ولكن لا يبلغ به حد الإتقان . (وقد شك علماء ثقات فى نسبة يوسف وزليخا إليه مثلا ، مستندين إلى أسباب يمكن إيرادها أيضا ، إذ تساوت سائر الأمور ، للشك فى نسبة ترويلوس وكريسيد[2] إلى جوفرى[3] .) والواقع أنه مثل تشوسر شاعر صناع مصقول كامل العدة ، فى جعبته مئات الحيل الدقيقة يستعين بها فى الأسلوب ورسم الشخصيات : قارن الأثر العميق لرقص زال وجوارى روذابه ، وهو رقص يشبه

---

(١) جوفرى Geoffery تشوسر (١٣٤٠؟—١٤٠٠) . وقد سماه سبنسر Spenser السيد تشوسر Dan Chaucer فى بيت مشهور . (المترجم)

(٢) من روائع تشوسر . (المترجم)

(٣) تشوسر نفسه . انظر الهامش الأول . (المترجم)

الباليه فى تأثيره ، بروح الفكاهة الغريبة فى كلام السيمُرغ عن طريقة التوليد[1] !
وكان يمكن لتشوسر أن يقول كثيرا من أبياته بل فقرات كاملة من شعره كما هى ، كما كان هو نفسه يستطيع أن يكتب قصيدة بون كونيسى . والواقع أنه لن يصعب كثيرا أن نجد نظيرا فى شعر الفردوسى لكل بيت من أبيات تلك القصيدة . ولكن الشاعرين أقرب ما يكونان بعضهما إلى بعض فى عطفهما على الأعداء المهزومين ، وهو عطف لا يقل عن عطفهما على الأصدقاء الذين تتنكر لهم الأيام . ولاريب فى أن الدافع لهذا الرثاء كان مختلفا فى كل : فقد وجد تشوسر من الصعب عليه أن يكره حيث يعلم أن المسيح ، بعد أن عانى هو نفسه ، سيحب ويغفر ؛ ووجد الفردوسى من العسير عليه أن يدين المذنب مع وجود ضحايا للقدر لا حول لها ولا قوة . ولكن طبيعة عطفهما واحدة .

خامسا — الغزالى

نأتى الآن إلى البحث فى أعظم شخصية قدمتها الروح الفارسية إلى الإسلام ، وفى أهميتها لنا . ومن الأمور التى تدعو إلى الغرابة ، كما قد يبدو لكثير من الناس ، أن هذه الشخصية الفذة بالغة الأهمية فى الإسلام ، تكاد أهميتها فيه تساوى أهميتها فى المسيحية البروتستانتية ، وذلك كله لأسباب واحدة تقريبا [2] .

---

(١) أى توليد روذابه ، زوج زال . وقصة زال وروذابه من قصص الحب فى الشاهنامه (انظر الشاهنامه العربية، نشر عبدالوهاب عزام، القاهرة ١٩٣٢ ، الجزء الأول ، ص٥٩ـ٧٨). والسيمرغ ، كما يقول عزام فى حاشية له فى ص ٥٦ ــ ٥٧ ، هو أحد الطير الخرافية التى يكثر ذكرها فى الأساطير الإيرانية الدينية والتاريخية ، وقد ترجمها الفتح بن على البندارى بالعنقاء فى ترجمته للشاهنامه . وانظر ما أشارت به العنقاء لتوليد روذابه فى ص٧٥و٧٦ : والظاهر أن كاتب المقالة يشير « برقص » زال وجوارى روذابه إلى مادار بينه وبينهن من « أخذ ورد » فى البستان (ص ٦١). (المترجم)

(٢) انظر هورتن ، المرجع المذكور ، ص ١١ .

وقد يكون الغزالى أعظم فارسى يمثل روح بلده ، يقصد المرء بذلك ما يقصده حين يقول إن القديس توماس مور قد يكون أعظم إنجليزى يمثل روح بلده . ويؤسفنا أن كلا الزعمين لن يحظى بحماس غامر بين جمهرة هذا الشعب أو ذاك فى يومنا الحاضر ، بل قد يستهدف لنقد مرير من علماء باحثين لا يحرك نفوسهم فى الأغلب شىء مما كان الغزالى ومور يضعانه أسمى موضع . وقد كان الغزالى ، مثل مور ، ينتمى إلى حضارة ومجتمع يتجاوزان حدود الإقليم الواحد ، ويكتب فى أغلب الأحيان بلغة تفهمها مختلف شعوب ذلك المجتمع وتلك الحضارة ؛ ونبذ ، مثل مور أيضا ، النجاح الدنيوى نبذاً استوقف الأنظار عندما تعارض وحبه لله[1] ، ولكن لم يكن الرجلان فى تأملاتهما الهادئة يقصدان قصداً إلى لفت الأبصار ؛ وأخيراً شابه مور إذ انتصر على كثير من الشرور التى طغت الآن أو تطغى سريعا على الأجيال التى تلته[2] بخلاص نفسه منها (ولكنه نصر لا يمت إلى هذه الدنيا) . وليس من المحتمل أن يجلب شىء من هذه الأشياء لأى من الرجلين إجلال الكثيرين من أهل بلده الآن أو حبهم ، ولكن يجوز لنا أن نؤمل أن تسفر الأيام فى تقلبها عن بعض التواضع من جهة وشىء من الغفران من جهة أخرى ، لا عن نقمة وانتقام إذ لا مجال لهما فى هذه الحال .

ولكننا نختار الغزالى ، رغم هذه العوائق ، لا لأنه قد يكون أعظم متكلم إسلامى (وهذا اللفظ لا يكفى بالطبع لوصفه حتى وإن قرن بلفظى « فيلسوف » « ومتصوف ») ،

---

(١) انظر عن الحب الإلهى عند الغزالى بحث فان دين برج Van den Bergh : The «Love of God» in Ghazali's Verification of Theology بمجلة Journal of Semitic Studies ، المجلد الأول (يناير ــ ديسمبر ١٩٥٦) ، ص ٣٠٥ ــ ٣٢١ . (المترجم)

(٢) ولكن ينسب نيكلسون (المرجع المذكور ، ص ٢٣٧) إلى الرومى ، لا الغزالى ، ميزة من هذا النوع .

ولـكن لأنه ، مثل مور ، يمثل أوضح تمثيل كل صفة من الصفات التى تعد مميزة لأهل بلده خلال عصور تاريخهم[١]. فى التقارب الملحوظ بين مجموعتى الصفات نجد الشرط الأول لـكل تراث .

إن حياة الغزالى ، ولا سيما الأزمة التى مربها ونبذه لمجد الدنيا ، موضع تمجيد منذ عهد طويل ، على الأقل فيما يتعلق بالحقائق المجردة ؛ ولـكن يصح لنا أن نقول إن الزمن الممتد من عصره إلى عصرنا لم يشهد جيـلا كجيلنا أقدر من كافة النواحى على تقدير القيمة الحقيقية لحياته ، فقد تحولت ثمارنا كثماره إلى رماد ، وإن لم تنهض من رمادنا العنقاء[٢]، إذ لم ينفخ الله فيها بعد . وكذلك فهم الناس جيدا على نحو موضوعى جوهر عمله وهو جمع الخيوط المتشابكة للحياة الدينية فى عصره ، ولا سيما خيط التصوف الغالب [٣] ، ونسجها بعضها فى بعض . ولـكننا نعنى هنا بأهمية حياته وعمله لنا من الناحية الشخصية القريبة .

---

(١) دعا صدق تمثيلهما لبلديهما بعض مواطنيهما إلى نسبة تراثهما إلى أنفسهم . انظر تشيمبرز Thomas More : R. W. Chambers (لندن، ١٩٣٥) .

(٢) طائر أسطورى ، هو الوحيد من نوعه ، عاش خمسة قرون أو ستة فى صحراء العرب، ثم أحرق نفسه لينهض من الرماد بشباب جديد ويعيش حلقة أخرى من العمر . (المترجم)

(٣) انظر جيوم ، المرجع المذكور ، ص ٢٦٩ ــ ٢٧٥ ، حيث تجـد دراسة موجزة بالغة الجودة لهذه الجوانب . وليس بين الـكتب التى ألفت عن الغزالى ما يضارع Pensée de Ghazzali لفنسنك (باريس، ١٩٤٠). فهو ينطوى فى صفحاته القليلة على قدر لا يكاد يصدق من الأحكام الثاقبة والنظرات النافذة . (المترجم : انظر لفنسنك أيضا On the Relation between Ghazâlî's Cosmology and his Mysticism ؛ أمستردام، ١٩٣٣) .

كان الغزالى ممتازا ، لا لأصالة كبيرة فى مذاهبه [1] ، ولـكن لما أدخله على دراسة (الكلام ـ الفلسفة) وممارسة التصوف من صفات الورع والحبّ والتواضع وحسن التقدير والموضوعية . فإذا أضيف إلى هذه الصفات علم غزير وشخصية جذابة بدا حلية ثمينة نادرة للإسلام يتمناها أى دين آخر .



(١) لم يكن كثير من الناس فى عصر الغزالى بطبيعة الحال يجدون مانعاً من ادعاء الأصالة لأى مذهب من مذاهبهم . وهــذه الرغبة فى الرجوع إلى مصدر فى الماضى ، وهى رغبة تنطوى فى جوهرها على تعقل واتزان ، هى التى أدت إلى حد ما إلى أن تنسب إلى الفلاسفة اليونان كثير من الأفكار الغريبة التى عرفتها العربية بعدهم .

الفصل السابع

اللغة الفارسية

ترجمة محمد كفافى

إن اللغة الفارسية (زبان فارسى) ـ وهو الاسم الذى يطلقه أهل إيران على لغتهم الجميلة ـ هى الآن اللغة الغالبة فى تلك البلاد التى كان لاسمها الشهير « فارس » وقعه فى خيال أوروبا خلال قرون عديدة . هـذه اللغة (ولغات كثيرة أخرى متصلة بها سوف نتحدث عنهـا بإيجاز فى الصفحات التالية) يمكن تتبعها فى وثائق مكتوبة خلال مدة تقرب من ٢٧٠٠ عام ، أى أننا نستطيع أن نرجع بها إلى الوراء حتى الوقت الذى تبدأ فيه معرفتنا باليونانية . أما قبل هذا التاريخ ، فإن المقارنة الدقيقة بين اللغة الإيرانية وغيرها من اللغات التى تتصل بها اتصالا وثيقاً تقدم لنا معلومات عن هذه اللغة خلال ١٣٠٠ عام أخرى سابقة على ذلك التاريخ .

إن السجلات المكتوبة ـ إذا استثنينا أقدم ما وصلنا من آثار هذه اللغة التى تجلت فى بعض الأسماء المسجلة ضمن نصوص مسمارية من أرض الجزيرة ترجع إلى أيام قورش الأول ـ تبدأ فى أوائل العصر الأكمينى بالنقوش المطولة التى تركها دارا الأكبر مسجلة على الصخور فى بيستون بالقرب من كرمانشاه . هذه المادة المكتوبة التى تخلفت عن العصر الأكمينى تبدو ضئيلة إذا توقعنا أن نجـد فى الفارسية القديمة أدباً يشبه ما نجده من آداب فى كثير من اللغات الحديثة أو بعض اللغات التى ازدهرت فى مراكز الحضارة القديمة مثل الهنـد والصين واليونان . وإن المواد التى

وصلتنا ــ إذا استثنينا النصوص الدينية ــ تظل نادرة حتى القرن العاشر الميلادى حين يبدأ ظهور الأدب الحى الذى أنتجته إيران فى القرون الوسطى. ولقد فُقد الكثير من آداب الإيرانيين خلال القرون التى مرت بين العصر الأكمينى وظهور الأدب الفارسى [فى القرن العاشر] . ولكن هذه الآثار الأكمينية القديمة تعتبر ذات أهمية كبيرة للباحث اللغوى المتخصص لا تقل عن أهميتها بالنسبة للمؤرخ . وإن الزيارات المتكررة التى يقوم بها العلماء لمناطق هذه الآثار للحصول على أية شواهد تفيد البحث العلمى لمستمرة حتّى اليوم ، وإن مثل هذه الزيارات لتدل دلالة واضحة على ما للمسائل التى سوف نتناولها بالدرس من جاذبية لا تنفد . وهناك صعوبات لا تزال تواجهنا حتّى اليوم فى تفسير أقدم النصوص وذلك بالرغم من مضى سنوات طويلة جرت فيها بحوث ودراسات وافية فى جميع فروع المعارف الإيرانية : لقد مضى على البدء فى تلك الدراسات مائة وثمانون عاما وذلك إذا أرّخنا ذلك البدء بعام ١٧٧٠ أى عند ماجعل انكيتل دى پرّون[١] لأول مرة النصوص الزرادشتية القديمة فى متناول الأوروبيين.

ولما كانت الدراسات الإيرانية ضرورية لأية دراسة كاملة للغات الهندية الأوروبية تلك التى كانت لغة الحديث حينا من الزمان فى بقعة من الأرض تمتد من أقصى بلاد الصين (فقد كان الألان[٢] يتكلمون الإيرانية حتى فى بكين أيام المغول) إلى الجزر الإيرلندية النائية فإن كل إنجليزى يدرس لغته يتحتم عليه أن يعرف شيئًا عن هذه

---

(١) Anquetil Du Perron انكيتل دى پرون : مستشرق فرنسى ، ولد بباريس عام ١٧٣١ ومات سنة ١٨٠٥ وقد اشتهر بترجمته الفرنسية لكتاب « زندر أفستا » وكان أول من نقله إلى لغة أوربية . المترجم .

(٢) الألان إحدى القبائل الآسيوية المحاربة . نزحت هذه القبيلة إلى الغرب عندما كانت الدولة الرومانية فى دور الانحدار . وكان لها وقائع كثيرة فى أوروبا . ولا يزال أحفاد هؤلاء فى القوقاز حتى اليوم . المترجم .

النقوش الإيرانية القديمة. ومثل هذه المعرفة بالإيرانيات تعد أكثر اتصالا بالدراسات الهندية ، والواقع أنه لا غنى إطلاقا للدراسات الهندية عن الدراسات الإيرانية . وللدراسات الإيرانية اتصال وثيق بتاريخ آسيا الوسطى فيما تلى ذلك من قرون (لمدة تزيد على ألف عام تمتد من ٣٠٠ ق . م إلى ١٠٠٠م) فقد تغلغلت فى هذه المنطقة قبائل إيرانية منذ زمن طويل .

وهناك صعوبة تواجه دارس الإيرانيات ينبغى الإشارة إليها فى أول هذا البحث هى مشكلة تفسير بقايا اللغة الإيرانية الموغلة فى القدم ، تلك التى بقيت مسجلة بما يقرب من سبعة وعشرين خطًّا ، وهذه اللغات لم يبق منها فى بعض الأحيان سوى كلمات منفردة وأحيانا أخرى بقيت لنا منها نصوص تتفاوت فى طولها. ولكن من بين هذه الخطوط العديدة نرى أن الخطوط التى استخدمها كتاب من العالم الإيرانى كانت تتكون فى غالبيتها من حروف ساكنة؛ ولهذا فهى عاجزة عن أن تقدم مفهوما صوتيا واضحا لأولئك الذين عاشوا بعد زمن كتابتها بقرون عديدة . ولهـذا فإن الضرورة قد أملت على الباحثين بذل جهد كبير فى توجيه الشواهد لمعرفة نطق كل كلمة وصيغتها(١) وإن البحث المفصل عن الأدلة أوجد بين أيدينا كثيرا من البحوث المتعلقة بهذه المسائل وإن بقيت هناك مشاكل لازالت تنتظر حلا. ولم تنته بعد المرحلة الأولى فى سبيل حلها ألا وهى جمع الدلائل والشواهد التى تعين على ذلك . ولقد كان المشتغلون فى هذا الميدان الأخير قلة بالرغم من أهمية العمل ؛ فليس هناك بين دارسى الإيرانيات من يستطيع أن يزعم أنه يعرف أية لغة إيرانية مالم يكن قادرا على أن يستعرض جميع مراحل تطورها منذ أقدم عصورها حتى الوقت الحاضر فضلا عن إحاطته بكل الفروع التى انقسمت إليها تلك اللغة، ولعلنا نلحظ أيضاً كيف أن المنطقة التى انتشرت فيها

---

(١) Form

اللغات الإيرانية قد انكمشت فى القرون الأخيرة إلى حد أنه لم يبق اليوم إلا قطران هما فارس وأفغانستان يقف كل منهما وحده محافظا على ذلك اللون من الإيرانية الحية الذى شاع فى أرجائه يؤيدهما بعض التأييد ما بقى حيا من اللغة الإيرانية فى القوقاز وتاجيكستان .

ولعل من المفيد أن نلاحظ فى أول هذا البحث أن اللغة هى الكلام المنطوق وليست النص المكتوب الذى لا يعدو أن يكون سجلا غير كامل لما يجرى به القول . فهناك عوامل سياسية أو اجتماعية قد تصل بشكل من أشكال الحديث إلى مكان السيطرة ، وقد تضعفه وتبقيه فى صورة مكتوبة حتى يصبح فهمه غير مستطاع إلا بعد أعوام من الدرس . ولكن اللغة تعيش فى أفواه الناس ، تعيش وتنمو مادام الأطفال يتلقونها عن أمهاتهم . و بالإضافة إلى ذلك فانه قد يتعذر علينا أن نجد لغة لا تتصل بما يكون لها من لهجات مختلفة تعيش معها جنباً إلى جنب . وكما تنطبق هذه القاعدة على كثير من الأماكن فقد انطبقت بدورها على فارس : ففى غرب الإقليم الذى سماه اليونان «فارس» انتشرت اللغتان الميدية والفارسية أيام الأكمينيين وخلفتهما اللغة البرثية التى انتشرت أيام أسرة الأشكانيين وجاءت بعد ذلك لغة فارسية أخرى انتشرت فى القرن الثالث الميلادى أيام الأسرة الساسانية حيث نجد الفارسية الأصلية قد امتزجت بعناصر برثيــة من الشمال وعناصر صغدية من الشمال الشرقى . وإلى هذه الفارسية ، التى كانت مزيجا من لغات ثلاث ، أضاف مقدم الإسلام مادة عربية غزيرة تبدو الآن بارزة الأهمية . وعلى الرغم من التفاعل القوى بين تلك العناصر الأربعة ، فقد أصبح من الممكن الآن ـ بعد ما قام به علماء الإيرانيات من عمل دائب خلال ستين عاما مضت ـ أن نميز بين هذه العناصر المختلفة .

فلننظر أولًا إلى اللغة الفارسية الحديثة التى أصبحت لغة الحديث والكتابة فى فارس خلال الألف سنة الماضية . إننا إذا أخذنا نصين من هذه اللغة الفارسية

(زبان فارسی) وحللناها لنكتشف أصول الأجزاء التى تدخل فى تكوينهما وجدنا هذه اللغة إيرانية فى جوهرها وقد نمتّها وأغنتها مواد لم تكن فى الأصل منها إلا أنها أصبحت محكمة الاتصال ببناء اللغة إلى حد أنها تبدو بحق ملائمة له كل الملاءمة .

لقد كتب أبو القاسم الملقَّب بالفردوسى الإهداء الأول لملحمته « الشاهنامه » فى عام ٩٩٩م . وقد قص الشاعر فى كتاب الشاهنامه كل أساطير بلاده الرائعة ومن بين هذه الأساطير قصة رستم بطل ساكا[1] . وقد صوّر الفردوسى فى الأبيات التالية حزن رستم بعد أن انجلت المعركة بينه وبين ابنه سهراب ـ الذى لم يكن معروفاً له ـ عن مقتل الإبن بيد أبيه :

چو بشنيد رستم سرش خيره گشت
جهان پيش چشم اندرش تيره گشت
همى بى تن وتاب وبى توش گشت
بيفتاد ازپاى وبى هوش گشت
بپرسيد از آنپس كه آمد بهوش
بدو گفت بانالة وباخروش
بگوتاچه دارى زرستم نشان
كه گم باد نامش زگرد نكشان

* * *

عنـد ما سمع رستم ذلك حارت رأسه
وأظلمت الدنيـا أمام عينيـه

---

(١) ساكا أو شاكا اسم لبضع قبائل غزت الهند من آسيا الوسطى . ويطلق أيضاً على تلك القبيلة التى غزت الهند بين ١٤٠ ، ١٣٠ ق . م . المترجم .

فوهن جسمه وأصبح لا قوة له ولا بأس
وسقط فاقد الوعى
وعند ما عاد رستم إلى وعيه سأل سهراب
وخاطبه فى أسى وأنين :
« قل لى أية علامة لديك لرستم ؟
محا الله اسمه من بين الأبطال »

فإذا نظرنا إلى هذه القطعة من الناحية اللغوية وجدنا أنها فارسية بحتة . فنحن نستطيع أن نجد أقدم الصيغ اللغوية لكل كلمة من كلمات هذه القطعة دون أن نترك فارس . وليس نظم الفردوسى على أية حال خلوًا من الألفاظ العربية الدخيلة التى جاء بها الدين الجديد . ولكن من السهل علينا أن نجد قطعاً فارسية بحتة من هذا النوع فى منظومته . إن المخطوطات التى وصلتنا هى بطبيعة الحال أحدث بكثير من زمن الفردوسى ؛ ولهذا فقد خضعت لشىء من التجديد ولكنا إذا استخدمنا الأدلة اللغوية بحكمة استطعنا أن نعرف النطق التقريبى الذى كان متداولًا أيام الفردوسى . فبدلا من صوتى اللين المركبين *ai* ، *au* اللذين كانا فى الفارسية القديمة وجدنا عنده صوتين بسيطين أحدث منهما تاريخا هما *ē* ، *ō* ومنهما جاء الصوتان *i*- *u*- فى الفارسية الحديثة . وكلتان مثل تاب ، تاو بمعنى قوة تمثلان اشتقاقين بسيطين من المادة تو « أن يكون قويا، أن يملك القوة » ومن المادة نفسها مضافاً إليها المقطع القديم « $\check{\text{i}}\text{s}$ » الذى ألحق بآخرها تجىء كلمة توش بمعنى قوة . وإذا استثنينا تغييرات صوتية معينة فإننا نجد أن صيغ الكلمات هى نفس الصيغ التى لا تزال مستخدمة حتى اليوم .

ولننظر بعد ذلك إلى نص مأخوذ من أحد الكتاب المعاصرين. إننا هنا سنلاحظ بوضوح تأثير ألف عام من الثقافة الإسلامية :

چون بعضی از مطالب که عرض خواهم کرد نظریست وممکن است بامذاق وعقیدهٔ بعضی اشخاص صاحب نظر موافق نیامد امید وارم از شنیدن این عقاید ملول نشده روش تساهل پیش گیرند .

« لما كانت بعض المطالب التى أريد عرضها نظرية ومن الممكن ألا تجىء موافقة لذوق بعض الأشخاص من أصحاب النظر ولا لعقيدتهم فلى أمل ألا يملوا سماع هذه العقائد وأن يسلكوا سبيل التساهل » .

فهنا لدينا نص غنىّ بالعناصر الدخيلة (فأكثر الكلمات الهامة به عربية) وقد أضفى عليه ذلك تنوّعاً وفخامة صوتية يدركها القارئ حتى لو كان أجنبيا . فمثل هذا التطور أدى بالضرورة إلى استبعاد العناصر الإيرانية البحتة وهو استبعاد يمكن تجنبه إذ أن الأفكار التى يعبر عنها هذا النص يسهل التعبير عنها بلغات فارسية أقدم من ذلك دون حاجة إلى كلمات أجنبية . فأصبحت الفارسية نتيجة لهذا اللون من التطور لغة تشتمل على نوعين من المفردات اللغوية ، وهذا من وجهة النظر اللغوية المطلقة يجعل اللغة قادرة على أن تعبر بطريقة أقوى تأثيراً . وهـذا يطابق ما نراه فى الإنجليزية من عناصر لغوية ثلاثة هى الإنجليزية الجرمانية المحلية ، والإنجليزية النورماندية التى ترجع إلى العصر الوسيط ثم ثروة المفردات اللغوية ذات الطابع العلمى التى جاءت من اللاتينية (وعن طريقها أيضاً دخل الكثير من الكلمات اليونانية إلى الإنجليزية لأول مرة) . فكلمتان تكادان تكونان من المترادفات يمكن التمييز بينهما إذا استخدمت كل منهما فى إطار لغوى يعاون على تبيين مدلولها بدقة . وعلى أية حال ، فإننا سنرى عند مقارنة الفارسية الحديثة بالإيرانية القديمة أن الفارسية الحديثة قد فقدت حريتها القـديمة فى استخدام المشتقات التى كانت تنشأ من إضافة ألفاظ تعبر عن الاتجاه إلى أوائل مواد فعلية . فكلمات مثل فرا (إلى الأمام) ، أز (خارج ـ فوق) ، هَمْ (معا) ، نى (أسفل ، تحت) ، أپا (بعيداً عن) ، أَبى (نحو) ، پاتى (إلى ـ عكس ـ

بدلا من) ، أنا ، أنو (فى حذاء) ، أَدى (فوق) پَرَا (بعيداً عن) ، فِى (منفصلا عن) أو مركبات من هذه الكلمات مثل « فِى ـ آ » أو « أدى ـ آ » لم تعد تستخدم بحرية لتحدد معانى الأفعال . فلم تبق فى الفارسية الحديثة شأنها فى ذلك شأن الفارسية الوسطى إلا مقاطع معينة من هذا النوع لا تنفصل عن الأفعال ؛ وبهذا فقد تخلت الفارسية الحديثة عن مصدر غنى من مصادر التعبير . ولكن هذه اللغة قد حافظت لحسن الطالع على مصدر آخر من مصادر الغنى فى التعبير ألا وهو الحرية الكبيرة فى تركيب الأسماء . لقد بقيت كلمات مركبة قديمة مثل سوار (فارس) وهذه الكلمة هى « أَسَّبارا » بالفارسية القديمة ، ولم تعد الأجزاء التى تتكوّن منها هذه الكلمة متميزة ولكن طريقة التركيب بين الأسماء ظلت متبعة كما أنه يمكن تطبيقها على الكلمات الأصيلة والدخيلة على السواء .

والآن لابد لنا أن نرجع إلى الوراء حتى نصل إلى أقدم ما نعرفه من النصوص الإيرانية وننظر إلى أصل هذه اللغة الفارسية الحديثة فى نقوش الأكمينيين . هذه النقوش الأكمينية تبدو محدودة للغاية إذا قورنت بلغة حديثة غريزة النصوص ؛ ذلك لأنها ليست مسجلة إلا على الصخور وأحجار البناء وآنية الزهر . يضاف إلى ذلك أن هذه النصوص ليس من المستطاع قراءتها بسهولة نظرا لعجز الخط المسمارى عن التعبير عن الأصوات فهو ـ إذا استثنينا حرف الحركة $\bar{a}$ إلى حد ما ـ فإنه لا يستطيع أن يعبر عن كميات أصوات اللين التى نعرف أنها كانت موجودة فى زمن سابق على العصر الأكمينى ولا زلنا نستطيع ملاحظتها بوضوح فى الفارسية الحديثة (بل فى لغة الحديث الفارسية المعاصرة حيث نجد أن نوع الصوت $\bar{u}$ فى بود (كان) يختلف عن $\bar{o}$ فى شُدْ (ذهب) وهاتان الكلمتان كانتا فى الفارسية القديمة « بوتا » ، « شُتَا ») كما أن هذا الخط المسمارى يعجز أيضاً عن بيان المقطع الذى ينطق فيه صوت اللين فإننا نستطيع من الناحية النظرية أن نقرأ كَرَتَ (عمل) بطرق عدة ولابد لنا

من تقييم الأدلة الأخرى إذا قررنا أن ننطق هـذه الـكلمة كَرْتَ وهو النطق الذى يشبه كَرْد فى الفارسية الحديثة أو كِرْتَ (براء مقطعية) وهو النطق الذى ترجحه أدلة أخرى .

ولقد ذكر دارا فى وصفه لبناء قصره فى سوسة معلومات مفصلة عن العمل والعمال الذين قاموا به ومصدر المواد التى استخدمت . فنحن نقرأ فى السطور رقم ٣٧ ـ ٤٠ :

kāsaka hya kapautaka uta sinkabrūš hya ida kṛta hauv hačā Suguda abariy kāsaka hya axšaina hauv hačā (H)uvārazmiyā abariy hya ida kṛta.

« إن الحجر البللورى الأزرق والسنجابى الأحمر اللذين شكلا هنا أحضرا من بلاد الصغد ، أما الحجر البللورى الأزرق الداكن الذى شُكِّل هنا فقد أحضر من خوارزم » .

فجميع الـكلمات التى استخدمت هنا تلعب دورا كبيرا فى اللغات الإيرانية التالية بالرغم من أن التوسع فى استخدام علامات الإعراب سرعان ما توقف .

فـكلمة « كَپَوْتا » (أزرق ، رمادى) هى فى الفارسية الحديثة « كَبُود » ، وكلمة سِنْـكَابْرُش (حجر أحمر) هى فى الفارسية الحديثة شَنْـگَرْف ، وكلمة « هَچا » (مِنْ) هى فى الفارسية الحديثة « از » (وهى كلمة لم تتغير كثيراً فى اللغة البلوخية فهى بتلك اللغة « أچ ») وكلمة « بر » (يحضر) هى باللغـة الفارسية الحديثة وغيرها من اللغات الإيرانية الأخرى « بر » .

ولننظر أيضاً إلى نص ثان من طراز آخر يسجل فيـه خشيارش أعماله الدينية (فى الوثيقة التى تذكر فى العادة باسم « نقش دَيْفا ») .

uta antar aitā dahyāva āha yadā tya paruvam daivā ayadiy pasāva vašnā A[h]uramazdahā adam avam daivadānam viyakanam uta patiyazbayam daivā mā yadiyaiša yadāyā paruvam daivā ayadiy avada adam A[h]uramazdām ayadaiy.

« وكان من بين هـذه الأقاليم مكان عُبدت فيه من قبل آلهة مزيفة . فهدمت بإرادة أهورا مزدا بيت هذه الآلهة الزيفة وناديت : إنـكم لن تعبدوا الآلهة المزيفة . وفى المـكان الذى كانت تُعبد فيه الآلهة المزيفة عبدت أنا أهورا مزدا » .

فهنا نقابل الـكلمة الشهيرة « دَيْفا » ومعناها « إله مزيف ، شيطان » وهى التى صارت فيما بعد ديو (تنطق $d\bar{e}v$ لا $d\bar{\imath}v$) ؛ وكلمة ياد (عبادة) هى الصيغة الفارسية الحقيقية لـكلمة يازالتى تفيد التعبيرعن العبادة فى النصوص الزردشتية وفوق كل ذلك اسم أهورامزدا كبير الآلهة (بَـگا) وهو الذى سمى فيما بعـد هُرمُزد . فإذا أخذنا من الفارسية القديمة عبارة مثل « أفهيا رادى » ومعناها « له » وقارناها بمـا يقابلها فى الفارسية الحديثة « أورا » فإننا نستطيع أن نرى التطور الـكبير الذى طرأ على هـــذه اللغة ، فقد اختصرت خمسة مقاطع إلى مقطعين . وقد حدثت فى جميع الـكلمات تغييرات كبيرة لم تقتصر على إنقاص مقاطع الـكلمات وإنما تعدت ذلك إلى إفقاد الـكلمات صيغتها أوشكلها . ففى كلمة مثل « اَزْبَيَم » (ناديت أو دعوت) نجد أن هناك همزة مضافة إلى أول همزة الـكلمة تجعل زمن الفعل « زَبَيَم » محــددا بالماضى ، وهـذا الفعل لو استخدم بدون الهمزة لأفاد المضارع العام (أنا أنادى) أو المستقبل (سأنادى) أو صيغة التوكيد (لأنادينّ) وكذلك صيغة الماضى (ناديت) . ولـكن هذه الهمزة قد اختفت من جميع اللغات الإيرانية الحديثة ماعدا لغة واحدة هى تلك التى يجرى الحديث بها فى وادى يَغْناب بالقرب من سمرقند .

وإلى جانب النقوش الأكمينية وصلنا أدب إيرانى قديم أكثر نصوصا هوما حوته الـكتب الزردشتية المقدسة . ونحن الذين نزور مقام متراس(١) على الحائط الرومانى بشمال انجترا لسنا بطبيعة الحال أقل اهتماما بقراءة ماقاله الوابذة الزردشتيون القدماء عن

---

(١) (Mitras)

اليزاتا[١] ميثرا من الهنود الذين قرءوا عن ميثرا فى أقدم كتبهم أو عن ميهيرا الذى ذكر فى الروايات المتأخرة المأثورة عن غزاة الهند من الساكا . وفى مجموعة المنظومات التى تعرف بكتاب اليشتات وتكون جزءا من الأوستا نقابل الأبيات التالية فى تمجيد ميثرا .

Miθrəm vouru.gaoyaoitīm yazamaide
yō paoiryō mainyavō yazatō
tarō Harąm âsnaoiti paurva.naēmāṯ
aməšahe hū yaṯ aurvaṯ.aspahe
yō paoiryō zaranyō.pīsō
srīrå barəšnava gərəwnāiti
aδāṯ vīspəm ādiδāiti airyō.šayanəm səvištō

« إنا نعبد مثيرا ، صاحب المراعى الواسعة ، الأول ، المعبود المنتمى إلى العالم الروحى ، الذى يتجه نحونا فوق جبل هَرا قبل الشمس الخالدة التى تمتطى جوادا سريعا ؛ وهو الأول الذى يمسك قمم الجبال المجللة بالذهب ثم ينظر إلى الوطن الآرى كله ، هو ذو الجلال الأعظم » .

والأبيات التالية مقتبسة من مجموعة أقدم من المنظومات[٢] تنسب إلى زردشت نفسه :

taṯ θwā pərəsā ərəš mōi vaočā Ahurā
kō hvapå raočås-čā dāṯ təmås-čā
kō hvapå x^{v}afnəm-čā dāṯ zaēmā-čā
kə yā ušå arəm.piθwā xšapā-čā
yā manaoθriš čazdōŋhvantəm arəθahyā

« إننى أسألك فأجبنى بحق يا أهورا : من ذلك الصانع المبدع الذى خلق النور والظلمة ؟ مَن ذلك الصانع المبدع الذى خلق النوم واليقظة ؟ من الذى خلق الفجر والظهر والليل، تلك التى جعلت الرجل العاقل يتفكر فى صنعه؟ » .

---

(١) ايزد حسب تسمية تالية ومعناها الكائن المعبود .

(٢) هذه المنظومات هى الجاثات أقدم أجزاء الافستا .

فهنا نرى كلمات كثيرة تظهر فى مصادر أحدث تاريخا من تلك النصوص إلى جانب علامات الإعراب الكثيرة التى أبقت عليها هـذه النصوص الأوفستية أكثر مما أبقت عليها الفارسية القديمة . فـكلمة پرس -paras بمعنى « يسال » هى فى الفارسية الحديثة پُرْس وكلمة رَوُّچه -raočah بمعنى « يوم » هى الآن « روز » (ولـكنها فى البلوخية روچ « roč ») ، وكلمة دَا « يخلق » بقيت فى « نهادن » بمعنى « يضع » ، وكلمة خشپا -xšapā بمعنى ليل هى شب . والنطق فى لغة قديمة هو بالضرورة أمر غير مقطوع به فى كثير من تفصيلاته .

وعلى الرغم من أننا لا نعرف أجرومية اللغة الفارسية القديمة ولا اللغة الأوستية معرفة كاملة نظرا لقلة النصوص فإننا نرى أن هذا النحو يقف عند نفس المرحلة من التطور التى بلغتها أجرومية أقدم اللغات الهندية . فقواعد هذه الأجرومية تشتمل على ثمان حالات للاسم وعلى نظام للأفعال كثير التعقيد لا يكتفى فيـه بإمكان التعبير عن الأمور المتعلقة بالمضارع والمـاضى والمستقبل ولـكنه يُمَـكِّن من التمييز بين طرق عديدة للتعبير مثل الإرادة والقصد والرغبة والإمكان وذلك بوضع نهايات مختلفة للأفعال. وقد اختفت هذه الصيغ فى فترة تالية من تاريخ الفارسية وكان ذلك بسبب اختفاء حروف الحركة من المقاطع الأخيرة للـكلمات ولـكن التعبير عن هذه المعانى ظل ممكنا بوسائل أخرى منها استخدام المقاطع التى تلحق بأوائل الـكلمات أو الصيغ التى تدخل فيها الحروف أو الأفعال المساعدة ، ولقد تفوقت الفارسية الحديثة على غيرها من اللهجات الإيرانية فى تـكوين طراز لغوى تخلو فيه الأسماء من الملحقات التى تدل على حالة الاسم. ومن أمثلة ذلك أن المقطع الذى يلحق بآخر الأسماء « ان » الذى بقى فى الفـارسية الحديثة كان فى الفارسية القديمة «أنام» يلحق بآخر الأسماء ليفيد الملـكية أو ليدل على المضاف إليه) لم تبق له دلالته التى تبين ملـكية الاسم أو الإضافة إليه كما هو الحال فى شاهان شاه (ملك الملوك) أو موبدان موبد (كبير الموابذة) ولـكن هذا المقطع

أصبح يلحق بالاسم ليفيد الجمع فى حالة الفاعلية . وقد أصبح التعبير عن حالات الاسم الآن بالتوسع فى استخدام الحروف وهو أمر لم يبلغ فى الفارسية القديمة درجة كبيرة من التطور .

إن النصوص الفارسية القديمة وكذلك الأوستا لا تمثل على أية حال أقدم ما نعرفه من اللغة الإيرانية . ومما تجدر ملاحظته أن النصوص الهندية القديمة تتفق مع الإيرانية القديمة فى الكلمات الآتية : پِتَر (أب) ، ماتر (أمّ) ، آپ ـ (ماء) ، ڤَكْ -*vak* (يتكلم) ، كَرْ (يعمل) ، رَمْ (يستريح) ، تَرْ (يعبر) ؛ وأن الكلمات الإيرانية هفهَر (أخت) ، مِثْرا -*miθra* (صداقة) ، پُثْرا -*puθra* (ابن) ، رَثَا -*raθa* (عَرَبة) ، دَرًّا (عجيب) ، هَزَرًّا (ألف) تختلف عن نظيراتها فى الهندية القديمة خلافاً صوتيًّا فقط ، هذه الكلمات بالهندية القديمة هى : سفَسَر ، مِتْرا ، *mitra* ، پُتْرا -*putra* ، رَثَا ، -*ratha* ، دَرْسَا ، سَهَسْرَا . وكذلك تتشابه العلامات الدالة على حالات الأفعال إلى حد بعيد بين الهندية القديمة والإيرانية القديمة (فى الهندية *bharar* « حَمَلَ » تقابل فى الإيرانية *barat* وفى الهندية أسڤو *aśvo* التى تصير فى حالة المفعولية أَسْڤَم *aśvam* « حصان » تقابل فى الإيرانية أسپو *aspō* ، أَسْپَم *aspam* ولهذا يتضح فى الحال أن مسألة العلاقة بين اللغتين فى هذه الناحية لا يمكن أن يقف البحث فيها عند هـذا الحد . وفى الحق أنه بعد مائة وخمسين عاما من البحث القائم على المقارنة الدقيقة أصبح من المحقق أن العلاقة بين هاتين اللغتين تشبه ما يكون بين لغتين شقيقتين ، فكل منهما تلقى ضوءًا على تطور الأخرى من عصر هندى إيرانى مشترك يستطيع الدارس أن يمضى إلى ما وراءه حتى يلتقى اللغة الأصلية التى نسميها الهندية الأوروبية ، ولغتنا الإنجليزية جزء من فصيلة اللغات الهندية الأوروبية (أصابه الكثير من التطور) .

فإذا والينا البحث فى تاريخ اللغة الفارسية الحديثة وأردنا أن نحدد علاقتها

باللهجات الفارسية الأخرى فإن العصر الوسيط الذى يقع بين العصر الأكمينى والعصر الإسلامى يقدم لنا مادة أغزر فى أشكال أكثر تنوعا. فيمكننا الآن أن نستخدم الفارسية والبارثية التى ترجع إلى العصر الساسانى تلك التى حفظتها لنا النقوش الملكية والنقوش الخاصة وما خلفه أتباع زردشت ومانى وأتباع الكنيسة المسيحية من كتابات بتلك اللغة. أما اللغة الصغدية التى ترجع إلى منطقة كانت مرقندا الشهيرة، (سمرقند فيما بعد) عاصمة لها فقد عاشت فى لهجات ثلاث بل إنها لا تزال حتى اليوم فى وادى يغناب. وإذا توغلنا فى الاتجاه شرقا، نجد فى المدينة القديمة خُتَن اللغة الإيرانية التى كانت تتحدثها إحدى قبائل ساكا التى كانت تتجول فى آسيا الوسطى وقد أصبحت هذه اللغة مجهولة فى وطنها القديم حيث حلت محلها التركية. وقد أسفر التنقيب الأثرى خلال هذا القرن عن زيادة معرفتنا بالإيرانية خلال عصرها الوسيط زيادة كبيرة وذلك باكتشاف مخطوطات وخاصة فى إقليم سمرقند الذى يقع فى آسيا الوسطى ومخطوطات من إقليم خوارزم ترجع إلى القرن الحادى عشر الميلادى.

ولنبدأ أولا بدراسة اللغة الفارسية فى كتاب مانى الشهير «الشابورقان» (كتاب شابور) الذى أهداه إلى الملك شابور الأول. فنحن نقرأ فى هذا الكتاب ما يلى:

’wd ’č ps pr’whr w’d ’wd ’č ps w’d rwšn ’b ’wd
’č ps ’b ’dwr ’pwwr ’ws pymwxt hynd ’wš ’dwr pd dst d’št ’wd ’br
’hrmyn ’wd dyw’n prnft ’wš zd
(uδ az pas frawahr wāδ uδ az pas wāδ rōšn āβ
uδ az pas āβ āδur āfur u-š paimōxt hend u-š āδur paδ dast dāšt uδ
aβar Ahrmen uδ dēwān franaft u-š zaδ)

«وبعد الأثير كان خلق الريح، وبعد الريح النور وبعد النور الماء وبعد الماء النار؛ فلبس هـــذه العناصر ثم أمسك بالنار فى يده وتقدم نحو أهريمن والشياطين وضربهم».

أو استمع إلى أحد هذه التشبيهات الطريفة التي جاء بها ماني :

Or listen to one of the favourite parables of Mani:

''wn č'wn r'zmyrd ky q'myd ''ywn qyrdn 'wd pd xwyš d'nyšn'z 'bč'r 'y gwnggwng 'y ''ywn pd qdgqdg w̄ pd drdr hmbxšyd 'wd dysyd

(āōn čaōn rāz-merd kē kāmēδ āywan kerdan uδ paδ xwēš dānišn az aβzār ī gōnaγ-gōnaγ ī āywan paδ kaδaγ-kaδaγ uδ paδ dar-dar hambaxšēδ uδ dēsēδ)

«مثل البنّاء الذي يرغب في أن يبني قصرا ، فهو بمعرفته الخاصة يوزع المواد المختلفة اللازمة لبناء القصر على الغرف المختلفة والأبواب ثم يبني . »

فنحن نلحظ هنا لأول وهلة الطابع الإيراني البحت لهذه اللغة . فهذه النصوص المانوية مكتوبة باللغة الفارسية البحتة إذا استثنينا بعض المصطلحات الفنية المأخوذة من اللغة السريانية (وهي اللغة التي كان ماني يكتب بها في غالب الأمر) وهذا القول ينطبق على النصوص المانوية البرثية التي نجدها مكتوبة باللغة البرثية البحتة . ومما سوف نلاحظه أيضاً أنه في وقت مبكر كوقت ماني كانت قد اختفت من الأسماء العلامات التي كانت تلحق بأواخرها لتبين حالاتها الإعرابية . أما نظام الأفعال فقد تغير. أما المادة اللغوية فنجدها تحتفظ بمجموعة من الصيغ البسيطة والمركبة والمشتقات .

والمنظومة المطرزة (الأكروسية)[1] التالية وهي مأخوذة من نص مانوي بالبرثية تكفي لتبين لنا طبيعة هذه اللغة (وقد أضفنا إليها هنا أصوات اللين بينما هي في الأصل مكتوبة بالحروف الساكنة وحدها) .

až rōšn uδ yazdān hem uδ izdeh būδ hem
až hawēn amwašt aβar man dušmanēn u-šān ō murdān ēδwāst hem
āfrīδ ku bōxtaγ bawāh kē man grīw bōžāh až wiδang
baγ hem kē zāδ až baγān
bāmēn humyāst uδ nīsāγ
brāzāγ xumbōy uδ hužihr
bēδ awās gaδ hem ō niyāz

(١) المنظومة المطرزة (الأكروسية) هي تلك التي لو أخذنا الحرف الأول من كل بيت منها وقرأنا هذه الحروف عموديا تكونت منها الكلمة التي تدور حولها المنظومة . المترجم .

« إننى من النور ومن الآلهة ولـكنى قد أصبحت منفيا مبعدا عنهم . إن أعدائى من فوق وقد قادونى إلى الموتى . بوركت أنت يامن سوف تخلص نفسى من المرض . إننى إله ولدت من آلهة ، لامع وهاج مضىء مشرق طيب الرائحة جميل ، ولـكننى الآن قد حل بى الشقاء » .

فـكلمة « باى » هنا (باگا بالفارسية القديمة ومعناها إله) تظهر بصيغتها البرثية وهى تشبه « باى » فى الفارسية . وكلمة گاد بمعنى ذهب (وهى بالفارسـية القديمة گاثا) تباين « شد » بالفارسية .

فمثل هذه النصوص الفارسية والبرثية المـكتوبة بخط ما نوى مقتبس من الخط السريانى ذات نغمة مألوفة لنا . ولقد هيأ لنا وضوح مادتها أساسا متينا لدراسة هـذا العصر الوسيط من تاريخ اللغة الإيرانية الغربية . وإن الصعوبات التى بقيت دون حل تـكمن فى الـكلمات التى فقدت أو التى لم يتم الـكشف عنها بعد. ولـكنه لم يتم حتى الآن نشر كل مواد هذه اللغة ؛ ولهذا فإن بعض المشاكل التى لم تحل بعد سوف تحل بالتأكيد . فعلى هذا الأساس المتين يمـكننا أن نمضى بثقة لنفسر مجموعة أخرى غزيرة من مواد الفارسية الوسطى حفظها لنا الزردشتيون . فقد عرفت هذه منذ مدة طويلة فى مكتبات أوروبا كما أنها معروفة بين المعاصرين من أتباع زردشت فى كل من فارس والهند ولـكنها ظلت إلى اليوم تواجهنا بصعوبات لا نجد لها حلا . هنا فى هذه النصوص التى تعرف بالنصوص البهلوية بقيت لنا مواد فارسية ترجع إلى تاريخ مبكر وهى ذات أهمية كبيرة بالنسبة للدراسات الإيرانية . إن هذه اللغة غزيرة النصوص ونحن نجد عند كتاب هذه اللغة فلسفة أرسطو محورة وذلك إلى جانب مناقشاتهم اللاهوتية العديدة .

إن الصعوبة الأولى التى تواجهنا عند تفسير النصوص البهلوية تجىء من الخط . فهو خط مأخوذ عن الخط الآرامى ومع ذلك نقص فيـــه عدد الصور التى تُمَيَّزُ بها

الحروف الساكنة من ٢٢ فى الخط الآرامى إلى ١٤ فى الخط البهلوى . ونحن نرى هذا الخط نفسه فوق نقود الساسانيين وفى نقوشهم ولكن قبل أن يبلغ فيه النقص فى صور الحروف هذا الحد ، ولم يقع فيه اشتباه إلا بين حروف الواو والراء والعين . ففى البهلوية صور لأحرف ساكنة يمكن قراءتها بطرق عديدة من الناحية النظرية ولابد من شواهد خارجية لكى نعرف الحرف المقصود فى كل حالة . ولقد زودتنا المصادر الفارسية والپرثية التى اكتشفت حديثاً بالكثير من هذه الشواهد الضرورية. إن النظام الهجائى للحروف الساكنة فى اللغة البهلوية يمثل نظاماً أقدم من ذلك الذى استخدم فى النصوص المانوية ويشير إلى أن استخدامه ربما يكون قد وُرِث عن القرن الرابع قبل الميلاد . وعلى هذا فإن الكلمة التى تكتب *t'pyt* أو تارة **tāpēt* – وهى مأخوذة من صيغة أقدم هى **tāpayati* بمعنى « يحترق » – تتمشى مع نطق **tāβēδ* فى العصر الساسانى (وهى التى يمكن كتابتها « تاڤيذ » بالحروف العربية) .

أما الصعوبة الثانية فقد نشأت عن استخدام ألفاظ من الآرامية بطريقة تسمى هزوارشن (التفسير) وهى طريقة تخلفت عن زمن كان الكتاب فيه يقرءون نصا آراميا بحتا لا باللغة الآرامية وإنما بتلاوة تفسيره بالفارسية. وقد تركت طريقة هزوارشن[1] آثارا فى اللغة الصغدية وخاصة فى النصوص البوذية ولكننا لا نراها فى الكتب المانوية سواء منها الفارسى والپرثى وهى التى تتمثل فيها لغة الحديث الفارسية فى القرن الثالث الميلادى .

---

(١) قال ابن النديم فى كتابه الفهرست : « ولهم هجاء يقال له زوارشن يكتبون به الحروف موصول ومفصول وهو نحو ألف كلمة ليفصلوا بها بين المتشابهات مثال ذلك أنه من أراد أن يكتب كوشت وهو اللحم بالعربية كتب بسرا ويقرأ كوشت على هذا المثال ... وإذا أراد أن يكتب نان وهو الخبز بالعربية كتب لها ويقرأه نان على هذا المثال ... وعلى هذا كل شىء أرادوا أن يكتبوه إلا أشياء لا يحتاج إلى قلبها تكتب على اللفظ » ص ١٤ من طبعة أوروبا . المترجم .

وسوف نتبين هذا النوع من الفارسية فى الـكتب الزدشتية فى الفقرة القصيرة التالية المقتبسة من الأسطورة الحماسية التى تصور الصراع بين فيشتاسپ وأرجاسپ :

AHL 'rč'sp hywn'n hwt'y MN kwp sr nk's 'BDWNyt W YMRWNyt AYK ZK MNN AYT MNN ZK 10 ŠNTk lhyk MNN gwrtw'r SWSYA d'ryt W gwrtw'r zyn YHSNNyt k'ryč'r 'wgwn tg 'BDWNyt čygwn zryr 'yr'n sp'hpt krt

(pas Aržāsp Xyōnān xvatāy hač kōf nikās kunēt ut gōβēt ku ān kē hast kē ān dah-sālak rahīk (rētak) kē gurtvār asp dārēt ut gurtvār zēn dārēt, kārīčār ōgōn tak kunēt čēgōn Zarēr Ērān spāhpat kart)

«ثم نظر ارجاسب، سيد الخيونيين[1] من قمة التل وقال : من ذلك الغلام الذى هو فى العاشرة من عمره ، وله جواد محارب ، وله ذراع محارب ، وهو يحارب ببسالة كأنه زَرير قائد فارس ؟»

إن الفارسية والپرتية لهجتان مرتبطتان ارتباطا وثيقا وهما قريبتان من الفارسية الحديثة . ولـكن اللغتين الصغدية والختنية تمثلان صورتين تختلفان عن ذلك كثيرا . ولدينا دليل هام يهدينا فى نطق اللغة الصغدية ويتمثل ذلك فى اللغة الصغدية الحديثة التى يجرى الحديث بها فى وادى يغناب وأهمية هذه بالنسبة للصغدية كأهمية الفارسية الحديثة بالنسبة للفارسية التى سبقتها . ولـكن لم يعثر للغة الخُتَنية التى ربما ترجع أحدث نصوصها المعروفة إلى القرن العاشر الميلادى ـ على ما يمثّلها فى الوقت الحاضر.

وفيما يلى قطعـة من أسطورة رستم ، بطل قوم ساكا كما سجلها مخطوط صغدى (وقد كتب هذا المخطوط مثل كثير من المخطوطات الإيرانية بالحروف الساكنة فقط) .

---

(١) Chionians

rxšy ptysynt ywnyδ zyw'rt xw rwstmy č'n'kw 'xw δywt wyn'nt ywnyδ zγ'rt ZKw β'r'yčyk' βr'p'š'nt wβyw xw pδ'k 'sp'δ 'yw δβty m'yδ w'β'nt 'kδry ZKn srδ'nk'xw myn'y 'nxw'st 'sk'tr rm m'xw 'nx''s LA pršt't βwt k'm šw kδ'č LA w'č'yδ k'm šw ms LA ptxwyδ' p'rZY m'yδ zw'ntkw 'ny'sδ' ktšw 'βzyw βr's zγw tr'nk' 'nšt'ymn xw δywt 'yw δβty šyr wys'yδ'nt sγtm'nn p'zγyr'nt wytr'nt ZKn rwstmy 'škrčy wyδ'γty zyw'rt 'xw rwstmy

« فأطاع الرخش . وفى الحال رجع رستم . وعنـد ما رأى الجن ذلك بادروا بضرب الفارس وخادمه بسرعة وصاح كل منهم بالآخر : إن شجاعة الرئيس قد خارت ولن يستطيع أن يمضى فى حربه معنا . فلا تدعوه يهرب ولـكن لاتقتلوه ؛ خذوه حيا حتى نستطيع أن نعذبه عذابا أليما ؛ وجعل كل واحد من هؤلاء الشياطين يجتهد فى تحريض الآخر ؛ وتنادوا جميعا ثم بدءوا يتابعون رستم . فدار رستم . »

وفى أية قطعة من الصغدية توجد تفاصيل كثيرة تتعلق بالنطق لم يقطع فيها بعد برأى ولهذا قد لا يكون من الصواب أن نطبع نصًّا صغديا وقد أضفنا إليه حروف الحركة . ولـكنّ هناك كثيراً من الـكلمات التى نستطيع أن نحدد نطقها بشىء من الثقة ؛ من أمثلة هـذه *δēwt*, ديوت (شياطين) *vēnant* ڤينانت (رأوا) ، *vēsēδant* ڤيسيدانت (نادوا) ، *aspāδ* اسپاد (جيش) ، انجاس (عراك) ، *ēw δiβ(i)ti* , ايودِب (ى) تى (الواحد الآخر) ، *žuvantak-* زُڤَانْتَكْ (حى) . وهجاء الـكلمات فى بعض الأحيان عتيق إلى حد أن *'kw*- المأخوذة من *akam*- فى الإيرانية القـديمة يمكن أن تـكتب *'w*- وبهذا يفهم منها *u*- أو *ō*, or *-au*- . وهناك من الشواهد ما يدل على أن *nt*- القـديمة كانت تميل فى نطقها نحو *nd*- ولربما كانت الحركتان *u*- و *i* اللتان تجيئان فى آخر الـكلمات لا تزالان تنطقان . ومما لا شك فيه أننا نجد فى الصغدية الحديثة أن الحركة « i » التى تجىء فى آخر الاسم (فى غير حالتى الفاعلية والنداء) لا تزال

تنطق . وينبغى أن نلاحظ أيضاً أن *-ak* ، *-aku* ، *-'y* ربما كانت كلها تنطق بطريقة واحدة كما تنطق *-ai*, أو *ē̤* ـ أو حتى *-ĕ*, كما أن *-a* حين كانت تقع فى أول الكلمات مثل *akθri* ، *askātar* ، *aspāδ* وغيرها كانت تنطق صوتاً غير محدد يشبه *ŏ* أو *ə* ومن الممكن أن *ē̤* كان ينطق *i* .

وعلى هـذا فإنه يمكننا ـ مع كثير من التحفظ ـ أن نوضح نطق النص الذى ذكرناه آنفا بالصورة التالية :

Raxši patẹ̄sint. yōnēθ zẹ̄wart xō Rustami. čāno axō δēwt wēnant yōnēθ žγar tawu βārēčīk frāpāšant uβiu xō paδak aspāδ. ēw δiβ(i)ti maiθ βāwant: akθri awin sarθang xō mēnē anxwâst, askātar ram māxu anxās nē parštāt βaut-kām, šu kaδā-č nā wāčēθ-kām, šu mas nā patxwayθa, pār-ti maiθ žuwantaku anyāsθa, kat-šu aβžiu frās žaγu trang anštāyman. xō δēwt ēw δiβ(i)ti šir wẹ̄sēδant, saγtmān pāžγērant, wẹ̄tarant awin Rustami aškarči. wēδaγtē zẹ̄wart xō Rustami.

إن ألفاظ هذه اللغة إيرانية بحتة ولكنها قد بقيت منفصلة عما مرت به الفارسية ـ وهى اللغة الإيرانية الغربية ـ من تطور . ويبدو أن هـذه اللغة الصغدية لم تكن مفهومة لدى الفرس . ومن المحقق أننا نجد لدى الصغد كتباً لغوية تشرح الكلمات الفارسية والپرثية فى نصوصهم المقدسة . وفى اللغة الخوارزمية التى ترجع إلى القرن الحادى عشر الميلادى ـ وهى لغة لم نعرف بعد الشىء الكثير عنها ـ تتجلى علاقة واضحة بينها وبين اللغة الصغدية . كما أن قسما من مفردات اللغة الفارسية الحديثة قد اشتق من الصغدية ومن هذه الكلمات « سَرْچيك *sarčīk* » (رئيس) وهى بالصغدية *srč'yk* ، « مُلْ *mul* » (نبيذ) وهى بالصغدية *-mwδ* ، « پَساك *pasāk* » (وشاح من الأزهر) وهى بالصغدية ، *'ps'k* ، « لِنْج *-linǰ* » (الجذب ـ الشد) وهى بالصغدية *-δynč*, وكثير غيرها .

لم يبق أمامنا من اللغات الإيرانية الوسطى التى وصلتنا منها نصوص كثيرة إلا

تلك اللغة التى كانت ذات يوم لغـة الحديث فى مملـكة خُتَن القديمة التى كانت تقع فى جنوب غربى كاشغر . وتتصل بهذه اللغة لهجة ذات طابع متميز كانت لغة الحديث فى إقليم تُمْشُق الذى يقع فى شمال شرقى كاشغر ولـكننا لم نعثر حتى الآن إلا على القليل من نصوص هذه اللغة وهذا القليل الذى وجدناه لم يُفسر بعد تفسيراً كاملًا . ونحن نعرف لغة خُتَن فى صورتين متميزتين بوضوح إحداها أقدم من الأخرى . فأما اللغة الخُتنية القديمة فـكانت لا تزال تحتفظ بالـكثير من العلامات النهائية التى تلحق بالأسماء والأفعال ففيها سبع حالات للاسم ونظام صرفى واسع للأفعال . وتمثل الأبيات التالية ـ التى وجدت بين مجموعة قديمة من النصوص المذهبية لا تتصل بها ـ المرحلة القديمة للغة الختنية :

hämätä pasālä ysama-śśaṃdya grāmu hämätu
späte vicitra banhya vätä hārsta biśśa
karāśśä hasprīye haphastäre käḍe
padamäna banhyānu padamä būtte śśäru
viysāṃgye hārste khähe āṣṣiṃgye ggarẹ
murka briyūnu käḍe bagyeṣṣāre pharu
ūtce pastāte ysarūñe tcalce jahe
haḍā pätaunda ysaṃthauna ttauda käḍe
   sūdhạna raispūrri byahi ṇetsve vyūhä:nä
   kalyāṇa ysīrī bve'yāscye raha baidä
   ttu bījạṣa pyūṣṭa strīyi hīyai ysairka
   ysīrai pana tta ye se mū cī ṣṭā nväśe

«لقـد حل الربيع فشاع الدفء فى الأرض . وازدهرت الأزهار المتعددة الألوان فوق جميع الأشجار . وامتدت النباتات المتسلقة فهى تهـتز كثيرا مع الريح . وقد تعطر الهواء بعبير الأشجار . وازدهرت أحواض اللوتس والغدران والبرك والتلال . والطيور تترنم بالـكثير من الألحان العذبة . وفاضت مياه النبع على جانبـه الأخضر والسحب تجلل السماء نهارا أما الأحياء فيشعرون بالحر الشديد » .

ويمكننا أن نعرف بالتقريب نطق الختنية بدراسة الأصوات التى تعبر عنها الحروف البسيطة والمركبة فى الخط الهندى الذى كتبت به هذه اللغة . فنحن نجد فى هذا الخط نظاما مفصلا للتعبير عن الحروف اللينة والساكنة يمكن أن يعاوننا الخط الهندى البراهمى على إدراك مدلولاته بصورة غير وافية .

أما المرحلة المتأخرة من اللغة الختنية فتبدو فيها هذه اللغة وقد نقصت فيها العلامات التى تميز حالات الأسماء والأفعال (علامات الإعراب) كما حدثت بها تغييرات صوتية كثيرة . والقطعة التالية مقتبسة من قصة الأمير سُذَنا Prince Sudhana وعروسه الجنية مَنُهَرَا Manoharā عندما أمسكها الصياد .

sūdhạna raispūrri byahi ṇetsve vyūhä:nä
kalyāṇa ysīrī bve'yāscye raha baidä
ttu bījāṣa pyūṣṭa strīyi hīyai ysairka
ysīrai pana tta ye sè mū cī ṣṭā nväśe

« خرج الأمير سُذَنَا مع أتباعه للصيد ، سعيد القلب فى عربته الباهرة فسمع صيحة امرأة يشيع فيها الألم . فساءل نفسه : من تلك التى تنوح هنا ؟ » .

فى هذا النص نجد *netsve* (خرج) وهى بالختنية القديمة ، *naltsute* ، *ye* (كان) وهى بالختنية القديمة *vāte* ، *ṣṭā* وهى بالختنية القديمة *ṣṭānä* وعلى هذا فإن هذه الألفاظ قد نقصت مقطعا على الأقل فى الختنية الجديدة عنها فى القديمة . كما أن التغييرات الصوتية التى طرأت على المقطع الأخير بسّطت علامة الإعراب تبسيطا جوهريا . فبينما نجد فى الختنية القديمة أن علامة الإسم المفرد فى حالة الفاعلية هى ä ـ وتختلف عن علامته فى حالة المفعولية وهى u نجد فى الختنية الحديثة علامة واحدة للاسم المفرد فى كلتا الحالتين هى *ā*- . أما علامة الملكية أو الإضافة فى الختنية القديمة وهى *ānu*- ـ فقد تطورت إلى *ām*- ، *ā* ـ .

وعند ما نجيء إلى استعراض الإيرانية فى الوقت الحاضر نجد أنفسنا أمام ميدان متعدد الجوانب تتزايد فيه المواد التى تعاوننا على فهم صيغ الحاضر كما تعاوننا على فهم صيغ الماضى . إن اللغة الفارسية الحديثة قد تطورت من لغة تكثر فيها علامات الإعراب إلى لغة تحليلية بسيطة واضحة، خلصت من قيود علامات الإعراب التى كانت فى الإيرانية القديمة ولكنها قادرة على التعبير ـ بنظام صرفى جديد للأفعال وبكثرة استخدام الحروف ـ عن نفس الأفكار التى كانت اللغة فى العصور السابقة تستطيع التعبير عنها بوسائل أخرى . وعند نهاية العصر الساسانى فى القرن السابع الميلادى كانت الفارسية قد بلغت حدًّا من التطور يزيد على ما بلغته لغة البشتو الأفغانية فى الوقت الحاضر . فإذا استثنينا الهجاء المستخدم فى الكتب الزردشتية البهلوية ونقود الساسانيين ونقوشهم نجد أن الفرق بين الفارسية فى العصر الساسانى (وقد تكشفت لنا بوضوح حالتها فى القرن الثالث الميلادى من كتب المانوية) والفارسية فى أوائل العصر الإسلامى لا يتعدى الخلاف بينهما فى المفردات اللغوية . فقد أدخل الدين الجديد فى الفارسية كثيراً من مصطلحاته اللغوية ، كما أصبحت العربية ـ بوصفها لغة كتاب الإسلام المقدس ـ مصدراً زاد اعتماد الفارسية عليه فى الحصول على التعابير الجديدة . إن الهجاء الذى يعتمد فى أغلب الحالات على تسجيل الحروف الساكنة دون اللينة قد أخفى التغيرات الصوتية ولكن ظل الصوتان اللينان *ai* ، *au* اللذان كانا فى الفارسية القديمة حتى القرن الثالث عشر الميلادى ممثلين بالصوتين *ē* ، *ō* كما أن الصوت الفارسى القديم الذى تمثله *-t-* الواقعة بين حرفى حركة ظل ممثلا بالصوت *dh* (ذ) الاحتكاكى[1] كما يتجلى لنا فى باذ التى أصبحت فيما بعد باد بمعنى ريح (وأصلها *vāta-* . بالإيرانية القديمة) . وفى المخطوط الشهير الذى يرجع إلى عام ٩٧٠م ويشتمل على رسالة الهروى فى الطب لا نزال نجد (كما فى بَنَفْش فام «بنفسجى اللون»)

---

(١) Fricative

صوت β ف الاحتكاكى الذى حل محل b ، p الواقعين بين حركتين فى الفارسية القديمة . ولكن الكتّاب أدخلوا فيما بعد طريقة أحدث فى الهجاء ولم يعد فى مقدور الخط أن يميز بين أصوات اللين المختلفة .

ومن هذه الفارسية الحديثة أخذ كثير من الكلمات طريقه إلى الإنجليزية ، فمنها ما انتقل غرباً بمراحل بطيئة عن طريق العرب ثم سكان القارة الأوروبية ومنها ما جاء عن طريق الهند . ومنذ أقدم عصور الاتصال بين فارس واليونان وما تلا ذلك من عصور ونحن نجد آثاراً للكلمات الفارسية فى الغرب . فكلمة 'satrap' التى دخلت الإنجليزية من اليونانية القديمة *satrapēs* (حاكم إقليم) كلمة ميدية تقابل فى النقوش الأكمينية الكلمة الفارسية خشَچپاڤا *xšaçapāvā*: وقد انتقلت هذه الكلمة إلى الهند (*kṣatrapa*) ثم إلى أوربا كلها . وأما الكلمة الإنجليزية 'peach' فلا زالت تحفظ لنا اسم الإقليم القديم پارسا Pārsa الذى أخذ منه الفرس اسم إقليمهم الحديث فَارْسْ فالخوخ ثمرة فارسية جاءت إلينا باسم لاتينى هو *persica* (فارسى) . أما الاسم الذى نسمى به فارس 'Persia' فقد وصل إلينا عن طريق اللهجة الأيونية الأغريقية(١) وهى التى كانت تنطق صوت *ā*- الأجنبى عنها بصوت *ē*- أما كلمة فارْسْ الحديثة فقد عُدّلت بدورها عن طريق نقلها بالعربية . أما « روح الشر » عند الفرس فقد أصبحنا نعرفه جيدا باسم « اهرمن » والزهرة التى يطلق عليها لَيْلَك أو لَيلُك(٢) فقد أخذت اسمها من صيغة فارسية تعبر عن اللون الأزرق الداكن الذى يطلق عليه بالهندية « *nīla*- نيله » (أزرق داكن) أى زهرة النيلوفر ويطلق عليها بالإنجليزية water lily (nenuphar) فهى بالفارسية « نِيلوفر » وهذه بدورها مأخوذة من كلمة هندية

(١) Ionian Greek

(٢) Laylok, lilac

هى *nīlotpala*. وكلمة caravan وهى التى كان معناها فى أول الأمر جماعة أو فريق من البدو مشتقة من الـكلمة الفارسية القديمة -*kāra* « فريق » أما كلمة caravanserai ومعناها النزل الذى ينزل به المسافرون (سراى بمعنى غرفة) فهى إحدى الـكلمات الشائعة عندنا . وينبغى أيضاً ألا يغرب عن بالنا أن فارس قبل الإسلام قدمت لأرمينية مجموعة كبيرة من ألفاظ الحضارة ولا تزال هذه الـكلمات حية تستخدم حتى اليوم . فعندما أراد الأرمن منذ وقت قريب أن يضعوا كلمة تعبر عن « قافلة من السفن » اخترعوا تركيباً هو *navakaravan* (قافلة من السفن) أخذوه من المنصر الفارسى فى لغتهم .

وعنـــــد ما عادت الفارسية — فى عصر نهضتها أيام السامانيين — إلى ما كان لها فى سابق العهد من صدارة أدبيـة وذلك بعد أن غزتها اللغة العربية فإنها بدأت تؤثر فى جيرانها من الترك . إن الترك الذين تركوا عقيدتهم القديمة المرتـكزة على القام[1] والشَمَن[2] أو دياناتهم من مانوية وبوذية ومسيحية وتركوا مع هذه الأديان ما كان يتعلق بها من آداب واعتنقوا الإســلام وجدوا فى اللغة الفارسية معينا لا ينضب للتعبيرات الممتازة عبروا بهـا عن الأفـكار الجديدة التى أرادوا التعبير عنها بالتركية . وفى الأناضول نرى الشعر التركى فى طوره المبـكر وقد صيغ من عبارات فارسية ومع الفارسية جاءت العربية بمالها من ثروة لغوية تفوق ما للفارسية . واليوم — بعد فترة من القوميـة المتغالية — نرى أن اللغة التركية

---

(١) qams

(٢) الشمنية هو الدين القديم الذى كانت تعتنقه شعوب أورال — التاى . وقد أضعف تقدم البوذية والإسلام والمسيحية هذا الدين ولـكن لا يزال هناك من يعتنقونه حتى اليوم يقوم هذا الدين على نوع من الشرك ترجع أصوله إلى عبادة مظاهر الطبيعة فهو يعترف بآلهة عدة وبإله واحـد فوق هذه الآلهة . والشمن هو رجل الدين عندهم . المترجم .

لا تزال مرصعة بالألفاظ الفارسية . فى هذه اللغة نرى الألفاظ الفارسية الذائعة ماه (شهر) ، مِيَان (وسط) ، مِيْ (خمر) ، جَان (نَفْس) ، جهان (عالم) ، دِلْبَر (فاتن) ، خام (نيئ ، غير ناضج) ، هم (نفس) ، أفسون (سحر) ، مِهر (خاتم)، آتش (نار) ، خانه (منزل) ، كمر (حزام) وكثير غيرها ، وفى بعض الأحيان نصادف هذه الألفاظ فى تراكيب فارسية وقد أصبحت — ومعها الكثير من العربية — جزءًا جوهريا من اللغة التركية الغربية .

وقد قامت اللغة الفارسية بغزوة أخرى جديرة باهتمامنا وذلك عند ما دخلت الهند مع الغزو التركى ثم المغولى . فقد ظهرت لغة جديدة هى الأُردية من اللغة المحلية لإقليم دلهى (دهلى) الذى كان يعرف من قبل باسم Śaurasenī Prakrit, . وقد طعمت هذه اللغة المحلية التى كانت لاتزال حافلة بحركات الإعراب بكلمات وجمل فارسية كانت العربية قد دخلت فيها من قبل . فى القطعة القصيرة التاليــة المقتبسة من أول إحدى القصص نرى العنصر الأجنبى كبيرا دون شك :

ط

وهان كا ايك بادشاه بَهُتْ برا اور نامور تها ، بسببى عدل وانصاف كى دعيّت. أسى بهُت دوست ركهتى تهى ، أس كاجاه وجلال أور خزانه ولشكربى شمارتها

« كان لذلك المكان ملك عظيم شهير . وكان الناس يحبونه كثيرا بسبب عدله وإنصافه وكان ذا جاه وجلال ومال وجيش لا يحصيه عد »

فإذا استثنينا هنا الكلمات « وهان » (هناك) ، « أسْ » (هو) ، « برا » (عظيم) ، « بهت » (كثير) ، « أُور » (واو العطف) ، و الأفعال «تها، تهى» (كان) ، « ركه » (يحفظ) نجد أن جميع الكلمات أجنبية ، فارسية أو عربية .

ولكن الفارسية ليست إلا شكلا واحـدا من أشكال عديدة للإيرانية لا يزال

الحديث يجرى بها حتى اليوم. ومع هـــذا فقد نالت الفارسية شهرة فى آسيا لا تتمتع بها أية لغة إيرانية أخرى فى الوقت الحاضر. ولـكن لغة الألان وهى لغة إيرانية تختلف عن الفارسية اختلافا بيّنا هى التى حافظت فى صورتها الحالية على طابع القدم أكثر من أية لهجة أخرى من اللهجات الإيرانيـــة . فإن حالات الاسم الثمانية التى عرفتها الإيرانية القديمة ونقص عددها كثيرا فيما تطور عنها من لهجات ظلت تستخدم فى لغة الألان أو الآس الحديثة وتعرف باللغة الإسّتية ـ وهى لغة يجرى بها الحديث فى القوقاز ـ ولازمت هذه الحالات الإسّتية فى صورتها الحالية وإن كانت التغييرات الصوتية قد أرغمت المتـكلمين بهذه اللغة على أن يبتدعوا وسائل أخرى للتعبير عن حالات الاسم . أما النظام الصرفى للأفعال فقد تغير أيضا تغيرا كبيرا عن نظيره فى الإيرانية القديمة ومع ذلك فقد تجدد بصورة قوية جملته قادرا على أن يعبر بوضوح عن الفروق المعنوية الدقيقة التى كان الفعل فى الإيرانية قادرا على التعبير عنها ، وأصبح الفعل فى هـذه اللغة دقيقا واضحا وذلك بفضل مجموعة كبيرة من السوابق التى تلصق بأوائل الأفعال هى : .(*a*, *är*, *ära*, *ra*, *ba*, *ärba*, *-i* , *ni*, *fä*, *fäl*) .

وإن البـاحث ليجد فى السوابق التى تسبق الأفعال علامة من أوضح علامات القدم فى اللغة الأُسّتية . فهنا نجـد السابقة التى تسبق الفعل وقد فصلت بينها وبين الفعل كلمة أو كلمتان وهـذا ما نجده فى أقدم النصوص الإيرانية التى وصلتنا . فـكما نجـد فى الأوستية *paitī stavas ayenī* (إننى سوف أقترب ناطقا بالمديح) كذلك نجد فى اللغة الأسّتية *ba jimä co* (اذهب إليـه) ، *ärba mäbäl xaudtäj* (وقع فوق) ، *ni 'j art kodta* (أشعل فيها النـار) . ومثل هذا الفصل بين السابقة التى تسبق الفعل وبين الفعل نجده فى أقدم النصوص الهندية واليونانية ولـكنه قد زال من الفـارسية الحديثة . ومما تمتاز به الأسّتية عن شقيقاتها من اللهجاب الإيرانية أن بها علامة تعريف كاملة التطور هى

«i» . وقد بُدىء فى القرن الماضى بتسجيل أدب مروى بتلك اللغة يتجلى فيه الابتكار بوضوح كما أنه يجرى الآن تعديل كبير بهـذه اللغة لتتلاءم مع الاستعمال فى الوقت الحاضر . ونحن نجد قصص أبطال نَرْت(١) بارزة بين كثير من قصص هذه اللغة. والفقرة التالية مقتبسة من إحدى هذه القصص :

ustur i Närtmä därägdär ādtäj duuä mugkāgi Bōriātä āmā Äxsärtäg-kātä, Bōriātä ādtäncä bērä mugkāg, Äxsärtägkātä bā ādämäj mink'i, äxsārä bā iting mugkāg

«كان بين النرتيين العظماء أسرتان أخريان من ذوى المكانة هما أسرة بورياتا Bōriātä وأسرة أَخْسَر تاجكاتا .Äxsärtägkātä فأما أسرة بورياتا فكانت أسرة كبيرة . وأما أسرة أَخْسَرتاجكاتا فكانت قليلة الرجال ولكنها كانت أسرة قوية بشجاعتها » .

وفى اللغة الأسِّتية نجد كثيرا من الكلمات التى ليس لها نظير فى اللغات الإيرانية الأخرى . وبعض هذه الكلمات ينتمى إلى القوقاز حيث يجرى الحديث الآن بهـذه اللغة . وأما الكلمات العربية التى اعتدنا أن نراها فى الفارسية الحديثة فنادرة فى الأسِّتية . ففى العبارة التى ذكرناها آنفا نجد كلمة آدم بمعنى (بشر) ولكن هذه الكلمة وقليل غيرها تشترك فى معرفتها جميع الشعوب الإسلامية . وعند مااقتبست الأسِّتية فى الماضى كان الاقتباس من جاراتها وهى الآن تقتبس من الروسية بصورة أوفى . وإن طابع القدم الذى يتجلى فى الأسِّتية يجعل لهذه اللغة أهمية خاصة عند دراسة مجموعة اللغات الإيرانية. وهناك سبب يجعلنا نحن البريطانيين أكثر اهتماما بالأسِّتيين وأسلافهم الألان والسرمتيِّين وذلك عند ما نذكر أن الرومان أحضروا إلى بريطانيا فى القرن الثالث الميلادى ٥٥٠٠ من السرمتيِّين (وهناك أقام هؤلاء السرمتيون) .

---

(١) Nart

إنه لم يكن من المستطاع فى هذا البحث الموجز أن نذكر الكثير من اللهجات وذلك فى محاولتنا إلقاء ضوء على تطور الفارسية بالاستشهاد بما يتصل بها من لهجات. ولكن هناك ثلاث لهجات أخرى سجلت بها كتابات تستحق بجدارة أن نبرزها هنا . فلهجة البشتو فى أفغانستان لقيت فى السنين الأخيرة قبولا شعبيا أوسع وذلك بعد أن أعرض عنها المتعلمون فترة من الزمان . ومن بين كتب الشعر فيها منظومة خوشحال خان خَطَك التى ترجع إلى زمن أورنجزيب :

rā ša wārwa dā dāstān nēk wa bad pa kšē bayān
ham ʿabrat ham naṣīḥat dai prē di pōh šī dānāyān

« تعال ، استمع إلى هذه القصة . إنها تبين الخير والشر . إنها نذير وموعظة أيها العقلاء انتبهوا إليها . »

إن مما يلفت نظرنا فى الحال هو هذا الخليط الكبير من الكلمات الفارسية والعربية ، فكل منظومات خوشحال مليئة بمثل هذه الكلمات ، ولكن الخصائص المميزة للبشتو تتجلى بوضوح فى النظام الصرفى لأفعالها وبما لا يزال يلحق بأسمائها من علامات الإعراب المتعددة . وقد سجل بعض من زاروا القبائل البلوخية التى تتكلم لغة إيرانية من الطراز الغربى أشعاراً حماسية وأغانى وجدوها عندهم . وهنا أيضاً نجد أن لغة إيرانية أقدم من الفارسية قد تشبثت بالبقاء . فنحن ندرك إلى أىّ حد قاومت البلوخية التغيرات الصوتية عندما نجد رُچ *rōč* (يوم) وهى التى كانت بالفارسية روز (*rōž* ثم أصبحت رُوز *rūz* — لم تتغير كثيراً عن رَوْچا *rauča*- التى نراها فى النصوص الفارسية القديمة ، وعندما نجد أيضاً بَنْدگ *bandag* (رباط) وتشبه بندكا *bandaka*- (خادم) بالفارسية القديمة ثم عندما نجد كَپْتَا *kapta* (واقع) وهى كلمة « كَفْت » *kaft* وهى التى كانت معروفة كلفظ دخيل فى الفارسية الوسطى ثم لم تعد معروفة فى الفارسية الحديثة. وهنا أيضاً نجد كلمات كثيرة

قد دخلت هذه اللغة من اللغات المجاورة تمد دخيلة على ما ورثته هذه اللغة عن أصلها الإيرانى . ولـكن الأبيات الآتية دليل صادق على ما لهذه اللغة من استقلال أساسى :

kahnē ō kavōt muryānī
hāl mahramē dōstānī
dīrēŋ mizilō rahiyānī
gwar tau manī minnat āŋ savzēŋ mury
udrē až muryānī kamundēŋ kōhā
bi rō gwar mēravā dōstēyā
tau nindē manjava rāstiyā

«أيتها الحمامة الورقاء بين الطيور ، يا رسولا يني‌ء حبيبتى عن حالى ، طال مسيرك . عليك سلامى أيهـــا الطائر الرمادى اللون . طيرى من صخرتك المظلمة ، من صخرة الطيور الوعرة ، واذهبى إلى مقر حبيبتى وحُطى إلى يمين أريكتها »

فهنا نجد فى البلوخية عنصر اللغة السندية الأجنبى إلى جانب الـكلمات الفارسية والعربية المألوفة . ولـكن بقى فى هذه اللغة بعض علامات الإعراب التى كانت موجودة باللغة الإيرانية فى سالف عهدها وهى علامات لم يبق فى الفارسية أثر لها .

وللـكردية فى الغرب أيضا نصوصها المخطوطة وكذلك كثير من الفلـكلور . وهى تمثل تمثيلا جيدا مجموعة اللغات الإيرانية الشمالية الغربية ولـكنها مثل الفارسية خضعت لتغيرات صوتية واسعة مما يجعل البشتو والبلوخية تبدوان مفرطتى القدم إلى جانبها . والأبيات التالية من أسطورة مام ألان Mame Alan الحماسية (مكتوبة بهجاء أخذ الشيء الـكثير من نماذج تركية) :

hebūn sē qīzēn padiṣahē periyane
rojekā derketin, çūn ser kaniya gulane
ji xwe danīn postēn kewane
ketine nava hewza gulane

« كان لملك الجن ثلاث بنات . وذات يوم ذهبن إلى نبع الورد نخلعن ثيابهـن المصنوعة من ريش الطيور ونزلن فى نبع الورد » :

وليس من السهل أن ندرك لأول وهلة أن كِت -*ket* هى كَفْتْ *kaft* (واقع) المألوفة لنا فى نصوص أقدم للهجات الشمالية ، أو أن كِوانِ *kewane* (حمام) كلمة قريبة من كَپَوْتَ *kapauta* (أزرق رمادى) بالفارسية القديمة ، أو أن رُج -*roj* (أى رُزْ *rōz*) ومعناها (يوم) قريبة من رُچ *rōč* البلوخية .

وإلى هذه اللغات الثلاث التى لها آداب تطورت أو آداب فى طريق التطور أحب أن أضيف لغة وَكْهان العتيقة فى جبال البامير وهى التى لا نعرفها إلا مما نقله عنها الرحالون . فى هذه اللغة نجد پُتْر *pötr* بمعنى (ابن) بينما نجد پُثْرا-*puθra*- فى الأوستا ، پور *pūr* فى الفارسية وكذلك نجد مُرتك *mərtk* (ميت) ؛ نَيْد *δəγd* (ليل) ؛ نيدين - يوپك *naγdīn-yūpk* (ندى ، ماء الليل) ؛ دَيْد *naγd* (ابنة) وهى بالفارسية (دُخْت) ؛ پووَم *pūvəm* (أنا أشرب) وهى بالإيرانية القديمة پا -*pā*- ؛ زِم *zem* (ثلج) وهى بالأوستية زَيم *zyam* (زِمْ: شتاء) -*zim*- ؛ -*rəwəz*- (أن يطير) من -*fra-vaz*- وكثيراً غيرها من الكلمات الإيرانية ذات المظهر العتيق .

إننا بمقارنتنا الفارسية بهذه اللغات وبكثير غيرها من الصور المحلية للإيرانية نستطيع أن ندرك مكانة الفارسية فى المجتمع اللغوى بإيران والهند وننظر من هناك إلى أفق أرحب هو أفق اللغة الهندية الأوروبية . إن للفارسية مكانة رفيعة وأهمية كبيرة بين الدراسات الإيرانية . فإذا نظرنا إليها فى ميدان أوسع هو ميدان الدراسات اللغوية العامة نجد أنها تستطيع أن تعرض علينا تطوراً تم خلال فترة طويلة من الزمن ولغة من طراز معين ذات طابع يغلب عليه التحليل مع كل ما بقى فيهـا من مخلفات الماضى البعيد . ولعل تغيرها فى سالف العهد من لغة تكثر فيها علامات الإعراب إلى لغـة كانت قد تخلصت من علامات الإعراب التى تلحق بالأسماء فى القرن

الفارسية وصلتها باللغات الهندية الأوروبية الأخرى

الهندية الأوربية ×

الأصل المفقود

الهندية الإيرانية — السكوتشية الأجنية — الحيثية — الارمينية — التراكية الفريجية — الهلينية — الاليرية الفنيسية الألبانية — البلطيقية (لغة البندقية) — السلافية — الايطالية — الجرمانية — السكلتية

الهندية الإيرانية:

السكافرية
الأشكون
الكاتية
البراسون
الويجلية

الهندية
(الهندية الآرية)
السنسكريتية
البركريتية
البالية
الهندية
البنغالية وغيرها من اللغات الهندية الآرية الجديدة

الايرانية

١ — الفارسية القديمة
الأفستية
الميدية

٢ — الفارسية
البرثية
الخوارزمية
الصغدية
الختنية

٣ — الفارسية
السكردية
البلوخية
البشتو
الوكهى
الأستية

الثالث الميلادى يرجع من بعض الوجوه للأفق السياسى لهذه الامبراطورية الكبيرة التى كان على اللغة أن تخدمها .

والملخص التالى قد يعاون بعض الشىء فى توضيح العلاقة بين اللغات الإيرانية :

(١) العصر الأقدم (الإيرانية العتيقة) :

الفارسية القديمة فى نقوش الأكمينيين .

الميدية التى بقيت منها أعلام وبعض كلمات فى النصوص الآشورية واليونانية والفارسية القديمة .

النصوص الأوستية ، ولسنا على يقين من الإقليم الذى ظهرت فيه ولعله إقليم خورازميا (خوارزم) القديم .

(٢) العصر الوسيط (الإيرانية الوسطى) :

نصوص فارسية وپرثية من فارس الساسانية وآسيا الوسطى .

نصوص صغدية من آسيا الوسطى وفى الجبال الواقعة قرب سمرقند الخوارزمية وقد وجدنا مقتطفات منها فى مخطوطات عربية فقهية وغيرفقهية ترجع إلى القرن الحادى عشر الميلادى .

نصوص خُتنية من خُتن فى آسيا الوسطى كتبت فى فترة تتراوح بين القرنين الرابع والعاشر الميلاديين .

(٣) المرحلة المعاصرة (الإيرانية الحديثة) :

الفارسية وهى اللغة الشائعة فى فارس وقد دخل فيها الكثير من العناصر البرثية والصغدية .

الكردية فى فارس والعراق وتركيا .

البلوخية فى بلوخستان .

البشتو وهى اللغة الرئيسية فى افغانستان .

الوَ كْهِية وغيرها من لغات جبال البامير .

الصغدية الحديثة وهى لغة يجرى الحـــديث بها فى وادى يغناب بالقرب من سمرقند .

الأُسِّتية لغة الألان فى القرون الوسطى ، ويجرى الحديث بها فى القوقاز .

لهجات محلية عديدة يُتحدّث بها فى فارس وآذربيجان السوفيتية .



الفصل الثامن

* * * *

الأدب الفارسي
ترجمة محمد كفافي

لكي نجعل هذا المقال يقع في حدود معقولة ـ فإن أدب فارس والفرس أدب واسع يرجع إلى الوراء حتى عصور التاريخ الغامضة ـ فإنا نقترح أن نبحث في هذا المقال أعمال الفرس الأدبية في العصر الإسلامي (إلا أنه من الممتع أن ننظر إلى هذه الآثار الأدبية في إطار من إنتاج الفرس الأدبي فيما سبق ذلك من عصور) ، وندرس الخصائص العامة لهذه الآثار الأدبية حتى نرى ماهو فارسي خالص منها ، ونشير بإيجاز إلى ما أسهم به من إنتاج في الأدب العربي رجالٌ من أصل فارسي ، ونذكر في أثناء هذه الدراسة شيئاً عن الطريقة التي أثرت بها كتابات الفرس في تطور آداب الترك والمسلمين في الهند . ولكي نتجنب اللبس فإنا سوف نستخدم في هـذه الصفحات كلمة «فارسي» للدلالة على الأدب الفارسي الإسلامي ، أما الكتابات السابقة على ذلك فإنا سوف نسميها « كتابات إيرانية » عند ذكرها .

في القرون الثلاثة التي تلت الفتح الإسلامي لفارس (من القرن السابع إلى التاسع) اقتصر النشاط الأدبي في فارس على تسجيل النصوص الزردشتية المقدسة وروايتها ـ وهذا ما قام به رجال أصروا على التمسك بعقيدتهم الزردشتية ـ أو على تنمية الأدب العربي وتوسيعه وقد قام بهذا رجال أكثر من هؤلاء عدداً هم الذين اعتنقوا الدين الجديد ، بل قامت به الكثرة الساحقة من أهل إيران الذين كانوا على استعداد لخدمة

مصالح الدين الجديد دون إيمان عميق به أو تحمس له . كانت لغة الناس فى ذلك الوقت تتغير تغيراً عميقاً يشبه من وجوه كثيرة ما طرأ على لغة الإنجليز السكسون بعد الفتح النورمندى. فقد تخلصت الفارسية تدريجيا من علامات الإعراب التى كانت فى الإيرانية كما نمت ثروتها من المفردات اللغوية نموا عظيما باقتباس الآلاف العديدة من مفردات اللغة السامية التى كان يتحدث بها غزاتهم . فلما ظهرت الفارسية كأداة للتعبير الأدبى أثبتت إثباتا قاطعا أنها أروع أداء من أمها الإيرانية . ولربما قد أصبحت هذه اللغة ـ بعد أجيال من الصياغة والصقل ـ أعذب لغات الشرق وأجملها جرسا وصار فى مقدورها أن تكون أداة للتعبير عن أدب من أعظم آداب الإنسانية .

وقبل أن نبدأ بدراسة الكتب التى انتجتها فارس الإسلامية فإن من المفيد أن نستعرض بإيجاز ما تبقى من الأدب الإيرانى أو ماهو معروف منه. فترتيب العرض على هذا النحو يمكننا من إدراك الطابع الأدبى بصورة أوضح . لقد كانت إيران منذ أيام حكم الإكمينيين حتى آخر أيام أكاسرة الدولة الساسانيــة امبراطورية يقوم فيها ذلك الحكم الاستبدادى الذى عرفه الشرق القديم . لقد استطاع أفراد قلائل كانوا يملكون ثروة طائلة أن يبنوا حضارة مادية رائعة على أجساد الجماهير المعدمة . فكانت الثقافة فى جوهرها صادرة عن القصر ولم تكن هذه الصفة تتجلى فيها بوضوح أكثر من تجليها فى الكتابة . فإلى جانب الكتابات الأوستية التى كانت نصوصاً دينيــة لعقيدة تتجه دائما لصالح الأرستقراطية يفهمها ويفسرها فريق خاص من رجال الدين وتكتب بخط لا يفهمه الأميون من أتبــاع الدين ، كانت بقية الأدب الإيرانى تدور حول البلاط الإمبراطورى وتخدم مصالحه . وكان البلاط ـ حتى فى أيام الأكمينيين كما أخبرنا بذلك أجاثياس ـ يسجل حولياته الرسمية . وقد ظل هذا الإجراء متبعا أثناء حكم الأسر التالية . ومن هذه المواد ـ كما هو مفروض بوجه عام ـ استطاع جامع ، لم يُعرف ، أن يؤلف كتاب « خداى نامَغ » وذلك قرب نهاية العصر الساسانى . وهذا الكتاب

هو الذى ترجمه من الفارسية إلى العربية ابن المقفع الفارسى (ت ٧٥٧) وغيره والذى اتخذ فى النهاية شكلا جديدا وأصبح إحدى الملاحم العالمية الكبرى عندما تفتقت عبقرية الفردوسى (ت حوالى ١٠٢٠) عن نظم الشاهنامة الشهيرة . وعلى الرغم من أن كتاب « خداى نامغ » الأصلى قد فُقد ولم يبق منه إلا قطع من ترجمته العربية فإن ما بقى منه فى أيدينا كاف لأن يبين لنا طبيعة هذه القصة التى تتسم بالتحيزوالإفراط فى استخدام التعابير البلاغية ، ولابد أنها كانت ذات تأثير على العرب الذين لم يكن لهم تاريخ مسجل ولم يعرفوا قط ثوسيديدس[١] كمثال لما ينبغى أن تكون عليه كتابة التاريخ . أما ثانى الكتب الكبيرة التى صدرت عن فارس الساسانية فهو كتاب « آيين نامغ » وهو الذى ذكر عنه المسعودى أنه بلغ بضعة آلاف من الصفحات وأن ابن المقفع أيضاً ترجمة عن العربية ، وأنه ـ مثل « خداى نامغ » ـ قد فُقد ولم تبق منه إلا مقتطفات عارضة . وقد أضاف هذا الكتاب إلى القصة المنمقة التى روتهما الحوليات وصفا مفصلا للقواعد التى سارت عليها الامبراطورية فإلى جانب القواعد الحكومية استطرد الكتاب إلى الحديث عن فن القتال والرماية والعِرافة وغيرها من الفنون الرفيعة . وفى قسم خاص من هذا الكتاب هو « گاه نامغ » ذكرت مراتب الأرستقراطية التى بلغ عددها ستمائة مرتبة وفقا لارتفاع المنزلة . ومع أننا بكل تأكيد نأسف لضياع هذا العمل الكبير الذى يتجلى تأثيره بوضوح فى مجموعة من الكتب الفارسية ـ فضلا عن العربية ـ فإننا لحسن الحظ وجدنا فى « تنسر نامه » دليلا ماديا على ما كان عليه طابع هذا الكتاب وأسلوبه . « وتنسر نامه » هذا رسالة[٢] تضمنها كتاب « تاريخ طبرستان » لابن اسفنديار وردفيها أنها كتبت

(١) Thucydides

(٢) ترجم يحيى الخشاب هذه الرسالة إلى العربية ونشرها مع مقدمة لها بعنوان « كتاب تنسر » . وقد رد الخشاب فى مقدمته رأى كريستنسن القائل بأن الكتاب كان أيام أنوشروان . المترجم .

فى الأصل فى أوائل عصر الملك أردشير الأول (٢٢٦ ـ ٤١ م) ولكنها فى الحقيقة أنشئت أيام حكم خسرو الأول (٥٥٧ ـ ٥٧٠ م) كما أثبت ذلك كريستنسن[1] .

ويخبرنا المسعودى أنه « رأى فى سنة ٩١٥ فى اصطخر عند بعض أهل البيوتات المشرفة من الفرس كتابا عظيما يشتمل على علوم كثيرة من علومهم وأخبار ملوكهم وآبينهم وسياساتهم لم أجدها فى شىء من كتب الفرس كخداى نامه وآيين نامه وكاه نامه وغيرها ومصور فيه ملوك فارس من آل ساسان سبعة وعشرون ملكا منهم خمسة وعشرون رجلا وامرأتان قد صور الواحد منهم يوم مات شيخا كان أو شابا وحليته وتاجه ومخط لحيته وصورة وجهه . ثم إنهم كانوا إذا مات ملك منهم صوروه على هيئته ورفعوه إلى الخزائن كى لا يخفى على الحى منهم صفة الميت ، وصورة كل ملك كان فى حرب قائما ، وكل من كان فى أمر جالسا ، وسيرة كل واحد منهم فى خواصه وعوامه وما حدث فى ملكه من الكوائن العظيمة والأحداث الجليلة . وكان تاريخ هذا الكتاب أنه كتب مما وجد فى خزائن ملوك الفرس سنة ١١٣ هـ (٧٣١م) ونقل لهشام بن عبد الملك من الفارسية إلى العربية بأنواع الأصباغ العجيبة التى لا يوجد مثلها فى هذا الوقت والذهب والفضة المحلولين ونحاسه محكوك والورق فرفيرى اللون عجيب الصنع فلا أدرى أورق هو أم رق لحسن إتقانه »[2] ولقد كان جوتشميد[3] أول من أبدى الرأى بأن هذا الكتاب الفذ هو كتاب « تاغ نامغ » ـ كتاب التاج ـ الذى لم يبق منه بين أيدينا سوى مقتطفات ، وقد أيده فى هذا الاستنتاج اينوسترانتزف[4] وشايدر[5] وكرستنسن ومن الواضح أن عنوان هذا الكتاب « تاغ نامغ » كان فى ذهن مؤلف كتاب التاج العربى (ولعله الجاحظ).

---

(١) Christensen

(٢) أورد المؤلف هذا النص بشىء من الاختصار وقد رأينا إثباته كما ورد فى كتاب « التنبيه والإشراف » . المترجم .

(٣) Gutschmid (٤) Inostrantzev (٥) Schaeder

وإلى جانب هذه الكتب الرسمية التى أصدرها البلاط الامبراطورى فإن فارس الإيرانية كان لديها عدد من القصص التاريخية ومن أمثلة ذلك « كارنامغ أردشير بابغان » التى قارن إدوارد جرانفيل بروان فقرات منهـا بنظائرها فى الشاهنامه ؛ كما تركت لنا أيضاً معلومات عن بنـاء المدن ومجموعة منوعـة من الرسائل الصغيرة التى تتناول الأخلاق الحميدة وهى التى تعرف بأدب « النصح » (اندرز) ولا تزال لدنيا نماذج من هـذا الأدب . هذا النوع الأخير من الكتابات ـ الذى يعتبر « پندنامغ ِ بُزُرْ گْمِهْر » (نصائح بزرگمهر ، الوزير الحكيم لكسرى أنوشروان) أشهر مثال له ـ لونا من الإنتاج تميزت به العبقرية الإيرانية ، وكان له أكبر الأثر على آداب الإسلام التى ظهرت من بعده . فنحن مدينون لهذا اللون من الأدب بالمؤلفات التى تدور حول الأخلاق من «قابوس نامه» إلى « گلستان» ، فضلا عن الأشعار العديدة التى نظمت من القرن العاشر حتى يومنا هذا .

ولم يصل إلينا من العصور القديمة سوى القليل من الشعر ومع هذا فإن لدينـا بعض قطع من الشعر الحماسى الإيرانى بل إن لدينا مثالا لشعر المناظرة وهو شعر يجرى فيه الشاعر مجادلة على لسان متناظرين من الأحياء أو من غير الأحياء[١] وهذا أسلوب تقليدى محبوب فى الدعوة إلى الأخلاق الحميدة لا يزال حتى اليوم يلقى قبولا عظيما . وفى الأوستا نفسها أجزاء منظومة يصفها لنا ويليامز جاكسون بقوله : « إن البيت يتكون فيها من ثمانية مقاطع يشبه وزنها وزن منظومة كاليڤالا[٢] التى أصبحت

(١) من أمثلة ذلك قصيدة المناظرة بين الليل والنهار التى نظمها أسدى طوسى . المترجم .

(٢) Kalevala اسم لعملاق أسطورى فنلندى نظمت حوله مجموعة من الأشعار البطولية الفنلندية جمعها الشاعر الفنلندى إلياس لينرت Elias Lönnrot ورتبها وجعل منها منظومة حماسية قومية . المترجم .

مألوفة لنا عن طريق ملحمة لُنجفيلو[١] المسماة « هَيَاوَاثَا »[٢] وقد وضّح لنا ويليامز جاكسون هذه المقارنة بمقطوعة من يَشْت ميثرا :

« إن ميثرا الملك السماوى
يتقدم صاعداً جبل هارا بْتى
أمام الشمس الخالدة
التى تجرها الطيور السابحة
ميثرا ، المتقدم ، فى حلية من الذهب
يمسك بالقمم الجميلة العالية
ثم ينظر من هناك متعطفا
إلى الوطن الآرىّ كلّه
حيث القادة الشجعان فى المعركة
ينظّمون جنودهم الذين لا يحصيهم عدّ »

وفى السنين الأخيرة استطاع بنفنيست[٣] وكريستنسن أن يخرجا مقطوعات شعرية من بين ركام الكتابات البهلوية . وإن المثال التالى من ترجمة بنفنيست المبهجة ليعطينا فكرة طيبة عن طبيعة هذا الشعر ويشعرنا بالأسف لأن هذا القدر الكبير منه قد ضاع .

« الشمس المشرقة ، والبدر المتلألئ
يتألقان ويرسلان نورها وراء جذع هذه الشجرة ؛
الطيور تشدو وتحلق وقد عمها السرور ،
فالحمام يتخطر والطاووس يمشى مزهوًّا »

(١) Longfellow
(٢) Hiawatha اسم لرئيس من رؤساء الهنود الحمر نظم عنه الشاعر الأمريكى Longfellow فى عام ١٨٥٥ منظومة سماها باسمه وصور فيها بطولته . المترجم .
(٣) Benveniste

فنحن على يقين من أن هـذا القدر الـكبير من الشعر المبهج قد ضاع ، بل إننا لو صدقنا ذلك الوصف العارض لمجلس الشراب الذى أعده استياجس[١] لحفيده الشاب قورش كما رواه كسنوفون فى « تربية قورش » لعلمنا أنه قد فُقِد أيضاً قدر كبير يرجع إلى عصور سحيقة . فالصورة كما رسمها كسنوفون ـ بما فيها من سقاة يديرون الـكأس يتبعهم قورش الذى يقوم أيضاً بدور الساقى ـ يبدو أنها تؤكد إحدى شعائر أرستقراطية الفرس منذ أقدم العصور وتوقظ صدى من الغناء البهيج ظل يتردد خلال خمسة وعشرين قرنا . ويخبرنا آثيناوس[٢] أن چارس المتلينى سمع الفرس فى السنين الأخيرة من القرن الرابع قبل الميلاد يغنون قصة زريدرس[٣] وأُداتس وهى أسطورة رواها الفردوسى بعد ألف وثلاثمائة عام من ذلك التاريخ . وقد ذكر البعض أن الملك الساسانى بهرام گور (وهرام الخامس ، ٤٢٠ ـ ٤٣٨) كان شاعرا وأنه اخترع القافية ، بينما يروى دولتشاه (ت ١٤٩٤) ـ وهو فى الحق مصدر لا يعتمد عليه كثيرا ـ بيتا من الشعر على وزن المتقارب القديم ـ وهو نفس الوزن الذى استخدمه الفردوسى ـ ذكر أنه كان محفورا على القصر الذى بناه كسرى برويز (خسرو أبرويز ٥٩٠ ـ ٦٢٨) لحبيبته شيرين . وفى بلاط هذا الملك غنى باربد (باربذ ، فَهْلَبَذْ) الذى اشتهر باختراع الموسيقى الفارسية وقد روى أن تراثه الفنى كان يتـكون من ثلاثين مذهباً وثلاثمائة وستين لحنا . ماذا كانت تقاليد هذا الغناء ؟ وماذا كانت الصور التى تـكونت منها هذه الأغانى؟ إننا لا نعرف شيئاً على وجه التأكيد ولـكنا على يقين من أننا لانغرق فى الخيال إذا افترضنا أنه عند ما بدأ الفرس بعد الفتح الإسلامى ينظمون الشعر من جديد بأسلوبهم المتطور فإنهم أحيو ماشاع فى بلادهم الغرّيدة من تقاليد قديمة

---

(١) Astyages

(٢) Athenaeus

(٣) انظر القصة فى الترجمة العربية للشاهنامه نشر عزام ج ١ ص ٣١٣ .

[فى الموسيقى والغناء] . ويبدو أننا نسمع من كسنوفون نتفا عن ذلك الأسلوب الخالد وذلك عندما نقرأ فيه «أن اسم قورش كان على لسان كل رجل فى كل مكان سواء فى الغناء أو فى القصص» وكيف أن الميدى مواطن قورش قال له : « هل تستطيع أن تدرك أن الزمن الذى تستغرقه طرفة عين يبلغ الأبدية طولا إذا حجبنى عن جمال وجهك ؟ » وليس من شك فى أن الشعر غير الدينى وكذلك النثر فى إيران القديمة كان يغلب عليهما طابع البلاط وكان الغرض من إنشائهما تمجيد ملك الملوك وإدخال السرور إلى قلبه. وقد ظل الحال إلى حد بعيد على ما كان عليه حتى يومنا هذا إذا استثنينا ما حدث من تغيرات ضرورية .

لم يبق بعد كوارث القادسية (٦٣٥) ونهاوند (٦٤٢) وانهزام الإمبراطورية الساسانية بصورة نهائية حكام من الفرس ليعيش فى رحابهم المؤلفون الفرس . ولهذا فقد كان من الضرورى لأهل العلم والأدب أن يعقدوا ما كانوا يستطيعون عقده من صلات بينهم وبين سادتهم الجدد الأشداء . فقد كان القيام بخدمة هؤلاء وتعليمهم فى الوقت نفسه أصول السلوك الإيرانى المهذب وقيمه (أو - على حد تعبير العرب المتزمتين - إفسادهم) أمرا ملائما للجميع فيما عدا قلة لم تكن مستعدة لتقبل الوضع الجديد . ولم تبق اللغة عائقا لمدة طويلة . فسرعان ما أصبح الفرس ينازعون غزاتهم المعتزين بلغتهم قصب السبق فى الكتابة العربية . وقد عبر عن ذلك أدوارد . ج براون دون أدنى مبالغة حين قال : « خذ مما يسمى فى العادة بعلوم العرب - من تفاسير وحديث وكلام وفلسفة وطب ومعاجم لغوية وتاريخ وتراجم بل ومن نحو عربى - ما ساهم به الفرس من أعمال تجد أن خير ما كتب فى هذه الموضوعات قد ولى » . وهذه الحقائق معروفة للغاية، وإن العرب أنفسهم كثيرا ما اعترفوا بما كانوا يدينون به من فضل لأذكياء الفرس الذين اعتنقوا الإسلام ، ولم يضنوا بهذا الاعتراف إلا حينما كان الفرس يستثيرون غضبهم بذلك الزهو الذى وإن كانوا حقا جديرين به إلا أنه

كان مزعجا للعرب. ولا مجال هنا لسرد قائمة جافة من الأسماء ولكن يمكن توضيح قولنا بأمثلة قليلة إذا ذكرنا أن الأسماء الآتية كانت لعلماء من الفرس: سيبويه (ت ٧٩٣)، الكسائى (ت ٨٠٥)، الفراء (ت ٨٢٢) وهؤلاء كانوا من النحاة. ومن اللغويين ابن قتيبة (ت ٨٨٩)، والجوهرى (ت ١٠٠٢) وابن فارس (ت ١٠٠٥). ومن الفقهاء والمتكلمين أبو حنيفة (ت ٧٦٧) والغزالى (ت ١١١١) والنسفى (ت ١١٤٢) والشهرستانى (ت ١١٥٣). ثم المفسر النحوى الزمخشرى (ت ١١٤٣) والبخارى المحدّث (ت ٨٧٠) والشاعران بشّار بن برد (ت ٧٨٣) وأبو نواس (ت حوالى ٨١٠)، والمترسلان ابن المقفع (ت ٧٥٧) وبديع الزمان (ت ١٠٠٧)؛ والجغرافيان ابن خرداذبة (ت ٨٤٨) وابن رستة (ت ٩٠٣). والمفسر المؤرخ الطبرى (ت ٩٢٣) والمؤرخان البلاذرى (ت ٨٩٢) والدينورى (ت ٨٩٥)؛ والفلاسفة العلماء الرازى (ت ٩٢٣) والبيرونى (ت ٩٧٣) وابن سينا (ت ١٠٣٧)؛ والرياضيان فخر الدين الرازي (ت ١٢٠٩) ونصير الدين الطوسى (ت ١٢٧٣).

هذه هى أسماء المبرزين من الرجال الذين كان كل منهم قائدا فى ميدان اختصاصه، والذين كان لأعمالهم أثرها الأكيد فى شكل الثقافة العربية وبنائها. ومن المستحيل أن نميز العناصر الفارسية (أو الإيرانية) البحتة من هذه الثقافة وأدبها ونفصلها عن غيرها من العناصر، فإن الحضارة العربية قد قبست من مصادر عديدة، وهذه المصادر كانت بالفعل قد شابها الكثير من العناصر الغريبة عند ظهور الإسلام. فنحن لا نستطيع بيقين أن نفصل الأجزاء اليونانية والإيرانية من الثقافة الساسانية نفسها، ونحن أقل مقدرة على أن نميز بدقة بين العناصر الثلاثة المكونة لهذه الثقافة فى تلك الحقبة التالية من التاريخ. لقد ساهم الفرس مساهمة ضخمة فى بناء تصور العرب للتاريخ كما رأينا. ويبدو أنه من الممكن أيضا أن العرب اعتمدوا فى الجغرافية على نماذج

فارسية كما صنعوا فى التاريخ ، على الرغم من أنه لم يبق فى أيدينا أى من هذه النماذج، ذلك لأنه ما كان من الممكن إدارة امبراطورية واسعة متباينة العناصر مثل الامبراطورية الساسانية بهذا القدر من الكفاءة دون رجوع إلى الخرائط الدقيقة والإحصائيات . ولقد عرف اليونان القدماء فى زمنهم نظام التجسس الواسع عند الفرس كما سخروا من هذا النظام الذى هيّأ التماسك لجيرانهم الأقوياء . ولربما بدأت الجغرافية كنظام للتجسس سُخِّر لتحصيل الضرائب وضمان الطاعة . وعلى الرغم من أن العرب عرفوا فى أوائل عهدهم الفكر السياسى اليونانى عن طريق ما ترجم من كتب أفلاطون وأرسطو فإنهم اعتمدوا إلى حد بعيد على خبرة الفرس الطويلة بتفاصيل إدارة الدول ، وهولاء من جانبهم ــ عند ما أصبحوا كتابا أو وزراء فى الدولة ــ لم يتوانوا فى تعليم مستخدميهم كيف يحكمون فى أبهة ويستمتعون بالحكم ويكرر كسنوفون دائما ذكر الأهميــة التى أضفاها الفرس فى عصر عظمتهم الأول على رعاية الآيين والسلوك ، ولم ينتقص مَرُّ القرون من ذلك التقاليد . ولما كان من الضرورى حتى للملك الملوك أن يستريح أحيانا فقد كان يحتاج إلى ندماء يستطيع أن يتحرر فى صحبتهم إلى حد التبذل دون أن يفقد سلطانه . وإن وصف كسنوفون لمثل هذا المنظر ليصور لنا بنفس القوة ألوان تبذل حكام العرب ، ذلك التبذل الذى لقَّنهم إياه رجال البلاط وحريمه من الفرس.

ونحن لا نعدو الصواب إذا افترضنا أن هذا القدر الكبير من كتب الأدب فى اللغة العربية ــ وهى كتب مختصرة فى السلوك أعدت لمواجهة جميع المواقف والظروف ــ ترجع أصولها المباشرة إلى العادات الإيرانية القديمة . وينتمى إلى هــذا الأدب الذى يهدف إلى ترقية وسائل التسلية ــ على عكس ما يبدو لأول وهلة ــ كتاب كليلة ودمنه المشهور الذى ترجمه ابن المقفع إلى العربيــة عن أصل بهلوى يرجع بدوره إلى أصل هندى . وسرعان ما جاءت قصص أشهر من كليلة ودمنة هى ألف ليـلة مع سابقتها الإيرانية هزار أفسانه التى لم نعد نعرف عنها شيئا سوى اسمها . هذه القصص التى كانت

فى الأصل لتسلية البلاط ظلت تجد طوال القرون مستمعين يضيفون إليها حتى أصبحت فى آخر الأمر الذخيرة التى تستمد منها التمثيليات الإنجليزية الصامتة . وقد يكون من المعقول أن نستنتج أن كتب التراجم العربية الضخمة تدين بشىء لابتكار الفرس إذ أن من المستبعد أن تكون سجلات الامبراطورية الساسانية قد خلت من الملفات المفصلة التى تتعلق بالمشاهير وبذوى السمعة السيئة . وقد تدرب العقل الفارسى المبدع على تفسير الأوستا قبل أن يحتاج القرآن إلى الشرح أو التفسير الرمزى بوقت طويل[1] ، وعلى هذا فإن علم التفسير الذى يبدو كمثال لعلم العرب قد يكون مديناً لنماذج إيرانية بقدر ماهو مدين لنماذج يهودية أو مسيحية. كما أن عناصر فارسية قد دخلت دون شك فى تفصيل العقيدة الإسلامية والتشريع الدينى والمدنى . أما التصوف فإن فضل الفرس على العرب فيه واضح وكبير .

وعلى هذا النحو يستطيع الباحث أن يمر بسلسلة الأدب العربى كله ، لكننا لا نقترب من إدراك الهوة التى تفصل بين الشعبين ، العرب والفرس ، إلا عندما نقارن ما أنتجته العبقرية الإيرانية فى إحدى اللغتين بما أنتجته فى اللغة الأخرى . وهناك شعور يخامرنا — إذا قسنا الأمور بهذا المقياس — أن اتصال الفرس الوثيق بثقافة ولدت فى الصحراء أدى (إذا استخدمنا تصوير إمرسون البارع) إلى «تصحير» الروح الفارسى، ذلك الروح الذى لم يكشف لنا عن المدى الكامل لقواه إلا عن طريق التعبير بلغته القومية . ولا ينطبق هذا القول على أى فرع من فروع الأدب بقدر ما ينطبق على الشعر الذى سوف نبحثه الآن . إن القصيدة بالنسبة للذوق العربى هى

---

(١) بدأ الأستاذ اربرى بحثه هذا وقد استولى على تفكيره رأى خاص هو أن يسلب العرب كل شىء ويعطى الفرس كل شىء . وهو رأى « سياسى » لا يمت إلى البحث العلمى بصلة . وبكل أسف قد نجح فى تأجيج شعر الشعوبية البغيضة عند لفيف من الكتاب الفرس المحدثين .
يحيى الخشاب

خلاصة الشعر وهى موضع تعظيمه فوق كل ما عداها ، والقصيدة أى « المنظومة ذات القصد » تتكون من مائة بيت أو أكثر تتفق كلها فى القافية وتصاغ كل أبياتها فى بحر واحد وكل بيت من أبياتها يمثل وحدة من القصيدة . فهى ممارسة للنظم تبين المقدرة الأدبية والبراعة ولكن لاتترك إلا مجالا ضيقاًلقوة الخيال المحلق وتترك الكثير للتقليد ولألوان المغالاة البلاغية ، ولهذا فإنه لمن العجب الدائم ودليل على عبقرية الإنسان التى لا تغلب أنه على الرغم من ذلك الرداء الضيق الذى فرضته النظريات والمقاييس العقلية فإن جنون الشعر كثيرا ما حطم جميع القيود ورفع القول إلى أقصى درجات الرفعة الحقيقية . وقد تطورت القصيدة فى العصر الجاهلى تطورا بعيداً بحيث أصبحت أداة رائعة للتعبير عن أحاسيس الفخر والعزة والمحبة والكره والحياة والموت عند ساكن الصحراء . ولم يختف من القصيدة أصلها القبلى عندما حلت سياسة الامبراطورية والخلافات بين الفرق محل المنازعات الضيقة شغلت الشاعر البدوى . فظلت تقاليد القصيدة تراعى بدقة . وبتعظيم اللغةالعربية النقية التى أصبح الإلمام الواسع بمفردات اللغة العربية له ما للفصاحة والرقة من مكانة عالية بين مؤهلات الشاعر المبدع . وقد أخذ الفرس شكل القصيدة وبدءوا يكتبون القصائد بلغتهم عندما أصبح فى بلادهم حكام تجاوب دمهم الفارسى مع بعث اللغة الفارسية . والفرس لم يفتقروا خلال تاريخهم الأدبى كله إلى شعراء قادرين على أن يتغنوا بمدح سادتهم بالقول المفصل والدقيق البارع . فإذا أضفنا إلى المقدرة الأدبية هذه الحيل المتعددة الأشكال التى اخترعت للارتفاع بالديباجة اللفظية وجدنا مشهدا مخيفاً يتجلى فى الحليات اللفظيةالتى حشدها قوامى (وقد عد منها ادوارد . ج . براون تسعة وتسعين حيلة بلاغية فى تحليله [لقصيدة قوامى])[1] وهى تثير العجب أو الاشمئزاز عند هؤلاء

---

(١) انظر: C. G. Browne : Literary History of Persia, vol. II , p. 47. , London, 1918. المترجم

الذين يحفلون بأن ينظروا إلى البراعة فى صورتها الرفيعة . ولـكن الفرس وجدوا أغراضا أخرى يكتبون فيها القصائد إلى جانب المدح والهجاء والتهنئة والرثاء . فقد استخدمها ناصر خسرو (ت١٠٨٨) فيهما كان يدأب على القيام به من وعظ يلائم الوقت ودعوة خلقية لا غبار عليها واستخدمها سنائى فى الثناء على الله . ولا تزال القصيدة فى زماننا هذا تستخدم فى كل غرض ممكن . وقد أثبت بهار اقتداره فى هـذا الفن بقصيدته التى حيا بها الفردوسى فى ذكراه الألفية . وهناك فنون بارعة أخرى استخدم فى التعبير عنها ذلك التقليد البدوى القديم الذى كان يتبع فى افتتاح القصائد ، تتمثل فى فاتحة قصيدة لمنوچهرى (ت ١٤٠١)(١). ومن الغريب أن هذه الفاتحة تصف دنا من الخمر كأن الشاعر يشرب منه نخب ممدوحه :

« هـــذا ما قرأت اليوم فى أحد الدفاتر
أن لجمشيد ابنة لا تزال على قيد الحيـــاة
وأنها قد مضى عليها من الأعوام سبعمائة أو ثمانمائة
وهى محبوسة فى غرفة انتظـــار
فهى الآن فى بيت المجـــوس
وقد ظلت واقفة كأنهـــا سرو
فهى لا تجلس قط وليست فى أى وقت
تســـند جانبهـــا إلى وسادة
وهى لا تتنـــاول طعاما ولا شرابا
ولا تلقى بحـــديث إلى من يحدثها
وقد بدا لى هـــذا الـكلام غير مقبول
عند ما فـكرت فيـــه من جميع وجوهه

(١) انظر القصيدة رقم ٥٧ (ص ١٤٩) من ديوان منوچهرى (طبعة أوروبا) . المترجم .

فمضيت إلى هـذه الدار القديمة
وقصدتها كرجـل مُجَرِّب
فرأيت داراً من الحجر الأسود
ضاق مدخلهـا كأنه خاتم
ففتحت بالسحـر بابهـا
وأوقدت ناراً كأنني لص
وأخذت سراجا كان يلتمع
كأنه رأس خنجر من الذهب
فرأيت فى هذه الحجرة عروساً ضخمة ،
كأنهـا ناقة ، واقفة على ساق
كانت وايم الحق عروساً من الطين
ولم يكن عليها لا ذهب ولا جواهر
وقد تمنطقت بسبعة أو ثمانية مناطق من الطين
ووضعت على وجهها قناعا رقيقا
كان بطنها منتفخا كأنهـا حامل
وكانت مثـل النخلة عريضة الرأس
وقد تراكم على جبينها الكثير من الغبار
ووضعت فوق رأسها تاجاً من الطين
كانت لها رقبة ضخمة كأنها فخذ فيل
وأما قدمها فكان مستديراً كأنه درع
فاندفعتُ من الحب نحوها
كما تندفع أخت نحو أختهـا
ورفعت عن رأسها بسرعة

قناعا أرق من جناح البعوضة
ومسحت وجهها بكُمّى
من كل غبار وتراب ورماد
وأزلت عن رأسها غطاءه الطينى
كما يُزال المغفر عن رأس أحد الغزاة
فرأيت تحت تاجها فمًا كبيرا
ورأيت تحت الفم حنجرة
كانت لها شفة غليظة كشفة الزنوج
أو كشفة البعير حين يجوع
وكانت تتصاعد من فمها رائحة المسك
كما تتصاعد رائحة البخور من مجمر
فأخذنى عشق لسلسبيلها
يشبه عشق الإنسان لأحور ملائكى الطلعة
ففضضت خاتم بكارتها
وملأت من سلسبيلها كأسا
وسالت قطرة منها على كفى
فصارت رائحة كفى مثل الكوثر
وقبلتها فعطرت رائحتها
كل شعرة منى بشذى العبهر
ورفعت شفتىّ إلى الكأس
فصارت كل شفة منهما كأنها السكر »

وقد عرف العرب المنظومات القصيرة إلى جانب القصائد منذ أوائل عهدهم بالشعر وإن كان لا يعرف على وجه التحقيق ما إذا كانت هـذه المنظومات أجزاء

من أصول كاملة قد فقدت أم لا . وفى أواخر العصر الأموى وأوائل العصر العباسى تكثر لدينا المنظومات القصيرة من الشعر الغنائى التى كتبت على تلك الصورة وموضوعها الخمر أو الغزل . وقد أثبت أبو نواس ــ الذى كانت تجرى فى عروقه دماء فارسية ــ أنه أبرع من نظم على ذلك النهج الجديد . وقد أخذ الفرس هذا اللون من الشعر ــ ببطء فى أول الأمر ــ ولكنهم سرعان ماتوسعوا فيه حتى أصبح الغزل ــ كما بقى لنا اليوم ــ أكثر فنون الشعر ذيوعا . وقد نرغب فى أن نستطيع القول بأن أصل هذا اللون من الشعر الرقيق الذى يتميز ببساطة أسلوبه كان يتمثل فى الكلمات التى لابد قد صاحبت ألحان باربد الثلاثمائة والستين . ولكن ليس هناك أمل فى إثبات مثل هذا الافتراض . ويبدو أن سنائى كان أول فارسى أكثر من كتابة الغزل، وقد كتب غزلياته بأسلوب صوفى وبهذا رسم طريقاً اتبعه الكثيرون من بعده . وقد كان يذكر اسمه فى نهاية أشعاره أحيانا ولكنه لم يفعل ذلك دائما ، كما أنه لم يكن أول من جرى على هذا النهج . وقد أصبح التخلص فيما بعد إحدى الخصائص التى لابد أن تتوفر فى الشعر الغزلى الغنائى . وقد عرف التخلص فى الشعر الإنجليزى . ولكنا نكون مسرفين فى القول إذا ادعينا أن ذلك كان أكثر من مصادفة . ففى الحق أن شيلى[1] عرف شيئا عن الأسلوب الفارسى وذلك من قراءته لأعمال سير ويليام جونز[2] وأنه من الممكن أن يكون قد حذا حذو مثال فارسى عند ما كتب :

« إن الهدوء ليتطرق إلى المياه .

أكثر مما تتطرق السكينة إلى ذهن شيلى » .

ولكن مما لا يمكن تصوره أن هريك[3] عرف شيئا عن هــــذا التقليد المتبع فى الغزل الفارسى عند ما كتب « رجاء أخير من جوليا » .

« لقد انتهت الأقدار بالنسبة لى : فعند مايموت هريك

فأغلق كتابه ثم أغمض عينيه » .

(١) Shelley (٢) Sir William Jones (٣) Herrick

وإنما الأغلب أنه احتذى الشعراء اللاتين الذين اصطنعوا هـــذه الحيلة الرشيقة في بعض الأحيان :

« إن كثيراً من الأشياء التي يحصل عليها المرء تدوم له وقتاً طويلاً يا كتوللوس
وأنت تبقى لك الملذات من هـــذا الحب الذي لا تقابل فيه بالوفاء »[1]

وقد أصبح الغزل بعد سنائي أحب أنواع الشعر لدى الفرس . وقد توالى على صقله وتهذيبه العطار (ت ١٢٣٠) والرومي (ت ١٢٧٣) وسعدي (ت ١٢٩١) حتى تحقق له الـكمال المعجز على يد حافظ (ت ١٣٨٩) الذي لا يقاس به أحد في هذا الفن. ويجيء من بعده جامي (ت ١٤٩٢) الذ يُعد في القمة بين الـكثيرين ممن كتبوا الغزل. وقد كانت الغزليات في أول الأمر تتفاوت في طولها بدرجة كبيرة ، ولـكن حافظ قليلًا ما تجاوز عشرة أبيات في الغزل الواحد ، بينما نلاحظ أن جامي كان يفضل الاقتصار على سبعة أبيات ، وتلك ظاهرة عجيبة تدفعنا إلى مقارنة الغزل بالسونيت الإنجليزية[2] Sonnet . والغزل كالقصيدة يتخذ قافية واحدة كما أنه يمكن نظمه في عدد كبير من البحور كلها مشتقة من بحور الشعر العربية . وإذا أردنا أن ننتخب مثالًا واحداً من بين عشرات الألوف نعرض فيه على القارئ هذا الفن في أرفع صوره فيمكننا أن نختار غزل حافظ الذي صنع منه جونز « أغنيته الفارسية » الشهيرة .

◡ — — — | ◡ — — — | ◡ — — — | ◡ — — —

« اگر آن ترك شيرازى بدست آرد دل مارا
بخال هنـــدويش بخشم سمرقند وبخارارا »

(١) ترجم هـــذين البيتين لنا عن اللاتينية زميلنا محمد صقر خفاجه أستاذ الدراسات القديمة بجامعة القاهرة . المترجم .

(٢) مقطوعة من الشعر من أربعة عشر بيتا ولها نظام خاص في القافية .

« أيتها الغادة الحسناء ، لو أنك فتنت بصرى
وسمحت لهذين الذراعين أن يطوقا عنقك
فإن هذا الخد الوردى وتلك اليد البيضاء كالزنبق
تسعد قلب شاعرك
أكثر مما يسعده كل الذهب المروض فى بخارا
وكل لآلئ سمرقند »(١) .

وقد ذكرت هـــذه القصيدة كاملة فى كتاب Oxford Book of Eighteenth Century Verse بصورتها التى فتنت أوروبا بما نقلته إليها لأول مرة من طابع أصيل للشعر الفارسى .

وهناك شكلان آخران من أشكال الشعر بلغا حد الكمال قبل أن يبدأ الغزل عهد ازدهاره ، تمتاز منظومات أولهما بطولها المفرط ويمتاز ثانيهما بإيجازه وكلاهما عريق الصلة بالتراث الإيرانى ، فارسى بحت فى طابعه . وقد كان للعرب أسلوب فى النظم لم ينل إلا القليل من تقديرهم وقلما سمحوا بإطلاق اسم الشعر عليه ، ذلك هو الرجز وقد بدأ عندهم كطريقة للنظم المرتجل ثم أصبح فيما بعد يستخدم فى أمور تافهة كنظم المتون التى يحفظها الطلاب . وأشهر مثال لذلك النظم ألفية ابن مالك (ت ١٢٧٤) وهى مختصر فى النحو العربى صيغ فى ألف بيت . هـــذا — على ما يبدو — كان الأب الهزيل للمثنوى الفارسى ، والمثنوى هو النظم الذى يتميز بوحدة القافية بين مصراعى

(١) Sweet maid, if thou wouldst charm my sight,
And bid these arms thy neck infold;
That rosy cheek, that lily hand
Would give thy poet more delight
Than all Bacàra's vaunted gold,
Than all the gems of Samarcand.

كل بيت . وما كاد يتم إخضاع هذا الشكل من أشكال الشعر لتقبل النظم فى أى بحر ملائم حتى حقق نصرا عاجلا فيما تكاد تكون أول تجربة له ألا وهى شاهنامة الفردوسى . فإن ما وقع مصادفة من الجمع بين البيت المصرع – وهو الذى كان يبدو تافها بالنسبة للذوق العربى المعقد – وبين ما كان لإيران القديمة من حوليات مثيرة فى وقت كانت فيه القومية الفارسية تكافح لتعود إلى الحياة ، هذا الجمع قدم للعالم ملحمة بلغت ستين ألف بيت . وكان من سوء الطالع أن محمود الغزنوى – وهو الملك الكبير الذى كان يحكم إيران وما جاورها من بلاد وقصده الشاعر ليبيعه منظومته التى تعبر عن عزة إيران القومية – كان تركيا ولهذا لم يستطع – إلا بعد فوات الأوان – أن يكافىء الشاعر على ما أنفق من جهد طيلة خمسة وعشرين عاما فى تمجيد جنس كانت لدى الملك أسباب لاحتقاره . فالفارسى وحده وليس العربى هو الذى كان يستطيع أن يحاول رسم هذه الصورة المعقدة على مثل هذه اللوحة الضخمة ويبدعها . وإذا قسنا هذه المنظومة بمقاييسنا الغربية فإننا نجد أنها تفتقر إلى وحدة الموضوع وإلى التوازن بين جوانبها المختلفة ولهذا فقد وضعتها المقارنة بملاحم الغرب فى مرتبة دون تلك الملاحم . ولكن الشاهنامة تعتبر قمة بين نظيراتها وقد كتبت بأسلوب نبيل يتسم بالنضج كما أن بها أجزاء تعد من روائع الشعر إذا قيست بأى مقياس مثل قصة سهراب ورستم التى ألهمت ماتيو آرنولد[١] .

وقد حاول الشعراء فيما بعد أن يجاروا هذا العمل المبكر ولكن مثل هذا العمل الضخم لا يمكن تحقيقه أكثر من مرة واحدة . فقليلون من الرجال هم الذين يقامرون بإضاعة مثل هذا العدد من السنين فى عمل واحد حتى ولو كانوا من أعظم العباقرة ، وأقل من هؤلاء من يبذلون الورق والمداد لنسخ ماينتجون من أعمال ضخمة . والمنظومة المطولة الوحيدة التى نالت ما نالته الشاهنامة من شهرة هى مثنوى ، معنوى

(١) Matthew Arnold

لجلال الدين رومى ، تلك الموسوعة الرائعة من الأقاصيص والمحاورات الصوفية التى أنفق ر. ا. نيكلسن [١] عشرين عاما فى ترجمتها إلى الإنجليزية . وجاء دور القصة بعد الأساطير القومية . وقد كان گرگانى (كتب حوالى ١٠٥٠) أول من نجح فى ذلك الميدان وذلك بنظمه قصة ويس ورامين التى قيل إنها بنيت على أصل بهلوى . وقرب ذلك الوقت أو بعده بقليل نظمت بالفارسية للمرة الأولى من مرات كثيرة قصة يوسف وامرأة العزيز كما رواها القرآن الكريم وقد نسبت هذه المنظومة فيما بعد إلى الفردوسى. وقد تخصص نظامى (ت ١٢٠٢) فى هذا النوع من الملاحم القصيرة وكتب خمسة منها. وقد تراوحت موضوعات هذه الملاحم بين قصة ليلى وعشيقها الشاعر المجنون التى انبثقت من صحراء العرب إلى الأسطورة الملكية الساسانية التى تتعلق بحب خسرو لشيرين ثم الأسطورة الكبرى التى تدور حول الإسكندر . وقد اتخذ خاقانى من الحج إلى مكة موضوعا للمحمة صعبة الأسلوب لا يتيسر فهمها إلا بمعاونة شروح مفصلة . وقد جارى الشاعر الهندى المولد أمير خسرو الدلهوى (ت ١٣٢٥) منظومات نظامى الخمس بخمس من منظوماته وجاراها جامى بسبع منظومات كما جاراها هاتفى (ت١٢٣٥) ابن أخت الجامى بخمس منظومات وذلك إلى جانب عدد ضخم من الأعمال الجيدة والرديئة لا فى الفارسية وحدها وإنما فى التركية والأردية أيضاً . هذه الملاحم الصغيرة وخاصة ملاحم نظامى لهـا ما للشاهنامة من فضل بإمدادها نقاشى التصاوير من الفرس بمادة غزيرة لممارسة فنهم وذلك إلى جانب أنها كانت فى حدّ ذاتها مادة ممتعة للقراءة . وقد أدى هذا الجمع بين الشعر اللامع والفن الزاهر إلى مولد مجموعة من الكتب تعد من أبدع ما عرفه العالم. ولقد نظم سنائى والعطار المثنويات ذات الموضوعات الصوفية قبل الرومى . وقد كتب سنائى أيضاً كوميديا إلهية صغيرة يبدو أنها ترجع إلى كتاب «أردا ڤراف نامغ» البهلوى، أما منطق الطير الذى ألفه العطار فهو منظومة رمزية

---

(١) R. A. Nicholson

استحوذت على اهتمام فيتزجيرالد . وينتمى إلى نفس هذا النوع من الشعر المنظومات الخلقية والتهذيبية والفلسفية وأشهر أمثلتها بستان سعدى . ومن الأمثلة الحديثة لهذه المنظومات أسرار خودى (أسرار النفس) التى نظمها المرحوم سير محمد إقبال وينتمى إلى مدينة لا هور .

والآن ننتقل من أطول أنواع الشعر الفارسى إلى أقصرها وهو الرباعى الذى اشتهر فى جميع أرجاء العالم عن طريق رباعيات فيتزجيرالد التى قلد بها الخيام تقليدا رائعاً وإن جاء غير مطابق للأصل. والرباعى هو اللون الوحيد من ألوان الشعر الفارسى الذى له وزن فارسى بحت ، ويذكر العروضيون قصة يرجعون بها أصل الرباعى إلى غلام كان يلعب الحصى وكان يستخدم الجوز فى لعبه وبينما هو يدحرج الجوز أخذ يصيح :

غلطان غلطان همى رود تا بن گو[1]

— — ⏑ ⏑ — ⏑ ⏑̄ ⏑ — — ⏑ ⏑ —

وقد سمع نغمة هذه العبارة شاعر كان يقف بالقرب من الغلام فنظم مصراعا على وزنها ثم أضاف بيتا آخر وبذلك أوجد هـــذه الطريقة الجديدة من طرق النظم وهى طريقة انتشرت بسرعة مدهشة حتى أصبح كل شيخ وفتاة وكل شاب وحكيم يستخدمها بطريقة جديدة . ومهما يكن حظ هـــذه الأسطورة من الصدق فإن من المؤكد أن الذى اخترع الرباعى ـ أكمل ما عرفته الآداب العالمية كلها من شعر مركز حكيم ساخر ـ عبقرىٌّ غير معروف وإذا سألنا أنفسنا: لماذا نجح الرباعى بهذه السرعة وبهذه الدرجة من التفوق ؟ فإن جواب هذا السؤال لا بد أن يأخذ فى اعتباره أن فارس هى بلاد المثل والحكمة، ولكى ينجح مثل هذا اللون من الشعر فى أسر الخيال أو ملازمة الذاكرة لا بد له من أن يعبر عن حقيقة معروفة أو يرسم صورة علقت فى الأذهان بطريقة جديدة بالغة التأثير . وهذه هى الصفات التى نتبينها فى قول شيلى :

(١) المعنى : انها (الجوزة) تمضى متدحرجة متدحرجة نحو قاع الحفرة . المترجم .

« عند ما تموت الوردة تجمع أوراقها
ليفرش بهـا مخـدع الحبيب
وكذلك عند ما تذهبين أنت فإن الحب
سينام فى مخيلتى فوق ما تحتويه من ذكريات عنك »

وهذه أيضا هى العناصر التى تجعل الخيام وبالتالى فيتزجيرالد فى قمة الروعة الأدبية:

« إنى لأحسب أحيانا أن الورد لا يزدهر بمثل تلك الحمرة
إلا حيث سالت دماء قيصر طواه الثرى
وأن كل زهرة سنبل اكتسى بها البستان
سقطت فى حجره من رأس كان لإحدى الحسان[1] »

وعند ما كتب الخيام الرباعية التى تقول :

« زجاجة الخمر ونصف الرغيف   وما حوى ديوان شعر طريف
أحب لى إن كنت لى مؤنسا   فى بلقع من كل ملك منيف »[2]

لم يكن إلا معبرا أكمل تعبير عن الصورة التى باورها من قبله أبو نواس ـ الذى كان نصف فارسى ـ فى إحدى مقطوعاته العربية حين قال :

أربعة يحيى بهـا   قلب وروح وبدن
المـاء والبستان والخمرة والوجه الحسن

---

(١) أقرب رباعيات الخيام لهذه الترجمة هى :

درهر دشتى كه لاله زارى بوده است   از سرخى خـون شهريارى بوده است
هر شاخ بنفشه كز زمـين ميرويد   خالى است كه بررخ نگارى بوده است

المترجم

(٢) من ترجمة أحمد رامى . انظر رباعيات الخيام ، ص ٨٨ الطبعة الثالثة، القاهرة ، ١٩٥٠ المترجم .

إن عمر الخيام (ت ١١٢٣) الرياضى الفيلسوف نظم خلال حياته المليئة بالمشاغل ٧٣٠ رباعيا، وأكثر رباعياته ذات نغمة رقيقة حزينة . وقد نسبت إليه بضع مئات أخرى . وكثير من الفرس قد كتب أو ارتجل رباعيا أو اثنين . وأغلب شعراء فارس كتبوا الكثير من الرباعيات ، فالرومى مثلا كتب نحو ألفين فى موضوعات تبلغ فى تنوعها تنوع فكر الإنسان . وقد حيّا العرب الفرس بتقليد اللون الوحيد من ألوان الشعر الذى ابتكره هؤلاء ولكن العرب لم يولعوا به ولعل ذلك يرجع لشدة اختصاره أو لبساطته المفرطة . أما الهنود والأتراك فقد تحمسوا له عندما اقتبسوه .

وفى الفارسية لون ريفى شائع من ألوان النظم يشبه الرباعى تماما فى شكله ولكنّ له وزنا يخالف وزن الرباعى ولهذا فهو يسمى « دوبيتى » . وقد نظم الصوفى الشارد بابا طاهر (اشتهر عام ١٠٥٠) بضع مقطوعات فى شكل « الدوبيتى » ولكن هذا الشكل لم يلق اهتماما من الأدباء الذين فضلوا عليه الرباعى . وقد جمع كوهى كرمانى — وهو باحث فارسى معاصر — سبعمائة من هذه المنظومات الشعبية سمع الناس يتغنون بها فى جبال إيران ووديانها . ويتميز الكثير من هذه المقطوعات بجمال أخاذ ، يثبت ما لدى الفرس من سليقة شعرية أكيدة، تتجلى حتى عند أقل فلاحيهم شأنا . وإلى القارىء مثالا يُردّد ذكرى نزاع قبلى قد نسى :

« لقد أخبرونى أن الربيع فى الوديان
وأن دم أحمد لوّن زهور اللاله[1] القرمزية
فاذهبوا وخبِّروا أمه المسنة أن ابنها
حارب بمفرده ألف عـــدو »

---

(١) زهرة اللاله هى الزهرة التى تعرف أيضا بالتيوليب Tulip . المترجم .

من هـــذا العرض السريع للشعر الفارسى يتبين لنا أن شعراء الفرس تلقوا عن العرب نظاما دقيقا للنظم متعدد الأوزان كما تلقوا عنهم تقاليد القصيدة الجامدة فحطموا هذه القصيدة التقليدية وصنعوا منها ذلك الشعر الغنائى الرقيق وحولوا قافية موحدة جامدة إلى ذلك الشعر الحماسى الرائع وإلى الأغنيات الرومانتيكية التى اشتملت عليها مثنوياتهم . وأضافوا إلى ذلك كله أروع مثـل عرفه العالم من شعر الحـكمة المركز الساخر كما تلقوه عن بنى جنسهم . ولـكن على الرغم من أن الفرس قد رفضوا التقاليد الضيقة التى قيدت الشعر العربى فإنهم خضعوا ـ وربما كان ذلك بدرجة كبيرة جدا ـ لحيل فنية من صنعهم . ويتجلى هذا بوجه خاص فى الغزل وهو لون من النظم يصبح مملا إذا أخضع لقواعد موحدة صارمة . ولم تـكن القافية الموحدة عقبة فى حد ذاتها، وذلك لـكثرة القوافى فى الفارسية ولـكنها أدت فى بعض الأحيان إلى التضحية بوحدة الموضوع فى سبيل البراعة اللفظية . ولـكن هناك ما هو أهم من ذلك وأدعى للأسف ألا وهو التحديد المصطنع للموضوع والصورة فى الغزل إلى حد أن التفوق أصبح يقاس بالإبداع فى تهذيب أفـكار أصبحت مألوفة للغاية أو بطرق التعبير عن هذه الأفـكار . لقد كان أبو نواس يعتبر ثائرا فى زمانه وذلك عندما أعلن تحديه للتقاليد المألوفة [بقوله] :

اترك الإطلال لا تعبأ بها ... إنها من كل بؤس دانيه
واشرب الخمر على تحريمها ... إنما دنياك دار فانيه
من عقار من رآها قال لى ... صيدت الشمس لنا فى باطيه

ولـكن سرعان ما تحقق الاحترام لهذه الآراء الثورية ، وأدى هذا الاحترام إلى تحولها إلى تقاليد. إن الوردة زهرة جميلة، وغناء البلبل تجربة تحدث أثرها العميق فى نفس من يستمع إليه . ولـكن من الممكن أن يتردد ذكرها على لسان الشاعر أكثر مما ينبغى، شأنهما فى ذلك شأن النجوم، كما أنه ليس مما يسر دائما أن نتتبع تهافت الفراشة

حول الشمعة إلى أن تحترق أو أن نسمع للمرة الألف أن وجه الحبيبة مثل القمر ، أو أن شفتيها مثل العقيق أو أن أسنانها كاللؤلؤ ، أو أن ثنايا شعرها مثل السنابل أو أن حواجبها مثل القوس أو أن نظراتها كالسهام التي تندفع من القوس . إن الإسراف في تجميل الأسلوب هو النتيجة السيئة التي تنشأ من المبالغة في تقدير التقاليد ، وعلى الرغم من أن العناية بالسبك تجتذب القارىء إذا روعي فيها الاعتدال فإنها تكون مملة إذا بولغ فيها . فقد كان شعراء إيران ذوي ذوق أدبي أكيد وقدرة فائقة على التمييز إلى حد يقيهم الخطأ ، فقد كانوا ذوي براعة لا يعرف النقص إليها سبيلا بقدر ما كان إخوانهم الذين رسموا الصور أو صمموا حليات الكتب ، فنانين في تصميم القيشاني ونسج السجاد .

ولكن الصعوبة نشأت عندما قلَّد هؤلاء في محيط آخر كانت الشعوذة اللفظية تتفوق في تقديره على الشكل الفنيّ والتقدير السليم . كانت هذه مأساة الشعراء الهنود ، فإن الهند أصبحت موطنا ثانيا للغة الفارسية وذلك بعد أن استولى عليها المغول وأخضعوها لحكم المسلمين . فأمير خسرو الدهلوي — وهو نفسه فنان بارع ، بلغت مقدرته الفنية حدا اختفت معه مشاعره — كان يسمى ببغاء الهند . وكثيرون ممن جاءوا بعده لم يكونوا سوى ببغاوات ازدهت أشعارهم بثوب لماع كريش الببغاء دون أن يكون وراء هذا الثوب ما يقدر على البقاء .

ولكن مما يلفت النظر أن هذا الشعر الذي كتبته أجيال من الرجال كانت الفارسية لغة أجنبية بالنسبة لهم ، غزير في مادته كما أنه على أي حال موضع للتقدير من ناحية الكيف ، ولا بد لنا أن نؤكد هنا أن هذا الشعر كان مصطبغا بصبغة البلاط ، فقد هيأت الهند حياة طيبة للكثيرين من أدباء الفرس ، وذلك بعد أن صارت بلادهم نهبا للانحلال السياسي ، كما أن رعاة الأدب بالنسبة لأتباع هؤلاء وتلاميذهم من الهنود لم يكونوا قلة ولا ممن يفتقرون إلى الجود . وقد ظل هذا التقليد ساريا إلى ما بعد مطلع القرن التاسع عشر

بفترة غير قصيرة فقد نظم رجل يدعى مُلّا فيروز ، ملحمة عن غزو البريطانيين للهند فى ثلاثة مجلدات بلغت ألفى صفحة وطبعت فى بمباى عام ١٨٣٧ . بل إن هذا التقليد ظل يظهر من آن لآخر حتى الوقت الحاضر . ولكن على الرغم من أهمية هذا الشعر الذى كان بالنسبة للهند أدبا ثانويا فإن الشعر الأردى ـ الذى ولد وتربى تحت جناح الشعر الفارسى وأخذ عنه الشكل والعروض والموضوع والصورة ـ أصبح الآن يفوقه فى أهميته . وقد نسب لأمير خسرو نفسه أنه نظم أشعارا هندية ولكن هذا القول لم يلق إجماعا ، وعلى أية حال فإنه لم تصلنا أية نماذج لما نظمه هـــذا الشاعر بالهندية . وعلى الرغم من أنه كان من الطبيعى أن يقبل هؤلاء الشعراء المجددون إقبالا عظيما على الموضوعات الهندية فإنهم لم يهملوا الموضوعات التقليدية الفارسية . بل إننا فى الوقت الحاضر ـ بينما الشعراء الهنود، وكذلك الفرس يكتشفون نماذج جديدة للشعر، كما أن احتذاءهم للأوروبيين يقضى على الكثير مما تعلقوا به فى الماضى ـ نجد أن اللغة الأردية كغيرها من اللغات الإسلامية غير قادرة على أن تخلص نفسها من ميراثها الضخم ، وعلى الرغم من أن الشكل والموضوع قد يصيبهما شىء من التغيير فإن الصور والقيم البلاغية لا تزال ثابتة على ما كانت عليه .

وليس تأثير العبقرية الفارسية المبدعة على الشعر التركى بأقل من تأثيرها على الشعر الهندى . حقا إن كثيرين من الأتراك أضافوا مادة قيمة إلى الأدب الفارسى بقدرما أضافوا إلى أدبهم ، وممن اشتهر بذلك بين الكثيرين نوائى (ت ١٥٠١) وفضولى (ت ١٥٦٢). وقد ظلت التأثيرات الفارسية مسيطرة على الكتابة التركية فى جميع فروعها حتى العصر الحديث حين أدى ضغط القومية من الداخل وضغط أوروبا من الخارج إلى العدول عن متابعة النماذج الشرقية واقتفاء مثل جديدة . ولكن ما كان لرجل حتى ولو كان أتاتورك أن يستبعد ستة قرون من صفحات ثقافة إحدى الأمم . وسوف يكون من المدهش حقا إذا لم يسرع الأتراك ـ وهنالك اليوم من الدلائل

ما يشير إلى ذلك — للارتواء مرة ثانية من ذلك النبع الذى طالما أنعشهم بسخاء في الماضى .

* * *

إذا كان القسم الأكبر من هذا المقال قدتناول بالدراسة الشعر الفارسى، فليس هذا بتقسيم جائر، فإن من المعترف به أن الشعر يتفوق من جميع النواحى على النثر. ولكن النثر عند الفرس وافر ولا يجوز أن ننظر إليه بدون اهتمام . لقد تأخر نضج النثر الفارسى عن الشعر الفارسى وبدأ فى صورة متواضعة يكاد يلتمس تبرير وجوده كأنما كان مدركا لما كان يتفوق به عليه النثر العربى — الذى كان يفضله علماء الفرس — من قوة ودقة . ولكن البساطة المجردة التى نجدها فى أوائل ما لدينا من كتب النثر الفارسى لا تخلو من جاذبية . وإن ماعانته هذه الكتب من إهمال ليتضح فيما أصاب كتابات ابن سينا والغزالى بالفارسيـــة من خمول ذكرٍ نسبىّ . وقد كتب ناصر خسرو — الشاعر الأخلاقى العظيم — بضعة كتب منثورة بأسلوب أمين مستقيم نخص بالذكر منها سفرنامه الذى سجل فيه يوميات أسفاره[1] . وبالقرب من زمن ناصر خسرو كتب نظام الملك (ت ١٠٩٢) كتابا يعد من أحسن ما ظهر فى بابه هو كتاب السياسة سجل فيه سياسته فى الحكم ومثّل به الدور الذى قام به بزرگمهر نحو كسرى[2] . ونظام الملك هذا كان وزيراً قديراً للسلطان ألپ أرسلان السلجوقى كما أنه كان راعياً كريماً مستنيراً للعلم وهو الذى أنشأ المدرسة النظامية ببغداد ، تلك التى تعلم بها سعدى من بعد . وإن السياسة لذات صلة بالأخلاق وخاصة فى فارس . فبينما كان الوزير يكتب نظرياته عن السياسة ، توسع حفيد أحد الملوك فى الكتابة عن الأخلاق . فكتاب قابوس نامه الذى ألّفه كيكاوس أول كتاب من سلسلة طويلة

(١) نقله إلى العربية يحيى الخشاب عام ١٩٤٥ .

(٢) انظر عن صحة نسبة هذا الكتاب لنظام الملك بحث يحيى الخشاب المنشور فى مجلة معهد الدراسات الإسلامية العدد الأول ص ٢٢٤ — ٢٣٤ .

من كتب الحكمة العملية، تلك الكتب الممتعة التى ظلت تتحسن بمرور الوقت . وفى مثل هذه الكتب نرى بعثاً لأدب الوصايا (اندرزها) التقليدى الذى طال احتجابه دون أن يكون قد نُسى . وإلى هذه السلسلة من الأدب التقليدى تنتمى كتب مثل أخلاق ناصرى لنصير الدين الطوسى، وگلستان لسعدى، وبهارستان لجامى ، وكتب كثيرة أخرى أقل من هذه شهرة . ثم ألفت كتب على هذا النهج بالتركية والأردية، وعند ما عرفت أوروبا كتب الحكمة العملية هذه أصبح الذكاء الفارسى والحكمة الفارسية مضرب المثل . وعندما بدأ سعدى يكتب ، كان النثر الفارسى قد صقل صقلاً جعله يختلف اختلافا تاما عما كان عليـــه من قبل . وإن ما يتسم به الگلستان من أسلوب أنيق وما يعبر عنه من أحاسيس تلقى قبولا عند سامعيها ، هاتان الميزتان جعلتا من الگلستان أشهر كتاب فى اللغة الفارسية ، والمثل الذى يحتذيه طلاب المدارس لتعلم الكتابة . إن وضع الحقائق المألوفة فى كلمات خالدة لفنٌّ ، وإن رواية أبسط القصص لفنٌّ أيضاً . وقد تفوّق سعدى فى هذين الفنّين وألّف كتابه الصغير الذى ضمنه قصصاً قصيرة فى الإرشاد وهو الكتاب الذى جعل أغنى الأمراء يغدقون المال على أبرع الفنانين والخطاطين من أجل تخليده .

ولقد كان للمؤرخ فضل لا يقل عن غيره فى العمل على إجادة النثر الفارسى وإن كان بعضهم قد لعب به لعباً غريباً فى سبيل ذلك . فقد جاء وقت رجع فيه الإيرانيون إلى ما اعتادوه فى سالف العهد من تسجيل الحوادث العظيمة للملوك الأقوياء، وقد آثر الطبرى اللغة العربية ولكنه على كل حال كان قد ركّز جُلّ اهتمامه فى الشئون العربية. ولكن الجوينى الذى التحق بخدمة هولاگو خان المخيف، سجل تاريخ المغول بأسلوب فارسى رفيع ، شبيه أكبر الشبه بلغة الدبلوماسيين . وقد اتخذ غازان خان ـ حفيد هولاگو خان ـ رشيد الدين (ت ١٣١٨) ـ وهو أحد الأطباء البارعين ـ وزيراً له وألف هذا الوزير كتاباً ضخماً فى تاريخ العالم كما شجع حمد الله المستوفى ـ وقد كان

باحثاً مبرزاً فى علم الكونيات[1] cosmology — على تأليف كتابه تاريخ گزيده (التاريخ المختار) وقد ضمنه منتخبات من التاريخ منذ بدء الخليقة حتى عام ١٣٣٠. وينتمى إلى هذه الفترة نفسها كتاب تاريخ وصّاف وهو كتاب ألف « بأسلوب منتفخ إلى أبعد الحدود يختفى فيه المعنى وراء جيوش من الكلمات، ويصبح التاريخ نفسه أمراً ثانويا بالنسبة للأسلوب المتكلف الذى يستخدم فى التعبير عنه ». هذا ما وصفه به ر. ليفى الذى يضيف إلى ذلك بحق « إن عدد الكُتّاب الذين اتبعوا هذا الأسلوب فى الكتابة — وخاصة فى الهند — كان كبيراً إلى حد أنه أصبح ذا تأثير على أوروبا ، وهناك ظلت الفكرة الشائعة عن النثر الفارسى حتى اليوم أنه يشبه فى خصائصه النثر الإنجليزى الذى كان يكتبه السادة الهنود Babu Eglish وهو أكثر أنواع النثر الإنجليزى استخداماً للمحسنات اللفظية» . ولم تكن هذه الفكرة عن الفارسية — عندما شاعت — غير عادلة ولا وليدة المصادفة ، فكم قضى الأسلوب الذى تشيع فيه المحسنات اللفظية على الذوق السليم فى عصور الانحلال . والمؤرخون الهنود الذين كتبوا بالفارسية فى القرن الثامن عشر — وكانوا على اتصال بالأوروبيين — عُرفوا بالولع بالأساليب الملتوية الجوفاء . ولكن على الرغم من ذلك فإنه كان فى إمكان المؤرخ الفارسى أن يكتب بلغة بسيطة ذات رصانة غير مصطنعة . وليس المؤرخون القدماء الذين أرخوا للمدن هم وحدهم الذين يثبتون لنا ذلك ، وإنما يثبته أيضاً رشيد الدين نفسه ثم مير خواند (ت ١٤٩٨) الذى عاش فى كنف مير على شير . ومير خواند هذا هو مؤلف الموسوعة التاريخية الضخمة المسماة روضة الصفا (على الرغم من أننا نصادف عنده من آن لآخر بعض الحيل اللفظية المملة) . وليس من شك فى أن البساطة البدائية التى كان عليها

---

(١) فرع من الميتافيزيقا . « وهو العلم الذى يبحث فى القوانين العامة للعالم من حيث أصله وتكوينه » انظر : مجمع اللغة العربية : مجموعة المصطلحات العلمية والفنية التى أقرها المجمع ، المجلد الأول ، ص ٦٠٧ ، القاهرة ، ١٩٥٧ . المترجم .

النثر الفارسى إذا قورنت بفخامة الإنشاء العربى وأناقته ـ وهو إلى حد بعيد يُعد من ابتكار الفرس الذين عملوا وزراء أو كتّاباً للدولة ـ هى التى دفعت المؤرخين ـ الذين لم تكن مهمتهم تبعد كثيراً عن الدبلوماسية ـ إلى الإكثار من المحسنات اللفظية وحشو الأسلوب بالتعبيرات العربية، إذ لم يكن لديهم أمل فى تعقيد نَحْوِ اللغة الفارسية وصرفها . ومن الفارسية ارتدت هذه الطريقة إلى العربية ثم امتدت على كل من الجانبين إلى التركية والأردية . ولكن مثل هذه المفاهيم الفارسية فى الكتابة يمكن أن تكون جذابة بعيدة كل البعد عن مضايقة القارئ، وقد تجلى لنا ذلك لا فى كتابات أصحاب الأساليب من الفرس مثل سعدى وجامى فحسب، وإنما فى كتابات مقلدين من الغرب مثل فليكر Flecker فى كتابه اللطيف « حسن » الذى كتبه بأسلوب ساخر قلد فيه أسلوب الفرس .

وكُتّاب التراجم من الفرس يدانون المؤرخين فى كثرتهم وهم كإخوانهم كتاب التراجم من العرب يدخلون فى التفاصيل ويترجمون للمجهولين بصورة لم تعرف فى آداب اليونان ولا روما . فمؤلفاتهم هى السلف الحقيقى للكتاب الإنجليزى القيم (القاموس القومى للتراجم)(١) . وعلى الرغم من أن دقة كتب التراجم الفارسية موضع للشك أحيانا إلا أنه لا جدال فيما تقدمه من عون للباحثين. وينطبق هذا بوجه خاص على مؤرخىْ الأدب محمد عوفى ودولتشاه الذين يرجع الفضل إلى كتابيهما المنطويين على الكثير من الجهد فى تعريفنا بكل ما نعرفه عن أوّليات الشعر الفارسى . ونحن ندين بالشكر المضاعف لعوفى لأنه جمع لنا فى كتابه «جوامع الحكايات» موسوعة قصصية ، وهذا الكتاب معين لا ينضب لكثير من المعلومات الطريفة الممتعة. وينتمى إلى مثل هذا اللون الأخير من التأليف كتاب چهار مقاله لنظامى العروضى وإن كان هذا الكتاب الأخير أصغر حجما بكثير وأكثر تخصصا . وتتحدث مقالاته الأربع عن الإجادة فى الكتابة والشعر والنجوم والطب . وتعد مقدمة هذا الكتاب نموذجا للتحية المتملقة التى كانت توجه للملوك :

(١) Dictionary of National Biograply

« ثم الثناء على سلطان الوقت ، الملك العالم العادل المؤيد المظفر المنصور (حسام الدولة والدين، نصرة الإسلام والمسلمين ، قامع الكفرة والمشركين ، قاهر الزنادقة والمتمردين ، عمدة الجيوش فى العالمين ، افتخار الملوك والسلاطين ، ظهير الأيام ، مجير الأنام ، عضد الخلافة ، جمال الملة ، جلال الأمة ، نظام العرب والعجم ، أصيل العالم ، شمس المعالى ، ملك الأمراء، أبو الحسن على بن مسعود نصير أمير المؤمنين) جعل الله حياته على مرامه ، وأكثر الناس طوع سلطانه ، وجعل نظام ذرية آدم بتدبيره واهتمامه »[1] .

وإن ترجمة إدواد. ج . براون على الرغم من دقتها المتناهية لا تقدم لنا إلا صورة باهتة لفخامة الأصل كما تتجلى فى العبارات المقسمة المسجوعة التى تتلألأ الواحدة منها تلو الأخرى ، ولذلك التعظيم الإيرانى الحق الذى وجهه أحد الكتاب الفقراء لأمير جعلته الصدفة ولى نعمته .

لقد رأينا من قبل أن شعراء الفرس تفوقوا فى نظم الملاحم ذات النطاق الواسع عند مااختاروا ذلك وعاونتهم الظروف،وأنهم كانوامستعدين أيضا لأن يكتبوا المنظومات القصيرة سواء منها الغزليات والرباعيات وهى ألوان من النظم كانوا ــ بوجه عام ــ أكثر استعدادا لإجادتها . ونحن نلاحظ هذه الثنائية نفسها فى الأدب المنثور . فبينما حقق البعض لنفسه الشهرة بضخامة الإنتاج، فإن البعض الآخر ــ وهم الكثرة الغالبة ــ قنعوا بأن يعرفوا بكتب صغيرة صاغوها وصقلوها حتى بلغوا بها أسمى ما يمكن الوصول إليه من الكمال . وهذا يشبه ما كان من تباين بين خداى نامه الضخم وبين پند نامه الصغير ، وربما بين الكم عند المصاب بجنون العظمة والكيف عند الخبير العارف . ومن بين الكتب الصغيرة التى يحضرنى ذكرها ــ إلى جانب تلك التى سبق أن

---

(١) انظر چهار مقاله (المقالات الأربع) الترجمة العربية بقلم عبد الوهاب عزام ويحيى الخشاب، ص ١١ ، القاهرة ، ١٩٤٩ . المترجم .

ذكرناها ـ كتاب المناجاة للأنصارى (ت ١٠٨٨) وهو دعاء رائع مزج فيه بين النثر والشعر ، وكتاب اللمعات للعراقى (ت ١٢٨٨) وهو مختصر صوفى دقيق عن نظرية المحبة الإلهية عندالصوفية، أو كتاب أخلاق الأشراف للزكّانى (ت ١٣٧٠) ويختلف عن الكتابين السابقين اختلافا بينا فى طبيعته ، ولكنه مثلهما يمثل العبقرية الفارسية المتعددة الجوانب ، وكتاب أخلاق الأشراف هذا ينطوى على تصوير ساخر لمجموعة الأخلاق الجادة المقبولة عند الناس ، وقدصيغ بأسلوب مشرق لاذع .

إن محاولة تقدير مدى الروعة فى الأعمال الأدبية الضخمة ومدىالروعة فى الأعمال الأدبية الدقيقة لتَبيُّن النسبة بينهما هى محاولة لا جدوى منها، شأنها شأن الموازنة بين الضخامة المعمارية التى تتجلى فى جِهِل ستون والجمال الأخاذ الذى يتجلى فى لوحة دقيقة من تصوير بهزاد . وإن إنتاج شعب واحد لروائع من كلا النوعين، الضخم والدقيق، لأمر قد يرجع إلى تلك المصائب البالغة العنف التى كانت تلحق بدولة الفرس . فبينما هى الآن دولة عسكرية قوية تسيطر على عدد كبيرمن الشعوب، إذا بها تصبح أمة مستعبدة يظلمها ويقتل أبناءها غزاة أجانب . وإن أحب موضوعات الوعظ إلى قلوبهم هو الحديث عما يحيط بمصائر الناس من شك .

« لقد كانت هذه المقطوعة اللطيفة مكتوبة على طاق إيوان فريدون :

« أخى ! إن الدنيا لا تبقى لإنسان
فحسبك أن تجعل قلبك متعلقا بخالق الكون
ولا تركن إلى مُلك الدنيا أو تتخذ منه ظهيرا
فكم تعهدتْ مثلك من الناس بالرعاية ثم قضت عليهم
وعند ما يعتزم الرحيل روحك الطاهر
يستوى الموت على تخت الملك أو على وجه الثرى »[1]

(١) سعدى: الكلستان، الحكاية الأولى من الباب الأول « فى سيرة الملوك » المترجم .

إن التجارب القاسية التى مر بها الفرس خلال بضعة قرون ، تلك التجارب التى انطوت على الكثير من الآلام ومن خيبة الأمل قد أوجدت فى أخلاق الفرس سكينة تبعث على الإعجاب، وإعراضاً عن الماديات، حتى إن الشاعر والكاتب والفنان والصانع، كل هؤلاء يرضون بأن يقضوا الوقت دون حساب وبصبر لا ينفد فى النحت والصقل، يقتلعون اللؤلؤة اللامعة القيّمة من صخرة القدر الصلبة الصماء .

ولهذا فإننا عند ما ننظر عبر الماضى خلال تاريخ الكتابات الفنية المنوعة ونحاول أن نبين أهم العناصر التى ورثها الأدب الإنسانى عن الفرس يمكننا أن نلخص ذلك على الوجه الآتى : إن الاعتزاز بالعظمة التى كانت للإمبراطورية الفارسيـــة فى سالف عهدها والإصرار على الامتناع عن قبول حكم القدر على أنه حكم لا راد له جعل الفردوسى يتغنى ليحفظ الحياة على فطرة العظمة فى نفوس بنى جنسه، وهذا ماصنعه الفنانون الذين غطوا جدران المؤسسات العامة بمناظر تعبر عن انتصارات الفرس فى العهود السالفة. ولو لم يكن الفردوسى قد تغنى على الإطلاق لكانت الخرائب التى تخلفت عن الماضى تهتف هتاف التحدى .

« أنا دارا الملك العظيم ، ملك الملوك، ملك البلاد التى تسكنها كل أجناس البشر، ملك هذه الأرض الشاسعة منذ أمد بعيد ، ابن فشتاسپ الأكمينى ، فارسى ابن فارسى ...فإذا تفكرت كم عدد البلاد التى حكمها دارا فتأمل هذه الصورة . فهذه البلاد تحمل تاجى ولهــذا سوف تعرفها . وحينذاك ستعرف أن الفارسى شنّ الحرب على بلاد تقع بعيدا عن فارس . . . . . أيها الإنسان ! هذا أمر أهورا مزدا إليك : لا تفكر فى الشر ، ولا تدع طريق الصواب، وتجنب الإثم ».

وإن ما رواه شعراء الفرس فى شعر مؤثر أعلنه مؤرخوهم بنثر قوى ، وقد أثبتوا بسلاسل من الأنساب صنعوها بكثير من العناء أن دم الأكاسرة ما زال يجرى

فى عروق فارسية . وقد ظل حيّا ماعرف عن الماضى من تقاليد البـــلاط ومن كرم الملوك ورحمتهم فى صفحات الـكتب التى ألفها من كتبوا عن الأخـــلاق أو آداب السلوك ليستطيع كل فارسى أن يحتفظ فى قلبه بالآيين حتى ولو أصبح خاضعا بعض الوقت لإرادة شعب آخر . فلابد أن تبقى الفضيلة بمفهومها القديم موضعا لاهتمامه التام . هكذا تـكلم حنظلة البادغيسى وهو شاعر خامل الذكر توفى حوالى عام ٨٧٥ عندما كانت أمة الفرس قد بدأت تتحرك بعد قرنين من سيطرة العرب :

« إذا كانت العظمة بين فـكى الأسد
فخاطر وخذها من بين فـكيه
فإما أن تنال العظمة والعز والنعمة والجاه
وإما أن تلقى كالرجال ، الموت وجها لوجه »(١)

ولـكن كثيرا ماتـكررت القصة . فقد سعى أمراء الفرس بحق وراء العظمـــة والثراء وراحة العيش، وكثيرا ما كـان نصيبهم من ذلك السعى ملاقاة الـكوارث لاعلى يد أعداء أقوى منهم ولـكن ـ كما صُوِّر لنا الأمر ـ على يد قدر كـان أقوى من أن يغلب .

« عندما لطخت دماؤه الحمراء وجه الثرى
أسود وجه الوفاء واصفر وجه الأمل

(١) الأصل الفارسى هو :

« مهترى گر بکام شیر درست
شو خطر کن زکام شیر بجوی
یا بزرگی وعز ونعمت وجاه
یا چو مردانت مرگ رویا روی

وانظر النص العربى لچهار مقاله ص ٣٤ .

المترجم

لقد أراد سيفه أن يشرب دم الموت نفسه

ولكن الموت أسرع فقضى على الملك »(١)

هكذا رثى أبو منصور المروزى (اشتهر عام ١٠٠٠) بطله المنهزم .

وقد اكتسح الترك والمغول والتتار سهول إيران الواسعة وسلاسل جبالها وخربوا مدنها الجميله وسبوا نساءها الحسان وقتلو النبلاء والعلماء من رجالها . وظلت روحها تنزع إلى مايدخل إليها السكينة . وكانت عند الواعظ والشاعر سكينة يستطيع تقديمها لتلك الروح ، كل على طريقته . وقد حققت رسالة الصوفية لبعضهم الرضى الكامل : فإن النفس الإنسانية بانفصالها عن الحبيب الحق وسكناها ذلك الجسد الفانى لابد أن تقاسى الآلام ولكنها تستطيع أن تؤمل فى العودة مرة ثانية إلى مدينة الأحلام التى فقدتها .

« لقد قمت برحلة بعيدة لأشاهد مدن الأرض الجميلة

ولكنى لم أرمدينة تشبه مدينة الحب

لم أكن أعرف أول الأمر مقدار هذه المدينة

ولذا مضيت عنها دون تعقل وأخذت أضرب فى الأرض .

كان علىّ أن أنصرف من مثل تلك الديار الجميلة

وأن أصبح كالأنعام أرعى كل عشب ألقاه ؛

(١) الأبيات فى رثاء الأمير أبو إبراهيم المنتصر وأصلها الفارسى مذكور فى لباب الألباب لمحمد عوفى ج ٢ ص ٩ طبعة لندن :

« ازخون اوچو روى زمين لعل فام شد

روى وفاسيه شد وچهر اميد زرد

تيغش بخواست خورد همى خون مرگ را

مرگ از نهيب خويش مرآنشاه رابخورد»

المترجم

وأصبحت مثل قوم موسى أفضل أن أغتــذى
على الثوم بدلا من المنّ والسلوى التى تنزل من السماء ؛
فكل صوت طرق أذنى فى هذا العالم سوى صوت الحب
لم يكن إلا صوت طبل مكتوم ،
ولكنى وراء هذا الصوت المكتوم سقطت
من عالم الكل إلى هذا العالم الفانى ؛
فأنا روح وحيد يسكن هذا العالم
أزحف فوقه كالثعبان دون قدم أو جناح .
والخمر التى كان شربها سرورا وهناء
كنت كالوردة أحسوها دون شفة أو حلق .
لقد نادى صوت الحب : « أيتها النفس ارحلى
عن هذه الدنيا فقد جعلتها دار عناء » .
ولكنى صحت وأكثرت الصياح : « لن أذهب من هنا » ،
نعم صحت ومزقت ثيابى وأثرت ضجيجا عظيما ،
بل إننى حتى هذه اللحظة لا أقبل الذهاب من هذا المكان
فأنا أخشى فراق هذه الدنيا .
لقد نادى الحب ثانية : « أيها الروح سر فى طريقك
وسوف أكون دوما بجانبك قريبا إليك مثل حبل الوريد » .
ولقد سحرنى الحب كثيرا وأفرط فى خداعى ؛
فاستولى علىّ خداع الحب وحبه لحظة من الزمان
فلما بسطت جناحى فى جهل وحمق
أسرعوا بى من القصر إلى السجن .
والآن أحب أن أقول لك كيف يمكنك أن تجىء إلى هذا المكان

ولـكن أواه ! لقد انـكسر قلمى وأصبحت أبـكم »[1]

هذا هو حلّ الرومى لمشكلة الفناء . وقد اقترح هذا الحلّ عدد كبير من عظام شعراء الفرس ومفكريهم. وفيه تتمثل إحدى اللامح الرئيسية لنظرة الفرس إلى الحياة، وهو تراث قيّم ثمين ورثه الفكر الإنسانى . ولـكن الفرس ــ بما لهم من طبيعة ذات جوانب متضادة تمثل إحدى خصائصهم النفسية الواضحة ــ كثيراً ما قدموا حلًّا آخر يناقض هذا الحلّ تمام المناقضة . وقد لخص أبو شـكور البلخى (اشتهر عام ٩٥٠) جانب اللاأدرية عند قومه فى نظرتهم إلى الحياة بقوله :

« إن الحدّ الذى وصل إليه علمى
هو أننى علمت أننى لا أعلم شيئاً »

وقد عبّر شاعر معاصر له كان أعظم منه هو الرودكى (ت ٩٥٤) عن المذهب الخلقى الذى يرى أن اللذة هى الخير الرئيسى الأوحد فى الحياة وأن واجب الإنسان الخلقى يتحقق بإشباع الغرائز والميول التى تبحث عن اللذات :

أيها الملك ! عش سعيداً مع ذوات العيون السوداء
فليس العالم سوى خرافة وهواء
فمن الواجب ألا يفرح الإنسان بما قد جاء
وألا يعيش فى ذكر ما قد مضى
أسفاً إن هذا العالم ليس سوى هواء وسحاب
فاحتس الخمر وليكن ما يكون[2]

(١) لقد نقلت هذه القصيدة عن الترجمة الإنجليزية لأنى لم أعثر على أصلها الفارسى . المترجم

(٢) ورد الأصل الفارسى لهذه الأبيات فى لباب الألباب لمحمد عوفى ج ٢ ص ٩، طبعة لندن .

شاه زى باسياه چشمان شاد　　كه جهان نيست جزفسانه وباد
زامده شادمان نبايد بود　　وازگذشته نـكرد بايد ياد
باد وابرست اين جهان افسوس　　باده پيش آر وهرچه بادا باد

المترجم .

وشاعر معاصر آخر هو الكسائى (اشتهر عام ٩٥٠) يسدى هذه النصيحة نفسها:

« لقد تغنى هـــذا الطائر الصغير الصداح
فكان غناؤه كأنه رسالة يبعث بها عاشق إلى معشوقته
فماذا يقول ؟ إنه يقول : أيهـا العاشق الذى يسهر الليل
أمسك بيد فاتنتك واخطر إلى جانبها فى البستان . »[1]

فالخمر تسعد قلب الإنسان والحب ينزل السكينة على نفسه ، بينما هو يسير فى ذلك الممر المظلم الذى يمتد من فَناء إلى فَناء ، وتلك هى فلسفة عمر ، ومذهب الجنون عند حافظ ، وسياسة اغتنام الحاضر عند كل من أحبَّ جمال هذا العالم وعرف أنه سريع الفناء ، كبساط الزهر الذى ينشره الربيع فى إحدى صحارى إيران .

هذا هو الصوت الآخر الذى صدر عن فارس ، صوت العظيم الذى تحيق به الهزيمة فهو يتعزى بتلك الكنوز التى يستطيع كل إنسان أن ينظر إليها ويلمسها فترة من الزمان ولكن ليس فى مقدور أحد أن يمتلكها أبد الدهر .

« ما أجمل العشق وخاصة فى وقت الشباب
وما أطيب العيش مع الحسان المليحات
وما أحسن الجلوس مع الرفقاء الموافقين
فاشرب معهم الخمــر الأرجوانيــة .

---

(١) الأصل الفارسى هو :

سرود گوى شد آن مرغك سرود سراى
چو عاشقى كه بمعشوق خود دهد پيغام
همى چه گويد؟ گويد كه عاشقا شب گير
بگير دست دلارام وسوى باغ خرام

وتمتـع بالعيش فى وقت الشبـاب
لأن وقت الشيخوخة هو وقت العجز
أتكون شابا وتعف عن العشق ؟
ماذا يكون هذا ؟ ألا تدرى أنه ليس إلا التعاسة
إن الشاب الذى لا يكون على الدوام عاشقا
قد ضاع منـه عصر الشباب »(١)

إذا كنا فى هذا التحليل الختامى لقيمة الأدب الفارسى قد أعرضنا عن البحث فى الشكل — وقد وجدنا فيه الكثير الذى يستحق الذكر — وفضّلنا الانصراف إلى بحث الروح التى انطوى عليها الشكل فذلك لأننا نعتقد أن الأشياء الخالدة بحقّ ، سواء فى الكلمات أو الأعمال ، هى الأشياء التى تتعلق بالروح . ولا تزال روح فارس تعيش فى كتاباتها وفى فنها على السواء . فإذا قارنا فساد سياستها بذلك النصر الخالد وجدنا أن هذا الفساد قليل الأهمية ، فإن الفرس فى انتصارهم وفى هزيمتهم ، ولكن فى هزيمتهم بوجه خاص ، علّموا العالم كيف يعيش فى وقار ومسرة ، سواء أكان هذا الوقار لإمبراطور أو لسائل ، وسواء أكان هـذا السرور على الأرض أو فى السماء . لقد عرف الفرس الحياة ، وأحبوا الحياة ، أحبّوها من أجل كلّ آلامها ومباهجها ،

(١) هذه الأبيات لفرّخى سيستانى المتوفى عام ١٠٣٧ . وقد وردت فى صفحة ٣٩٤ من ديوانه طبعة إيران ، ١٣١١ :

خوشا عاشقى خاصه وقت جوانى — خوشا بايرى چهرگان زندگانى
خوشا بارفيقان يكدل نشستن — بهم نوش كردن مى أرغوانى
بوقت جوانى بكن عيش زيرا — كه هنگام پيرى بود ناتوانى
جوانى واز عشق پرهيز كردن — چه باشد ندانى بجز جان گرانى
جوانى كه پيوسته عاشق نباشد — دريغ است ازو روزگار جوانى

المترجم

وعند ما كان يحين الوقت الذى يودع فيه أحدهم الحياة كان وداعه دائماً مصحوباً بنظرة آسفة على الماضى ورجاء بأن يُذكر على الأرض يشبه ذلك الذى نظمه إيرج ميرزا (ت ١٩٢٥)(١) :

« أيها القوم الملاح الذين يعيشون فى هذه الدنيا
أو الذين سوف يجيئون بعد إليها ؛
إن الراقد فى هذه التربة هو إيرج ،
إيرج الحلو اللسان ؛
إن هنا مدفن عشق الدنيا
بل إن هنا دنيا من العشق مدفونة ؛
لقد كان العشق فنى وأنا فى الدنيا
ولهذا فإن مدفنى هو مدفن العشق .
وسواء أكنت حيا أو ميتا فأنا عاشق
كل مليح الوجه أو لطيف الطبع
إننى أنا نفس الرجل الذى عند ما كان حيا
لم يقض ساعة من العمر دونكم ،
والآن بعد أن رحلت عن الدنيا
فإننى هنا جالس فى طريقكم .
فإذا كان التراب قد أصبح لى مأوى
فإن عينى مفتوحة تترقبكم ؛
فلتجلسوا عند قبرى لحظة
ولتجعلوا أقدامكم تمرّ فوق ثراى

(١) إيرج ميرزا أحد شعراء الفرس المحدثين ويعتبر من أوائل من بدأوا التجديد فى الشعر الفارسى والخروج به عن طابعه التقليدى . المترجم .

ولتذكرونى في حديثكم حينا
لتسعدوا قلبي وهو في قلب الثرى »(١)

وهذه دعوة لا نظنّ أحداً أسعده الحظ بمعرفة الأدب الفارسي يبخل بإجابتها .

---

(١) النص الفارسي هو :

ای نكويان كه درين دنيائيد — يا ازين بعد بدنيا آئيد
اينكه خفته است درين خاك منم — ايرجم ايرج شيرين سخنم
مدفن عشق جهانست اينجا — يك جهان عشق نهانست اينجا
عاشقی بوده بدنيا فن من — مدفن عشق بود مدفن من
هر كراروی خوش وخوی نكوست — مرده وزنده من عاشق اوست
من همانم كه درايام حيات — بی شما صرف نكردم أوقات
بعد چون رخت زدنيا بستم — باز در راه شما بنشستم
گرچه امروز بخاكم ماواست — چشم من باز بدنبال شماست
بنشينيد بر اين خاك دمی — بگذاريد بخاكم قدمی
گاهی ازمن بسخن يادكنيد — در دل خاك دلم شاد كنيد

وقد ترجمه المؤلف بشيء من التصرف الحسن على النحو الآتي :

« أيها القوم الملاح الذين يعيشون في هذه الدنيا
أو الذين سوف يجيئون بعدُ إليها
إن هنا يرقد إيرج المغنّي الحلو اللسان ،
وقد غطى التراب عينيه ،
فقد انطوى قبر هذا المحب الصادق
على دنيا من الحب مدفونة .

وهأنذا فى الموت كما كنت فى الحيـاة
أحتضن كل ثنية شعر شقراء وكل وجه مليح
إننى أنا نفس الرجل الذى عرفتموه ،
الرجل الذى قضى كل ساعة من العمر معكم ؛
فماذا لو تركت هذا العالم ؟
إننى على الطريق أنتظر الانضمام إليكم
وعلى الرغم من أن هــذه التربة مأواى
فإننى أترقبكم على الدوام ؛
إننى أسألكم أن تجلسوا هنا لحظة
وأن تجعلوا أقدامكم تمـرّ من فوق ،
فإن قلبى المنتبه إلى أصواتكم
سوف يسعد وهو فى قلب الثرى ».

المترجم



الفصل السابع

الأبسطة الإيرانية

ترجمة أحمد عيسى

تعتبر الأبسطة ذات الوبرة ، من الطرائف نسبيا فى انجلترا . فهى تكاد تكون غير معروفة لدى الانجليز فى القرن السابع عشر الميلادى. ولولا القطع القليلة المستوردة من فرنسا والأراضى المنخفضة ، وقطع أخرى نادرة مستوردة من الشرق ؛ لما عرفتها هناك صالونات القرن الثامن عشر الفخمة. ولم تصبح الأبسطة الوبرية من الضروريات اللازمة للمنازل ، بالنسبة للأغنياء والفقراء سواء ، إلا بعد أن ارتقت آلات النسيج ، أوائل القرن التاسع عشر ، فى إكسمنستر وكدرمنستر وجلاسجو وغيرها من البلاد .

أما فى إيران فقد شاع استعمال هذا النوع من الأبسطة مدة قرون عديدة . غير أن أحدا لا يعرف، ولن يعرف، عدد هذه القرون . فالقول بإيغال استخدام الأبسطة الإيرانية فى القدم ، نظرية مقبولة ولا تحتاج إلى برهان . ويؤمن بهذا القول سير جورج بيردوود ، وهو المستشرق الشهير والعالم الرصين ، الذى نقّب بحماسة شديدة فى كتابات الأقدمين، عن براهين تثبت وجود الأبسطة ذات الوبر زمن الملك كورش المتوفى عام ٥٢٩ ق . م واستمات سير بيردوود ، على إثبات رأيه بآيات من الكتاب المقدس ، وبنصوص من كتابات عشرين من علماء الدراسات القديمة . وكان المنتظر أن يظفر من كل تلك المراجع ببراهين مقنعه ؛ ولكننا وجدنا غير ذلك. وجدنا مراجع

وفيرة عن الملابس والستائر والأجواخ والأقمشة المطرزة والموشاة ولم نجد مرجعا واحدا نستطيع أن نقول عنه إنه يشير إلى استخدام الأبسطة الوبرية زمن الأكمينيين . ولا نعرف، بل ويبعد أن نعرف، فى المستقبل ، ما إذا غطيت أرضيات قصر الملك دارا فى پرسپوليس بالأبسطة الوبرية أم لا .

وقال سير بيردوود — فى تحمسه لإثبات اكتشافه باكورة الأبسطة الصفوية الفخمة — إن الستائر التى طالما تكلم عنها الكتاب الأقدمون ماهى إلا أبسطة بدليل أن الإيرانيين لا يزالون ، حتى ذلك الوقت ، يعلقون الأبسطة فوق جدرانهم . غير أنه مما يؤخذ على هـذا القول ، أن الإيرانيين قلما علقوا الأبسطة على الجدران يوم كتب بيردوود هذا الكلام . بل كان أثاثهم خشنا للغاية : فعلى الأرضية بساط أو أكثر ، وثمة زوج من المسارج فى كوتين متماثلتين من الحائط . أما النوافذ فزينت بالزجاج الملون (فى منازل الأغنياء) ، كما زينت الجدران بزخارف بارزة من الجص . وكان هذا هو كل أثاث المنزل بالإضافة إلى منضدة صغيرة وعدد من المقاعد ذات الظهر المستقيم . ولم توجد عندهم تحف : فلا زهريات للورود ، ولا صور، ولكن نادرا ونادرا جدا ما علقت الأبسطة .

ورغم عدم معرفتنا بمدى قدم الأبسطة الإيرانية ؛ إلا أنه من الممكن الاستدلال على ذلك بسهولة . فبلاد إيران شديدة البرودة شتاء ، ولا بد أن غطيت أرضيات خيام الرحّل منهم بطريقة ما منذ الأزمنة القديمة . والإيرانيون بطبعهم صناع وفنانون مهرة؛ ومثل هؤلاء لا يرضيهم أن يظلّوا زمنا طويلا يفعلون ما يفعله الأسكيمو والهنود الحمر من تغطية أرضيات خيامهم بجلود الحيوانات . والحقيقة أنه وجد لديهم ما يدفعهم إلى ابتكار شيء مختلف ذى ألوان زاهية إلى جانب توفر الخامات اللازمة لذلك ، إذ أن الأغنام تكثر ببلاد إيران . وهكذا يمكن القول أن الأبسطة اليدوية تطورت عن

استخدام أبسطة من جلود الأغنام؛ وهى الأغطية البدائية التى استخدمها الرعاة الرحل فى الهضبة الإيرانية .

أليس من المعقول إذن، القول بأن الأبسطة الإيرانية الفخمة متطورة عن الأبسطة القبلية المتواضعة التى استخدمها الرعاة الرحل هناك ؛ لا عن الستائر النفيسة والأقمشة المطرّزة والموشاة ، المنسوبة إلى مصر وبابل ونينوى ؟ .

ثم استقر بعض الرّحل تدريجيا فى القرى ، وأخذت هذه تنمو ، وأخذت المنازل تكبر ، فأصبحت الأبسطة الكبيرة أمرا ضروريا . وجرت عادة تبليط الأرضية عندهم بوضع طبقة من التراب على عروق من خشب الحور متقاطعة مع فروع منه . فإذا لم تغط هذه الأرضية بغطاء سميك يبلغ جدران الغرفة كلها ، ثار الغبار بسرعة وأصبح البقاء بها لا يطاق . ولا زالت عادة أهل إيران حتى وقتنا هذا ، تغطية أرضيات غرفهم تغطية شاملة بالأبسطة من جدار إلى جدار .

فحاجتهم إلى تغطية أرضيات غرفهم وحاجتهم إلى الدفء من برد جبالهم القارس ، دفعتهم إلى استخدام قدراتهم فى إنتاج أحسن أنواع النسيج ، واستخدام أذواقهم التى لا تبارى ، فى مزج الألوان وعمل الرسومات . وهكذا أصبحوا ، لحسن حظ البشر ، أساتذة العالم الكبار فى فن صناعة نسج الأبسطة .

وهناك من يقول ان هذا الفن لم ينشأ أصلا ببلاد إيران ! وإنما دخلها من وسط آسيا مع الغزاة من الأتراك والمغول . وتعطى اكتشافات كل من لوكوك وكوزلوف وسير أوريل شتاين فى وسط آسيا بعض ما يؤيد ذلك القول . غير أنه من الصعب أن نجد ما يؤيده تاريخيا .

كانت أول قبائل المغول الزاحفة إلى إيران ، هى قبائل الهون البيض ، الذين غزوا

خراسان فى القرن الخامس الميلادى . إلا أنهم لم يتوغلوا فيها أبعد من ذلك الإقليم ؛ ثم دالت دولتهم بعد قرن من الزمان . يضاف إلى هذا أن المغول لم يستصحبوا معهم نساءهم فى تلك الحملات وهن اللائى كنّ يقمن بصناعة الأبسطة لا المحاربون طبعا .

وفى المؤلَّف الجغرافى المسمى « حدود العالم » ، ويرجع إلى عام ٨٩٢[1] ؛ يذكر مؤلفه أن صناعة الأبسطة وجـــدت وقتذاك فى إقليم فارس ، الذى يبعد عن إقليم خراسان بألف ميل . فأى شىء يستطيع أن يلقّنه الترك أو المغول من هذا الفن لنساجى إقليم فارس ، رغم بعد الشقة بينهم ؟

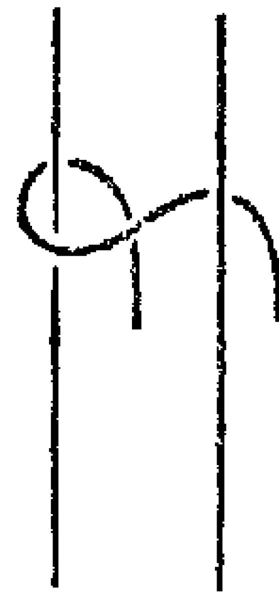
وفى مطلع القرن العاشر ، أقام محمود الغزنوى ، التركى الأصل ، دولته فى إقليم خراسان . وجاء الجغرافى العربى ، المقدسى ، إلى خراسان بعـــد ذلك بسنوات قليلة فذكر لنا شهرة مرتفعات قينات بصناعة الأبسطة وسجاجيد الصلاة . وبديهى أن الناس هناك لم يلتقطوا هكذا سريعا ، هذا الفن من الأتراك أتباع السلطان محمود .

يضاف إلى ماتقدم – وربما كان هذا هو خاتمة القول فى الموضوع – أن الأتراك والمغول لا ينسجون ، حيثما وجدوا ، إلّا بطريقة العقدة التركيـة ، وأن الإيرانيين لا ينسجون ، حيثما وجدوا ، إلّا بطريقة العقدة الإيرانية ؛ والطريقتان مختلفتان ، كما سيأتى . ومن العسير أن نضع حدا فاصلا بين من استخدموا هذه الطريقة أو تلك . فمن غير المعقول إذن ، القول بأن الإيرانيين تعلموا عمل العقدة الفارسية من الأتراك أو المغول ، مع أن هؤلاء استخدموا طريقة أخرى تختلف تماما عن السابقة .

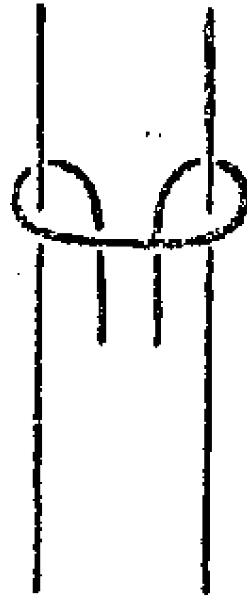
وإذا صرفنا النظر عن بعض حالات شاذة لا أهمية لها ، فإن العقدة المستخدمة فى

(١) ترجم هذا الكتاب مينورسكى فى سلسلة جب التذكارية تحت عنوان :
The Regions of World (Luzac, London 1937)

صناعة الأبسطة اليدوية فى بلاد الشرق ، كانت تتم بربط قطعة من الغزل الملون إلى خيطين من السّدى ثم يقص طرفا قطعة الغزل الزائدين عن الطول المطلوب للوبرة . ثم يعقد خيط الغزل على خيوط السدى بإحدى الطريقتين السابقتين تبعا لجنسيّة الصانع، سواء كان من أصل تركى أو من أصل إيرانى . وتـكاد تـكون هذه القاعدة عامة ؛ أما مايستثنى من ذلك فيمكن إرجاعه إلى مؤثرات خارجية .



العقدة الإيرانية



العقدة التركية

وتعرف هاتان العقدتان عادة باسم عقدة جورديز * وعقدة سنّة[1] على أننا لانعرف واضع هذه التسميات المضلّلة منذ البداية ، وإن ترددت كثيرا على ألسنة الـكتاب وهواة الأبسطة على السواء . حقيقة إن مدينة جورديز الصغيرة القديمة الواقعة فى غرب الأناضول تمتعت بشهرة واسعة كمركز للنسيج ، ولـكن هــذا لا يعدّ سببا وجيها لنسمى باسمها طريقة كانت سائدة عند جميع الشعوب التركيـة . ومن بين الأبسطة المشهورة التى نسجت وفق العقدة التركيـة : أبسطة عشاق وجرديز وأنواع أخرى كثيرة من أبسطة الأناضــول وشيروان وقوباز وقـزاق وجنچز وقراباغ بالقوقاز ، وأبسطة تبريز وإقليم هريز ، وأبسطة همدان الفنية بتنوعها ،

* نسبة إلى بلدة جورديوم القديمة فى مقاطعة افروجية ، حيث قطع الاسكندر الأكبر بسيفه عقدة الملك جورديوس المشهورة (دليل معرض سجاد تركيا فى دار الآثار العربية) . يحيى الخشاب.

(١) هناك طرق عديدة لتنفيذ هاتين العقدتين : من ذلك البدء من اليسار إلى اليمين أو العكس على أربعة خيوط من خيوط السدى بدلا من اثنين ... وهكذا . ولـكن أساس كل من الطريقتين ثابت لا يتغير .

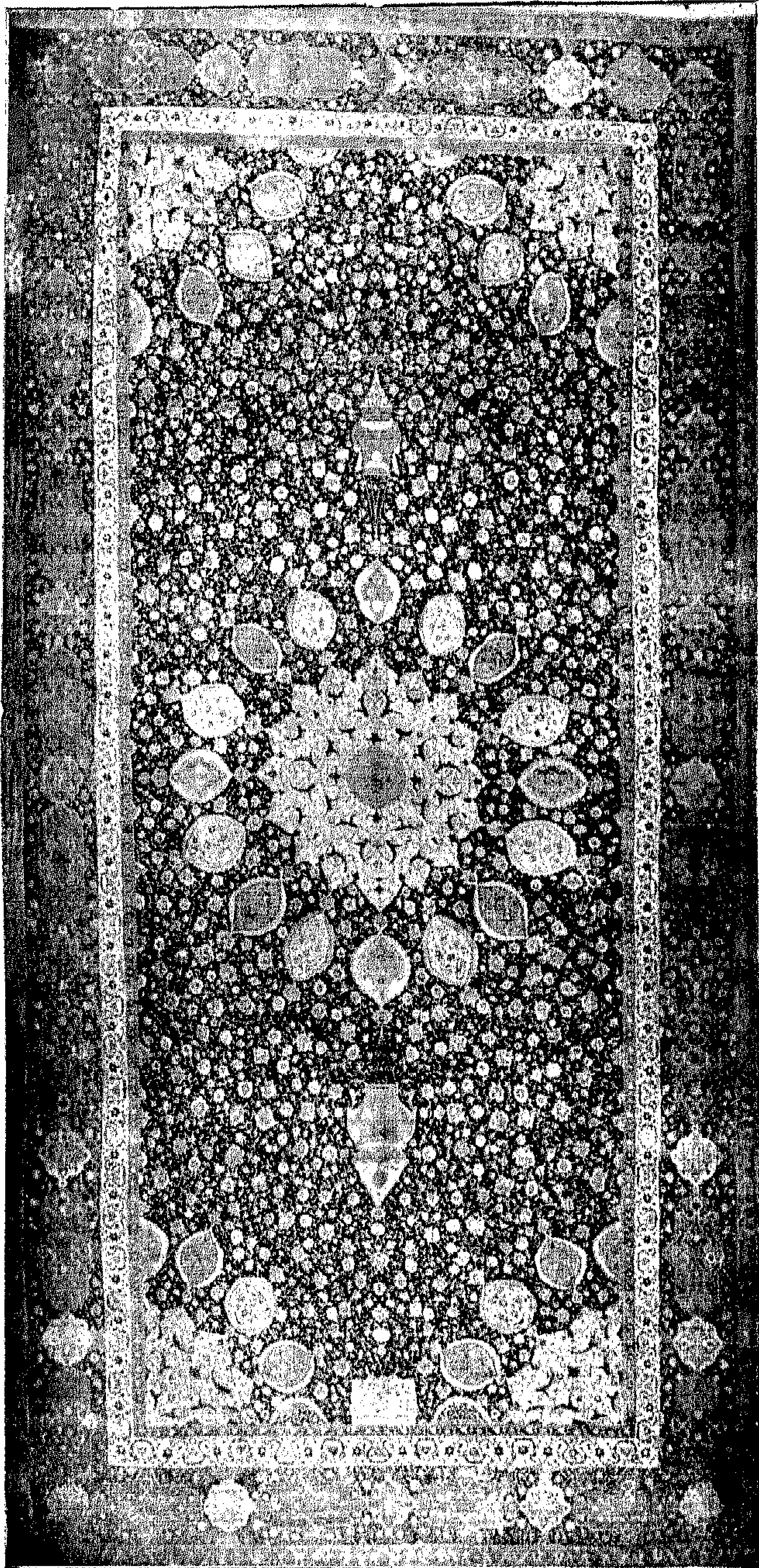
والأبسطة التى تصنعها قبائل مرو وبخارى وكشغر وقزيل أياق وبشير وياموت وقره قلپاق وكثير غيرها مما لا يقل عنها جودة وإن لم يبلغ شهرتها . فكل هذه الأبسطة تنسجها شعوب من أصل تركى، تتكلم التركية، ولو أن الأشياء تسمى بأسمائها الصحيحة لسميت هذه العقدة (أى عقد جوردين) بالعقدة التركية .

واختيار تسمية « عقدة سنّه » للطريقة الثانية عجيب أيضا . فالشخص الذى نسبها لأول مرة إلى مدينة سنّه الصغيرة فى كردستان الفارسية ، صارفا النظر عن باقى الأقليم الذى يستخدم هذه العقدة ، وربما ظن أن الأبسطة الرقيقة السخية التى تنسج هناك ، لابد أنها نسجت بعقدة هذا النوع الثانى . لأن هــذه العقدة الأخيرة تنتج أبسطة أسخى وأرق من العقدة التركية . ولكن الرائد الأول لهذا الموضوع ، خُدع بالمظاهر ، وغفل عن أن يراجع مصادر معلوماته ، لأن أبسطة سنّه ــ كجميع الأبسطة الكردية ــ تنسج وفق العقدة التركية . وعلى ذلك فنسبة هذه العقدة الثانية إلى سنّه يعتبر خطأ تاما بالنسبة لتسمية عقدة النوع الثانى .

والواقع أن عقدة النوع الأخير مستخدمة عنـد قبائل فارسية الأصل ، فارسية اللسان ، أمثال نساجى أرك ومشهد وبيرجنــد وكرمان وإصفهان ونايين وقاشان وقم . وهكذا يجب أن نعطى لهذه العقدة الثانية اسمها الحقيق فنقول : « العقدة الفارسية » .

وإذن فكيف تسنى للطريقتين : التركية والفارسية أن تستخدما الآن فى بلاد فارس ؟ إنه على أية حال ليس استخداما متجاورا فى نفس المدينة أو القرية ــ كما يتوقع البعض ــ ولكن فى أجزاء متباعدة من البلاد . وتفسير هذه الظاهرة يحتاج إلى بحث تاريخى .

فى القرن العاشر الميلادى تحركت بعض القبائل التركية الكبيرة ــ التى عرفت فيما بعد بالسلاجقة نسبة إلى مؤسس الأسرة المعروفة ــ ومعها أسراتها ونساؤها ، من أواسط



بساط أردبيل

مؤرخ ٩٤٦ هـ - ١٥٣٩ م ؛ بمتحف ڤكتوريا والبرت .

آسيا نحو الغرب حتى بلغت حدود خراسان . واستطاع هؤلاء السلاجقة بعد سنوات قليلة أن يقبضوا على زمام بلاد فارس كلها، وأن ينتزعوها من الخليفة العربى فى بغداد. ومع أنهم سيطروا على البلاد كلها ، إلا أنهم استقروا فى أقاليم أذربيجان وهمدان وربما فى سربند وبختيارى أيضا ، وحلوا محل سكانها من الفرس ، الذين فر أكثرهم أمام الغزاة إلى الجنوب . ونذكر هنا أن نساء الترك والفرس على السواء، كن من مهرة نساجى الأبسطة ، بصرف النظر عن طريقة العقدة المتبعة عند كل من الفريقين . وهكذا تكون ، عبر بلاد فارس ، حد جنسى ولغوى يفصل بين شعبين : أحدهما تركى وينسج وفق العقدة التركية ، والآخر فارسى وينسج وفق العقدة الفارسية .

وثمة بقاع هامة من إقليمى كرمان وفارس ، سكنتها قبائل تركية ـ مثل الأفشار وغيرها ـ وسط العناصر الفارسية الأصيلة . وقد أقيمت هذه القبائل فى أماكنها تلك نتيجة لتنظيمات سياسية وضعها الملوك الحاكمون . وعاشت هذه القبائل فى عزلتها حسب تقاليدها التركية ونسجت أبسطتها القبلية بالأسلوب التركى من حيث الرسوم والألوان وطريقة العقدة ، التى جاءوا بها معهم منذ قرون .

وفى ظل الاعتبارات السابقة ، يمكن أن نؤكد فى اطمئنان أن نسج الأبسطة حسب العقدة الفارسية ، معروف فى بلاد فارس منذ زمن طويل سابق لفتوحات السلاجقة والمغول ؛ وأنه من ابتكارات الفرس أنفسهم .

وتشير المراجع القديمة للجغرافيين العرب ، الذين زاروا بلاد فارس بين القرنين التاسع والرابع عشر الميلاديين ، إلى أن صناعة الأبسطة التى وجدت هنالك خلال تلك الحقبة الطويلة ، كانت صناعة قبلية أو ريفية المقصود منها سد حاجة السكان من الفرش اللازمة لتغطية الأرضية بغطاء يبعث الدفء والسرور إلى النفس ؛ إلى جانب متانته

ورخص تكاليفه . وربما تكوّنت الرسوم الشائعة إذ ذاك من وحدات صغيرة متكررة وتقليدية فى كل إقليم ؛ ولم تكن بهم حاجة إلى الاستعانة بزخرفين أو رسامين مختصين .

ولم يصلنا شىء من هذه الأبسطة الفارسية المبكرة ؛ ولا غرابة فى ذلك ، حيث إنها كانت تصنع من خامتين قابلتين للتلف بدرجة كبيرة هما الصوف والقطن ؛ وأولهما تبلى من دوام احتكاك الأقدام بها ، كما أنها تتعرض ــ بطبيعة الحال ــ لأذى الديدان والحشرات الصغيرة . والخامتان معاً سريعتا التلف إذا تعرضتا للرطوبة وتتفاعلان ببطء إذا تعرضتا للجو . وهكذا نرى أنه رغم قيام الفرس بصناعة الأبسطة منذ قرون عديدة لاستخدامها فى تغطية أرضيات بيوتهم تغطية كاملة ، إلّا أنه لم تصلنا قطعة واحدة يمكن تأريخها بالتحديد قبل عام ١٥٠٠ ميلادية .

والراجح أن عظماء سلاطين السلاجقة ، الذين حكموا فى هراة وغزنة ، فى القرنين ١١ ، ١٢ ؛ والذين كان لهم فضل كبير فى قيام ورعاية فنى الخط والتصوير ، عجزوا عن إدراك حاجات صناعة النسيج . وليس ثمة سوى إشارات قليلة عن الأبسطة فى الكتابات المعاصرة وقتذاك . وليس بغريب أن تكون هذه الصناعة قد أهملت فى عهد من خلفهم من الفاتحين المغول ــ جنكيزخان ، هولاكو ، تيمور ــ . إلّا أنه فى عهد شاهرُخ بن تيمور ، نالت صناعة الأبسطة قدراً من الرعاية ؛ إذ وُجدت رسوم أبسطة فى عدد من التصاوير المنسوبة إلى أوائل القرن الخامس عشر . ومعظم زخارف هذه الأبسطة ذات خطوط مزوّاة ، الأمر الذى يدل على عدم بلوغ هذه الصناعة درجة كبيرة من التفوق . أما متأخرو إيلخانات المغول فكانوا رجال علم وثقافة .

ووجد إلى جانب هؤلاء ، أمير آخر مستنير هو أوزون حسن ، من قبيلة الشاة البيضاء (١٤٦٦ ــ ١٤٧٧) ، الذى احتفظ فى قصره بأبسطة رقيقة ، وصلتنا أخبارها

عن طريق ما كتبه جوزافا بربارو ، سفير جمهورية البندقية فى بلاط أوزون حسن بتبريز .

وعلى أية حال ، فلم تنل صناعة نسج الأبسطة الرعاية الملكية والاعتراف بما لها من مكانة إلّا على يد الأسرة الصفوية . وفى عام ١٤٩٩ ، أى بعد سبعة قرون من الحكم الأجنبى ؛ قامت أسرة فارسية جديدة . ويعتبر الفرس ، إسماعيل ، مؤسس هذه الأسرة ، أول حاكم وطنى شغل عرش كورش وسابور منذ عام ٦٤١ م . ورغم هذه الصبغة الوطنية فإن الشاه إسماعيل يعتقد أنه من نسل الرسول (العربى) ، وقريب للشاه أوزون حسن (المغولى) ، إلى جانب مصاهرته لأسرة كومنين المسيحية بزواجه من الأميرة دسپينا . وكان إسماعيل متعصباً للمذهب الشيعى، فجعله مذهباً رسميًّا لدولته. وهو فى نظر الفرس المجدد والمحرر والمؤسس الدينى للأسرة الوطنية الشهيرة .

والحكام الثلاثة الأول من هذه الأسرة كانوا ذوى بصيرة ومقدرة[١] . والواقع أن التاريخ لا يعطينا أمثلة كثيرة لتعاقب ثلاثة حكام من هذا النوع المتكافئ فى فضائل زمنهم كملوك مثلما نرى فى هؤلاء الحكام الصفويين الثلاثة : الشاه إسماعيل والشاه طهماسب والشاه عباس .

رأينا أن أسلاف الصفويين كانوا أجانب ، لا يحفلون كثيراً بالحرف الريفية البحتة ببلاد فارس ؛ باستثناء شاهرُخ وأوزون حسن . ومن الطبيعى إذن ، أن يرعى أول حاكم فارسى يجىء بعد ثمانمائة سنة من الحكم الأجنبى ، الصناعة المحلية التى يجد فيها الفن مجالا واسعا ، ليحظى بتقدير رعاياه . وسواء كانت رعايتهم هذه صادرة عن سياسة أو عن فضل أو عن الإثنين معا ، فإنه من حسن طالع هؤلاء الحكام ،

(١) حدثت فترة من الاضطراب مدتها عشر سنوات ، بين وفاة الشاه طهماسب وتولية الشاه عباس ؛ تنافس خلالها ثلاثة أمراء على الحكم .

ولاسيما طهماسب وعباس ، إدراكهم ما فى فن نسج الأبسطة من إمكانيات . وبفضل هذه الرعاية ارتقت صناعة نسج الأبسطة من بساطة الأكواخ إلى مرتبة الفن الرفيع فى مدة قصيرة . ومعظم الأبسطة الشهيرة التى تزين المتاحف والمجموعات الفنية الآن، هى من صناعة إيران، وكذلك مما صنع فى عهد كل من الشاه طهماسب والشاه عباس . وقد وضعت هذه الأبسطة، الإيرانيين فى طليعة مزخرفى ونساجى الأبسطة التى جرى الفنانون فى أنحاء العالم على تقليد رسومها مرات ومرات . وبلغت هذه الرعاية أعلى درجاتها فى عهد أولهما . ووصلت إلى قمة شهرتها فى عهد الأخير .

وليس من دليل على اهتمام الشاه إسماعيل بتأسيس مصنع لنسج الأبسطة فى بلاط عاصمة تبريز . وربما يرجع ذلك إلى اشتغاله بتدعيم حكمه ومحاربة الأتراك والأوزبك ولعل هذه هى الحال نفسها بالنسبة للشاه طهماسب . وسوف نشير إلى هذه المسألة فيما بعد حينما نعرض لدراسة الأبسطة التى ترجع للأسرة الصفوية .

إننا نعرف الكثير عن ولع الشاه طهماسب بالأبسطة بدليل أنه — كما يقال — صور بعضها بنفسه . ونعرف أيضاً أنه كتب إلى السلطان سليمان القانونى يعرض عليه إرسال أبسطة للجامع المعروف الآن بجامع السليمانية الذى بناء سنان باستانبول . وألح طهماسب على سليمان أن يرسل إليه قائمة بأبعاد الأبسطة اللازمة ؛ وتمت صناعتها وأرسلت بسرعة . ويذكر سفير المجر ، الذى سجل هذا الموضوع ، أن هذه الأبسطة صنعت بهمدان ودرگزين، مما يدل على عدم وجود مصانع للأبسطة فى بلاط طهماسب. ومن حسن الحظ أن ينشىء الشاه عباس ، أشهر ملوك هذه الأسرة، مصنعا للأبسطة فى عاصمة بلاطه الجديدة ، إصفهان . ويشهد بذلك عدد من المراجع المعاصرة. وقد بنى هذا المصنع بين قصر چهل ستون والميدان الكبير ؛ كما تؤيد ذلك أقوال الفرنسيَّين تاڤرنييه وشاردان ، والسير روبرت شيرلى وپولندى من الجزويت ، بل ومن أقوال أحد أمناء سر الشاه نفسه ، الذى دون تاريخا مفصلا عن حكمه . ولما كانت هـذه

الأماكن موجودة حتى الآن فمن الممكن تحديد مكان المصنع بالضبط . ويقول تاڤرنييه إن الأبسطة اللازمة للبلاط الملكى نسجت هناك دائما وهو أمر من السهل تصديقه ، حيث إن الشاه عباس بنى عاصمته فى وقت سريع . ولابد ان اشتدت الحاجة إلى توريد الأبسطة اللازمة للقصور والمبانى الحكومية ومنازل رجال البلاط وكبار الوظفين وكذا لتقديم الهدايا للحكام الأجانب ولمبعوثيهم . وقد رأينا نشاطا مشابها لذلك فى المدة الأخيرة خلال حكم الشاه رضا بهلوى .

وتمثل الأبسطة التى صنعت فى تلك الفترة الطويلة،عديدا من المشاكل التى حيرت المختصين مدة جيلين ، وسوف تحير خلفاءهم لأجيال قادمة . فعلى الرغم من صنع تلك الأبسطة منذ أربعة قرون مضت ــ وهى مدة قصيرة إذا قيست بمقياس العالم الأثرى ــ إلا أننا لا نعرف عنها سوى القليل . فكيف نضجت هذه الصناعة وأثمرت بمثل هذه السرعة الفائقة؟ومتى صنعت هذه الأبسطة، وأين؟ ولماذا تدهور هذا الفن بعدأزدهاره عدة أجيال؟

وقد سبقت الإجابة عن أو أول هذه الأسئلة، إذ جاء تحول هذه الحرفة إلى فن راق فجأة ، نتيجة لقيام أسرة فارسية وطنية قوية جديدة . وعاصرت هذه النهضة ، تيار النهضات القوية الخصيبة التى عمت العالم بأسره فى القرن السادس عشر .

والسؤال الثانى هو كيف نعرف أن معظم هذه الأبسطة الفاخرة التى وصلتنا ، صنعت ــ كما نقول ونؤكد ــ خلال حكم الشاه طهماسب والشاه عباس ؟ لابد أن نفترض عدم وجود أدلة مؤكدة . حقا إن تاريخ الأبسطة الأثرية كان قائما على التخمين حتى السنوات الأخيرة . وعمد المختصون منذ جيل ، أمثال مارتن وبود ، إلى وضع تأريخات ظنيّة مؤسفة ؛ إذ جازفا بتأريخها ونسبتها إلى أصولها مجازفة غريبة بالنسبة لأشخاص فى مثل شهرتهما . وكم كان حرص تترسال وكندريك (من متحف ڤكتوريا والبرت) مقنعا حين ينسبان بساطا بعينه إلى « فارس » أو « شمال غرب فارس »

ويؤرخانه بقولها « يحتمل أن يكون من القرن السادس عشر ؛ وتحفظهما هذا ليس كسلا أو غباء ولكنه إخلاص ونزاهة » .

وعلى أية حال فقد تقدمت هذه الدراسة خلال السنوات العشرين الأخيرة . وتم جمع كثير من الأدلة الواضحة ؛ وابتكرت طريقة فنية مكنت المختصين من وضع تواريخ تقريبية لكثير من الأبسطة الفاخرة . وتقع هذه التواريخ ، غالبا ، خلال الفترة التى سبق أن أشرنا إليها .

وتتلخص هـذه الطريقة الفنية فى تاريخ أبسطة معينة ؛ لدينا عنها معلومات صحيحة ، ونضع حول تلك الأبسطة أبسطة أخرى ـ ليست لدينا عنها أية معلومات ـ فى مجموعات متشابهة فى أسلوبها . ونقصد من هذا التشابه فى الأسلوب أن تكون من فصيلة واحدة من حيث رقة الرسوم والخامات والألوان والصنعة .

والمعلومات الصحيحة التى تساعدنا على تأريخ الأبسطة ويمكن استخدامها كمحور للمجموعة هى ما يأتى :

ا ـ أن يكون منسوجا على البساط تأريخ صناعته .

ب ـ أن تكون ثمة إشارة عن وصف البساط فى المراجع التاريخية .

حـ ـ أن نتتبع رسم البساط فى المخطوطات المصورة أو المذهبة أو فى تصويرة ما أو على جلدة كتاب ؛ مما يساعد على معرفة تاريخ نسجه .

ولا شك أن أول هذه الطرق أكثرها قيمة ، لو أن الصانع فى هذه الأيام كان بعيد النظر ونسج التواريخ على قطع أخرى من إنتاجه . غير أنهم لسوء الحظ ، أهملوا هـذا الأمر ؛ ولم تدون التواريخ إلا على عدد قليل من بين مئات الأبسطة ، وأجزاء الأبسطة التى وصلتنا من العصر الصفوى . ومن بينها بساط أردبيل الذى يعد من مفاخر مجموعة متحف فكتوريا والبرت ؛ وبساط آخر رقيق ، تزينه رسوم

صيد، محفوظ بمتحف پولدى پتزولى بميلان. وقد أمكن استخدام هذين البساطين وقطع من أبسطة أخرى غيرهما، أقل منهما شهرة، كنقط بداية لتكوين مجموعات من الأبسطة المتشابهة فى أسلوبها .

أما الطريقة الثانية ؛ وهى أن نكوّن مجموعات من الأبسطة على أساس الأبسطة التى ورد وصفها فى المراجع التاريخية ، فلها أيضا قيمتها . ومن أشهر الأمثلة التى استخدمت فيها هـــذه الطريقة : قطعتان فى متحف الرّزدنس بميونيخ . ففى عام ١٦٠٥ م . أرسل سِجِزْمُنْد ڤازا ، ملك پولندا ، أحـــد التجار الأرمن واسمه موراتوڤتز ، إلى إيران بتعليمات لطلب عدد من الأبسطة اللازمة للقصور الملكية فى پولندا . وسافر موراتوڤتز بحراً إلى طرابيزون ومنها إلى قاشان ، مارا بأرضروم وقارص وتبريز وقزوين . ويحكى موراتوڤتز نفسه أنه عرض طلباته وأشرف هناك على نسج الأبسطة التى يريدها والتى حملت الشعار الملكى الپولندى . ويحتفظ متحف الرزدنس بأربعة من هذه الأبسطة ، يحمل اثنان منها رسم النسر وهو الشعار الپولندى . وبهذا نكون قد أرّخنا بشىء من التأكيد، ليس فقط مجموعة من الأبسطة المتشابهة فى أسلوبها ، بل وأكدنا أنها صنعت فى مدينة قاشان .

أما الطريقة الثالثة ، وهى تأريخ القطعة من رسومها فقط ؛ فلها نتائجها المفيدة بشرط أن نوافق على أن الرسم الذى يظهر على البساط وفى المخطوط المؤرخ أو على جلدة الكتاب أو فى النقش ، لابد أن تكون يد واحدة هى التى رسمته .

وثمة أسس معقولة لقبول هذا الرأى . إذ أن الملك الذكى المتحمس المتشوّق إلى أن تصنع فى عهده أبسطة تفوق أحسن ما صنع منها فى الأزمنة السابقة ؛ لا يسعه إلا أن يعهد بصناعتها إلى أمهر الرسامين والمذهّبين فى بلاطه ، وأن يدفع بذلك إلى أشهر النساجين .

وتحيّرنا مشكلة تحديد المكان الذى نسجت فيه هذه الأبسطة أكثر مما يحيّرنا الوصول إلى التأريخ التقريبى لها . إذ لا يوجد دليل صحيح على أصولها ؛ وكل قطعة يمكن نسبتها إلى واحد من ستة أماكن . وعلى أية حال فمن الصعب مناقشة هذا الموضوع تفصيلا هنا مناقشة عملية ؛ ولكن من الممكن مناقشته — كما سيأتى — فى دراسة اثنتين من أشهر الأبسطة الصفوية التى لدينا .

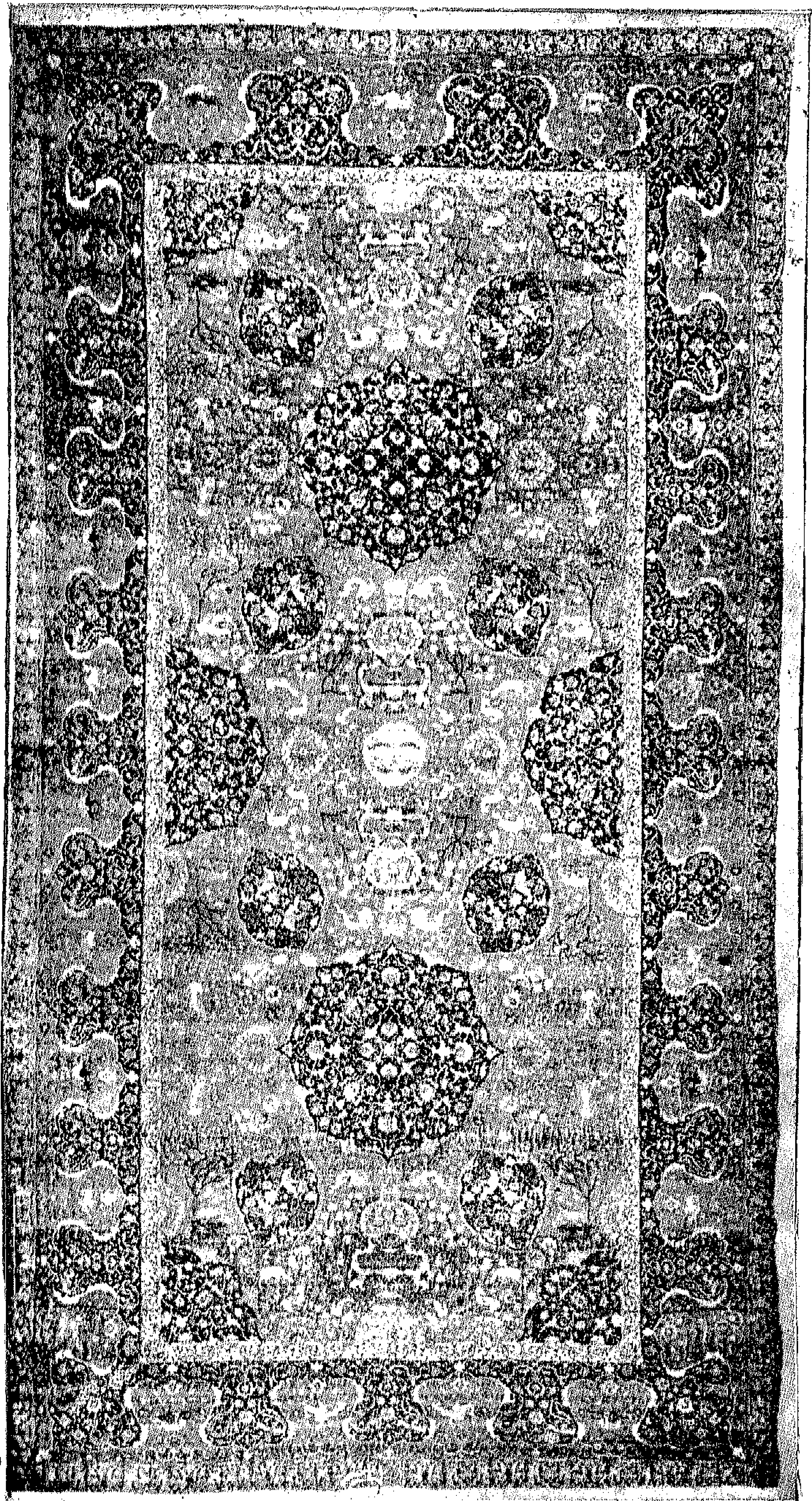
يمكن تقدير عدد تراثنا من الأبسطة الإيرانية، التى ترجع إلى القرون الخامس عشر والسادس عشر والسابع عشر ، بما يقرب من خمسمائة وألف قطعة ، بما فى ذلك الأجزاء غير الكاملة . ويمكن القول جملة أنها قطع تستحق الذكر ؛ مع أن الكثير منها ضعيف فى رسوماته وبه أخطاء فى صناعته . ولا امتياز لهذه القطع الأخيرة إلّا قدمها ، لو أن القدم ميزة . على أنه يمكن أن نعدّ من هذا التراث قطعاً كثيرة على جانب كبير من الامتياز ولا يقل المشهور من بينها عن مائتى قطعة .

ويمكن الحكم على نوع التراث الذى خلّفه لنا صفوة الرسامين والنساجين الصفويين بإجراء اختبار بسيط على سبع قطع ، يستطيع شخص واحد ، على الأقل ، أن يعتبرها من أحسن الأبسطة فى العالم . ولم تقم محاولات لترتيبها بحسب الأفضلية أو الزمن أو الموطن ؛ إذ أن تأريخ البساط القديم يعتبر من المغامرات الخطرة كما سبق أن أوضحنا . ولايقل عن ذلك خطورة مشكلة نسبة البساط إلى مكان بعينه ، فهذه أيضاً عملية غير مجدية . وسوف يتضح هذا الكلام فيما سيأتى من دراسة لنا على أول هذه الأبسطة السبعة وهو بساط أردبيل المحفوظ بمتحف فكتوريا وألبرت (لوحة ٤٨) .

يسمى هذا البساط الشهير : بساط أردبيل ، لأنه أخذ من جامع أردبيل ، حيث يدفن الشاه إسماعيل وجده الشيخ صفىّ الدين — الذى تنسب إليه الأسرة الصفوية .



جانب من أحد أبسطة الصيد
منتصف القرن ١٦ ــ متحف الفنون والصناعات بڤينا .



البساط المعروف باسم بساط شلسى ؟
القرن ١٦ ـ متحف ڤكتوريا والبرت بلندن .

وحصل المتحف على هـذه القطعة عام ١٨٩٣ ، من ڤنسنت روبنسن وشركاه ، الذين حصلوا عليها بدورهم من زيجلر وشركاهم بتبريز(١) .

ويحمل هذا البساط كتابة مأخوذة من افتتاحية قصيدة لحافظ الشيرازى هى :

« اللهم لا ملجأ لى فى دنياى إلّا عتبتك
ولا حمى لرأسى إلّا عند هذا الباب »
« صنعه خـــادم الأعتـــاب
مقصود القـــاشانى عام ٩٤٦ هـ . »

ويعتبر بساط أردبيل ، من أعظم الأبسطة فى العالم بسبب اتقان رسومه وحسن صناعته ؛ كما يعتبر وثيقة تاريخية فى المرتبة الأولى من الأهمية ، لأنه يحمل إمضاء الصانع وتاريخ صناعته . وعلى هذا فإن بساط أردبيل يعد أساسا لأبسطة الجامات أو الميداليات الفاخرة النوع ، المتشابهة الأسلوب . ويمكن نسبتها بالتأكيد إلى منتصف القرن السادس عشر لأنها نسجت عام ١٥٣٩م (٩٤٦هـ) ؛ وهى السنة الثالثة عشرة من حكم الشاه طهماسب الطويل ، الذى بلغ اثنين وخمسين عاما .

وخيوط السّدى واللحمة فى هـــذا البساط مصنوعة من الحرير ووفق العقدة الفارسية . وتحتوى البوصة المربعة فيه ، حوالى ١٧ × ١٩ عقدة تقريبا ؛ وهو مايتعادل مع أحسن أنواع أبسطة قاشان منذ خمسة وعشرين عاما تقريباً .

ويختلف بساط أردبيل عن الأبسطة المشهورة فى تلك الفترة ؛ فرسومه هادئة خالية من صور الحيوانات والأشكال الآدمية ؛ لأنه نسج ليستخدم فى مكان دينى مقدس حيث يحرّم القرآن وضع صور الحيوانات والأشكال الآدمية.

---

(١) أخذ من مسجد صفى الدين — فى نفس الوقت تقريبا — بساط آخر ، ويعتبر نظيراً للبساط المذكور فى الشهرة . وقد أصلح البساط الأول بجزء من إطار البساط الثانى .

أما الرسوم وتنفيذها ففى غاية الإبداع . والست عشرة ميدالية البيضاوية الشكل ، والمنتشرة على أبعاد متساوية من الجامة ، التى تـكاد تـكون مستديرة ، وذات الفصوص الستة عشر المدببة ؛ تشير إلى فـكرة رسم قبة مستديرة ، يتدلى من طرفيها مصباحان ذهبيان . وكما جرت العادة دائما ، كرر الفنان رسم ربع الزخرفة المركزية فى أركان البساط الأربعة ؛ وهو تقليد مناسب مقبول .

وتبدو الفخامة واضحة فى الإطار ذى الخرطوشات ، الذى يحميه من الجانبين زوج متماثل من الأشرطة التى تزينها وحدات زخرفية متقنة من رسوم السحاب . وقد غدا هذا الإطار ، الأصل الذى جرى عليه أسلوب رسم الإطارات فى سائر البلاد التى تصنع الأبسطة .

ويتفق الثقات على أن مثل هذا البساط الممتاز فى رسومه وصناعته ، لا يمكن إنتاجه إلّا بتعاون خبرة الرسامين والصناع فى ذلك العصر ؛ وهو ما يرجح توفره فى المصانع الملـكية بإيران . ولما كان الشاه طهماسب قد أمضى جانباً من حكمه فى عاصمته تبريز ؛ فإن البعض يؤكد قيام صناعة البساط فى أحد المصانع الملـكية التى أنشأها الشاه هناك . ويؤكد هؤلاء الثقات أيضاً أن مجموعة الأبسطة الفاخرة ذات الميداليات ـ من القرن السادس عشر والتى تشبه إلى حد كبير بساط أردبيل ـ لابد وأن تـكون قد صنعت فى تبريز هى الأخرى .

ولـكن .. كيف يتأتى ذلك وبساط أردبيل مؤرخ عام ٩٤٦ هـ (١٥٣٩ م) ؟ نحن نعلم أن الشاه طهماسب أدرك قبل هـذا التاريخ بمدة طويلة أن تبريز ـ بسبب موقعها ـ معرضة لخطر هجوم أعدائه الأتراك ولذا نقل عاصمته إلى قزوين . وكان الشاه محقا فى خوفه ؛ إذ أنه فى عام ١٥٣٣ ، أى قبل صناعة بساط أردبيل بست سنوات ، سقطت تبريز فى يد الأتراك . وهجرت وأعيد احتلالها ، فى خلال العشرين السنة التالية

مالا يقل عن أربع مرات . فهل يمكن أن نصدق أن الشاه طهماسب حينما نقل عاصمته إلى قزوين ، قد خلّف وراءه المصنع الملكى للأبسطة ؛ وأن تكون الأبسطة التى أوصى بعملها لتغطية المسجد فى أردبيل ، قد تمت صناعتها فى تبريز فى ظل الاحتلال التركى ؟

يمكن استبعاد تبريز كوطن لبساط أردبيل لاعتبارات فنية منها أن هـذا البساط مصنوع حسب العقدة الإيرانية ؛ على حين أن أهل تبريز من الأتراك، الذين ينسجون أبسطتهم حسب العقدة التركية ، والذين لا يزالون يفعلون ذلك حتى اليوم . وربما كان الصانع « مقصود » الذى نسج البساط ، جاء مع مئات من النساجـين من قاشان شمالا إلى تبريز ، بأمر من الشاه طهماسب لينشىء مصنعا تحت الرعاية الملكية هناك. ويحتمل أن يكون المصنع قد انتقل بصنّاعه إلى قزوين ، حينما نقل الشاه عاصمته إليها وفى هذه الحال يكون بساط أردبيل ومجموعة الأبسطة المشابهة له قد صنعت فى قزوين. ولو أن هذا هو ماحدث ، لخلفت لنا هذه الأحداث فى قزوين من التقارير أوالبراهين أو التقاليد ما يؤيد قيام هذه الصناعة بها . الواقع أنه لم يصل لنا شىء من هذا ، ولم يحدث قط أن أشار الإيرانيون إلى أن واحدة من الأبسطة الصفوية نسجت هناك .

وإذا كانت الدلائل على صناعة بساط أردبيل فى تبريز أو قزوين مبهمة هكذا ؛ فأين إذن نسج هذا البساط وإخوته التى تشبهه ؟

لاعتبارات فنية أيضا ، نستبعد صناعته فى مدن جنوب إيران ـ كرمان وشيراز ـ وكذلك مدن شرق إيران ـ مشهد . أما سلطان آباد فلم تكن موجودة حينئذ ، لأنها أنشئت فى القرن ١٩ . وفى همدان استخدمت العقدة التركية ، ولا دليـل على صناعة الأبسطة الرقيقة بها . ولم تصبح إصفهان مركزاً للنسيج الدقيق إلا فى عهد الشاه عباس ، الذى اتخذها عاصمة له وأنشأ بها مصنعاً ملكيًّا . وإذن فلم يبق أمامنا سوى أردبيل نفسها أو قاشان مسقط رأس « مقصود » الذى صنع هذا البساط .

ونكاد نؤكد الآن احتمال صناعته فى أردبيل، فلعل « مقصود » قد أمر بإحضار أنواله وصناعه هناك ولعله أقام أنواله فى رحبات المسجد ، حيث فرشت الأبسطة . حقًّا ربما تشير الأشعار المكتوبة على البساط إلى أنه نسج فى موضع مقدس ؛ لكننا لا نجد أى دليل فى أردبيل يؤيد صناعته هناك . ومن الصعب أن نصدق عدم وجود أى دليل فى المسجد ذاته ، لو أن الأبسطة اللازمة له ، صنعت فعلا فى داخله أو بجواره.

ونذكر أخيراً أنه من الممكن أن يكون هذا البساط مما صنع فى قاشان . وليس هذا لأن « مقصود » كان يكنى بالقاشانى ، ولكن فى البلاد التى لا توجد بها ألقاب، يعتبر موطن الميلاد الذى يلى اسم الشخص ، وسيلة من وسائل التعريف بالأشخاص. وليس من الضرورى أن يدل ذلك على أن « مقصود » عاش وتابع صناعته فى قاشان. ومع ذلك فما لاشك فيه أن القول بأن قاشان هى موطن البساط المشهور أكثر تأييداً من القول بأن موطنه تبريز أو قزوين أو أردبيل . فلا زالت قاشان مركزاً للصناعات الدقيقة ، وكانت كذلك طيلة قرون مضت . ولاحظ شاردان ، فى كتاباته التى ترجع إلى القرن السادس عشر ، عن قاشان ... أنه لا يصنع فى أى مكان آخر فى إيران من أنواع السّتان والمخمل والتفتاه والحرير المموّج[١] والحرير الموشى ذى اللون الواحد أو المطرز بالحرير على شكل زهور ، أو الحرير الموشى بالذهب والفضة ... أكثر مما يصنع فى هذه المدينة وضواحيها[٢] . ولا يختلف كلام سير أنتونى شيرلى كثيراً عن كلام شاردان فى حديثه عن قاشان . وهو يذكر بصفة خاصة الأبسطة الإيرانية المتناهية فى الدقة[٣]. ومن البديهى أن أهل قاشان استخدموا دائماً العقدة الفارسية .

---

(١) يطلق على هذا النوع اسم Tabby نسبة إلى العتابى أحد صناع هذا النوع المشهورين ببغداد (المترجم) .

(٢) Voyages de Mr. le Chevalier Chardin (Amesterdam, 1711).

(٣) Brief and true report of sir Antony Sherley, his Journey into Persia (London), 1660.

على أننا يجب أن نترك هذا الأمر آملين ألّا يكون القارئ قد ملّ متابعة الموضوع. ويكفى أن نذكر أن الغرض من هـذا البحث القصير هو إيضاح مدى الخطر ــ ما لم نكن بحاجة إلى استخدام تعبير أقوى ــ الذى يترتب على إيجاد دلائل مؤكدة فيما يتعلق بمكان صناعة الأبسطة الصفوية. وقد اختير بساط أردبيل موضوعاً لهذا البحث لأنه أحد الأبسطة النادرة التى تحمل تاريخاً وإمضاء. ومع ذلك ورغم هذه الملاحظات كلها فإننا لا نستطيع تتبع موطنها الأصلى؛ فكيف ندعى معرفة مواطن غيرها من القطع التى لا تحمل مثل هذه الدلائل الهامة.

نحن لا نعرف، وربما لن نعرف، مكان صناعة تلك الأبسطة. وكل ما نستطيع أن نفعله هو أن نشير إلى بعض الأماكن ونسجل أدلتنا عليها. وللقارئ ــ إذا كان مهتما حقا بهذا الموضوع ــ أن يختار لنفسه من بين هذه الآراء ما يشاء.

وثانى الأبسطة الرائعة فى هـــذه المجموعة، هو البساط الذى به رسوم الصيد، المحفوظ بمتحف الفنون والصناعات فى ڤينا. ويعد هذا البساط من أنفس ما خلفه التراث الإيرانى للبشرية؛ ويأتى فى المرتبة الأولى بالنسبة للأبسطة العالمية. ويعلن بعض الخبراء أنه من أدق الأبسطة التى صنعت على الإطلاق؛ وهو البساط الوحيد الذى يرد ذكره هنا بأنه مصنوع من الحرير: سدى ولحمة ووبرة. يضاف إلى هـذا أن بعض أجزاء رسوم الأشخاص فيـــه مفضضة أو مطرّزة بخيوط من الفضة. وتحتوى البوصة المربعة منه على ٢٧ × ٢٩ عقدة؛ الأمر الذى يجعله فريداً فى نوعه بالنسبة لأى بساط صفوى آخر (لوحة ٤٩).

ومناظر الصيد هنا، تحكى عملية الصيد حيّة كما تحدث فعلًا. فالصيادون على صهوات جيادهم ومعهم الرماح والسيوف والأقواس. ويبـدون فى هجمات قوية متحمسة ــ وليس ثمة هدف واضح ــ تجاه جمع زاخر من الأسود والفهود والذئاب والدببة والتياتل وحُمر الوحش وبنات آوى والأرانب البرية. وهذا تقليد واضح عند

الإيرانيين ؛ إذ غالباً ما يجهز الصيادون بما يحتاجونه — كما هي الحال عندنا — لإمكان تلافى أية مشقة بلا مبرر . أما الميداليات الثمـــانية الخضراء المدببة فتزينها رسوم مذهبة من أشـكال التنين والعنقاء بأسلوب صينى . وكما هو التقليد دائماً فى التصميمات الفارسية ، رسم ربع الجامة المركزية فى أركان البساط الأربعة .

والإطار فى هذا البساط الفاخر من أكثر الأشياء إلفاتاً للنظر ؛ فأرضيته قرمزية داكنة ، ورسومه مكوّنة من صور آدمية ذات أجنحة تتقبلُ من صور مماثلة لهـا هدايا هى أطباق من الفاكهة . وقد نفّذت رسوم الإطار بدقة متناهية ، ووزّعت على مسافات متساوية فوق أرضية مزينة بأشكال الطيور وأشرطة السحاب والزهور .

والراجح أن يكون مصمم هذا البساط أحد رسامى البلاط ؛ وربما كان هو سلطان محمد — على نحو ما يرى مارتن وغـيره أشهر مصورى بلاط الشاه طهماسپ . وتتمثل فى رسوم هذا البساط ، الحيوية والحركة والقدرة الرائعة فى التصوير ، وهى الصفات التى اشتهر بها ذلك الفنان المبدع . فإذا كان حقا من تصويره أو تصميمه ، فمن الراجح أن تـكون صناعته حوّل منتصف القرن السادس عشر ؛ لأن سلطان محمد مات حول عام ١٥٥٥ م .

وينسب هـــذا البساط إلى قاشان ، على أساس أن أهل قاشان هم الذين اعتادوا نسج الأبسطة الحريرية وقد تأكد صنع بعضها هنـاك فى القرن السادس عشر ، ولـكن هـــذا ليس دليلا بالنسبة للبساط الذى نحن بصدده . إذ من الممـكن صناعة بساط حريرى فى أى مصنع إذا توفر لديه الصناع المهرة . ولدى قاشان من الأدلة القوية ، على تفوقها ، كأى بلد آخر ، فى صناعة أدق الأبسطة الحريرية :

ويرى بعض المختصين أن نقطة الضعف فى هذا البساط هى لون أرضيته الأحمر الوردي . ويرجح أن هذا اللون كان زاهيا جميلا عند ما كان البساط حديث الصنع .

وثالث هـذه الأبسطة السبعة هو مايسمى ببساط شلسى (Chelsea) ، المحفوظ بمتحف ڤـكتوريا والبرت (لوحة ٥٠) . ووجد هذا البساط عند أحد تجار حى شلسى (بلندن) منذ خمسين عاما وعرف فى المتحف باسم بساط شلسى منذ ذلك الوقت .

ويؤكد البعض أنه أقدم من بساط أردبيل . وربما كان ذلك صحيحا ؛ ولـكن ليست ثمة ما يدعو إلى هذا التأكيد . ويمكن القول أنه وثيق الصلة ببساط أردبيل حقيقة وأنه ينتمى إلى نفس المجموعة المشهورة التى ترجع إلى عهد الشاه طهماسپ والتى منها بساط أردبيل ذاته .

ولا شك أن بساط شلسى من أعظم الأبسطة المعروفة فى العالم . ويرى كل من كندريك وتترسال (وكان هذا البساط فى رعايتهما) ، أنه ينافس بساط أردبيـل فى احتـــلال مركز الصدارة بين مجموعة متحف ڤـكتوريا والبرت . ويعتقد بود أنه يشغل المـكان الأول بين جميع الأبسطة ؛ وليس فى وسعنا إلا أن نوافق هؤلاء المختصين ؛ إذ يعتبر البساط حقيقة تحقيقا للرسوم الخياليـــة المتقنة ، مقترنا بالتنفيذ المحـكم الدقيق . ففيه فخامة بساط أردبيل وهدوؤه ، بالإضافة إلى جمال رسوم الأشكال الحيوانيـــة . أما ألوانه فتتـكون من خليط هادىء من الأحمر القرمزى الداكن مع جامات وحليات على شكل حرف ـ S بالأزرق القاتم . وهو ، كبساط أدربيل ، مصنوع من الحرير : سدى ولحمة . وتبلغ عقده ٢١ × ٢٢ فى البوصة المربعة ، أى أن عدد عقد البوصة المربعة منه تزيد عن بساط أردبيل بمقدار ٥٠ ٪ تقريبا ؛ والبساط جملة ، فى حالة جيدة جداً .

ولـكن . . أين صنع بساط شلسى ؟ لا يسعنا فى الإجابة على هذا السؤال ، إلّا أن نحيل القارىء إلى النقاش السابق فى هـــذا الموضوع ؛ ونضيف أنه من المرجح صناعة كل من بساطى شلسى وأردبيل فى مكان واحد ـ أيا كان هذا المـكان .

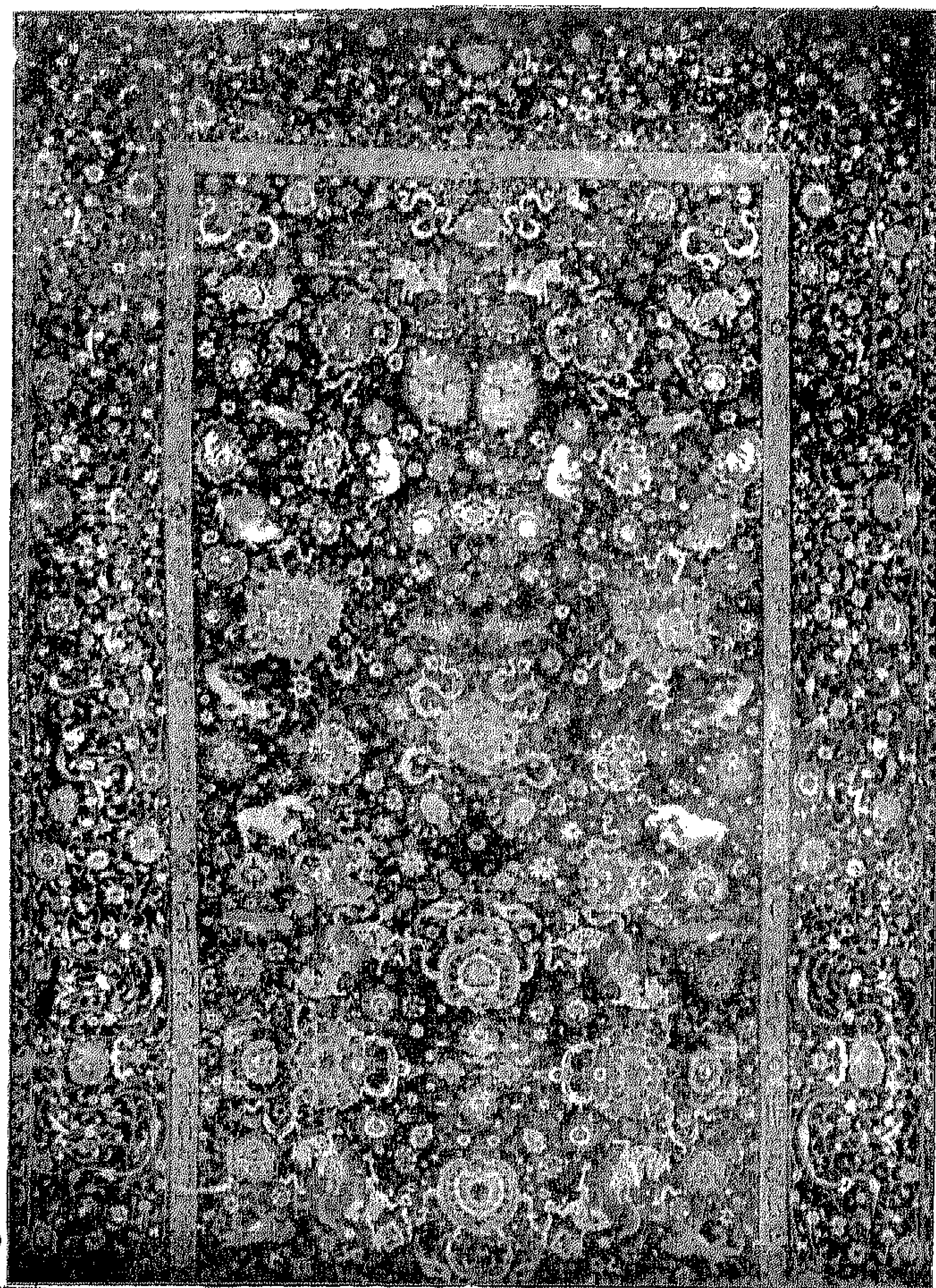
والبساط الرابع فى مجموعتنا المختارة هذه ، هو بساط تزينه رسوم الزهور والحيوانات ؛ ويوجد بمتحف الفنون والصناعات فى ڤينا (لوحة ٥١) . وهو واحد من أرق الأمثلة الباقية التى وصلنا عدد منها ، والتى تزينها رسوم الحيوانات والزهور. ولهذا البساط ، كغيره من الأبسطة ، ما يرفعه إلى عداد الأبسطة العظيمة المعروفة فى العالم . وسداه ولحمته مصنوعتان من الحرير مثل الأبسطة السابقة ، ويحتوى على ١٧ × ١٩ عقدة فى البوصة ، وهو نفس عدد العقد فى بساط أردبيل . وزخارف البساط جملة حسنة الرسم متقنة التنفيذ ، فيما عدا الزهرتين الكبيرتين ذاتى اللون الأخضر واللتين تتوسطان نصفى البساط العلوى والسفلى . والغالب أن مابهما من تشويه ، مرجعه الخطأ فى التنفيذ ، لأنهما جاءتا فى وضع منحرف ، وتلك عملية صعبة .

ويحتوى الإطار على عرض رائع لزخارف أشرطة السحاب مع التوريقات المتشابكة. ويفصل بين الإطار و بين بدن البساط شريط تزينه خرطوشات متساوية الطول بداخلها كتابة ، وهى الزخرفة الوحيدة فى هذا الشريط . وأرضية البساط حمراء زاهية، أما أرضية الإطار فخضراء قاتمة ؛ على حين جاء الشريط الكتابى باللون الأصفر .

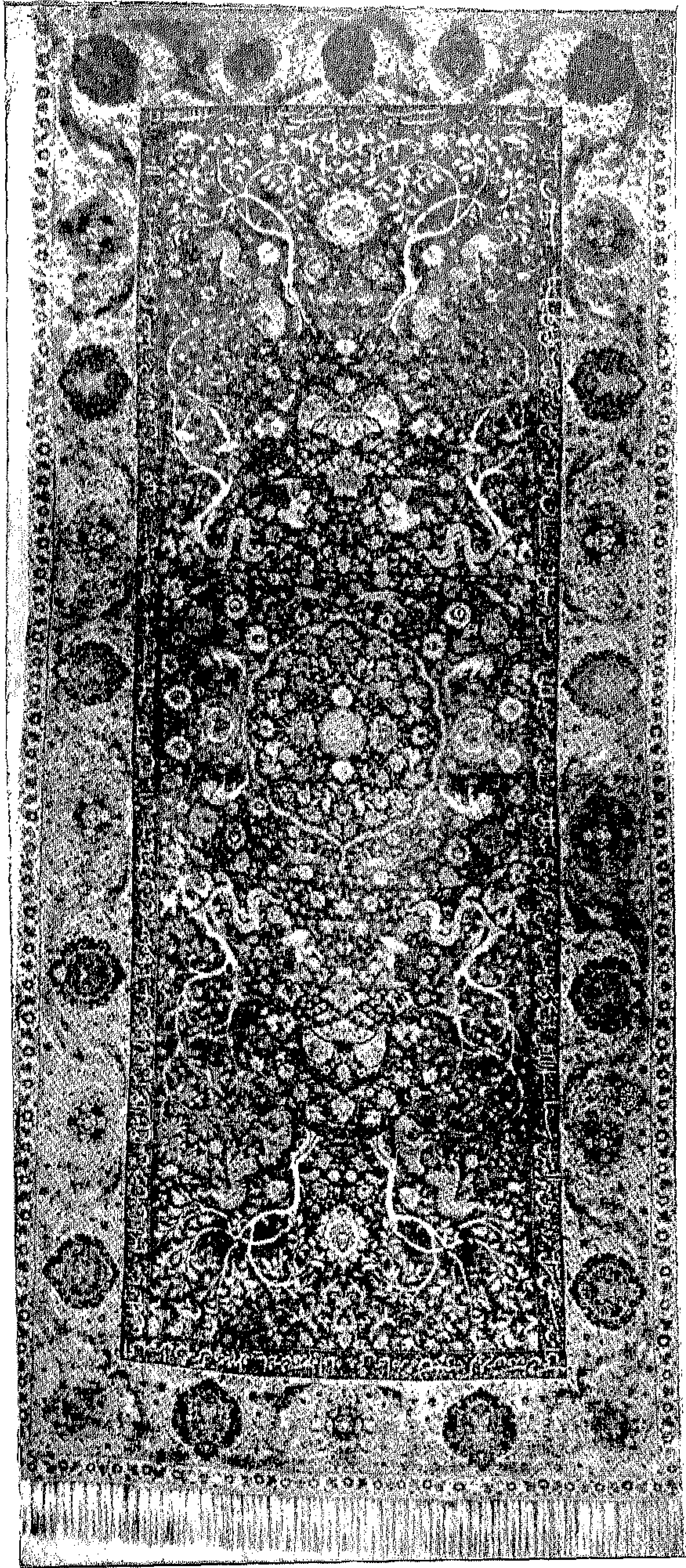
أين نسجت هذه المجموعة من الأبسطة ؟ .. إنها نسبت إلى شرق إيران بناء على أدلة غير موثوق بها ، على مايبدو . وربما تكون مصنوعة هناك ، ولكنها تبدو لنا أقرب شبها لما صنع فى غرب إيران ، وإن كنا لا ندرى أين صنعت .

ثم .. متى صنعت ؟ يتفق الثقات بوجه عام على أنها نسجت أواخر القرن السادس عشر تقريبا ؛ وهذا محتمل .

والبساط الخامس فى هـــذه القائمة .. هو بساط الأصيص أو بساط الزهرية ، المحفوظ بمتحف فكتوريا والبرت . ولابد أن تشتمل قائمة الأبسطة الفاخرة المختارة، على بساط يمثّل مجموعة رسوم الزهريات وتطوراتها المختلفة . وقد وصلنا من العصر



جانب من أحد أبسطة الزهور والحيوانات ، القرن ١٦ ؛
متحف الفنون والصناعات بڤينا .



أحد الأبسطة التى تزينها رسوم الزهور والحيوانات والجامات ؛
منتصف القرن ١٦ ـ متحف پولدى پتزولى بميلان .

الصفوى عدد كبيرمن أبسطة هذا النوع أكثر مما وصلنا من أى نوع آخر. والسبب الوحيد لهذا أن زخارفه تعتبر ، بصفة عامة ، من أحسن ما ابتكر على الإطلاق لتغطية الأرضيات . واشتملت هذه الزخارف على عدد كبير من الأشكال والتعبيرات الزخرفية الإيرانية الكلاسيكية ، التى ظلت ترسم مرات ومرات طيلة أربعمائة عام . بل إنها استخدمت فى سائر المنسوجات التى تستعمل لتغطية الأرضية حتى الآن ، كما استخدمها طباعو أقمشة الأثاث فى العالم بأسره .

ويوجد من أبسطة الزهريات ، مايزيد على خمسين قطعة ، بما فى ذلك الأجزاء غير الكاملة؛ وكلها موزعة فى المتاحف والمجموعات الخاصة بأنحاء العالم، ولا تخلو المجموعات الهامة من أمثلة منها . وعلى هـذا لم يكن ميسورا اختيار بساط واحد من بين ست من أفضل القطع ، التى تتضح فيها خطة الرسام أو تصميمه . وإذا كان هناك تصميم حقيقى لرسم الأبسطة فإنه يوجد فى هذا البساط بالذات .

وأخيراً يتأرجح اختيارنا بين بساط من مجموعة المتحف الأهلى ببرلين ، وآخر بمتحف فكتوريا والبرت بلندن .

ولكن بساط لندن أكثر رقة ورشاقة ، بينما بساط برلين أكثر وضوحا وإلفاتا للنظر . والتعبيرات الزخرفية فى بساط لندن أصغر من مثيلاتها فى بساط برلين ؛ ولهذا جاء التصميم واضحا . أما بساط برلين فتشغل مسطحه زخارف كبيرة الحجم تلاشت معها تصميمات الفنان تقريبا . وعلى أية حال،فإن كلا من بساطى لندن وبرلين يعتبر مثلا دقيقا لأنواع أبسطة الزهريات ؛ وإن كنا نرى أخـيرا أفضلية بساط لندن .

وإطار البساطين ضعيف الأسلوب كما هى الحال فى معظم أبسطة الزهريات .

وإذن .. فأين صنعت أبسطة الزهريات هـذه .. ومتى ؟ يجب على القارىء ألا يضجر من سؤال آخر لا أمل فى الإجابة عليه . ولـكنى لا أستطيع أن أسكت عن إثارة بعض نقط الخلاف فى الرأى ، بينى وبين الأستاذ بوپ، الذى يرى أن هذا النوع من صناعة قرية جوشقان الجبلية الصغيرة .

تتمتع هذه القرية حقيقة بشهرة فى إيران ، ولـكنها شهرة محدودة . وقد كانت المـكان الوحيد الذى استمر ينتج أبسطة من نوع متفق فى طريقة النسيج والرسوم والأصباغ قرابة مائتى عام وربما لأكثر من ذلك . ولولا جدة أبسطة جوشقان المصنوعة فى هـذه الأيام ، ولولا مايبدو عليها من اقتبال العمر وبهجته ، لقلنا إنها نسجت منذ قرنين من الزمان .

وهذه الأبسطة جميعها ، قديمها وحديثها ، تتمتع بخاصية واحـدة ، لو أنها أعطيت العناية الجديرة بها من ناحية الدراسة، فقد نُعَدِّل من الحـكم القاطع الذى ذهب إليه الأستاذ بوپ . وهذه الخاصية هى أن زخارفها منسوجة فى خطوط مستقيمة . ولا يوجد بساط من أبسطه جوشقان ، لمدة قرنين تقريبا ، إلا وقد رسمت تعبيراته وأزهاره بخطوط مستقيمة لا انحناء فيهـا . ومع ذلك فهو يؤكد أن أبسطة الزهريات تنسج فى جوشقان ، رغم أنها من روائع الأبسطة ذات الرسوم المنحنية الخطوط .

ولسنا بحاجة أن نضيف هنا أن أبسطة الزهريات هذه ، الفاخرة النوع ، الرائعة الأسلوب ؛ لابد لها من تضافر جهود مهرة الصباغين ، وبراعة المصورين والرسامين، وخبرة أعلام النساجين ، الذين مارسوا فنونهم سنين طويلة . ولا يتوفر مثل هؤلاء جميعا فى قرية جبلية صغيرة بالطبع ، حيث لا يقدر على مجابهة نشاطهم عدد صغير من الفلاحين الجهلة الفقراء وإذن فيتحتم أن يعمل هؤلاء الفنانون فى جو المدن الأكثر تحضرا .

وتضم موسوعة الفن الفارسي الضخمة Survey of Persian Art ما لا يقل عن ١٥٢ لوحة للأبسطة الإيرانية . ويؤكد الأستاذ پوپ ، في هـذه الموسوعة ، نسبة مالا يقل عن ٣٦ من هذه اللوحات إلى جوشقان ، مع الإشارة إلى أربعة احتمالات أخرى . ولم ينسب پوپ إلى أصفهان سوى قطعة واحدة ، مع أننا نعرف ــ وإن شابت معرفتنا سحابة من الشك ــ أن الشاه عباس أسس فيها مصنعا ملكيا بجوار قصره ، ليراقب بحب استطلاعه ونشاطه الذى لا يكل ، تقدم صناعة أبسطته يوما بعد يوم . ولـكن .. أين توجد إذن كل تلك الأبسطة التى صنعت خلال حكم ذلك الملك العظيم؟ نرى ، فى كثير من التهيب ، أن أبسطة الزهريات قد صنعت فى المصنع الملكى بإصفهان نفسها .

إننا نعرف أن عددا كبيرا من أبسطة الزهريات تمت صناعته فعلا ، أفلا يكون من الطبيعى أن يختار الشاه عباس رسما رقيقا من بين الرسوم التى عرضت عليه ، ويأمر بصناعة عدد منها فى مصنعه بأحجام مختلفة وأرضيات متعددة الألوان كالوردى والأحمر والأزرق الهادىء والأزرق الداكن والسمنى والأحمر القاتم ؛ كأرضيات الأبسطة التى وصلتنا من هذا النوع ؟ وإذا بدا هذا الرأى معقولا ، أمكننا أن نقول ــ بشىء من التأكيد ــ إن هذه المجموعة من الأبسطة صنعت فى إصفهان خلال حكم الشاه عباس ؛ أى أواخر القرن السادس عشر وأوائل السابع عشر . وأكثر الثقات متفقون حول هذا التاريخ على الأقل .

والبساط السادس .. هو من أبسطة الجامات والزهور والحيوانات وبه شريط من الـكتابه ، وهو بمتحف پولدى پتزولى بميلانو (لوحة ٥٢) .

ويبدو أن هذا البساط الفاخر ، يشبه بساط شلسى ومن فصيلته . فطريقة نسجه مماثلة ، ويسوده نفس الهدوء . ودرجات ألوانه الحمراء والزرقاء الداكنة ، مأخوذة من نفس

درجات ألوان بساط شلسى . وهو مثل شبيهه فى لندن من الحرير سدى ولحمة. ويبلغ عدد عقد البوصة المربعة فيه ١٨ × ٢٠ عقدة . وهو وإن لم يبلغ دقة بساط شلسى، إلا أنه أدق إلى حـد ما ، من بساط أردبيل . ويضاف إلى هـذا أن بساط ميلانو يختلف عن بساط لندن فى أن بعض أشكاله وشِّيت بخيوط مفضضة .

ولهذا البساط رسوم أخرى غـير مألوفة . إذ تتمثل فى ساحته رسوم أشجار حقيقية بألوان زاهية ، تختلف تماما عن رسوم الأشجار التقليدية التى تظهر دائما فى الأبسطة الإيرانية . ورغم أنها رسمت باتقان ونفذت بمهارة ، إلا أنها تبدو فى نظر البعض، غير متمشية مع التشكيلات الرصينة فى بقية البساط. ورأسا الجامة منفصلتان عن بدنها ، وهو ابتكار مقبول ، إلا أنه ربما يكون عيبا يعكر صفو قداسة التقاليد الفنية .

أما الحيوانات والزهور فى ساحة البساط وكذا الجامة البديعة ، وشريط الكتابة الضيق ، والإطار الرشيق المزدحم ، فـكلها مصممة ومنفذة تنفيذا بارعا .

ويتفق الثقات بوجه عام على أنه صنع ـ مثل شبيهيه بساط أردبيل وبساط شلسى ـ فى منتصف القرن السادس عشر ، أى خلال حكم الشاه طهماسب الطويل . أما بخصوص مكان صناعتها ، فنحيل القارىء إلى ما كتبناه عن موطن صناعة بساط أردبيل .

أما البساط السابع والأخير فى هذه المجموعة ، فهو من أبسطة الجامة ذات الكتابات. وتزينه رسوم زهور وحيوانات ؛ وله إطار به كتابات. ويوجد هذا البساط فى المتحف المتروبولتيان بمدينة نيويورك (لوحة ٥٣) . وقد وصلنا عدد من الأبسطة مشابهة لهذا البساط فى تصميمه وأسلوبه الفنى ، وكلها من العصر الصفوى ؛ ولـكن هـذا البساط أفضلها جميعا . وخيوط سداه ولحمته من الحرير ، ويعتبر من أدق الأبسطة الصفوية ذات الوبرة الصوفية ؛ إذ تبلغ عقد البوصة المربعة ٢٣ × ٢٤ وهو بذلك

أدق من بساط شلسي ، ولا يفوقه دقة إلا بساط الصيد الحريرى فى متحف الفنون والصناعات بڤيينا .

وتصميم هذا البساط أكثر خشونة وأقل إتقانا من معظم الأبسطة المشهورة ؛ وإن لم يقلل هذا من إعجابنا به . ويبدو أن الفنان الذى وضع تصميمه ، لم يهدف إلى جمله مثار الإعجاب أو الدهشة ؛ بل هدف إلى استثارة إحساس أكثر عمق وثبات . فالجامة المستديرة ذات الشريطين الأخضرين المتقاطعين وغير المألوفين ، يدور حولهـا من الداخل شريط من الكتابة على أرضية سوداء . وتاجا الجامة الكبيرة (اللذان يشبهان شواهد القبور الإسلامية) ، والإطار ذو الكتابات الفخمة بحروف فضية على أرضية سوداء ؛ كلها يعطى هذا البساط جوًّا دينيا ويجعله خاصا بالمساجد .

ويرجح أن يكون هذا البساط من صناعة القرن السادس عشر ، خلال حكم الشاه طهماسپ ؛ وإن كنا لا نعرف مكان صناعته .

ويعتبر القرن الذى انقضى بين وفاة الشاه عباس وبين الغزو الأفغانى، فترة انحلال واضطراب وهزيمة لإيران . ولم يحظ الملوك الصفويون الأربعة الأواخر، إلا بقدر يسير من الفضائل الملكية ، التى تمتع بها أسلافهم من أعضاء هذه الأسرة . وانصرف هؤلاء المتأخرون إلى ملذات الحريم ، وإلى الطعام والشراب وتدبير المؤامرات السياسية . ونتج عن هذا أن منيت الجيوش الفارسية بالهزيمة فى جميع الجبهات ، وضاعت من الدولة : بغداد وتبريز وهمدان .

وصدق من قال : إن كل حركة فنية ، تحمل فى طياتها بذور انحلالها . وإنه بدون التشجيع الدائم من الرؤساء وبدون التمجيد وخلق الجو المناسب ؛ تذبل العبقريات وينضب معينها .

وما من شك فى أن خلفاء طهماسپ وعباس ، فشلوا فى المحافظة على مستوى

الرعاية التى أولاها هذان العاهلان لفن نسج الأبسطة . وبزوال هـذه الرعاية المبذولة لأعلام الرسامين ومهرة النساجين، انتهى الأمر بتفرقهم أو بانقراضهم، دون العمل على خلق آخرين يحلّون محلهم . ورغم استمرار رسوم هؤلاء الأعلام فإن الصناعة نفسها انحطت وتدهورت وأصبحت رديئة بعيدة عن الإتقان . وأخيرا .. وفى عام ١٧٢٢م، سلّم الشاه حسين ، آخر ملوك هذه الأسرة ، بلاده وعرشه إلى الأفغان ؛ وانتهت هذه المرحلة العظيمة إلى نهاية شائنة .

شاهدت هذه السنين المائة من الانحلال ، التدهور التدريجى لفن صناعة الأبسطة. وقضى حكم الأفغان الدموى القصير ، على كل ما تبقى من هـذه الصناعة تقريبا . وأعقبت هذه الفترة المظلمة من التاريخ الإيرانى ؛ فترة أخرى مدتّها عشرون عاما من الصراع المتواصل . واستطاع نادر قُلى ، وهو من القواد القادرين ، وكان قبـل ذلك زعيما ناجحا لإحدى العصابات ؛ استطاع هذا القائد أن يطرد الأفغان ويستولى ثانية على تبريز وهمدان ودربند وباكو وأقاليم القوقاز . ثم اختير نادر ملـكا لذلك العرش الخالى . ولم ينل فن صناعة النسيج إلا قليلا جداً من الرعاية خلال تلك الفترة المضطربة من حكم ذلك الجندى العنيف .

ولا دليل على انتعاش هذه الصناعة خلال عهد كريم شاه زند الحاكم الرحيم غير المتعلم ، الذى اتخذ شيراز عاصمة له . حقا لقد كتب السير جون مالـكولم تاريخا مفصلا لهذه المرحلة ، وخصص فصلا كاملا عن المنتجات والمصانع والتجارة والفنون فى إيران حتى نهاية القرن الثامن عشر ؛ ولـكنه لم يجد ما يقوله عن أبسطة ذلك القرن . وعدم كتابة شىء عن هذه الصناعة ، من مثل ذلك الشاهد المدقق ؛ دليـل على المستوى المنحط ، الذى نزلت إليه .

ومع ذلك فلم تختف صناعة الأبسطة ، وإنما عادت إلى الانـكماش ، وصارت

حرفة يدوية قليلة الأهميـة ، وإن بقيت لها بعض الفائدة . ثم إن تأسيس الأسرة القاچارية وازدياد سلطانها ؛ وهى الأسرة التى أعقبت وفاة كريم خان ، أتاح لإيران حياة طويلة يظلها النظام والهدوء النسبى مما مهد الفرصة لانتعاش تلك الصناعة .

وسار ثلاثة من أهم ملوك الأسرة القاچارية ـ هم: فتح على شاه، وناصر الدين شاه ومظفر الدين شاه ـ بنجاح على نهج التقاليد القديمة لملوك إيران . وتميل هذه التقاليد إلى منع الإيرانيين من الأخذ بما لا تثبت فائدته من الإصلاحات الغربية . ومنحوهم مقابل ذلك فوائد لا تقدر بثمن ؛ هى الاستقرار وقدر كبير من الأمان . وبعد أن أخذ ملوك القاچار لأنفسهم القدر التقليدى من إشباع حاجاتهم وسمحوا بذلك أيضا لأتباعهم ـ ترك هؤلاء الملوك لشعبهم حرية الإفادة من فرصهم الطبيعية فى حدود القانون : يحرثون ويبذرون ويحصدون ويتنقلون وينسجون . وعلى حين يحـذف مالـكولم الحذر صناعة نسج الأبسطة من إيران فى أوائل القرن التاسع عشر ؛ نجد كثيرين من الرحالة ، فى الخمسين السنة التالية لذلك يشهدون بأهميتها وإلفاتها للنظر .

نرى من هذا كيف تعرضت الصناعة لتغييرات أساسية . ولـكن المرحلة الصفوية الرائعة ، تركت أثرها فى تلك الصناعة لمدة ثلاثة قرون ؛ وسوف يبقى ممها ، على ما يظهر ، ما بقيت صناعة الأبسطة فى إيران .

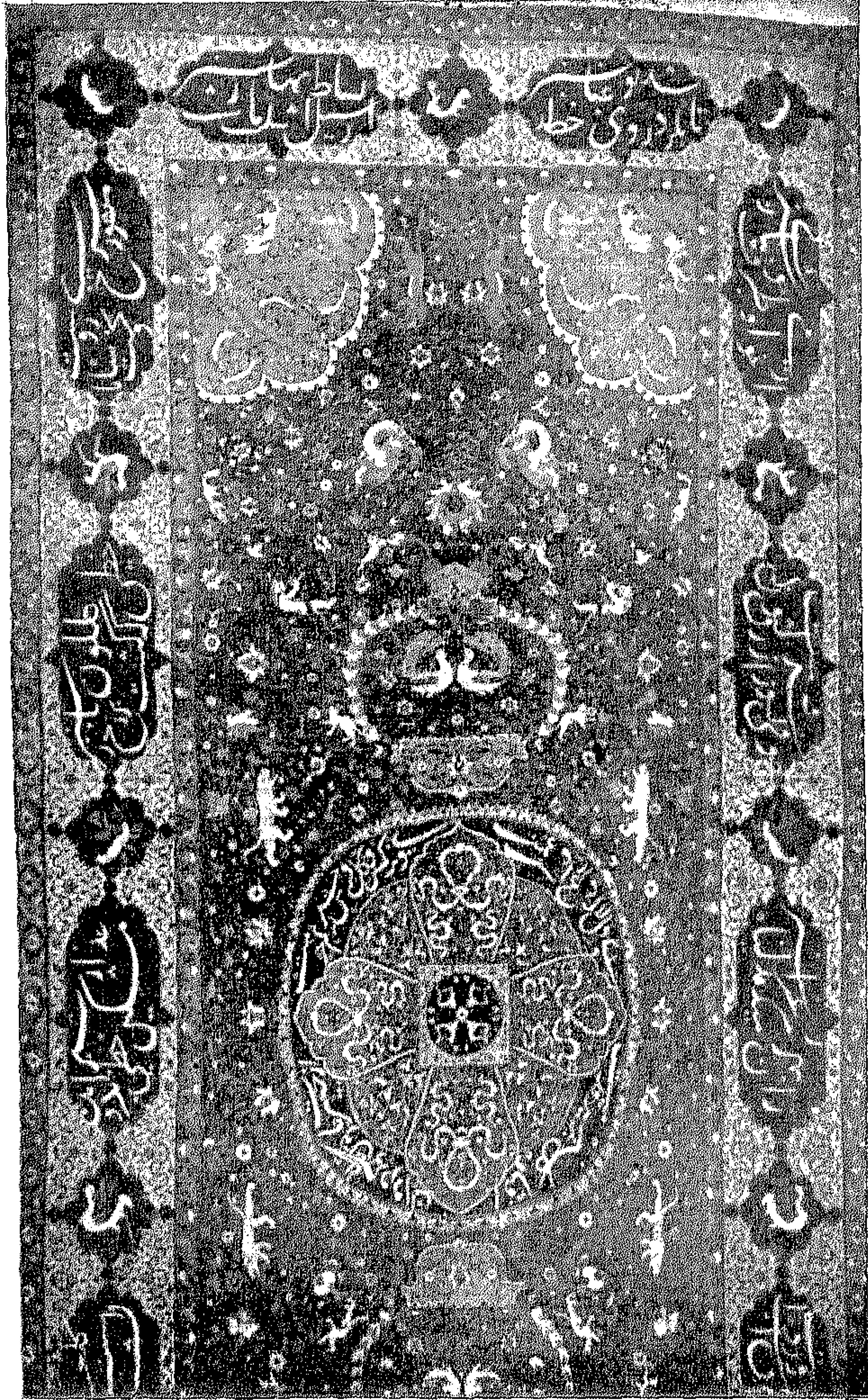
وقد استمر استخدام الأسلوب الذى كان متبعا فى تجهيز الخـامات على ما هو عليـه ؛ وكذا عملية النسج ذاتها ، ولم تتأثر سوى رسومها فقط . والواقع أن تأثير الرسامين الذين جمعهم الملوك الصفويون حولهم ، كان عميقا ومستمرا . إذ نقل هؤلاء وابتـكروا وطبقوا وقرروا مجموعات مختلفة من أشكال الزهور والحيوانات الصينية والعربية والإيرانية ، التى تظهر بين وقت وآخر معدّلة آلاف المرات فى رسوم خلفائهم ويستطيع كل رسام إيرانى اليوم أن يرسمها وهو مغمض العينين . وأى اقتراح لتغيير

أو تحسين واحد من تلك الأشكال ، يقابل برقة يصحبها رفض لا يتغير . وهذه التعبيرات الزخرفية هى أساس التصميمات الإيرانية الأصيلة .

ظلت الأبسطة الإيرانية — لعدة قرون — مادة للتجارة الخارجية ، ولكن على نطاق ضيق . وكانت معروفة ، ولها مكانتها فى بلاد الغرب منذ القرن الخامس عشر . وتظهر هذه الأبسطة فى قوائم التجارة القديمة وفى عدد قليل من تصاوير عصر النهضة الإيطالية والفلمنكية (هذا على الرغم من أن معظم الأبسطة التى رسمت فى تلك التصاوير قوقازية أو تركية) .

ومع ذلك فلم تجد الأبسطة الإيرانية طريقها نحو الغرب بكميات وفيرة ، إلا بعد منتصف القرن التاسع عشر . وتركزت هذه التجارة فى أيدى تجار تبريز ذوى الثروة والشهرة . وكانت لهم فروع فى استانبول حيث كانت وظيفتهم الرئيسية هى شراء بضائع الغرب ونقلها بحرا إلى بلادهم عن طريق طرابيزون . ووجد لهؤلاء التجار عملاء فى المدن الإيرانية الهامة ، يجمعون لهم الأبسطة القديمة من المنازل والأسواق ؛ ومعظمها كان مستعملا لمدة طويلة . ولما لم تكن بإيران مصارف مالية فى تلك الأيام ، فقد عمد الناس — كما هى الحال اليوم — إلى استثمار نقودهم فى شراء الأبسطة إلى أن يحين الوقت الذى يمكن أن تباع فيه فيقبضون ثمنها . ويرتفع ثمن هذه الأبسطة عن الثمن الذى اشتريت به فى البداية بعد مضى مدة على استخدامها تتراوح بين عشرة أعوام وأربعين عاما . وهكذا فاض سيل مستمر من الأبسطة القديمة ، أو المتوسطة القدم ، من المنازل على كل أسواق إيران .

واقتصر إنتاج هذه الأبسطة على السوق المحلية فلم تنسج فى المصانع وإنما كانت من صناعة القرى والقبائل . وهى ذات وحدات زخرفية صغيرة مكررة عادة . أما أحجامها فإنها لا تتفق وأساليبنا ، إذ أنها كانت طويلة وضيقة .



جانب من أحد أبسطة الجامات والزهور والحيوانات
ويلاحظ استخدام الكتابة فى زخرفة الإطار ؛
منتصف القرن ١٦ - متحف المتروپوليتان بنيويورك .

وكان عملاء تجار تبريز يجمعون كل مايستطيعون جمعه من هذه الأبسطة ويرسلونه إلى تبريز حيث يتم فرزه وتغليفه وشحنه إلى طرابيزون بعد رحلة برية طويلة بالقوافل. ومن طرابيزون ، تنقل هـذه الأبسطة بحراً إلى استانبول ، التى أصبحت سوقاً عالمية للأبسطة . ووفد على العاصمة التجار من انجلترا والولايات المتحدة وفرنسا بأعـداد متزايدة ؛ ولم يقبل عليها الألمان إلا فيما بعد . واستمر الإقبال عليها فى ازدياد ؛ ولـكنّ معين الأبسطة القديمة المحفوظة بالمنازل أخذ ينضب تدريجيًا .

وواجه أصحاب المشروعات الـكبيرة من تجار تبريز ، خطر انقراض تجارتهم المربحة ؛ فصمموا على مواجهة هذه المشـكلة بإنتاج أبسطة حديثة ، تصنع خصيصاً للتصدير . ورأوا أن تـكون أحجامها وألوانها ورسومها متفقة مع الذوق الغربى . وهكذا وجدت صناعة النسيج بإيران حول عام ١٨٨٠ ، حافزاً جعلها فى مقدمة نشاط البلاد التجارى ؛ بعد أن اضمحلت منذ الغزو الأفغـانى وأصبحت حرفة قروية لا أهمية لها .

وكان لابد من تغيير المميزات الأساسية لهذه الحرفة . إذ غدت الأبسطة الإيرانية التى كانت تصنع للحاجات المنزلية المحدودة، سلعة أساسية للتصدير واتسع الطلب عليها سعةَ العالم نفسه .

ولم يقف تجار تبريز عند حد تـكييف صناع القرى بتنفيذ طلباتهم ؛ بل إنهم سرعان ما أقاموا أنوالًا فى المدن ، حيث يسهل إشرافهم ومراقابتهم لعملية النسيج . وبدأت هـذه الحركة فى تبريز نفسها ، ثم لم يمض وقت طويل حتى امتدت إلى مشهد وكرمان وسلطان آباد وقاشان . وكانت الروح التى تحرك هـــذه الصناعة فى كل من تلك المدن منبعثة من تجار تبريز .

وأثارت الباكورة القليلة العدد من إنتاج تبريز ومشهد وكرمان ، فى تلك المرحلة

الجديدة ، الدهشة حينما ظهرت لأول مرة فى أسواق استانبول منذ حوالى ٦٠ أو ٧٠ سنة مضت . إذ اختلفت هـــذه الأبسطة الجديدة (التى لم تستخدم) عن الأبسطة القديمة السخية التى كانت تصدّر إلى هناك . وفوجئ المشترون لهذه الأبسطة الحديثة بتنافر ألوانها الداكنة والزاهية ؛ مما جعل بيعها مشكلة كبيرة . ولـكن تجار تبريز الأذكياء ، سرعان ما تغلبوا على هـــذه المشكلة بدهائهم المعروف ؛ فلم يمض وقت طويل حتى غطيت أسطح خاناتهم التى يتاجرون فيها بالأبسطة الثمينة وعرضوها لأشعة الشمس المحرقة فى صيف تركيا. وكان الرجال يمرون عليها برشاشاتهم فى الصباح الباكر كما يروى البستانى أزهاره ؛ ووجدوا أن رش الأبسطة وهى معرضة للشمس، يساعد على سرعة انطفاء ألوانها .

ومن أجل هـــذه الغاية ، لجأ التجار إلى استخدام وسائل أخرى متعددة كأن تفرش الأبسطة فى أرضية السوق حيث تـكثر حركة المرور ، وتترك كذلك أسابيع عديدة لتطأها أقدام الإنسان والحيوان . ثم تغسل القاذورات المتراكمة بنشارة الخشب أو بإحدى أدوات التنظيف المألوفة لهم . وحصلوا بالطبع على نتيجة لا بأس بهـــا ؛ ولـكن سرعان ما اكتشفوا أن إزالة حدّة اللون ، لا تحدث من إلقاء الأبسطة فى التراب ووطئها بالأقدام أو تنظيفها بأداة التنظيف ، وإنما تحدث من استخدام نشارة خشب البلوط . لهذا لم تعد تفرش الأبسطة فى الأسواق واكتفوا فى عمليتهم باستخدام نشارة البلوط . وهكذا ولدت طريقة غسل الأبسطة بعد عمليات طويلة من التجارب والأخطاء .

عدّلت زيادة عملية التصدير من صفات هـذه الحرفة . ولـكن .. هل تطوّرت إلى الأفضل ؟ لابد أن يكون الرد بالإيجاب . فمن الصعب أن نجادل فى أن الأبسطة التى أنتجتها إيران بين بداية القرن الثامن عشر ومنتصف القرن التاسع عشر لا يمكن مقارنتها بأحسن ما أنتجته مصانع كرمان وقاشان أوائل القرن العشرين ، ولا بمـا

أنتجته نايين وقم فى السنوات الأخيرة ، من حيث كثرة التنوّع ، وإتقان الرسم ، ودقة الصناعة .

ورغم عمق هذا التغيّر الإيجابى المفاجئ، إلّا أن أثره على أسلوب صناعة الأبسطة كان طفيفاً . حقًّا لقد تغيّر أسلوب الصناعة تغيّرًا يسيرًا جدًّا بمضى القرون ، ولكن الزخارف التقليدية فى رسومها ثبتت ثبوتاً مدهشاً جيلًا بعد جيل ؛ مع تعديلات تناسب الذوق الغربى العام كما حدث فى السنوات الأخيرة . والاستجابة إلى الأذواق الشائعة ، وتلبية رغبات المهتمين بتنسيق وزخرفة الأجواء الداخلية ، لا تلبث أن تؤدى وظيفتها وتنتهى سريعاً . ولكن التعبيرات الزخرفية التى ابتكرها كبار الرسامين فى القرن السادس عشر لا تزال باقية ؛ وهى تظهر فى آلاف التجمعات الزخرفية التى تزين الأبسطة اليوم لتثبت استمرار بقاء تقاليد عظيمة .

الفصل العاشر

الحدائق الفارسية

(فتنة للناظرين)

ترجمة احمد الساداتى

حين ينطق الرجل الإنجليزى بكلمة « حديقة » أو يتفكر فيها ، يتمثل لها بذهنه صورة بعينها يحدد معالمها أمور عدة ، منها مقامه فى الحياة ومبلغ شغفه بالزهور ، وربما كان فوق ذلك كله نصيبه من سعة الأفق . فإن كان من العامة فمثالها عنده لا يعدو كثيرا أن يكون رقعة من الأرض نافعة يرجو أن يسرح فيها صف من نبات البسلى ليمد زوجته بأزهار تزين بها نافذة المطبخ. وإن كان ذا ميسرة ، فللخضروات الجزء الخلفى من حديقته، فى حين يجعل من رقعتها الأمامية مرجة خضراء فيها بعض أحواض للزهر . فإن كان له من ثرائه ما يمكنه من حيازة سيارة يستطيع أن يجوب بها أنحاء ريفه أو ينفذ منه إلى دائرة أكثر اتساعا فيطلع على هذه الحدائق العديدة المفتوحة الآن لاستقبال الجماهير فستتسع دائرة تصوره ويزداد المثال الذهنى عنده تغايرا وطموحا . ذلك أنه سيأنس إلى حدائق ذات مثال فخم أطلقت يد البذخ فى إنشائها . ولعلها تكون على طراز يرجع إلى جملة قرون سلفت ، لها سياج عتيق وطرق وممرات ذوات أفنان ومنشآت بنائية كحواجز العمد الحجرية (درابزين) والجسور وتماثيل المسخ والبرك والنافورات وبيوت الصيف وبساتين البرتقال ثم المعابد القديمة التى أقيمت على توازن لطيف بحيث تنعكس صورتها الجميلة على صفحة ماء البحيرة ، فيثير

ذلك كلّه إعجابه دون اشتهائه، فهو ليس مما يبتغيه لنفسه على الإطلاق . فالحديقة التى يرغب فيها الرجل الإنجليزى العادى ، إذا كنت أحسن التعبير عن رغبته ، هى التى يسهل عليه تدبير شئونها وفيهـــا من الزهر مختلف ألوانه . ومثالها فى تعبير أوضح حديقة البيت الصغير بما فيها من ألفة تتوائم مع دارها ، ولها الممرات الضيقة والأحواض التى تزخر بالزهر الـكثيف من الثالوث وأذن الدُّب والقرنفل والزنبق والخطمية والورد والنرسيس الأصفر والأمولى مما لا يحتاج أمره إلى تأنق وإحكام . فهى مزيج مخلّط يتـكاثر عاما فعاما دون أن يرهق صاحبه من أمره عسرا (وإن كان هو نفسه يمكنه أن يبلغ به درجة أسمى) . ومثال هــــذه الحديقة هو ماتحمل صورته تقاويم البقالين الخاصة بالسنة الجديدة أو بطاقات الصور الخاصة بكوخ أنّا هاثاوى . ومناط هذه الصور أن جمالها فى الحقيقة فاتن ، وأنها مثيرة للعواطف والأحاسيس ، وهى أولا وقبـل كل شىء إنجليزية خالصة .

ولا يتمثل الفارسى الحديقـة على الصورة السابقة ، ففـكرته عنها مختلفة تماما . ذلك أن كل مايصبو إليه هــذا الذى يسكن هضبة صخرية مرتفعة هو الابتراد آخر المطاف من يومه . نَعَم ، الابتراد والخضرة والإنصات إلى خرير الماء بعد صمت الصحراء وماقطعه من الأميال فى منبسط لا أثر للظل به .

هذه هى فـكرته عن الجنّة وهى تتوافق إلى درجة كافية مع جمال اللفظ الذى يطلق عليها فى الإنجليزية ، ذلك اللفظ الذى هو واحـد من كلمات قليلة فى تلك اللغة ترد إلى الاشتقاق الفارسى . فلفظ بايراديزا الفارسى القديم يتركب من كلمتين : الأولى بيرا ومعناها حول ، والثانيـــة ديزا ومعناها أن يصوغ أو يطيّن ، ومؤداه الحقل أو المتنزة نظير ما تزال تدل عليه كلمة الفردوس فى الفارسية الحديثة فهى حديقة أو جنة . وقد دخل هـــذا اللفظ اللغات الأوروبية عن طريق كسينيفون [الفيلسوف اليونانى] فى كتابه إيكونوماخوس حيث يروى كيف أطلع كورش بنفسه ليسندر

على جنته فى سرديس فخلب لبه جمال أشجارها وضبط أبعادها واستقامة صفوفها وإحكام زواياها ، وما كان يهب عليهم من شذى عطورها الذكية العبقة وهم فيها سارحون. وحين طفق يهتف بمهارة العامل الذى أحكم كل شيء فيها صنعا ، رد عليه كورش مزهوا بأنه هو الذى قام بنفسه على إعدادها وضبط أبعادها (ولعله قد أثاره فى الغالب سوق المديح والثناء إلى من هوليس من نصيبه) كما مارس بنفسه كذلك القيام ببعض غرسها .

ولم يملك ليسّندر حين سمع منه ذلك إلا أن صاح به معجبا وهو ينظر إليه ويتأمل جمال ثيابه ومايفوح منه من عطر ذكى ، وروعة منطقته وأساوره وما كان يزدان به من كريم الجواهر « هل غرست حقيقة بيديك بعضا من هذا الغرس ؟ » .

وأكّد كورش لضيفه صدق مقالته ليحكى له من بعد ذلك أنه لم يكن ليجلس أبدا إلى غذائه ، مادام على سلامة بدن ، قبل أن يعمل بجد فى بعض شئون الحرب أوالزراعة . وإنا لنتساءل إذا ما كان كورش حقيقة هوالذى غرس شجرة الدُّلَب تلك التى بلغ من فرط إعجاب (خشيارشاى) بها حين شاهدها ، وهو فى طريقه إلى سرديس، أن استبد به الطرب حتى خلع عليها قبل مفارقتها سلاسل من ذهب وأساور ازينت بها أغصانها .

بهذا يمكننا ، ولا ضير ، أن نعد كورش الأصغر أول بستانى فارسى يُذكر فى الأدب . هذا وقد اقترن دخول كلمة الجنة(١) فى اليونانية ، ثم فى الإنجليزية عن طريقها ، بخيال رائع بعيد . وقرر ذلك بدوره أيضا سير توماس براون الذى عرف بتذوقه للجمال ، وإن وقع عنده بعض الخلط بين كورش الأكبر والأصغر . ومهما يكن من مبلغ الدقة عند براون فمحل اعتبارنا فيما كتب هوالنظرة الشاعرية عنده قبل كل شيء . فهوحين يتحدث عن الحدائق المعلقة ببابل يلاحظ أن الأشراف الفرس،

(١) Paradise

بعد انتصار كورش الأكبر على البابليين ، واصلوا عنايتهم المفرطة بالزراعة . وإليهم تنسب كلمة بارادير التى لانجد لها أثرا فى السفر المقدس السابق على الملك سليمان فهى فارسية ابتداءا . ويبدى السير توماس كذلك إعجابه الشديد بكورش (الأصغر) كبستانى « فهو ليس نصيرا للحدائق فحسب بل لقدمارس زراعتها بنفسه فأقام أشجارها على نظام محكم كنظام جيشه ، وتجمع الروايات على أنه المزارع المثالى البارع » .

وإنى ، على ضوء الصورة الذاتية التى أوردها كسينيفون ، لأتمثل اليوم جنة سرديس بليديا التى أنشأها ذلك الفاتح المرهف الصغير قبل الميلاد بأربعة قرون ونصف القرن ، وهو يرفل فى أساوره الرنانة ومناطقه وأثوابه الجميلة ، فأراها بستان فاكهة ومزرعة أكثر منها حديقة فى قولنا . وأغلب الظن أنها كانت المثال الذى احتذته الحدائق الفارسية منذئذ ، إن لم تكن قد تمثلته فعلا قبل وفاة كورش عام ٤٠١ق.م بسنين طويلة . ويرجح هذا الظن تلك الجفنة من الفخار التى اكتشفها الأستاذ هرتزفلد والتى يرجع تاريخها ظنا إلى حوالى عام ٢٠٠٠ ق . م إذ تظهرنا على صورة « قنوات متعامدة تحد أحواضا أربعة بكل واحد منها شجرة وطائر » . وهى صورة بالغة الدقة تطابق ما يستخلص من حديث ليسندر عن الصفوف والزوايا واستقامتها وضبطها وإحكامها . وقد كان أمرها عجبا . وهكذا نجد فى الحقيقة أن الحدائق الفارسية قد قامت جميعها على هذا الأساس الهندسى الدقيق حتى تأثرت بأفكار لاهوتية انبنى عليها تقسيم الواحدة منها إلى أقسام أربعة على مثال الصليب ، « وهو تصور فى بعض العقائد الآسيوية متناه فى القدم تسرب إلى ديانات كثيرة ، وأساسه تقسيم الكون إلى أقسام أربعة بواسطة أنهار أربعة كبيرة » . ونجد فى الإصحاح الثانى من سفر التكوين أنه « كان نهر يخرج من عدن ليسقى الجنة ، ومن هناك ينقسم فيصير أربعة رءوس اسم الواحد فيشون ، والنهر الثانى جيحون ، والنهر الثالث حِدّاقل والنهر الرابع الفرات » . ويبدو أن هذه الفكرة قد طبقت على ما يُعرف بأبسطة الحدائق فى القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلادى . ولا ينبغى أن يرد الأمر فى ذلك إلى مجرد فكرة

تقليدية أو مبتكرة ، فهو على العكس منه إذ قد قام على مجرد الواقع العملى الذى يقتضيه السق فى أرض جافة . فكل من يرقب البستانى الفارسى ، وهو فى سرواله الذى حسره عن إحدى ساقيه ، وهو يجرى المـاء فى قنواته ذات الجسور البسيطة (جوى آب) ، يقدّر تماما أن مثل هذا التصميم بتفريعاته لا معدى عنه . وهو بهيئته هذه يذكرنا ، على نطاق واسع ، بالطريقة البدائية التى يقيم بها الصغار قلاع الرمل بخنادقها التى يملؤها الماء دوريًّا . فالمـاء يجب أن يندفع فى القنوات صباح مساء ويفيض فى الأحواض . ولا يتأتى للإنجليز ممارسة ذلك ببلادهم ، مثابرين عليه ، حيث المطر ينهمر مدرارا باطراد. وهذا المـاء هو الذى يقرر فى الحقيقة هيئة الحديقة على الصورة التى نراها فى فارس ، والتى لا يمكن أن تكون على خلافها . فهو العامل الأول ، والسقىُ هو الذى يكوّن المِثال . وفى خاطرى أن نبيّن كيف تتآلف الواقعية واللاهوت فى هـــذه الطرق غير الصادرة عن قصد أو استدراك ، وهى الماثلة فى صورة الصليب ومجارى المياه التى تهب الحياة . إن الطبيعة وما وراءها يلتقيان هنا معا ، والتأمل فيهما سيودى بنا إلى مياه أشدّ عمقا من مياه القنوات الفارسية ؛ فلنترك ذلك للفلاسفة والشعراء لنعود بأنفسنا نشطين إلى دراسة الحدائق الفارسية على ضوء التاريخ .

إن مناخ الإقليم وارتفاعه هو أول ما ينبغى أن ننظر إليه بعين الاعتبار لمـا ينشأ عنه من صعوبات عظيمة جمة . وبلاد فارس هى فى الغـالب هضبة جافة مشمسة ، عاصفة الريح ، صيفها قائظ ، وشتاؤها زمهرير ، وماؤها ضحل تستمد أغلبه من ذوبان ثلوج سلاسل الجبال بها . ويجلب إلى مدائنها وقراها بواسطة القنوات (كهريز) وهى طريقة قديمة فذّة . وفتحات هذه القنوات المستديرة التى تبيح دخول الأنابيب فيها ، بغية اختبارها أو تنظيفها ، هى من خصائص هـذه البلاد المألوفة التى تطابق ما ذكره الدكتور فراير فى القرن السابع عشر الميـلادى عن ملفوظات الهضاب الصغيرة التى

تنطلق على فترات فى خط مستقيم من أدنى التلال إلى الأودية فتُحيل سُمرة أرض الصحراء المجاورة إلى رقعة خضراء تزدهر بالغلال والحور والصفصاف ومجامع القرنفل. هذا وأكثر من نصف مساحة إيران التى تبلغ مليونا من الأميال المربعة هى صحراوات تصليها الشمس بحرارتها أغلب أوقات السنة ، كما تجتاحها زوابع الغبار التى تتشكل على هيئة أعمدة فوق منبسطات هذه الصحراء التى يتكشف سراب البحيرات بها وهيئة جبالها عن أجمل المناظر الرائعة التى لا تصل إلى بهائها أى حديقة فارسية . أما الأمطار فهى لقلتها لا تدخل فى حسابنا (فيما عدا طبعا إقليمى قزوين : جيلان ومازندران اللذين لا نشير إليهما فى معرض الحديث عن الحدائق الفارسية إلّا نادرا) فهى بإصفهان مثلا لا يزيد معدلها فى العام على ٤½ من البوصات ، وفى سيستان بشرق فارس ١،٨٨ من البوصات وبطهران ٩½ من البوصات ؛ فى حين هى فى الجزر البريطانية تتراوح بمنطقة البحيرات فيما بين أربعين وستين بوصة ، بينما تصل فى المناطق الشرقية إلى ما بين خمس وعشرين بوصة وثلاثين بوصة . فالفارق هنا واضح له اعتباره . ففى الجزيرة البريطانية يتملك الناس الفزع إن طال بهم الجدب أسبوعين فيهرعون إلى المعابد يقيمون صلاة الاستسقاء ، فكيف بهم مع جدب يمتد على وجه التحقيق إلى شهور ستة فى العام على الأقل .

ومن ناحية أخرى فإن المطر حين يأتى إيران يقبل عارما . ويصف سير جون شارديل هطوله بإصفهان قبل حلول عيد الميلاد فى عام ١٦٦٦ بيومين ، إذ امتلأت الطرق بالمياه ، وغرقت البساتين ، وتداعت الجدران ، وخرّت الدور ، وفاضت الأنهار على شواطئها . ولقد يحدث هذا كله بدوره فى أى مكان آخر ولا غرابة فيه ، فما أكثر ما اقتحمت مياه نهر التاميز الوديع أقبية المنازل عند ميلبانك . ولكن الذى يعنينا هنا ، على هدى دراسة الحدائق ، هو ما ورد عند شاردين عن خاصية امتصاص التربة هناك ، حيث يقول : « لم يمض يومان على ذلك حتى كان الماء قد تبدّد ، فلم يعُد له

بعد انقضاء يومين آخرين أى أز وراءه . ذلك أن تربة إصفهان تمتص الماء كما تمتصه الأسفنجة ، فأربع قطرات منه توحلها ، وما أن تشرق الشمس من بعد ذلك لمدة ربع الساعة أو يهجم الصقيع حتى تجف الأرض على وجه التمام » .

والرياح لها فى ذلك كذلك حساب . فريح الشمال تهب على الداخل أغلب أشهر الصيف جافة عاتية تثير الغبار من مرتفعات الوسط وتسوقه أمامها فى رحلة طويلة إلى الخليج الفارسى . هذا فى حين تهب ، من آخر شهر مايو حتى نهاية شهر سبتمبر ، على الأقاليم الشرقية رياح شمالية غربية تبلغ سرعتها المزمجرة سبعين ميلا فى الساعة . وهذه الطبيعة الصاخبة العنيفة لا يُدْخِلها البستانى الإنجليزى فى حسابه أبداً ، فهو رجل محظوظ ينعم بجو معتدل .

إن الجدب والرياح والتربة الصحراوية لا تلائم فلاحة البساتين . هذا فضلا عن قيام غالبية المدن الفارسية على ارتفاع يصل إلى مستوى قنن أعلا جبال بريطانيا أو يزيد . فطهران تقع على ارتفاع أربعة آلاف قدم فى حين يبلغ ارتفاع إصفهان ستة آلاف تقريبا ، أما شيراز فعلى خمسة آلاف ومائتين من الأقدام وأما مشهد فعلى ثلاثة آلاف (وتقع سنودن وبن نويس على ارتفاع ثلاثة آلاف وخمسمائة وستين قدما وأربعة آلاف واربعمائة قدما على التوالى) . هذا كما تتفاوت درجات الحرارة والبرودة تفاوتا شديدا تبعا لذلك . فشتاء إصفهان قد تصل درجة البرودة فيه إلى ما تحت الصفر بمقياس فرنهيت فى حين ترتفع درجة الحرارة فى صيفها إلى ٩٧° ، كما تصل بشيراز إلى ١١٣° . والهواء الخالص فى منبسطات الصحراء خارج المدن تحت أشعة الشمس المباشرة لا يحتمل إلى درجة لا نكاد نستطيع تصورها، لذلك كانت رحلة القافلة التى تدب فى هذه الوديان تبادر بشغف جامح ، نفسى كما هو طبيعى ، بالتوقف عند جنة الشجر والظل والماء الذى يقوم عليه كيان الحديقة الفارسية .

ولا يكمل الحديث عن فارس وحدائقها دون الإشارة إلى مبلغ نقاء هواء المرتفعات

الجبلية المنعش وصفائه ، وإلى الشمس التى تشع حرارتها بالدفء حتى فى أيام الشتاء ما وجد المرء من الرياح ملاذا . ويُجمل شاردين لحن وصف الجو فى صورة لطيفة بقوله « ليس من الضرورى أن تغلق قارورة النبيذ بسدادة من فلين ، إذ يغنيك عنها زهرة من الورود الحمراء تثبتها بعنقها » فيالها من شاعرية ، وياله من خيال ، وما أجملها من فارسية .

هذا ويقع أول العام الفارسى الجديد المعروف بالنوروز فى الحادى والعشرين من مارس . وغالبا مايهل الربيع فى توافق مع ذلك العيد القومى . وهنالك تتلألأ الصحراء بالزهر وينبثق من أشجار الأرجوان عناقيد قرمزية من الزهر على أغصانها الجرداء ، وتغمر أزهار الفاكهة الوديان بما يتناثر منها من وريقات قرنفلية اللون وأخرى بيضاء . فإذا ماصعدنا فى هذا الوقت من السنة صوب شمران ونفذنا إلى أحد بساتين الصحراء عند سفح تلال البُرز فإننا نصادف مزيدا من الألوان والأزهار يفوق فى كثرته ما نصادفه من ذلك حين يجف كل شىء ويتم للأشجار خضرتها . ولا يحتمل أن نصادف هناك من غرس أزهار مثل البتونيا والمنثور والزينياس غزير الورود متعددة الألوان التى يغرم بها الفرس فى حدائق مدنهم . ذلك أن هذه البرارى لم تمتد إليها يد البستانى منذ أمد بعيد . وإن كان هــذا لا يمنع على وجه اليقين من وجود بعض شجيرات الورد كثيفة النموّ والياسمين العطرى واللوز والخوخ والمشمش ، يؤانسها فى عزلتها الضِّباب وسرب من الأعناز فى الغالب . وتوجد بفارس الزهور البرّية الوطنية بدورها . وكما أن لحدائق بريطانيا فلتات فكذلك لصحراء فارس مثلها . فتجد فيها شقائق النعمان والدُّلب ، الصغير الأصفر منه والقرمزى والأحمر الأصفر . وثمة نوع آخر منه أبيض مخطط بالسمرة . وهو شائع فى الغالب حول طهران ولا أعرف اسمه العلمى على وجه التحقيق . وتموج الصحراء فى إفراط بكل هذه اللطائف فى ثنايا الصخور . وأكثرها جميعا تأنقا ولطفا هى زهرة السوسن الفارسية فى خضرتها الباهتــة الرائقة وارتفاعها

الذى لا يعدو ثلاث بوصات أو أربعة على الأكثر ، فياعجبا كيف أمكن لهذا الكيان الهش أن يشق طريقه من خلال هـذه التربة الصلدة . ولكم أوثر أشد الأثرة أن أقصد إليها فى الصحراء حيث تتمثل لى وكأنها فراشة تنازل أسدا . ولا ينقص من قدرها كذلك أن تنبت فى مأوى بداخل أسوار حديقة . فهى تثير الإعجاب لشجاعتها ، وهى النحيفة الهشة ، بوجودها غير بعيد من جليد هذه الجبال الشامخة .

والجدارن التى تحيط بالحدائق هى فى الغالب لا تستعصى على الهـدم . وما أيسر أن يلج المرء من إحدى فجواتها الكثيرة فلا حاجة به أن يطلب بابها الرئيسى . وما إن يتخطى السور عند إحـدى أجزائه المتهدمة حتى يبصر نفسه من فوره بداخلها . فالأسوار المبنية من اللبن مشاع بالقرى الفارسية ومنازل المسافرين والحدائق هناك . وهى خاصة الإقليم كله المعمارية الساذجة الطبيعيـة . ولئن كانت تكلفتها رخيصة وإقامتها سهلة يسيرة إلا أنهـا فى نفس الوقت عرضة لأن تتهدم فتستعصى على الإصلاح والترميم . وفارس إقليم فيه للأشياء قابلية للانحلال الذى لا سبيل إلى تقويمه . وقد يكون للمناخ وشيوع التواكل عند الشعوب الشرقية دخل فى ذلك كله . هـذا وإن الفارسى الذى تأثر بالغرب لا ينظر بعين الاعتبار عموما إلى نفاذ الأخيلة الأوروبية إلى بلاده . فهو يميل إلى أن نراعى أساساً فى ترتيب الحديقة العامة بميـدان المجلس فى طهران زراعة قسم منها بزهور الخبازى القرمزية وإحاطته بالأسلاك ، ولكنه فى الوقت نفسه يعجز عن تذوق جمال البرية وتقـديره فى الحدائق التى فى متناول يده عند سفوح البرز .

وها قد سمحت لنفسى أن تبعد بى وتشط ؛ ذلك أن مجرد ابتدائى بالتفكير فى الحدائق الفارسية ينقلنى إلى التيه ، فإذا بى أسرح بخيالى بين زهور الفاكهة وفلتات الصحراء وشجيرات الورد البرية وأبصال النرجس ، التى تنمو بأدناها ، وصورتها الجامعة التى يسبينى جمالها حتى ليكاد ينسينى ما بين يدى أساساً من عمل ، وهو قصة

الحدائق الفارسية وما تدل عليه . فعلىّ إذن أن أتابع من جديد الحديث عن تسوير الحدائق الفارسية منتهياً من سور اللبن الذى شاهدته فى حديقة بعينها كنت أتردد عليها عند سفوح البرز . وجميع الحدائق محجوبة بالأسوار جرياً على عادة الناس هناك ، ذلك أن الرجل الفارسى ، هو على خلاف الأمريكى ، يحرص كل الحرص على حياته الخاصـة وعلى حياة نسائه الخاصة طبعا ودخائلها بالتالى . فهو لا يرتاح أبداً إلى أن تتعرض حياته الخاصة لفضول عابر طريق ؛ فيقيم لذلك سورا حول حديقته . وكانت بعض هذه الأسوار فى الماضى تزدان بالشرفات وتقوم عند أركانها أبراج الحمام المستديرة التى تضفى على هذه الجدران الـكئيبة لوناً من البهاء . وفى بستان الشاه عباس المعروف بهزار جريب نجد هذه الأبراج بأركان السور الأربعة . هـذا كما كانت هذه الأبنية تزدان أحياناً بالنقوش والطلاء وتعلوها قبّة من المدن المشغول . كذلك قد تـكون الأسوار نفسها دعامة للنباتات المتسلقة كالمشاهد ببستان كريم خان بشيراز ، حيث تـكسوها من الداخل الـكروم التى تمتد على مشبّـكات من خشب ممدّدة .

وأبراج الحمام لم يكن استخدامها فى مبـدأ الأمر لغرض التجميل بل بقصد الانتفاع منها . والبرج الدائرى تجده حتى اليوم مليئاً بمئات الثقوب المربعة التى يخططها مقطعات بيضاء فتبدو أشبه بصخرة فى البحر . وبها يلوذ الغِنِّيط والجنقلة من الطيور التى تحوّم بالقرب من القرى الفارسية طلباً للقوت . وجمال هـذه المحاضن يذكرنا بأبراج الحمام الخاصة بمنازل الأعيان تيودورية الطراز بانجلترا . وإذا كانت ربّة ذلك البيت الإنجليزى تفيض فى الغالب بالعطف على حمائمها فتغريها على التقاط الحب من كفّها لتستقر آمنة مطمئنة على كتفيها ومعصمها حتى لتـكاد تختنق تحت حفيف أجنحتها وريشها اللطيف ، فإن الفارسى ينهج مع حمائمه سبيلًا واقعيًّا مختلفاً ، فهو يلتهمها ، ويحرص قبل كل شىء على جمع زبلها فهو سماد عضوى ثمين تستخدمه حدائق القائة الشهيرة بإصفهان لقرون خلت . ويذكر جان باتيست تافرنيير أنه فى عام ١٦٧٧

قد لاحظ وجود ما يزيد على ثلاثة آلاف من أبراج الحمام حول إصفهان . فإذا كان كل برج منها قد حوى ألفاً منها على الأقل ، فإن عددها الهائل كان كفيلًا دون شك بأن يشحن الجو كله بأنغام سجعها وحفيف أجنحتها وهى تؤوب بمجموعها إلى أوكارها .

وها نحن نجنح إلى الخيال من جديد ، فنقرر بأنه حتى فى هاتيك الأيام كانت هناك سوق سوداء ولكن من نوع غريب . ذلك أن اقتناء الحمام كان محظوراً على النصارى فى فارس حتى أقبل كثير منهم على اعتناق الإسلام طلباً لهذا الامتياز . وهكذا كان الحدب على اقتناء هذا المقار الثمين سلاحاً انتصر به حب المادة على العقيدة فى صراعه معها[1] .

وإذا ما تخطى السائر الأسوار بدت له الحديقة على الحدود التى بيناها من قبل . ذلك أن الحدائق الفارسية تلتزم نسقاً معيناً ، بل لعلها جرت على التجانس والتماثل أكثر مما جرت على النسق . وإنه لمن التجنى أن نشكو الاطراد فى هذه الحرم المستحبة ، فما لنا لا نقول مطمئنين إن صورتها كانت ، على الدوام فى قليل أو كثير ، ممرات طويلة ومتنزهات مستقيمة يقع بآخرها البيت الصيفى أو الجوسق ، ثم قنوات ضيقة تجرى كالشريط فوق الآجر الأزرق لتنتهى عند برك غريبة الشكل قلما تكون مستديرة وكثيراً ما تكون مربعة الشكل أو مستطيلة أو مثمنة الأضلاع أو على هيئة الصليب أو ذات شُعب ثلاثة أقرب ما تكون فى هيئتها إلى النبات مثلث الأوراق . وغالباً ما تقوم البرك بداخل الجواسق كذلك فتبدو صفحة مائها بأدنى قبة السقف كأنها المرآة ينعكس عليها خلايا النحل التى تقوم بالسقف . ولا يزال يتمثل فى خاطرى صورة بركة من هذا النوع يتوسطها عرش لعله كان فى الغالب لأحد ملوك القرن

(١) هذه قضية لم نسمع بها من قبل ، ومهما يكن فإنا لم نقرأ عنها فى أى مصدر . الخشاب .

التاسع عشر، كان يتربع عليه فى ثياب رقيقة، فى حين كانت نساء حريمه، وهن فى قليل من الغلالات أو حتى بدونها ، يَنزلقن إليه على مزالق خاصة قد مُدّت من الدور الأعلى بطريقة تُلقى بهن فى أحضانه .

وإلى جانب هـذه الألعاب المنزلية كانت هناك متع أخرى مجالها ممرات الحدائق ومماشيها . وهنا نشير إلى أنه لم يتأتى لأحـد من ملوك فارس أن يقيم لنفسه روضاً يدانى ذلك الروض ذا الستين ألف فدان الذى أقامه فى القرن السابع عشر كَنْغ سى ، أحد أباطرة أسرة شنغ الصينية ، على مسيرة ثمانية أميـال من بكين تقريباً ، وزاد فى زينته من بعد ذلك الإمبراطور شيان لونغ فى القرن الثامن عشر . فهذا البستان فى ترامى مساحته ، وما يحوى من إبداع معجز، هو ممـا لا يرقى إلى تمثله العقل الفارسى . فقد أبدع الصينى تـكوير قطعة أرض مستوية إلى تلال وبحيرات وقنوات وجسور ومناظر طبيعية فى صورة تثـير غيرة مشاهير المشتغلين بفلاحة البساتين من الإنجليز من أمثال ربتون وبراون الذين لو كان قد أتيح لهم من حرية العمل وأوتوا من المـال ما يبتغون ، نظير قرنائهم الصينيين ، لتركوا بانجلترا حدائق يعجب لهـا أهلها كل العجب .

ولقد كان بوسع حكام فارس وأثريائها ووزرائها أن ينفقوا الـكثير من أموالهم وأفـكارهم فى مثل هذا الإبداع ، ولـكنهم لم يفعلوا شيئاً من ذلك كله ، فأقاموا حدائقهم على رقع صغيرة سوية على ماصنع كورش من قبل ، وهى حدائق لها روعتها على كل حال وإن خلت من كل أصالة أو ابتـكار . وقد نستثنى من ذلك حدائق الرُّبى مثل تلك الحديقة المتحدّرة التى تعرف بباغِ تخت (روضة العرش) ـ إلى الشمال من شيراز ـ التى يظهر فيها تحويل المثال التقليدى إلى مصاطب متدرّجة ، ثم حديقة هزارجريب بالقرب من إصفهان ، وحديقة الشاه عباس بأشرف فى مازندران . وإذا كانت

هذه الحدائق الثلاث آنفة الذكر فذّة فى ضربها ، فإنها تستأهل مزيداً من التفصيل فى وصفها .

فباغِ تخت أو بستان العرش، الذى أطلق عليه سير توماس هربرت حين زاره عام ١٦٢٨ تسمية لطيفة ملغزة هى « غابة النخل »، يبزّ عنده بساتين شيراز كافة . وإذ كان مغرماً بقياس الأبعاد فقد وصل إلى أن مساحته هى ألفى خطوة مربعة . ولئن كان هذا هو كل ما ذكره لسوء الحظ عن هذه الحديقة ، فإن ثمة بحوث أخرى قد هدتنا إلى أنها كانت تقوم على مصاطب سبعة بأعلاها قصر وبأدناها بركة ماء وتهدر مساقط المياه بينهما . وحين اطّلع عليها ادوارد براون عام ١٨٨٧ وجد الإهمال يسودها ، وإن لبثت برغمه تستلفت النظر بمصاطبها ومبانيها البيضاء التى تُطل على المدينة من ثمة طريق من أشجار الأرجوان .

وهيئة المدن الفارسية تلوح من فوق هذه الرُّبى متعة للناظرين . ويُعد بستان هزار جريب خير مجتلى يكشف جمال إصفهان . وقد قام بدوره كذلك على مصاطب مسوّرة لم نستطع، على ضوء استقراء ما قاله زوّاره، أن نقطع بعددها. فالسير ج دوتيفينوت فى كتاب رحلته الشرقية سنة ١٦٨٧ يحدّدها أول الأمر بست ، حتى إذا ما طفق يصف تساقه لها نجد أن عددها عنده يصل إلى إحدى عشر . فى حين يمدّها سير توماس هربرت « تسعة مراق سهلة » ولعله يشير بذلك إلى درجها فالغموض يغلب على عبارته على كل حال .

ويبدو مما تجمع عليه الروايات أن هزار جريب لابد وأنها كانت حديقة واسعة جداً ومتحدّرة . واسمها يتركب من كلمتين الأولى هى هزار أى ألف والثانية وهى جريب ويعادل نصف الفدان . وعليه تكون مساحة هذا البستان كبيرة وإن لم تبلغ مسطح بستان الامبراطور الصينى ذى الستين ألف فدان على كل حال . وجهد هربرت

فى قياس أبعاده هذه الحديقة كذلك ، فوجدها من الشمال إلى الجنوب ألف خطوة ـ والخطوة هى ياردة واحدة فى الغالب ـ ومن الشرق إلى الغرب سبعمائة . كما يبلغ مدار السور المحيط بها أميالا ثلاثة . ثم يستطرد وصفه لها من بعد ذلك على ماهو مألوف .. . . . برك من الرخام ومنازل ريفية وأشجار فاكهة . . . . وهو فى الحق يبعد كثيرا حين يقول بأنها غابة فواكه أكثر منها حديقة ، مما يذكرنا بصورة جنّة كورش .

ولم يكن هذا البستان يعانى شُح الماء ، فقد كان يُجلب إليه فى قنوات مبنية من قنن التلال الواقعة عند الأطراف الشرقية لسلسلة جبال البُرز ، وهى مسافة يدفع طولها البالغ إلى الشكّ فى صحة حديث هربرت عنها . على أى فقد كان الماء هناك ، وكان يتدفق من أنبوبة رئيسية فى أشكال خلابة متنوعة وصفها تافرنيير فى بيانه المبدع عنها . وهاهو الشاه عباس الثانى (١٦٤٢ ـ ٦٧) يروى لنا كيف كان ، وهو فى العاشرة من عمره ، يتسلى بمحاولة موازنة حبة من البرتقال فوق ماء نافورة بها وهو جالس إلى ضيوفه عند الصهريج المثمّن . وإذ كانت النافورة فى الغالب تضعف عن حمل البرتقالة لأدنى نسمة من الهواء تداعبها فتقذف بها إلى البركة ، فقد كان إلى جواره قدر من هذه الفاكهة ليعاود بها المحاولة كرة وأخرى . ويذكرنا ذلك ـ مع شىء من الفارق ـ بكرة الطاولة التى تتراقص على مياه نافورة صغيرة بالسوق السنوية فى قرية بعينها من قرى فرنسا ، فلا ينقص المشهد لتكمل صورته إلّا ذلك الصبى المدله فى أرديته الحريرية المقصبة ومن حوله خصيانه ، تراقبه ، عبر البركة ، عيون جماعة التجار من السادة الفرنسين والهولانديين ، وبجانبه صحن ضخم من الفاكهة ، وحبّات البرتقال الذهبية يتقاذفها الماء حين تسقط فيه ، فى حين يلوح بالسهل الدانى منظر إصفهان البديع وقبابها بلون الفيروز .

حتى إذا ما انتقلنا إلى أشرف بمازندران ، طلع علينا منظر آخر يغاير هذا كلّه فى طبيعته مغايرة تامة . ذلك أن إقليم مازندران هوء لمجاورته بحر الخزر ، رطب كثيف

الغابات، تنمو فيه جميع الخضراوات بوفرة بالغة . وبرغم أن الحاجة فيــه إلى الماء أو الظل ليست ملحة كما هى الحال عليه فى وسط فارس ، فإننا نجد حديقة الشاه عباس الكبيرة التى أقيمت هنـاك عام ١٦١٢ قد حرص منشئوها على التزام الطراز الدارج فيها. وهذاهوسير وليام أوزيلى الذى زار المكان عام ١٨١٢ قد وجد « مجرى من الماء بديعا يتدفق فى شلالات متدرجة إلى الماشى التى يكاد يأتى الخراب عليها وقد أظلتها أشجار شامخة » . وهو يضيف إلى وصفه هــذا من بعد ذلك ما اقتبسه من مخطوط كتبه معاصر لها (١٦١٢) « حماماتها وصهاريجها بديعـة يملؤها ماء عذب فرات يُنقل بحذق من الجبال السامقة المجاورة إلى هذه البرك التى هى أشبه ما تـكون بالأحواض الصينية . . . . » .

ويستبين من وصف هذه البساتين الثلاثة أنها برغم قيامها على منحدرات التلال قد احتفظت فى الغالب بأصول الاستواء الهندسى الدارج الذى لم يستطع تصميم الحدائق الفارسية أن يحيد عنه فى الغالب . فأيا ما كان موقع الأرض فقد كان هناك محور رئيسى يدور عليه التصميم الذى يتمثل فى الطرق الرئيسية أو الجانبيّة والقنوات والبرك . ويبدو هــذا التماثل المطرد بالطبع فى الأراضى المستوية أكثر وضوحا . والغالب أن التمسّك بالتزام هذه الدقة كان على صورة أوفى أيام كانت العناية بالماشى الرملية أو المرصوفة متوفرة وتشذيب الأشجار يجرى على تمامه . أما اليوم فإن انصراف القوم عن العناية بالحدائق، حتى صارت إلى صورة من الفوضى الجميلة التى لها مايبررها، قد أدى إلى الترخص فى المظهر الخارجى مما حجب كثيرا من وطأة التصميم . وهاهو ذا إدوارد براون يدلى بملاحظات إجمالية فى هذا الشأن ، فيقول ، وهو الدارس الممتاز الذى قضى عاما سعيدا ببلاد فارس (١٨٨٧ ــ ٨٨) والذى تنطوى نفسه على اعتزاز كبير بكل ما هو فارسى عموما :

« إن الفرس يكلفون بحدائقهم أشد الكلف ، ويحرصون نخورين عادة على

إطلاع الغريب عليها أكثر من حرصهم على مشاهدته لأجمل منشآتهم ، برغم أن منظرها قد لا يثير فضوله فى الغالب . فهى عموما ساحة ، لها سور من الطين ، تمتد فيها صفوف أشجار الحور على جانبى طرق طويلة مستقيمة يتخللها بعض مجارٍ للمياه . وتجردها عموما من العشب هو عنـد الرجل الأوروبى أكبر عيوبها . وبغض النظر حتى عن ذلك الأمر فهى فى الغالب لا تتوفر فيها صنوف الأزهار ، كما تراها ، باستثناء أيام الربيع ، ممعنة فى العرى جرداء » .

وازدراء براون « لصفوف أشجار الحور » تقدير غير عادل . وفى مقالته هذه ، التى يبدو فيها غير معتدل المزاج حدًّا ما ، قد غفل عن تنوّع الشجر الكثير فى كل حديقة فارسية، كأنواع السرو الشيرازية ثم الچنّار الشائع وهو شجر الدُّلب الآسيوى الذى يقال عنه بأنه طارد للأوبئة إلى جانب جمـال منظره بسبب لون قشوره التى لها صفرة الضبع وما يفيئه من ظل وارف . وغرام الفارسى بالأشجار ليس بحاجة إلى تأكيد . ولقد روينا من قبل كيف زين (خشيارشاى) فروع شجرة حور أعجب بها بأساور من ذهب ، لنُردف هـذه القصة بأخرى ذكرها بلوتارك عن ارتـكزرسيس (أردشير)، ذلك أن هـذا الملك حين عسكر بجنده إبان الشتاء ، فأذن لهم أن يقطعوا الأشجار بإحدى ضياعه الملـكية ليتخذوا منها وقودا ، ما لبث إعجابهم بأشجار الأرز والحور أن غلبهم على أمرهم فامتنعوا أن يمدوا فؤوسهم إلى جذوعها حتى يبدأ الملك نفسه بقطع أجمل شجرة بيديه .

ويضيف هربرت صورة لطيفة أخرى إلى الفوائد الشائعة التى يراها الفرس لأشجارهم « إنى لأذكر أنى شاهدت حبـالا تمتد بين الأشجار فى حدائق كثيرة يتأرجح عليها الصبية والفتيات بل وبعض البالغين ... على غرار ما كان يفعل الأثينيون القدماء » . وهكذا نرى الحدث الفارسى وزميليه الإغريقى والانجليزى يجتمعون بجلاء على فـكرة واحدة بعينها من خلال الدهور .

وإلى الجنّار أو الدُّلب والسرو تضاف أشجار الصنوبر ولسان العصفور والدردار والليمون الحامض والفستق والجوز والقسطل والآس . هذا كما يُعد من بين أشجار الفاكهة ، شجر البرتقال والليمون واللوز والبرقوق والكرز والخوخ والمشمش والتين والرمان وأصناف أخرى عديدة . ولئن كان هـذا هو وجه التحقيق فى أن الحديقة الفارسية لم تعانى قحطاً من الأشجار أبداً ، فما لا يستقيم مع الصواب أن نترك القارئ على اعتقاد إهمال القوم زراعة الأزهار . وهم فى الغـالب لم ينهجوا فى غرسها نهج الأوروبيين فينشئوها فى أحواض منتظمة وأكناف مستوية ، فلم يكونوا بحاجة إلى ذلك كلّه حين استقاموا على الطريقة الطبيعية فنثروا غرسها تحت الأشجار على الوجه الذى يلاحظ فى فرش كثير من النقوش الفارسية . وتذكرنا هـذه بتصاوير كتب القرون الوسطى فى الصلوات وبعض نقوش عصر النهضة المتقدّمة والنسيج الموشى بالصور التى يبدو طلاؤها اللامع اللطيف كأن سرباً من الحشرات المتألقة يرفرف بأجنحته يريد أن يستوى على الأرض .

ومن الطبيعى أنه لا يصلح لغرس مثل هذه النباتات بهذا الإقليم الجاف إلّا الأمكنة الرطبة . وهى لا توجد عادة إلّا جوار البرك حيث تتاح الفرص لقليل من العشب أن ينمو . هذا وقد ترك لنا جملة من الرحّالة قوائم شيّقة بأسماء الزهور التى توجد هناك ، منها ذلك القرنفل العطرى المشهور الذى يوجد على أشكال عدة فيها البسيط والمزدوج والهندى بلونه الذى يبهر الأبصار (وهو الذى رأيناه من قبـل يُتخذ سدادة لقنينة النبيذ) ثم زنبـق الوادى والبنفسج على ضروب ألوانه وزهر النوروز والخزامى والنرجس والزنبق العادى والياسمين ، والورد فوق ذلك جميعا .

والوّردة هى الزهرة المألوفة على الدوام عند أغلب الفرس . ولا يتم الحديث عن الحدائق الفارسية دون بعض الإشارات التاريخية إليها ولو فى قدر من الإجمال. وإذ كانت الوردة تُعد فى انجلترا الزهرة القومية ؛ فمن المناسب هنا أن نذكر أن الشعراء الفرس قد

طفقوا يتغنون بها بدورهم منذ زمن بعيد . ومما تجدر الإشارة إليه هنا أنه ليس للوردة في اللغة الفارسية لفظ مميز خاص بها . فهي عنـــدهم ضمنا ليست إلّا نوعا ممتازا من الزهر ؛ ولفظ « گُل » الذى يعرفونهـــا به ما هو إلا مدلول للزهر . والوردة التى يعرفها الفرس لاتحـــاكى إلّا فى القليل أنواع الورد المستنبطة التى يعمل الإنجليز على انتشارها فى حدائقهم من أمثال الندف الخلاسى والخلاسى العتيد والمزدوج إلى آخر ما هنالك منها . وهى فى الغالب أشد إمعانا فى البساطة واللطف . وليس من اليسير على كل حـــال أن نقطع بنوع الوردة التى تغنى بذكرها شعراء الفرس . فالصفراء الداكنة نصف الكروية منها هى فارسية تمتاز بشذى عطرها اللطيف وباستحلاب ماء الورد منها . وهـــذه الوردة الصفراء الفارسية هى أصيلة هناك ، وموطنها هو دون شك هـــذه البلاد . وقد انتقلت على ما يقال إلى أسبانيا فى القرن السابع حيث أنبتها المغاربة هناك . ويذكر السيد ج . توماس الذى قام بدراسات متخصصة للورد القديم وأنواعه ، أن هذا الضرب منه قد أُتى به من بلاد فارس عام ١٨٣٧ . وأغلب الظن أن المقصود هنا هو أنه جُلب إلى انجترا أو فرنسا . واستخدمه السيد بيرنت دوشير فى التطعيم ، فأفلح بعد محاولات متكررة فى استنباط تلك السلالة التى نعرفها اليوم بوَرد بيرنت نسبة إليه . وأغلب الظن أن هـــذا النوع الداكن من الورد قد أتى به سيرهنرى ويلكوك من فارس عام ١٨٢٨ . والنوع الوحيد الذى رأيته منه هناك كان بسيطا بريا وهو من فصيلة الشقيق الأصفر اللامع ، فلم أر من المستنبت أو البرى صنفا من المزدوج ، ولعل ذلك كان من سوء طالعى . ومع تقديرى الكبير لمبلغ عـــلم السيّد توماس الغزير ، إذ هو ، على خلافى ، خبير بمادته ، فلا زلت اعتقـــد أن الورد الأصفر الفارسى قد جلب إلى انجلترا وهولاندا عام ١٥٨٣ على أيدى كلوسيوس من النمسا التى عثر عليه بها ؛ فقد سبق إلى وصفه جِسنَر عام ١٥٧٢ ولوبل عام ١٥٨١ كما أطلق عليه السيد ديلشامب عام ١٦٨٧ لفظ لوتياء أى الوردة الصفراء، ووصفه وصفا

غاية فى الدقة . وتجزم هذه الشواهد مجتمعة على ورود هـذا الزهر بلاد أوروبا بزمن طويل قبـل الوقت الذى ذكره فيه السيدتوماس . وهذا يفسر لنا يقينا اصطلاح « النسرين أو الورد البرى النمساوى » الذى يعرف به فى الغالب هذا النوع تجاوزا ، إذ هو بداهة لا يمت إلى النمسا على الإطلاق بسبب، فهوفارسى أو آسيوى على كل حال. ويمتد موطنه من القرم فآسيا الصغرى حتى فارس وتركستان والهنـد وأفغانستان والتبت. وإذ كنا لانعلم على وجه اليقين عن كيفية وروده النمسا فيكون كاوسيوس مسئولا عن نسبته إليها .

وما نعرفه من هـذا النوع على ضربين : الأصفر البسيط ثم الملوّن الذى ظاهر أوراق التتويج فيه أصفر وباطنها أحمر فاقع . وهذا الضرب الأخـير الذى يعرف بالصيدان النمساوى تبدو شجيراته تحت شمس مايو على توهج يبهر الأبصار . ويعرفه الفرنسيون باسم (أبى خنجر أو الأنف الحمراء) ، ذلك أنه ليس ثمة لون يقرب من البرتقالى الأحمر المتألق إلّا الأنف المحمرّة . وفى حوزتى لوحة فارسية لهذا الورد ألوانها ورسومها فى تمام الروعة والدقة ، كما أفخر كذلك بشجيرة له بحديقتى استنبتها من عقلة جُلبت من طهران .

ويبدو أن اللون المزدوج فى الوردة النمساوية إن هو إلّا لون أصفر غير عادى . هذا كما يلاحظ أحيانا ازدهار كلا الخضبين على الشجيرة الواحدة . ولئن لم يتحقق لى الاطلاع على ذلك بنفسى فلا زلت أمنّى النفس برؤيته إذ هو لا محالة مثير .

ولشاردان بعض ملاحظات على الورد الفارسى هى لابد أن تـكون محل الاهتمام البالغ عند المشتغلين بدراسة هذا الزهر بما تقرّه فى أنفسهم عن حقيقة هـذه الوردة التى أغرم بها الفرس وشعراؤهم على الشعراء . وعلاوة على الوردة «فى لونها الطبيعى» — ومن الغريب أنه لا يوضح ما يعنى بهذه العبارة ، كما لا يحدد مفهوم اللون الطبيعى

عنده ـ فهويذكر ألوانا خمسة للوردة هي الأبيض والأصفر والأحمر والأحمر القاني، مثيل أحمر الخشخاش، ثم المزدوج الذي يبدو لك في إحدى نواحيه أحمر وفي الأخرى أبيض أو أصفر وهو الذي يسميه الفرس « دو رُويَه » أي ذي الوجهين . ويضيف إلى ذلك أنه قد شاهد بنفسه شجيرات للورد تحمل في الغصن الواحد ورودا ذات ألوان ثلاثة مختلفة هي الأصفر ، والأصفر والأحمر ، ثم الأصفر والأبيض.

ويفيد الفرس من الورد على أوجه كثيرة . فهم يزّينون به فيرشقونه خلف آذانهم أو يحملونه في أيديهم أو يهدونه على سبيل التحية إلى كبير أو صديق. كما ينثرون ماء الورد من الأباريق أو يقدمونه في طاس ليغمس الأضياف أصابعهم فيه تطيّبا أو ينثرونه على الماء في الأعياد التي تقام جوار الأحواض الكثيرة التي تحيط بها الحدائق. ويصف سير وليامز أوزلي هذه العادة اللطيفة فيقول :

« برغم ما كان هناك من أكداس اللحم والفاكهة فقد بدا الأمر كأنه وليمة من الورود التي ازدانت بها أرضية البهو الكبير ؛ فكنت تراها في وسطه وبكل مكان خال فيه قد سوّيت على هيئة أشجار السرو، كما نُسقت على حاملات الشموع في كثافة بالغة ، في حين كُسي سطح الحوض كله بأوراق الورد التي نثرت كذلك بغزارة في الممرات الرئيسية المؤدية إلى الدار . . . وكانت أوراقه على سطح الحوض من الكثافة لدرجة حجبت معها منظر الماء عن الناس، فلم يكن يلوح لهم إلّا حين تزيحه الريح من مواضعه فيتألق عندئذ في ضوء مئات الشموع ... وقد رأيت الخدم أثناء تناول الطعام يعاودون نثر أوراق الورد وبراعمه الجديدة بإسراف في الماء والممرات ثلاث ورباع » .

ويباع الورد مئات منه في الأسواق بثمن زهيد جدًّا . وتُصفف براعمه على هيئة كرات تلتئم معاً بمهارة فائقة فلا تقع العين على سيقانها أو الخيوط التي استخدمت في شد بعضها إلى بعض . وقد تضم بعض هذه الكرات ستين من هـذه البراعم

أو سبعين . وقد يصل عددها إلى المائة . وتذكرنا هيئتها بالكرات التى كنا نصنعها من أزهار الربيع فى الصغر .

ومما يستحق الذكر أن تافرنيير وهو الذى زار بلاد فارس أكثر من مرات تسع منتصف القرن السابع عشر ، أيام كانت الرحلة الى هذه البلاد ضرباً من المخاطرة ، قد أشار إلى ذلك فقال :

« إن أزهار فارس لا يمكن أن تقارن بنظائرها المغروسة فى أوربا سواء من ناحية تنوعها أو تألقها . وما يلبث المرء أن يعبر دجلة فى الطريق إلى فارس فلا يطالعه إلا الورد والزنبق وبعض الأزهار المحلية » . وهو بعد لا يألو جهدا فى الإشادة بحب الفرس للأزهار حتى لتجد شواهد ذلك كثيرة عنده وهو يثبت عنده أن الرجل من الأعيان حين يحرص على الفوز برضاء مليكه كان يعمد إلى إهدائه باقة من الأزهار النادرة فى وعاء من البلور الثمين « أشبه ما يكون بما عليه الحال فى فرنسا حين توضع الأزهار فى كوب به ماء لتظل ناضرة » . كما يسجل أيضاً أنه لم يكن ينال الإذن من البلاط الفارسى بالرحيل دون أن يلاحقه القوم بالرجاء فى كل مرة لجلب بعض الأزهار من فرنسا حين عودته . ولم يكن هذا الأمر مصدره رجال ذلك البلاط وحدهم ، إذ كان يشاركهم فيه أربعة أو خمسة من رؤساء الخصيان ؛ وقد كان لكل واحد منهم حديقة صغيرة أمام حجرته .

وإهـــداء الزهور لإظهار المودة ما زال رائجا حتى اليوم . وثمة آية أخرى على الحفاوة بالأزهار تستبين لنا مثلا إذ نرى « ألطف الأزهار » تنمو فى حياض ضيقة بأعلا الأسوار ، وهى فكرة فذة قد نقلدهم فيها لو كان عندنا أسوار ، ولا ينفر الفرس من استخدام الأزهار الصناعية فى تزيين دورهم إبان شهور الشتاء حين تكون الطبيعية منها عزيزة المنال . ويستخدمها الصينيون بدورهم كذلك ،

ويصنعونها من الجواهر المقلدة والجمشت والمرجان والبللور الصخرى والكهرمان واليشب ، فى حين يكوّرها الفرس من مواد أكثر تواضعا كالشمع والورق والطلاء لتكون بذلك فى متناول عامة الشعب . والصانع الذى يتولى صناعة هذه اللطائف يعرف باسم «نخل بند» أى مرصع النخل أو مزركشه . وحرفته دقيقة تدر عليه ربحا طيباً فى تجارتها . ويحتاج هذا الاصطلاح الذى يعرف به هذا الصانع إلى قدر من الإيضاح ، وإن أبعد بنا ذلك بعض الوقت عن حديث الحديقة الخالص ، إذ هو كما قد يبدو غير مرتبط به ، ذلك أنه فى واقع الأمر يردنا إلى مسألة أركان العالم الأربعة التى ذكرناها فى أول هذا المقال ، وإلى قصة الأنهار الأربعة كذلك المذكورة فى سفر التكوين ، وإلى بساط الحدائق ورموز الشرائع الكونية فى العالم القديم . فمزركش النخل هو فى أصله منشىء النخلة الصناعية التى كانت ضمن أدوات الطقوس الدينية عند الحيثيين والكريتيين والأشوريين ، والتى قد توجد كذلك فى برونز لورستان وأختام الساسانيين . وكانت هذه الأشجار الصناعية فى بعض الأحيان على حجم كبير . وكان للإمبراطور تيمورلنك بسمرقند (كما يشاهد بمسرحية مارلوف) شجرة ذهبية «بصورة سنديانة ساقها غليظ كأنه ساق رجل » ، كما كان لخان المغول مانكو (٦٤٨هـ / ١٢٥٠م) بمدخل أحد قصوره فى قراقورم شجرة سامقة من الفضة التف حولها حيات أربعة مموهة بالذهب يسيل من أفواهها الشراب على أنواع أربعة ، فى حين كان لبن الخيل يفيض من أفواه سباع أربعة من فضة قامت بأدناها) . ومهما كان من أمر أفواه الحيات المذهبة أو أفواه الآساد الفضية ومايسيل منها من الشراب أو لبن الخيل ، فهى على كل حال ذو صلة واضحة بأركان الدنيا الأربعة والأنهار الأربعة سالفة الذكر . وتُستولد من هذه الأشجار الكبيرة عادة نمط صغيرة فى الحدائق الصغيرة لتزدان بها الموائد على رواج ، فتجدها عند الملك الفارسى وعند أقل رعاياه على السواء .

• ثمة عادة أخرى، بله عاطفة رقيقة، تمثل غرام الفرس الشديد بكل ما هو أخضر. فهم يزرعون بذور رشاد الماء مخلوطة بالطمى الجيد على كافة جوانب الآنية ثم يحفظونها فى بعض المكان بعد أن يلفوها بالجوت المندى بالماء ، فتصير الأنية حين ينبت الحب خضراء « كالطحلب حين يتكاثف على لحاء الشجر » ، وإنى لأعترف بعجزى عن تعليل عدم تفكك الطمى وفيه النبات عند رفع اللفافة . وليس لنا إلا أن نكتفى بحديث شاردين عنها ، وهو فى ذلك يروى ما شاهده بنفسه . وأياً ما كان الحال فهى مزية بديعة عجب لأمة شاعرية هى كذلك فى بعض الأحيان على الفطرة المستحبة .

وتجرنا كلمة « شاعرية » إلى الحديث عن شعراء الفرس . فلا نشير إلى الدور الذى تلعبه الزهور فى أشعارهم دون أن نلمح إلى مبلغ ما أضفاه عليهم مواطنوهم من آيات التكريم فى مثواهم . فحافظ يرقد على مقربة من شيراز فى بستان أشجاره من السرو والبرتقال ، أو هى هكذا كما يقول ادوارد براون فيما دونه عنه عام ١٨٨٧ . فقد التقطت صورة للمكان عام ١٩٢٧ فلم أجد به برتقالا ؛ ولا تسعفنى الذاكرة لأقرر إن كان هناك حقيقة ثمة برتقال بعد زيارة براون له بأربعين عاما . فالصورة التى التقطتها يظهر فيها فناء مرصوف به بركة مربعة ومظللة مقببة ، ردهتها الوسطى ذات الأعمدة القليلة تجتلى مشهد شيراز. وأغلب الظن أنى قد شخصت ببصرى إلى هامات أشجار الأرجوان، بأدنى الأعمدة من خلف ، فكانت مزهرة ، وكانت اللوحة كلها فى روعتها جديرة بمقام شاعر كبير .

ويقع مثوى سعدى كذلك بجوار شيراز ، أبعد إليها من مقام حافظ . والعناية به ليست فائقة ، فلم يرصف بالحجر المصقول ، فأرضيته حصباء عادية . ولا يتسع المجال هنا ، حيث الحديث عن الحدائق الفارسية ، لتقصى الأسباب التى جعلته لا ينال الحظوة التى بلغها قبر حافظ عند الناس ، وهو ما لا يعنينا على كل حال ، فما نهتم به هو مزارا الشاعرين فى حد ذاتهما . وتقوم على حراسة ضريح سعدى شجرة من السرو مع مجموعة مع أشجار الصنوبر الصلدة لا يطمع الشاعر معها فى مثوى يفضله .

وتصانيف كلا الشاعرين محفوظة بمزاريهما يقوم عليها الحراس . ومؤلفات حافظ « فى الغيبيات والإلهيات » هى يقيناً أعظم من أن تحويها مدافن الشعراء فى هـذه الجزيرة [بريطانيا] الذين لا يبلغها منهم من نهج فى تواضع نهج هذين الشاعرين الفارسيين .

ولقد سأل عمر الخيـام أن يُثوى فى حديقة فقال : « سيكون قبرى فى موضع تؤرّجه ريح الشمال بشذى الورد كل ربيع » . وفى قول آخر : « سيكون قبرى فى مكان تهمى عليه الأشجار أزهارها مرتين كل عام » . وليت شعرى كيف تمّت له فلتة الطبيعة وتحققت . فمن عجب أن زار نظامى العروضى قبره بنيشابور عام ١١٣٥ ليجد « قبره بأسفل جدار بستان قد أطلّت منه أشجار الـكمثرى والمشمش وقد تناثر عليه كثير من الزهر حتى غطّاه »(١) . وتتابع المجلة الفارسية دورتها فإذا بسير برسى سيكس يزور المـكان بعد مضىّ مايقرب من ثمانمائة عام من ذلك التاريخ ليجد أشجار الفاكهة ما زالت هناك تنثر الزهر على القبر « فى بستان فارسى أنيق تقسمه إلى أقسام أربعـة مسالك مفروشة بالحصباء » . ويزوره رحالة أحدث عهداً عام ١٩٢٨ هو و . ف . عمانويل ، فيجد به أشجار الخوخ والسرو والصفصاف المستح .

أما الفردوسى ، واسمه منسوب إلى الفردوس أى الحديقة ، فقد اختار أن يثوى فى بستانه بطبران .

وحديث الشعراء طويل ، فلا ينسينا أن نذكر بالحمد والثناء جمهور البستانيين المتواضعين المجهولين الذين اضطلعوا بالسهر على حدائق فارس والعناية بها ، فمهّدوا طرقها وفرشوها بالحصباء ، وقوّموا ما مال من ياسمينها ، واستأصلوا ما عطب من أغصان الدّلب ، وحرصوا على امتلاء البرك إلى حافتها ، وواصلوا تنظيف القنوات

---

(١) انظر ص ٦٩/٧٠ بالترجمة العربية لجهار مقالة لعزام والخشاب — طبع لجنـة التأليف والترجمة والنشر — القاهرة ١٩٤٩

المغطّاة بالقرميد الأزرق من أوراق الشجر المتساقطة، وسقوا الحياض فى الصباح الباكر قبل أن تشتد حرارة النهار . والبستانى الفارسى كان ولا يزال فى الغالب من أبناء طائفة المجوس أتباع الديانة الزردشتية القديمة . وكأنه منذ مجيئه إلى هـذه الدنيا يُعد لهذه المهنة التى كتبته الأقدار لها ، فيجرى عليه ضرب من التعميد بأن يغطّس عقب مولده فى ماء محلى بالزهور التى غُليت فيـه من قبل . ويكبر من بعد ذلك حيث يعيش فى الغالب بمدينة يزْد أو كرمان ليرتدى رداء مميزا لونه أصفر قاتم وعمامة صفراء فاقع لونها[1] ، حتى ليبدو حين يمشى وكأنه تمثال من زعفران يغدو بين أشجاره وأزهاره . وكان من سوء طالعه، كبستانى ، أن نشأ بالورانة على كراهية شديدة لحيوانات بعينها، منها الحيّات والصلاّت والورلة والضفادع برية ومائية ، وجميعها مما يصادفه فى عمله . وإذ كان من يمن طالعه فى ناحية أخرى أن عقيدته تبيح له تعاطى النبيذ ، فقد أدّى ذلك إلى تشجيعه على زراعة الـكروم بهمة تفوق همة المسلمين الذين لا يباح الشراب عندهم . وكانت أهم مراكز هـذه الـكروم فى نجف آباد ، وهى مستعمرة زردشتية غير بعيدة من إصفهان . وفاكهة إصفهان ذائعة الصيت لاسيما البطيخ منها . ويذكر الرحالة ابن بطوطة الذى جاب هـــذه البلاد فى القرن الرابع عشر البطيخ إلى جانب « المشمش الذى ليس له مثيل، واللوز الحلو فى جرابه ، والسفرجل الذى لا يعدله شىء فى حلاوة مذاقه وكبر حجمه » .

وهذا الرحالة الذى بلغ إصفهان قادما من طهران قد قطع إلى المدينة مائة ميل فى الصحراء ليفاجأ بما أذهله من بساتين البطيخ الـكثيفة وأفدنة الخشخاش بداخـل الأسوار السمراء ، وقباب المساجد الزرقاء التى تتخلل صورتها العامة . ولابد أن الحال اليوم ما يزال على ما كان عليه حين شاهده شاردين الذى أشار ـ نظير بن بطوطة

---

(١) تشيع هذه العمامة بين البستانيين فى أغلب بلاد الشرق حتى اليوم . ويعرفونها فى مصر باسم عمامة غبانى تصحيفا منهم لـكلمة باغبانى الفارسية ومعناها بستانى . المترجم

من قبل – إلى نوع من المشمش يسمى «تُخمِ شمس» أى بيض الشمس . والحق أنه ليس بوسعى أن أتمثل اسما لهذه الفاكهة بيضيّة الشكل التى أصابتها الشمس بالنمش يتناسب مع الواقع والجمال أتمّ من بيض الشمس . وهو مما يصلح لأن يلفت إليه عناية أصحاب المشاتل فيقيمون بذلك منه عند أسوار حدائق الخضر نوعا جديدا ، وإن كنت فى ريب من قدرة شمس انجلترا الباهتة على إنضاج هذا الصنف من الفاكهة الذى تُشق نواته بنفس السهولة التى يفتح بها غلاف اللوز الحلو ذى المذاق الممتاز ؛ بل إن شمسنا [فى بريطانيا] سوف تقصر كذلك لون ساق الحور، على ماهو معروف به فى فارس ، إلى بياض شجر البتولا الشمالى الفضى القائم ببلادنا .

وينمو المشمش والبطيخ بإصفهان فى وفرة بالغة ، ويمتد الأخير على الأرض ، فى أحجام ضخمة ، كاليقطين فى أحواض الزراعة الإنجليزية .

ويروى شاردين أنهم قد أحصوا له مالا يقل عن العشرين من أنواعه المختلفة . هذا وأبناء الطبقات الفقيرة من السكان يقتاتون به فى الغالب طوال الأشهر الأربعة التى يكون فيها بمتناول أيديهم . والواحد منهم يتناول منه خمسة وثلاثين رطلا فى الوجبة الواحدة دون مشقة . بل إنهم قد يكملون وجبتهم بالخيار الذى يلتهمونه دون تقشير ، فهم بذلك يُحسدون على مالهم من أجهزة للهضم متينة . ولكن هناك من البطيخ صنف واحد لا يصلح للأكل . والواحدة منه لا تزيد فى حجمها على البرتقالة . وقشرته ملونة بخطوط صفراء وحمراء حتى ليبدو كالحنظل أو اليقطين . وشهرته ترجع إلى ما يمتاز به من رائحة زكيّة تجعل الناس يحملونه فى أيديهم كما تحمل أنت باقة من الزهور أو كما كان الكاردينال وولزى يحمل برتقالته وقد رشق فيها القرنفل .

وكان شاردين شديد الإعجاب بكل فاكهة فارس . ولا غرابة فى ذلك فهى بصنوفها العديدة ونكهتها الممتازة ليس لها ضريب . وما يلفت النظر أن ما انتقده لقرابة قرون ثلاثة خلت ، قدردده بحذافيره أيامنا هذه السير برسى سيكس حين

أشار إلى الحاجة لاستخدام الطرق العلمية فى الزراعة هناك. ويقول شاردين فى هـذا « لو أنهم [أى الفرس] فهموا فن البساتين كما نفهمه نحن لبدت فواكههم أرق فى النوع وأحلى مذاقا مما هى عليه ؛ فهم لادراية عنـدهم بتطعيم النباتات وإبقالها ولا بالأشجار المقرقمة أو المعرّشة » . وهذا الإهمال غير المقصود لهذه الهبة الإلهية لابُدّ أنه قد أثار القلق والفزع فى نفس شاردين الذى ألف الدقة والعناية البالغة، على ما تعالج بها أشجار الفاكهة فى فرنسا وتنمو وتشذب . وقد بان له الفارق يقينا بمقارنة هذا الحال مع مبلغ ماتجرى عليه الحدائق الفارسية من التنسيق والنظام .

وإلى هنا وقفتُ عند ما دوّنت من متناثرات لأعيد قراءتها فملكنى العجب مما رسمت من صورة استخلصتها بنفسى . ذلك أنى كنت فى الواقع أكتب فى سرعة واندفاع ، فلم أنهج فيما حررت النهج العلمى الواجب ، فتارة كنت أدلى بدلوى فى معين ذكرياتى وأخرى كنت أقتبس من هنا وهناك من حديث الرحالة ، كمنشار يعمل على غير هدى ، حتى انتهى ذلك كله إلى تكوين مجرد صورة من الصور . وحين ارتددت عن اللوحة إلى الوراء رأيت أن ماانتج عن عملى لم يكن إلا رسما مشوشا فيه بقايا من براعم الفاكهةالباهتة فى ناحية ، وفيه فرك من وردة صفراء فى ناحية أخرى، ويتوسطه جوسق بأدناه بركة ، وفيه خطوط مستقيمة تمثل الطرق والممرات ورسمت بالمسطرة ، وقد احتوى المنظر كله أسوارا مستقيمة سمراء متماثلة تحيط بها صحراء سمراء لا نهاية لها . فيالها من صورة مضللة ! . ولعلها تحوى ضمنا مما تبرزه بعض النقوش الفارسية، ولعلها كذلك تعبّر بعض التعبير عن الرغبة فى الهدوء والظل والابترادالتى هى مطالب طبيعية لساكن هذه البلاد الواسعة الوعرة . وأغلب الظن أن ابتغاء الرجـل الفارسى واحة أنيقة منسّقة فى وسط بلاده الشاسعة هو مطلب نفسى ، فرام لذلك أن يرسم لنفسه بعض خطوط مستقيمة، على دقة هندسية من ابتكاره، يرى فيها ضربا من الانتصار على هذا الفراغ الشاسع الذى يحيط به .

وإلى هذا القدر أرانى لم أذكر إلّا القليل عن الحدائق ذات الطابع الإيرانى الخالص. ويعوقنى عن الحصول على أحدث المعلومات عنها قصورى عن الرحلة إلى فارس لدراسة بقايا بعض هذه البساتين المعروفة بها، وناهيك عن مشقة الحصول كذلك على معلومات تاريخية عنها. وشاء حسن طالعى أن أصادف السيد مجتبى مينوى الذى هو خبير فى هــذا الموضوع، ولكنه أنبأنى بأن أغلب المراجع عن حدائق الزمن السالف إنما تستخلص من بطون المخطوطات العربيــة، وهو عمل يستغرق العمر كلّه ممن هوله كفؤ. وصادف كذلك أن ظهر فى المجلد الثـانى « من حفريات الفن الفارسى » الذى تنشره مطبعة جامعة اكسفورد مقال ثمين للدكتور فيلبس إكرمان، فتبرمت بتكرار ماحواه من معلومات أول الأمر، حتى إذا راجعته أخيرا اكتشفت أنى قد سبق لى اقتباس أغلب ماورد فيه من كتب فى حوزتى، وبان لى أنى لا أستطيع أن أضيف منه شيئا أساسيا إلى الموضوع. فكان علىّ إذن أن أختار بين ترديد ما كتبه الآخرون أو تدوين انطباعات نفسى شخصيا، ولم أكن لأطمئن إلى مثل هذا المخرج إلّا بعد أن أتقن دراسة بعض الحدائق المشهورة على ما كانت عليـه، وإن لم يكن لها اليوم من ماضيها ذكر.

ولعل شيراز هى أغنى المــدن الفارسية بالحدائق. ومجرد ذكر عبارة « شيراز وحدائقها » كفيل بأن يصور فى الأذهان مختلف مجامع الجمال.

وهنا نترك الميدان لإدوارد براون ليحدّثنا عن إحدى روضات شيراز بحديثه الشعرى الذى يصور فى بعض الأحيان جمال شيراز حين يتطلع إليــه السائح لأول وهلة :

« تقع مدينــة شيراز، موطن الثقافة الفارسية ومهد الفـكر الفارسى وكعبة الشعراء والفلاسفة، فى سهل خصب، عند موطىء أقدامنا، يكسوه العشب وتحتضنه تلال قائمة ما يزال الثلج يتلكؤ بقننها العليا. ويكاد يخفى هــذا الوادى عن الأنظار

الحدائق العامرة بأشجار السرو الداكنة ، وفيها تتنافس الورود وأشجار الأرجوان الكثيفة مع جموع الزهور الأخرى أيها أبهى لوناً وأزهى . وهو فى تألقه برداء من خضرة الربيع التى امتد بساطها إلى سُقف الأسواق ، قد رصّعه كذلك عديد من المآذن أسطوانية الشكل والقباب الفيروزية الزاهية . وركزت نظرى على ذلك كله ، ولكن أنّى لعينى أن يستوعبا جمال هذا المنظر الفيّاض وفيه بحيرة ماهنو التى تتلألأ مياهها اللازوردية فى ناحية الشرق وحدائق مسجد بردى التى لا يحدّها النظر فى ناحية الغرب . ولعمرى إن البيان ليقصر عن وصف ماغلبنى من فرط البهجة والطرب حين اطّلعت بعين الحقيقة ، بعد سير مضن ، على ما قد طالما منّيت به النفس من قبل ، فوجدت الواقع يبلغ المثال الذى تخيلته له ويزيد ؛ وهو أمر نادراً ما يصادفه المرء فى حياته . وهو حين يقع يثير مشاعرنا بما يقصر الوصف عنه ولا يبلغ البيان من تصويره له إلّا وهناً .

ولقد بلغ براون شيراز قادماً من پرسوپوليس ، فلا غرابة أن نراه يهتف بفتنة هذا المنظر الخلاب ويظهر انفعاله به . وقد أتيح له فى الأيام التى تلت أن يزور كثيراً من الحدائق التى كان قد رآها عن بعد وأثبت أسماءها فى قائمة مفيدة . فقد صادف فى ناحية الشرق روضتى « دِلگُشا » و « جانما » ثم حديقتى « چهل تن » و « هفت تن » ، كما رأى « باغ تخت » فى ناحية الشمال الغربى و « باغ شَيخْ » و « رشك بهشت » فى الغرب . وهذه جميعاً هى قليل من الكثير المنتشر منها بالوادى . فى حين تطلع علينا كتلة متماسكة منها هى حدائق مسجد بردى التى تقع على منحدرات التلال التى تحد المدينة فى ناحية الغرب ، والتى تطل عليها قمة جبل الثلج (كوهِ برف) بمنظرها الساحر .

فيالها من قائمة تلمع إلى ثروة من الجنان ، وأبدع بها من صورة رائعة . والحق أن ذلك كله ليس فيه من المبالغة شىء ، فهذا هو حقيقة منظر شيراز الذى يطالع

المسافر حتى اليوم حين يطل على المدينة، وهى فى واديها الخصب، بعد جدب الصحراء.
وزار اللورد كرزون المدينة زيارة قصيرة فلم يحفل بحدائقها :

« تبدو من الخارج (والتبرم واضح فى الواقع بكتابته) مكانا مربعا أو مستطيلا تحيط به أسوار عالية من الطين بأعلاها باقة كثيفة من الأشجار . أما داخلها فغزير الزرع . . . وأشجارها قد غرست على جانبى ممراتها الطويلة حتى لا تبدو لك صورتها إلا مجرد طريق أشجار . وتزدحم الأراضى المحيطة بها بأحراش من الشجيرات والنباتات الكثيفة . أما ماؤها فيجرى فى قنوات أو يختزن فى صهاريج . وقد تتدرج هذه الحدائق فى بعض الأحيان على مصاطب حتى تبلغ جوسق بأعلاها . وانعكاس صورتها فى البركة التى تقوم بأدناها هو من أروع مابلغه فن فلاحة البساتين فى محاكاة المناظر الطبيعية بوسائل صناعية . وليس بها على كل حال مماش ممهدة أو أحواض للزهور مختلطة أو بُسط من العشب ممتدة . فكل مافيها مشوش غير منسّق ، فمبلغ الجمال عند الرجل الفارسى يتمثل فى توفر الظل وخرير الماء ليس غير » .

ولعل مادفع اللورد كرزون إلى البرم بالحدائق الفارسية هو انطباع صورة فن فلاحة البساتين الإنجليزى فى ذهنه بما فيه من أحواض الزهور المنظمة وأبسطة العشب العريضة ، فلم يكن ليتصور وجود مايخالف ذلك كله بفارس . ونترك اللورد كرزون لنطّلع على ماقاله سائح آخر فى هذا الشأن . فهاهو تافرنيه يثير إعجابه أشجار السرو ، وقد أطلعوه على واحدة منها يقال إن الشاه عباس قد غرسها عام ١٦٠٧ أو هكذا أكّد له البستانى . وزار هذا السائح بستان الفردوسى إلى الشمال من شيراز فوجده مليئاً بأشجار الفاكهة وشجيرات الورد وبمدخله بركة بديعة البناء . كما زار كذلك بستان الشاه حيث شاهد به بركة من طراز سابقتها وإن كان التلف قد تسرّب إليها ، كما رأى به كذلك كثرة من أشجار الفاكهة وشجيرات الورد وبعض الياسمين ، ثم بركة أخرى لها سور من الحجر . وهو يقرّر أن هذه

الحدائق لا يمكن أن تقارن البتة «بمنازل الريف اللطيفة فى ضواحى باريس» فتفضلها. ولو كان قد كتب بلغة اليوم بدلا من لغة القرن السابع عشر لسماها « الدور المتأنقة » فهذا هو المعنى الذى كان يدور فى خاطره دون مراء

وحدائق شيراز لا تشاكل فى أى شيء الصورة التى عند اللورد كرزون لحدائق العصر الڤيكتورى الإنجليزية أو تلك التى يعرفها تاڤرنييه للحديقة الفرنسية، مايقع منها بضواحى باريس وما كان منها من تصميم لونوتر . ويبدو لعينى أدوارد براون بستان دلگشا على جمال خلاب بخزاناته ذات الماء الرائق وطرقه التى تحف بها أشجار البرتقال ومابه من مختلف أنواع الزهر . وقد روى له بستانى هذه الروضة ، بعد أن أهداه باقة من الزهور وفق رسم غالب ، أن صاحب البستان السابق « صاحب ديوان » حين فقد الحظوة فطُرد من منصبه بامتهان ، لم يكن يؤرقه إلا خشية انتقال هذا البستان إلى أيدٍ قد تتقاعس عن العناية بأمره فيذوى جماله . كذلك زار براون حديقتى « هفت تن » (سبعة أشخاص) « وچهل تن » (أربعون شخصاً) « وهى أدغال ظليلة لطيفة » ينعم فيها أولئك الذين أرهقتهم أمور الدنيا بحياة الدراويش الوادعة المطمئنة » . ومن أسف أنه لم يترك أى وصف تفصيلى لها . ويذكر براون كذلك أن بعض أصدقائه من الفرس كانوا قد دعوه إلى التنزه فى « رشك بهشت » « أى منافس الجنة » على مبعدة ميلين من شيراز وكان الجو ممطراً . ويذكر ـ وهو الإنجليزى ـ أسفه لسوء الجو حتى اضطر ورفاقه إلى لزوم جوسق طفقوا يراقبون منه الأشجار وقطرات المطر تتساقط منها .

ولقد ملك العجب مضيفه من ضيقه بالجو ، إذ كان فى خاطره « جوا لطيفا يترقب الناس مثله بفروغ صبر ، فهو من أيام الربيع الحقّة » .

ويضيف براون إلى ذلك بأنه ليس ثمة أشهى عند الرجل الفارسى من أن يحتسى النبيذ الذى يختزنه فى داره الصيفية وهو فى جلسته يراقب فى ابتهاج بالغ قطرات المطر

الهامية فى تساقطها ، ويستنشق الندى والنسيم العليل الذى يحمل إليه شذى المطور المنعش اللطيف . ومن هذه الحكاية يستبين مفهوم الحديقة عند الرجل الفارسى إلى غايته ، فهى ليست بمستراضه بقدر ماهى مكان يجلس فيه ليتسلى مع أصحابه بالحديث والموسيقى والجدل الفلسفى والشعر . وما أشهى عنده أن يراقب منه سقوط أمطار الربيع ، فهو يعلم علم اليقين أن هـذه الفرصة لن تواتيه كرة أخرى إلّا بعد شهور وشهور .

تحدثنا من قبـل عن بستان « هزار جريب » بإصفهان . ولعل أبعد الحدائق صيتاً فى العاصمة القديمـة هى حدائق القصر الملكى التى يُدلف إليهـا بواسطة « عالى قاپو » أى البوابة العظيمة . وهى تقع على الجانب الشرقى من الميدان المركزى الكبير الذى يعرف بميدان الشاه (وهو ليس بمربع الشكل فمساحته ٥٦٠ × ١٧٤ ياردة، واللفظة الإنجليزية هنا يقصدبها الميدان لا المربع، فليس فى اللغة الإنجليزية كلمة هى وقف على الميدان كما فى الإيطالية). ولا يتسع المجال هنا لبيان ماعليه ملعب البولو الملكى من الفخامة ، ويحدّه فى إحدى جهاته مسجد الشاه فى حين يتداخل فى جهة أخرى فى طريق الأسواق الواسع ذى البواكى . ومايعنينا فى دراستنا هـذه هى الحدائق الواقعة فيما وراء « عالى قاپو » حيث يعلو جوسق فارسى أجمل بقعة فيها . ويعرف هذا الجوسق باسم « چهل ستون » أى ذى الأربعين أسطونا . ولئن لم يبلغ ما « لتاج محل »(١) من الفخامة والتعقيد المعمارى فإن له أناقته ورقته على كل حال ، حتى لأراه فى نظرى من بين أعظم العمائر الشاعرية فى العالم، وإن كانت كلمة «عمارة» ليست ممايستساغ إطلاقه على مثله ، إذ هى توحى باستخدام الطوب والملاط والبنّاء وعامل البياض والشقال والنجّار . ويبدو هذا الجوسق كأن لم يصنعه بشر . فهو كامل كقصيدة من

---

(١) تاج محل هو المثوى الفخم الذى بناه السلطان شاهجهان بالهند لزوجته ممتاز محل فى منتصف القرن السابع عشر . وهو أحد روائع الفن المعمارى فى العالم . المترجم

غزل ، محبوك كالأحدوثة . وليس له من اسمه فى الواقع إلّا قدر مقدور ؛ فلا تجد من الأربعين اسطونا بالبناء إلا عشرين ؛ أما العشرون الآخرون فتراهم على صفحة ماء البركة انعكاسا لصورة الأولين عليها .

وليست حدائق القصر الملكى هى الجنان الوحيدة الجديرة بالذكر بقلب إصفهان . « فچهار باغ » أى البساتين الأربعة (وهى فى الأصل الكروم الأربعة) يدلف المرء إليهـا من مدخل يقع فى نهاية طريق فخم من أشجار الدُّلب يبلغ اتساعه خمسين ياردة ، « والماء يجرى بها فى قنوات حجرية ليتجمع فى أحواض عند ملتقى الطرق . وعلى كل جانب من جوانبها مداخل من الآجر تؤدى إلى حدائق كبار رجال البلاط » . وحديث جريان الماء والأحواض المتوسطة يتكرّر على وتيرة واحدة تشق على كل كاتب يجهد فى التعرّف على الحدائق الفارسية . ولكن كان من حسن الطالع فى هـذه المسألة بالنسبة لچهار باغ أن وصل إلى أيدينا وصف له كتبه الدكتور ج . فراير الذى زاره عام ١٦٧٧ إبان حكم سليمان ابن ذلك الشاه عباس الثانى الذى رأيناه من قبل يتسلى بمنظر البرتقال وهو يتراقص على نافورة فى « هزار جريب » . وهـذا الوصف يعطينا صورة حيّة للمنظر الرائع الذى شاهده الكاتب بإصفهان أيام انهيار الدولة الصفوية .

« لقد اجتمعت كل مفاخر إصفهان فى « چهار باغ » ، وقد خرج الأعيان للنزهة فى مواكبهم الفخمة الكثيرة فطفقوا يتنافسون فى إظهار الأبهة والكرم . . . أما الحديقة نفسها فكانت تزهو بأشجارها الخضراء وتشيع فيها الروائح الزكية ، وهى تزخر بالينابيع الصافية والأنهار الجارية التى تخلب الألباب بروائها . ولم يكن منظر بيوت الصيف اللطيفة دون ذلك كله فتنة وسحرا ؛ وهى تقوم عند كل بركة ، وقد أقيم بناؤها على أن يوفّر للنفس كل بهجة وسرور » .

وغير بعيد من إصفهان ، على مسيرة عشرة كيلو مترات منها على وجه التقريب ، تقع حديقة « فرح آباد » ، أى دار السعادة . وهى تأتى فى الترتيب الزمنى بعـد

« چهارباغ » بقليل، إذ لم تُنشأ إلا بعد عام ١٧٠٠م ليتخذ الشاه السلطان حسين منها مصيفاً له . وفيها يظهر القياس المطّرد الذى أتردد فى تكرار الحديث عنه ، ولا مناص من معاد القول على كل حال إذا ما ابتغى المرء أن يصف الحديقة الفارسية على أى وجه . وقد صنع بودوين تخطيطاً لهذه الحديقة عام ١٩٣١م تبدو فيه الممرات والطرق والبرك على نظام رقعة الشطرنج فى دقة هندسية ، وكل ما فيها قائم على التعامد والزوايا القائمة فى إسراف بالغ . والطريق الرئيسى والجانبى والميادين والحدائق المربعة التى تتوسطها البرك والجواسق والأكشاك المثمّنة ، هـذه جميعاً قد أقيمت وفق النمط التقليدى . ولا يبقى بعد ذلك من الحديث عن الحدائق الفارسية غير أقلّه ، إلّا أن نعاود تكرار ما قيل من قبل كرة وكرة .

والحدائق عند طهران هى دون حدائق شيراز أو إصفهان فى الأهمية التاريخية . ذلك أن هذه العاصمة هى أحدث عهداً من كلتيهما . ومع هـذا فإن منحدرات جبال البُرز الدُّنيا لا يبلغ جمالها ماعليه من فتنة ذلك الوادى الذى تقع فيـه طهران، بسُقفها التى تتخللها أشجار الحور ، ثم الدخان الأزرق الذى يظلها ، ومنظر طرق القوافل القديمة التى تتجه إلى جهات ثلاثة أصلية صوب إصفهان وقزوين ومشهد فى حين تسدّ الجهة الرابعة سلسلة الجبال الثلجية التى تنتهى عند جبل دمَوانْد الكبير مخروطى الشكل . وفى هذا الاتجاه تقع الحدائق ، وهى عديدة ، بعضها يمتلكه أمراء الأسرة المالكية أو كان فى حوزتهم ، أما البعض الآخر فخاص بالسفارات والمفوضيات المختلفة التى اعتمدها الشاه حين اتخذ من طهران عاصمة له بدلا من إصفهان . والحديقـة التى تحيط بمصيف السفارة البريطانية فى قُلهك موقعها لطيف . ويجرى الماء المثلج إليهـا من الجبال أيام الحر فيملأ برك السباحة بها كذلك . هـذا فضلا عن أشجار الحور البيضاء والدُّلب التى تلطف الجو . وبهذا يكون قد اكتمل لهـا ماينبغى أن يتوفر لحديقة فى مثل هذا المناخ والموقع . وتزدحم بالحدائق كذلك قريتا شمران وتجريش .

عند سفوح البُرز هذه وإن كانت يد الإهمال قد امتدت أغلب الظن إليها . ومن بينها حديقة تدعى « ولى آباد » بهـــا الجوسق والبيت الصيفى المعتاد الذى تنعكس صورته على صفحة الماء هو وأشجار أخرى سامقة مستدقة . ومن عجب أن ترى بها أشجارا بيضاء مما يَنتمى فى الغالب إلى فصيلة أشجار فنلندة وشمال روسيا أكثر مما ينتمى إلى أشجار بلاد فارس وأواسط آسيا .

ويطالعك بأعلى تل ، ضئيـــل البروز فى الوادى المحيط بطهران ، ذلك الجوسق الصغير أو كوخ الصيد المعروف « بدوشان تبه » . ويصفه براون بأنه « ناصع البياض » وإن كنت لا ترى له اليوم ذلك اللون إذ قد سقط عنه الملاط فبدا من تحته الآجر الأسمر . وبرغم جمال « دوشان تبه » وحسن موقعه فلا يصلح أن يَصدُق عليه مفهوم الحديقة . وهناك حديقة تقع بأدنى التل هى التى كان الشاه قد اتخذ منها موئلا للوحوش التى كان يقتنيها . فلقد شغف الشاه ناصر الدين بحـــديقة الحيوان التى كان قد شاهدها ببرلين حين زارها ، حتى أسهب فى الحديث عنهـــا بمذكراته فى إنشـــاء من الإعجاب المفرط الذى لا يصدر إلا عن تلميذ حدث أو حاكم شرقى « فالوحوش هنا هى مما لا يتصوره خيال ؛ آساد إفريقية بعفراتها وأحجامها الضخمة ومنظرها المرعب ووميض عيونها الذى يبعث الفزع فيمن ينظر إليهـــا ... ولقد كنت كلفا بالمكوث طويلا وملاحظة هذا الأسد لولا اشتداد زحام المتفرجين الذى صرفنى عن ذلك » . وغنى عن الذكر أن ما استهوى الناس هو هيئة الحاكم الشرقى ذى الشوارب الكثة الذى أقبل من مملـكة آسيوية هى شبه أسطورية عندهم لا منظر الأسد الإفريقى الذى درج سكان برلين على رؤيته من قبل .

ولم يقنع الشاه بالمأوى الذى أقامه للوحوش فى « دوشان تبه » حتى أقام لها آخر فى قلب طهران نفسها . ولقد هم أحد الرحالة الإنجليز عام ١٨٧٦ م بطلب الإذن لزيارة هذا المكان لولا أن نصحه عابر طريق ، وكان مصادفة إنجليزياً بدوره ، أن لا يدلف

إلى داخله . ذلك أن أقفاص هـذه الوحوش القليلة كانت غير محكمة الرتاج . فالأسد غالبا ما كان يُشاهد يجول ويصول كما يحـلو له بداخل الأسوار . والدب كثيراً ما رؤى من الخارج يتسلق شجرة دُلب . ويحكى المقال كذلك إنه كان للشاه بستانى إنجليزى « تلقى منه بتأثر بالغ باقة من الفجل هدية إلى جلالته » .

وإلى هنا علينا أن ننهى الحديث عن الحدائق الفارسية . والصورة الـكاملة لها قد يمكن لقارئ متقصٍّ لـكتب الرحلات القديمـة أن يحصل عليها فى تلك الأسفار وما بها من معاد الحديث عن إفادة الفرس من حدائقهم . فقـــد كانت لهم منتجعا يمارسون فيه جدلهم ، الذى لا آخر له ، فى الفلسفة والشعر والغيبيات أو يستمتعون فيه على مكث بالإنصات جوار الماء لصوت الموسيقى وتغريد البلابل . وأغلب الظن أن الحدائق الفارسية كانت فى هاتيك الأيام جديرة بأن تـكون جنّة الله على الأرض.

☆☆☆☆

الفصل الحادي عشر

****

العلم في فارس *

ترجمة يعقوب بكر

أولا — مقـــدمة

إنها لمهمة شاقة ولكن تبعث على السرور أن نحاول أن نعيد إلى فارس بعض الفضل الذى ضيعه عليها عدم التزام الكتاب المتقدمين الدقة فى الألفاظ ، فقد أدى هذا إلى خلط بين ما حققه العرب وما حققه الفرس . وقد كانت تلحظ دائما الفروق الجنسية والأساسية بين الأمتين . ولكن يبدو أن قوة الإسلام الدافعة وسرعة تقبل الفرس للغة العرب الفاتحين أعمتا عيون معظم المؤرخين عن أن كثيرا من الأعمال العقلية التى ينسبونها إلى الفاتحين يجب أن تنسب فى الواقع إلى المغلوبين . وقد حدث شيء من هذا القبيل فيما يتعلق بالصلات بين اليونان والرومان ، ولكنه لم يبلغ هذا الحد لأسباب واضحة .

ويتحتم علينا قبل كل شيء أن ندرك أن فارس كانت بلدا عظيما قبل أن يولد محمد [عليه الصلاة والسلام] ، وأن اللفظين « إسلامى » و « فارسى » لم يكونا أبدا من الألفاظ التى يستبدل بعضها ببعض . ويجب أن نعترف للعرب بفضل كبير ، لأنهم

(*) كل ما بين [ ] إضافة من المترجم وهو يود أن ينوه هنا بالمساعدة الطيبة التى لقيها من الدكتور صلاح الدين طلبة ، المدرس بجامعة القاهرة فرع الخرطوم ، فى ترجمة المصطلحات الرياضية الواردة فى هذا الفصل .

هيأوا المكانة واللغة والموارد للنشاط العلمى الذى بدأ فى ظل الخلفاء العباسيين ، وشمل آخر الأمر كثيرا من العقول الكبيرة فى الشرق الأوسط . ولكن إذا سمينا هذا كله « علوم العرب » ، أسبغنا عليهم فضلا يتجاوز ما يستحقون ، وغمطنا الفرس كثيرا مما هم جديرون به . وفى هذا يقول الأستاذ براون [E. G.] Browne : « خذ مما يسمى عامة علوم العرب العمل الذى أسهم به الفرس ، تجد أنك أخذت خير نصيب » . بل إن بول دى لاجارد Paul de Lagarde يذهب إلى أبعد من ذلك فيقول : « ليس بين المسلمين الذين حققوا شيئا فى ميدان العلم سامىّ واحد » . ومع هذا لازلنا نسمع عن « الطب العربى » مثلا ، وأكبر الظن أننا سنظل نسمع عنه .

ولا غرابة فى أن يعترف الكتّاب المتخصصون دائماً بنصيب الفرس الضخم فى علوم العرب . ولهذا نجد مؤلف الفصل الخاص بالفلك والرياضيات من كتاب « تراث الإسلام » The Legacy of Islam[1] (ص ٣٧٧) حريصاً على أن يبيّن أن لفظى « عربى » و « مسلم » يجب أن يؤخذا على معنى واسع جدا ، فيشملا شعوباً من أسبانيا إلى تركستان ، ويصدُقا على أناس كثيرين من غير المسلمين . وهنا قد يتساءل من يطرق الموضوع لأول مرة : لماذا إذن نسمى هذه العلوم عربية ؟

والجواب على هذا يتصل بالتاريخ إلى حد كبير . فقد اتفق حدوث النهضة الشرقية حين كانت قوى الإسلام تتغلب على العالم . وكان الجنود عربا : وكانت البلاد والقبائل ، حالما تخضع وتسلم ، تنعم بالسلام وحظ وافر من الرخاء . وأصبحت بغداد مركز الحضارة الإسلامية ، لأن الحظ الحسن شاء أن ترزق على التعاقب بخلفاء ثلاثة أو أربعة لهم ذوق رفيع ، شأنها فى هذا شأن فلورنسة التى أصبحت أكبر مراكز النهضة

---

(١) هو البارون كارا دى فو Carra de Vaux . (المترجم)

فى أوربا ، ولو فى بعض النواحى على الأقل ، لأن الحظ السعيد شاء أن تضم أسرة من التجار الأغنياء لها ذوق طيب [هى أسرة ميدتشى Medici] . وكما اجتذب رجال أسرة ميدتشى الفنانين إلى بلاطهم لأنهم كانوا قادرين على كفالة الموارد التى يتطلبها استخدام الموهبة الفنية ، كان فى إمكان المأمون وهرون الرشيد سد حاجات رجال العلم وتهيئة الجو الملائم لهم . وكان هذان الحاكمان عربيين .

فمن كان رجال العلم هؤلاء ؟ كانوا فى الغالب فرسا ، ولم يكن ذلك لأن الفرس بحثوا عمدا عن فرصة للتفوق على العرب ، ولكن لأن العرب أنفسهم اضطروهم أو كادوا إلى المجىء والعمل فى فروع معينة من الثقافة كانوا هم أى العرب يأنفون منها. فقد أخـــذ العرب ، عن شعور أو (كما أظن) عن غير شعور ، بتقسيم للعلوم يكاد يكون فيثاغوريا ، فحرموا على غيرهم تحريما باتا الاشتغال بفروع معينة من العـــلم ، وحرموا على أنفسهم سائر العلوم . وعلى هذا كان العربى يرى من حقه وحده دراسة الشريعة وعلم الكلام والنحو والكتابة والشعر وعلم العروض والتاريخ . أما سائر العلوم — وهى الفلسفة والمنطق والطب والحساب والرياضيات والفلك والتنجيم والموسيقى والميكانيكا والكيمياء alchemy — فقد سموها « علوم العجم » وتركوها لغيرهم . ولم يكن هذا التقسيم جازما فاصلا بأية حال ، ولكن وجد الفرس ترحيباً من أولى الأمر فى بغداد عنـد ما طلبوا إليهم مساعدتهم على دراسة الموضوعات التى نسميها اليوم « علوما » .

وكانت العربية اللغة التى يستعملونها ، وهذا يرجع ولا ريب إلى أنها من ناحيةٍ لغة أوليائهم ، وإلى أنها من ناحيةٍ أخرى لغة العصر يفهمها الناس دون عناء فى العالم الإسلامى كله . ولم يكن فى ذلك ضير ، فالعربية لغة شديدة المرونة تناسب الأعمال العلمية . ويضرب الأستاذ براون مثالا بارعا لذلك هو الكلمة « استسقاء »، وهى مشتقة من « سقى » وفق القواعد الصرفية المعروفة . فالكلمة « سقى » معناها

« أمدبالشراب» ، ولهذا أطلق « الاستسقاء » على « التحرق إلى الشراب » ، ومن ثم على المرض المعروف بهذا الاسم . وهناك مثال أبرع هو الكلمة « مستشفى » ، ومعناها « المكان الذى يقصده طالب الشفاء » ، فهى مشتقة من الجذر « شفى » . وهنا نشير إلى مسألة عارضة تبعث على الاهتمام ، هى أن هذه الكلمة عربية فصيحة لا غبار عليها ، ولكن أثر الفرس فى مسائل الطب كان من القوة بحيث حلت الكلمة الفارسية « بيمارستان » (مكان المرضى) محل الكلمة العربية الأصيلة حلولا تاما ، حتى فى بلد بعيد كالقاهرة . ولا تزال الكلمة الفارسية مستعملة اليوم فى مصر وسوريا ، ولكن فى معنى محدود هو « مستشفى المجانين » .

فماذا نفهم إذن من كلمة « فارسى » مقابل « مسلم » و « عربى » ؟ إن الإمبراطورية الفارسية (مع إمبراطورية ميديا) شملت فعلا فى عهد دارا كل العالم المعروف فى ذلك الوقت . ولكن من الجلى أن هذا الحدّ أوسع من أن نأخذ به هنا . وفى القرون المتأخرة تغوّل الأفغان والروس على فارس المستقلة فتقلصت إلى أقل من مساحتها الحالية. فيجب إذن أن نرسم خطا مصطنعا بين هذين الحدين .

ولن ينكر أحد ، فيما أظن ، أنه إذا كتب أحد بالفارسية حق لفارس أن تضم مجده إلى مجدها القومى ، حتى وإن كان مقيما فى بخارى [فى جمهورية أُزبكستان السوفيتية] أو هراة [فى أفغانستان] أو خيوا [أو خُوارَزْم فى أزبكستان أيضاً] أو دهلى نفسها . ولم يُقدّر للفارسية أن تصبح لغة علمية دولية كالعربية واللاتينية . فكان الكاتب بالفارسية إنما يكتب بها لأنها لغة قومه . وربما شذت عن ذلك فترة قصيرة جدا خلال حكم أباطرة المغول فى دهلى [كانت الفارسية فيها لغة علمية] . ولكننى أرى أنه لم يكتب فى تلك المدينة من الأعمال العلمية الأصيلة سوى النزر اليسير ، ولهذا لن تكسب فارس أو تخسر الكثير إذا أخذنا بذلك الزعم أو لا.

وقدأشرت فيما مضى إلى أن العرب دعواالفرس إلى النزول من التلال ، والاشتغال

بالطب والتنجيم والرياضيات فى بغداد . فلبى الكثيرون منهم الدعوة ، واتخذوا من العراق مقاما . فهؤلاء يحق لفارس ادعاؤهم . ولهذا سأدخل فى هذا العرض أولئك الذين هاجروا غربا من فارس إلى العراق ، حتى وإن كانت جميع كتبهم بالعربية وعاشوا وماتوا فى بغداد أو البصرة أو الموصل .

وأخيرا أرى بالطبع أن كل من ولد وعمل داخل حدود فارس الحديثة ، وأسهم فى العلم بنصيب ، قد شارك أيضاً فى مجد فارس ، وخلف لنا تراثا ، مهما يكن أصل أسرته أو لغة كتابته .

وعلى هذا الأساس يجب أن نستبعد بعض الأسماء المعروفة . فلن نتحدث عن الصابئة جميعا ، وأشهرهم رجال أسرتى قرّة وحُنين ، رغم أنهم عملوا جنبا إلى جنب مع زملائهم الفرس . ذلك لأن التراث الذى تركوه للعالم لايمكن أن ينسب إلى فارس . ولن يمكننا أيضاً الحديث عن [أبى عبد الله محمد بن جابر بن سنان الرقّى] البتّانى « وهو من أشهر علماء الشرق »[1]، لأنه جاء من حران ؛ ولا عن قسطا بن لوقا ، فهو من بعلبك . كذلك لن نستطيع إضافة مجد الكندى إلى أمجاد فارس ، فهو « من العرب الخلص القلائل الذين برزوا حقا فى ميدان الفكر والآداب ». فعلى من يهتم بأعمال هؤلاء (وهى تتفق زمانا ومكانا مع آخرين سنتحدث عنهم) أن يرجع إلى « تراث الإسلام » وأمثاله من الكتب التى تتناول أعمالهم هذه فى تفصيل دقيق .

وعلى الرغم من هذا التحديد لمن يتناولهم البحث ، نجد مادة أكثر مما يكفى لتبرير ما قلناه فى صدر هذا الكلام من أن فارس أسهمت الجانب الأكبر من علوم العرب .

---

(١) هذا قول كارا دى فو فى « تراث الإسلام » (ص٣٨٨) . (المترجم)

ثانيا — الرياضيات

كان الخراب، الذى أصاب فارس على يد الإسكندر الأكبر تامًّا شاملًا ، ولهذا لا نجد بقايا كافية لتقدير ما كان للميديين والفرس الأوائل من معرفة بالرياضيات . وقد سجل هيرودوت عملا هندسيا بارعا فى تلك الأيام . فهو يقـول إن فارسيًّا يدعى أرتاخائيس (توفى عام ٤٨١ ق . م) أشرف على حفر قناة عبر شبه جزيرة أثوس ليمر خلالها أسطول اكسركسيس [خشيار شاى] . كذلك لا نجـــد فى العصور الساسانية المتأخرة أية دلائل يمكن الاعتماد عليها فى التقدير . فتاريخ العلوم الرياضية فى فارس يبدأ من الناحية العملية فى بلاط المأمون ، ولنلاحظ أن أمه [مراجل] وزوجه [بوران] معاً كانتا فارسيتين .

وكان المأمون (٧٨٦ ـ ٨٣٣ م) [١٧٠ ـ ٢١٨ هـ] يتطلب مستوى رفيعاً فى الرياضيات البحتة والتطبيقية معاً . ففيما يتعلق بالرياضيات التطبيقية نجده مثلا يأمر بعمليتى مساحة لقياس درجة من أعظم دائرة تمر بسطح الأرض . واقترن عهده أيضاً بالوصول بالمعداد abacus [آلة قديمة للحساب] إلى ذروة الـكمال . وفيما يتعلق بالرياضيات البحتة نجده يحث على ترجمة النصوص الرياضية اليونانية والهندية إلى العربية . وممن برز من مترجمى هـذه النصوص يعقوب بن طارق ، الذى ألف فى التقويم وغيره من الموضوعات الفلـكية ـ الرياضية فضلا عن مشاركته فى ترجمة الـكتب الهندية ؛ وأبو يحيى البطريق، الذى ترجم جزءا كبيراً من كتاب بطليموس ؛ ومحمد بن إبراهيم الفزارى ، الذى سأتحدث عنه مرة أخرى فى القسم الخاص بالفلك .

هؤلاء وغيرهم ممن يذكرهم كتاب التراجم كالقفطى [صاحب إخبار العلمـــاء بأخبار الحـكماء] وابن أبى أصيبعة [صاحب عيون الأنباء فى طبقات الأطباء] وضعوا الأسس التى بنت عليها الأجيال التى تلتهم من الرياضيين . ولنلاحظ قبـل كل شىء

أن الفرس تناولوا الرياضيات من ناحية تختلف عن الناحية التى تناولها منها اليونان . فهؤلاء كانوا يحبّون الفلسفة المجردة والرياضيات البحتة الخالصة . وكانوا يبغون المران العقلى من طريق التأمل والتخيل . ولكن نجد الخلفاء المسلمين على العكس من ذلك يتطلبون دائماً نتائج عملية . فقد طُلب إلى الفرس فى بلاط المأمون أن يطبقوا نتائج دراساتهم على الفلك والمساحة والهندسة المهارية وفن الملاحة . بل كانت تُنتظر منهم العناية بالتفاصيل الصغيرة كالوصول بالتقويم إلى الكمال ، وتحديد الاتجاه الذى تقع فيه مكة ، والقدرة على قياس الزمن حتى لا تمر ساعة الصلاة دون أن يلحظها أحد . ولهذا نرى الأبحاث الرياضية الفارسية يتخللها الحرص على الدقة فى تطبيق المعرفة لا الحرص على دقة المعرفة نفسها . وفى الطب نجد اختلافا مماثلا بين اتجاهى العقلين الفارسى واليونانى . والاتجاه الحديث أقرب إلى منحى اليونان منه إلى منحى الفرس . ففى ميدان الطب كانت المشكلة التى تتطلب الحل فى نظر الفرس خلال القرون الوسطى تتعلق بالغاية ، فكانوا يقولون : لماذا ؟ ولا يقولون : كيف ؟ — ولكن هل يصح هذا فى علم التشريح خاصة ؟

وكانت أسس البحث الرياضى قد وضعت بالطبع قبل ذلك بزمن طويل . فما نسميه اليوم « الأرقام العربية » لم يخترعه العرب بله الفرس . فاليونان استعملوا حروف أبجديتهم مكان الأرقام ، وجعلوا لكل منها قيمة عددية . وكذلك جعل الرومان قيمة عددية لبعض حروف أبجديتهم . أما الأرقام بالمعنى المعروف فمن المحتمل أنها نشأت فى الهند . وقد اتخذ الفرس كلا النظامين الهندى واليونانى ، ولكنهم لم يتخذوا الأرقام إلا شيئاً فشيئاً ، فلم يستعملها أبو الوفاء [محمد بن محمد بن يحيى البُوزَجانى الحاسب] (٩٤٠ — ٩٩٧ م) [٣٢٨ — ٣٨٧ ه] أو [أبو الريحان محمد بن أحمد البيرونى [الخوارزمى] (٩٧٣ — ١٠٤٨م) [٣٦٢ — ٤٤٨ ه] .

ولا يزال الأدب الفارسى يحتفظ حتى اليوم بالنظام اليونانى فى التأريخ[1] ، الذى يحب الشعراء إدراجه فى قصائدهم ومُلَحهم الشعرية . ولنلاحظ أن القيم التى يجعلونها لحروفهم يراعى فيها ترتيب الحروف الأبجدية اليونانية ، لا الأبجدية الفارسية . ولنمثّل لهذا اللعب الحسابى بالبيتين المشهورين المكتوبين على قبر حافظ [الشيرازى] :

وإذ اتخذ مقامه فى أرض مُصَلَّى [من ضواحى شيراز ، وكان الشاعر شغوفاً بها]
فابحث عن تاريخه فى « خاكِ مصلّى »

وقد ترجم [هرمان] بِكْنل Bicknell [Hermann] هذين البيتين على على نحو يظهر معه فى الإنجليزية اللعب فى الأصل . وهذه ترجمته :

خذ من تراب مصلّى أنضج حبّاته ثلاث مرات

Thrice take thou from Muṣallâ's Earth its richest grain

فالحروف الوحيدة التى لها قيمة عددية فى الكلمتين Muṣallâ's Earth هى ، بمقتضى هذا النظام ، الميم (m) واللام (l) ثم اللام أيضاً ، وقيمها العددية هى ١٠٠٠ و ٥٠ و ٥٠ ، فالمجموع ١١٠٠ . والعبارة its richest grain تشتمل على ثلاث (i) ، والـ(i) قيمتها العددية واحد ، فالمجموع ٣ ، وتشتمل أيضا على C وقيمتها العددية ١٠٠ . فإذا ضاعفنا ١٠٣ ثلاث مرات نتج لنا ٣٠٩ . فإذا طرحنا ٣٠٩ من ١١٠٠ تبقى لنا ٧٩١ ، وهى سنة وفاة حافظ بالتاريخ الهجرى [=١٣٨٩م] .

---

(١) من المحسنات البديعية فى الشعرين العربى والفارسى . وقد ترجمه الكاتب بالكلمة الإنجليزية acrostics ، ولكن يحسن ترجمته بكلمة chronogram ، كما فعل براون فى كتابه A Literary History of Persia ، حـ ١ (لندن ١٩٠٦) ، ص ٧٦ .
(المترجم)

وهذا التقدير الحسابى معقد بعض الشىء ولا ريب ، ولكن كان هذا النمط من الشعر الرياضى موضع إقبال شديد من الفرس[١] .

وكان أعظم الرياضيين الذين عاشوا فى بلاط المأمون هو محمد بن موسى الخوارزمى. وقد ولد فى خيوا [= خوارزم] ، ولهذا يمكن اعتباره فارسيا . وفى كتاب تراث الإسلام (ص ٣٨١ ـ ٣٨٥) بعض التفصيل لما حققه فى ميدان الرياضيات ، فلا حاجة هنا إلى ترديد ما أحسن عرضه هناك . ومن الممكن أن كلمة 'algebra' « الجبر » فى لغتنا [الإنجليزية] مأخوذة من عنوان كتابه « الجبر والمقابلة »[٢] .

ولا ترجع أهميته فى تاريخ الرياضيات إلى هذا على طرافته ، ولكن إلى أنه أول من عالج موضوعه على نحو منظم منسق[٣] . وقد وفق بين معارف اليونان والهند . وأثر فى التفكير الرياضى أكثر من أى كاتب آخر فى العصور الوسطى . وأهم

---

(١) النص الفارسى يقول :

چو در خاك مصلّى ساخت منزل — بجو تاريخش از « خاك مُصلّى »

وترجمته : وإذ اتخذ مقامه فى أرض مصلّى — فابحث عن تاريخه فى « خاك مصلّى »

فحساب التاريخ هو خ = ٦٠٠ ، ا = ١ ، ك = ٢٠ ، م = ٤٠ ، ص = ٩٠ ، ل = ٣٠ ، ى = ١٠ ، فالمجموع هو ٧٩١ . (الخشاب)

(٢) يقول القفطى (ص ٢٦٦ آخر سطر ـ ٢٦٧ ، ط ليبزج ؛ ص ١٧٥ ، ط مصر) : « ومما وصل إلينا من علومهم (علوم الهند) حساب العدد الذى بسطه أبو جعفر محمد بن موسى الخوارزمى ، وهو أوجز حساب وأحضره وأقربه تناولا وأسهله مأخذا ، يشهد للهند بذكاء الخواطر وحسن التوليد وبراعة الاختيار والاختراع » . (المترجم)

(٣) يقول حاجى خليفة (ط وكالة المعارف التركية ، حـ ١ (عام ١٩٤٣) ، عمود ٥٧٩) : « قيل أول من صنف فيه (علم الجبر والمقابلة) الأستاذ أبو عبد الله محمد بن موسى الخوارزمى ، وكتابه فيه معروف مشهور » . (المترجم)

ما استحدثه استعمال أسماء الأعداد الهندية فى الحل العددى للمعادلات . ويلى ذلك أن ما أسهمه « فى حل المعـادلات الخطية هو أنه أدرك إدراكا تاما إمكان تطبيق البديهيات على نقل حدود المعادلات وتحوير الـكسور الضمنية إلى أخرى صريحة » . ويعتمد حلّاه للمعادلة التى من الدرجة الثانية س^{٢} + ب س = حـ على مناهج يونانية . ووصف أيضا اختبار التسعات Check of Nines ، الذى روّجه ابن سينا فيما بعد . ولـكنه أهمل الجذر السالب ، كما أهمله المتأخرون من الـكتاب الفرس . والواقع أن أحداً لم يعترف بهـذا الجذر حتى القرن السابع عشر . كذلك لم يهتم الخوارزمى بالمعادلات التكعيبية ، وإن كانت كلمة « مكعب » مألوفة لديه لا محالة .

وقد توفى محمد بن موسى الخوارزمى عام ٨٥٠ م[١] . ويجب أن لا نخلط بينه وبين مواطنه أبى عبد الله محمد [بن أحمد بن يوسف] الخوارزمى ، الذى ألف حوالى ٩٧٦ م [٣٦٦ هـ] كتاباً سماه « مفاتيح العلوم » . ويتجلى فى هذا الـكتاب ما امتاز به الفرس من حب للتقسيم والتبويب ، فهو يقسم العلوم إلى علوم الشريعة وما يقترن بها من العلوم العربية ، وعلوم العجم . ويقسم علوم العجم إلى العلوم الطبيعية والعلوم الرياضية. ويتناول هذا القسم الأخير الهندسة ، والحساب مع مبادئ الجبر، والميكانيكا [الحِيَل] مع قسم عن علم توازن الموائع hydrostatics [حيل حركات الماء].

وقد عاصر هذا الـكتاب ما كتبته تلك الجمعية السرية التى نعرفها باسم إخوان الصفا . وقد ألفت هذه الجمعية نحو خمسين كتابا علميا فى الرياضيات وعلم أحكام النجوم والـكيمياء . وتبحث هـذه الـكتب أيضا فى بعض ظواهر الطبيعة كالمد والجزر والزلازل والـكسوفين ، كما تعرض موضوعات للبحث مثل : كيف لا تمتزج

(١) لا نعلم تاريخ ولادته ، كما أن تاريخ وفاته غير ثابت . انظر المقال المـكتوب عنه بدائرة المعارف الإسلامية . (المترجم)

فى الهواء الأصوات التى تصدر فى وقت واحد؟ ولابد أن كثيراً من مؤلفى هذه الكتب كانوا من الفرس .

ومن الضرورى أن نضرب صفحاً عن ذكر كثيرين ارتبطت أسماؤهم ببلاط بغداد، وأن لانعرض هنا لابن سينا لأن شهرته العلمية ترجع إلى طبه (الذى سنتناوله فيما بعد) أكثر مما ترجع إلى رياضياته ، وإن لم يكن رياضيا خاملا .

ولكن لا يمكن إغفال البيرونى (٩٧٣–١٠٤٨ م) [٣٦٢–٤٤٨ هـ] . فله ملاحظات مبتكرة فى موضوعات عدة . وقد حدد خطوط العرض والطول تحديداً دقيقاً . وبحث فى مسألة الأرض هل تدور حول محورها أو لا . وأصاب فى قياس الجاذبية الخاصة لثمانية عشر حجراً كريماً ومعدناً ، وشرح حركة العيون الطبيعية والآبار الارتوازية ، بل إنه كتب عن تكون وادى السند فى عصور ماقبل التاريخ وعن الوحوش البشرية .

وبمولد [أبى الفتح] عمر [بن إبراهيم] الخيام [أو الخيامى] عام ١٠٤٤م[١] نصل إلى نهاية العصر الذهبى للعلوم فى فارس . وهو مشهور بين القراء الإنجليز فى ميدان آخر [هو ميدان الشعر] ، ولهذا أرى من المناسب تقويم الميزان بذكر رأى واحد أو اثنين من مواطنيه . فالزيزانى[٢] مثلا يصفه بأنه « علّامة الزمان » و « عديم القرين فى علم النجوم والحكمة » . ويصف حاجى خليفة القسم الأول من كتابه فى الجبر بأنه أحسن أعماله . ولكن لم تكن نظرته إلى الرياضيات مختلفة عن النظرة

---

(١) انظر عن الخيام ما كتبه القزوينى فى كتاب چهار مقاله ، الترجمة العربية لعبد الوهاب عزام ويحيى الخشاب، ص١٥٤–١٦٠ . (المترجم)

(٢) المراد الزوزنى (محمد بن على بن محمد الخطيبى الزوزنى) ، الذى اختصر كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطى ، وهذا المختصر هوكل ماوصل إلينا من كتاب القفطى . (المترجم)

إليها قبله بمائتى سنة . ولم يكن اشتغاله بهـــا إلا بقدر فائدتها فى الفلك والمساحة والصفقات التجارية وقانون الميراث .

وقد مضى [قطعا بالدراسات الرياضية إلى أبعد ممـــا تركها عنده الخوارزمى . وكان أهم عمل له فى ميدان المعادلات التـكعيبية . وطبق مبدأ القطاعات المخروطية المتقاطعة فى حل مشاكل الجبر . وصنف صور المعادلات التـكعيبية تصنيفاً كاملا ، وكوّن حلا هندسيا لـكل نمط .

«وقد صنف المعادلات تصنيفاً كاملا عن طريق معادلات الدرجة الثالثة من حيث عدد الحدود ، وبعد أن حدد مهمة إثبات الحلول الجبرية لهذه المشكلة بأعمال هندسية والعـكس بالعـكس وجدناه يتابع هذه المشكلة على نحو منسق منظم خلال كتابه . والواقع أننا نرى فيه جهداً لتوحيد الهندسة والجبر . . . وهو يكشف أيضاً عن روح من النظام وعن طابع التنظيم والتنسيق الذى يميز عمله . ولـكن كان أهم ما حققه فى ميدان المعـادلات التـكعيبية ، وقد صار به أعظم الرياضيين فى عصره وأكثرهم أصالة . فقـد كون هندسياً كل نمط من أنمـاط معادلات الدرجة الثـالثة التى اقترحها ، وبحث فى التعديلات الضرورية لـكل حالة خاصة ـ وهو عمـل بارز جدير بالملاحظة والإعجاب. »

وقد عالج آخرون قبل عمر هذه المشاكل بطبيعة الحال . فحاول [أبو عبد الله محمد ابن عيسى] الماهانى (حوالى ٨٦٠ م) قطع الدائرة إلى قطعتين بنسبة معينة معطاة[١] (مسألة أرشميدس) . وقد عبر عن ذلك بهذه المعادلة : س^{٣} + ا^{٢} ب = حـ س^{٢} ، فسميت معادلة الماهانى . ولم يجد لها حلا . ولـكن حلها أبو جعفر الخازنى [الأغلب: الخازن] ، أى أبو جعفر خازن المال ، ويمكن أيضاً أن يكون المعنى خازن الـكتب .

---

(١) له رسالة فى النسبة (الفهرست لابن النديم ، ط فلوجل ، ص٢٧١) . (المترجم)

وقد جاء من خراسان حوالى ٩٦٠ م [= ٣٤٩ هـ][1] ، وحل المشكلة من طريق تقاطع القطاعات المخروطية . وبعد ذلك بقليل (حوالى ١٠٠٠ م) نجد [أبا الجود] محمد بن [أبى] الليث[2] ، وكان مهتما بالمعادلات التكعيبية ؛ وبرسم المضلعات المنتظمة ذوات الأضلاع السبعة والتسعة ؛ وبالمعادلات التى من الدرجة الرابعة ، وقد حلها عرَضاً .

وفى حساب المثلثات كان الصابئة هم الذين خطوا الخطوات الأولى . وأبو الوفاء (٩٤٠–٩٩٧ م) [مر ذكره] هو أول اسم فارسى يمكن أن نفسح له مكاناً فى هذه الخلاصة الوجيزة التى نكتبها . وكان فلكياً ومن أعظم الرياضيين المسلمين . ولم يكن أعلم بالفلك من بطليموس . فهو لم يكشف التغير فى المتباينة الثالثة للقمر كما يقول الكثيرون . ولكن ربما كان أول من بيّن عمومية نظرية الجيب بالنسبة إلى المثلثات الكرية . وقد أدخل طريقة جديدة لتكوين جداول الجيب ، كانت فيها قيمة جيب الزاوية ٣٠° صحيحة إلى المكان العشرى الثامن . وعرف علاقات تكافؤ الملاقات التى نعلمها بشأن جا (ا ± ب) . وقام بدراسة خاصة للظلال ، وحسب جدولا للظلال ، واستحدث القاطع وقاطع التمام ، وعرف تلك الملاقات البسيطة بين الخطوط الستة المثلثية التى تستعمل الآن غالباً لتعريفها .

وقد قام [أبو جعفر] نصير الدين [محمد بن محمد بن الحسن] الطوسى [الشيعى] (الذى سأشير إليه مرة أخرى فيما بعد) بعدة دراسات أصيلة ، ولو أنه عاش قبل زمنه بقرن لظفر بشهرة عالمية . ولكن عصره كان يشهد فجر النهضة الأوربية . فما كادت أعماله تعرف بين الناس حتى لحق به الغربيون ثم خلفوه وراءهم وهم يحثون الخطى .

---

(١) توفى فيما بين ٣٥٠–٣٦٠هـ/٩٦١–٩٧١ م (بروكلمان : Geschichte der arabischen Litteratur ، الملحق الأول ، ص٣٨٧) . (المترجم)

(٢) انظر عنه بروكلمان (المرجع المذكور ، حـ ١ ، الطبعة الأولى ، ص٤٧٠ ، الطبعة الثانية ، ص٦١٩–٦٢٠ ؛ والملحق الأول ، ص٨٥٤) . (المترجم)

وكان آخر اسم يبلغ مسامع أوربا هو بهاء الدين [محمد بن حسين بن عبد الصمد الحارثى الجبعى العاملى البهائى]، الذى ولد فى آمُل عام ١٥٤٧ م وتوفى فى شيراز عام ١٦٢٢[١]. وقد نُشر كتابه [خلاصة الحساب (البهائية)] فى كلكتا عام ١٨١٢ ، وترجم بعد ذلك إلى الألمانية [بقلم نسلمان Nesselmann ، برلين ١٨٤٣] والفرنسية [بقلم ا . مار A. Marre، باريس ١٨٤٦] . ولكن ليست له قيمة كبيرة ، وليس فيه أى ابتكار . وإننى أذكر اسمه هنا لأكمل به القصة ، لا لأنه خلف لنا شيئا ذا بال .

ثالثا — الفلك والتنجيم

كانت دراسة النجوم جزءا من البرنامج الدراسى العادى لكل مثقف فارسى فى العصور الوسطى . وكما كانت الرياضيات فى خدمة علم الفلك ، كان علم الفلك (أو بالأحرى علم التنجيم) فى خدمة الطب ، وكانت هذه العلوم متداخلة بعضها فى بعض بحيث عُدّت دراستها جميعا أمراً لا غنى عنه . ولهذا وجدنا ابن سينا بعد أن حفظ القرآن يحضر دروس محمود المسّاح[٢] ، ويتعلم منه الرياضيات . ثم ينتقل إلى بيت أبى الحسن كُوشيار [بن لبّان الجيلىّ][٣] ، فيدرس الفلك . وهو فى خلال ذلك يدرس

---

(١) فى دائرة المعارف الإسلامية أنه ولد فى ٩٥٣ هـ / ١٥٧٤ م وتوفى عام ١٠٣٠ هـ / ١٦٢١ م . (المترجم)

(٢) يقول البيهقى (تاريخ حكماء الإسلام ، ط محمد كردعلى ، دمشق ١٩٤٦ ، ص٥٣) : «وأبوه [أبو ابن سينا] يوجهه إلى بقال يبيع البقل ، ويعرف حساب الهندسة والجبر والمقابلة ، يقال له محمود المساح » . (المترجم)

(٣) لم نجمه حوالى عام ٣٥٠هـ/٩٦٦م (بروكلمان ، المرجع المذكور ، حـ ١ ، الطبعة الأولى ، ص ٢٢٢ ، الطبعة الثانية ، ص ٢٥٢) . ويقول فيه البيهقى (المرجع المذكور ، ص٩١): « كان مهندساملء إهابه ، داخلا بيوت هذا الفن من أبوابه » . وانظر الترجمة العربية لچهارمقاله، ص ١٥١ . (المترجم)

علمى الكلام والمنطق . وأخيرا يبدأ دراسة الطب ، وهو بعد هذا كله فى السادسة عشرة من عمره .

وفى ألف ليلة وليلة مثالان طيبان لهذه التربية العلمية ، يدلان على مدى شيوعها . ففى الليلة ١٦٠ (١) حديث المزيّن الثرثار الذى قال [مخاطبا الشاب البغدادى] : « فقد منّ الله عليك بمزيّن منجم عالم بصنعة الكيمياء والسيمياء والنحو والصرف واللغة وعلم المعانى والبيان وعلم المنطق والحساب والهيئة والهندسة والفقه والحديث والتفسير . وقد قرأت الكتب ودرستها ومارست الأمور وعرفتها وحفظت العلوم وأتقنتها . وعلمت الصنعة وأحكمتها ودبّرت جميع الأشياء وركبتها » . والمثال الثانى هو ما لقيته الجارية تودّد من امتحان مفصّل فى هذه الموضوعات ، وهو يشغل مالا يقل عن خمس ليال (الليالى ٤٤٩ ـ ٤٥٤) (٢) ، ويُعدّ خلاصة طيبة جدا لما كان يعرفه عامة المثقفين فى بغداد خلال العصور الوسطى من أمور الطب والتنجيم .

وكان النظامى العروضى السمرقندى [فى كتابه چهار مقاله] يعتبر الفلكىّ أحدَ أربعة يجدر بالملك إبقاؤهم دائما إلى جواره . والثلاثة الآخرون هم الطبيب والشاعر وكاتم السر (السكرتير) . ولكن لم يكن هذا رأى الجميع ، كما يتبين من كلمة قالها أبو طاهر [الطيب أو الطبيب بن محمد] الخُسْروانى (٣) ، أحد شعراء السامانيين ،

---

(١) فى نسخة المطبعة الكاثوليكية ببيروت (حـ ١ ، الطبعة الثالثة ، ١٩٣٨) الليلة ٢٩ ، وعنها نقلنا . وقد تصرف الكاتب فى ترجمته، وترجمة رتشارد بيرتون Richard Burton (حـ ١ ، ص ٣٠٥ ، الليلة ٢٩ أيضا) أقرب إلى الأصل العربى . (المترجم)

(٢) الواقع أن مناظرة الجارية تودد مع العلماء تشغل ٢٤ ليلة ، من الليلة ٤٣٨ إلى الليلة ٤٦١ . انظر نسخة المطبعة الكاثوليكية ببيروت (حـ ٣ ، الطبعة الثالثة ، ١٩٢٧)، ص ١١٦ ـ ١٤٩ . (المترجم)

(٣) انظر براون (المرجع المذكور ، حـ ١ ، ص ١٤٧ ، الهامش الثالث) . (المترجم)

فهو يتحدث عن « أربعة أصناف من الرجال لم يسدوا ذرة خير » إليه ، هم الأطباء والأولياء والمنجمون والسحرة .

ولا يعرف شيء ، فيما أعلم ، عن الفلك والتنجيم فى فارس قبل الإسلام . وماتبقى لنا من الكتب الزردشتية خال على نحو يثير الدهشة من الخرافات التى كان يحتضنها علم الفلك . كذلك لا يلعب فيها القمر والنجوم دورا يقارن بدور الشمس .

ولكن تغيرت الحال بعد استقرار الخلافة العباسية فى بغداد . فقد انغمر المأمون فى دراسة السماء بحماسة لا تقل عن الحماسة التى أظهرها للرياضيات والطب . ويرجع ذلك بالطبع إلى أن هذه العلوم الثلاثة كانت متصلة فى أصولها أوثق اتصال . وربما كان الفلك رأس العلوم ، وكانت دراسته تتطلب حظا وافرا من المعرفة بالرياضيات . وكان الجانب العملى مرة أخرى هو الذى يثير اهتمام الناس فى تلك الأيام . ومن أمثلة هذا التطبيق العلمى عمليتا المساحة اللتان أمر بهما المأمون ، وقد أشرنا إليهما فيما مضى .

ولكن كان ثمة مشروع أوسع نطاقا إلى حد بعيد ، ويتطلب قدرا كبيرا من المعلومات الفنية ، هو بناء عاصمة جديدة تكون مقرًّا للخلافة . وقد اختار المنصور المكان الذى تقوم فيه بغداد الآن ، وعهد بالعمل إلى فارسى من علماء التنجيم اسمه نوبخت[(١)] . وقد بدأ العمل عام ٧٦٢ م [١٤٤ هـ] ، وكان المشروع يشمل بناء مدينة مسوّرة ، وما تستلزمه من أبواب ومساجد ودور عامة (ومنها مستشفى) ، وشبكة معقّدة من القنوات والجسور . ولم يبق لنا من هذا العمل القديم كله شيء لسوء الحظ .

---

(١) يقول القفطى (ص ١٦٥ ، ط ليبزج ؛ ص ١١٤ ، ط مصر) : « وآل نوبخت كلهم فضلاء لهم فكرة صالحة ومشاركة فى علوم الأوائل » . (المترجم)

وكان الفلكيون ، كالرياضيين ، يعتمدون أيضا على معارف الهند إلى حد كبير . وكان أول من عهد إليهم المأمون بترجمة كتب الهند رجلا من فارس، هو [أبو إسحاق] إبراهيم [بن حبيب] الفزارى (توفى سنة ٧٧٧ م) . وكان له ابن [اسمه أبو عبد الله محمد][١] اشتغل أيضا بترجمة الكتب الفلكية الهندية إلى العربية ، وكانت هذه الكتب أساس جداول الخوارزمى الفلكية[٢] .

ويقال إن الفزارى أول من صنع الأَسْطُرلاب[٣] ، الذى تطورت عنه فيما بعد آلة السدس sextant المعروفة فى الغرب . وأمر المأمون بإنشاء مرصد فى بغداد وآخر فى تدمر تشجيعا لدراسة الفلك .

---

(١) كان له ابن آخر اسمه إسحق ، ولهذا سمى أبا إسحق . انظر فى محمد كلام القفطى (ص ٢٧٠–٢٧١ ، ط ليبزج ؛ ص ١٧٧–١٧٨ ، ط مصر) . أما إسحق فقد وجدت إشارة عابرة إليه فى كتاب الفهرست (ص ١٦٤) ، حيث يقول ابن النديم : « محمد وإسحق ابنا إبراهيم الفزارى مقلان [فى الشعر] » . (المترجم)

(٢) يقول القفطى (ص ٢٧٠–٢٧١ ، ط ليبزج ؛ ص ١٧٧–١٧٨ ، ط مصر) : « فأمر المنصور بترجمة ذلك الكتاب [كتاب هندى فى حركات النجوم] إلى اللغة العربية ، وأن يؤلف منه كتاب تتخذه العرب أصلا فى حركات الكواكب ، فتولى ذلك محمد بن إبراهيم الفزارى، وعمل منه كتابا يسميه المنجمون السند هند الكبير ، وتفسير السند هند باللغة الهندية الدهر الداهر، وكان أهل ذلك الزمن أكثر من يعملون به إلى أيام الخليفة المأمون ، فاختصره له أبو جعفر محمد بن موسى الخوارزمى ، وعمل منه زيجه [تقويمه] المشهور ببلاد الإسلام » . (المترجم)

(٣) يقول حاجى خليفة (ح ١، عمود ١٠٦–١٠٧) : « علم الأسطرلاب هو علم يبحث فيه عن كيفية استعمال آلة معهودة يتوصل بها إلى معرفة كثير من الأمور النجومية على أسهل طريق وأقرب مأخذ مبين فى كتبها ، كارتفاع الشمس ومعرفة الطالع وسمت القبلة وعرض البلاد وغير ذلك ، أو عن كيفية وضع الآلة على ما بُين فى كتبه . . . وقيل أول من وضعه بطليموس وأول من عمله فى الإسلام إبراهيم بن حبيب الفزارى» . ويذكر ابن النديم (الفهرست ، ص ٢٧٣) والقفطى (ص ٥٧، ط ليبزج ؛ ص ٤٢، ط مصر) من كتبه كتاب العمل بالأصطرلابات ذوات الحلق وكتاب العمل بالاصطرلاب المسطح .

هذه الحماسة التى أظهرها الخلفاء القدماء للفلك لم تقلّ عنها حماسة سلاطين بنى بويه، الذين جاءوا من فارس ودخلوا بغداد فاتحين عام ٩٧٥م [الصواب ٩٤٥م / ٣٣٤هـ]. وكان لعضد الدولة [أبى شجاع] ، أعظم رجال هـذه الأسرة ، معلّم من مدينة الرىّ هو أبو الحسين [عبـد الرحمن بن عمر] الصوفى (٩٠٣ ـ ٩٨٦ م) [= ٢٩١ ـ ٣٧٦هـ] . وكان من أعظم الفلكيين المسلمين، وله كتاب محلى بالرسوم اسمه « كتاب الكواكب الثابتة »(١). ويعد هذا الكتاب هو وكتابا [أبى الحسن على بن أبى سعيد عبد الرحمن بن أحمـد] بن يونس(٢) [بن عبد الأعلى الصدفى المصرى] و [محمد طورغاى] ألغ بك [بن شاهرخ بن تيمور](٣) الطُّرَف الثلاث فى علم الفلك الرصدى عند المسلمين .

وقد بنى شرف الدين [الصواب شرف الدولة] ، أحد أبناء السلطان عضد الدولة ، مرصداً جديداً فى بغداد ، وأقام عليه فارسيا هو أبو سهل [ويجن بن رستم] القوهى [أو الكوهى] ، الذى امتاز أيضا بكتاباته عن المعادلات التى من درجة فوق الثانية. وصنع آلات المرصد فارسى آخر هو [أحمد بن محمد] أبو حامد الصاغانى [الأسطرلابى]، وكان مخترعا رياضيا وصانع آلات معا(٤) .

---

(١) أو « صور الكواكب الثابتة » أو « صور النجوم » أو « الصور السماوية » . ويذكره حاجى خليفة باسم صور الكواكب (حـ ٢ (١٩٤٣) ، عمود ١٠٨٤) . (المترجم)

(٢) فى دائرة المعارف الإسلامية أن تاريخ ميلاده غير معروف ، وأنه توفى بالقاهرة عام ٣٩٩ هـ / ١٠٠٩م. وكتابه المشار إليه هو الزيج الكبير الحاكمى، نسبة إلى الحاكم بأمر الله الفاطمى الذى تم الكتاب فى عهده قبيل موت صاحبه . وقد ذكره حاجى خليفة (حـ ٢ ، عمود ٩٦٥) . (المترجم)

(٣) ولد عام ٧٩٦هـ/١٣٩٣م ، وتوفى عام ٨٥٣هـ/١٤٤٩م . والكتاب المقصود هو « زيج جديد سلطانى» . (المترجم)

(٤) توفى عام ٣٧٩هـ/٩٩٠م (بروكلمان ، المرجع المذكور ، الملحق الأول ، ص ٤٠٠). (المترجم)

وعاش حوالى ذلك الوقت حبش الحاسب المروزى[1] ، وكان أول من حدد الزمن بالارتفاع (ومعنى هـذا عنده ارتفاع الشمس) ، وأول من عمل جدولا للظلال .
وحوالى ذلك الوقت أيضا ولد فى فرغانة فيما وراء النهر فلـكى عرفه الغرب باسم الفرغانى Alfraganus [أبو العباس أحمد بن محمد بن كثير] . وكان لـكتبه تأثير كبير فى التفـكير الأوربى . وقد قاس قطر الأرض ، وحدد المسافات الفاصلة بين الـكواكب وأقطار هذه الـكواكب ، وكتب كتابا عن الساعات الشمسية أو المزاول.
وتألق أيضا فى هـذا القرن أبو معشر [جعفر بن محمد بن عمر البلخى] اليهودى[2] (وقد حرف اسمه فى اللاتينية إلى Albumasar) . وقد وضع نظرية تنجيمية عن المد والجزر لقيت كثيراً من القبول فى العصور الوسطى .

وفى خلافة المعتضد عاش [أبو العبـــاس] الفضـل [بن حاتم] النيريزى (Anaritius فى الـكتب اللاتينية) [المتوفى عام ٣١٠ هـ / ٩٢٢م] ، وكان من

---

(١) القفطى (ص١٧٠ ، ط ليبزج؛ ص ١١٧ ، ط مصر): «وهو لقب له ، واسمه أحمد بن عبد الله ، بغدادى الدار ، كان فى زمن المأمون والمعتصم بعده ... وبلغ من عمره نحو مائة سنة» . (المترجم)

(٢) لست أعلم كيف جعله المؤلف يهوديا . فليس فى المراجع العربية التى ترجمت له (كابن النديم والقفطى وابن أبى أصيبعة وابن خلـكان) شىء من ذلك، بل إن القفطى (ص١٥٢، ط ليبزج ؛ ص ١٠٦ ، ط مصر) يقول عنه : « عالم أهل الإسلام بأحكام النجوم » . وقد توفى عام ٢٧٢هـ/٨٨٦م عن أكثر من مائة سنة.

ولعل الـكاتب خلط بين أبى معشر هذا وبين ما شاء الله الفلـكى اليهودى (لاحظ وجود ميم وشين فى كلا الاسمين) ، الذى عاش فى أيام المنصور ثم المأمون، وتوفى سنة ٢٠٠هـ/٨١٥م ويذكر له ابن النـديم (ص ٢٧٣) والقفطى (ص٣٢٧ ، ط ليبزج ؛ ص ٢١٥، ط مصر) من الـكتب الفلـكية كتاب صنعة الأسطرلابات والعمل بها، وكتاب ذات الحلق . وانظر فيه أيضا بروكلمان (ج ١ ، الطبعة الأولى ص ٢٢٠ ، الطبعة الثانية ص ٢٤٩، والملحق الأول ، ص ٣٩١-٣٩٢) ودائرة المعارف الإسلامية (النسخة الإنجليزية، حـ ٣ ، ص ٣٩٠ ، عمود ب). (المترجم)

مدينة [نيريز] بالقرب من شيراز . وهو متعدد المواهب ، ألف جداول فلكية ، ورسالة عن الأصطرلاب الكرى (هى خير ما كتب فى العربية عن هذا الموضوع)، وكتابا عن الظواهر الجوية . وكتب أيضا شروحا لبطليموس وأقليدس .

وكان إنشاء التقاويم أول نتيجة لإدخال علوم الهند فى بغداد . وكانت السنة الفارسية فى العصور السابقة للإسلام تقسم إلى اثنى عشر شهرا، يضم كل منها ثلاثين يوما ، وكان يضاف إلى هذه الشهور خمسة أيام حتى تكتمل السنة . ومعنى هذا أن السنة كانت شمسية . فلما فتح العرب فارس أخذوا يُحلّون سنتهم القمرية محل تلك السنة الشمسية ما أمكنهم ذلك . وعند ما عرف بلاط الخلفاء علم الفلك الهندى عرف معه طريقة أخرى لحساب السنة لقيت القبول ، وأُخذ بها رسميا نتيجة لكتابات [محمد بن موسى] الخوارزمى . وكان يحسب خطوط الطول على أساس خط طول أَرِين Arin ، وهو اسم محرف من أُجّين Ujjain [فى الخرائط الإنجليزية] ، وهى مدينة فى وسط الهند(١) . وقد اعتمد فى جداوله إلى حد كبير على ما حققه [أبوسهل] ابن نوبخت(٢) . وأعاد من جديد يوم النوروز الفارسى القديم . وكان معنى هذا العودة إلى السنة الشمسية مرة أخرى ، والرجوع إلى العصور السابقة للإسلام . ولذلك لقى معارضة من المتمسكين بأهداب الدين .

يقول البيرونى(٣) : « فلما كان أيام الرشيد اجتمعوا [الدهاقنة أى رؤساء القرى] إلى يحيى بن خالد بن برمك ، وسألوه أن يؤخر النوروز نحو الشهرين ، فعزم

---

(١) انظر كتاب كرلو نالينو Carlo Nallino : علم الفلك ، تاريخه عند العرب فى القرون الوسطى (روما ، ١٩١١) ، ص ١٥٥ . (المترجم)

(٢) توفى عام ١٧٠هـ/٨٧٦ م (دائرةالمعارف الإسلامية ، مادة نوبخت) . (المترجم)

(٣) فى كتاب الآثار الباقية عن القرون الخالية (ط ليبزج ١٨٧٨-١٧٨٦) ، ص ٣٢ . (المترجم)

على ذلك ، فتكلم أعداؤه فيه ، وقالوا إنه يتعصب للمجوسية ، فأضرب عن ذلك ، وبقى الأمر على حاله » .

ولكن أخذ بيوم النوروز ، الذى كان فى تقدير الخوارزمى يصاحب الاعتدال الربيعى ودخول الشمس برج الحمل ، وظل لازمة من لوازم التقويم الفارسى . ولايزال العام الجديد يبدأ فى ٢١ مارس .

وهكذا سارت الحال حتى بنى [السلطان السلجوقى أبو الفتح] ملكشاه [ابن ألب أرسلان][١] مرصدا جديدا عام ١٠٧٤ م [= ٤٦٧ ﻫ] ، استخدم فيه عمر الخيام وآخرين لوضع تقويم (زيج) جديد . وقد أسفر عمل عمر عن الأخذ بتأريخ جديد بدأ فى ١٥ مارس ١٠٧٩ [= ١٠ رمضان ٤٧١ ﻫ] ، وعرف بالتقويم الجلالى [نسبة إلى جلال الدين ملكشاه] . وقد بلغ من دقة عمله أن الخطأ لا يتعدى يوما واحدا كل خمسة آلاف سنة . فهذا التقويم خير إذن من التقويم الجريجورى Gregorian ، حيث الخطأ يوم واحد كل ٣٣٠٠ سنة .

وقد ظل ذلك التقويم ساريا دون منازع حتى ألف نصير الدين الطوسى زيجه أو جداوله.[٢] ويجب أن نتحدث بعض الشىء عن هذا الفلكى . فقد ولد فى طوس عام ١٢٠٠م[٣] ، وارتبط رغم أنفه بعصابة القتلة القوية النفوذ التى تعرف باسم

---

(١) فى مكان لانعرفه بالضبط ، ولكن يمكن أن يكون أصفهان أو الرى أو نيسابور (دائرة المعارف الإسلامية ، مادة «جلالى») . (المترجم)

(٢) اعتمد الكاتب هنا كل الاعتماد على براون (المرجع المذكور ، ﺣ ٢ (لندن، ١٩٠٦)، ص ٤٨٤–٤٨٦) . (المترجم)

(٣) فى دائرة المعارف الإسلامية أنه ولد عام ٥٩٧ﻫ/١٢٠١م ، وتوفى عام ٦٧٢ﻫ/١٢٧٤م. وانظر مقدمة « آداب المتعلمين » للطوسى ، نشر يحيى الخشاب ، مجلة معهد المخطوطات العربية (المجلد الثالث ، الجزء الثانى) . (المترجم)

الحشاشين . وبعد القضاء عليهم دخل فى خدمة هولاكو المغولى . وحارب فى صفوف المغول عند حصارهم بغداد ، وعندما سقطت المدينة أخذ ينهب كتبها ويضيفها إلى مكتبته حتى بلغ ما لديه نحو نصف مليون كتاب . وكانت له حظوة كبيرة لدى سيده المغولى ، الذى كان يسأله الطالع كلما اعتزم أمراً . ولكن عمله الأجدر بالثناء كان فى المرصد الجديد الذى بنى فى مراغة [بآذربيجان] عام ١٢٥٩م [= ٦٥٧ هـ] . وله كتب بالعربية والفارسية . فكتب بالفارسية رسالته المشهورة « أخلاق ناصرى » و « بيست باب در معرفة اسطرلاب » [عشرون بابا فى معرفة الأسطرلاب] ، و « رسالهٔ سى فصل در معرفة تقويم » [رسالة فى ثلاثين فصلا فى معرفة التقويم] ، كما كتب بها أيضاً بعض الرسائل فى علم المعادن والرياضيات وعلم الرمل . وقد ذاعت شهرته بين بنى وطنه ، ولكن انتقده واحد على الأقل[1] بأن « شهرته العلمية لا ترجع إلى ما حققه فعلا بقدر ما ترجع إلى مزاجه الحاد وضيقه بالمعارضة ، فلم يجد أحد من الحكمة نقده أو الحط من قدره ، ولا سيما أنه كان ذا حظوة كبيرة فى بلاط هولاكو » . وفى « تراث الإسلام » (ص ٣٩٥ ـ ٣٩٧) خلاصة طيبة لأهميته فى ميدان الرياضيات ومدى دين أوربا له .

وحوالى ذلك الوقت أنجبت مدينة طوس فلكيا آخر كتب له المجد والشهرة . ذلك هو [شرف الدين] المظفر [بن محمد الطوسى] ، الذى اخترع الأسطرلاب الخطى . والأسطرلاب المسطح هو فى أساسه مسقط كرة على مستوى . ولكن الأسطرلاب الخطى يمثل مسقط ذلك المستوى على خط مستقيم . وهو يسمى أحيانا عصا staff الطوسى .

---

(١) الشهرزورى فى تاريخ الحكماء كما نقله الشُّشْتَرِى فى مجالس المؤمنين (براون ، المرجع المذكور ، حـ ٢ ص ٤٨٦) . (المترجم)

وكان قطب الدين الشيرازى [محمود بن مسعود بن مُصْلِح] (١٢٣٦ ـ ١٣١١م) [٦٣٤ ـ ٧١٠ هـ] تلميذا لنصير الدين الطوسى الذى تقدم ذكره ، وقد تناول فى أحد كتبه البصريات الهندسية ، وطبيعة الإبصار ، وقوس قزح . وكانت تفسيراته فى أساسها كتفسيرات ديكارت . وعلى يدى أحد تلاميذه [كمال الدين الفارسى] انتقل إلى أوربا « كتاب المناظر » [لأبى على الحسن بن الحسن (أو الحسين)] ابن الهيثم (فى اللاتينية Alhazen) ، وكان لهذا الكتاب أثر عميق فى روجر بيكون Roger Bacon [1] وليوناردو دا فنشى Leonardo da Vinci [2] ويوهان كبلر Johann Kepler [3]

وإلى هذا العصر أيضاً ينتمى فخر الدين [أبو عبد الله محمد بن الحسين (أو الحسن) ابن الخطيب] الرازى [4] [التيمى البكرى الطبرستانى] ، وقد اشتهر بعلم الكلام قبل أى شىء آخر . وكان فضلا عن ذلك طبيبا معروفا . وقد كتب أيضا بالفارسية كتيبا فى علم التنجيم [هو الاختيارات العلائية فى التأثيرات السماوية] وموسوعة فى العلوم [هى جامع العلوم] . وقد ترجم الفقيد الأستاذ نيكلسون جانبا من أحد كتبه إلى الانجليزية .

وواصل علم الفلك السير قُدُما فى الطريق التى رسمها الطوسى . وكان حكم الأمير التيمورى ألغ بك (الذى قتله ابنه [عبد اللطيف] عام ١٤٤٩ [م/٨٥٣ هـ])

---

(١) الفيلسوف العالم الإنجليزى (حوالى ١٢١٤ـ١٢٩٢) . (المترجم)

(٢) الفنان الإيطالى الكبير (١٤٥٢ـ١٥١٩). (المترجم)

(٣) الفلكى الألمانى (١٥٧١ـ١٦٣٠) . (المترجم)

(٤) ولد عام ٥٤٣ أو ٥٤٤هـ وتوفى عام ٦٠٦هـ/١٢٠٩م. (المترجم)

دافعاً جديداً لهـذا العلم . وقد لخص كاتب فارسى (١) يكاد يكون معاصرا له فضله فى هذا السبيل أحسن تلخيص ، وذلك حيث يقول :

« أما السلطان المرحوم ألغ بك كوركان ، طيب الله ذكراه ، فقد كان عالما عادلا بارعا نشيطا ، بلغ مرتبة رفيعة فى علم الفلك ، كما كان فصيحا بليغا لا يشق له غبار . وفى حكمه بلغت حال رجال العلم ذروتها ، وفى عهده كانت مكانة الأدباء فى قمتها . وكان فى علم الهندسة شارحا للخفايا الدقيقة ، وفى المسائل الخاصة بعلم وصف الـكون مفسرا المجسطى [كتاب بطليموس فى الفلك] . ويتفق العلماء والفلاسفة على أنه فى العصور الإسلامية ، بل منذ أيام الإسكندر « ذى القرنين » حتى الآن ، لم يجلس على العرش ملك يضارع ميرزا ألغ بك كوركان فى معرفة الفلسفة والعلوم . فقد كانت له أكمل معرفة بالعلوم الرياضية ، حتى إنه كان يسجل الملاحظات على النجوم متعاونا مع أكبر علماء عصره أمثال [موسى بن محمد بن محمود المعروف] بقاضى زاده الرومى [المتوفى عام ٨١٥هـ/١٤١٢م] ومولانا غياث الدين جمشيد [بن مسعود بن محمود الـكاشى](٢) . ولـكن توفى هذان العالمـان الـكبيران قبل أن يتما عملهما ، فـكرس السلطان كل ما فى وسعه لهذه المهمة ، وأكمل الملاحظات وأنتج الزيج [أو التقويم] السلطانى ، وكتب له مقدمة بقلمه . ولا تزال هذه الجداول مستعملة اليوم ، ويقدرها الفلاسفة أعظم تقدير ، بل إن بعضهم يفضلها على الزيج الإيلخانى لنصير الدين الطوسى(٣) . »

---

(١) هو دولتشاه بن بختى شاه فى كتابه « تذكرة الشعراء » ، والنص منقول عن ط براون ، ص ٣٩١ . وقد أوردها براون نفسه فى كتابه عن تاريخ الأدب الفارسى (حـ ٣ ، الطبعة الثانية ، كمبردج ١٩٢٨ ، ص ٥٠١ـ٥٠٢) . (المترجم)

(٢) دخل فى خدمة ألغ بك عام ٨٣٠هـ/١٤٢٧م . (المترجم)

(٣) ألفه بالفارسية لهولاكو عام ٦٧٠هـ/١٢٧١م . (المترجم)

وبعد وفاة ألغ بك أخذ ينبدر الفلكيون الكبار . فكان هنالك غياث الدين [جمشيدالذى مر ذكره فى الفقرة السابقة]، والذى جئ به من كاشان [أو قاشان كما يسميها الكتاب العرب غالبا] إلى سمرقند لممارسة الفلك والرياضيات فى المعهد الجديد الذى بنى فيها . وعلا كذلك ذكر الكاشى[1] ، وكان أيضاً طبيباً لألغ بك . وكان الجديد الذى أتى به تحسيناً لما ابتكره [أبو بكر محمد بن الحسن (أو الحسين)] الكرخى[2] (توفى عام١٠٢٩م [= ٤٢٠ هـ]) . فقد توصل الكرخى إلى مجموع القوى الثالثة للسلاسل المتتابعة ١^{٣} + ٢^{٣} + ٣^{٣} + ٤^{٣} + . . . × ن^{٣} ، ولكن أضاف الكاشى تحسينا إلى ذلك وأعطى المجموع حتى القوة الرابعة .

وليس من الواجب علىّ أن أقول شيئا عن علم التنجيم الفارسى ، فإن الإيمان بصحة مزاعمه مقصور الآن على قراء صحف الأحد والصحف الرخيصة . ولكن إذا قرأ المرء كتب التاريخ الفارسية وحكايات الفرس خاصة لم يخل من دهشة لكثرة النبوءات الصحيحة التى صدرت عن منجمى تلك الأيام .

ويبدو أن التنبؤ كان أهم واجبات المنجمين ، بغض النظر عن تحديد الأوقات المناسبة لبدء السفر وشرب الدواء والفصد وهلم جرا . ولو كانت أقوالهم كلها باطلة وكانوا هم يعرفون ذلك لكانوا قوما شجعانا ، فالملوك لا يصبرون طويلا على البلهاء

---

(١) الواقع أن الكاشى، الذى أوردنا إسمه كاملا فى الفقرة السابقة ، هو غياث الدين جمشيد نفسه ، لارجل آخر كما يظن المؤلف . ثم إنه يؤخذ من كلام الكاتب أن نشاط غياث الدين أو الكاشى امتد بعد وفاة ألغ بك ، بينما أن دولتشاه فى النص المنقول يذكر أن غياث الدين توفى قبل ألغ بك . (المترجم)

(٢) يقول بروكلمان (المرجع المذكور، الملحق الأول ، ص ٣٨٩، الهامش الأول) نقلا عن ليفى دلا فيدا Levi della Vida إن « الكرخى » محرفة عن « الكرجى » (بالجيم) . (المترجم)

أو الحبشاء . وإننى لأتساءل أحياناً : ألا يجوز أن يدهش العالم يوما إذ يكشف مخطوطة فارسية يبدو فيها التنجيم علما دقيقا دقة علم الفلك فى تلك الأيام ؟ فربمـــا كان نبذ مزاعم التنجيم الوهمية هو السبب فى إغفال أسسه الصحيحة .

ويمكن اختيار الكثير من هذه النبوءات التى صدقت على نحو غريب . فمنهـــا واحدة تشير إلى ذلك السياسى الواسع الحـكمة نظام الملك [أبى على الحسن بن على ابن إسحق الطوسى] ، وزير ملكشاه . وكان يؤمن إيمـانا قويا بمنجم اسمه حكيم الموصلى . فقد تنبأ هذا الرجل بوفاة الوزير فى غضون ستة شهور من وفاته هو . فلما توفى المنجم فى ربيع عام ١٠٩٢ م [٤٨٥هـ] ، بادر نظام الملك إلى الاستمداد لمنيته . وقد اغتيل فعلا فى خريف ذلك العام(١) . كذلك [أحمد بن عبد الملك] بن عطاش الحشاش أسر [عام ٥٠٠ هـ / ١١٠٧ م] وسيربه فى شوارع إصفهان ليلهو الناس بالسخرية منه ، وأخيرا صلب ، فبينما هومعلق على الصليب سألة أحد الناظرين لِمَ لَمْ يعرف هـــذا المصير وهو المنجم . فأجابه : « لقد رأيت حقا من كشف طالعى أننى سأسير فى شوارع إصفهان فى أبهة وجلال لا يدانيهما الملوك ، ولـكن لم أعرف أن ذلك سيكون على هذا النحو »(٢) .

ولـكن خاب فأل أنورى الشاعر [أوحد الدين على] ، الذى كان يدعى الإحاطة « بكل علم ، نظرى أو عملى ، يعرفه معاصروه » ، فقد تنبأ بعاصفة شديدة عارمة تهدّ المنازل وتقتلع الأشجار [فى يوم حدده من شهر رجب عام ٥٨١ أو ٥٨٢ هـ] . فرُوّع الـكثيرون ممن يثقون به ، ولجأوا إلى حجرات تحت الأرض وإلى الـكهوف خارج

---

(١) هذه الرواية منقولة عن چهار مقاله ، ص ٦٨ــ٦٩ من الترجمة العربية لعزام والخشاب (المترجم) .

(٢) أورد براون أيضاً هذه الرواية فى المرجع المذكور ، حـ٢، ص٣١٦ . (المترجم)

المدينة . ولكن كانت الليلة المرهوبة قليلة الريح حتى إن ذُبالة عارية فى قمة مئذنة ظلت تضىء دون أن تهتز لها نار[١] .

ولكن هذه الأمانة التى التزمها المؤرخون فى رواية النبوءات كاذبة أو صادقة هى التى تشعر المرء بأنه قد يكون ثمة شىء يسمو بكشف الطالع من النجوم عن محض الدجل والخداع، على أننى لا أستطيع أن أزعم أن أوربا تلقت تراثا من المنجمين الفرس.

وبسقوط الإمبراطورية التيمورية بدأ اضمحلال فارس فى مختلف الميادين ، فأصبح الفلك مجرد حساب للكسوف والخسوف ومطالع الأقمار ، وأصبح التنجيم خادما للسحر ، وصار سجلهما مما غير ذى بال ، لا نكاد نجد فيه شيئا يدعو إلى الاهتمام . فمن الخير إذن أن ننتقل إلى الطب ، حيث لعبت فارس دورا بارزا ، وخلَّفت تراثا كبيرا للعالم الحديث .

رابعا — الطب وعلم النبات والكيمياء

فإذا تحولنا إلى الطب وجدنا لأول مرة أدلة تاريخية على قيام نشاط طبي فى فارس قبل الفتح العربى . فالفرس غير المسلمين لهم دور فى هذا المجال . على أن مادة البحث ضخمة إلى حد بالغ ، ولهذا أرى من الخير أن أترك المنهج الزمنى الذى التزمته حتى الآن ، وأحاول وصف تراث فارس فى هذا الميدان حسب فروع الطب المختلفة .

ولنتحدث عن الطبيب نفسه أولا . فمكانة الشرف التى يحظى بها الطبيب الآن ترجع فى الغالب إلى الفرس . فالطبيب فى بلاد اليونان وروما كان وضيع المكانة إلا فى حالات قليلة . ولكننا نجده فى أقدم الوثائق الفارسية ناصحا للملوك . وكان

(١) أورد براون أيضاً هذه الرواية فى المرجع المذكور، حـ٢، ص٣٦٧–٣٦٨ . (المترجم)

الفرس يلقون بالتكريم الأطباء اليونان الذين يأسرونهم فى حروبهم مع أثينا ثم مع بيزنطة فيما بعد ، ويعاملونهم معاملة المستضاف رغم أنفه لا معاملة الأسير . وكان الملوك يختارون من الأطباء غالبا كبار مستشاريهم وسواعدهم اليمنى . فنجد برزويه كبيراً لوزراء أنو شروان العادل ، الذى حكم من ٥٣١ إلى ٥٧٨ م . وقد بقى لنا تاريخ حياة برزويه كما كتبه بقلمه [فى مقدمة كليلة ودمنة] ، وقد ترجمه نولدكه إلى الألمانية . وإن وصفه للأسباب التى دعته إلى احتراف الطب ليدل على المستوى الخلق الرفيع الذى وفق دين زردشت إلى تحقيقه .

وفى أيام خلفاء بغداد ظل الأطباء فى هذا المستوى الرفيع ، وظلت لهم مكانتهم المرموقة . فكانوا كثيرا ماتسند إليهم أعلى مناصب الدولة . فأسرة بختيشوع المشهورة ظلت تمد الملوك بالأطباء والنصحاء الخلصاء طوال ستة قرون . ولا تكاد شهرة ابن سينا فى السياسة تقل عن شهرته فى الطب .

وفى فارس خلال القرون الوسطى كان الحكيم ـ باشى أو كبير الأطباء موظفا فى البلاط له سلطات تضارع غالبا سلطات كبير الوزراء . وفى العصور المتأخرة وجدنا الحكومة البريطانية تعترف بالمكانة الفريدة التى يشغلها الطبيب فى نظر الفرس ، فترقى السير جون ما كنيل Sir John McNeill ، خريج جامعة إدنبرة ، من منصبه طبيبا للسفارة البريطانية إلى رتبة سفير .

وربما كانت نظرة الفرس إلى المستشفيات [بيمارستان] أعظم ما خلفوه لأوربا من تراث وأبقاه . فالمستشفى الحديث تطور مباشرة عن أسس فارسية .

وأول مستشفى نعرف عنه معلومات مفصلة كان فى جند يسابور ، وهى مدينة قريبة من الأهواز الحديثة فى جنوب فارس . وجند يسابور هذه مدينة قديمة . ويرجع مستشفاها ومدرستها الطبية وجامعتها إلى سابور الأول (توفى عام ٢٧١ م) . وربما كان التعليم فيها أولا بالسنسكريتية ، وقد غلبت عليها الطرق الطبية الهندية .

ولما أقفلت مدرسة الرُّها عام ٤٣٩ م ، تدفق على جنـــد يسابور كثير من المعلمين اليونان ، فشاعت ولا ريب المبادىء اليونانية . ومن هـذا المزيج استخلصت المدرسة نظاما خاصا بها ، فحق للقفطي فيما بعد أن يقول [ص ١٣٣ ، ط ليبزج ؛ ص ٩٣ ، ط مصر] : « ولم يزل أمرهم يقوى في العلم ويتزايدون فيه ويرتبون قوانين العلاج على مقتضى أمزجة بلدانهم حتى برزوا في الفضائل ، وجماعة يفضلون علاجهم وطريقتهم على اليونانيين والهند ، لأنهم أخذوا فضائل كل فرقة فزادوا عليها بما استخرجوه من قبل نفوسهم ، فرتبوا لهم دساتير وقوانين وكتباً جمعوا فيها كل حسنة »[1] .

وقد ماتت المدرسة ميتة طبيعية من جراء تزويدها مدرسة الطب الجديدة والمستشفيات في بغداد بالمعلمين . وأشهر مستشفيات بغداد هي تلك التي بناها عضد الدولة ، وكانت كاملة العدة ، لها أموال موقوفة عديدة ، وصيدلية حافلة بالعقاقير المجلوبة من أطراف الأرض . وكان فيها نظام العيادة الداخلية والعيادة الخارجية كما نعرفه اليوم . وكان أطباؤها يشجّعون على التخصص في فروع الطب المختلفة . وكان فيها نظام الأطباء المقيمين وغير المقيمين كاملا ، ومديرون من غير الأطباء المحترفين ، ومكتب لتوزيع الصدقات . بل يبدو أيضا أنه كان فيها نظام تمريض بدائي .

وعند ما زار بنيامين الطليطلي[2] بغداد عام ١١٦٠ م [٥٥٥ هـ] ، وجد بها ٦١ بيمارستانا حسن التنظيم . وكان في شيراز في الوقت نفسه بيمارستان هو جزء من جامعة كانت تدرّس فيها الفلسفة والتنجيم والطب والكيمياء والرياضيات . وكان في إربل بيمارستانات للعمى ، والحالات المزمنة ، واللقطاء . وكان لهؤلاء مراضع يعملن بالليل

---

(١) عن الطب في العصر الساساني انظر كريستنسن « إيران في عهد الساسانيين » ، ترجمة يحيى الخشاب (القاهرة ، ١٩٥٧) ، ص ٤٠٣ — ٤١٠ . (المترجم)

(٢) كاهن يهودي عاش في القرن الثاني عشر وقام برحلات استغرقت ١٣ سنة زار فيها القسطنطينية ومصر وأشور وفارس وبلغ حدود الصين . (المترجم)

والنهار . وعند ما مر [السير توماس] هربرت Herbert [Sir Thomas][1] بنيريز القريبة من شيراز عام ١٦٢٨ م ، كان لا يزال بها بيمارستان ومدرسة للطب . وهى الآن قرية لا أكثر .

ومن الجلى أن البيمارستانات كانت تؤدى كل ماتؤديه المستشفيات الحديثة ، وأن كثيراً منها كان أيضاً مدارس للطب . ولابد أن كثيراً من هذه المدارس كان بالغ الصغر ، أقرب إلى أن يكون أستاذاً وتلامذته منه إلى المدارس بالمعنى الحديث . وقد ظلت مزاولة الطب حرة من كل قيد سنين طوالا . فكان كل مدرس يخرّج تلاميذه متى رأى ذلك . ولكن حدثت كارثة فى علاج المرضى أثارت اهتمام الناس بالأمر ، فأقيم نوع من الامتحان المركزى سنة ٩٣١ م [= ٣١٩ هـ] . وكان ذلك فى زمن الخليفة المقتدر . ويبدو أنه لما انحلت الخلافة ، اختفى نظام الامتحان ، وصار الطبيب لا يحتاج إلا إلى إذن لمزاولة مهنته . وفى أيام الصفويين (حوالى القرن السادس عشر) كان الإشراف على ممارسة الطب موكولا إلى الحكيم ـ باشى ، وكان من رجال البلاط . وكان المحتسب (المراقب العام) ، وهو من غير الأطباء المحترفين ، يشرف إشرافاً عاماً على كافة طبقات الأطباء وكل من ترتبط أعمالهم بممارسة الطب كالصيادلة وصناع الإبر وغيرهم .

وقد أدى المستوى الرفيع الذى حققته مدارس الطب إلى قانون خلقى معترف به يلتزمه جميع الأطباء . وقدصار هذا القانون بالغ الدقة فى آخر الأمر . ويتناول «المدخل» لابن الحاج [العبورى المتوفى عام ٧٣٧ هـ/ ١٣٣٦ م] و « معالم القربى [فى أحكام الحسبة] » [لمحمد بن محمد بن أحمد أبى زيد] بن الأُخُوّة [ضياء الدين] [٦٤٨هـ / ١٢٥٠ م ـ ٧٢٩هـ / ١٣٢٠م] وأمثالها من الرسائل آداب السلوك وقوانين الأخلاق

---

(١) رحالة وكاتب إنجليزى (١٦٠٦ـ١٦٨٢) . (المترجم)

الواجبة على الأطبـاء . وكانت الـكتب الزردشتية المقدسة قد وضعت قوانين خاصة بأجور الأطباء ، فظلت سارية فى العصور الإسلاميـة مع بعض التغيير . وثمة قصص كثيرة عن أطباء احتال عليهم المرضى فلم يدفعوا لهم أجورهم ، فلجأ هؤلاء إلى ساحة القضاء . ويقص علينا ابن العبرى قصة قضية بالغة الطرافة رفعها طبيب كان قد دُعى لعلاج مريض بحمى الغب ، فلم يوفق. فلما امتنع المريض عن دفع أجره لإخفاقه ، طالب بنصف الأجر زاعماً أنه استطاع على الأقل تحويل حمى الغب إلى أخرى شطر الغب(١) .

وفى طب العيـون تفوقت المدرسة العربية على المدرسة اليونانية ، وتركت للخلف تراثا ضخماً . وفى أيامها لم تعد لـكلمة « طبيب العيون » رنة الاستخفاف التى نحسها كثيراً فى كتب جالينوس والمؤلفين الأوائل . ولـكن لم يكن الفرس من الروّاد فى البصريات أو طب العيون ، ماعدا [أبا بكر محمـــد بن زكريا] الرازى(٢) الذى كتب كتابا عن طبيعة الإبصار(٣) . وكان أول من وصف عملية استخراج « الماء » cataract (٤) ، وأول من وصف رد فعل إنسان العين للضوء(٥) . وربما يحق أيضاً [لأبى على الحسين بن عبد الله بن الحسن بن على] بن سينا [٣٧٠هـ/٩٨٠ مـ-٤٢٨هـ / ١٠٣٧ م] بعض الفضل فى استحداث علاج القناة الدمعية بالسَّبْر ، فقد ارتأى إدخال

---

(١) انظر چهار مقاله، الترجمة العربية، ص ٧٥ . (المترجم)

(٢) فى بروكلمان (المرجع المذكور ، حـ ١ ، الطبعة الأولى ، ص ٢٣٣ ؛ الطبعة الثانية ، ص ٢٦٧-٢٦٨) أنه ولد عام ٢٥١هـ/٨٦٥م وتوفى عام ٣١١هـ/٩٢٣م أو ٣٢٠هـ/٩٣٢م. (المترجم)

(٣) هو كتاب كيفيات الإبصار (ابن النديم ، ص٢٩٩، س٢٧-٢٨) . (المترجم)

(٤) مرض فى العين يسبب عمى جزئيا . (المترجم)

(٥) وذلك فى رسالته « العلة التى من أجلها تضيق النواظر فى النور وتتسع فى الظلمة » (ابن النديم ، ص٣٠٢ ، س ٧) . (المترجم)

مسبر معقم فيها . ويصح أيضا أن أذكر [أباعيسى] جبرائيل بن عبيد الله [بن بختيشوع ابن جبرائيل][1] ، وهو من أسرة بختيشوع الكبيرة ، وكان طبيب عيون لعضد الدولة ، وكتب رسالة فى [عصب] العين . وهذه الرسالة بالعربية . وكان محمد ابن منصور الجرجانى[2] أول من كتب فى هذا الموضوع بالفارسية . وكتابه عبارة عن عشر رسائل ، السابعة منها تبعث على الاهتمام خاصة لأنها تتناول طرق العمليات. ولكن إذا نظرنا إلى هذا الميدان نظرة شاملة ، وجدنا أبرز الأسماء عربية ولاريب ، لا فارسية[3] .

أما الجراحة فيصعب أن أقول إن الفرس نهضوا بها أو لم ينهضوا . فكتب الجراحة بالغة الندرة ، سواء فى العربية أو الفارسية . والحق أن مثل هذه الكتب تشير إلى طائفة كبيرة من طرق العمليات ، وتصف عمليات فى جميع أجزاء الجسم من تربنة الجمجمة إلى استئصال الدوالى . ولكننى لا أعتقد أنها أضافت شيئا جديداً إلى

---

(١) فى القفطى (ط ليبزج، ص١٥١ ؛ طمصر، ص١٠٦) وابن أبى أصيبعة (ط أوجست ملر August Mueller أوامرىء القيس الطحان، القاهره ١٨٨٢، الجزء الأول ، ص ١٤٧) أنه توفى عام ٣٩٦هـ (= ١٠٠٥ م) عن ٨٥ سنة . (المترجم)

(٢) صحة اسمه زين الدين أبو الفضائل إسماعيل بن الحسين الجرجانى الخوارزمشاهى المتوفى عام ٥٣١هـ/١١٣٦م أو ٥٣٥هـ . وكتابه المشار إليه هو ذخيرهٔ خوارزمشاهى ، ويقول حاجى خليفة (الجزء الأول، عمود ٨٤٢) إنه فارسى ألفه لعلاء الدين تُكُش الخوارزمشاهى . ويقول براون فى كتابه Arabian Medicine (كمبردج ، ١٩٢١) ، ص ٩٨ ، إنه يضارع «القانون» لابن سيناء إن لم يفقه شمولا وحجما ؛ وفى ص ١١٠ــ١١١ عرض مفصل لهذا الكتاب . وانظر سيريل الجود Cyril Elgood (مؤلف هذا الفصل الذى نترجمه) فى كتابه Medicine in Persia (نيويورك ، ١٩٣٤) (ص ٥٥) ، وبروكلمان (المرجع المذكور ، حـ ١، الطبعة الأولى ، ٤٨٧ ؛ الطبعة الثانية ، ص ٦٤١ ؛ والملحق الأول ، ص ٨٨٩ ــ ٨٩٠) ، و Grundriss der iranischen Philologie (المجلد الثانى، ص٣٦٧). (المترجم)

(٣) انظر عن الطب عند المسلمين تعليقات القزوينى على مقالة الطب فى چهار مقالة ، ترجمة عزام والخشاب ، ص ١٦٢ــ١٧٨ . (المترجم)

مانعرفه عن الأمراض الجراحية أو علاجها . ومن المحتمل أن الفرس كانوا واسعى الخبرة بعمليات الحصاة ، بل كانوا أحيانا يستخرجون الحصاة من الكلية نفسها . وقد يحق لبهاء الدولة [1] (فى أوائل القرن السادس عشر) فضل السبق على فاولر Fowler وبوتان Potin حين قال إنه يجب بعد عمليات البطن تمريض المرضى وهم فى وضع الجلوس ، وحين اقترح صنع آلة خاصة تغنى عن فتح البطن فى حالة الالتهاب البريتونى . فقد دعا إلى استعمال أنبوبة خاصة للدرنقة drainage ، لها طرف دقيق جداً فى ناحية وكيس مانع للهواء فى الناحية الأخرى ، يثبت فى وسطها ثقب صغير فتتيسر إزالة الصديد بالامتصاص .

وفى علاج الكسور كان جراحو التجبير يستعملون جبس باريس plaster of Paris قبل أن تعرفه أوربا بزمن طويل .

وإننى أشك فيما إذا كان الفرس القدامى عرفوا العملية القيصرية . ويذكر الفردوسى حالة منها ، ولكنه شاعر . وقد نقلت فى كتابى عن « الطب الفارسى » Persian Medicine [2] (Clio Medica Series) صورة من مخطوط تصور هذه العملية . ولكن لا بد أن هذه الصورة وليدة خيال المصور . فإننى لم أجد فيما قرأت من الكتب الطبية الفارسية وصفا للطريقة التى يجب أن تجرى بها العملية أو الوقت الذى يجب أن يتخير لها .

---

(١) هو بهاء الدولة بن مير قوام الدين [قاسم] نوربخش الرازى ، ألف « خلاصة التجارب » فى الطب سنة ٩٠٧ هـ فى بلدة رى (حاجى خليفة ، الجزء الأول ، عمود ٧١٨) . وانظر لوسيان لكلارك Lucien Leclerc (Histoire de la médecine arabe ، جـ ١ ، باريس ١٨٧٦ ، ص ٣٢٧) . (المترجم)

(٢) الواقع أن اسم الكتاب ، كما مر ، هو « الطب فى فارس » Medicine in Persia . (المترجم)

وفى ميدان الطب العيادى clinical ينسب أكثر المؤرخين إلى الفرس من الفضل فوق ما يستحقون فى ظنى . وكلنا نعرف أن الرازى أول من ميز بين الحصبة والجدرى[١] . ويستطيع من يشاء أن يقرأ وصف الرازى لهذين المرضين ، فقد نشرته جمعية سيدنهام Sydenham Society مترجما إلى الإنجليزية منذ عدة سنين[٢] . ولكننى غير مقتنع بأنه أدرك حقا انفصال كل منهما عن الآخر ، وأعتقد أن تمييزه بينهما لم يتجاوز ما يستطيع كل امرئ أن يراه من الفارق الكبير بين بثرات الجدرى وبُقَع الحصبة . ويظن البعض أيضاً أنه ميز بين الحصبة والحمى القرمزية حين قال إن الحصبة الشديدة التلون أخطر من الحصبة المعتدلة الاحمرار . ولكننى أعتقد أن فى هذا تحميلا لكتاباته فوق ما تطيق من المعانى . ومما لا شك فيه أنه لم يشر إلى أن الجدرى من الأمراض المعدية . وكان الفرس يمارسون التطعيم فى الذراع على سبيل الوقاية . ولكن ربما عرفوا ذلك من الصين .

وعرف أيضا لابن سينا الفضل فى بعض الملاحظات التى تتسم بالأصالة . فيبدو أنه لاحظ الفرق بين الصَّفَر الساد والصَّفَر الحال لكرات الدم . وقد دعا وصفه للالتهاب السحائى بعض المؤرخين إلى اعتباره عالما بالأعصاب سابقا لعصره . ولكن دراسة كتابه «القانون» تدل على أنه اتبع من كافة الوجوه آراء أهل عصره الخاطئة . ويجب أن نضيف إلى مظاهر فضله دفاعه عن آراء ابن الهيثم فى سبب الإبصار ، وكانت مغايرة لآراء أهل عصره وإن ثبتت الآن صحتها ؛ وكذلك وصفه لمرض الأُبْنة[٣] ، وهو الذى وصفه كرافت Kraft وإبنج Ebbing فيما بعد « بالتخنث بين المصابين بانحرافات نفسية تتعلق بالناحية الجنسية » .

(١) فى « كتاب الجدرى والحصبة » . (المترجم)

(٢) هذه هى ترجمة جرينهل Greenhill التى نشرتها الجمعية فى لندن عام ١٨٤٨ باسم A Treatise on the Smallpox and Measles. (المترجم)

(٣) للرازى أيضا كتاب فى «الأبنة وعلاجها» ذكره ابن النديم فى الفهرست (ص ٣٠١ ، س ١٨) . (المترجم)

ويبدو أن الجرجانى (القرن الحادى عشر)[١] لاحظ ملاحظة فيها أصالة حين قال إن بعض حالات تضخم الغدة الدرقية تصحبها سرعة فى ضربات القلب ، وهى ظاهرة نسميها الآن التسمم الدرقى . ولاحظ أيضاً تلك الظاهرة الغريبة ، وهى أن بعض الأمراض معادية للبعض الآخر ، وأن مرضا ما قد يعترض طريق الآخر ويشفى المريض منه . ونحن نطبق هذا المبدأ اليوم حين نسعف المجنون من الشلل العام بأن نسلط عليه نوبة من نوبات الملاريا .

وبعد الجرجانى بزمن قليل نجد بهاء الدولة (الذى لمع نجمه فى ١٥٠٠م) ، وكان على حظ كبير من دقة الملاحظة ، وهو صاحب أقدم وصف معروف للسعال الديكى ، وهو وصف شامل جامع ، وقد وصف أيضا حمى القش . وأظن أن الرازى سبقه فى وصف هذه الحمى ، فقد كتب كتابا لم يبق لنا سماه « مقالة فى العلة التى من أجلها يمرض الزكام لأبى زيد البلخى فى فصل الربيع عنـــد شمّه الورد »[٢] . وفى السنة نفسها تقريباً كتب عماد الدين [محمود] شيرازى رسالة عن الزهرى تشتمل على بعض الملاحظات التى تتسم بكثير من الذكاء والأصالة . وهى أقدم ما كتب فى هذا الموضوع بالفارسية، بل ربما بأية لغة شرقية . وقد وُصف هذا المرض فى أوربا من قبل بطبيعة الحال .

وفى ميدان العلاج كان الفرس أكثر توفيقا منهم فى ميدان التشخيص . وكانت عقاقيرهم تقوم على الأعشاب اليونانية . ولـكنهم أضافوا إلى ما أخذوه عن اليونان بعض الأدوية المشهورة كالراوند والسنامكى والـكافور وجوز الطيب والقرنفـــل وخشب الصندل وخيار الشنبر والتمر الهندى ، ثم قصب السكر قبل كل شىء . فـكان علم

---

(١) من أنه توفى عام ١١٣٦م ، أى فى القرن الثانى عشر . (المترجم)

(٢) ذكرها ابن أبى أصيبعة (الجزء الأول ، ص ٣١٩ ، س ١٩ــ٢٠) . (المترجم)

النبات والطب يسيران جنبا إلى جنب . ويجب أن نعرف للفرس فضل البحث عن الأدوية خارج ميدان النبات أيضا ، واستنباط عدد كبير من العقاقير الكيماوية التى تعتبر السلفوناميدات اليوم وريثة لها . وقد أضاف الرازى الزئبق إلى المسهلات بعد أن جربه على القرود . واستعمله عماد الدين أيضاً فى علاج الزهرى . واستعمل الرازى أيضا حبّات الأسفيداج لعلاج العيون . ولذلك عرفت فى كتب العقاقير الأوربية باسم « أقراص الرازى » Trochisci Rhasis أو الصابون العربى (وهذه التسمية الأخيرة غير صحيحة لأن الرازى كان فارسيا من الرى ، وهى قرية قريبة من طهران الحالية) .

ولكن أوربا مدينة للرازى بأكثر من إدخال هذه العقاقير القليلة . فقد كتب كتاب « الحاوى »[١] فى الطب (الذى عرفت ترجمته باسم Continens) ، فصار كتابا تعليميا فى معظم الجامعات ، وكتب أيضا كتابا فى الكيمياء alchemy[٢] مهد الطريق لما نعرفه اليوم عن الأجسام الكيماوية . وكانت المواد حتى عصره تقسم إلى أجسام bodies ونفوس souls وأرواح spirits . فاستحدث الرازى التقسيم إلى حيوان ونبات ومعدن . ثم قسم المعادن إلى أرواح وأجسام وأحجار وكبريتات وبوركسات وأملاح؛ وميز بين « الأجسام » المتبخرة و « الأرواح » غير المتبخرة[٣] .

وقد أخذ الرازى كثيرا من آرائه الكيميائية عن « جابر » [أبى عبد الله جابر

---

(١) « ويسمى الجامع الحاصر لصناعة الطب » (ابن النديم، ص ٣٠٠ ، س ٤). (المترجم)

(٢) يورد ابن النديم (ص ٣٥٨) أسماء عدة كتب فى الكيمياء للرازى ، منها « كتاب يحتوى على اثنى عشر كتابا » . (المترجم)

(٣) هذه الألفاظ مترجمة كلها عن الإنجليزية ، إذ أننى لم أقف على الألفاظ الأصلية التى استعملها الرازى نفسه . وانظر « تراث الإسلام » ، ص ٣٢٥ . (المترجم)

ابن حيان بن عبد الله الكوفى المعروف بالصوفى][1] ، أبى الكيمياء العربية . وثمة شك فيما إذا كان يمكن نسبة « جابر » إلى فارس . ومن المحتمل أن الكتب التى تنسب إليه قد صدرت عن إخوان الصفا ، تلك الجمعية السرية التى أشرت إليها فيما مضى . ويمكن تتبع تأثير هذه الكتب فى تاريخ الكيمياء الأوربية كله . وإن العنصر الفارسى القوى فى هذه الكتب ليدفعنى إلى أن أرى أن التراث الذى خلفه « جابر » من طريق الرازى[2] يمكن نسبته كله إلى الفرس .

وجاء بعد الرازى أبو منصور موفق بن على الهروى ، وهو أول من كتب رسالة طبية بالفارسية[3] . ولهذه الرسالة أهمية طبية كبيرة ، وهى هامة أيضا لأنها أقدم ما لدينا من آثار نثرية بالفارسية الحديثة . ويعدد الكتاب ٥٨٥ دواء ، منها ٧٥ من أصل معدنى . ويميز أبو منصور فى هذا الكتاب بين كربونات الصودا وكربونات البوتاس . وهو يظهر بعض المعرفة بأكسيد الزرنيخ وأكسيد النحاسيك والإثمد . وهو يعرف أيضا الأثر السام لمركبات النحاس والرصاص ، وتأثير الكلس الحى فى إزالة الشعر .

وإن دراسة كتب العقاقير القديمة التى كتبها مؤلفون من غير الفرس لتدل خير دلالة على السيادة الكاملة التى كانت لفارس فى ميدان الصيدلة . فكثير جدا من أسماء العقاقير

(١) هكذا فى ابن النديم (ص ٣٥٤ ، س ٣٠) . (المترجم)

(٢) « والرازى يقول فى كتبه المؤلفة فى الصنعة [صناعة الكيمياء] قال أستاذنا أبو موسى جابر بن حيان » (ابن النديم ، ص ٣٥٥ ، س ٢٠–٢١) . (المترجم)

(٣) هى كتاب الأبنية عن حقائق الأدوية ، وقد ألفه للأمير منصور بن نوح السامانى بين ٣٥٦ و٣٦٥هـ . انظر Grundriss der iranischen Philologie (المجلد الثانى، ص ٣٦٦) وبراون فى A Catalogue of the Persian Manuscripts in the Library of the University of Cambridge (كمبردج ، ١٨٩٦) ، ص ١٧ وفى Arabian Medicine (ص ٩٢–٩٣) . وانظر كذلك «تراث الإسلام» ، ص ٣٣١ : (المترجم)

تدل على أصل هذه العقاقير نفسها . فالجُلاّب julep ، وهو نوع محبوب من الشراب ، هو فى الواقع گل ـ آب[١] أى عقار محلول فى ماء الورد . والـ collyrium « القطرة » ، وهى كل سائل تغسل به العين ، مأخوذة من كلمة « كحل » أى الإثمد المسحوق الذى كان الفرس يستعملونه لتقوية البصر . وما الـ elixir سوى « الإكسير » أو « حجر الفلاسفة » Philosophers' Stone .

وفى عام ٨٦٩ م ألف فارسى اسمه سابور بن سهل كتابا فى العقاقير[٢] ، اعتمد فيه على مصادر يونانية مع إضافة عقاقير نبطية وسريانية وفارسية محلّيـة . وقد ظل هذا الكتاب موضع قبول لا نظير له ، حتى حل محله كتاب أقراباذين [لأمين الدولة أبى الحسن هبة الله بن أبى العلاء صاعد بن إبراهيم] بن التلميذ فى النصف الأول من القرن الثانى عشر[٣] . ويمكن القول إن هذين الكتابين وضعا الأساس لما كتب بعدهما من كتب العقاقير وقوائم الأعشاب الطبية .

---

(١) گل «ورد» و «آب» «ماء» . انظر المعرب للجواليقى (ط أحمد محمد شاكر ، دار الكتب المصرية ١٣٦١هـ) ، ص ١٠٦ . (المترجم)

(٢) «وله تصانيف مشهورة منها كتاب أقراباذين المعمول عليه فى البيمارستانات ودكاكين الصيادلة اثنان وعشرون بابا وتوفى نصرانيا ... سنة ٢٥٥ [= ٨٦٩م] » (القفطى ، ط ليبزج، ص ٢٠٧ ؛ ط مصر ، ص ١٤١) . ويقول ابن أبى أصيبعة (الجزء الأول ، ص ١٦١) : «ولسابور ابن سهل من الكتب كتاب الأقراباذين الكبير ، جعله سبعة عشر بابا ، وهو الذى كان المعمول عليه فى البيمارستان ودكاكين الصيادلة ، وخصوصا قبل ظهور الأقراباذين الذى ألفه أمين الدولة ابن التلميذ » . (المترجم)

(٣) توفى فى ٥٦٠هـ/١١٦٥م وقد ناهز المائة من عمره ، وكان نصرانيا طبيبا للخليفة المقتفى . ويقول ابن أبى أصيبعة (الجزء الأول ، ص ٢٥٩) : « وله شعر مستظرف حسن المعانى ، إلا أن أكثر ما يوجد له البيتان أو الثلاثة ، وأما القصائد فلم أجد له منها إلا القليل » . ومما يرويه له ابن أبى أصيبعة (الجزء الأول ، ص ٢٧١) قوله :

لا تظـنى تجنبى لمـــلال أنت من خوف سلوتى فى أمان
رب هجر يكون أدعى إلى الوصـ ـل ووصـــل أدعى إلى الهجران (المترجم)

ولقد أغفلت كثيرا مما قد يقال عن تراث فارس الذى لازلنا نستق منه . أغفلت هذا كله، إما لأنه عرض من قبل عرضا طيبا فى كتب أخرى ، وإما لأن الفضل فيه شركة بين الفرس وغيرهم . فأغفلت كل إشارة إلى المترجمين الأوائل الذين أبقوا علوم اليونان حية ، ومهدوا السبيل للنهضة فيما بعد . وتركت كل بحث فيما قد يكون عمد إليه الفرس من استعمال مواد التخدير . فهذا موضوع لازال مثار خلاف بين المؤرخين والكيماويين . ولم أتحدث إلا قليلا جدا عن الصحة العامة والأدوية الوقائية ، لأن جوانبهما العملية لا تتفق وأصولها النظرية . ولكننى أعتقد أنى قلت ما يكفى للدلالة على أن فارس لم تكن مجرد حاملة للشعلة (كما وصفها جاريسون Garrison)[1]، ولكنها أسلمت الشعلة إلى أوربا ونارها غير خابية بل أوهج منها فى أى وقت مضى.



(١) هو ف . ه . جاريسون مؤلف كتاب Introduction to the History of Medicine (الطبعة الرابعة ، فيلادلفيا ، ١٩٢٩) . (المترجم)

الفصل الثانى عشر

****

فارس فى نظر الغرب*

ترجمة يعقوب بكر

ينظر الغرب إلى فارس بعينيه منذ نحو ٢٥٠٠ سنة ؛ وكانت نظراته يشوبها الود والإعجاب أحيانا ، والكره والسخط أحيانا أخرى . وقد استهدفت فارس خلال هذه الفترة الطويلة لتغييرات كبيرة ، ولكن تبدو هذه التغييرات طفيفة نسبيا إذا تأملنا التغير الضخم الذى أصاب الغرب نفسه . فقد كان الغرب مقصورا فى البداية على اليونان ومستعمراتها ، ثم اتسع اتساعا عظيما عندما قامت الإمبراطورية الرومانية؛ وفى « العصور المظلمة »(١) عندما كانت قوة الرومان فى انحلال ولم يكن شىء ثابت قد قام بعد ليحل محلها ، تقلص الغرب ، ولكنه اكتسب شكلا جديدا ومعنى جديداً فى العصور الوسطى عند ما انبعثت من الفوضى شعوبُ وسط أوربا وغربها وحداتٍ مستقلةً ، وأصبحت دولا متحضرة . ثم أدى اكتشاف العالم الجديد إلى توسع عظيم . وكان لا بد لهذه التغيرات الأساسية فى الغرب من أن تستتبع اختلافات كبيرة فى نظرته إلى فارس وأهلها .

---

* كل ما بين [ ] إضافة من المترجم .

(١) الفترة الممتدة من سقوط الإمبراطورية فى ٤٧٥ م إلى إحياء العلوم فى القرن الثانى عشر. (المترجم)

أولا — الأمبراطورية الأكمينية[1]

لا يحتمل أن اليونان فى بلادهم نفسها أو حتى فى مستعمراتهم بآسيا الصغرى عرفوا شيئاً ما عن فارس قبل ثورة كُورش[2] الأول الناجحة على ميديا[3] وتأسيسه الدولة الأكمينية فى منتصف القرن السادس قبل الميلاد . وكانت هزيمة كورش للملك كرويسوس ، ملك ليديا[4] [فى غرب آسيا الصغرى] ، وأسره إياه عام ٥٤٦ أول بادرة لقيام قوة جديدة فى الشرق . وقد حوّل كورش اهتمامه بعد ذلك وجهة أخرى، ولكن قائد جيشه هرباجوس هاجم فى العام التالى مدن الاتحاد الأيونىّ فى آسيا الصغرى وأخضعها ، فكان هذا أول اتصال مباشر بين اليونان والفرس . وكان اليونان ينظرون إلى كورش نفسه نظرة إجلال وإعجاب لاتخلو من خوف . وكانوا يرون فى الإمبراطورية التى أسسها هو وأوائل خلفائه شيئاً يختلف اختلافا كبيرا عن نظامهم القائم على مدن تمثل دولا مستقلة ضعيفة الجانب وهى فرادى ، كثيرة الاختلاف فيما بينها ؛ فقد رأوا فى الواقع الدولة الأكمينية الشاملة ، وعلى رأسها حاكم واحد هو « ملك الملوك » . ومما يعطى فكرة عن أثره فى خيالهم أنهم ترجموا لقبه بكلمة واحدة هى باسليوس Basileus «ملك» ، دون أداة التعريف ، بينما كانوا يجاهدون لمنعه من مد سلطانه إلى دول مدنهم .

ولابد أن فشل الثورة الأيونية ضدفارس ، وهى الثورة التى انتهت بسقوط مدينة ميليتوس عام ٤٩٤ ق . م ، قد قوى إيمان اليونان بقوة فارس العسكرية وعظمة «ملك الملوك » وسلطانه ، وهو إيمان يكاد يشبه الأساطير . ذلك أن ضخامة رقعة

---

(١) نسبة إلى أكيمينيس ، والاسم الفارسى الأصلى هو هخامنش. (المترجم)

(٢) Kurash فى الفارسية القديمة . (المترجم)

(٣) هو الاسم القديم للجزء الشمالى الغربى من إيران . (المترجم)

(٤) هو آخر ملوكها (حوالى ٥٦٠–٥٤٦ق م) . (المترجم)

الإمبراطورية ، وكثرة الجيوش التى كانت تستطيع تعبئتها للقتال كثرة لا يحصيها عدٌّ ، جعلتاها تبدو وكأنه لا سبيل إلى قهرها أو حتى إلى مهاجمتها . وكانت مدنها الأساسية — سوسة [العاصمة] وإكباتانا[١] وبرسبوليس وبَسَرْجَداى[٢] — تبدو بعيدة إلى حد يستحيل معه مهاجمتها . والواقع أن بعد سوسة عن شاطئ البحر المتوسط هو الذى جعل كليومينيس [الأول] ، ملك إسبرطة[٣] ، يرفض إجابة أرستاجوراس ، حاكم مدينة ميليتوس[٤] ، عندما أهاب به أن يساعده قبل الثورة الأيونية الفاشلة . وقد وصف له أرستاجوراس الثروة الهائلة التى تضمها الخزائن الملكية فى سوسة ، ولكن دون جدوى . وكان مما قاله له « خذ تلك المدينة ، وعندئذ لن تخشى تحدى [الإله] زيوس فى الغنى والثروة »[٥] .

ولكن على الرغم من بعد المدن الفارسية الكبرى وشهرتها شهرة تقارب الأساطير ، لم يعدم اليونان الفرص للحصول على معلومات صحيحة عن فارس . فقد ولد كثير منهم وعاشوا رعايا لها ، ومنهم هيرودوت ؛ ووجد بعضهم عذرا أو أتيح له العذر للذهاب إلى بلاط « ملك الملوك » . وأخذ بعضهم ، مثل هستيايوس ، طاغية مدينة ميليتوس ، إلى فارس أسرى أو رهائن ، وذهب آخرون إليها سفراء ؛ وتجشم البعض الرحلة الطويلة إلى فارس طلبا للحظوة (التى كان « ملك الملوك » يتنازل كثيرا فيمطيها) . وكان بعض اليونان بين الصناع الأسرى الذين جمعهم دارا الأول من كثير من أرجاء إمبراطوريتـه الواسعة لتزيين قصره العظيم فى سوسة ، ولا ريب فى أن أشد هؤلاء اليونان صلابة عادوا أخيرا إلى بلادهم بروايات طويلة عما شاهدوه ، كما يفعل الآن اليونان العائدون من أمريكا . ولاشك فى أن هذه الروايات كانت مفصلة ،

(١) الاسم الفارسى القديم هو أكباتانا ، وهى همذان الآن . (المترجم)

(٢) لا تزال ترى أطلالها إلى الجنوب الغربى من مدينة مُرْغَب الحالية . (المترجم)

(٣) حكم من حوالى ٥١٩ إلى ٤٨٧ ق . م . (المترجم)

(٤) خلال غيبة حميه هستيايوس ، طاغيتها ، فى سوسة . (المترجم)

(٥) تاريخ هيرودوت ، الكتاب الخامس ، الفصل ٤٩ . (المؤلف)

إن لم تكن صحيحة أيضا ، ولكن يستحيل الآن التحقق من شمولها ، لأن الأعمال الأدبية التي قد تكون أقيمت عليها ضاعت في الغالب كلها أو بعض أجزائها .

ومن المحتمل أن الرواية المسرحية هي أول ماجعل اليونان في بلادهم يشعرون شعوراً تاما بقوة فارس . ولكن كان في هذا الشعور غلو في بعض الأحيان ، كما يتبين مما أصاب فرينيخوس Phrynichus [الشاعر الأثيني] . فقد كتب مأساة تمثيلية عن سقوط مدينة ميليتوس ، مُثِّلت بعد هذا الحدث بزمن قصير ، فأثارت من سكان أثينا الأشجان والدموع ، ولقد بلغ من حزنهم على ما أصاب إخوانهم سكان ميليتوس أنهم غرّموا الشاعر ألف دراخمة . ولكن كان أيسخيلوس أكثر حذرا ، فقد لعب دوراً فعالا في النصر البحري الكبير الذي أحرزه اليونان عند [جزيرة] سلاميس عام ٤٨٠ ق. م ، ولكنه انتظر بعد الموقعة ست سنوات أو سبعا قبل أن يخرج مسرحيته « الفرس » ، وذلك حتى تكون ذكرى القتلى قد بهتت في نفوس أقربائهم وأصدقائهم وخفت حدتها . زد على هذا أنه جعل محور قصته كارثة فارسية لا يونانية . ومسرحيته هي أقدم رواية تاريخية وصلت إلينا ، وهي تبدأ في القصر الملكي بسوسة ، حيث نجد أتوسا ، الملكة الأم ، ورجال الحاشية تملؤهم الهواجس بعد أن انقطعت عنهم طويلا أخبار إكسركسيس [خشيارشاي][1] وجيشه . ونجد رجال الحاشية ، الذين يؤلفون جوقة الغناء ، في ثياب فخمة تجاوز المألوف ، لإعطاء فكرة عن فخامة البلاط الفارسي وبهائه . وعندما يأتي إليهم الرسول بأنباء تدمير الأسطول الفارسي والخسائر الفظيعة التي منيت بها قوات « ملك الملوك » ، نجد نوبات الأسى والحزن تحل محل المخاوف والقلق . وفي هذا المنظر لا يغالي أيسخيلوس بأية حال في تصوير نزعة الفرس إلى التطرف في الانفعال . ولكنه أنصف بعد ذلك في روايته عند تصوير معركة سلاميس ، فقد وصف الفرس بأنهم « رجال شجعان » . ذلك أنه كان جنديا قبل أن يكون وطنيا متعصبا ، فكانت المعركة في نظره معركة بين القوس الفارسي والرمح اليوناني .

---

(١) تسميه التوراة (في سفر إستير) أَحَشْوِيرُوش . (المترجم)

على أنه لم يُقَدَّر لليونان إلا فى أخريات القرن الخامس أن يظفروا بما لعله أوفى وصف كتب عن فارس القديمة وأدقه عامة .

فقد كتب هيرودوت تاريخه العظيم عن حرب اليونان والفرس بروح من استقلال الرأى تدعو إلى الإعجاب كتلك الروح التى أظهرها هومر Homer فى وصفه للصراع بين هكتور وأخيل . وكانت الأمانة رائد هيرودوت ، فذكر الخصال الطيبة الكثيرة التى يمتاز بها الفرس ، ولكن دون أن يغفل الإشارة إلى عيوبهم . والصورة التى يرسمها لهم هى صورة جنس من الرعاة الأشداء ، يسكنون بلاداً وعرة شحيحة ، ويتزعمهم ملك (كورش الأكبر) على حظ كبير من القدرة العسكرية ، يغزو بلاد الشرق واحدا بعد الآخر ويكتسحها اكتساحا . وهو يقول إنهم يدربون صبيانهم « على ركوب الخيل والرماية بالقوس وقول الصدق » من سن الخامسة حتى العشرين ، وإن هذا الحب للصدق يتمثل فى حرص الفرس على احترام المعاهدات وحرص ملوكهم على الوفاء بالوعود . ولم يكن ثمة أيضاً شك فى فروسيتهم ومهارتهم فى رمى السهام ، ولكن لم يكن فى هذا مدعاة غرابة ، فلم يجد هيرودوت حاجة إلى أن يضرب له الأمثال .

وكان الدَّيْن أبغض شىء إلى نفس الفرس بعد الكذب ، لأن المدين قد يضطر إلى قول الأكاذيب . ولما كانت التجارة تستتبع الكذب فقد كرهها الفرس ، ولهذا لم يقيموا الأسواق فى بلادهم . وقد قال كورش الأكبر مرة لرسول من إسبرطة إنه لا يخشى قوما كسكان لاكدايمون Lacedaemon [1] « لهم مكان خاص فى قلب مدينتهم يقولون فيه الزور ويخدعون بعضهم بعضاً » .

---

(١) أو لاكونيا Laconia ، المنطقة الجنوبية الشرقية من شبه جزيرة بلبونيسوس Peleponnesus . (المترجم)

ولكن يتبين من هيرودوت أنه راعت اليونان من الفرس خصائص أخرى تنطوى ، كحب الصدق ، على التناقض . فالفرس مثلا كانوا يعدون أنفسهم « خير الناس قاطبة من جميع الوجوه » ؛ ولكنهم مع هذا كانوا « أكثر الناس ترحيباً بالعادات الأجنبية » ، فكانوا يفضلون الثياب الميديّة على ثيابهم ، ويلبسون الدروع المصرية فى القتال . وكانت ألوان الترف عندهم « من جميع الأنواع ، ولكنها كانت كلها دخيلة » — وهى عبارة فيها مزيج بارع من المدح والذم .

وعلى الرغم من هزيمة الفرس فى المواقع الكبرى التى احتدمت فى ماراثون [عام ٤٩] وسلاميس [عام ٤٨٠] وبلاتايا [عام ٤٧٩] ، نجد هيرودوت يعترف صراحة وأيسخيلوس ضمنا « بأنهم لا يقلون عن اليونان شجاعة ولو مثقال ذرة » . ففشلهم لم يكن لنقص شجاعة، ولكن لأن أسلحتهم كانت دون أسلحة اليونان، ولأنهم لم يكونوا يملكون الدروع، ولأن تدريبهم لم يكن كافيا .

ولا يعالج هيرودوت موضوع الدين الفارسى علاجا مفصلا . فهو يقول إنه لم يكن لديهم معابد أو تماثيل أو مذابح ، وإنما كانوا يقدمون قرابينهم على ذرى الجبال . ولكنه لا يقول أو لا يعرف شيئا عن الثنائية فى دينهم ؛ كذلك لا يحدثنا عنها اكسونوفون ، ولعل ذلك لأنه لم يكن يعرف عنها هو الآخر شيئا . فأرسطو هو أول من بحث متعمقا فى هذا الموضوع .

ووصْف هيرودوت للفرس على جانب كبير من الإحاطة والتفصيل ، وهو على الرغم مما فيه من ميل إلى إبراز المتناقضات ، ذلك الميل الذى يشارك فيه هيرودوت بنى قومه فى مثل هذه الأمور ، يظهرنا فى وضوح وجلاء على أن الفرس كانوا فى أول الأمر شعبا بسيطا صلبا يقوده ملوك قديرون يحبون الصدق ، ولكن أفسدهم فيما بعد اتصالهم بالشعوب الخاضعة لهم كالبابليين ، فقد كانت تحيا حياة أميل إلى الدعة ولا تأخذ نفسها بالشدة . وكان لملوكهم سلطان مطلق ، وكان الشعب يدين لهم بولاء

لاشبهة فيه . وكانت الأمور تسير سيرا حسنا طالما كان هؤلاء الحكام من طراز كورش ودارا ، ولكن عند ما أصبح الملوك طغاة مستبدين تدهور معهم الفرس ، وفقدوا الكثير من حيويتهم وروحهم . وصاروا إلى ما يصير إليه الفاتحون آخر الأمر ، ذلك المصير الذى فجع به الرومان عند ما رأوا أنفسهم وقد شملهم هم أيضا .

ويؤيد أفلاطونُ هذا الرأى فى محاورته « القوانين » . فهو يقول إن فارس هوت من مكانها الرفيع بين الشعوب لاستبداد ملوكها وضعف الثقة بينهم وبين الشعب ، وإن كورش الأكبر ودارا بن هستاسبيس تدربا على القتال وحاربا لبلوغ العرش ، ولكن وُلد قمبيز واكسركسيس فى مهد الملك فكانا أميرين ضعيفين منحلين ، وكان سوء تربيتهما سبب ما أصابهما من وبال .

فقوة الخلق التى كان يتميز بها الفرس الأوائل لم تدم طويلا بعد اتصالهم بالشعوب التى قهروها . وفى ماراثون وسلاميس وبلاتايا قضى اليونان ، ذلك الشعب الذى عجزوا عن إخضاعه ، على ما كان لهم من عزة ومنعة . وبعد ذلك بزمن قليل ثبت فساد فكرة أخرى عن الفرس كانت شائعة بين اليونان . فبعد أن وُفّق اكسونوفون إلى تخليص «الآلاف المشرة»[1] ، لم يعد من الممكن لليونان أن يؤمنوا بأن الإمبراطورية الفارسية أمنع من أن تخترقها الجيوش الغازية . وبعد ذلك بنحو سبعين سنة أدهش الإسكندر العالم فى ذلك الوقت ، إذ دلل على إمكان هزيمة الفرس بل غزو فارس نفسها .

---

(١) هو جيش ألفه كورش الثانى لانتزاع العرش من أخيه الأكبر أردشير (أرتكسركسيس) الثانى ، وكان يضم جنودا محليين من الولايات الفارسية بآسيا الصغرى ، ولكن كان قوامه من الجنود اليونان المرتزقة . وفى معركة كونا كسا بين الأخوين قتل كورش ، فتفرق الجنود المحليون ، ووجد اليونان أنفسهم بمعزل فى أرض دجلة والفرات . وقد احتال العدو فقتل ضباطهم ، ولكنهم اختاروا ضباطا جددا ، منهم اكسونوفون مؤرخ الحملة ، وقاتلوا حتى شقوا طريقهم شمالا إلى جبال أرمينية ، وأخيرا وصلوا إلى البحر الأسود . (المترجم)

ولم يضع اكسونوفون قدما فى فارس نفسها ، ولكنه كان على أوثق اتصال بكورش الثانى ، الذى كان موضع احترامه وتبجيله ، وبكثيرين غيره من الفرس . وفى كتابه أناباسيس [الذى يقص فيه قصة «الآلاف العشرة»] وكيروبايديا معلومات كثيرة عن فارس وعادات أهلها ، ولكن يجب قراءة كيروبايديا بمنتهى الحيطة والحذر ، لأن اكسونوفون (مثل مونتسكيو) اتخذ فى حالات كثيرة من فارس وعاداتها ستارا لأفكاره هو ، وإذا أخذنا الكتاب بمنطوق ألفاظه وجدناه يشتمل على عدد من الترهات الواضحة ، كالنهاية الآمنة التى لقيها كورش الأكبر وتقديم الفرس القرابين إلى آلهتهم على طريقة اليونان .

ولكن لم يكتف اليونان بأن يستقوا من الفرس أمثلة للعظة والعبرة ، أو نُذُراحية بمصير كل دولة تملأ الآفاق ، أو — فى العصور المتأخرة — نماذج للترف والفساد فى الشرق. ففى مسرحية «سكان أَخَرْناى» لأرستوفانيس إشارة إلى حب الفرس للمرح والفكاهة أيضا . فنجد مثلا الألقاب الغريبة التى تخلع على الموظفين المعروفين « بعيون » ملك الملوك « وآذانه » ، وهم الذين تقضى عليهم واجباتهم أن يحيطوه علماً بكل أمر هام ، نجد هذه الألقاب تثير فى نفوس الفرس إثارة قوية حب السخرية من كل مايبعث على الضحك والاستهزاء . ومن بين الشخصيات التى يصورها أرستوفانيس « عين » ملك الملوك [أى جاسوسه] ، وهو يظهر متخفيا على شكل عين هائلة ، ويسلك مسلكا يثير السخرية حقا .

وعند ما قضى الإسكندر الأكبر على الإمبراطورية الأكمينية ، خلص العالم اليونانى من الخطر الذى كان يتهدده دائماً ، وقضى على ما اشتهرت به فارس من عزة ومنعة ، وأعان العالم الغربى أيضاً على أن يظفر لأول مرة بمعلومات مباشرة صحيحة عن قلب فارس ؛ وقد وفق أميراله نيارخوس إلى المسير بالأسطول من مصب نهر السند حتى رأس الخليج الفارسى ، فظفر بمعلومات كثيرة قيمة عن سواحل جدروسيا

(مَكْران) وكرمانيا (كِرْمان) وبرسيس (فارس)وسوسيانا (خوزستان) . وكان أول من ذكر صيد اللؤلؤ الذى اشتهر به الخليج الفارسى فيما بعد . ولاحظ أيضاً لأول مرة أن فارس تنقسم إلى ثلاث مناطق : الإقليم الساحلى ، وهو حار رملى ؛ والإقليم الداخلى ، وهو معتدل المناخ تنمو فيه الفواكه الكثيرة من كل نوع وتمتد فيه الغابات الواسعة ؛ وبعده إقليم بارد يكسوه الجليد ذو طبيعة وعرة جبلية . وقد كتب اسطرابون هذه المعلومات المفصلة من جديد ، وتركها للأجيال التالية .

والأهم من هذه الكشوف على قيمتها ما أدركه الإسكندر نفسه من خصال الفرس الطيبة ، عند ما أتيح له أن يرى كيف صَمدوا بعد تلك الهزيمة الطاحنة . وإن هذا الإدراك لفضائل الفرس هو الذى حدا بالإسكندر ، رغم معارضة مقدونيا ، إلى أن يحاول فيضمهم على قدم المساواة مع رعايا اليونان ، ضاربا عرض الحائط بالفكرة اليونانية الضيقة التى ينقسم العالم وفقها إلى قسمين منفصلين تمام الانفصال : يونان وبرابرة .

ولو قدر للإسكندر أن يمتد به العمر طويلا فينشىء نظاماً عالمياً ، لاختلفت العلاقات بين فارس والغرب عما صارت إليه اختلافا كبيراً ؛ ولكن كان خلفاؤه دونه شأواً ، كما هى حال الأجيال المتأخرة . فكانت الخلافات التى احتدمت بينهم سبباً فى زوال فكرة الإمبراطورية العالمية .

وقد أفرد المؤرخ [اليونانى] بوليبيوس (حوالى ٢٠٤ — ١٢٢ ق . م) بعض الحديث لوصف إكباتانا (همذان) ، عاصمة ملوك الميديين قديما . وقدّم لوصف القصر فيها بهذه الكلمات[١] :

---

(١) History ، الكتاب العاشر ، الفصل ٢٧ . (المؤلف)

«هذه المدينة خير موضوع يمكن أن يقع عليه أولئك المؤلفون الذين يرمون إلى إثارة الدهشة ، والذين اعتادوا المبالغة والكتابة المزوّقة ؛ ولكنها تنطوى على كثير من الصعوبة والحرج لأولئك الذين يلتزمون مِثْلى الحيطة والحذر عند الإقدام على وصف الأشياء التى تتجاوز المألوف» .

وهو يقول إن القصر يشغل رقعة من الأرض يبلغ محيطها ثلاثة أرباع الميل ، وإن نفاسة تكوينه تدل على غنى بُناته الأوائل ، فالخشب المستعمل فى بنائه مأخوذ كله من شجر الأَرز والسرو ، وجميع الأعمدة وعوارض السقف والنقوش الشبكية المحفورة فيه كلها مغطاة بصفائح الفضة أو الذهب . وكان بوليبيوس أيضاً أول كاتب غربى يلفت الأنظار إلى طريقة الرى التى اختص بها الفرس ، وهى تعتمد على قناة تحت الأرض لاتزال ترى اليوم وتعرف باسم « قناة »[١] .

وقد أشار اسطرابون إلى الأكمينيين بقوله إنهم دون سائر البرابرة جميعا خير من يعرفهم اليونان ، فإن أحداً غيرهم من البرابرة الذين حكموا آسيا لم يسيطر مثلهم على بلاد اليونان . فهم فى الواقع أول شعب أخضع اليونان للحكم الأجنبى . وقد نقل عن إراتوسثينيس قوله إن الفرس يضارعون اليونان فى قدرتهم على تقبل حضارة المدن[٢] .

وثمة وسيلة أخرى عرف بها اليونانُ ثم العالمُ المسيحى آخرالأمر بعض المعلومات عن فارس فى عصر الأكمينيين . تلك هى العهد القديم الذى تضم بعض أسفاره إشارات عديدة إلى كورش الأكبر وغيره من ملوك الأكمينيين . وقد أتيح هذا المصدر من مصادر المعرفة للمتحدثين باليونانية عندما ترجم العهد القديم إليها فى

---

(١) المرجع السابق ، الكتاب العاشر ، الفصل ٢٨ . (المؤلف)

(٢) Geographica ، الكتاب ١٥ ، الفصل ٢٣ . (المؤلف)

السنين الأولى من القرن الثالث ق . م . (ولـكن من الممكن أن بعض أجزاء العهد القديم ترجمت إلى اليونانية قبل ذلك بزمن طويل .) والصورة التى يرسمها الأنبياء اليهود للفرس فى تلك الأزمان تنطوى عامة على محاسن كثيرة ، ولـكن يجب أن نحتاط فلا نصدق كل مانقرأه فى أسفارهم عن فارس وأهلها .

وقد أظهر كورش الأكبر وبعض خلفائه تسامحا مع اليهود وعطفا عليهم ، فلا غرو أن يتحدث هؤلاء خيرا عن الفرس ، ويظلوا أوفياء لهم زمنا طويلا . فعندما فتح كورش بابل فى سنة ٥٢٩ق . م وجد اليهود فيها أسرى أذلاء . ولما كان الدين الزردشتى لا يزال فى ذلك الوقت دين توحيد ، لم يرتبط فيه بعد أهورا مزدا ، إله الخير ، بآلهة أقل شأنا مثل أناهيتا (الذى أُخذ عن البابليين فى عصر متأخر) ، فقد أحسّ الملك الأكمينى بعطف طبيعى على شعب إلٰهه الأوحد يهوه هو فى نظر الملك أهورا مزدا نفسه ، وشعر ولا ريب أنه يحقق نبوءة إشعيا (الأصحاح ٤٤) : [الآية ٢٤] . . . أنا الرب . . . . [الآية ٢٨] القائل عن كورش راعِىّ فكل مسرتى يتمم ، ويقول عن أورشليم ستُبنى وللهيكل ستؤسس .

ومما تجدر ملاحظته أن هذا الأصحاح يقع فى ذلك الجزء من سفر إشعيا (الأصحاحات من ١١ إلى ٥٦) الذى يعتقد العلماء الآن أنه من وضع نبى مجهول عاش فى فترة السبى [سبى اليهود فى بابل] ، فكان معاصرا أو نحو ذلك لكورش الأكبر.

أصدر كورش مرسوما أمر فيه ببناء المعبد فى أورشليم ، ثم أعاد إلى اليهود الأوانى المقدسة التى كان نبوخذ نصر [ملك بابل] قد أخذها معه ، وسمح لليهود الأسرى فى بابل أن يعودوا إذا شاءوا إلى وطنهم . هكذا يحدثنا سفر أخبار الأيام الثانى ، الأصحاح ٣٦ ؛ وسفر عزرا ، الأصحاح الأول . ويقول سفر عزرا ، الأصحاح السادس ، إن دارا أصدر مرسوما أيد فيه مرسوم سلفه ، فتمت إعادة بناء المعبد فى السنة السادسة من حكمه .

وفى سفر إستير كثير من الخيال ، ولكن يبدو أساس من الصدق فيما يرويه من أن [ملك الفرس] أحشويروش (ولعله أرتكسركسيس [أردشير] الأول)[1] تأثر بها فمنع هامان [أعظم رجاله] من اضطهاد اليهود ، ثم شنقه على المشنقة العالية التى كان هامان نفسه قد أعدها لمردخاى [اليهودى، مربى إستير] . وربما كان هناك أيضاً بعض الحق فيما تحدث به عن بهاء « شوشن القصر »[2] ، وكيف تقيم نساء القصر الملكى بمعزل فى بناء منفرد . ونعلم من سفر دانيال ، وهو عامة ليس أوثق من سفر إستير ، أن قوانين الميديين والفرس لم تكن قابلة للتبديل والتغيير (« كشريعة مادى وفارس التى لا تنسخ » [الأصحاح السادس ، الآية الثامنة]) .

فاليهود إذن ، وهم الذين خبروا الذل صنوفا وألوانا ، لم تكن نظرتهم إلى الفرس نظرة إلى أعداء للحرية بقدر ما كانت نظرة إلى شعب موحد رحيم سيطرته أهون عليهم من كثير مما كتب عليهم الابتلاء به . ولابد أن هذه النظرة غيرت عند تسربها إلى الغرب من الفكرة الأصلية عن الفرس ، تلك الفكرة التى جاء بها اليونان . ولكن تلك الفكرة الأصلية هى التى تصور لنا الفرس حقا كما كانوا يبدون للغرب فى عصر الأكمينيين . ففى هذا العصر لم يكن اليونان عقل الغرب فحسب ، ولكن عينيه ولسانه أيضا . وكان أهم عامل فى نظرة اليونان إلى الإمبراطورية الفارسية هو أن هذه الإمبراطورية رمز لحقارة الفرد فى ظل الحكم المطلق ؛ فاليونان حين كان يريد تبين القيم الكامنة فى حضارته كان يستطيع دائما تقديرها بالنسبة إلى أضدادها التى ابتليت بها الشعوب المغلوبة فى الإمبراطورية الفارسية . وذلك كما يفعل المرء فى أيامنا هذه عندما يريد الإحساس بالمزايا التى ينعم بها فى ظل الحكم الديمقراطى الحر، إذ ما عليه إلا أن يقارن حالته المدنية الحاضرة بما تكون عليه لو عاش فى ظل حكم مطلق .

---

(١) سبق أن قلنا إنه إكسركسيس (خشيارشاى) . (المترجم)

(٢) شوشن هى مدينة سوسة . (المترجم)

ثانيا — العصر البرتى (٢٤٩ ق.م — ٢٢٦م)

لم تكد پارتيا تصبح القوة الغالبة فى الشرق حتى بدا أنه ليس للغرب مفر عاجلا أو آجلا من أن يعتبرها خليفة الإمبراطورية الأكمينية ، وأنه لابد لها إذن من أن تشتبك مع القوة المسيطرة فى الغرب . هذه القوة هى روما ، التى حلت محل بلاد اليونان فى حماية الحضارة الغربية من « برابرة » الشرق . والحق أن أقليم البرت لم يهدد وجود روما نفسه كما كانت فارس فى عصر الأكمينيين تهدد أثينا وسائر بلاد اليونان . ولكن الرومان ، فى سيرهم نحو سيادة العالم ، وجدوا پارتيا أسدا هائلا يقطع عليهم الطريق . وقد ظلت هاتان القوتان العظيمتان فى الغرب والشرق تجاهدان فى سبيل السيطرة نحو ثلاثة قرون ، ولكن لم تكن أى منهما قوية إلى الحد الذى يمكنها من الغلبة ، واضطر الرومان المفطورون على الحرب إلى أن يعترفوا للپرتيين أعدائهم بشجاعة لا تقل عن شجاعتهم .

ولما كانت هاتان الإمبراطوريتان إما فى حرب وإما على عداء معظم الفترة التى عاشتها دولة البرت ، فلا غرو أن يكون فى أقوال الرومان عن پارتيا والبرت تحامل عامة ، وأن يتعلق كثير منها بالمسائل الحربية . فكان الرومان يميلون إلى الظن ، ولهم العذر ، أن البرت جفاة جاهلون بالعلوم والآداب ، وأنهم دون الفرس الأكمينيين ثقافة إلى حد بعيد ؛ ولكن بمرور الزمن امتزج البرت ، كما يقول اسطرابون ، بالميديين والفرس وصاروا جميعاً شعباً فارسيا واحداً « له لغة واحدة تقريبا »[1] ، فأدرك الرومان ، راضين أو ساخطين ، أن ملوك پارتيا ونبلاءها نالوا حظا من الثقافة يبعث على الدهشة ، فكانوا يعرفون لغة اليونان وآدابهم ومسرحياتهم معرفة طيبة ويتذوقونها تذوقا عميقا .

---

(١) Geographica ، الكتاب ١٥ ، الفصل ٧٢٤ . (المؤلف)

ولا ريب فى أن الرومان أحسنوا تعلم هـذه الدروس ، فقد جاءت فى أعقاب كوارث عسكرية أزرت بهم . ولابد أن الهزيمة النـكراء التى منوا بها فى كرّهاى Carrhae (حرّان) عام ٥٣ ق . م ، والتى فقد فيها كراسوس الأحمق ، نائب القنصل ، حياته وجيشه معا ، لا بد أن هذه الهزيمة قضت قضاء مبرما على كل نزعة من الرومان إلى الفخر بأنهم متفوقون بالطبيعة ؛ وبعد ذلك بسبع عشرة سنة تأكد هذا الدرس بتلك المحاولة الباهظة العابثة التى حاولها مارك أنطونى[1] [عام ٣٦ ق.م] للاستيلاء على الحصن الجبلى الهائل الذى كان للبرت فى فراتا (تخت سليمان الآن) بميديا أتروباتينى[2] . والحق أنه يمـكن سماع أصداء هذا الدرس فى آداب الرومان، كما فى هذه العبارة التى قالها فرجيل[3] : « [وسأذكر] البرت المتمدين على الهرب وعلى السهام المرمية من الخلف »[4] ؛ وعبارة « Parthian shot » (طلقة برتيّة) فى لغتنا [الإنجليزية] تنطوى على مدح موروث لنفس الحركة التـكتيكية التى أعجب بها فرجيل وسائر الرومان ، والتى تقضى على الفرسان القواسة من البرت أن يتظاهروا بالفرار ، ثم يكروا فجأة على مطارديهم ، ويمطروهم بسهام أحسن تصويبها تثير الاضطراب فى صفوف الأعداء .

هذا الدرس فى التـكتيك العسكرى الذى تلقاه الرومان قويا نافذا من هزيمة

---

(١) ماركوس أنطونيوس (حوالى ٨٢ــ ٣٠ق.م) ، صاحب كليوباترة . (المترجم)

(٢) الاسم القــديم للمنطقة التى تشغلها الآن جمهورية آذربيجان السوفيتية وإقليم آذربيجان الفارسى . (المترجم)

(٣) Georgics [قصيدة فى أربعة كتب عن حياة الفلاح وأعماله] ، الـكتاب الثالث ، السطر ٣١ . (المؤلف)

(٤) اعتمدنا على ترجمة رشتون فيركلاو H. Rushton Fairclough المنشورة فى The Loeb Classical Library (لندن ونيويورك، ١٩٢٠) . (المترجم)

كراسوس تلته ، كأنما على ميعاد ، حادثة رأس كراسوس ، تلك الحـــادثة البشعة الحافلة بالعبر ، التى بيّنت للغرب أن البرت والرومان نهلوا مع اليونان من مورد واحد . فإنه لما قتل وكيل القنصل المشهور الذى أقحم نفسه فى غير موضعها ، اجتزت رأسه وأرسلت إلى هيروديس ، ملك پارتيا (فرطيا) ، على سبيل التذكار . فوصلت إليه وهو فى حفل تمثل فيه مسرحية بكهاى [للـكاتب المسرحى اليونانى] يوريبيديس . ولما جىء بالرأس الملطخة بالدم ، أمسك بها أحد الممثلين بين تهليل النظارة ، وأنشد قول بلوتارك[1] :

إننا نُحضر من الجبال

فتى حديث القتل ،

صيدا موفقا .

ويصح للناقد الحديث أن يقابل بين ما كان لملك پارتيا (فرطيا) وأمرائه من تذوق عميق للمسرحيات اليونانية وبين جمود مشاعرهم الذى يتجلى فى إقرارهم (بل تشجيعهم ولا ريب) هذا العمل الوحشى من قطع رؤوس كبار الأعداء وتعريضها لهذا الذل والعار؛ ولـكن إحساس الرومانى بهذا التناقض بين المسلـكين قد يرجع إلى أن الضحية نفسها من بنى قومه .

ولـكن جاءت موقعة كرهاى بعواقب أخرى إلى جانب الإذلال العسكرى وذلك الدرس النافذ فى الحضارة المقارنة . فمن نتائجها البعيدة أن الغرب تلقى بعـــدها بقليل معلومات مباشرة لا عن پارتيا نفسها فحسب ولـكن عن واحة مَرْجيانا (مرو) أيضا . وذلك أنه بعد المعركة أرسل البرتيون الظافرون أسراهم من الجنود الرومان إلى مرجيانا عبر پارتيا . فالذين استطاعوا من هؤلاء الأسرى العودة أخيرا إلى بلادهم عادوا معهم

---

(١) حياة كراسوس ، الفقرة ٣٣ [قرب الآخر] . (المؤلف)

بالمعلومات التى أعانت پليني الأكبر على أن يكتب وصفه الدقيق لتلك المنطقة التى لم يكن يعرف عنها إلا القليل ؛ ولا ريب فى أن هؤلاء كانوا أيضا المصدر الذى استقى منه المادة التى اعتمد عليها فى وصفه لپارتيا نفسها ، وهو وصف وجيز ولكنه صحيح. وقد أظهر پليني بإصابته فى تسمية الأقاليم البرتية الثمانية عشر «ممالك» لا «ستربيات» (ولايات) أنه كان يدرك أن الدولة البرتية كانت محاولة العرى بعض الشىء ، وهى نقطة اختلفت فيها أساسا عن كل من الإمبراطوريتين الأكمينية والساسانية[1] .

ولم يسمع الغرب إلا القليل عن الفرس أنفسهم خلال القرون الخمسة التى سيطر خلالها السلوقيون والبرت ؛ فقد كانت فترة كسوف للفرس . ولكن فى هذه الفترة دأب كتاب كاسطرابون وپليني وبطليموس على جمع معلومات كثيرة عن فارس من مصادر متقدمة . وهكذا زاد مايعرفه الغرب عن تلك البلاد شيئا فشيئا ، رغم أن بعض معلوماته كانت غير صحيحة ورغم بقاء كثير من الفجوات قائما .

وكان پليني دقيقا فى وصف مرجيانا وپارتيا ، ولكن كان الأساس الذى يعتمد عليه أوهن حين حاول الكلام عن فارس وميديا (فمن ذلك قوله إن سلوقيوس [الأول][2] هو الذى أسس إكباتانا) ؛ ولكن كان كثير مما كتب قيما . وقد أفسح مكانا فى كتابه Historia Naturalis للحديث عن نباتات البلاد ، فكان مما قاله أن فارس موطن الخوخ بدليل اسمه اللاتينى persicum (malum) .

ولم يكن الرومان يعدون البرت شعبا شديد التدين ؛ والواقع أن ملوك الأسرة الأشكانية كانوا عامة أميل إلى اليونان منهم إلى الزردشتية . ولكن فى هذا العصر البرتى تلقت روما من طريق غير مباشر تراثا من فارس . فإن كثيرا من الجنود

---

(١) Historia Naturalis ، الكتاب السادس ، الفصل ٢٥ . (المؤلف)

(٢) نيكاتور Nicator (حوالى ٣٥٨ـ٢٨٠ق.م) . (المترجم)

الرومان الذين أرسلوا إلى كيليكيا Cilicia [فى جنوب آسيا الصغرى] وغيرها من الأقاليم المتطرفة لحمايتها من العدو التقليدى أظهروا أنهم أيسر منالا لدين عدوهم منهم لسلاحه ، فقداعتنقوا المثروية[1]. ذلك لأن مافيها من دعوة إلى الحرب والكفاح استهوى الجنود الرومان استهواء عظيما ، وهم الذين نشروه فى جميع أنحاء العالم الرومانى . ولكن لا يُظن أن كثيرا من الغربيين الذين اعتنقوا هذا الدين كانوا على علم بأصله الفارسى .

ولا ريب فى أنه حيثما التقت حدود تلك الدولتين الكبيرتين كان خطر الاحتكاك ماثلا دائما ، حتى دون أن يكون وراءه عامل اقتصادى . ولكن مما يثير الاهتمام أن الرومان وجدوا فى البرت منافسين لهم لافى السيادة وحدها ولكن فى التجارة أيضا . فالحرير الصينى كان من السلع التى لا يمكن أن تصل إلى روما إلا عبر پارتيا ، فلاعجب إذا استغلّت پارتيا هذا الوضع ، ووجدناها لا تقنع بأخذ كفايتها من هذا الحرير قبل السماح بمروره عبر أراضيها إلى الغرب ، بل تفرض له أيضا أسعارا عالية . ولما كان الإقبال شديدا على الحرير فى العالم الرومانى ، فقد كان هذا الاحتكار أثقل ما يكون عبئا على الرومان ، ولكنهم ، على خلاف جستنيان فيما بعد ، كانوا عاجزين عن تدبير وسيلة للقضاء عليه .

ثالثا — العصر الساسانى (٢٢٦م — ٦٤١)

كانت الإمبراطورية الساسانية ، التى قامت من ٢٢٦م إلى منتصف القرن السابع ، فى نظر الغرب خلال ذلك الوقت خليفة پارتيا من حيث هى أكبر منافس وعدو لروما. ففى أثناء هذا العصر الطويل اشتبكت الدولتان فى سلسلة من الحروب هى فى الواقع

---

(١) نسبة إلى إله الشمس مِثرا . (المترجم)

اتصال للصراع الذى احتدم فى العصر البرتى ، وللمعارك الأولى بين فارس فى عصر الأكمينيين وبلاد اليونان .

وقد شاء الحظ الحسن أن يكون للغرب كاتبان بارزان ، هما أميانوس ماركلينوس وبروكوبيوس ، كانا جنـــديين كما كانا مؤرخين ، فاستطاعا أن يصفا فى تفصيل ودقة الحملات التى شنها الرومان على الساسانيين والتى اشتركا هما فيها اشتراكا فعالا . وليس هنا مجال الحديث عن هذه الحملات ، أو عن الجيوش الساسانية وأساليبها فى الحرب. وإنما يكفى أن نقول إن الغرب عرف بفضل هذين المؤرخين الجنديين ومصادر أخرى أن الفرس الساسانيين كانوا أهل شجاعة وحيلة معا . فما يدل على حيلتهم دلالة بارزة اختراعهم واستعمالهم سلاح النار ، وكان سلاحا جديدا كل الجـــدة فى ذلك الوقت ؛ ولعل هذا الاختراع هو الذى أعان كلّينيكوس[١] بعد ذلك ببضعة قرون أن يخترع النار اليونانية ، وهى صورة فعالة من النار الفارسية .

ولم تكد تمضى سنوات قلائل على انتصار أردشير على ملوك الطوائف (البرت) عام ٢٢٦ م ، حتى أدرك الرومان أن قوة عسكرية جديدة بالغة الهول قامت فى الشرق. وقد رُوّعت روما للهزيمة النكراء التى أوقعها أردشير بالإمبراطور إسكندر سفروس[٢] ، حتى إن المؤرخ المعاصر هيروديان مضى بعيدا فوصف هذه الهزيمة بأنها أكبر كارثة لحقت بالرومان . والحق أن هذه الهزيمة كانت صدمة ولاريب، ولكنها لم تكن كارثة ضخمة ضخامة كارثة كرّهاى. على أن معركة الرها عام ٢٦٠ كانت أشد إذلالا لكرامة روما وإضرارا بسمعتها من تينك الكارثتين ، ففى هذه الموقعة لم يهزم سابور الأول ، ابن أردشير وخليفته ، الإمبراطور ڤاليريان [٢٥٣ ــ ٢٦٠ م] فحسب ، بل أسره أيضا.

---

(١) كان مهندسا معماريا فى عصر الإمبراطور الرومانى قسطنطين الرابع (پوجوناتوس) (٦٤٨ــ ٦٨٥م). (المترجم)

(٢) هو ماركوس أورليوس Marcus Aurelius (٢٢٢ــ٢٣٥م) . (المترجم)

وقد كان لهذه الكارثة وقع عظيم فى الغرب . ويميل المؤرخون المتأخرون ، ومنهم لكتانتيوس [٢٥٠ ؟ ـ ٣١٧ ؟] ، إلى المبالغة فى تصوير الشدة والقسوة اللتين عامل بهما سابور أسيره الإمبراطور . ولكن واقعة الأسر نفسها ، لا ما تلاه من معاملة ، هى التى أضرت بسمعة روما . وعندما حاول الإمبراطور جوليان [٣٣٢ ـــ ٣٦٣] الاستيلاء على المدائن ، عاصمة الساسانيين ، فانتهت محاولته بالفشل وبموته هو مثخنا بالجروح ، اكتمل للغرب من الأسباب ما جعله يدرك شجاعة أعدائه الساسانيين .

وكان لروما ولا ريب انتصارات فى هذه الحروب إلى جانب الهزائم ، ولكن لم تكن نتيجة هذا الصراع الطويل حاسمة ، كما كانت الحال فى عصر البرت . وقد أُنهكت قوى الدولتين وهما تجاهدان فى سبيل النصر ؛ فلما تدخل الإسلام ، وزحف جنوده على العالم [لنشر كلمة الله] تهاوت الإمبراطورية الفارسية تحت أقدامهم ؛ وإذا كانت الإمبراطورية الرومانية الشرقية استطاعت الاحتفاظ بنصف أقاليمها ، فبعض الفضل فى ذلك على الأقل يرجع إلى أن وضعها كان خيرا من وضع الإمبراطورية الفارسية.

وفى مثل هـــذه الفترة الطويلة من الحروب لم يكن للمؤرخين مفرّ من أن يشغلوا بالحرب ؛ ولا ريب فى أن هذا نفسه هو السبب فى التحامل الذى لم يكن بدّ من أن يتغلغل فيما كتبه كتاب الغرب فى ذلك الوقت. ولكن كانت هناك أوقات أمكنهم فيها ، على العكس من ذلك ، أن ينظروا إلى فارس أيام الساسانيين نظرة أحب وأطيب. مثال ذلك ما كان من صداقة بين الإمبراطور أركاديوس [٣٧٨ ـ ٤٠٨م] ومعاصره يزدگرد الأول . فقد كان أركاديوس يقدر ذلك الإمبراطور الفارسى تقديرا عظيما ، حتى إنه عهد إليه بالوصاية على ابنـــه الأصغر ثيودوسيوس [٤٠١ ـ ٤٥٠][1] ، فتقبلها راضيا وقام بها خير قيام .

---

(١) الذى خلف أباه على العرش عام ٤٠٨ ، باسم ثيودوسيوس الثانى . (المترجم)

ولـكن على الرغم من هـذه الفترات الباسمة ، ظل الوجه الذى يطلّ على الغرب من بلاد فارس ينطق فى الغالب بالتهديد ، كما كانت الحال أيام الأكمينيين . على أنه جدّت منذ ذلك الحين تطورات جديدة ، وأصبح للدين الآن دور كبير ، فـكان حيناً خادماً للسياسة وحيناً سيداً لها ، بعد أن كان فى عصر ثمستوكليس[1] لا يزال غامضا فى دلفى[2] أو مبهما فى سوسة . ثم إن المسيحية أخذت تزداد قوة بين الرومان ، بل إنها فى فارس نفسها ، حيث أصبحت الزردشتية بعد إحيائها هى الدين القومى ، مدت جذورها مكينة فى الأرض حتى صارت خطراً على الزردشتية منافستها يهددها بالزوال . ولم يكن لهذا التغلغل المسيحى إلا أثر ضعيف فى العلاقات بين فارس والغرب طالما كانت الإمبراطورية الرومانية تغلب عليها الوثنية . ولـكن نشأ موقف شديد الاختلاف عنـد ما اعتنق الإمبراطور قسطنطين[3] المسيحية . إذ بعد هذا الحدث وجدنا سابور الثانى (٣٠٩ ـ ٣٧٩) ، معاصره وعدوه ، يقول عن المسيحيين فى مملـكته : « إنهم يعيشون بيننا ولـكنهم يشاركون قيصر عواطفه » . وقد بدأ سابور على أثر ذلك سلسلة من الاضطهادات ضد رعاياه المسيحيين ، وسار على نهجه أيضا عدة من خلفائه . وكما يحدث كثيرا وجدنا الخطوة التى يبعثها الشك تبعث فعلا ما يدعو إلى الشك . وكان من الطبيعى ، عند ما اتجه المسيحيون الفرس المضطهدون إلى الإمبراطورية الرومانية المسيحية طلباً للعون ، أن تمد نفسها حامية لهم . وقد كان لما روى عن شقاء هؤلاء الفرس المسيحيين واستشهاد كثير منهم استشهادا مؤلما أثر عميق فى الغرب . (فوجدنا البابا هرمسداس [المتوفى عام ٥٢٣] يتخذ لنفسه اسم شهيد فارسى عند تنصيبه على كرسى البابوية عام ٥٠٤ رغم أنه إيطالى المولد) .

---

(١) السياسى الأثينى (حوالى ٥٢٨ ـ حوالى ٤٦٢ ق.م) . (المترجم)

(٢) أقدم معابد اليونان وأكثرها قدسية . (المترجم)

(٣) « العظيم » (حوالى ٢٧٤ـ٣٣٧م) . (المترجم)

وهكذا بدا كأن الدين ، عند ما عبر الحدود ، هيأ لها سبباً جديداً تصبح به فاصلا حادا بين عدوين قديمين . على أن عاملا مماثلا ـ وهو تعصب بيزنطة تعصباً يتسق وبعد الفرس عن التسامح ـ ما لبث أن جاء بنتيجة غريبة هى نقيض نظرة الغرب إلى فارس . وقد حدث هــذا عند ما بدأ حكام بيزنطة اضطهادهم العنيف للنساطرة . ففى المجمع الدينى الذى عقد فى بيت ـ لپت (جُنْدَيْسابور) عام ٤٨٤ م ، اعتنقت جمهرة المسيحيين الفرس المذهب النسطورى . وعند ما أدرك ملوك الساسانيين أن رعاياهم المسيحيين لم يعودوا ، بعد هذا الانشقاق الدينى ، فى حماية أعدائهم البيزنطيين أو موالين لهم ، التزموا جادة الاعتدال إلى حد كبير فى معاملتهم ، بل أخذوا يرحبون بالنساطرة الهاربين من الإمبراطورية البيزنطية . وعلى هذا صار الغرب ينظر إلى فارس لا على أنها مضطهدة المسيحيين ، ولــكن على أنها مُجيرة المارقين .

ولم يفت الغرب ، إلى جانب نظرته إلى فارس هذه النظرة ، أن يلاحظ أن تربتها غنية بدينين أو بدعتين مختلفتين عن المذهب النسطورى وأشد منه خطرا ، هما المانوية والمزدكية . والحق أن المانوية لقيت نجاحا فى فارس أول الأمر ، ولـكنها قمعت بعد ذلك فى قسوة ووحشية ، فلم تقم لها قائمة من بعد . على أن تعاليم مؤسسها مانى بلغت روما عام ٢٧٧ ، أى بعد أربع سنوات لا أكثر من إعدام بهرام الأول له على نحو وحشى وتقتيله الآلاف من أتباعه . وقد تغلغل الدين الجديد من روما إلى شمال إفريقية ، حيث بادر الـكثيرون إلى اعتناقه ومنهم رجل قُدّر له فيما بعد أن يصبح أكثر تمسكا بالدين وأن ينصب قديسا باسم أوغسطين [٣٥٤ـ٤٣٠] . وقد كان القضاء السريع على المانوية فى فارس ، وما تلا ذلك من انتشارها الواسع بعيدا وراء حدودها ، سبباً فى أن أحاط الغموض فيما بعد بأصلها الفارسى ؛ وربما ساعد على ذلك الموقف الغريب الذى وقفه بولس الفارسى ، أسقف نصيبين ، حين أيد قضية المسيحية وهو يجــادل فوتينوس البيزنطى ، نصير المانوية ، فى مجلس عام بالقسطنطينية .

وكان مصير المزدكية فى فارس شديد الشبه بما آلت إليه المانوية فيها . فقد تقبّل الفرس المزدكية فى أول الأمر ، ولـكن قمعت بعد ذلك أشد قمع ، وقضى عليها قضاء مبرما لم تقم بعده لها قائمة . ولـكنها على عكس المانوية لم تنتشر خارج فارس ، رغم أن مبادئها الشيوعية استهوت الناس بعض الشىء فى سوريا واليونان حينا من الدهر .

وهنا نصل إلى الحديث عن نظرة الغرب إلى فلاسفة الفرس فى عصر الساسانيين . وليس لدينا لسوء الحظ معلومات محددة عن مدى الدراسات الفلسفية فى فارس إبان حكم الملوك الساسانيين الأوائل ، أو عن القيمة التى جعلها الغرب لها . ولـكن من الجلى أن المفـكرين الغربيين عدّوا الفلسفة الفارسية فى الواقع على جانب من الأهمية ، فقد كان أفلوطين[1] يريد الذهاب إلى فارس لدراستها[2] . وفى سبيل هذا الغرض صحب الإمبراطور جورديان فى حملته على فارس عام ٢٤٢ م . ولـكن انتهت هذه الحملة بفشل فاضح ، فلم يضع أفلوطين قدما فى أرض فارس ، ولم تتح له إلا فرص قليلة للاتصال المباشر بحكماء الفرس أو لم تتح له مثل هذه الفرص على الإطلاق . فليس فى تفـكيره ، كما يقول نائب الأسقف [و . ر .] إنج[3] أثر شرقى ملحوظ .

ولـكن تزيد معلوماتنا عن الموضوع عنـــدما نأتى إلى زمن كسرى أنوشروان [٥٣١ ـ ٥٧٨ م] ، أى بعد ذلك بنحو ثلاثة قرون . فقد بدأ هذا الملك دراسة الفلسفة وهو شاب ، فألم بتعاليم أفلاطون وأرسطو ، وأمر بترجمة معظم آثارهما إلى البهلوية . ومن المحتمل أنه شغل بهذه الدراسات عندما كان تحت تأثير بولس الفارسى ، أسقف نصيبين ، وأمثاله من العلماء . وقد اشتهر هذا الـكاهن الفارسى ، الذى أشرنا

---

(١) الفيلسوف اليونانى (٢٠٥ ـ ٢٦٩ / ٢٧٠ م) ، مؤسس المذهب الأفلاطونى الجديد . (المترجم)

(٢) أراد أفلوطين أيضا الذهاب إلى الهند للغرض نفسه . (المؤلف)

(٣) Mysticism in Religion ، ص ١٠٩ . (المؤلف)

من قبل إلى جدله مع فوتينوس ، باتباع المدرسة الأفلاطونية الجديدة ، وقضى سنوات في بلاط الساسانيين ، وكتب بالسريانية مختصرا لمنطق أرسطو حتى ينتفع به الملك .

وقد وصلت أنباء علم كسرى بالفلسفة إلى الغرب فى هالة من المبالغة ، فاعتقد بعض الناس أنه قام أخيرا فى الشرق ملك فيلسوف ، وأنه حقق فى مملكته على الأرض الجمهورية التى نادى بها أفلاطون . وكان ممن ظن هذا الظن الفلاسفة الوثنيون السبعة ، آخر « السلسلة الذهبية » المشهورة[1] ، وهم الذين وجدوا ، بعد إغلاق جستنيان المدارس [الوثنية] المشهورة فى أثينا [عام ٥٢٩] ، أنهم حرموا وسائل العيش ، بل صاروا عرضة للاضطهاد. ولكن الأمل فى أن يجدوا مثلهم الأعلى فى فارس قوّى من عزائمهم ، فشدوا الرحال إليها طلبا للملجأ والمأوى ، وفى هذا قيل « حكماء الغرب قاصدون إلى الشرق دون نجم يسترشدون به »[2] . ولكن حكماء الغرب ، واأسفاه ، وجدوا الحقيقة دون ما كانوا يؤملون . والحق أن كسرى أسبغ عليهم كثيرا من العطف والكرم ، واستطاع التحدث معهم فى كتب أفلاطون وأرسطو وفى مشاكل معينة كأصل جميع الأشياء ؛ ولكنهم وجدوه عاجزا عن التعمق فى المسائل الخفية . وزادت خيبة أملهم عند ما رأوه فى حكمه دون المستوى الذى وضعه أفلاطون ، فقد كان فى الواقع أشبه بالحكام المستبدين منه بالفلاسفة . أما نبلاء فارس ورجال بلاطها فقد كانوا أشد قصورا عن بلوغ مُثُل أفلاطون .

فلما أصيب الفلاسفة السبعة بخيبة الأمل وتبدد عنهم الوهم ، جاءوا إلى كسرى يستأذنونه فى العودة إلى وطنهم . فألح عليهم فى البقاء ، ولكنهم أصروا ، فاستجاب أخيرا إلى طلبهم . ومما يشهد له بالفضل الوافر أنه أدخل فى معاهدة السلام ، التى كان

---

(١) هم آخر أتباع المذهب الأفلاطونى الجديد . (المترجم)

(٢) روفوس م . جونز : Mystical Religion ، ص٧٨ . (المؤلف)

يفاوض روما عندئذ [٥٣٣] بصددها ، نصا خاصا يقضى بأن يترك الفلاسفة فى سلام، وأن تكون لهم حرية الجهر بمعتقداتهم فى بلادهم . وكان من هؤلاء الحكماء دَمَسْكيوس [الدمشق][1] ، الذى ضمن كتابه De Principiis دقائق عن بعض العقائد الشرقية التى لم يكن يعرف الناس عنها الكثير ، وكان يعتمد فى هذا ولا ريب على معلومات ألم بها وهو فى بلاط فارس .

وقد كان لخيبة الأمل التى أصيب بها الحكماء السبعة آثارها فى الغرب : فوجدنا أجاثياس[2] مثلا ، وهو كاتب متعصب لبيزنطه بعض الشىء ، يغالى فى التهوين من قدر كسرى فى الفلسفة . وقد تبعه إدوارد جبون فى هذا الصدد بعد ذلك ببضعة قرون، فقد وصف دراسات كسرى « بأن فيها تظاهرا وسطحيّة »[3] ، وهو حكم يبدو قاسيا ظالما بعض الشىء إذا راعينا عصر كسرى وبيئته . فهو لم يكن عالما متعمقا ، ولكنه كان يحب المعرفة حبا صادقا ؛ ولا ريب فى أن ترحيبه بعلماء اليونان وسوريا ، مثل أوريانوس ، وبالفلاسفة الوثنيين السبعة ، وتأسيسه لمدرسة جنديسابور أو جامعتها المشهورة ، شجعا إلى حد كبير تقدم العلم فى فارس ، ويسرا بعض الشىء تطور التصوّف فيها بعد ذلك .

وفى فترات السكون خلال ذلك الصراع الطويل بين فارس فى عصر الساسانيين وروما ، استطاع الرومان الإلمام بعض الشىء بالصناعة والحرف الدقيقة فى فارس . وقد كان للمنسوجات الفارسية الرائعة وقع عظيم فى الغرب ؛ وفى القرن الخامس كانت

(١) نسبة إلى دمشق ، حيث ولد عام ٤٨٠ م . (المترجم)

(٢) الشاعر والمؤرخ اليونانى (٥٣٦–٥٨٢) . (المترجم)

(٣) Decline and Fall of the Roman Empire ، الجزء الخامس ، ص ٢٤٩ . (المؤلف)

المنسوجات الساسانية موضع إعجاب شديد بلغ مداه بلاد الغال غربا ، وهو ما تحدثنا به كتب كايوس أبوليناريس سيدونيوس ، أسقف كايرمون [حوالى ٤٣٠ ـ ٤٨٧ أو ٤٨٨] . والحق أن صناعة النسيج الفارسية أفادت إفادة كبيرة مما دأب عليه ملوك الساسانيين من إسكان الأسرى اليونان والرومان الذين يتقنون هذه الصناعة فى مدن مثل سوسة وجند يسابور وششتر ، ومن نقْل الصناع المهرة من أنطاكية إلى تلك المدن ؛ ولكن الصناعة المحلية نفسها كانت رائعة ، فاشتهرت عن جدارة فى الغرب .

وبينما كانت فارس بمنسوجاتها الجميلة تثير حماس المحبين للفن فى الغرب ، كان أخذها بخناق تجارة الحرير يثير مشاعر شديدة الاختلاف ، كما كانت الحال أيام البرت. فالساسانيون ، كالبرت من قبل ، كانوا يسيطرون سيطرة قوية على طرق تجارة الحرير الممتدة من الصين ، فكانوا يأخذون لرعاياهم كل ما يحتاجون إليه بأسعار منخفضة نسبيا ، ويفرضون رسوما باهظة على ما يسمحون بمروره إلى الغرب . وقد قُضى أخيرا فى عصر جستنيان على هذا الاحتكار الطويل ، وذلك بمساعدة راهبين كانا يقيمان فى الصين وإن شاءت الصدف الغريبة أن يكون أصلهما من فارس نفسها .

والخلاصة أن نظرة الغرب إلى فارس فى عصر الساسانيين كانت تتسم باحترام عميق لشجاعتها العسكرية ؛ وفضول لمعرفة عقائدها الدينية يمازجه خوف من أن تسرى إليه عدواها ، وازدراء (لا أساس له إلى حد ما) لمعارفها الفلسفية ؛ وأخيرا إعجاب بمنسوجاتها .

رابعا — العصر الإسلامى حتى نهاية حكم نادر شاه (٦٥٠—١٧٤٧ م)

يمكن هنا تقسيم المدة من الفتح الإسلامى لفارس حتى نهاية حكم نادر شاه(٦٥٠ـ ١٧٤٧م) إلى فترتين تكادان تتساويان ، وإن اختلفتا فيما بينهما اختلافا شديداً . ففى الفترة الأولى ــ من منتصف القرن السابع حتى مجىء المغول بعد ذلك بنحو ستة قرون ــ حجب الفتح الإسلامى وجه فارس وسائر أنحاء الشرق حجبا تاما ، حتى إنه لو خلصت شعوب الغرب من المتاعب الكثيرة التى كانت تصرفها عن شؤون غيرها لما استطاعت مع ذلك معظم هذه الفترة أن تخترق ذلك الحجاب ، وتتتبّع مايدور خلفه . ولكن فتح المغول لفارس والبلاد المجاورة لها حطم الحدود ، فبدأت الفترة الثانية من عصرنا؛ وهى فترة استطاع فيها الغرب ، بعد أن أفاق من الفوضى التى كان يعانيها ، أن يعقد مرة أخرى صلات مع البلاد التى فتحها المغول .

ولابد أن السهولة التى قوّض بها العرب المسلمون دعائم الإمبراطورية الساسانية قد أدهشت كثيراً من المراقبين الغربيين ؛ ولكن كان من الممكن للعارفين منهم القادرين على التحليل أن يدركوا أن هذا الانهيار المفاجئ كان له سببان رئيسيان : أولهما أن فارس فى عصر الساسانيين كانت تنزف دما منذ عهد طويل تموت به موتا بطيئا ، وذلك نتيجة كفاحها المتصل مع روما وبيزنطة ، ولهذا لم تكن فى حال تستطيع معها رد الهجوم الهائل الذى شنه عليها الإسلام ، والذى لم يكن ماديا خالصا. والسبب الثانى أن العرب ، وهم عادة فريسة الانقسام ، قد وحدهم الشعور الدينى الجارف على نحو لم يكن لهم به عهد . على أن هؤلاء المراقبين الغربيين البارعين ، ولاسيما من كان يقيم منهم فى الأقاليم المتطرفة من الإمبراطورية الرومانية الشرقية ، لم يتسع لهم الوقت للتأمل فى سقوط الساسانيين ، إذ لم يلبث العرب المنتصرون أن حولوا جيوشهم ضد الغرب .

هذا الحجاب الذى فصل عندئذ بين الشرق والغرب لم يُتح لنا معرفة الشىء

الكثير عن معظم الفترة الأولى من العهد الإسلامى . فلم تكن لأوربا الغربية طوال ذلك الوقت وسيلة للاتصال بفارس ، كما أنها لم تمن عناية كافية بالبحث والاستقصاء . وبمضى الزمن أخذ الظلام ينقشع عن أوربا جديدة تعيش فى ظل الإقطاع . ولكن لم يكن بد من أن تتعسر العلاقات التجارية بين أوربا هذه وفارس ، إن لم تتعذر فعلا ، حتى ولو أزيل الحاجز الذى أقامته الخلافة الإسلامية .

ولكن على الرغم من أن شطراً كبيراً من الغرب عزل على هذا النحو عن الشرق ، وجدنا سيلا متصلا من الحضارة الهلينية يتدفق على العالم الإسلامى فى أيام العباسيين الزاهرة . وكان من حسن حظ الغرب ، بل العالم أجمع كما يتبين من بعض فصول هذا الكتاب ، أن هذا السيل تدفق فى ذلك الحين ، فقد كان الوسيلة التى حفظت لنا معارف كثيرة لولاه لضاعت إلى غير رجعة .

وكان تهديد المغول للعالم الإسلامى هو العامل فى أن أزيح بعض الشىء الستار الذى كان يحجب فارس عن الغرب ، ولكن بعد ذلك ببضع سنين مزق المغول أنفسهم هذا الستار . ففى عام ١٢٣٨ م أرسل داعى دعاة الحشاشين من مقر قيادته فى ألموت ، فى قلب جبال ألبرز ، رسولين إلى ملكى انجلترا وفرنسا يسألها العون على المغول . فقال رسوله إلى بلاط الإنجليز إن الغرب هالك كالشرق لا محالة ، إن لم يمد إلى الشرق يد العون . وقد صور ماثيو أف باريس Matthew of Paris [1] تصويراً حيا الاستقبال الجافى الذى قوبل به هذا الرسول . فمن الجلى أن هذا الرسول ، وهو أول فارسى يزور انجلترا (اللهم إلا إذا صدقنا قصة القديس إيفون ، المبشر الفارسى فى القرن السادس)[2] ،

---

(١) راهب ومؤرخ إنجليزى ، توفى عام ١٢٥٩ . (المترجم)

(٢) الذى يقال إنه زار انجلترا فى ذلك القرن . ويعتقد السير برسى سايكس فى كتابه : A History of Persia (الطبعة الثانية ، الجزء الأول (لندن ، ١٩٢١) ، ص ٤٥٨) أن هذه الزيارة أقدم ما سجله لنا التاريخ من العلاقات بين إيران وانجلترا . (المترجم)

لم يثر أى عطف ، ولم يبعث فضولا أولم يبعث منه إلا القليل . ولم يكن الرسول إلى البلاط الفرنسى أكثر منه توفيقا .

وقد انتصر المغول فى الشرق ، ولكنهم باءوا بالفشل حين حاولوا السيطرة على الغرب . ولم يكد يمضى على ذلك زمن قصير حتى بلغت مسامع الغرب إشاعة هى أن المغول اعتنقوا المسيحية . ولهذا قرر البابا إنوسنت الرابع ، عام ١٢٤٥ ، أن يشن حملة دينية كبيرة فى أراضيهم . وفى سبيل هذا الغرض أرسل جان بلانو دى كربينى الفرنسيسكانى إلى بلاط الخاقان الكبير فى قراقورم بعد ذلك بعام واحد . ولسوء الحظ لم يسجل لنا هذا الراهب شيئا عن فارس وأهلها يدعو إلى الاهتمام ، رغم أنه جال فى أراضيها . وقد تبعه بعد سبع سنين مُبشّر آخر هو الراهب الفرنسيسكانى وليم دى ربروكويس . ولكن ما كتبه عن فارس قليل دون مارجوه ، ولا يشتمل على أكثر من إشارة وجيزة إلى الحشاشين وقلاعهم الجبليـة . وهكذا لم يُفعل شىء ما تقريبا لإعطاء أوربا فكرة عن فارس فى تلك الأيام ، رغم أن الطريق أصبح عندئذ مفتوحا . ولكن يجب أن نذكر أن هذا لم يكن الغرض الأول الذى حفز هذين الراهبين إلى القيام برحلاتهما الطويلة المحفوفة بالمخاطر .

وقد قُدِّر لماركو پولو ، ابن البندقية العظيم ، أن يلقى أول ضوء حقيقى على فارس يسلط عليها منـذ قرون . فمنه عرفت أوربا أخيراً شيئـاً عن تلك البلاد ومدنها وأهلها . وقد وجد تبريز مكانا ينعم باليسر والرخاء ، وألْفى سكانها قوما تملؤهم الهمة والنشاط . واستلفت نظره فى كاشان مافيها من مخمل وحرير ؛ وراعه خاصة ما كان يصنع فى كرمان من مطرزات جميـلة . وليس من المبالغة أن نقول إن ماركو پولو حول فارس فى نظر الغرب من اسم مجرد إلى حقيقة ماثلة . وهو الذى أمدّ الغرب بأول وصف مفصـل حقا لطائفة الحشاشين الهائلة وزعيمهم الشرير « شيخ الجبل » . (صحيح أن الصليبيين عرفوا من قبل الحشاشين فى سوريا ، ولكن هؤلاء فرع من الجماعة الأساسية

فى فارس .) وبيّن ماركوپولو ، فيما بينه ، أن الفلاح الفارسى ، وهو شديد البأس ، يستطيع إذا واجهته ظروف معينة أن يبلغ درجات عالية من البطولة ؛ ولكن شاء الحظ السيئ أن تكون أعمال الواقعين تحت تأثير الحشاشين مدعاة لأبلغ الاستنكار .

هذه خلاصة شديدة الإيجاز لما استطاع الغرب أن يعرفه عن فارس بفضل ماركوپولو . وهكذا أظهرت اللوحة آخر الأمر خطوطاً بل بعض الألوان والتفاصيل أيضاً ، بعد أن ظلت طويلا غُفلا من كل شىء .

ومن الغريب أنه لم ترد إلى أوربا بعد ذلك طوال أكثر من قرن معلومات جديدة عن فارس . ولكن قطع هذا الصمت الراهب الفرنسيسكانى أودريكوس ، الذى جاب فارس فى طريق عودته إلى أوربا من الشرق الأقصى . وقد تحدث عن بحر كبير من الرمال على مسيرة يوم من يَزْد ، وكان « شيئا أشد ما يكون غرابة وخطرا » . وكانت كاشان بين مازاره من مدن ، وقدقال عنها إنها المكان الذى بدأ منه المجوس الثلاثة(١) رحلتهم الخالدة .

ولكن ثمة رواية أكثر أهمية وطرافة من رواية أودريكوس الهزيلة التافهة بعض الشىء ، هى رواية معاصره ابن بطوطة ، الرحالة المغربى جوّاب الآفاق ، ولكن لم يترجم ما كتبه ابن بطوطة إلى أية لغة أوربية إلا بعد عصره بزمن طويل .

وبعد رحلات أودريكوس وابن بطوطة بسبعين سنة ، تلقى الغرب معلومات جديدة عن فارس من كلافيجو(٢) ، مبعوث أسبانيا إلى تيمورلنك . فى عام ١٤٠٤ جاب خراسان هو وحاشيته فى طريقهم إلى بلاط ذلك الإمبراطور الفاتح بسمرقند . وفى مشهد

---

(١) هم الحكماء الذين يقول عنهم إنجيل متى (الأصحاح الثانى) إنهم جاءوا من المشرق إلى أورشليم بعد مولد المسيح ليسجدوا له ويقدموا إليه الهدايا . (المترجم)

(٢) توفى عام ١٤١٢ . واسمه الكامل روى جونزاليز دى كلافيجو . (المترجم)

أذِن لهم بزيارة مزار الإمام الرِّضى ، ثامن أئمة الشيعة [الاثنى عشرية] ، بل بالدخول إلى حجرة الضريح أيضا . واستطاع الغرب أن يكون فكرة عن القداسة العظيمة التى كانت تحيط بقبر الإمام ، أقدس بقعة فى فارس لدى الشيعة ، من قول كلافيجو: « وعندما أخذنا بعد ذلك نزور أماكن أخرى فى فارس ، تردد فى مسامع الناس أننا كنا من قبل فى مشهد وأننا زرنا بقعتها المقدسة ، فكانوا يجيئون إلينا ويقبلون أطراف أثوابنا ، لأننا اكتسبنا فى أعينهم فضلا بالحج إلى ضريح الإمام العظيم فى خراسان »(١). ولكن ثمة شكا فيما إذا كان الأوربيون ، حتى أدقاء الملاحظة منهم ، أدركوا عندئذ المغزى الحقيقى للانقسام الكبير فى الإسلام [إلى أهل السنة والشيعة] . فقد انقضت سنون عدة قبل أن يؤسس الصفويون حكومتهم الشيعية فى فارس ، ويبدأوا صراعهم الطويل مع تركيا السنّية . هنالك فقط أدركت المسيحية ، التى كان الترك يهددونها هى أيضا تهديدا خطيرا ، أنها قد تستطيع التحالف مع فارس الشيعية على العدو المشترك .

وفى خلال البقية الباقية من القرن الخامس عشر ، كان معظم ما تتلقاه أوربا من معلومات عن فارس يأتيها من أهل البندقية . وكانوا تجارا ، فكان همهم الأول بطبيعة الحال الصناعة والتجارة . ولهذا وجدنا جاسوفو باربارو Giasofo Barbaro يصف « جكس » Jex (يزد) ، التى زارها عام ١٤٧٤ ، بأنها « مدينة من الصناع ، ناسجى الأقمشة الفسطاطية والحلّية وأمثالها . وكان لهذه المدينة سور ، يبلغ محيطه خمسة أميال ، ولها ضواح واسعة جدا ، ولكن كان سكانها جميعا من النساج وصناع الأنواع المختلفة من أقمشة الحرير »(٢) .

---

(١) Embassy to Tamerlane ، ص ١٨٥ . (المؤلف)

(٢) Travels to Tana and Persia ، ص ٧٣ (وهى ترجمة وليم توماس William Thomas الإنجليزية لرحلة Viaggio باربارو ؛ وقد شُنق توماس فى تيبورن Tyburn عام ١٥٥٤ بعد أن اشترك فى ثورة ويات Wyatt على [الملكة] مارى) . (المؤلف)

وقد شهد القرن السادس عشر تغيرات كبيرة لا فى فارس وحدها ولـكن فى طبيعة علاقاتها بالغرب أيضا . فقد أسس شاه إسماعيل (١٥٠٠ ـ ١٥٢٤) الدولة الصفوية فى البداية الأولى من هذا القرن ، فأقام بذلك حكومة دينية هو رأسها الأعلى والتشيع دينها الرسمى . وكانت أهدافه تتجاوز بعيدا حـدود بلاده ، فقد كان مطمحه أن يجعل التشيع دين العالم . وقد فشل فى تحقيق هذا الأمل ، ولـكنه هو وخلفاءه جعلوا فارس دولة عظيمة . ولما كانت الجارة الغربية لفارس الشيعية هى تركيا ، الدولة العسكرية القوية نصيرة المذهب السنى ، فإنه لم يكن هناك مفر من أن تنشب الحرب بينهما . وقد بدأ هذا الصراع فى أوائل حكم شاه إسماعيل ، واستمر حتى عام ١٦٣٩ مع بعض فترات من التوقف ومع تأرجح الغلبة بين الطرفين .

أضف إلى هذا حدوث تغير ملحوظ فى صلات فارس بالغرب . فبعد اكتشاف الطريق البحرى إلى الشرق المـار برأس الرجاء الصالح فى أواخر القرن السابق ، أخذ نجم البندقية فى الأفول ، وغلبتها الدول البحرية الغربية فى بطء ولـكن باطراد على نفوذها ، لا فى فارس وحدها ولـكن فى غيرها أيضا .

ففى عام ١٥٠٧ ظهر فى الخليج الفارسى أسطول غربى ، هو أول أسطول يرى هناك منذ حملة نيارخوس [أميرال الإسكندر] قبل ذلك بألف وثمانمائة سنة . وكان الأسطول الجديد برتغاليا تحت إمرة ألبوكرك[1] العظيم . وقد أدرك الأميرال البرتغالى الأهمية الاستراتيجية والإمكانيات الاقتصادية لجزيرة هرمز الصغيرة ، فاستولى عليهـا هى وجزيرة كشم وجزء من الأرض المجاورة لها . وبهذا هيأ لبلاده السيطرة على مدخل الخليج ، وأتاح لها مركزا تجاريا ممتازا . ولم تجرؤ أية دولة غربيـة أخرى طوال أكثر من قرن على

---

(١) (١٤٥٣ ـ ١٥١٥) ، واسمه الـكامل ألفونسو دالبوكرك Alphonso d'Albuquerque . (المترجم)

تحدى البرتغاليين جديا فى تلك الأرجاء . أما الفرس فقد كانوا فى شغل شاغل بكفاحهم مع تركيا الذى كانت تتوقف عليه حياتهم ، فلم يحاولوا إخراج الدخلاء ؛ هذا إلى أنه لم يكن لديهم أسطول .

ولم يستطع الغرب اكتساب معلومات جديدة عن فارس من طريق البرتغاليين ، اللهم إلا فيما يتعلق بالخليج الفارسى . وكان الملوك الصفويون يعدون البرتغاليين بالطبع دخلاء كفارا ، ولو حاول هؤلاء التغلغل بعيدا فى فارس لمنعهم أولئك بالقوة . على أنه قُدِّر للغرب أن يستقى معلومات أوفى إلى حد بعيد بفضل الصلات التجارية التى عقدها الإنجليز والهولنديون والفرنسيون بعد ذلك بزمن غير بعيد .

وكان الإنجليز أول من بدأ علاقات تجارية مع فارس من هذه الشعوب الثلاثة . فقد قررت شركة موسكوفى Muscovy Company [الإنجليزية] أن تحاول الاتجار مع فارس من طريق روسيا ، فأرسلت بعثة إلى فارس فى أوائل حكم الملكة إليزابيث ، على رأسها أنتونى جنكنسون Anthony Jenkinson . وعند وصول جنكنسون إلى قزوين (عاصمة فارس عندئذ) عام ١٥٦٢ ، أحسن استقباله شاه طهماسب ، ابن شاه إسماعيل وخليفته . ولكن لم يكد الشاه المتعصب يعلم أن جنكنسون نصرانى حتى أمره فورا بالرحيل . وعلى الرغم من هذه البداية التى لم يحالفها التوفيق ، أرسلت الشركة بعثات أخرى إلى فارس من نفس الطريق . وهكذا تأتى لتوماس بانستر Thomas Banister وجوفرى داكت Geofrey Ducket وغيرهما من الإنجليز أن يسافروا إلى فارس ، ويزوروا كاشان وغيرها من المدن . وقد سجلوا ملاحظاتهم وتجاربهم لمديرى الشركة ، ولكن قرأها غيرهم كثيرون . فقد نشرها رتشارد هكلويت Richard Hakluyt [1] فى لندن فى كتابه :

---

(١) الجغرافى البريطانى (حوالى ١٥٥٣–١٦١٦) . وقد نشرت الطبعة الأخيرة من كتابه المذكور فيما بين ١٥٩٨ و ١٦٠٠ ، وهو فى ثلاثة أجزاء . (المترجم)

[The] Principal Navigations, Voyages, Traffiques and Discoveries [of the English Nation]

وضمّن هكلويت هذا الكتاب أيضا ترجمات لرحلات جان بلانو دى كربينى ، ووليم دى ربروكويس، والراهب الفرنسيسكانى أودريكوس . وطبع أيضا مذكرات رالف فتش Ralph Fitch وجون إلدرد ، وهى أحدث كثيرا ، وكان هذان مع بعض التجار الآخرين أول من سافر من الإنجليز إلى الخليج الفارسي وما وراءه بالطريق البرى المار بطرابلس الشام وحلب ووادى الفرات .

فإلى أى مدى دُرست هذه الآثار ؟ وإلى أى حد أعانت «رجل الشارع» فى عصر اليزابيث على أن يكوّن فكرة عن فارس وأهلها ؟ من الوسائل التى نستطيع بها لمح الجواب أن ندرس أعمال شكسبير ، ونرى ما تحويه عن هـذا الموضوع . والنتيجة التى نصل إليها هزيلة مخيبة للآمال ، ولكن قد يهم القارىء أن ننقل بعض المواضع التى تتعلق بالموضوع ، ونحاول كشف الطريقة التى استطاع بها شكسبير جمع معلوماته القليلة .

ففى كوميديا الأخطاء A Comedy of Errors (الفصل الرابع ، المنظر الأول) يقول « التاجر الثانى » لأنجلو : « ولكننى مسافر إلى فارس ، وأريد جلدرات[1] لرحلتى » ؛ ثم يطلب دفع دين له . فلا ريب فى أن شكسبير كان يفكر فى رالف فتش أو أحد زملائه عند ما كان يكتب هذه السطور . وتقول « الساحرة الأولى » فى مسرحية ماكبث (الفصل الثانى ، المنظر الأول) [الصواب : الفصل الأول ، المنظر الثالث] : « .... لقد سافر زوجها ، قبطان « النمر » Tiger ، إلى حلب » . ولما كنا نعرف من مذكرات فتش أنه أبحر فى هذه السفينة إلى طرابلس

---

(١) الجلْدَر عملة هولندية قديمة من الذهب . (المترجم)

الشام ، فثمة احتمال قوى أن شكسبير قرأ هـــذه المذكرات فى كتاب هكاويت المسمّى Principal Navigations .

وفى « الملك لير » King Lear (الفصل الثالث، المنظر السادس) يقول لير لإدجار : « إننى أعاملك كأحد [فرسانى] المائة[1] ؛ ولـكننى لا أرضى عن نمط ثيابك ؛ وقد تقول إنها أثواب فارسية ، ولـكن بدّلها » . ولسنا هنا على يقين . فإن وصف جنكنسون لزيارته لبلاط طهماسب قد يكون الذى جعل شكسبير يتحدث عن « الأثواب الفارسية » . وقوله « ولـكن بدلها » لا يعنى ضرورة أنه كان يعد الثياب الفارسية حقيرة أو قبيحة ، فقد لا يعدو الأمر أنه كان يعدها غير ملائمة لتلك المناسبة الخاصة . وفى القرن التالى ، الذى نعرف عنه معلومات أكثر إلى حد بعيد ، نجد رأى الإنجليز فى ثياب فارس ينطوى على عامة على استحسان بالغ . فنجد مثلا صامويل بيپس[2] يعجب إعجابا شديدا « بحسن » ملبس السفير الفارسى ومظهره عند ما رآه فى هوايتهول ينتظر الدخول على الملك شارل[3] .

وفى « تاجر البندقية » The Merchant of Venice (الفصل الثـانى ، المنظر الأول) يضع شـكسبير هذه الـكلمات على لسان أمير مراكش وهو يخاطب پورتشيا :

أرجوكِ

أن تقودينى إلى عُلَب الجواهر

---

(١) kindred فى مقال المؤلف (ولعله خطأ مطبعى) ، والصحيح hundred . (المترجم)

(٢) من كتاب اليوميات الإنجليز (١٦٣٣–١٧٠٣) . (المترجم)

(٣) انظر ما كتبه فى يومياته عن ١٠ يناير ١٦٦٨ . (المؤلف)

لأجرب حظى . وبهذا الشمشير[1] ،
الذى ذُبح به الشاه the Sophy وأمير فارسىّ ،
والذى كسب ثلاث معارك من السلطان سليمان[2] ،
سأقتلع أجمد العيون المحدّقة .

فيبدو أن شكسبير كان يستند فى هذا إلى شيء التقطه من جنكنسون . ولكن الواقع أنه لم يُذبح شاه أو أمير فى الحرب التى دارت بين فارس وتركيا خلال النصف الأول من القرن السادس عشر ، وإن جُرح شاه إسماعيل جرحا خطيرا فى معركة چَلْدِران [التى دارت بينه وبين السلطان سليم الأول العثمانى فى ٢٣ أغسطس] عام ١٥١٤ وكاد يقع فى الأسر . وبعد ذلك بنحو ستين سنة وجدنا مِلْتون فى الفردوس المفقود Paradise Lost (الكتاب العاشر ، السطور ٤٣١ ـ ٤٣٦) ينتفع على وجه أفضل بنفس هذا المصدر من المعلومات ، فيقول :

كما يتقهقر التترى أمام عدوه الروسى
مارّا بأسطراخان فوق السهول المكسوة بالجليد ،
أو كما ينسحب الشاه الباخترى[3] أمام قرنى
الهلال التركى تاركا الصحراء كلها الممتدة وراء
مُلْك علاء الدولة Aladule خلال انسحابه
إلى تبريز أو قزوين . . .

---

(١) الشمشير (عن الفارسية) (معرب) ضرب من السيوف العراض ، محدب الحد مقعر الظهر (عن قاموس النهضة لإسماعيل مظهر) . (المترجم)

(٢) الأول ، عاشر سلاطين آل عثمان وأعظمهم (١٤٩٤ـ١٥٦٦م) . (المترجم)

(٣) بكتريا Bactria هو الاسم القديم للإقليم الواقع بين سلسلة جبال هندوكوش ونهر جيحون ، وكانت عاصمته بكترا (بلخ الآن) ، وتسميه النقوش الفارسية باخترى. (المترجم)

وإن المرء ليعجب لِمَ استعمل متاون الوصف « باختری » ؛ وفيما عدا هـذا نجد المعنى واضحاً تمام الوضوح. وAladule ، أو، كما كان يسميه رحالة البندقية ، Alidoli ، هو علاء الدولة ذو القدْر الأرْزَنْجانی[1] ، وكان من أكبر أعداء شاه إسماعيل .

ولـكن يمكن أن نستمد من هذه الأمثلة ، على سبيل الدليل والبرهان ، شيئاً أكثر قليلا من قيمتها السلبية ، فالاسمان Sophy «الشاه» و Aladule « علاء الدولة » صدى رومانتيكی غامض من البعيد المجهول .

وكان اعتلاء شاه عباس الأول عرش فارس عام ١٥٨٧ فاتحـة تغيرات أساسية لا فی البلاد وحدها ولـكن فی علاقتها بالغرب أيضا . فقد وجد أنه لا بد من شن حرب على الأتراك ، وكانوا قوة رهيبة ، فقرر إنشاء جيش نظامی ؛ لأنه أدرك خطر الاعتماد على جنود القبائل الذين كان يقودهم زعمـاء يحيط الشك غالبـا بولائهم، كما كان شأن البارونات الإقطاعيين فی أوربا ، وقد يكونون أحيانا خطراً لا عوناً . ولـكنه رأی أيضاً أن جنوده دون الأتراك فی المدفعية ، وهو سلاح كان الفرس يستصغرون شأنه حتى ذلك الوقت ؛ وأدرك عن صواب أنه لا بد له من مساعـدة أوربا لتحقيق أغراضه . فنبذ عامداً تعصب أسلافه وضيق أفقهم ورحب بمجیء المسيحيين إلى بلاطه .

وقد بلغت مسامع أوربا بطبيعة الحال أنباء طبيعة الشاه الجديد وما أحدثه من تغيير فی السياسة ؛ ولـكن نال الحقائق بعض التشويه وهی فی الطريق ، كما يحدث غالبا . فاعتقد البابا كلمنت[2] أن شاه عباس يريد اعتناق الـكاثولـكية ، فأرسل إليه قسساً

---

(١) من أسرة ذی القدر التركمانية التی حكمت نحو قرن ونصف قرن فی ملطية وألْبِسْتان ، وكان منشؤها حوالی منتصف القرن الرابع عشر الميلادی (دائرة المعارف الإسلامية ، مادة «ذو القدر»). ويقول ياقوت عن أرزنجان : « وأهلها يقولون ارزنـكان بالـكاف ، وهی بلدة طيبة مشهورة نزهة كثيرة الخيرات والأهل ، من بلاد أرمينية بين بلاد الروم وخلاط ، قريبة من أرزن الروم ، وغالب أهلها أرمن وفيها مسلمون وهم أعيان أهلها » . (المترجم)

(٢) الثامن ، تولى البابوية من ١٥٩٢ إلى ١٦٠٥ . (المترجم)

لهذا الغرض . وأخذ البابا يمُدّ لنفسه فى حبال الأمل ، فكان يرجو إذا اعتنق الشاه المسيحية أن تعود إلى فارس التى ازدهرت فيها طويلا فيما مضى . هذا إلى أن البابا ، هو والإمبراطور وسائر الحكام الزمنيّين فى الغرب ، كانوا يرون إمكان التحالف مع فارس ضد الأتراك(١) ، الذين كانوا عندئذ فى أوج قوتهم الحربية وكانوا خطراً حقيقياً على المسيحية . ولهذا أرسلت الوفود إلى شاه عباس تحثه على مهاجمة تركيا .

وكان من نتائج التحول السياسى الذى أحدثه شاه عباس أن عجّ بلاطه بالمبشرين والقسس فضلا عن خليط أوربى غريب من التجار والدبلوماسيين والصناع والجنود المرتزقة . وإن الأخبار التى أرسلها هذا المزيج العجيب من الزوار أو عادوا بها إلى بلادهم لتملأ مجلدات كثيرة . والواقع أن هذه المصادر من المعلومات ازدادت منذ عهد شاه عباس زيادة ضخمة ، فلم تعد الصعوبةُ العثورَ على المعلومات بل البتّ فيما يؤخذ منها ومايُنبذ . ولما كان من المستحيل استحالة واضحة أن ننقل عن هذه المصادر كلها، أو حتى أن نشير إليها إشارات وجيزة ، فقد اقتبسنا مقتطفات قليلة من كتب مؤلفين يختلفون جنسا ونظرة ودينا ومهنة ، وفى بعض الحالات اختصرنا فقرات من هذه الكتب . فبهذه الطريقة يمكن تكوين فكرة عما استطاع سكان أوربا الغربية جمعه من مواطنيهم الذين جابوا فارس أوأقاموا فيها خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر . ولما كان انتشار التعليم والكتابة والتوسع فى استعمال الطباعة قد زادا من ذيوع المعرفة

---

(١) إن فكرة التحالف بين فارس والغرب ضد تركيا قد خطرت قبل ذلك بأكثر من قرن لأوزون حسن ، الحاكم التركمانى على معظم أراضى فارس خلال فترة الاضطرابات بين التيموريين والصفويين. فقدسأل البندقية العون العسكرى، فأرسلت إليه كاترينو زينو Caterino Zeno رسولا . وقد عاد زينو يحمل طلبا ملحفا للعون ، ولكن لم يلق هذا الطلب من رجال البندقية إلا أذنا صماء . (المؤلف)

فى الغرب ، ولما كانت الصلات بين الغرب والشرق قد ازدادت عندئذ قوة عما كانت عليه ، فإنه يمكن القول دون خوف من الخطأ إن دلالة لفظ «فارس» فى عقل الرجل الأوربى العادىّ أصبحت بمرور الزمن أوسع منها أيام شكسبير .

فهذا آبل پنسون الفرنسى ، الذى صحب السير أنتونى شرلى الرومانتيكى المزاج فى زيارته للبلاط الفارسى موفدا من البابا والإمبراطور فى نهاية القرن السادس عشر ، يتحدث عن شاه عباس فيقول إنه[1]

. . . فى نحو الثلاثين من عمره ، صغير الجسم ، ولكنه جميل متناسق الأعضاء ؛ شعر لحيته ورأسه أسود . لونه أميل إلى السمرة كلون الأسبان عادة ؛ ذو عقل قوى نشيط ، وجسم بالغ الرشاقة ... لطيف مع الغرباء ولاسيما المسيحيين منهم .

ويُبرز پنسون بعد ذلك وجوه التناقض الغريب فى طبيعة الشاه . فبينما نجده كريما مع صانع ساعات فرنسى عجوز أقعده الكبر عن العمل ، يرعاه ويوفر له حاجاته ، نجده أحيانا شديد القلب والقسوة مع رعاياه « يقطع رءوسهم لأقل هفوة »[2] .

وفى عام ١٦٠٨ أرسل الأب پول سيمون الإيطالى الكرملى ، أول رئيس لدير الرهبان الكرمليين فى إصفهان ، وصفاً للشاه أكثر تفصيلا إلى روما ، أكد فيه حيوية عقله ويقظته وقوته البدنية العظيمة ، وخفته فى المبارزة بالسيف . ومضى يقول إن الشاه اعتاد التجول فى شوارع عاصمته والاختلاط بشعبه . ونقل عن الشاه قوله : « هكذا يجب أن يكون الملك . . . فملك أسبانيا وغيره من الملوك المسيحيين لا يجدون

---

(١) نقل هذه الفقرة السير دنيسون روس فى كتابه Sir Anthony Sherley and his Persian Adventure (لندن ، ١٩٣٣) ، ص ١٥٨ . (المؤلف)

(٢) نفس المرجع . (المؤلف)

لذة فى الملك ، لأنهم مضطرون إلى أن يحيطوا أنفسهم بكثير من الأبهة والجلال ».[١]
على أن الشاه كان مع ذلك يتطلب من رعاياه أن يعاملوه بما هو أهله من احترام ،
ويعاقب كل من لا يفعل ذلك عقاباً صارماً .

وهذا هو السير توماس هربرت، الذى صحب السير دودمور كوتن Dodmore Cotton ، السفير البريطانى ، والسير روبرت شرلى فى زيارتهما لفارس فى أخريات حكم شاه عباس ، يكتب عن موقف الشاه من الأجانب فيقول[٢] :

كان الملك . . . يرى أنه مما يزيد بهاء بلاطه أن يبدو الأجانب فيه وهم فى ثياب أوطانهم، فكان كلما كثر تنوّع هذه الثياب كثر قوله إن بلاطه وبلاده موضع التبجيل فى الداخل والتقدير فى الخارج .

ويقول هربرت إن فارس قوة عسكرية هائلة ، فالشاه يستطيع تعبئة ثلثمائة ألف فرس وسبعين ألف فارس ، وإن لم يكن يعبئ عادة أكثر من خمسين ألف رجل، « فمثل هذه البلاد القاحلة لاتستطيع توفير الزاد والمؤونة » لأكثر من هذا العدد[٣].
أما الفرس أنفسهم ، فقد كتب هربرت عنهم يقول إنهم[٤]

. . . عامة متناسقو الأطراف مستوو الأجسام، أضفت عليهم البيئة التى يعيشون فيها سمرة اللون ، وأكسبتهم الخمر مرحا ، وأفعمهم الأفيون شهوة . نساؤهم يمارسن التصوير ، ورجالهم يحبون الحرب ؛ وكلهم يقرضون الشعر ؛ وما تشمله الأعناب فى نفوسهم يهدئه القانون ، وتلجمه القدوة .

---

(١) A Chronicle of the Carmelites in Persia ، الجزء الاول ، ص ١٥٨ . (المؤلف)
(٢) Travels ، ص ٢٣٢ . (المؤلف)
(٣) نفس المرجع ، ص ٢٤٢ . (المؤلف)
(٤) نفس المرجع ، ص ٣٢٠ . (المؤلف)

ووصف الأب پول سيمون الفرس بأنهم(١)

. . . بيض ، معتدلو الجسم ، لطفاء ، يظهرون الود للأجانب ، ليّنو المراس ؛ يعلقون أهمية بالغة على كرم المحتد ، وهو ما يخالفهم فيه الأتراك . وهم شديدو الولع بالرسميات ، ويعبرون عن مشاعر الاحترام بصور عدّة خاصة بهم . وكان الفرس فيما مضى شديدى التعلق بالخرافات ، يمقتون المسيحيين كأنما هم جنس دنس . . . ولكنهم نبذوا هذا كله الآن ، وأخذوا يعاملون المسيحيين كما يعاملون بنى قومهم ، وذلك لأن الشاه يظهر احتراماً كبيراً للمسيحيين ، ويقضى وقته معهم ، ويجلسهم معه إلى مائدته .

وليس هنا مجال الحديث المفصل عن الطريقة التى بدأت بها شركة الهند الشرقية البريطانية English East India Company ، فى حكم شاه عباس ، صلاتها الطويلة الأمد مع فارس ، أو كيف أدى التحالف بينهما عام ١٦٢٢ إلى إخراج البرتغاليين من هرمز والقطاع الساحلى الصغير الذى استولوا عليه منذ أكثر من قرن . وقد ظل موظفو الشركة وتجارها طوال أكثر من قرن يقومون برحلات واسعة فى البلاد ، كما أقام كثيرون منهم فترات طويلة فى گومبرُن (بندر عباس) وإصفهان وشيراز وغيرها . وقد تضمنت الرسائل والتقارير التى أرسلها هؤلاء الموظفون والتجار إلى انجلترا كثيراً من المعلومات الهامة ، لا عن التجارة وحدها بل عن غيرها من المسائل أيضا . وفى أعقاب الإنجليز مباشرة جاء الهولنديون الذين عقدوا هم أيضا مع فارس صلات تجارية وثيقة استمرت عدة سنين .

وفى ميدان الدين ، وجدنا تسامح شاه عباس وروح الود التى أظهرها المسيحيين

---

(١) A Chronicle of the Carmelites in Persia ، الجزء الأول ، ص١٥٦ . (المؤلف)

يمكنان المبشرين على اختلاف طوائفهم من السفر إلى فارس وبناء الكنائس فيها وممارسة عباداتهم دون قيد . فعرفوا البلاد وأهلها معرفة جيدة ، وإن لم يُدخلوا فى المسيحية إلا القليل . وقد توفى شاه عباس ، الذى لقب « بالكبير » عن جدارة واستحقاق ، عام ١٦٢٩ ، ولكن لم تمت معه سياسة التسامح التى اختطها ؛ فظل المبشرون ، وكذلك التجار وغيرهم ، يأتون إلى البلاد ويغادرونها فى جو من الحرية .

وكان أهم أولئك المبشرين الأب رافائيل دى مان، وهو راهب فرنسى كبوشينى، وصل إلى إصفهان عام١٦٤٤ وبقى فيها حتى وفاته عام١٦٩٦ . وفى خلال هذه الإقامة الطويلة أحاط بالثقافة الفارسية وتمكن منها ، وفعل الشىء الكثير فى سبيل مصالح بلاده دنيوية ودينية ، وليزيد أوربا علماً بفارس وأهلها أيضا . وكان كتابه المسمى L'Estat de la Perse en 1660 مصدر نفع كبير لكولبير[1] ، الوزير الكفء للملك لويس الرابع عشر، عند ما كان يجمع المعلومات عن فارس قبل إنشاء شركة الهند الفرنسية Compagnie des Indes عام ١٦٦٤ . ولا ريب فى أن الرحالتين الفرنسيين المعروفين تاڤرنييه[2] ودى تيڤينو مدينان ، هما وشاردان (الذى سأتحدث عنه مرة أخرى فيما بعد) ، للأب رافائيل بأكثر ما فى كتبهم من معلومات تتعلق بفارس . أضف إلى هذا أنه عند ما وصل المستشرق الفرنسى جان ـ فرانسوا پتى دى لا كروا [١٦٥٣ ـ ١٧١٣] إلى إصفهان عام ١٦٧٤ (وكان كولبير قد أرسله إلى الشرق عام ١٦٧٠ لدراسة اللغات الشرقية وجمع المخطوطات) ، مرض مرضاً خطيراً فتعهده الأب رافائيل ، كما ساعده بعد ذلك فى دراساته الفارسية . وقد أثار ما ترجمه پتى دى لا كروا من الكتب الشرقية المختلفة ، وبعضها فارسى ، اهتماما

---

(١) Colbert (Jean Baptiste) (١٦١٩-١٦٨٣) . (المترجم)

(٢) Tavernier (Jean Baptiste) (١٦٠٥ — ١٦٨٩).(المترجم)

بالغا فى أوربا فى أوائل القرن الثامن عشر ، وجعل الغرب يدرك أن لفارس ثقافتها الخاصة وأدبها الخاص .

ولا ريب فى أن السير جون شاردان [١٦٤٣ ـ ١٧١٣] هو أعظم مصدر استقت منه أوربا المعلومات عن فارس فى القرن السابع عشر . وكان هوجنوتيا فرنسيا ، قضى فى فارس ما جملته عشر سنين . وكان صائغا ، فمكنته صناعته هذه من الاتصال بأشراف البلاد جميعا ، من الملك فنازلا . وقد استطاع بفضل الأب رافائيل إلى حد ما ، ولكن بفضل قوة ملاحظته هو أولا ، جمع قدر كبير من المعلومات عن مختلف نواحى الحياة الفارسية . ومما له أهمية خاصة وصفه لإصفهان كما كانت فى عصره ، أى عند ما كانت فى أوج مجدها مدينةً من أكبر مدن العالم. وقد نُشر كتابه « رحلات » Voyages فى عدة لغات أوربية ، فكان له فضل كبير فى انتشار المعرفة بفارس فى الغرب . وكان لميئيه النفاذتين الفضل فى أن أصبحت فارس وأهلها أكثر تحدّدًا عن ذى قبل .

ومن المهم أن نقارن رأى شاردان فى الفرس بآراء الكتاب المتقدمين الذين نقلنا عنهم ، فهو يقول[1] :

« وللفرس روح لاتقل عن جسمهم جمالا وروعة . وخيالهم متوثب ، سريع ، سلس . وذاكرتهم طيّعة خصبة . ولهم استعدادات كثيرة للعلوم والفنون الجميلة والفنون التطبيقية . ولهم استعدادات أيضا كثيرة للحرب والقتال . وهم يعشقون المجد أو الغرور ، وهو صورة باطلة من المجد . طبيعتهم مرنة بسيطة ، وروحهم سهلة نافذة . ولهم ميل كبير طبيعى إلى اللذة والترف وإنفاق المال والتبذير ، وهذا ماجعلهم

---

(١) Voyages du Chevalier Chardin en Perse (باريس ، ١٨١١) ، الجزء الثالث ، ص ٤٠٤ ـ ٤٠٦ . (المؤلف)

جاهلين بالاقتصاد والتجارة ؛ والخلاصة أنهم يقدمون إلى العالم مواهب طبيعية لا تقل عمـا لدى غيرهم من الشعوب ؛ ولـكن ليس بين الشعوب شعب يفسد هذه المواهب إفسادهم لها .

« إنهم ينظرون نظرة فلسفية عميقة إلى خير الحيـاة وشرها ، وإلى الأمل فى المستقبل والخوف منه ، لم يفسدهم البخل ، فهم لا يريدون من جمع المال إلا إنفاقه . وهم يحبون التمتع بالحـاضر ، ولا يمنعون شيئاً يستطيعون منحه ، فهم لا يخشون المستقبل ، وإنمـــا يتوكلون على الله وما قُدِّر لهم . وهم يؤمنون إيماناً جازماً بأن هـذا المقدر ثابت لا سبيل إلى تغييره ، ويبنون مسلـكهم فى الحياة على هذا الأساس عن صدق وإخلاص . فإذا أصابتهم مصيبـة لم تغلبهم على أمرهم كمعظم الناس . . . وإنما يقولون فى هدوء : مكتوب است، أى : إنه مكتوب . »

ويبين الدكتور جون فراير ، معاصر شاردان ، ولَعَ الفرس بالطرب ، فيقول[1] :

« إن المرء لا يـكاد يصدق عينيه حين يرى المقـادير التى يشربونها (من الخمر) فى حفلات الطرب ، وكيف لا يبدو عليهم أثر ذلك فى اليوم التالى ... وهم يستطيعون تعاطى الشراب على هذا النحو أسبوعاً كاملًا . وهم رفاق تطيب معهم الصحبة والحديث لا يُعفون أحداً من الشراب عندما تدور الـكؤوس . »

وكان فراير فى كومبرُن [بندر عباس] عام ١٦٧٦، وقد وصف لنا كيف كان اللاحون الإنجليز الذين يعملون فى سفن شركة الهند الشرقية East India Company

---

(١) A New Account of the East Indies and Persia (لندن، ١٦٩٨) ، ص ٢٤٥ و٢٤٦ . (المؤلف)

يستمتعون بالحياة فى ذلك الميناء وإن لم يحبّوا مناخه ، فقد « كانوا يعيبون على هذا المكان حره الشديد ويصفونه ساخرين بأنه ليس بينه وبين جهنم إلا قيد إصبع »[1] .

ولم يكن ينقص أوربا رجال أكفاء من بنيها يرقبون لها سير الحوادث التى بدأت بتولى السلطان حسين العرش عام ١٦٩٤ ، وكان ورعا مع ضعف ، وانتهت بالغزو الأفغانى وسقوط مملكة الصفويين عام ١٧٢٢ . فقد كان فى إصفهان رؤساء البعثات الدينية ورجالهم ، وممثلو شركتى الهند الشرقية الإنجليزية والهولندية ، ثم من حين إلى حين المبعوثون الدبلوماسيون للدول المختلفة . وكان فى كثير من المدن الرئيسية مبشرون مقيمون ، وفى بعضها تجّار ووكلاء لهاتين الشركتين . وكان هناك فضلا عن ذلك عدد من السائحين كالكاتب الفنان الهولندى كورنليوس لوبرون (الذى نجد فى كتابه صورا رائعة لإصفهان وسائر المدن التى زارها) ، والفرنسيان [جوزيف بيتون] دى تورنفور[2] و [پول] لوقا[3] و [الرحالة] الاسكتلندى جون بل [١٦٩١ ـ ١٧٨١] . فبوساطة هؤلاء الشهود استطاع الناس فى الغرب أن يروا كيف أن بناء الدولة الصفوية ، وأعنة الحكم فى يدى الشاه الضعيف مع حسن طويته ، أخذ يتضعضع شيئاً فشيئاً حتى انهار آخر الأمر .

وقد كتب المبشرون عن إلغاء المراسيم الملكية التى كانت تعتمد عليها امتيازاتهم ؛ ونقلوا أيضا تجدد الاضطهاد الدينى نتيجةً لازدياد نفوذ المتعصبين من رجال الدين الشيعة (الملّا) ومؤمرات رجال الدين من أهل السنة . وشكا التجار أيضا من إلغاء امتيازاتهم ومطالبة موظفى البلاط الفاسدين برِشاً كبيرة لقاء تجديدها ؛ ونقلوا أيضا الأثر السيء الذى أحدثه فى التجارة اضطراب الأمن فى البلاد اضطرابا متزايدا.

---

(١) نفس المرجع ، ص ٢٢٤ . (المؤلف)

(٢) De Tournefort (Joseph Pitton) ، عالم النبات (١٦٥٦ـ١٧٠٨). (المترجم)

(٣) الرحالة الأثرى (١٦٦٤ـ١٧٣٧) . (المترجم)

وكانت نظرة فرنسا إلى فارس فى ذلك الوقت أوسع أفقا من نظرة الإنجليز والهولنديين ، الذين كانت مصالحهم فى فارس تجارية محضة . وقد انزعج لويس الرابع عشر هو والبابا أيمـا انزعاج حين بلغت أوربا الأنباء عن اضطهاد المبشرين وإغلاق الـكنائس ودور البعثات التبشيرية قسرا ، وكان لويس الرابع عشر يسلك منذ وقت طويل مسلك الحامى للمسيحيين فى الشرق . فلـكى يضع حـداًّ لهذه الاضطهادات ، وينهض فى الوقت نفسه بمصالح بلاده التجارية والسياسية فى فارس ، قرر هو ووزراؤه بدء مفاوضات مع حكومة فارس لعقد معاهدة تشتمل على الشروط المطلوبة . وقد وُقعت هـذه المعاهدة فى إصفهان عام ١٧٠٨ رغم بداية غير موفقة وعقبات هائلة ، وهى أول معاهدة تعقد بين فرنسا وفارس . ولـكن هذه المعاهدة ، لأسباب لا داعى هنا إلى الخوض فيها ، لم تؤد إلا إلى تفريج مؤقت لـكُرْبة المبشرين ، ولم ينشأ عنها أى تقدم فى المجال السياسى أو التجارى .

وفى عام ١٧١٤ بعث السلطان حسين رسولا يدعى محمد رضا بك إلى فرنسا لعقد اتفاق معها على القيام بعمل مشترك ضد عرب مسقط ، الذين كانت قرصنتهم فى الخليج الفارسى تصيب التجارة بأفدح الأضرار . فبادرت الحـكومة الفرنسية فى ذكاء وفطنة إلى الإفادة من مقدم الرسول ، وبدأت مفاوضات لعقد معاهدة جديدة مع فارس على أسس أفضل بشكل واضح من معاهدة ١٧٠٨ . وكان للوزراء الفرنسيين المشتركين فى المفاوضات مستشاران ، هما الراهب جودرو ، وهو مستشرق فرنسى له بعض المـكانة ، وتاجر من مرسيليا اسمه دى كانسڤي . وكانا قد قضيا بعض الوقت فى فارس ، فأحاطا بها علما .

ولم يكن لمحمد رضا بك سلطة عقد مثل هذه المعاهدة ، وكان عازفا فى أول الأمر عن بدء المفاوضات ، ولـكنه أُغرى أخيراً بذلك ، ووقع المعاهدة فى أغسطس عام ١٧١٥ . ولم يرد فيها ذكر لمسألة مسقط ، ولـكن اتفق شفويا على أن يرسل ضابط

بحرى فرنسى إلى فارس ليرى ما يمكن عمله . وقد منحت هـذه المعاهدة فرنسا كل ما كانت تريده من امتيازات تجارية ، وكفلت السلام للبعثات التبشيرية ، كما قضت بأن يكون للسفير الفرنسي الذى سيرسل إلى البلاط الفارسى أسبقية على الممثلين الدبلوماسيين لسائر الشعوب جميعا، وأن يكون لفرنسا تمثيل قنصلى فى إصفهان وغيرها. وإن الحرص البالغ الذى أظهره لويس الرابع عشر ووزراؤه على عقد هاتين المعاهدتين، وحفاوتهم البالغة بمحمد رضا بك فى فرنسا ، ليدلان على أنهم كانوا يعلقون أهميـــة كبيرة جدا على فارس .

ولـكن كان محمد رضا بك قد جاوز سلطاته ، فقامت صعوبات كثيرة دون إقرار المعاهدة . والواقع أنه لم يُصدَّق عليها إلا فى مايو عام ١٧٢٢ ، وكانت إصفهان فى ذلك الوقت تعانى الحصار الذى ضربه عليهـا الأفغان الغلجائية . وفى أكتوبر التالى سقطت العاصمة ، وتنازل الشاه عن العرش ، وانتهت الدولة الصفوية نهاية يُجللها الخزي والعار بعد أن كانت تحيط بها هالة المجد فى وقت من الأوقات . وهكذا لم تجلب معاهدة ١٧١٥ نفعا باقيا لفرنسا .

وبينما كان وزراء فرنسا أمثال [لويس فليبو] بونشارتران [١٦٤٣ ـ ١٧٢٧] يستطيعون ، بالرجوع إلى الخبراء أمثـال جودرو ودى كانسقي ، أن يكوّنوا فـكرة صادقة عن فارس كما كانت فى ذلك الوقت ، كان أواسط الفرنسيين يميلون على نحو مبالغ فيه إلى اعتبارها أرض السحر والخيال . والبحث فى أسباب هذا الميل لا يخلو من أهمية . فمن هذه الأسباب أن ترجمات پتى دى لا كروا كانت شائعة شيوعا عظيما، وكانت تضفى على فارس وسائر أنحاء الشرق جوًّا كأجواء ألف ليلة وليلة . ومنهـــا أن المغامرات الغريبة التى قامت بها مارى پتى [١٦٦٥ ـ حوالى ١٧٢٠] فى فارس كان قد شاع نبؤها فى فرنسا . وكانت مارى قد صحبت رجلا فرنسيا اسمه فابر إلى فارس عندما أُرسل إليها فى بعثـة دبلوماسية عام ١٧٠٤ . وقد عاجلته المنية بعد

مرض بالحمى فى إروان [بأرمينية] وهو فى طريقه إلى البلاط الفارسى ، فتولت مارى أمر البعثة ، ولم يمكن تنحيتها وإحلال رسول جديد محلها إلا بعد جهد جهيد . ولكنها وقفت إلى الدخول على الشاه . وعند ما عادت إلى فرنسا زُجّ بها فى السجن ، حيث قاست أمداً طويلا . وعند ما أحيل ملفها أخيراً إلى پونشارتران راعته اليوميات التى كانت تكتبها فى فارس ، فأمر بإطلاقها من السجن ، بل عهد إلى [ألان ـ رينيه] لُساج[1] ، مؤلف Gil Blas ، أن يصوغ هذه اليوميات صياغة أدبية . ولكنه لم يفعل لسوء الحظ .

وكان السبب الثالث لشيوع أفكار خاطئة مبالغ فيها عن فارس هو زيارة محمد رضا بك . فقد أثارت رحلته خلال فرنسا من مرسيليا ودخوله باريس كثيراً من الانتباه . واهتمت جماهير باريس اهتماما بالغا بمظهره الغريب ، وطريقته غير المألوفة فى الحياة ، ومسلكه الشاذ فى بعض المناسبات . وانتشر نبأ أفعاله انتشاراً واسعاً بين الناس . ورسمت له صور لقيت سوقا رائجة ، وصورت لوحة تمثله ولويس الرابع عشر يستقبله (وهو آخر حفل استقبال عام للملك الشيخ قبل أن توافيه المنيـــة) . وقد وضع محمد رضا بك خاتمة رومانتيكية لبعثته ، وذلك بأن فرّ مع سيدة فرنسية لها بعض المكانة .

وقد أحدث قضاء الأفغان على المملكة الصفوية ، وغزو تركيا وروسيا لفارس فى الوقت ذاته ، واحتلال الأولى للجانب الغربى من فارس والثانية للجانب الشمالى الغربى ، أحدث هذا كله أثراً شديداً فى أوربا . فبدا لها أن فارس قد هوت إلى حيث لن تستطيع أبداً استعادة مكانتها شعباً من الشعوب الهامة . ولكن تبين فساد هذا الرأى . فقد نهضت فارس من كبوتها على غير توقع ، كما نهضت مراراً عدة من قبل؛

---

(١) الروائى المسرحى الفرنسى (١٦٦٨ـ١٧٤٧) . (المترجم)

وكان نهوضها هذا بعد سنوات لاتتجاوز السبعة . فبفضل العبقرية والحنكة العسكرية لقائد لم يكن معروفا حتى ذلك الوقت اسمه نادر قُلى بك ، أُجبر الأفغان على التقهقر بغير انتظام وطردوا من البلاد ؛ وأُجلس على العرش طهماسپ ، أحد أبناء المرحـــوم السلطان حسين (الذى قتله الأفغان) ؛ وهُزم الأتراك هزيمـة منكرة ، وأُجبروا على الانسحاب إلى جانبهم من الحدود ؛ فوجدت روسيا من الحـكمة أن تترك دون قتال الأرض التى احتلتها من قبل .

وكان استيلاء نادر قلى بك على العرش عام ١٧٣٦ (وقد اتخذ لنفسه عندئذ اسم نادر شاه) وما تلا ذلك من غزو للهند استلفت الأنظار ، سببا فى أن ازدادت شهرته فى الغرب وسُمى باسم « الإسكندر الثانى » . ولدينا أقوالٌ لعدد من المراقبين الأوربيين الأكفاء تشهد بما كان له من مواهب بارزة وعيوب . فوليم كوكل ، المندوب المقيم لشركة الهند الشرقية الإنجليزية فى إصفهان ، يقول ، استناداً إلى معرفة شخصيـة وثيقة ، إنه

... لا يكاد يُصَدّق مدى سرعته فى تبين احتمالات النصر أو الهزيمة التى تحيط بكل من الجيشين المتقابلين ، ومدى نشاطه فى مساعدة جنوده . وكان إذا تقهقر قائد من قواده دون أن تجبره على ذلك قوة قاهرة يركب إليه ويقتله بفأس من فؤوس القتال (كان يحملها دائما فى يده) ، ثم يسند القيادة إلى من يليه[1] .

والأب بازان الجزويتى ، وكان طبيباً له بضع سنوات ، يتحدث عن صفاته حاكما فيقول[2] :

---

(١) نقلا عن كتاب جيمس فريزر Nadir Shah : James Frazer ، ص ٢٣٣ـ ٢٣٤ . (المؤلف)

(٢) Lettres édifiantes et curieuses (باريس ، ١٧٨٠) ، الجزء الرابع ، ص ١٣٦ . (المؤلف)

كان ، رغم ضعة منبته ، يبدو وكأنه ولد للعرش . فقد وهبته الطبيعة جميع الخصال العظيمة التى تصنع الأبطال ، وجانباً من تلك التى تصنع عظام الملوك . ونحن لا نكاد نجد فى التاريخ أميراً له عبقرية أوسع مجالا ، وروح أنفذ ، وشجاعة أكثر استهانة بالخطر . وكانت مشروعاته عظيمة ، ووسائله مختارة أحسن الاختيار ، وكان يعد العدة للتنفيذ حتى قبل أن يبرز المشروع إلى الوجود .

ولكن هذا جانب الفضائل . فإنه لم يفت فريقاً آخر من المراقبين كيف أن نادر لولعه بالحرب جلب على بلاده الخراب آخر الأمر باستنزافه مواردها استنزافا فظيعا .

ومما يبعث الدهشة فى هذه الفترة اعتقاد بعض الأوربيين أن بعض الرجال البارزين فى فارس من أصل غربى . فقد كان الكثيرون يعتقدون أن نادر من أبناء مقاطعة برابانت Brabant[1] . ولما كان نادر قد لُقب حينا بطهماسپ قُلى خان ، وهو لقب حرفه التجار الأوربيون وغيرهم إلى تاماس كولى Thamas Kouli ، فقد تخيل البعض أنه إرلندى حقيقةً يسمى توماس أوكلّى Thomas O'Kelli . وفى حالة واحدة من الحالات على الأقل كانت هذه النسبة الباطلة إلى أصل أوربى مقصودة عن عمد . فالراهب تالمان ، فى المذكرات التى نسبها باطلا إلى طهماسپ الثانى (وهى كتاب رأى من المناسب نشره دون التصريح باسمه) ، كان يقصد إلى أن يبين أن الشاه هو فى الحقيقة ابن رجل فرنسى يدعى جوليو كان يعمل فى خدمة السلطان حسين .

ويحق لنا أن نختم هذا العرض بأن نلاحظ كيف أن فارس ، بعد أن لم تكن غير اسم مجرد فى الغرب ، أخذت خلال النصف الثانى من العصر الإسلامى تزداد

---

(١) مقاطعة برابانت الشمالية فى هولندة ، والجنوبية فى بلجيكا . (المترجم)

حظًّا من معرفة الناس بها حين ازدادت صلاتهم بها توثقا وتعددا . وقد رأينا فيما مضى أن أفكار الأوربيين عن فارس كانت تختلف فيما بينها اختلافا كبيرا ، فكانت فى نظر البعض مجرد بلد يمكن الاتجار معه ، وفى نظر البعض الآخر مجرد بلد يمكن تحويله إلى المسيحية ، وفى نظر فريق ثالث حليفاً ضد الأتراك . ولكن أدركت أوربا بمرور الزمن أن فارس أكثر من هذا كله ، أنها بلد له ثقافة حقيقية وأدب خاص ، أهله ذواقون للشعر شغوفون شغفا عظيما بالتصوف والتأمل الفلسفى .



الفصل الثالث عشر

****

مملكة فارس الخيالية

ترجمة أحمد الساداتي

فى عام ١٨٣٥ أضيف مجلدان صغيران بعنوان «فارس» إلى «أسفار العم أوليفر» فى مكتبة سلسلة الصغار التى كان يقوم على نشرها السادة شارلز نايت فى شارع لُدجيت . ويحوى هذان الكتيبّان محاورات تعليمية يروى فيهـا وصىّ ذو إدراك للأيتام الثلاثة الصغار هنرى وفرانك وجين ما يحسب أن عليهم أن يعرفوه عن بلاد تأبى فى إصرار إلّا أن تحيا حياة هى أقرب إلى الخيال . ولم يكن هذا السيد يُعنى عموما العناية الواجبة بما يتخيّره من أنباء هذه البلاد وأخبارها . فهو حين يتحدث إلى صغاره عن طيور فارس يذكر لهم أن الطواويس هى أعظمها شأنا حتى كان يقوم على جانبى عرش ملك الفرس الشهير دعائم مربعة نُحت عليها الطواويس مزينة بالجواهر وقد أمسك كل واحد منها فى منقاره بياقوتة عظيمة الحجم . ولقد كانت العروش وجواهرها تتلألأ ، على كل حال ، فى مجرى حديث التعليم ، حتى إذا ما انتقل العم أوليفر إلى الكلام عن النوع الثانى من الطير فشرع يتحدث عن الصقور ، بادرت أصغر المستمعين إلى مقاطعته قائلة « ياعمى العزيز ، زدنا من حديثك عن الملك وعرشه » . ورفض الرجل رجاء الصغيرة فى حزم ونبّهها إلى أن «هذا ليس مجاله الآن إذ الحديث هو عن الطيور أصلا » . هنالك لم تملك الطفلة إلا أن تتنهد أسفاً وتتململ لتستسلم آخر الأمر . على أن هؤلاء الأطفال كانوا على مزيد من العناد ، فلم تمض أيام قليلة على حادث الصغيرة هذا ، حتى تعرّض هنرى بدوره للتوبيخ والزجر . ذلك أن العم

أوليڤر كان قد شرع يتحدث عن مصائد اللؤلؤ في هُرمز ليقول بأن « پليني وجملة من كتاب الرومان القدامى قد (وهموا) أن اللآلئ إنما تتكون من الندى ، إذ يصعد (المحار) كل صباح إلى سطح الماء ويفتح صدفته لتمتصه » . وحين هتف هنري معجبا بهذه الفكرة ، صده العم أوليڤر بقوله : « إن ما نريده في التاريخ الطبيعي وما يجب أن نُعجب به حقًّا هو الحقائق لا مجرد الأوهام الشاعرية الجميلة ».

على أن هذا العم الصارم الحازم كان هو نفسه يروي ما يثير الخيال بقدر ، إذ كان يصف بلاداً امتزجت الحقيقة فيها بالوهم منذ زمن طويل . ففي هذه البلاد تُنْبِت الدراية ما ترويه الخرافة أن الملك كان يرتدي ثياباً تزينها اللآلئ والجواهر ، وأنه كان يتربع يقينا على عرش الطاووس المتألق المتلألئ ليطرب بمدائح الخطباء والشعراء . وكثيراً ما كان يهزه المديح ويستخفه فينهض من مجلسه ليحشو فم الشاعر بالحلوى دليلا على فرط الرضا والتقدير . هذا وكان قصر الملك عادة لا يحوي ، إلى جانب عرشه ، إلّا القليل من الأثاث . ذلك أن الملوك وأقل الرعايا قدراً ببلاد فارس كانوا يجلسون القرفصاء على السواء ، على بسط مفروشة على الأرض ، ومن هذه البسط ما كان يبهر العين برسمه ونقوشه وزخارفه ، ومنها ، كما يروي القصص ، ما كان في الماضي له خواص سحرية فيصعّد في السماء ليحلّق فوق الصحراوات والجبال والوهاد وعليه السحرة يعملون لإلحاق الضرّ بالناس أو لإعادة الأميرات إلى عشّاقهن .

ولقد طفق الرجل الإنجليزي حوالى القرن الثالث عشر الميلادي يتمثل في خاطره، على مكث ، الشرق الساحر حين غدا القصص يبلغ أوربا عن دولة خطاي العجيبة التي كان الجوابون الفرنسسكانيون والرهبان الدومينيكانيون ينشرون المسيحية فيها .

وما انتصف القرن الرابع عشر حتى رأينا هيجدن ، وهو ينهج نهج المؤرخين الأغريق واللاتين ، يخصص لفارس وحروب الفرس في « يومياته » مكانا ، في الوقت

الذى كان فيــه سير جون ماندڤيل (سوذاى « الآفاك الجرئ ») يضع كتاباً فى الرحلات عرفته الفرنسية واللاتينيّة أولّا ، وطبعه بالإنجليزية أواخر ذلك القرن وينكن دو ورد وبينسون من بعد ذلك، وقد صوّر فيه ، على هدى مفارقات المغامرين، شرقاً هو فى ناحية بلاد خطاى وفى أخرى بلاد فارس التى كانت تمتد عنده حتى حدود بلاد العرب والحبشة وأرض الهنـد . ولم تـكن للجغرافية فى ذلك السِّفر أى اعتبار من الدقة أو نصيب ؛ ذلك أن وصاف العـالم الأولين كانوا يثبتون البحار فى غير أماكنها ويرسون الفُلْك على أرارات ثم يتركون مندراجا (إله النوّم) متعلقاً براحته القلقة فوق دلتا النيـل . ولقد لبثت حدود إيران لقرون تلت غير واضحة المعالم لأنها لم تـكن تُعرف إلا عن طريق القصص، ولعل ذلك يرجع أيضاً إلى أن الرجل العادى يجد فى الغالب صعوبة بالغة فى متابعة أطوارها التاريخية .

وصورة فارس ، التى تركها لنا ماندڤيل ، هى جنة أرضية كانت مهدا لقصص الإنجيـل ؛ وكان يحدّها أحد الأنهار الأربعة التى كانت تخرج من جنة عدن . وهى عنده كذلك أرض البذخ والنور والألوان والحدائق التى تغمرها الشمس بضيائها ويفوح شذى العطر منها ، وتصطخب بتغريد الطيور وخرير المياه الجارية . هذا كما كان يقطن مدنها الجميلة الحـكماء والعرافون والمنجمون والأعيان إلى جانب شيوخ من المشعوذين هُم من دعاة الفوضوية فى الغالب . أما حكامها فـكانوا يسكنون قصورا ذات قباب مُذهبة تُضاء غرفاتها بالجمر وتعطّر أرجاؤها بالعود ؛ وهم يرفلون فى ثياب موشاة بالذهب ومزينة بالجواهر والماس ومقواة بالنشا . ويضيف كاكستون فى «مرآة العالم » إلى ذلك صورة رهيبة لطيفة ، فيقول بأنّ فى « مملـكة فارس قد وُجـد علم السحر الأسود ؛ وباستخدامه كانت تتعطل قوى العدو فيسقط فى الأسر » ؛ ثم يردف ذلك ببيان مبتور عن الإنذار باليوم الذى يبطل فيه أثر هــــذا السحر بفعل السياسية . كما يروى كذلك أن بهذه البـلاد ضربا من القار الشديد السخونة حتى

ليحرق أيدى من يمسكون به . على أن هؤلاء السحرة لم يبلغوا من العلم ما كان يمكنهم من التنبؤ بخطوط الأنابيب التى حملت فيما بعد هذه المادة الحارقة عبر السهل الإيرانى .

على أن التجارة كانت فى كل الأزمان تضيف تفصيلات راسخة يستلهمها الدين والتاريخ. وكانت «مملكة الفرس الخيالية» فيها من المدن ذات الأسماء الرنانة الموسيقية مثل سلطانية وطرابزونده وبخارى وسمرقند ، وجميعها كان يُجلب إليها التوابل والعقاقير والحرير والمخمل والسجّاد والشيلان والذهب والأقمشة المذهّبة والفضة والأحجار الكريمة من الهند وإفريقية وبلاد الخطا . ومنها كانت هذه البضائع تُحمل بدورها عبر الأنهار والبحار الداخلية وطرق القوافل ، إلى حلب لتتلقفها سفن البنادقة التى كانت تأتى بالحجاج إلى الأراضى المقدسة . وتؤوب تلك السفن إلى أوربا وفى جعبتها الأقاصيص عن تلك البلاد التى بارحتها . وقد تروى كذلك من أخبار ذلك البندقى الذى طوّف فى القرن الثالث عشر الميلادى بالأجزاء الشرقية من الدنيا ورأى أشياء وأماكن عجيبة ، فصادف من الماشية مالها ذيول فى حجم غير مألوف حتى ليرفعها الناس على دواليب خشبية ، وشاهد أشجار الشمس والقمر التى تربض العنقاء فوقها ، والطيور الصغيرة التى تتلألأ فى الهواء بريشها المتعدد الألوان . كذلك كان بهذا الإقليم الذى جاب فيه سهول بالغة الخصوبة ، وإلى جوانبها ممرات جبلية عالية شديدة البرودة ، أو صحراوات تصليها الشمس بحرارتها ولا ماء فيها ، فكأنها الأرض الملعونة. وفى موانئ هذا الإقليم ترسو السفن المحملة بالتوابل والجواهر وما شاكلها من الكنوز الأخرى . أما ملوكه فثراؤهم مما لا يبلغ الخيال إلى تصوّره ؛ فصواليجهم قدّت من الزمرد ، ويلقب الواحد منهم بالخان أى ملك الملوك . وقد شاهد الرحالة البندقى القصر الضيق الفخم لواحد منهم يدعى قبلاى .

هذا وقد نشرت أخبار رحلة سير ماركوپولو هـذا آخر القرن الخامس عشر ، وظهرت بالفرنسية عام ١٥٥٦ كما نقلت إلى الإنجليزية عام ١٥٧٩ . وفى منتصف القرن السادس عشر ، حين نجم عن سقوط الدولة البيزنطية واختراع الطباعة ظهور كثير من النصوص اللاتينية واليونانيـة ، شرع العلماء بدورهم يطّلعون ، إلى ذلك ، على استرابون الجغرافى ومشاهدات بلوتارك والتاريخ القـديم الذى كتبه تيودور الصقلى ومافيه من خلط واسع بين الحقائق والروايات والأراجيف . ولعلهم قداطلعوا كذلك على حروب الفرس فى كتب المؤرخين الإغريق والرحالة الذين ـ على خلاف سيرجون ماندڤيل ـ زاروا على الأقل بعضا من البلاد التى وصفوها . ولو كان قد أُتيح لهؤلاء الأعلام التحدث إلى هيرودوت ووصّاف البلدان والتجار المغامرين الذين كانواإذ ذاك يرسمون خطط رحلاتهم الـكشفية ، لخرجوا على الناس بمادةدسمة ، ولاتضح للجغرافيين معالم دولة فارسية أشدجلاء من «مملـكه فارس الخيالية» الغامضة . وحديث التجار فى هذا الصدد هو حديث لايكاد ينتهى عن الذهب والفضة والجواهر والسجّاد ذى الألوان الزاهية ، ثم الحـكام الذين يختزنون ما يحصلون عليه من التبر ، نظير المـكوس ، بعد صهره فى أوانٍ من الخزف حتى إذا ما أعوزهم المال عمدوا إلى كسر هذه القدور فيقدون مما بها من سبائك بقدر حاجتهم . هذا كما كان القصص يُروى طافحا بما يُشبع نهم المغامرين من النبلاء ويروى ظمأهم إلى الـكشف . ومن ذلك أيضا أنه بهذا الإقليم أشجار بلغ من جمالها أن أمر أحد الملوك ذات مرة بتزيينها بالذهب ؛ أما بساتينه فتنمو بها أشجار الورد ريا ، فضلا عن أريج أزهارها الذى يفوق كل وصف . وأما سكانه فـكانوا كحدائقه على تناقض كبير . فهم على فروسية كبيرة وكرم ، حتى إذا ما استفزهم الغضب انقلبوا فظاظا لا تعرف الرحمة إلى قلوبهم سبيلا . وهم يركنون إلى الـكسل والخمول ويحبون الجواهر والتنعم بالملذات حبّاجما ؛ ويدمنون الشراب حتى ليتشاورون وهم سكارى ولـكنهم لايجزمون أمرا إلاوهم مفيقون . أماملوكهم فـكانوا يخرجون للحرب فى عجلاتهم الحربية المرصعة بالجواهر ومعهم محظياتهم ، والمقاتلون الأشداء من

بين رجال فارس جميعا يتقدمونهـم على جياد بيضاء ، ومن خلفهم « الخالدون » الذين كانت رماحهم تملوها رمانات ذهبية . ولقد أثار هـذا كله خيال الإنجليز وسليقتهم التجارية كل الإثارة ؛ فسكان هذه البلاد المسحورة، لهم ، إذا ماصادف ذلك القبول من الله والحكومة ، أن يرفلوا سريعا فى الجوخ الإنجليزى .

هكذا استقر رأى شركة من التجار المغامرين التى تكونت حديثا عام ١٥٥٣ م على القيام « برحلة بحرية غربية » فأبحرت سفن ثلاث لكشف الأجزاء الشمالية من آسيا ودراستها . ولئن انتهى أمر اثنتين منها بكارثة فإن الثالثة قد توصلت إلى استكشاف شاطئ روسيا الشمالى ، وبهذا فُتح الطريق إلى موسكو وإلى بحر قزوين بالتالى . وتمّ لسير جنكينسون من بعد ذلك اختراق آسيا الصغرى حتى وصل إلى بخارى ليؤوب إلى انجترا وذهنه مشغول بعدة مشروعات خاصة بإنشاء طريق برى إلى فارس عبر روسيا . ومالبث أن أخذ الرحالون ، الواحد بعد الآخر أيام اليزابيث، ينشرون التجارة ويكسبون المجد والشهرة لهذه الملكة العذراء (فَمَنْ مِنْ ملوك هذه البلاد سبق جلالتها إلى الاتصال بإمبراطور فارس ؟) وغدوا بدورهم يزيدون فى ثراء اللغة بكلمات خـلابة مدوية كان لها فى إذن عصر النهضة رنين الذهب ؛ كما خلفوا من ورائهم قصصا عن رحلاتهم وأحاديث شيقة لبعضها فى الغالب سحر الشعر وروعته .

ولقد أخذ إدراك الرجل الإنجليزى العادى فى الجغرافية يزداد منذ ختام القرن السادس عشر ، ذلك أن العالم كله كان إذ ذاك يُمسح مسحا دقيقا فتوضع له المصورات والخرائط الجغرافية ؛ كما طفق الشرق بواقعه المبيّن ينفض عنه بدوره الصورة الخرافية التى لازمته قبل ذلك بمائةعام ؛ وإن لبثت فارس ، بفعل الظروف والملابسات تخيّم عليها الطلاسم أمدا طويلا . وقامت التجارة مع الهند ثم الصين من بعد ذلك عن طريق البحر وازدادت يسرا ورواجا على علاقات طيبة ومودة فى الغالب .

وما كان يصل عن الهنـد بخاصة فى روايات المراسلين أو الموظفين العائدين منها قد جمل الناس يأنسون ، حدًّا ما ، إلى الحياة فى محطات التجارة التابعة لشركة الهند الشرقية حيث قامت ، نوعاً ما ، بيئة انجليزية فى محيط غير بريطانى . أما فارس ذات الصيت الذائع فقد بقيت على منأى من الطريق لا تطرقها إلا القوافل لتتعثر على طول طريق ذهبى .

ولم يكن الوصف ، على ما يبلغ من شدة تماسكه وواقعيته ، ليكبح جماح الخيال . فى الأخبار التى جمعها هكليوت وبُرخاس قد يجد القارئ أموراً واقعيـة لعلها تهدف إلى التجرد وإن لم تبلغه أبدا . ففيها ترى الباطل يحيط بالصدق ، وتلحظ المغامرين يصادفون من التجارب فى إسراف بالغ ما هو أشبه بالقصص الذى أثار فيهم الحماس للمغامرة من قبـل . وها هو الشاعر وليم وارنر يقول بعد أن اطّلع على هكليوت : « إن من يقرأ سير جون دو مندفيل ، لا يعجب ــ أو قد يعجب ــ إن كان كل ما كتبه هو حقيقىّ . وحرىّ بنا على كل حال أن نأخذ به (إذ ثبت حديثا صحته فى الغالب) » .

هذا وقد بقى الطريق إلى سمرقند طريقاً ذهبيًّا على حاله فى إصرار . ولقد يصادف الرجال الموت مقرورين وهم يسلكونه ، ولـكن عين الخيـال لا تعلق إلّا ببالات الشيلان الحريرية والسجاد التى ينزلونها من فوق ظهور الإبل فى نهاية الرحلة ، فلا تُلق التفاتة أو بالًا أبداً إلى هذا الجثمان المتيبس الذى دُس بين الأحمال ، ابتغاء الدفء عبثا ، ولا تراه .

ولقد كان التجار يؤوبون من فارس ليرووا للناس عن مقابلتهم للملوك الذين كانت دواوينهم تعقـد فى جواسق فخمة « مصنوعة من الذهب والحرير » وهم جلوس على المنحدرات حيث النافورات ترطب الهواء المشبع بشذى المطر . والملك الذى يلقب

هناك بألقاب كثيرة ، منهـا الإمبراطور والشاه والصوفى ، كانت الأرض من بين يديه ومن حوله مفروشة بالسجاد المشغول بالذهب والفضة والأحجار الكريمة . والخيال الإليزابثى هو وحـــده القدير على تمثل مبلغ ما كانت عليه ملابس هـذا الملك من الروعة والفخامة وهى تكاد تختفى تحت ما يزينها من الجواهر التى تحاكى الشمس فى تلألئها وبريقها . أما عمامته ، وكانت على هيئة زهرة الخزامى التى تنمو عند المنحدرات ، فهى تصنع عادة من النسيج الفاخر المذهب وترتفع إلى نصف الياردة لتنتهى بطرف مدبب . ويُلف حولها شال من الحرير الهندى يبلغ طوله العشرين ياردة ، وهو مشغول كذلك بالذهب ؛ وعلى جانبه الأيسر تثبت ريشات بمشبك من الذهب محلّى بالجواهر . وإن القارئ ليملكه العجب إذا ما قام من هكليوت ليذهب إلى المسرح فيفتتن سمعه وخياله مرة أخرى بقصّة تيمورلنك ذلك الراعى السيثى الذى فتح بلاد الفرس .

والواقع أن كلمة فارس قد بقيت فى الغالب ، ابتداء من القرون الوسطى حتى القرن التاسع عشر ، مدلولا على الأبهة والبذخ والرومانسية التى خلبت لب الرجل الإنجليزى العادى وجعلته يهرع إلى الخيال والوهم . ويتمثل هذا كله فى خاطر صمويل بُرخاس وهو يقدّم رحلاته للحج فى عام ١٦٣٠ م « ليس أشهى عندنا من الحديث عن الأشياء المجلوبة من بعيد ، غالية الثمن » . والواقع أنه ليس فى حديثه هذا أى وهم أو خيال . ذلك أن الرجل الإنجليزى الذى يخضع لإغراء لا يقاوم فيمضى قدُما فى طلب كل ما هو عجيب غريب ، له كذلك انعطاف مبهم للنظر إلى كل ما هو ليس بإنجليزى نظرة فيها قدر من الإشفاق المهذب الذى قد يبلغ درجة السخرية الصريحة . وقد صُدم صمويل بيبس بهذه الحقيقة عام ١٦٦١ م وهو يشاهد موكب السفراء الروس وهم فى طريقهم إلى البلاط فى هوايتهول « فما أبشع منظر هؤلاء الإنجليز الخرق الذين لا يستطيعون الصبر على الضحك والتهكم على كل ما يبدو غريباً فى نظرهم » .

ولقد كان فى فارس والفرس أشياء كثيرة تبدو غريبة حتى بدأ تصوّر الرجل الإنجليزى العادى لهذه البلاد يشوبه قدر من السخر . فقد عرف أن الشاهنشاه ذا الرفعة والجلال كان يُشغل « يومين فى كل أسبوع بالاستحمام ، فيصطحب معه ما بين خمس أو ست من محظياته ، وقد يتراوح عددهم بين الزيادة والنقصان ، فيقضى يومه الأول فى الاغتسال والتدليك والاستحمام لينفق يومه الثانى فى تهذيب أظافره وأمور أخرى » . كذلك لاحظ الرجل الإنجليزى أن الفُرس كانوا يجلسون القرفصاء على سجاد ثمين « كأنهم تماثيل جامدة عديدة ، أردافهم ملتصقة بالأرض ، وظهورهم بالجدران ، وعيونهم مركزة على هدف ثابت » . ولكنهم لم يكونوا فى الغالب يتشبثون بجمودهم هذا. ففى شيراز « كان الأمير نفسه يجلس (كتمثال) القرفصاء متصدراً الغرفة فى جمود بالغ حتى إذا ما دنا السفير من مقامه وثب إليه (كمن به مسّ) فعانقه ورحّب به » . وها هو سير توماس راو فى الهند يروى بدوره كيف كان يقف بوقار فى ثيابه المتواضعة بقاعة الاستقبال الفخمة ببلاط السلطان المغولى العظيم وهو يراقب سلوك السفير الفارسى « لقد كان يبدو كمهرّج أو مشعوذ أكثر منه كشخص له من الأهمية نصيب ، فكان ينصب قامته ويمطها حيناً ما لينكمش من بعد ذلك ، ويلقى خطبته كالممثل الذى يحاكى غيره هزوا . . . ولا يفتأ يهتف بصاحب الجلالة الملك سلطان العالم (متناسياً أن للملك نفسه من ذلك نصيب) . . . وحين انتهى من جميع هذه المراسيم ألقى بنفسه ساجدا وأخذ يدق الأرض برأسه كأنه يريد أن تنشق فيدخل فيها » .

ويقع بلندن ذلك الصدام الكبير بين سير روبرت شيرلى ومنافسه الفارسى . ولعل هذا الحادث قد أدى ببعض النظارة إلى أن يعدّلوا فى تقديرهم لهيبة الخوانين [جمع خان] وكبار الأمراء . وتفصيله أن سير روبرت شيرلى، وهو مغامر إنجليزى وأحد إخوة ثلاثة ذاع صيتهم، كان قد وقع تحت سحر فارس حين بلغها ، فالتحق

بخدمة الشاه . وهناك بنى بسيدة فارسية ، وأخذ يرتدى ثياب القوم ، ليفد من بعد ذلك إلى بلاط الملك بلندن مبعوثا على رأس وفد من لدن سيّده الشرقى . ولقد نظر التجار الإنجليز فرأوا فارس فى حرب مع تركيا ، فماذا عليهم لو عقدوا معها معاهدة تفيدها فى حربها مع عدوّتها القديمة وتفتح فى الوقت نفسه أسواقا جديدة لانجلترا . وهكذا غادر سير روبرت شيرلى فارس مرتديا عمامته ومعه زوجته الفارسية فبلغ موسكو فواصل منها رحلته حتى استقر به المقام آخر الأمر فى لنـــدن ليحقق سالف الغرض . وهنا وقع أمر عجب ، ذلك أنّه لم يكد يبلغ لندن بعد هذه الرحلة الطويلة حتى بوغت بظهور أمير فارسى آخر على المسرح ينازعه سفارة الشاه . وحين أقبـل هذا السيّد الإنجليزى يعرض أوراقه على منافسه الفارسى حديث الوصول ، وكان هذا الأخير « يجلس القرفصاء على مقعد وفق الرسم الفارسى فى كبرياء لايلتفت إلى أحد .. فإذا به يقفز فجأة من مقعده ليتقدم من سير روبرت شيرلى فيختطف أوراقه من يده ويمزقها إربا ثم يلطمه على وجه » . ولا نعجب من بعـد ذلك حين نرى السفيرين، بعد انقضاء فترة قصيرة على هذا المشهد ، يُرحّلان فى أول فرصة إلى فارس (على سفينتين منفصلتين) .

أما السير روبرت شيرلى فقد عاد على السفينة روز التابعة لشركة الهند الشرقية فأبحرت به إلى الخليج الفارسى فى أحد أيام الجمعة من عام ١٦٢٦ . وكان من بين ركاب هذا الفُلك سير دودمور كوتون مبعوث شارل الأول ملك الإنجليز إلى الشاه الـكبير وفى حاشيته شاب فى العشرين من عمره هو سير توماس هربرت أحد الـكتاب المجدّين الذين أمدّو المـكتبة الإنجليزية بمؤلفاتهم الـكثيرة عن فارس .

ونزل الركب إلى البر فى گُمْبرُنْ [بندر عباس] بالخليج الفارسى ، ومن ثم بدأت « رحلته البرية إلى فارس فى ثمان وعشرين بعـيرا واثنى عشر فرسا » . ووجد الشاب هربرت نفسه بين مغامرين آخرين ساروا مع السفير وحاشيته ، وقد أضافتهم

شيراز جميعا فى سخاء وأبهة . وشيراز هـذه مدينة « قد حصّنتها الطبيعة وأثرتها التجارة وجمّلها الفن » . ومتّع الشاب ناظريه بالتطلع إلى أسوار دار السلطان شوق على بك وقد رُصعت بالذهب وزُيّنت بالدمى . وأطلّ كذلك، من فوق التلال المحيطة بالمدينة، على مشهد مساجدها وحماماتها بحجارتها التى تحاكى فى لونها زرقة السماء ودوّراتها المموهة بالذهب حيث يعشش اللقلق . هـذا كما زار بالمدينة كذلك مدرسة تُدرس فيها الفلسفة والفلك والطبيعة والـكيمياء « والرياضيات » ، ووقف على أن الفرس للشعر فى نفوسهم ، أولا وقبل كل شىء ، فعل السحر حتى ليبدو لك أن تلك السجيّة الخاصة هى التى تشيع المتعة والانشراح فيهم » . كذلك بلغ من بعض تجاربه الخاصة إلى أن الفرس فى الحقيقة يحتسون النبيذ احتساء ، بإدمان فى الغالب ، وأنهم يقبلون على الاشتغال بالسحر . كما قدّر خطأً أن المتعة تحت الشمس المحرقة هى ، ظنا ، لطيفة الفاعلية والأثر . ثم تركت القافلة شيراز من ورائها لتصل إلى حقول سوداء مليئة بحطام الأعمدة وأجزاء من أسوار ذات طوابق وقطع من الرخام تنبىء جميعها عن العظمة والمجد ، إذا كانت هناك يوما ما حاضرة فارس القديمة پرسپوليس . وذهب رحالتنا يتنقل بين الأطلال المتألقة من ركن إلى آخر ، ويذرع كل جانب من جوانب قاعات الاستقبال يقيس أبعادها ويطابق بين النقوش وينقل منها وهى التى « لا يمكن أن تحلّ رموزها وتفسّر بالـكاد دون عون من النبى دانيال » . وقد لاحظ أن المسخ الأربعة القائمة عند رأس الدرج « يالها من وحوش .... كأنها من خيال شاعر أو مثّال » . كذلك درس تنوّع الزينات الملـكية التى كان يجرى عليها الملوك الأقدمون ، فوصل إلى أن نبلاء الفرس كانوا فى القديم يرسلون شعورهم فى حين أن الرسم الحاضر يقتضيهم حلق رءوسهم بالموسى إلّا من خصلة فى الوسط يرسلونها فنها يُرفع المؤمنون إلى الجنـة . (وقد صوّر ميريديث هـذا الخيال والوهم بعد ذلك بمائتى عام) .

وأثارت برسيبوليس ، بحطام تراثها الرائع الكثير ، انفعال سير توماس وهو يتفحّصه وينقب فيه ويدرسه . وهكذا انقلب الرحالة الشاب ذو العشرين ربيعا إلى مؤرخ ومنقب وأثرى . واتجهت همته إلى الحصول على نتائج حاسمة هامة فى هذا الشأن ليذكّره سير دودمور كوتون ، وهو فى حماسه هذا ، بأن مهمته الأولى فى فارس هى العمل لصالح التجارة الإنجليزية فحسب . وهكذا تابعت الجماعة سيرها ، ومعها الترجمان ديك والقسيس الدكتور جوخ ، عبر الوهاد الصخرية والتلال الوعرة حتى بلغت إصفهان ليرحب بهم أهلها بظاهر مدينتهم بإطلاق الأعيرة النارية فى الهواء ودق الطبول والدفوف والزمر ورقص القيان وألعاب المشعوذين وغير ذلك من ضروب الترفيه . ونسى سير توماس هناك عاصمة فارس القديمة حين أخذ يزور الحدائق والحمامات والقصور ويرسم الصبايا ويدرس رسوم الدفن القديمة ؛ حتى أخذ الركب من بعد ذلك يضرب من جديد فى طريق طوله أربعمائة من الأميال يموج بالبعوض والحيات ويتواصل فيه نقيق الضفادع الكريه .

وبلغ الجميع آخر المطاف مدينة أشرف على بحر قزوين ، فى يوم أحدٍ من شهر مايو ، حيث استقبل الشاه سير توماس هربرت ورئيسه وسير روبرت شيرلى وسبعة أو ثمانية آخرين من الإنجليز . وأجمل سير دودمور كوتون عرض مهمته التى كانت تتلخص فى محاولة الحصول على اتفاق تجارى بين البلدين ، وسير توماس يتنقل بعينيه بين ما كان يحيط به من مظاهر الأبهة والفخامة ، فالأرض قد فُرشت بالسجاد الكبير الفخم الذى يليق بمقام عاهل فارسى « والسقاة من الغلمان فى كساوى من قماش مذهب وعليهم عمائم مزركشة مرصعة ولهم خفاف مطرزة » و « شعورهم المقصّة تتدلى إلى أكتافهم » و « عيونهم مستديرة ووجناتهم وردية » . كما لاحظ كذلك أن فى الملك الفارسى تلتقى المجاملة واللطف فى أوسع معانيه إلى جانب العنف فى أبشع صوره . فهذا الشخص الذى سمل عينى ابنه بدافع من الغيرة ، هو هو الذى

يتبادل الأنخاب الآن مع ضـــيوفه الإنجليز ويرفع عمـامته عن رأسه « دليلا على الامتنان » كلما كان السفير الإنجليزى يؤدى له مراسيم التبجيل بالوقوف وكشف الرأس .

وغادر الركب بحر الخزر من ورائه ليصعد فى جبال طوروس فى عناء ونصب ، ثم ينحدر بعد ذلك والمشقة تلازمه حتى يبـلغ إقليم قزوين . ولئن كانت حمى السجح قد أخذت تشدد من وطأتهـــا على سير توماس إلا أنه كان له خير معين من شبابه وما اشتهر به أهل يوركشير من قوة بنيـة ، فـكان هو الذى قام بدفن سير شيرلى فى قزوين ، وكان رجلا مسنًّا مريض القلب قد زال عنه مجد الملك ، كما أودع التراب، بعد أسبوعين من هذا الحادث ، سير دودمور كوتون نفسه « ذلك السيّد الورع » . وظن سير توماس أن السفير قدقضى لـكثرة ما كان يتناول من الفاكهة . ومهما يكن من شىء فإن ضبط النفس كان بلا مراء من الصعوبة بمكان أمام إغراء الرمان والخوخ والمشمش والبرقوق والتفاح والـكمثرى والـكرز والقسطل .

« إنه لحقا إنسان بائس ذليل ذلك الذى تتوقف سلامته على بشاشة فارس » . ذلك أن سماوات الفردوس كانت ملبّدة بالقتام ، وكان الغم والتشاؤم يركب قافلة السفير التى توقفت عن السير « جسداً بلا رأس » فى انتظار صدور الإذن لهم بمغادرة البلاد من عاهل إيران القوى الـكبير الشاه عباس الأكبر . وصدر الفرمان بتأمين سفرهم آخر الأمر ، وقد وضع فى جراب من القماش المذهب وختم بخيط من الحرير ، وكان مكتوبا بالذهب (« بظاهر رسائلهم ») على ورق أحمر .

وهكذا بدأت الرحلة إلى أرض الوطن ، وأخذت السحب تنقشع رويداً حتى بلغ الركب مدينة قُم ثم قاشان حتى وصل بغداد التى تضاهى فى مساحتها وجمالها مدينة برستول. وخرجت القافلة من فارس إلى بلاد العرب فى منطقة النفوذ التركى فمرت بسلسلة من المفاجآت والتقلبات المدهشة التى دفعت بسير توماس إلى القيام برحلة فى التاريخ

القديم وأمجاد بابل الوثنية . وعاد إلى التفكير من جديد فى التاريخ القديم وتاريخ التوراة حين طفق يتأمل أطلال شوش ، ولكنه انصرف عنهما ليتفكر فى المواضع الحقيقية للجنّة .

وحدّ المرض آخر الأمر من تأملاته حتى قطع ثلاثمائة من الأميال، فى درجة بالغة من البؤس، وهو يتدلى إلى جانب بعير فى قفص يشبه المهد . وكُتبت له النجاة من ذلك أيضا برغم أن طبيبه كان واحدا من « الرجال المتزنين دمثى الهيئة واللهجة ، ولكنه كان منساقا إلى الطمع وممارسة السحر وعلومه » حتى استعصى على سير توماس أن يتبين فى وضوح إن كان ماله هو الذى يتدهور أسرع من نشاطه أو أن الحال هو على العكس . وبلغ وطنه آخر المطاف ، بعد لأى، ليبدأ عمله فى تدوين مشاهداته تدعمها الأنباء المستقاة من المؤرخين القدماء والجغرافيين . فظهر عام ١٦٣٤ كتاب رحلته فى مجلد كبير أثار قدرا غير قليل من الاهتمام ، وكان معظمه فى « وصف مملكة فارس » ، كما لقى ترحيباً فى مكتبات نبلاء الإنجليز . ولم ينته القرن حتى كان قد أعيد طبعه مزيدا عليه ، كما نقل إلى الفرنسية والهولاندية كذلك .

وتمتزج الحقيقة والخرافة من جديد عند هربرت . ولئن كانت قصص ماندفيل قد رويت فى جيل أكثر سذاجة فلا تثريب إذن عليه كثير . (ألم تكن أفاعى الصحراء ، التى عقرت فرس السفير والتفت حول ساقيها، من نسل أخطبوط خرافى؟) أما قصص سير توماس فقد جاءت لتُشبع فضول طلاب المغامرات وليتلقاها جيل أكثر يقظة يدعو إلى الاستعمار والتوسع التجارى . وقبل أن يمضى عصر النور قدما فى طريق المذهب العقلى ويطلبه ، كانت فارس ، كما يبدو ، أكثر من نصف علوية كجنة أصحاب الخيال المنشودة .

إن العلماء والمؤرخين ورجال الاقتصاد هم الذين عليهم أن يُعنوا بظهور الدراسات

الشرقية وتطورها السريع بعد منتصف القرن السابع عشر أو اتساع نطاق التجارة وتكاثر المعلومات المفيدة فى الدراسات الجغرافية أو حركات السحب السياسية فى أفقنا الساحر . فما يعنينا من ذلك كله لم يكن ليعدو قبول ما يوائم الخيال من بين جميع الاستكشافات والدراسات ، دون الرغبة الملحة فى الالتفات إلى إصرار أصحاب الخيال فى تشبثهم بالجنة التى تصوروها لأنفسهم متجنبين الوقائع ، التى تستعصى على أفهامهم ، والصور المعقدة . ولم يكن تعطل هؤلاء عن إدراك ذلك يزعجهم بل كان ، على النقيض ، فيه ترويح لهم . ويصف هوول عام ١٦٥٥ « صوفى فارس » [أى الشاه] فيقول :

« كان يسمى نفسه بأنه النجم العاهل العظيم الجبار الذى تتوج الشمس رأسه . وهو الذى تماثل إيماءاته وتحركاته الأثير السماوى . وهو ملك جبال القوقاز وطوروس والأنهار الأربعة : دجلة والفرات وسيحون والسند . منبت الشرف ومرآة الحقيقة ووردة الانشراح وجوزة طيب النعيم . فياله من فارق ضخم إذ يبدأ نجما ليهوى من بعد ذلك فيصير آخر الأمر جوزة طيب » .

وبقيت فارس لقرنين تاليين من بعد ذلك فى خاطر الرجل الإنجليزى على أى صورة ما شاء زوقها ، هى فى أساسها مكان غامض يمكنه أن يلوذ به هارباً من أفكاره وشواغله . فكانت عنده موطن الشموس والنيران المتوهجة وحولها العابدون ، وأرض الكنوز المتلألئة ، التى يخطف سناها أبصار الطامعين فيها والمشتغلين بالسحر ، والأزهار والنافورات والقصور والرياض التى يتريض بها الملوك فيهيئ لهم الجمال بها ضرباً من الحياة الخاصة المستورة ، وإن كانت فى الغالب لا تخفى على الناس . وفى هذا كانت يتعاون على تكامل الصورة جهات متعددة . فكان هناك على سبيل المثال « أسفار فى تركيا وفارس والهند ، ١٦٧٦ »[1] لتافرنييه ، وكان ابناً لبائع خرائط

---

(١) ترجمت رحلة تافرنييه هذه إلى الإنجليزية عام ١٦٧٨ . وما نشر عام ١٦٨٦ ، وهو المجلد الأول ، كان لايحوى إلا القسم الأول من رحلة شاردان ، أما النسخة الكاملة فهى التى نشرت بأمستردام عام ١٧١١ فى أربعة مجلدات

فرنسى ـ أما أجداده فكانوا مُلاكا ـ رحل عام ١٦٣٢ فى صحبة نبيلين فرنسيين شابين لزيارة آسيا الصغرى ؛ ولكنه ما لبث أن انفصل عنهما فى استانبول، على خلاف ، فانطلق على نفقته الخاصة إلى بلاد فارس لينقلب هنـاك إلى تاجر جواهر ؛ ثم « الرحلة . . . إلى فارس والهنـد الشرقية ١٦٨٦ » لجان شاردان ، وهو جواهرى هوجنوطى انتهى هناك إلى مهنته الأصلية ، إذ ذهب إلى فارس فأصبح بهـا موردا للبلاط ، وقصد لندن عام ١٦٨١ حيث علا نجمه ببلاط شارل الثانى الذى اتخذ منه فارسا ووزيرا .

ويبدو ملوك الفرس ورعاياهم عند شاردان ، مرة أخرى ، أناسى يرفلون فى زينة فخمة وأبهة . فكانوا كائنات وقورة لطيفة ، وفلاسفة يعيشون ليومهم ويتقبلون مصيرهم بالرضى حين يقلب الدهر لهم ظهر المجن . كذلك كانوا شغوفين بالجمال والاسترخاء (وهو تعبير أخف وقعاً وألين من لفظة كسلان) محبين للمتعة ، تراهم يتسلون باللعب بالجواهر فى الغالب وهم يحملونها فى أكياس صغيرة حول أعناقهم . وهم على أدب جم ، وحديثهم مسترسل ملىء بالعبارات المهذبة والمجاملات بأفصح لسان (ولقد كان هذا الأمر حقيقة واقعة يوما ما ، فلم تكن شتائم هؤلاء السادة حين كانوا يتبادلونها إلا خليطاً من البذاءة وحمد الله) . أما سجيتهم فكانت تخضع للبذخ والتبذير والخلاعة ، وكانوا ينفقون الأموال الطائلة على حريمهم . ويروى شاردان كذلك الكثير عن قصورهم الغامضة المعزولة عن الدنيا بخارجها عزلا تاما ، والتى يقوم على حراستها خصيان جُرد ، حتى لتكون أصلح مكان لمآسى الهيام والغيرة التى تنتهى بسفك الدماء . على أن صاحبنا بإمعانه فى البعد عن الحقيقة وتشبثه بالخيال لم يكن من أرباب علم النفس . ولقد استمتع بالصورة الخفية الحليمة المحبوكة فى الرواية وهى التى غذى منها دومونتسكيو سخره بحيوية بالغة فى تمثيلية « رسائل فارسية » . ولقد يكون قد اطلع كذلك على بعض الكتابات بالغة الخلاعة ، إلا أنه مع ذلك

لم يكن له دون شك أى نصيب من حبك الصورة التى تبرز كاملة فى « الرسائل الفارسية » . وهاهو يقرض الشعر عموما فيقول « ما أكثر ما تنهدت بين حشود الجهال وإن لم يدم ذلك طويلا » . كما يقول كذلك « إن السراى السلطانية . . . لتزيل منظرها كل متاعب الدنيا وهمومها » ، ولا يزيد عليها .

وأغلب الظن ، على كل حال ، أن القارئ المادى قد لبث قرابة قرنين بعد « المملكة الفارسية » التى وصفها سير توماس هربرت قادراً على أن يوشى تصوّره لفارس من كتابات الدارسين والباحثين إذ ذاك . ولم نعمد إلى استخدام لفظ الوشى هنا إلا لنؤكد أن كلّ ما كان يفعله ذلك القارئ لم يكن ليعدو إضافة تفاصيل مثيرة أو لطيفة إلى مالفق أو زُعم أساسا عن هذه البلاد فى الفترة مابين القرنين الثانى عشر والسادس عشر . وهاهم العلماء أنفسهم ، حين أثارتهم قصص الجوابين والرحالة ، انقلبوا ينقبون بين المخطوطات والنقوش والتماثيل ، ليرجعوا عن كشوفهم ومعهم موسوعات عالمية عن معارف الشرق وأهله وتاريخه وأسراته القديمة الحاكمة ومعتقداته . حتى أُنشئت مراكز الدراسات الشرقية فى كمبردج وأكسفورد وباريس ثم فى كلكتا بعد قليل لتتكشف لها حضارات سبقت حضارات اليونان والرومان بقرون . وبانت الحاجة إلى مزيد من الدراسين لترجمة النصوص وحل النقوش . وغدت الترجمات وكتب القواعد ومجموعات القصص العربية والفارسية تنشر تو الفراغ من إعدادها لتمين الطلاب على التحصيل. ولئن بدت تلك الدراسات ذات نفع وجدوى ، إلا أن حاصلها كان ضئيلا ، فلم يكن إلا بمثابة الإتيان بالركاز بالنسبة للباحثين ؛ ومن ورائهم القارئ المادى الذى صار عليه الآن، على ضوء المقاييس الدراسية ، أن يرى إن كان تصوره للشرق قد بات أمعن فى الخيال والمبالغة عن ذى قبل .

وما نقل عن اللغات الشرقية كان من المتنوعات . فكان من بينها قواعد

الخدمة فى بلاط كبار الملوك ، وقد نمقت كتابتها وزينت بما يليق بخطر الطقوس التى رسمتها وأبهتها ، ثم نماذج من الرسائل والالتماسات ، وبظاهرها كتابات فى تدرج متقن كأنها عناقيد الزهر ، وبحوث الفلاسفة مع أمثلة من مأثور أقوالهم . على أن الغالب فيها كان من الحكايات والصور الرمزية والقصص التعليمية اللطيفة ومنظومات لشعراء الحماسة والغناء الذين تذيع أسماؤهم اليوم والذين كانت أشعارهم للخيال غذاء طيباً . وائتلف ذلك كله معا لينتقل بالقرن الثامن عشر طربا إلى أرض « الأبهة المروعة » حيث ألسنة النار المقدسة تتراقص حول الأبراج التى أقيمت من هامات العصاة ، أو حيث الغلمان الشرا كسة الخليعون يدفعون بفريق من الملوك إلى خبال الوجد والهيام ، فى حين يقنع منهم فريق آخر، أقل اندفاعا ، بقضاء الوقت فى حديقة يؤرجها شذى الورد ، حيث يضطجعون على عروش محلاة بالجواهر أو أرائك ، ويتناولون بين الفينة والفينة من الأرز المطبوخ المجيب المتعدّد الألوان ، أو الحلوى التى بين أيديهم ، ويطلبون المزيد من الموسيقى والمزيد من نبيذ شيراز ، وفوق ذلك كله المزيد من القصص والحكايات .

فالقصص فى هذه البلاد كان تسلية الملوك والحلاقين والطهاة على السواء ، حتى كان من بين الندماء من بلغ مكانة سامية أو بلغ درجة الشعراء الفلاسفة فوكل إليه تأديب الأمراء وهم يتنزهون فى المساء على سفوح التلال التى تؤرجها الأزهار بشذاها . وغالبا ما كان النثر القصصى يمهد الطريق للشعر . ذلك أن اللغة الفارسية هى دواما فى طبيعتها دافئة مثيرة على نقيض اللغات الأوربية فى فتورها وبرودها . هذا كما كانت تتقبل الأفكار والآراء فى مواءمة ومبالغة وحماس ، الأمر الذى أدى بإديسون وفريق من الكتاب الآخرين إلى الظن بأن الخيال الشرقى كان خصباً غزيراً ، وأن القصص والحكايات فى صورتها الشرقية الغالبة إذا ما أخضعناها للمقاييس الإنجليزية « لطيفة لها رنين موسيقى ولكن لا مغزى لها » ، ففيها العنف والوحشية وإلى جانبها شهامة الأساطير .

وفوق ذلك كله الوله والعشق والمجبون . وهذه جميعا ترى صورها عند الشعراء الذين ترجم الدارسون أشعارهم أو اقتبسها الكتاب . ولقد أتى على القارئ العادى حين من الدهر كان يتوق فيه إلى تعاطى نبيذ شيراز فلا يهدف إلى غيره . ولا تعرف بساتين الجنة التى يتخيلها إلا الورود والبلابل وقد انتثر فى أرضها جثث الحرائر والمحبين الوالهين . وهى حين لا يرتادها الناس تأوى إليها كائنات من عناصر أخرى .

وأول هذه المصنفات هو ذلك السفر الرائع الضخم الذى يعرف باسم «المكتبة الشرقية (١٦٩٧)» للعلامة الفرنسى دوهربيلو . فما تقلب صفحاته حتى يقفز إليك منها جيش من الكائنات النورانية ، فيها الأطياف الخيّرة اللطيفة تراها تحلّق فى هواء يعبّقه شذى العطر الذى يطعمونه ؛ وفيها الجن من عملة السحر والخراب التى تظهر أو تختفى لمجرد تحريك خاتم ، وفيها الشياطين الغواصون قباح الهيئة أهل الخبث والأذى ، وهم كائنات من الجحيم لكنهم غير محبوسين فيه ؛ فتراهم « يجوسون خلال الدنيا يبذرون بذور البؤس والخصام بين بنى آدم » وهم ، على حد قول المؤرخين ، على اتصال وثيق بنشأة الأسرة الحاكمة الفارسية الأسطورية ؛ ولعل هذا هو مردّ تعاقب ملوك هذه الأسرة فى إبهام مقرون بأسماء رنانة ذات ضجيج وعجيج . وهذه الكائنات المتلونيّة يمكن تتبعها على ، هدى دوهربيلو ، إلى بلادها « جنيستان » وهى أرض ترتكز على زمردة وتدور حول مركزها بحركة بطيئة تثير فى الهواء الزلازل والبراكين .

وغدت المكتبة الشرقية لدوهربيلو مرجعا يُستشهد به ، إذا صح لنا أن نطلق مثل هذا الوصف العام على مؤلَّف روائى كهذا . وأخذ أصحاب الخيال منذ مستهل القرن الثامن عشر يجدون جنتهم تتحقق فى المصدر الثانى الذى ذكرناه آنفا ، وهى تلك الحكايات التى أفلحت بها شهر زاد أن تثير حب الاستطلاع عند زوجها بما أبقى على رأسها فوق جسدها . وإنّك لترى فيها الأطياف والمَرَدة والسحرة ، الذين ورد

ذكرهم عند دوهربيلو ، وهم يعملون باستخدام الخواتم والمصابيح والسجاجيد والخيول المسحورة ليشقوا أرضا بلقعا خرابا عن قصور فخمة مسحورة ، ويبعثوا بالحطابين آمنين إلى ديارهم وسروجهم مملوءة بالذهب ، ويقرّبون المسافات والأبعاد للعشاق من أمراء فارس . وقد وُصِفَتْ هذه القصص بأنها « عربية » . ولئن شملت مسارحها ما بين بغداد وبلصفورة وما بين الحبشة ومشارف الصين . إلّا أن نشأتها الأولى كانت فى الامبراطورية الفارسية التى « كان سلطانها يمتد فوق القارات وجزر الهند .... وإلى الصين فى الغالب» والتى بلغ من عظم اتساع رقعتها أن كان فى مقدور ملوكها أن يهبوا مملكة التتار الكبرى ويجودوا بها ، على ما زيّن لهم خيالهم .

وغدت حكايات ألف ليلة وليلة تُقرأ فى القرن الثامن عشر بكل بيت ، حين لم تعد القراءة وامتلاك الكتب وقفا على علية القوم ، لنجد سوذاى عام ١٨١٠ يعترف بها من المصادر المفيدة . هذا كما كان كل من يتاح له قراءتها يرى فى نفسه أنه قد أضحى على علم بالعقيدة الإسلامية بالقدر الذى ييسر له فهم « الملحمة الهندية الطويلة : لعنة كهاما » بل والتعمق فيها والوقوف على مضمونها ومغزاها .

وهكذا ترى ألف ليلة وليلة وحكايات فارسية وأخرى شرقية فى عصر لم يكن يلقى إلّا بالا ضئيلا إلى التمييز بين العرب والفرس أو الترك والتتار على تباين أسمائهـــا . على أن دُنيا هذا القصص كانت ما تزال تتلألأ برّاقة فاتنة وراء الغيم الذى ما برح ربيم على « أبهة فارس البالغة » حتى رأينا كاتبا فى مجلة « الناقد البريطانى » يتساءل فى شك عام ١٧٩٧ عن إمكان الوصول بنجاح إلى الكشف عن الحقائق التاريخية الخالصة وسط « مثل هـــذه السخافات الكثيرة » و « القصص الموغل فى الخيال والوصف البالغ الشذوذ » .

ومما زاد الأمور تعقيدا أنه حين كان الأمر يتعلق بتاريخ فارس وآثارها وفنونها، كان يُطلب من القارىء العادى أن يتمثل الكثير منه فى عجلة كبيرة . على أن التصور

الملهم الخالص يمكنه أن يتمشى مع تقصّى الحقائق التاريخية العارضة التى يتضمنها الشعر. وهو فى مقدوره كذلك أن يجوس خلال مملكة الأساطير التى ذكرها المؤرخون القدامى (وقد أعيد نشرها فى القرن الثامن عشر) ، أو حدائق الورد الفخمة التى جرى ذكرها فى القصص الشرقى أو يتمثل الحدائق التى وصفتها كتب الرحلات والأسفار التى كان عددها يتضاعف بسرعة ، لاسيما ما ظهر منها فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، ويراها بعين الخيال آهلة بالناس . ولقد أفلحت التراجم واليوميات والمكتبة الشرقية وأحاديث المستكشفين فى إثارة الخيال المبدع بدورها ، وفق مشيئة الآلهة ، وأرسلت به إلى ماوراء الخيال ومايملق عادة به من صور لتبلغ به «عالم الوهم الذى لا شاطىء له» . ويبدو لنا ، على كل حال ، أن ما كان يدعو إليه أحد الصحفيين عام ١٧٩٧ ويندد به هو الحاجة فى الواقع إلى تنشيط الخيال المبدع عند القراء العاديين ، فلم يكن له أن يرجو عند جمهرة حديثى التعليم من الشعب إدراك الاستدلالات التى «تترسم الحقائق التاريخية» ليبنوا لأنفسهم ، من جديد ، من هيا كل الأوصاف المجردة أو خطوط رسوم المقابر ، ذلك التاريخ المذهل لإمبراطورية وُلدت فى ظل هوامش الزمن. فهاهم العلماء أنفسهم لم يصلوا بعد إلى الكشف عن غوامض النقوش المسمارية، وهاهو التعليم اليوم فى اتجاهه المتزايد نحو الشمول والعموم قد غدت عنايته بدراسات التخصص القديمة تقل بالتدريج .

ويمكننا عموما أن نلاحظ قبيل نهاية القرن التاسع عشر قدراً من التحول فى تصور العامة لبلاد فارس ، يشعر الإنسان به ويميزه ولكن قد لا يتيسر له الإفصاح عنه . فقد اختفت الصورة التى كانت قد أضفتها على «مملكة فارس الخيالية» بعض نواحى التوراة القديمة مختلطة بتقوى القرون الوسطى ليحل محلها صورة أخرى أكثر واقعية . كما أن الإشارات المضحكة التى كانت على مدى الزمن تتسرب مضطربة إلى مناظر العظمة والأبهة قد تكشفت بدورها عن مظاهر وعناصر من عناصر السخرية. ففارس ، كما

يتصورها أصحاب الخيال ، قد بدت جواهرها وعليها فى بعض الأحيان غيم يطمس بهرجها ؛ وموسيقاها التى كان فى مقدورها أن تخلب لب النـاس قد بدا وقعها أحيانا على الأذن ثقيـلا ؛ والسجاجيد السحرية غدت تحط بأمرائها على الأرض فى مشاهد دور التمثيل الإيمائى .

فمـا هى إذن تلك العوامل التى أدّت إلى مثل هذا التغيير . لقد كان أولهـــا ، على وجه اليقين ، ذلك القصص الشرقى الذى نددت به مجلة « الناقد البريطانى » ، ثم ظهور الـكيان السياسى لفارس ، كثمرة غـير شهية من ثمـــار القرن العشرين .

ولقد كانت الحـكايات فياضة كثيرة ، وإلى جانبها التراجم والاقتباسات ، إذ تسنى للقريحة المبدعة أن تدفع بالمدونات التاريخية وفنون الشرق بنصوصها الأصلية فى بوتقة ثم تجريهـــا فى أنبيق غامض ليقطر منه سحر جديد وفتنة . ومن هذا الضرب مثلا كتاب قبلاى خان لـكولردج . وهو طيف أمسك به فى لحظة خالدة قبل أن يهوى إلى أعماق الخيال الذى انبثق منه . ونظيره كذلك قصة الواثق لبكفورد فى عام ١٧٨٦ . فقصر الخلافة الفخم ذو الحواس الخمس الذى يرد ذكره فيها كان من قصور ألف ليلة وليلة ؛ والجبل ذو النافورات الأربع الذى كان يُحمل الواثق إليه لينعش نفسه بنسيمه العليل حين كانت تدهمه الحمى ، كان هو يقينا جبل الفردوس الذى تذكره مدوّنات القرون الوسطى التاريخية . وهو مكان جماله لا يرقى القلم إلى وصفه « يشرح الصدر ، بصفاء نسيمه العطر » على أن بكفورد ، وكان حديث العهد بالمخطوطات العربية والفارسية ، قد تأثر فى وصفه بالأحاسيس الشائعة فى الشعر الشرقى . ولقد أمدّته اطلاعاته بدورها بالحـكام المستبدين والعبيد وأصحاب الـكنوز والسحرة والعاشقين وأهل الطرب . على أن أشخاص القصة كانوا جميعاً من نسج خياله وحده ، وفيها تختلط الخرافة والخيال دون التفات إلى تأييد من الحقائق أو طلب لها . وهى تنطلق بهيجة زاهية بألوان

قوس قزح كفقــاعة من الصابون ، لولا أن بكفورد قد بدأ بالـكتابة بلغـة ڤولتير لتعانى فقاعته الدمار بين الفينة والفينة من وخزات بالغـة الهشاشة أو أشد صلابة . وماتبلغ القصة اللحظة التى تبدأ فيها الرحلة إلى قصر النار الخفية حتى يمتورها إلمـاع إلى حوادث أشد غموضا . فالأبواق التى تعلن الرحيل تختلط أصواتها مع « طنين تلك الحشرات الليلية النـكد الذى ينبئ بالشرّ » . وهاهى الهوادج المتألقة، وهى تصعد إلى القمر فى جهد ومشقة ، كأنهـــا نبت مخضل فوق صخور شبه كاسيّة وقد طواها الظلام والعواصف المخرّبة . ويزداد الحال تفاقما حين يترك الواثق مع ابنة فخر الدين ، التى يرتبط مصيرها بمصيره ، مباهج أرض ركنا باد من ورائهما . وإنهما ليترددان فترة قصيرة وقد استبد بهمـا القلق من فرط ماتثيره الأنغام ، المنبعثة من ناى أحد الرعاة ، من انفعالات فى نفسيهما . على أن طموحهما مايلبث أن يدفع بهما إلى غايتهما دفعا ، لينتهى المطاف بهما إلى أن ينزلا عن هودجيهما ، وقلباهما يخفقان ، عنـد منزل يؤدى إلى إيوان پرسپوليس ذى الأعمدة ، ومن فوقهما تحوّم طيور الليـل مولولة . ويجمـــد الدم فى العروق إذ يخيم على تلك المناطق سكون هو أشبه بسكون الموت ، فلا يقطعه إلا صفير الرياح وكأنه ينشأ من هبوبها على عظام نخرة وارتطامها بها .

ولئن كانت القصة فى أولها تذكرنا بحكايات ألف ليلة وليلة ، فختامها تغلب عليه عظمة ملتونية . ذلك أن هذين الإلفين البائسين ما يـكادان ينزلان إلى القصر الخفى حتى يجدا نفسيهما فى حضرة إبليس، بعَينه ، كبير الشياطين الذى يوسوس بصوته الحنون فى عنف بانطباعات النكد والـكبرياء واليأس التى ابتُلى بهـا إلى يوم الدين . وأثار ذلك كله غريزة حب الاستطلاع القاتلة عنـدهما ، فمضيا ذليلين بليدين ليندمجا آخر الأمر فى زمرة الذين أكلت السعير قلوبهم والذين قنطوا من رحمة الله .

وهكذا قد صاحَبْنا واثق فى رحلتــه مبعدين عن القصر ذى الحواس الخمسة ، وها هم أصحاب الخيال يتمثلون جنتهم ، فى نهاية القرن التاسع عشر ، رقيقة ، عاطرة ، شجية ، حتى إذا ما يطلع عليها سواهم فسوف لا يرى فيهــا إلا مظاهر الفخامة التى تثير السخرية والضحك إذ ليس لها من السمو نصيب .

وفى عام ١٨٠١ ظهرت قصة لسوذاى هى « طَلَبه المخرّب » . ولم يكن فيهــا من الشعور المرهف أو مظاهر الفخامة نصيب يذكر . وجرّدها من العذوبة والشجو أن صاحبها نظمها شعراً . أما محورها فـكان يدور حول الأمل ، وأما مجالها فـكان يقوم على المردة الشريرين الذين يقطنون تحت قاع البحر والذين يتكرر ذكرهم فى حكايات ألف ليلة وليــلة . وقد نسج سوذاى من ذلك كله قصة ذات مغزى دعمها فى عناية بالغة بالهوامش والشواهد التى قصد بها إلى تجلية الأوضاع الشرقية حتى ليعوز القارئَ عيناً بهلوانية ليتابعها . وهو بعدُ لـكثرتها تركبه الحيرة فلا يستطيع أن يطمئن إلى أن ما بين يديه هو قصة حقًّا أو موسوعة .

ولعل وجه الحق فيما صادف سوذاى من فشل هو أنه أثقل نفسه بالعمل إلى درجة غير مستساغة . فانظره حين يصف « اللوحات اللازردية » فى قصره الملـكى حيث يقول: « إن الزينــة ودقة الصنع هى من خصائص أعمال المستشرقين(١) عموما . فقد شاهدت مخطوطات فارسية مزينة برسوم قد استغرق العمل فى كل واحد منها سنين عدة فى الغالب . ولم تـكن كل صفحة منها تقوم على تمثيل الحياة والعادات بل كانت عموما مجرد محاكاة للخطوط والمنحنيات التى نراها فى السجاجيد التركية ، فلا تهدف إلى فـكرة معينة ، حتى لتبدو للعين مملة كوقع الشعر الغث على الأذن . ولم يكن القليل من آدابهم التى وصلت إلينا بأرفع شأنا كذلك من هذه النقوش » .

---

(١) عبر المؤلف هنا بكلمة Orientalists ولعله يريد Orientals. (المشاب)

كذلك نقع من جديد على هامش تافه عنـــد الموضع الذى تفتدى فيه الصبيّة حياة طَلَبه بحياتها حيث تخبر عن أبيها بأنه « قد استخبر النجوم فرأى الخطر يمثل فى مصيرى » ، وفيه ينبّه إلى أنه من المعروف مبلغ تعلّق الشرقيين بهذا العلم الباطل.

فآهاًلولائم قوبلاى خان الفخمة حيث الحـكماء والعرافون والمنجمون كانوا يجلسون حول السماط وأمامهم اسطرلاباتهم . ويا أسفا على تيمورلنگ الذى « نادراً ما كان ليخرج إلا بعد أن يحدّد له المنجمون ساعة السعد التى تناسبه فيمضى فيها » .

وما غمض على سوذاى بقدر نراه قد جُلِىّ فى « لا لارُخ » التى كتبها مور عام ١٨١٧م . ذلك أن هذا الأخير ، وقد كان على دقة سلفه ، شحذ همته أحد الناشرين حين عرض عليه ثلاثة آلاف من الجنيهات ، فراح يتجهز لعمله بالتنقيب فى مكتبات الفنون الشرقية . فكان كل شئ فى هـذه المرة « فى حركة دائمة ، والخواتم وريش الزينة واللآلئ » كان « بريقها يشع فى كل مكان». فهاهى ذى القصة الشرقية إذا ما يبتغيها الجمهور ، وهاهو النقاب من وشى الفضة يحجب من ورائه طلعة تبهر الأبصار ، وشناعات مدمرة لمدعى النبوة هى أكثر من أن تحمرلها وجنات العذارى خجلا ، وعيون تفيض بأشعة حالمة تلمع فى سحر وفتنة جارفة من وراء نقب الحريم الحريرية الرقيقة ، أو تسبى بدلالها الغامض الملتاع قلوب الشبان الشعراء ، والحوريات يرقصن فى ضوء القمر ، وقد نسجت أطيافها البيضاء بصيصاً من الضياء من خلال الورود المتشابكة ؛ فى حين ترى المردة والجن ، منهم من يشتغل بعمل الخير أو بارتكاب الشرور ، وشيوخ المجوس قد أخذوا يتسلقون حصونا منيعة من فرط ولهم بالصبايا المسلمات ، فكان القدر فى أعقابهم حتى هلكوا آخر الأمر فى النار عنصر عقيدتهم السامى ؛ وداومت البلابل على تغريدها ، والنافورات على رقصاتها ، والهواء مشبع أبدا بشذى الياسمين والمسك والورد ؛ وإلى جانب ذلك كله الرمان بشهده المذاب لفرط حلاوته . فكل ما هنالك شجى عبق فوّاح قد طغى عليه

السحر حتى خلب الألباب"، فتعلقت أبصار القوم به فى غمرة من البهجة لا يستطيعون عنه حولا . وهنا نترك الغيبيين ، يروون نهمهم من جنتهم هذه ، لنعود نشطين إلى حديث السخر من هذه الأشياء والهزء بها .

إن عنصر السخرية من الشرق الذى غدا واضحا فى تصور الجماهير لهذه البلاد فى القرن الثامن عشر قد ظهر أساسا أول ماظهر فى فرنسا مع ذيوع الأشياء الشرقية واشتهار أمرها . أما فى انجلترا فقد كان من أهم عوامل انتشاره التمثيل الهزلى والإيمائى ثم القصصى الذى كان يقتبس بين حين وآخر من حكايات ألف ليلة وليلة . هذا ولا يقرأ المرء ألف ليلة وليلة هذه إلا ويصادفه فيها دواما تلك الطبيعة الساذجة وما بها من سحر وأشباح هنا وهناك . فها هو السندباد البحرى يحرص كل الحرص على أن يلقى بعجلته فى مأمن من الطريق قبل أن يركب البحر إلى قصة مغامراته العجيبة . وها هم صناع الحلوى تراهم قد انقطعوا عن صنع فطائر الجبن ليضاجعوا ملكات الجمال. كما تبدو لك الصورة المختصرة لحياة علاء الدين الأولى مع أمه ، تلك الأرملة المضطربة البال المتعَبة ، حيّة براقة من بين الصفحات نظير صورة ذلك القصر الذى أتى إليه بابنة سلطان الصين . هذا كما ترى على بابا يكاد يقع فريسة فى أيدى اللصوص الناقمين عليه لولا ما كان من أخذه العصيدة معه فى رحلته وانطفاء المصباح والطاهى يمدّ هاله. وفى هذا كله مجال واسع لاستلهام المجون والسخر أفاد منه، أول من أفاد ، جريمالدى فى مستهل القرن التاسع عشر . ففى عام ١٨١٣، حيث غدا التمثيل الإيمائى من بين ضروب التسلية الشائعة بين النـــاس ، ظهر على مسرح كوفنت جاردن تمثيلية « علاء الدين أو المصباح العجيب » لتطلع النـاس على صورة جديدة للشرق فيها الشعوذة والمجون ، وبها القصور تسبح مضطربة فى الجو ، وثمار الجواهر تتساقط بين الفينة والفينة من أشجار الجنة فترتطم بالأرض فيكون لوقعها رنين .

وما كنا لننسى كذلك أن أوربا بعامة وبريطانيا بخاصة ، قد أخذت منذ النصف

الثانى من القرن الثامن عشر تراقب بعين يقظة مجرى الحوادث فى بلاد فارس . ولم يكن ما يجرى هناك ليغاير كثيرا فى أول الأمر الأحــداث المذكورة فى القصص الشرقى. فحين كان سلاطين الفرس يشتبكون فى حروب مع سلاطين الترك، أو ينقلبون فى فترات الهدنة المؤقتة إلى أتباعهم لينزلوا بهم العقاب ، كان الحاكم الشرقى المستبد يبدو فى كامل مظاهر العنف والقسوة ، العادية عنده ، التى تذكر عنه فى منشورات المخابرات الأجنبية بالمجلات الشهرية . وكانت السيدات فى بيوت الريف الإنجليزية حول المواقد وعلى المناسج يستهويهن الاستماع إلى كل ما يثير النفوس ، فى حين كان رب الأسرة يرى بدوره فى قراءته ماتورده صحيفة « جنتلمانز مجازين » من تهاويل ، فى صوت عالٍ ، ما يكفل له القضاء على كل ما يشعر به من سأم . فهو يقرأ لهن عن حاكم شيراز الثائر وكيف سُبِيَتْ نساؤه وأطيح برءوس أبنائه وخمسين من أتبــاعه أمام ناظريه ، ثم سُمِلت إحدى عينيه ، فسيق من بعد ذلك إلى الشاه فى فارس لتقدّ قطعة من لحمه حيا بكل مدينــة يمر بها فى طريقه . وهكذا نرى بلادا فريدة يحكم حكامها المستبدون ، فى وحشــية دون رقيب ، شعبا هو كما تصفه تلك الصحيفة « من أعظم أفراده إلى أدناهم يحرصون جميعا كل الحرص على ارتداء الملابس الصوفية ، حتى إنهم ليرفضون ارتداء الجوارب من أى نسيج غير الصوف ».

هذا وكان الخيال قد عاد يتمشى من جديد منتصف القرن الثامن عشر مع سليقة التجارة جنباً إلى جنب . ذلك أن التجار كانوا تواقين إلى الحصول على امتياز تجارة الحرير مع شمال فارس وتوريد الجوخ لكسوتهم عبر بلاد الروس وبحر قزوين . ولــكن كان من سوء الطالع أن قابلت روسيا هذه الفــكرة بفتور ثم ما لبثت أن ناوأتها فى العلن . فلم ير التجار البريطانيون بُدًّا من العدول عن هذا المشروع مكتفين بممارسة تجارتهم عن طريق الخليج الفارسى جنباً إلى جنب مع تجارات البلاد الأخرى التى تنافسهم هناك . وبرغم ذلك كله فقد أخذت تجارتهم مع هــذه البلاد تزداد .

وسرعان ماصار لفارس أهمية ملحوظة فى حلبة السياسة . وما لبثت روسيا وفرنسا وانجلترا ، الواحدة بعد الأخرى ، ترمقها بعين الطمع والحذر . وغدت كل واحدة من هذه الدول تتقدم إليها بالمساعدات، فى لطف ومودة ، لتعينها على إعادة تنظيم جيشها. فما إن أهل عام ١٨٠٩ حتى كانت أكثر من معاهدة محل مفاوضة معها . كما صار لبريطانيا فى طهران سفارة ، لتفد على عقبها بعثة حربية فتدرّب رجال المدفعية على استعمال الأسلحة البريطانية وتغريهم بإزالة الحاكم .

ومما هو جدير بالذكر من وجهة نظرنا ، ونحن نشخص إلى جنة زائلة ، أن مستهل القرن الثامن عشر قد شهد كذلك سفيرا فارسيا فى انجلترا ، وكان أول سفير لها هناك منذ أن أتى سيرروبرت شيرلى ومنافسه إلى بلاط شارل الأول ، إذا لم يخطئنا الظن . ففى نوفمبر من عام ١٨٠٩ وصل ميرزا أبو الحسن إلى لندن ، ليبرم معاهدة مع جورج الثالث وشركة الهند الشرقية ، فنزل فى واحدة من تلك الدور الرمادية الفخمة بشارع مانسفيلد . وكان وحاشيته أغلب الظن يثيرون فى تجوالهم فضول الناس بمظهرهم غير المألوف . وأتى السفير معه إلى الملكة بهدايا من العقاقير والشيلان والسجاجيد « وكل ما كان عجيباً وثمينا ببلاده » . أما أمير ويلز الذى استقبله بأبهة وترحيب فقد أهداه « نصف رطل من أفخر أنواع الطباق الممتاز » . وعاش السفير فى لندن عيشة رخيـة ، وكان له سلوك السادة النبـلاء بحق ، فتجول فى البلاد وغشى المجتمعات . وكان يتحدث إلى القوم فى صوت عال وإفاضة ، كما كان يجيب فى رقة ولطف وظرف على استفسارات السيدات العديدة وأسئلتهن . على أن رياضته قد أثارت بعض شعور الناس واستيائهم . فمن ذلك أنه كان يتلهى، حين يركب للتريض، بأن يأمر أحد أتباعه أن يسبقه بفرسه إلى مسافة ما ، ليركض فى أثره فيقذفه فى عدوه بما يشبه المزراق الذى إن أصاب الهدف وأحكمه رمى بقلنسوة التابع على الأرض ، وإلّا فالوخزة تصيب رأسه لا محالة . وقد حدث بالفعـل ذات مرة أن مزّقت إحـداها شِدق « الـكلب

الكسول الأخرق» وهتكته كله . ولقد كا يُسمح للسفير بممارسة مثل هذه التسلية في تجاوب وإدراك لولا ما كان من غضبه ذات يوم على أحد أتباعه وأمره بقتله ، فأُفهم عندئذ بعدم السماح له بذلك كله . ولعله قد تقبل الأمر بقبول حسن إذا صح ما نُشر منسوبا إليه بصحيفة المورننج پوست قبل سفره فى الصيف التالى ، وفيه يعبر عما تركه الشعب الإنجلزى فى نفسه من أثر . وقد كتب رسالته هذه إلى الصحيفة بالإنجليزية ، (التى كان قد تعلمها إبان إقامته هناك) ، وفيها يتضح مدى شغفه بعدم الالتفات إلى حروف الجر والعطف بل والى الأفعال كذلك حيث يقول :

« ملك إنجليزى أحسن رجل فى دنيا . هو يحب شعبه حسن جدا كثير . هذه بلاد طيبة جدا . سيدات انجليزيات لطيفات جدا وجميلات جدا »(١)

وعاد السفير إلى بلاده ومعه صناديق عديدة مليئة بالمرايا التى كان (قد اشتراها من ستراند ، وفى خاطره مشكلة واحدة على الأقل تشغل باله إذ لم يهتد إلى حلها ، وهى إصرار نبلاء الإنجليز ولورداتهم على الجلوس بظاهر عرباتهم حين يخرجون للنزهة وسيرهم بها على هذا الحال تحت المطر « فأنا أقول لماذا لا يدخل بها ؟ »

وباعد بين الغيبيين وجنتهم ما كان يُعرض بالأوبرا من مناظر استقبالات سفراء فارس وألوان المجون والهزل التى كانت تنطلق من الصناديق السحرية فى دور التمثيل المسرف فى الخيال ليلتقوا بها من جديد ، فى لاله رُخ ، كما ذكرنا من قبل بكل مالها من حلاوة مفرطة ومتعة قائمة . ولكنهم وهم منطلقون بين مروجها وأدغالها ، كان يسعى إلى جانبهم حية كان على فحيحها الشجى أن يسلبهم ذلك الشرق الساحر فى وهمهم ويتركهم فى مملكة أبناؤها من البرابرة المشردين الذين يشقون طريقهم من الحياة بالكذب والخداع ويتنقلون بين المهن فى استهتار بالغ ؛ فتجد الواحد منهم

---

(١) وهو لا يذكر فى الأصل الإنجليزى حتى صيغ الكينونة على الإطلاق أو أداة التعريف . (المترجم) .

فى يومه درويشا فإذا هو فى غده جلّاد وفى بعد غد دجال يدعى الطب . وهم فى الغالب جبناء يسارعون إلى المكر والخديعة والجدل ليفيدوا من تصاريف الزمن فى أدوار تقلبها جميعا ، ويسترقون السمع فى إغراء لا يقاوم . هذه الأفعى كانت قصة « حاجى بابا » التى كتبها موريير(١) . وهذا الكتاب هوالذى حل فى القرن التاسع عشر محل ماندڤيل ودو هربيليو وألف ليلة وليلة فى تكوير خيال العامة عن فارس .

ولعله كان مما لامناص منه أن يتابع بطل موريير حياته الخاملة فى محيط القصص والخرافات والعادات الاجتماعية والخصائص الفارسية ؛ إذ كان ثمة عصر تمثيل وتطوّرٍ قد بدأ ، وطفقت بهجة القصة تمـــد بمثابة مقدّمة للانفعال بالحقائق ، حتى صار الأطفال أنفسهم يوجهون بدورهم فى عناية مبعدين بينهم وبين الأوهام الشعرية الجميلة . كما شغف الفكتوريون بدورهم بالاشتغال بالعلم والثقافة . وصار الاهتمام بأمر الثقافة الفارسية بالغا ومثيرا إذ كانت الدراسات الشرقية فى تقدم مطرد . وسرعان ما أخذت مقابر پرسپوليس تلفظ أسرارها «فداريوس الملك ابن گشتاسب» و«خشيارشاى الملك بن داريوس » قد تبوّءا مكانهما فى مجرى التاريخ إلى جانب فريدون والفردوسى والحكام الذين يلهون بين الورود فى المخطوطات التى سخر منها سوذاى . هذا كما غدت أكداس الفخار والآجُر تصل تباعا من مواضع الحفريات فتعرض فى المتاحف أو تصوّر فى الصحف . فأفلحت وما أُلحق بهامن شروح وإيضاحات فى تأليف الناس على فنون وحضارةٍ وافدة من عالم كانوا ينفرون منه ، وغدت تزداد تقربا إلى نفوسهم يوما عن يوم . وهكذا أخذت هذه المملكة الغامضة تنكشف الحجب عنها ، وأمكن إيجاد ثمة توافق وتطابق بين عادات الشرقيين السائدة كما ذكرها موريير وكتابات الكتاب ، المجدّفين منهم والمؤمنين ، يؤدى إلى تجلية التاريخ القديم وأسفار الكتب المقدّسة نفسها .

---

(١) هو كتاب مغامرات حاجى بابا الأصفهانى لجيمس موريير الذى ظهر عام ١٨٢٤ وطبع طبعات عدة بعد ذلك . وقد كان مؤلفه سكرتيرا للمفوضية البريطانية بطهران .

وهكذا وجدنا عسكريين ودبلوماتيين وأثريين ومبشرين يزورون فارس وينشرون على الناس ، عند أوبتهم منها ، أبحاثا موثقة عن نباتات هذه البلاد وحيواناتها وطقوسها الدينية ، وعن صور التعايش والحياة اليومية بها ونظم الضرائب والتعليم ، أو طريقة قيد الخيول من أرجلها بالإصطبل . هذا كما كان لهم كذلك مشاركة فى كتابة القصص ، فظهر إنتاج جانبي منها يمكننا من حيث النمط أن نسلكه جميعا تحت عنوان « حكايات كروانسراى »(١) . وهى قصص تقوم حوادثها على الواقع أصلا وتعرض خليطا مهذبا من الأخبار والمغامرات .

على أن ذلك كله كان له شواذ واستثناءات عارضة . فقد طلع ا. مرديث على الناس عام ١٨٥٥ بقصة عربية « طرائف » . أوحى إليه بها قراءاته القليلة فى صغره (مثل فيتزجرالد) وتصوره الصبيانى الضئيل الحلو لدنيا الشرق . وكان قوامها عناصر مألوفة مع عذوبة غناء فى تألق . ولكن الحياة عام ١٨٥٥ كانت قد غدت توغل فى الواقعية حتى أضحت سوق الخلفاء والجن والعشاق وكل أدوات الخيال الشرقية فى طريقها إلى الزوال . بل إنّا لا نعدو الحق حين نقول بأن انطواء القصة المستمر قد صار له الآن ذاتية واهنة . وخيّم النسيان على قصة « قص الغدائر » . وصادفت نفس المصير بعد سنوات قليلة ، رباعيات الخيّام التى كان فيتزجرالد قد نشرها بالإنجليزية ، لنرى من بعد ذلك أن عجلة الحظ، مع مرور الزمن ، قد ترتد إلى الوراء فى شكل تمثيلى . وجاء اليوم الذى أخذت فيه الصورة ، التى رسمها للشرق ماندفيل ودوهر بيلو وألف ليلة وليلة وحاجى بابا ، تذوى ، كما أخذت أضواء برسبوليس وشوش وأمجادها فى الكسوف بدورها . بل إن فارس بوصفها مشكلة سياسية شغلت الأذهان أواخر القرن التاسع عشر قد أهمل شأنها . حتى ظهرت الطبعات المتلاحقة للرباعيات لتنقل تأملات الشاعر الفارسى المنجم الساخرة عند شرابه ، إلى ألبومات الأتوجراف ذات الأوراق الزرقاء أو القرمزية أو البنفسجية ، فطغت على ذلك كلّه . ومضت هذه الشهرة بدورها لتترك

(١) مؤلف الكتاب الذى يحمل هذا العنوان هو جيمس بابلى فريزر، وقد نشر عام ١٨٣٣

من ورائها، ظلما ، صورة للشرق مزيفة تُرهق فيها البلابل لسنين عدة بالشدو الكثير، والأيادى الشاحبة تتنقل بالبراعم والورود إلى آنيتها بصالات الرسم الادواردية .

إن هذه البلاد ، التى نُسج عنها الكثير من الأخيلة والأوهام ، أتراها اليوم وقد أمعنت صورتها فى البعد عن تصورنا وأذهاننا أم ازدادت منها قربا . وهل اندثر ذلك السحر الكثير الذى أضفاه القصص عليها أم ازداد ازدهاراً وبريقا . فهذه قبابها الذهبية قد غشيها وقتا ما غشاء لزج، ومع هذا كله فما تزال هناك لحظات يهدأ بال القرن العشرين فيها ، ولعلها تكون فى اكسفورد حيث ازدهرت الدراسات الشرقية فى وقت مبكر فى أرض خصبة بالقصص والخرافات . فهناك تنطلق أغاريد الشحرور فى سماء المساء من خلال براعم القسطل السوداء المتألقة فى الفضاء ، وتحت أقدامنا الأرض وقد رُصفت بحجارة تزدهى بألوانها كأنما قد فرشت بأبهى سجادة سحرية بالغة البهاء . وها نحن نجلس القرفصاء فى جلسة طبيعية، وفق رسوم الفرس ، ونرد التحيات الوقورة الرقيقة التى يوجهها إلينا ذلك الأمير الجالس إلى يميننا وعليه عمامة مزدانة بالريش ؛ وقد جلس إلى يسارنا ذلك الشاعر المنتفخ الأوداج . ونحن ندرك أن منجّمنا هو ممن يؤكدون لنا أن حسن الطالع والنجوم فى ركابنا ، ولا نلقى بالا إلى ذلك الموسيقىّ النحيل الهزيل . ثم تبدأ الرحلة ، فنُصعّد فى الهواء فوق مكتبة بودليان لنحلق فى الجو مندفعين فوق لندن، حيث كانت توضع الخطط لرحلة بحرية جديدة عجيبة ، ثم نحوّم فوق الخلجان وجزائر البندقية التى لا تصل إليها السفن الكبيرة ونتابع الرحيل شرقا إلى مشارف سيحون ، بين رفع وخفض ، حتى نجد مملكة الفرس الخيالية « وقد احتوتها سحابة متألقة» .

وهنالك خرج القوم لاستقبالنا بطبول البشر والسرور ومعهم القيان والمشعوذون .

SELECT BIBLIOGRAPHY

Most of the books listed below contain more or less extensive special bibliographies, to which the reader is referred for further information.

ARBERRY, A. J. *Sufism*. London, 1950.
BINYON, L. (with B. GRAY and J. V. S. WILKINSON). *Persian Miniature Painting*. Oxford, 1933.
BROWN, P. *Indian Architecture (The Islamic Period)*. Bombay, 1943.
BROWNE, E. G. *A Literary History of Persia*. 4 vols. 2nd ed. Cambridge, 1928.
—— *Arabian Medicine*. Cambridge, 1921.
CHRISTENSEN, A. *L'Iran sous les Sassanides*. 2nd ed. Copenhagen, 1944.
CORBIN, H. (and others). *Les Arts de l'Iran*. Paris, 1938.
ELGOOD, C. *History of Persian Medicine*. New York, 1935.
FRANKFORT, H. (and others). *Intellectual Adventure of Ancient Man*. Chicago, 1946.
GIBB, H. A. R. *Mohammedanism*. Oxford, 1949.
GLOVER, T. R. *From Pericles to Philip*. London, 1919.
HAAS, W. S. *Iran*. New York, 1946.
HERZFELD, E. *Archaeological History of Iran*. London, 1935.
—— *Iran in the Ancient East*. London, 1941.
HUART, C. *La Perse antique*. Paris, 1925.
JACKSON, A. V. W. *Zoroastrian Studies*. New York, 1928.
KUEHNEL, E. *Die Islamische Baukunst*. Leipzig, 1928.
LAURENT, J. *Byzance et les Seljoucides*. Nancy, 1913.
The Legacy of Islam (ed. SIR T. W. ARNOLD and A. GUILLAUME). Oxford, 1931.
OLMSTEAD, A. E. *History of the Persian Empire*. Chicago, 1948.
POPE, A. U. (ed.). *A Survey of Persian Art*. 6 vols. Oxford, 1939.
ROSTOVTZEFF, M. *Iranians and Greeks in South Russia*. Oxford, 1922.
SARTON, G. *Introduction to the History of Science*. Baltimore, 1927.
STEIN, SIR A. *Innermost Asia*. 2 vols. Oxford, 1932.
STOREY, C. A. *Persian Literature*. In progress. London, 1927–.
SYKES, SIR P. M. *History of Persia*. 2 vols. 3rd ed. London, 1930.
TARN, W. W. *Alexander the Great*. Cambridge, 1948.
TRITTON, A. S. *Muslim Theology*. London, 1947.
VASILIEV, A. A. *Byzance et les Arabes*. Brussels, 1935.
WILSON, SIR A. T. *A Bibliography of Persia*. Oxford, 1930.

مراجع عربية وفارسية :

الآثار الباقية عن القرون الخالية لأبي الريحان البيروني ليدن ١٨٨٧ م

الأخبار الطوال للدينوري ليدن ١٨٨٨ م

إخبار العلماء بأخبار الحكماء للقفطي

إيران في عهد الساسانيين لكريستنسن الترجمة العربية ليحيي الخشاب القاهرة ١٩٥٧

تاريخ الأمم والملوك للطبري

التنبيه والإشراف للمسعودي

چهار مقاله لنظامي عروضي سمرقندي الترجمة العربية لعزام والخشاب القاهرة ١٩٤٨

ديوان منوچهري نشر وترجمة كازيمرسكي باريس ١٨٨٦

رباعيات الخيام الترجمة العربية لأحمد رامي القاهرة

سفرنامه لناصر خسرو الترجمة العربية ليحيي الخشاب « ١٩٤٥

الشاهنامه للفردوسي الترجمة العربية للبنداري. نشر عبدالوهاب عزام « ١٩٣٢

عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة نشر ابن الطحّان القاهرة ١٨٨٢

عيون الأخبار لابن قتيبة القاهرة ١٩٢٠

الفهرست لابن النديم

كتاب تنسر الترجمة العربية ليحيي الخشاب القاهرة ١٩٥٤

الملل والنحل للشهرستاني

جدول مسلسل للحوادث التاريخية

الميديون

ق . م	
٧٠٨	دياأوكو يؤسس الإمبراطورية الميدية .
٦٥٥	ولاية فرورتيش.
٦٣٣	ولاية هووَخْ شتَر . الغزو السيثى .
٦٢٥	وفاة أشور بانيبال .
٦٠٦	سقوط نينوى .
٥٨٤	وفاة هووخشتر (Cyaxare) .
٥٥٨	ارتقاء قورش عرش أنزان .
٥٥٠	قورش يهزم استياجس ويستولى على إكبتانا . [همدان]

الأكمينيون

٥٤٦	قورش الأول ينادى بنفسه ملكا على فارس .
	هزيمة كرزوس وسقوط سارد .
٥٣٩	سقوط بابل .
٥٣٨	تتويج قورش الأول ملكا على بابل .
٥٣٦	تجديد معبد أورشليم .
٥٢٩	وفاة قورش الأول . ولاية قمبيز (كمبوجيه)
٥٢٨	فتح مصر .

٥٢١ ثورة جوماتا . وفاة قمبيز . ولاية دارا الأول . (دارا وهش)

٤٩٩ـ٩٤ الثورة الأيونية .

٤٩٠ واقعة ماراثن .

٤٨٦ وفاة دارا الأول . ولاية خشيارشاى الأول .

٤٨٠ واقعة سلاميس .

٤٦٦ ولاية أردشير الأول . (ارتخشتر)

٤٦٢ ثورة هستاسپ . (گشتاسپ ؟)

٤٥٥ ثورة مصر .

٤٢٤ ولاية خشيارشاى الثانى . ولاية دارا الثانى .

٤٠٥ ثورة مصر .

٤٠٤ ولاية أردشير الثانى .

٤٠١ واقعة كوناكسا . تقهقر العشرة آلاف .

٣٨٧ صلح انتلسيداس .

٣٥٨ ولاية دارا الثالث . مقتل فيليپ المقدونى .

٣٣٤ غزو الإسكندر الأكبر آسيا .

٣٣٣ واقعة إيسوس .

٣٣٣ واقعة أربلا .

٣٣٠ مقتل دارا الثالث . استيلاء الإسكندر على إكبتانا .
نهاية الأكمينيين .

٣٢٧ غزو الإسكندر الهند .

٣٢٣ وفاة الإسكندر .

السلوكيّون

٣٢٠ ظهور سلوكس الأول نيكاتور .

٣٠١ واقعة إبسوس . سيادة سلوكس .

٢٨١ ولاية انتيوخُس الأول سوتر .

٢٦٢ ولاية انتيوخُس الثانى ثيوس .

٢٦١ استقلال بقطريا [بلخ] .

البرت

٢٥٠ أرشك الأول يقيم دولة البرت .

٢٤٧ ولاية أرشك الثانى .

٢٢٣ ولاية انتيوخُس الثالث .

٢١٤ ولاية أرشك الثالث .

١٩٠ واقعة مغنيسية .

١٨٨ صلح أپاميا . ولاية سلوكس الرابع .

١٧٥ ولاية انتيوخس الرابع .

١٧٠ ولاية مهرداد الأول البرتى .

١٦٨ انتيوخُس يجلو عن مصر .

١٦٤ وفاة انتيوخُس الرابع .

١٦٢ ولاية ديمتريوس سوتر . سقوط السلوكيين .

١٣٨ وفاة مهرداد الأول . ولاية فرهاد الثانى .

١٢٩ هزيمة انتيوخُس سيدتس (السادس) .

١٢٤ ولاية مهرداد الثانى البرتى .

١٢٠ قيام دولة مهرداد السادس البُنتى .

٨٦	هزيمة سولا لمهرداد السادس .
٦٩	ولاية فرهاد الثالث البرتى .
٦٧ـ٦٣	حروب پمپى مع مهرداد السادس .
٦٣	وفاة مهرداد السادس البُنتى .
٦٠	ولاية مهرداد الثالث البرتى .
٥٣	كرزوس يغزو پرتيا . معركة كرخ .
٥١	الغزو البرتى لسوريا .
٤٨	واقعة فرساليه .
٤٧	هزيمة يوليوس قيصر لفرناسس البُنتى عند زيلة .
٤٤	مقتل يوليوس قيصر .
٤٢	واقعة فيليپى .
٣٧	ولاية فرهاد الرابع البرتى .
٣٦	رحلة مارك انتونى إلى پرتيا .
٣٣	ثورة تيرداد . هروب فرهاد الرابع .
٣٠	عودة فرهاد الرابع . هرب تيرداد إلى أكتافيان .
٣٠	استرداد البنود الرومانية . جلوس تيجران على عرش أرمينية .
٢	مقتل فرهاد الرابع .

ميلادى

١	معاهدة فرهاد مع روما . انسحاب البرت من أرمينية .
١٨	چرمنكوس ينادى بأرتكسياس ملكا على أرمينية .
٣٤	أردوان البرتى يقلد أرشك عرش أرمينية .
٣٥	مقتل أرشك .
٣٧	أردوان يُسلّم أرمينية ويصالح تيبيريوس .

٤٠ وفاة أردوان .

٥١ فلوجاسير يغزو أرمينية .

٦٦ نيرون ينادى بتيرداد ملكا على أرمينية .

٧٧ وفاة فلوجاسيز . ولاية پاكورُس .

١٠٥ ولاية أُسرو .

١١٤ بداية فتوح تراجان الشرقية .

١١٥ استيلاء تراجان على أرض الجزيرة .

١١٧ وفاة تراجان . انسحاب هدريان من أرمينية وأرض الجزيرة .

١٢٢ الصلح بين الپرت وروما .

١٣٣ غارة ألانى .

١٤٨ ولاية فلوجاسيز الثالث .

١٦٣ اڤيديوس كاسيوس يهزم الپرت .

١٩١ وفاة فلوجاسيز الثالث .

١٩٩ سڤيرس ينتهب تسيفون [المدائن] .

٢١٧ وفاة كركلا . الصلح بين الپرت وروما .

٢٢٠ ثورة أردشير .

٢٢٦ هزيمة أردوان ووفاته . نهاية الدور الپرتى .

الدولة الساسانية

٢٢٦ أردشير الأول ينادى بنفسه ملكا على فارس .

٢٣٢ أردشير يعقد الصلح مع روما . ضم أرمينية .

٢٤١ ولاية سابور [شاپور] الأول . غزو سورية .

٢٦٠ أسر الإمبراطور والرين .

٢٦٣ أذينه يهزم سابور .

٢٧٢ ولاية هرمزد الأول .

٢٧٣ ولاية بهرام الأول . إعدام مانى .

٢٧٦ ولاية بهرام الثانى .

٢٨٣ كاروس يستولى على المدائن ، ويموت فجأة .

٢٨٦ تيرداد يستحوذ على أرمينية .

٢٩٣ ولاية بهرام الثالث . ولاية نرسيس .

٢٩٧ جاليريوس يهزم نرسيس ـ إخلاء الولايات فيما وراء دجلة .

٣٠٢ ولاية هرمزد الثانى .

٣٠٩ ولاية سابور الثانى .

٣٣٨ سابور الثانى يحاصر نصيبين .

٣٤٨ سابور الثانى يغزو الجزيرة .

٣٦٣ حرب جوليان مع فارس . تراجعه وموته . استرداد فارس للولايات التى كانت قد أخلتها مع نصيبين .

٣٧٦ الصلح بين روما وفارس .

٣٧٩ موت سابور الثانى . ولاية أردشير الثانى .

٣٨٣ ولاية سابور الثالث .

٣٨٨ ولاية بهرام الرابع .

٣٩٩ ولاية يزدگرد الأول .

٤١٠ مجمع سلوقية .

٤٢٠ ولاية بهرام الخامس (بهرام گور) .

٤٢١ إبرام الصلح مع روما .

٤٢٥ بدء غارات الهون البيض .

٤٣٨ ولاية يزدگرد الثانى .

٤٥٥ الوندال ينهبون روما .

٤٥٧ ولاية هرمزد الثالث .

٤٥٩ ولاية فيروز .

٤٨٣ هزيمة الهون البيض لفيروز . ولاية فلوجاسيز .

٤٨٨ ولاية قباد . الحرب مع الخزر . ظهور مزدك .

٤٨٨ عزل جاماسب لقباد .

٥٠١ استرداد قباد لعرشه .

٥١٣ نهاية غارات الهون البيض .

٥٢٤ الحرب مع بيزنطة .

٥٢٧ ولاية جُستنيان .

٥٢٩ جستنيان يغلق مدارس أثينا . التجاء علماء اليونان إلى فارس .

٥٣١ ولاية كسرى الأول (أنو شروان) . إعدام مزدك .

٥٣٣ الصلح مع بيزنطة . جستنيان يعيد فتح شمال إفريقية وإيطاليا .

٥٤٠ أنوشروان ينتهب أنطاكية .

٥٦٢ صلح جديد مع بيزنطه .

٥٦٥ موت جُستنيان .

٥٧٠ (تقريبا) فتح اليمن . مولد محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

٥٧٨ موت أنوشروان ـ ولاية هرمزد الرابع .

٥٩٠ ولاية كسرى الثانى (پرويز) . ثورة بهرام چوبين .

٥٩١ هزيمة بهرام چوبين وموته .

٦٠٣ الحرب بين فارس وبيزنطة .

٦١٠ ولاية هرقل .

٦١٤ پرويز يستولى على دمشق وبيت المقدس . اختطاف الصليب الحقيقى .

٦١٧ پرويز يستولى على كالسدون .

٦٢٢ هرقل يهزم الفرس . الهجرة النبوية .

٦٢٧ غارات هرقل على دستكرد .

٦٢٨ خلع پرويز ووفاته . ولاية قباد الثانى . بداية الفوضى فى فارس .

٦٣٢ ولاية يزدكرد الثالث . وفاة النبىّ عليه الصلاة والسلام .

٦٣٥ استيلاء العرب على دمشق .

٦٣٦ هزيمة الفرس عند القادسية .

٦٣٧ استيلاء العرب على المدائن .

٦٤٢ هزيمة الفرس عند نهاوند . ضم فارس إلى الإمبراطورية العربية .

٦٥١ وفاة يزدگرد الثالث .

الحكم العربى

٧٤٧ دعوة أبى مسلم للعباسيين فى خراسان .

٧٥٠ نهاية الأمويين . قيام الخلافة العباسية .

٧٦٥ تولية خالد البرمكى إمارة طبرستان .

٧٨٦ خلافة هارون الرشيد .

٨٠٣ سقوط البرامكة .

٨١٣ خلافة المأمون .

الدويلات الفارسية

٨٢٠ تولية طاهر حكومة خراسان. تأسيسه الدولة الطاهرية .

٨٧٢ قضاء يعقوب بن الليث على الطاهريين وتأسيسه الدولة الصفّارية .

٨٧٨ ولاية عمرو بن الليث .

٩٠٣ إسماعيل بن أحمد ينتزع خراسان من الصفاريين . قيام الدولة السامانية.

٩١٣ ولاية نصر الثانى بن أحمد .

٩٢٨ قيام الدولة الزيارية فى جُرجان .

٩٤٥ الخليفة المستكفى يقر الولاة البُوَيهيين على إمارتهم .

٩٧٦ ولاية قابوس الزيارى .

٩٩٩ محمود الغزنوى يقضى على السامانيين ويؤسس الدولة الغزنوية .

١٠٠١ محمود يبدأ غزواته فى الهند .

١٠٠٧ قيام دولة بنى كاكويه فى همدان وإصفهان .

١٠٣٠ وفاة محمود [الغزنوى] .

١٠٣٧ ظهور السلاجقة بزعامة طغرل .

١٠٤٢ قضاء الغزنويين على الزياريين .

١٠٥١ طغرل يقضى على آل كاكويه .

١٠٥٥ طغرل ينهى حكم البويهيين .

١٠٧٢ ولاية ملكشاه السلجوقى .

١٠٩٢ مقتل نظام الملك . وفاة ملكشاه .

١١١٧ ولاية سنجر .

١١٣٦ قيام دولة أتابكة آذربيجان .

١١٤٨ قيام دولة أتابكة فارس (السلغوريون) .

١١٥٧ وفاة سنجر ـ نهاية حكم السلاجقة في فارس. ظهور الخوارزمشاهية.

١١٧٢ ولاية تُكُش .

١١٩٩ ولاية علاء الدين محمود .

١٢٢٠ ولاية جلال الدين منكبرتي . ظهور المغول لأول مرة في فارس .

١٢٢٥ القضاء على أتابكة آذربيجان .

١٢٢٧ وفاة جنكيز خان .

١٢٣١ القضاء على الخوارزمشاهية .

دور الإيلخانيين والتيموريين

١٢٥٦ هولاكو خان ينصب إيلخانا على فارس .

١٢٥٨ تخريب المغول لبغداد . نهاية الخلافة العباسية .

١٢٦٥ آباقا يُنصب إيلخانا .

١٢٨٤ ولاية أرغون .

١٢٨٧ القضاء على دولة السلغوريين .

١٢٩٥ ولاية غازان محمود .

١٣٠٤ ولاية ألجايتو .

١٣١٣ قيام دولة بني المظفر في فارس بزعامة مبارز الدين .

١٣١٦ ولاية أبي سعيد .

١٣٣٥ مولد تيمور لنك .

١٣٣٦ إقامة دولة الجلائريين بزعامة الشيخ حسن بُزُرْك .

١٣٣٧ إقامة دولة آل سربدار في خراسان .

١٣٥٦ ولاية الشيخ عويس الجلائري .

١٣٥٧ ولاية شاه شجاع المظفرى .

١٣٨٢ ولاية السلطان أحمد الجلائرى . تيمور يقضى على آل سربدار .

١٣٩٣ تيمور يقضى على آل المظفر ويطرد آل جلائر من بغداد .

١٣٩٧ غزو تيمور الهند .

١٤٠٢ أسر تيمور السلطان بايزيد .

١٤٠٥ وفاة تيمور ــ ولاية شاهرُخ .

١٤٤٧ ولاية أُلُغ بك .

١٤٥٢ ولاية أبى سعيد التيمورى .

١٤٦٦ ولاية أوزون حسن ، من قبيلة آق قوينلو ، فى آذربيجان .

١٤٦٩ أوزون حسن يقضى على تركمان قرا قوينلو .

١٥٠٠ هزيمة التيموريين . قيام دولة بنى شيبان [الأُوزبكى] ببلاد ماوراء النهر .

الصفويّون

١٥٠٢ إسماعيل الأول يقيم الدولة الصفوية ، بعد أن يهزم تركمان آق قوينلو .

١٥١٤ واقعة چالدران . هزيمة سليم الأول لإسماعيل .

١٥٢٤ ولاية طهماسب الأول .

١٥٢٤ غزو سليمان القانونى فارس .

١٥٤٤ التجاء السلطان المغولى همايون إلى فارس .

١٥٥٩ بلوغ انتونى جنكينسون مدينة بخارى .

١٥٧٦ ولاية إسماعيل الثانى .

١٥٧٨ ولاية محمد خدا بنده .

١٥٨٧ ولاية الشاه عباس الأول (الأكبر) . الترك يغزون فارس .

١٥٩٨ قدوم إخوان شيرلى إلى فارس .

١٦١٨	الصلح بين فارس وتركيا .
١٦٢٢	طرد البرتغاليين من هُرمز .
١٦٢٧	سفارة سير دودمور كوتُن إلى الشاه عباس .
١٦٢٩	وفاة الشاه عباس الأول . ولاية صفى الأول .
١٦٣٠	استيلاء الترك على همدان .
١٦٤٢	ولاية عباس الثانى .
١٦٦٤	أول سفارة روسية إلى فارس .
١٦٦٧	ولاية سليمان الأول .
١٦٩٤	ولاية حسين .
١٧٠٨	سفارة بطرس الأكبر الأولى إلى فارس .
١٧١٥	سفارة بطرس الأكبر الثانية .
١٧٢٢	الأفغان يستولون على إصفهان بقيادة محمود . بطرس الأكبر يحتل دربند . ولاية طهماسب الثانى .
١٧٢٣	الروس يحتلون رشت وباكو .
١٧٢٤	محمود يستولى على شيراز . مذبحة الأمراء الصفويين .
١٧٢٥	وفاة محمود . استيلاء الترك على شيراز . ولاية أشرف الأفغانى .
١٧٢٧	نادر قُلى يلتحق ببلاط طهماسب الثانى .
١٧٢٩	هزيمة الأفغان . الجلاء عن إصفهان .
١٧٣٠	وفاة أشرف .
١٧٣٢	نادر قُلى يخلع طهماسب الثانى . معاهدة رشت . ولاية عباس الثالث.
١٧٣٥	نادر قُلى يسترد باكو ودربند .
١٧٣٦	وفاة عباس الثالث . نهاية الصفويين .

الأفشار

١٧٣٦ نادر قُلى ينادى بنفسه شاها على فارس .

١٧٣٨ نادر شاه يغزو الهند وينتهب دهلى .

١٧٤٠ نادر شاه يفتح بخارى وخيوه .

١٧٤٧ مقتل نادر شاه . ولاية عادل .

١٧٤٨ ولاية شاهرُخ الأفشارى .

الزِّند

١٧٥٠ كريم خان يحتل جنوب فارس .

١٧٦٣ إقامة مصنع إنجليزى فى بوشير .

١٧٧٩ ولاية على مراد .

١٧٨٥ ولاية جعفر .

١٧٨٩ ولاية لطف على .

١٧٩٤ أقا محمد قاجار يهزم لُطف على ويقتله . نهاية دولة الزند .

آل قاجار

١٧٩٥ أقا محمد يغزو جورجيا . الاستيلاء على تفليس وأريڤان .

١٧٩٦ تتويج أقا محمد .

١٧٩٧ مقتل أقا محمد . ولاية فتح على .

١٨٠٠ بعثة ملكولم الأولى إلى فارس .

١٨٠٨ بعثة سير هارفورد جونز .

١٨١٢ معاهدة گُلستان . فارس تتنازل لروسيا عن مساحات واسعة من أراضيها .

١٨٢٧ روسيا تستولى على تبريز .

١٨٢٨ معاهدة تركانچاى .

١٨٣٤ ولاية محمد شاه .

١٨٣٨ ولاية ناصر الدين .

١٨٥٠ إعدام الباب .

١٨٦٥ استيلاء الروس على طشقند .

١٨٦٨ احتلال الروس لسمرقند .

١٨٧٣ فتح الروس لخيوه .

١٨٧٦ ضم الروس خُجند .

١٨٨١ هزيمة الروس للتركمان .

١٧٩٦ اغتيال نادر شاه . ولاية مظفر الدين .

١٩٠٦ إعلان الدستور الفارسى . وفاة مظفر الدين .

١٩٠٧ ولاية محمد على شاه . تعطيل الدستور . الاتفاق الإنجليزى الروسى .

١٩٠٨ النهضة القومية .

١٩٠٩ تنازل محمد على شاه . ولاية السلطان أحمد شاه .

١٩١٩ الاتفاق الإنجليزى الفارسى .

١٩٢٣ تولى رضا خان رئاسة الوزارة ــ السلطان أحمدشاه يغادر البلاد إلى أوروبا .

١٩٢٤ قيام الجمهورية فى فارس برئاسة رضا شاه . نهاية آل قاجار .

الدولة البهلوية

١٩٢٥ المناداة برضا خان شاها باسم رضا پهلوى .

١٩٤١ تنازل رضا شاه . ولاية محمد رضا شاه .

اللوحات وبيانها

فارس والعالم القديم

فارس وبيزنطة

مع تعليقات على الصور

لوحة ٩

ا ــ فسيفساء بيزنطى . سان ڤيتالى فى راڤنّا . يمثل تيودورا وحاشيتها . من تصوير أكينارى . أمام ص ٦٤

ثياب الإمبراطورة من طراز شرقى واضح يتجلى بوجه خاص فى الولع بالتجميل واتخاذ الحلى . وعقد الإمبراطورة من طراز نجد له نظيراً فى آثار الفرس الفنية السابقة على ذلك التاريخ . وإن أكثر ما يلفت النظر بصلته بالطابع الفارسى تاجها. فإن النتوءين الصغيرين على كل من جانبيه ، وكذلك النتوء المقوس فى وسطه ، تصور بأسلوب محور الجناحين وغيرهما من الحليات التى تجلت فى التيجان الفارسية الأصيلة ، كما تبدو لنا على قطع النقود والأطباق الفضية والنقوش البارزة على الصخور . ويمكن أن نقارن بهذه الفسيفساء التمثال الصغير المصور فى لوحة ١٠ (ا) ، وكذلك الطبق

ب ــ فسيفساء بيزنطى . سان ڤيتالى ، راڤنّا . جستنيان وحاشيته . تصوير أندرسن .

إن النعلين الرقيقين المصنوعين من الجلد الأحمر اللذين يرتديهما الإمبراطور منقولان عن النعال التى كانت معتادة فى فارس الساسانية. ويمكن أن يقارن بهما هذان النعلان اللذان يلبسهما كسرى الثانى إلى أسفل سرواله الطويل وهما منقوشان على الطبق الفضى .

الفضى فى لوحة ٨ .

لوحة ١٠

ا ــ تمثال برنزى لراكب على ظهر جواد . من الفن الساسانى المتأخر . محفوظ بمتحف Hermitage Museum بلننجراد . « « ٦٥

ب ـ طبق محلى بالخط الكوفى . وهو من الآنية ذات الألوان المتعددة . بيزنطى الأصل ويرجع إلى وقت يتراوح بين القرن التاسع والعاشر . تصوير تالبوت رَيس .

حـ ـ قصعة من الرى . فارسية ترجع إلى القرن الحادى عشر . كانت من قبل ضمن مجموعة ڤيچنييه Vignier بپاريس .

د ـ قصعة من سالونيكا . بيزنطية ، ترجع إلى القرن الثالث عشر . كانت من قبل ضمن مجموعة مالون بپاريس .

لوحة ١١

ا ـ نسيج من الحرير . بيزنطى ، يرجع إلى القرن الثامن ، من موزاك . محفوظ بمتحف النسيج بمدينة ليون . أمام ص ٨٠

هذه القطعة ـ فى الغالب ـ إحدى قطع النسيج التى أهداها قسطنطين الخامس (١٤٧ـ٤٥) إلى پيپن لى برف Pepin le Bref الذى أهداها بدوره إلى موزاك . ولا بد أنها نسجت على نول بيزنطى ولعل ذلك كان فى القسطنطينية حيث كانت توجد مصانع النسيج الإمبراطورية . وإن الحلة التى يرتديها الفارس [المصور على هذا النسيج] وسرواله الطويل ثم الأشرطة المتطايرة بوجه خاص ، كلها تمثل الطابع الساسانى .

ب ـ نسيج من الحرير ، (كفن القديس فيكتور) . بيزنطى يرجع إلى القرن الثامن . خزانة كاتدرائية سنس .

إن وضع التعبير الزخرفى داخل إطارات على صورة مداليات مستديرة أمر قد سبق إليه الساسانيون ، أما صورة الرجل الواقف بين وحشين فلعلها تمثل دانيال فى قفص الأسود . ولكن هذه الصورة قد اشتقت فى الأصل من تعبير جلْجامِشْ الذى ينتمى إلى

بلاد ما بين النهرين ومنها انتقل إلى الفن الساسانى حيث أخذه
عنه الفن البيزنطى .

فارس والهند بعد غزو محمود الغزنوى

الفن الإسلامي ببلاد فارس

لوحة ٣٤

ا ــ صحن عليــه طبقة من الدهان الأبيض وكتابة بالأسود ؛ من القرن العاشر ــ متحف اللوڤر . أمام ص ١٦٠

ب ــ سلطانية بيضاء ذات زخارف محفورة ؛ من القرن الثانى عشر ــ مجموعة سير ألين بارلو .

لوحة ٣٥

ا ــ طبق متعدد الألوان ، ذو زخارف محفورة ؛ من القرن الثانى عشر ــ متاحف الدولة ببرلين . « « ١٦١

ب ــ سلطانية مدهونة بطلاء فيروزى على طبقة سوداء ؛ القرن الثانى عشر ــ متحف ڤكتوريا والبرت بلندن .

لوحة ٣٦

ا ــ طبق ذو بريق معدنى من قاشان ؛ مؤرخ ٦٠٧هـ (١٢١٠م) ــ متحف فرير للفنون بواشنطون . « « ١٦٨

ب ــ إبريق مموّه بالمينا المتعددة الألوان ؛ أوائل القرن الثالث عشر ــ متحف المتروبوليتان بنيويورك .

لوحة ٣٧

ا ــ سلطانية رمادية اللون عليها زخارف بيضاء ؛ أوائل القرن الرابع عشر ــ متحف فتز ويليام . « « ١٦٩

ب ــ سلطانية مرسومة باللون الأسود تحت طلاء فيروزى من قاشان ؛ أوائل القرن الثالث عشر ــ متحف ڤكتوريا والبرت .

لوحة ٣٨

ا ـ صينية من البرونز ذات زخارف محفورة ؛ القرن الثانى عشر ـ متحف ڤكتوريا والبرت . أمام ص ١٧٢

ب ـ مبخرة من البرونز مكفتة بالنحاس ؛ القرن الثانى عشر ـ متحف الهرمتياج بلينينجراد .

لوحة ٣٩

سطل من البرونز ذو زخارف محفورة ومكفتة بالفضة والنحاس الأحمر، هراة ؛ مؤرخة ٥٥٩هـ (١١٦٣م) ـ متحف الهرمتياج . « « ١٧٣

لوحة ٤٠

ا ـ شمعدان من النحاس الأصفر ذو زخارف محفورة ومكفتة بالفضة ؛ مؤرخة ٧٠٨هـ (١٥٠٨ م) ـ مجموعة ستورا . « « ١٧٦

ب ـ طست من النحاس الأصفر ذو زخارف محفورة ومكفتة بالفضة؛ أواخر القرن الرابع عشر ـ متحف والتر للفنون ، بلتيمور .

لوحة ٤١

ا ـ صحيفة من القرآن الكريم؛ القرن ١١ ـ ١٢م ـ المتحف الأهلى بطهران. « « ١٧٧

ب ـ صحيفة من القرآن الكريم؛ كتبت فى الموصل عام ١٣١٠م للسلطان أولجايتو ـ المتحف البريطانى بلندن .

لوحة ٤٢

جلدة كتاب ولسان ذات زخارف مفرغة وزخارف مضغوطة ؛ عام ١٤٣٨ م ـ متحف طوبقابو سراى بأستانبول . « « ١٨٤

لوحة ٤٣

صحيفة مصورة من الشاهنامة ؛ أواخر القرن الخامس عشر ـ المتحف البريطانى . « « ١٨٥

لوحة ٤٤

صحيفة مصورة من المنظومات الخمسة بإمضاء بهزاد ومؤرخة ٨٩٨ هـ (١٤٩٣ م) ـ بالمتحف البريطانى . أمام ص ١٨٨

لوحة ٤٥

غلاف كتاب مرسوم باللاكيه على الجلد ؛ عام ١٥٤٠م ـ بالمتحف البريطانى . « « ١٨٩

لوحة ٤٦

ا ـ طبق مرسوم فوق الدهان حول القرن السابع عشر ـ متحف الفنون والصناعات بهامبورج . « « ١٩٢

ب ـ طبق مرسوم تحت الطلاء الأزرق، كرمان؛ القرن السابع عشر ـ متحف ڤكتوريا والبرت .

الأبسطة الإيرانية

لوحة ٤٧

ا ـ قطعة من نسيج الحرير عليها زخارف باللونين الأزرق والأصفر، القرن الثالث عشر ـ متحف المنسوجات فى كولومبيا . « « ١٩٣

ب ـ قطعة من نسيج الحرير باللونين الأحمر والأبيض مع استخدام خيوط الفضة ؛ حول القرن ١٦ ـ متحف ڤكتوريا والبرت .

لوحة ٤٨

بساط أردبيل ؛ مؤرخ ٩٤٦ هـ (١٥٣٩ م)؟ ـ بمتحف ڤكتوريا والبرت . « « ٣٠٤

لوحة ٤٩

جانب من أحد أبسطة الصيد ؛ منتصف القرن السادس عشر ـ متحف الفنون والصناعات بڤينا . « « ٣١٢

فهرس أبجدى عام

(ص)

(ط)

(و)

(ى)


Bibliotheca Alexandrina
0603102